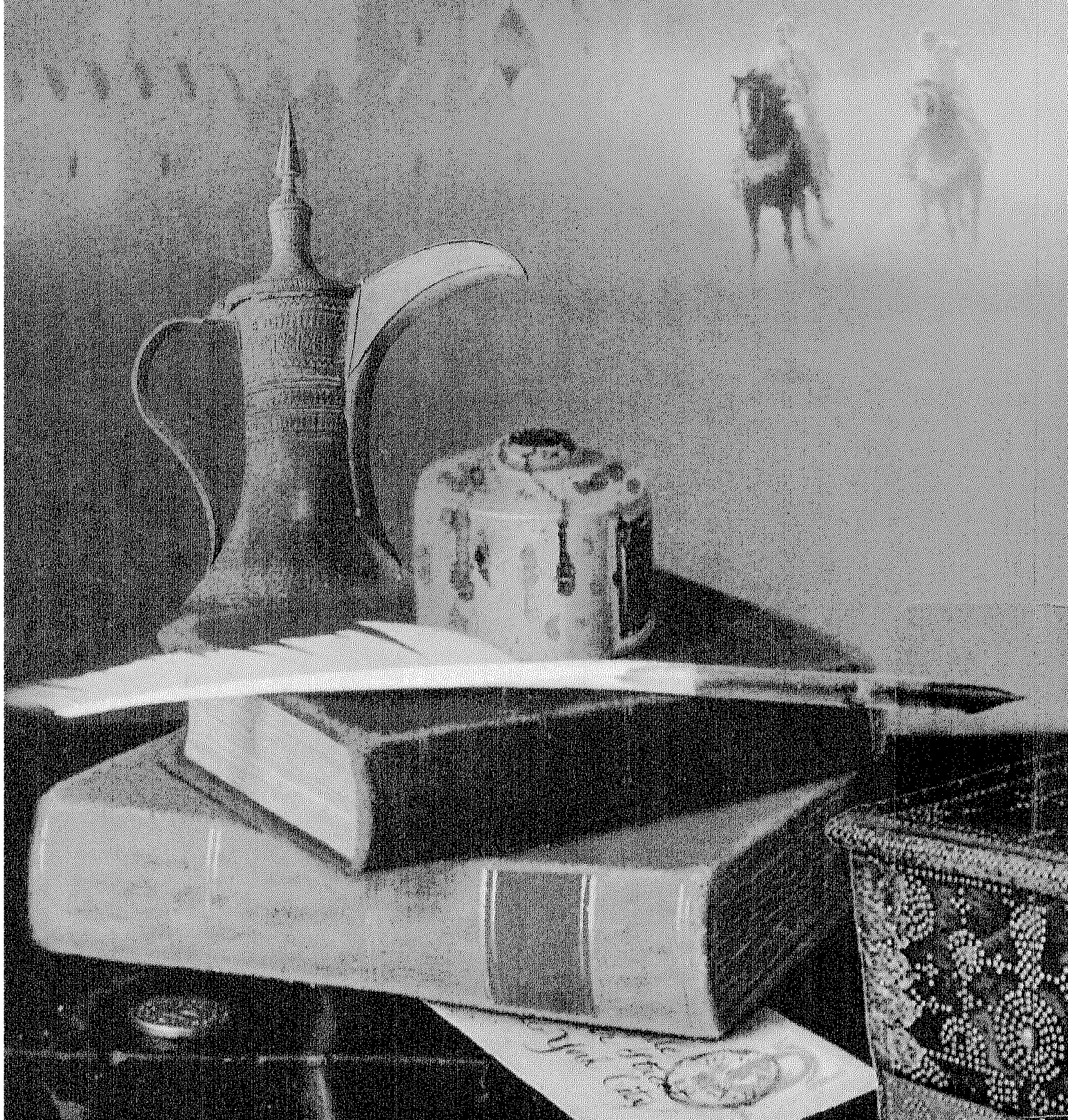
رحلة

ماكس فون أوبنهايم

من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج



رحلة

ماكس فون أوبنهايم

من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

ISBN 9948 - 05 - 003 - 7

مركز الوثائق والبحوث

هاتف: ٤٤٤٥٤٠٠-٠٢ فاكس: ٤٤٤٤٣٠٦-٠٢ ص.ب: ٥٨٨٤

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة

رحلة
ماكس فون أوبنهايم
من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج

تأليف
ماكس فون أوبنهايم

ترجمة
عبد الكريم الجلاصي

ديوان رئيس الدولة
مركز الوثائق والبحوث



الفهرس

الفصل الأول: من دير الزور إلى نصيبين

الفصل الثاني: البدو -١-

الفصل الثالث: البدو -٢-

الفصل الرابع: من مخيم الشمر إلى الموصل

الفصل السادس: رحلة على نهر دجلة إلى بغداد

الفصل السابع: بغداد

الفصل الثامن: من بغداد إلى البصرة

الفصل التاسع : الخليج الفارسي

مقدمة

الرحلة فنٌّ جميل تزخَر به كتب الأدب العالمي، ومنه «أدب الرحلات» الذي حمل في طياته أرقّ الشعِر، والذكريات النَديّة مفعمةً بالحياة والتجربة، وفي أدبنا العربي نطالع تصانيفَ حول «الرحلة في الأدب الجاهلي» والأزمنة التالية، والتاريخ الإنساني حافل برحلات الأثَريين المنقّبين الذين شَغَفتْهم الآثار حُباً، فتعلقوا بشواهد الحضارات السالفة التي تحكي للأجيال أعمالاً خوالدَ لا تبلى على الأيام، وعبقرياتُ الأمم ماثلة في مواطنها التي تُشَدُّ إليها الرِّحال؛ فيلتقي التاريخ بالفكر الجغرافي المُبدِع لتبدأ رحلة الإنسان في الزمان والمكان، ويجوب الرحالة الأرجاءَ غيرَ هيّاب ولا آبِه بالأعباء، ولكنّ رحلات المستشرقين تميّزت بأبعادٍ تُحدِّدها ثقافة وغايات سافرةٌ حيناً ومتوارية أحياناً، فالرّحالة منهم يظهر سائحاً أو باحثاً، أو عالِمَ آثار، وربما مغامراً لاكتشاف المجهول، وما أكثر الغربيين الذين استهواهمُ الشرق بِسِحره ورُوحانيته، وحضاراته وتاريخه العريق، وكانت فتنةُ ثرواته وموقعه مثار أطماع الساسة في الغرب، فأصبحت الرحلاتُ مشوبةً بأغراض كشفت الأحداث عوارها، ومسَّ أقطارَ الشرق أُوارُها، وتوالت الحملات الأوروبية بأطماعها وطغيانها.

ورحلة أوبنهايم – التي بين أيدينا – جديرة بالدراسة والتحرير لأنها جمعت خصائص نتناولها بإيجاز لعلها تُقرّب أطراف الرحلة المترامية، وتستبين سبيل تدوينها، وبيئتها بمواردها، ومآثر سكانها، وتآلف أتباع العقائد والثقافات المتباينة ليقدّم نموذجاً فريداً لمجتمعات الشرق التي تستظل الأمن في إيمان، والإيثار والاطمئنان، في مودة وصفاء مقابل ما يعمُّ الغرب من أَثَرة وقلق وطمع تجاوز حدوده، ومادّية طاغية تركت دولَ الغرب هائمةً تستبدُّ بها القوة، هادرةً القِيمَ الإنسانية الرفيعة.

يظهر ماكس فون أوبنهايم في الرحلة حريصاً على منهجية تلتزم الزمنَ بدقة بالغة، وتعطي الوقت قيمتَه بحقّ، ويعتمد تجربته الشخصية في كتابته، وتتجلى دقّته في النقل بأمانة، والإحالة إلى مصادر الرحّالين قبلَه، وتصويب لمثالبهم، وترجيح لآراء بعضهم بأدلة جليّة، ووجهةِ نظر سائغة، ومرويات سابغة.

أما وصفه للطبيعة، وطبائع الناس وعاداتهم، ووسائل عيشهم فأجملُ منه مشاركتُه بعفوية نَأَتْ به عن التكلف مما يَسَّر له الوصول إلى معرفة غنيّة بالحياة ودقائقها؛ فصوّرها بفكر الباحث المؤرّخ، وأسلوبٍ أدبي يمنح القارئ متعةَ المطالعة والمثابرة، وتنقل الصورُ المبثوثة وقائعَ نابضةً بالحياة تزيد

كتاب الرحلة رونقاً وجمالاً أخاذاً رسمتْه الكلمة، وأبانتْه الصورة، والخبرة في الجمع بينهما تجعل من صاحبها رائدَ الرحلة الرواية؛ فترتوي النفس ثقافةً ومعرفةً بمناطق غنية حظيت بوصف القدماء والمُحْدَثين، ولئن كان ابن حوقل العربي قد سبق في «صورة الأرض» إلى صفة محاسنها وشمائل أهلها، فإن أوبنهايم بفكره الغربي وطرائقه قد أسهم بوَفْرة جهده، وسَعَة اطلاعه في وضع الصورة في تجليات بهية لعزة النفس وإباء البداوة، وأخلاق الفروسية، وكرم الضيافة في الأنحاء التي امتدت إليها رحلته، وهي دليل لامِراء فيه على وحدة هذه الأمة، والأواصر المتينة التي تجمع شمل أبنائها فتَحْدوهمُ الآمال في السَّراء، وتقوى به شوكتُهم في الضراء.

رحلة أوبنهايم رائعة في ربوع الجزيرة الزاهية الخضراء في بلاد الشام، وتستمر في بلاد ما بين النهرين إلى الخليج تؤرّخ لأحداث جِسام بكثير من الأمانة والدقة، وسلاسة العبارة، وكلّ ذلك لا يشغلنا عمّا انتابه من شائبة الغرب حيناً؛ فيغمز في بعض العادات والتقاليد التي ما أدرك حِكمتها، وغابت عنه أسرارها، وقد حادَ عن الحقيقة حيناً جَرْياً على عادة بني جِلدته في إطلاق عباراتهم المُجانِبة للحق نحو «الخليج الفارسي» الذي كان عربياً خالصاً في ساحلَيْه شرقاً وغرباً، ويبقى عربياً من قبلُ ومن بعدُ، ورَدّد في غير موضع مقالة «القرصنة، القراصنة» في مورد البطولات العربية الباسلة على شطآن الخليج، وردّ كيد الغزاة الأوروبيين، ودحرهم في معارك ذاقوا وبالها، ولأن العرب قالت قديماً: «أَعطِ القوس باريها» فكان أَوْلى بها صاحبُ السمو الشيخ سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة الذي فَنّدَ أباطيلهم وأسمارهم بصبر العالِم، وأناة الباحث، وتوثيقه القيّم في كتابه «خرافة القرصنة العربية في الخليج» ونشير إليه في هذا المقام لمن أراد الحق.

والترجمة من لغة الرحلة – الألمانية – تزهو بروح النص ولغته، واستدركت على المفاهيم الخاطئة، وحرّرت مواضع الشبهات بما يلزم بيانه إنصافاً وإجلاءً للحقيقة في تعليقات بين معقوفتين [ ] وهذا الكتاب هو الجزء الثاني من رحلة الدكتور ماكس فون أوبنهايم جعلناه كتاباً وحدَه لخصوصية موضوعه وعلاقته الوثيقة بمنطقة الخليج، وقدّمت للقارئ نموذجاً بديعاً من الأمانة التي التزمها مركز الوثائق والبحوث بديوان صاحب السموّ رئيس الدولة، ومنهجية رائدة لنهضته المشهودة برعاية كريمة، ومتابعة حثيثة من سمو الشيخ منصور بن زايد آل نهيان رئيس مكتب صاحب السمو رئيس الدولة؛ لتحقيق الطموحات التي وضع معالمها صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس الدولة حفظه الله.

مركز الوثائق والبحوث

الفصل الأول

من دير الزور إلى نصيبين

بلاد ما بين النهرين، العراق والجزيرة - حترا - وديان البليخ والخابور- الفرات وصلاحيته للملاحة - طرق القوافل في بلاد ما بين النهرين وعلاقتي مع الشمر رفاق السفر - الانطلاق من الدير - الصعود إلى البراري في بلاد ما بين النهرين سُوَر - نهر الخابور - صلاحيته للملاحة - الهضاب الأثرية عند الخابور رحالة سابقون في منخفض الخابور باتجاه أعالي الخابور - الهضبة الأثرية مَرْقدة سلسلة هضاب الحمّة - شدادة - عربان - تاريخ عربان - من حقول آثار عربان من عربان إلى تل الحسكة - تل طابان- تل الحسكة - تحديد المسافات- نهر الجغجغ- بين تل الحسكة ونصيبين- على امتداد منخفض الجغجغ - الوصول إلى نصيبين- كنيسة القديس يعقوب- أنقاض نصيبين، نصيبين اليوم - تاريخ نصيبين رحالة أوروبيون في نصيبين، مناظر المدينة.

بلاد ما بين النهرين

بلاد ما بين النهرين هي الأرض الممتدة شرقي سوريا ، والمحدودة من الشمال الغربي بسلسلة جبال قراجة وطور عابدين بين نهري دجلة والفرات اللذين يلتقيان عند – قرنة – في شط العرب (١) ليصبّا بعد ذلك في البحر الفارسي [الخليج العربي] .

تنقسم هذه البلاد إلى جزأين محددين جغرافياً تحديداً واضحاً ومختلفين اختلافاً تاماً، ولذلك لا يجمعهما عرب اليوم أبداً تحت تسمية موحدة. وفي العادة يطلق على الجزء الشمالي اسم «الجزيرة» وعلى الجزء الجنوبي اسم « العراق ». وتقع الحدود بين المنطقتين قريباً من خط عرض بغداد في المنطقة التي يقترب فيها النهران من بعضهما إلى مسافة أميال قليلة ليبعدا بعد ذلك عن بعضهما من جديد. ولاشك أن العراق كان قديماً من أشد المناطق خصوبة على وجه الأرض، وأكثرها استعمالاً في الزراعة، وتغطيه شبكة متكاملة من قنوات الري ومحطات المياه من جميع الأنواع .

(١) تعني كلمة "شط" في اللغة العربية نهراً كبيراً بصفة عامة. وتعني في بلاد ما بين النهرين خاصة دجلة والفرات، كما أن اسمَي "دجلة" و"الفرات" معروفان عموماً. ويكثر في العراق استعمال عبارة "شط مال بغداد" للدلالة على دجلة وعبارة "شط مال الحلة" للدلالة على الفرات.

بلاد ما بين النهرين ، العراق والجزيرة

تعود تربة العراق إلى العصر الجيولوجي الحديث بعد العصر الجليدي، وتضم أرضه منطقة بابل القديمة التي ذاع صيتها قديماً في العالم بسبب ثروتها الطبيعية، والتي كانت مهداً لحضارة ومدنية على مستوى رفيع من التطور، والتي نعتقد أنه يمكن متابعتها تاريخياً حتى الألف السادس قبل الميلاد. وقد بدأ تدهور العراق مع سوء تصرف لا مثيل له للخلفاء العباسيين*، وذلك في القرن العاشر والحادي عشر من عصرنا الحديث. وقد ساعدت الحروب الأهلية والأوبئة والفيضانات الناتجة عن تداعي محطات المياه على القضاء على العمالة النشيطة في البلاد وخراب البلاد التي كانت ذات يوم شعلة من الحضارة، في غضون قرون قليلة من الزمن. وقد تركت هجمات المغول والتتار العراق، كما تركت جل مناطق آسيا الوسطى، هباءً منثوراً. وتمثل البلاد اليوم امتداداً واسعاً من البراري، لا يتخلل قفارها المتجانسة إلا قطع صغيرة من الأراضي المغطاة بالنخيل أو النباتات البرية عند ضفاف الأنهار والبقية الباقية من القنوات. وتختلف الأوضاع في شمال بلاد ما بين النهرين - أي الجزيرة - في أصل طبيعتها.

تعتبر الجزيرة في معظمها امتداداً للحماد، ويمكن قول هذا بالتحديد بخصوص المنطقة الواقعة جنوبي خط العرض ٣٦ فتحتوي التربة في هذه المنطقة على نسب متفاوتة من الجص، ولذلك فهي غير صالحة للزراعة في معظمها، حتى لو توافرت أحسن إمكانيات الري، رغم أنه يوجد علف كافٍ للإبل والغنم في جلّ المناطق لفترة قصيرة بعد أمطار فصل الشتاء. وأقلّ المناطق خصوبة هي الجزء الأعلى من بلاد ما بين النهرين، الواقع جنوب شرقي سنجار ومنطقة الخابور حتى بغداد عند خط هيت - تكريت تقريباً. ولا شك أن عدداً من الجداول ينبع من السفح الجنوبي لجبال سنجار ويجري في البراري ، ويتزود في فصل الأمطار من المياه الآتية من الأراضي المتموجة، لكنها يبدو أنه ليس منها ما يبلغ دجلة أوالفرات، بل تتلاشى في المنخفضات حيث تكوّن بحيرات مالحة صغيرة أوكبيرة مثل سبخة تدمر، وذلك بسبب امتصاص التربة الجبسية لها. غير أنه لا بد من وجود آبار وعيون في هذا الجزء من بلاد ما بين النهرين أيضاً، أو أنه يمكن حفرها، ذلك أن البدو يجوبون المنطقة حتى في فصل الصيف كما توجد طرقات قوافل بين دجلة والفرات تسلكها قوافل النقل بين الحين والآخر في فصل الحر، رغم أن مسافاتها تستغرق عدة أيام حتى للمسافر على ظهر دابة، ومثل هذه الطرقات تربط بين تكريت وعانة وهيت، ومن هذه النقاط عبر الصحراء إلى بغداد والموصل.

* [المترجم: إن إطلاق سوء تصرّف على " الخلفاء العباسيين " غير صحيح فإنهم أسّسوا دولة العلم والثقافة والحضارة، وكانت حركة الترجمة خيرَ سبيل لتواصل الأمم وحوار الحضارات في الوقت الذي عانى الغرب فيه من الظلم وظلمات الجهل والتخلف وكان ملوك أوروبا يدفعون الجزية للخلفاء العباسيين، ولكن سوء التصرف لحقَ المتأخرين في مرحلة ضعف الدولة العباسية حين تسلَط السلاجقة وآخرون على بعض الخلفاء عند نهاية الدولة].

حترا

كانت بعض المراكز العمرانية موجودة قديماً في هذه المناطق الشبيهة بالبراري من أرض الجزيرة، إذ نجد مثلاً الآثار الرائعة لمدينة حترا (١)، هذه المدينة المهمة العجيبة التي تقع في وسط البراري الصحراوية على مسافة ثلاثة أيام فقط جنوب غربي الموصل وعلى مسافة يومين فقط غرب دجلة على خط عرض قلعة شرقاط تقريباً. وتشير الآثار المعمارية الباقية إلى أن هذا البلد كان محكوماً من سلالة محبة للفنون، عابدة للشمس، استطاعت – كما نعلم– أن تدافع عن استقلالها ضد غزوتين قام بهما الرومان ضدها، وبعد ذلك تختفي حترا تماماً من التاريخ (٢)، ويغلب على الظن أنه لا يستطيع أي شعب يمتهن الزراعة أن يعيش في هذه الربوع (٣)؛ فلا بد للمدينة أن تكون قد قامت كمركز تجاري على شاكلة تدمر حيث كانت تربط عن طريق التجارة والمواصلات بين الخليج* والعراق من ناحية، وآسيا الوسطى من ناحية أخرى، وكانت دون شك مسيطرة على طرقات القوافل في الجزيرة خارج منطقة نفوذ الروم.

أما المنطقة الواسعة بين أواسط وأسفل الخابور وبين البليخ، فلم يسبق لأي أوروبي أن زارها، وهي بذلك مجهولة تماماً من قِبَل الأوروبيين. ويغلب على الظن أن المنطقة الجنوبية من هذه البلاد تتساوى مع منطقة جنوب شرقي سنجار والخابور في الجدب. ويمكن قول مثل ذلك فيما يتعلق بالجزء الجنوبي من سهل سروج وهي الأراضي الواقعة بين البليخ وجزء الفرات الذي يجري هنا من الشمال إلى الجنوب.

(١) قارن رحلات روس الذي تعرض إلى هجوم في هذا المكان كادت عواقبه أن تكون وخيمة. مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، المجلد ٩ (١٨٣٩) ص ٤٤٣ وما يليها.
اينسوورث – المرجع نفسه – المجلد ١١ (١٨٤١) ص ١ وما يليها ثم انظر: رحلات وبحوث في آسيا الصغرى، بلاد ما بين النهرين، بلاد الكلدان وأرمينيا – لندن ١٩٤٢ المجلد الثاني ص ١٤٧ وما يليها. السيدة أن بلونت: قبائل البدو على الفرات، المجلد الثاني ص ٢٨١ وما يليها.
جاكوريل – أطلال حترا في مجلة علم الآثار باريس ١٨٩٧ ص ٣٤٣ وما يليها. اللورد ووركوورث: ملاحظات من يوميات عن تركيا الآسيوية لندن ١٨٩٨ ص ٢٠٩ وما يليها.

(٢) حاصر الامبراطور ترايان (١١٧م) والامبراطور سبتيموس سيفيروس (٢٠٠م) المدينة لكنهما اضطرا إلى التراجع بعد معارك دامية. وعندما تراجعت الجيوش الرومانية هاربة سنة ٣٦٣م تحت قيادة يوفيان، بعد وفاة الامبراطور يوليانوس، وعبرت الفرات عند – دور – مخترقة براري بلاد ما بين النهرين، قاصدة الحدود الرومانية، وجدت مدينة حترا خاوية على عروشها. ذلك أن ملك الفرس سابور الأول (٢٤٠ – ٢٧١) كان قد دمرها قبل ذلك بقرن من الزمن.

(٣) تكرم الأب شيل وأخبرني عند لقائنا بمناسبة مؤتمر المستشرقين في باريس سنة ١٨٩٧ أنه توجد آثار قنوات تحت الأرض، على مسافة قريبة شمال حترا. غير أن جاكوريل يؤكد أنه لم يلاحظ آثار قنوات عند أطلال حترا نفسها (المرجع المذكور ص ٣٥١)، ويذكر تقرير شاهد العيان أميانوس مارسلينوس (الكتاب ٢٥ الفصل ٨)، أن جيش يوفيان بكامله كان قادراً على التزود بالمياه العذبة طوال فصل الصيف في حترا في القرن الرابع للميلاد، وحسب الأخبار المتفقة للرحالة الأوروبيين في قرننا هذا لا يوجد في حترا اليوم إلا مياه مالحة غير صالحة للاستعمال.

* [المترجم: جرت عادة المستشرقين الأوروبيين وصفه " بالفارسي " إمعاناً في إثارة النزاع حول التسمية وتحريفِ حقائق التاريخ التي تثبت عروبة ضِفتي الخليج وجُزُره، فوجدنا لزاماً وصْفه بـ " العربي " إجلاءً للحق، وإبانة للحقيقة، وليس ردّ فعل مجرّد].

ونجد على عكس ذلك أن المناطق الشمالية من بلاد ما بين النهرين إلى جانب منخفضات البليخ والخابور الرافدين الوحيدين اللذين يحتويان على مياه حتى في فصل الصيف، ويصبّان في الفرات داخل بلاد ما بين النهرين، نجد أن هذه المناطق تتمتع بخصوبة كبيرة.

وديان البليخ والخابور

يوجد مركز حضاري ضارب في القِدَم هو مدينة حران في منخفضات البليخ، على مسافة يوم من مدينة إيديسا " أورفة" الحديثة نسبياً، والتي لا تزال مزدهرة إلى اليوم. وكان الناس يعبدون إله حران حتى في آسيا الصغرى كما هي الحال في سنجرلي، وعلى بعد أميال قليلة شمال خط العرض ٣٦ درجة، توجد بقايا سد عظيم من العصور القديمة، كان دون شك يستعمل لأغراض الري. ويخبرنا علماء جغرافيا عرب أن زراعة الزيتون والقطن كانت في أوج الازدهار(١) في القرون الوسطى في منخفضات الخابور، ونحن نعرف أسماء عدة مواضع عند الخابور ذكرت بوضوح على أنها مستودعات وأسواق للقطن في ذلك العهد؛ كما تذكر التقارير التي سجلها البلاذري، ومن بعده الواقدي عن المعارك التي قام بها المجاهدون المسلمون في بلاد ما بين النهرين، تذكر عدداً كبيراً من المدن والقرى والقلاع الواقعة عند الخابور، ودون شك في منطقة الجزيرة الواقعة غربيه. وتشهد الهضاب العديدة من الأنقاض القائمة في منطقة الخابور والبليخ وشمال سنجار والتي تشبه أكوام التراب التي ينشئها الخُلْد عندما يحفر جحره، وكذلك بقايا محطات الري، تشهد بوجود مراكز عمرانية في ما مضى من العهود، وتدل على صلاحية شمال الجزيرة للزراعة. أما اليوم فتجوب الجزيرة قبائل مترحلة تكاد تكون جميعها من العرب، وقليلا ما تستغل الأرض عند المياه الجارية حتى في الصيف، ولا توجد مراكز عمرانية إلا عند أطراف جبال سنجار التي تحتل مكانة متميزة من حيث عدد سكانها(٢).

يختلف النهران – الأخَوان – اللذان يحتضنان بلاد ما بين النهرين اختلافاً جذرياً عن بعضهما بعضاً؛ ففي حين يستقبل دجلة منذ منبعه من سفوح جبال كردستان المياه الكثيرة الجارية على يساره من هذه الجبال الممتدة على مسافة بعيدة باتجاه الجنوب الشرقي، نجد أن

(١) الإصطخري في نشرة دي غويه ص ٧٤ ملاحظات: يذكر أن قطن منخفضات الخابور كان يصدّر إلى الموصل وخلاط جنوب أرمينيا.
(٢) قارن ما يتعلق بسكان سنجار اليزيديين في الفصل ٤ ، ص ١٥٤ وما يليها.

الفرات يمثل نهراً يخترق البراري منذ مسكنة حتى فلوجة بحيث يحفر مجرى عميقاً في الأراضي الصحراوية المرتفعة. أما مجراه فيختلف عرضه من مكان إلى آخر، وتزيد في ضيقه سلاسل الجبال عند مواقع متعددة عندما تقترب من النهر أو تخترقه، وتوجد عند الأماكن العريضة منه، في المناطق المتكونة من الترسبات، توجد مراكز عمرانية متناثرة على مسافة واسعة تُشبِه الواحات في شكلها.

الفرات و صلاحيته للملاحة

يصلح الفرات حتى مَسْكَنَة بل حتى بيراجيك لملاحة القوارب البخارية قليلة العمق مثلما تبين من أبحاث وأعمال العقيد شيسني وضباطه وموظفيه(١). ومنذ مغادرة تشيسني، ظل أحد القوارب الصغيرة التي جاء بها معه يغدو بانتظام من مسكنة نازلاً الفرات حتى قرنة حيث يلتقي هذا الأخير بنهر دجلة. وقد تم تعويض القارب البخاري فيما بعد بآخر اشترته الحكومة التركية بعدما كان استعماله مقرراً على نهر الراين، وكان هذا القارب يقوم برحلة ذهاب وإياب على النهر، مرة واحدة في السنة و ببطء لا يخطر على بال، وقد قطع الرحالة باولي أصيل مدينة لوبك في الثمانينيّات المسافة بين فلوجة و دير الزور على متن هذا القارب فاستغرق ذلك من ١٦ فبراير إلى ٢٢ مارس في حين إنه يمكن قطع هذه المسافة برّاً في مدة اثنَي عشر يوماً (٢). وقد توقف هذا المركب عن العمل نهائيّاً منذ مدة قصيرة بسبب خلل أصابه، ولا يوجد في النهر ما يعرقل الملاحة كالحواجز الحجرية أو العقبات الأخرى، إلا أنّ المياه ضحلة جداً في كثير من المواقع ، والنهر يغيّر مجراه بكثرة بعد فصول الأمطار في الربيع بسبب الخلجان الكثيرة، بحيث يجرف قِطعاً كاملة من الضفاف ويشكل جزراً صغيرة جديدة، ولا يمثل الفرات عقبة كبيرة أمام

(١) أسندت الحكومة الإنجليزية الهندية إلى تشيسني مهمة دراسة صلاحية نهر الفرات للملاحة بهدف رسم أقصر طريق تصل بين البحر المتوسط والخليج الفارسي والهند. وبعد رحلة استطلاعية أولى شتاء ١٨٣١ نظمت البعثة الحقيقية سنة ١٨٣٥-١٨٣٧ بعد سلسلة من التمهيدات المعقدة، بعد ذلك استكشف ضباط وموظفون إنجليزورسموا أجزاء كبيرة من شرقي بلاد ما بين النهرين.استمرت هذه الأعمال حتى سنة ١٨٦٦ دون الحصول على نتيجة إيجابية للحكومة الإنجليزية،وأهم مرجع لهذه النشاطات الإنجليزية هو كتاب تشيسني: بعثة لدراسة نهري دجلة والفرات في سنوات ١٨٣٥ إلى ١٨٣٧ لندن ١٨٥٠(جزآن) مع خريطة متميزة من الورق المقوى. وقد رجع الإنجليز فيما بعد بطريقة أخرى إلى فكرة البحث عن طريق تربط بين المتوسط والخليج الفارسي، قارن كامرون: طريقنا السريع في المستقبل، لندن ١٨٨٠ ثم أهملت الفكرة من جديد. قارن فيما بعد ص ٤٤ .

(٢) قارن منشورات جمعية الجغرافيين في لوبيك الرحلة الثانية المجلة ٢ ص ٤٩ وما يليها. هذه المعابر أو المخدات تقع خاصة عند ١- مسكنة. ٢ - سخوظة بين مسكنة و قلعة جعبر. ٣- حرقلا أو الحمام. ٤- سواقي معبر الرقة، خمس ساعات عن حرقلا. ٥ - الغطيسة، أربع ساعات عن سواقي. ٦- تل الحميدة، ست ساعات عن الغطيسة. ٧ - الحامة عند حلبية وزلبية، وهي بقايا قلاع على الفرات، ست ساعات عن تل الحميدة. ٨ - الصغير، ست ساعات عن الحامة. ٩ - دير: على متن العبارة، خمس ساعات عن الصغير. ١٠ - مجادين: على متن العبارة، إحدى عشرة ساعة عن الصغير. ١١- الجديدة تبعد ساعة شرقي الغطيسة، والخص تبعد ثلاث ساعات شرقي الجديدة، والحامة تبعد ست ساعات عن الخص.

غزوات البدو، إذ يعرف أبناء الصحراء عدداً كبيراً من المعابر يستعملونهالاجتياز النهر مع خيولهم وإبلهم بسهولة تامة، سواء سباحة أو مشياً على الأقدام، معتمدين في ذلك على ضعف التيار.

طرق القوافل في بلاد ما بين النهرين وعلاقتي مع الشمر

ليست المراكز العمرانية في بلاد ما بين النهرين في مأمن من غارات آل عنيزة المقيمين على الجانب السوري، كما أنها ليست في مأمن من غزو الشمر وغيرها من القبائل التي تعيش في بلاد ما بين النهرين.

تمرُّ طريق القوافل من دير الزور إلى بغداد بجانب نهر الفرات، وقد أنشأت الحكومة التركية على الضفة اليمنى من النهر على مسافات منتظمة مراكز عسكرية، وزوّدتها بحامية تضمن اليوم أمناً لا بأس به على هذه الطريق، كما يتواصل وجود هذه المراكز في اتجاه أعالي النهر على طريق حلب حتى مَسْكنة، وتربط بين الدير والموصل طريق قوافل تمر جنوبي سنجار، غير أنها قليلة الاستعمال حتى في الظروف العادية بسبب البدو الذين يجوبون أرجاء الجزيرة. و لم يكن عبور هذه الطريق ممكناً أثناء إقامتي هناك؛ ذلك أن قبيلة اليزيديين التي تسكن سنجار كانت في حال ثورة مُعلَنة وقتال مع الحكومة .

كنت أنوي اجتياز منطقة الجزيرة عبر أجزائها غير المعروفة أو تكاد، متخذاً في البداية الطريق المحاذية للخابور والجغجغ ثم شمالي سنجار إلى الموصل، وقد ساعدني في تحقيق ذلك ظرف كان ملائماً لي بصفة متميزة ؛ إذ تربط السكان القلائل للخابور والجغجغ والمنطقة شمالي سنجار – ما عدا مدينة نصيبين، بالإضافة إلى جُلِّ القبائل المترحلة في الجزيرة – علاقةُ تبعية مع أقوى القبائل البدوية الموجودة هناك وهم الشمر، الذين ينقسمون إلى شمر الشمال وشمر الجنوب ويجوبون كامل بلاد ما بين النهرين من أورفة إلى بغداد، وترتبط الحكومة منذ زمن قريب بعلاقة طيبة مع الشمر. وقد اتفق أثناء إقامتي في الدير أن حضر كاتب الشيخ فارس، سيد شمر الشمال، الذين كنت أُوليهم عنايتي في المرحلة الأولى، حضر وبصحبته بعض رجاله إلى المدينة للتفاوض حول الضرائب التي ينبغي على شمر الشمال دفعها إلى الحكومة. وكان الشيخ فارس قد حصل منذ مدة وجيزة على لقب «باشا» وقَبِله، فوصلني متصرف الدير رأساً برجال الشيخ فارس، وكان فريق من البعثة يتأهب للرجوع إلى ديار فارس باشا التي كانت توجد آنذاك شمالي

سنجار. فأخذ هذا الفريق على عاتقه مهمة مرافقتنا عبر نصيبين إلى حيث شيخهم. ولتعزيز المحافظة على سلامتي أرسل المتصرّف بعثة خاصة لاصطحابي إلى مخيم الشمر، على أن يسهر الشيخ فارس فيما بعد على راحتي. ولقد ضمنت بذلك حماية رجال الشيخ فارس لي من الشمر وجميع أتباعهم، ولكن ليس من الغارات المحتمَلة من قِبَل بدو آخرين خاصة منهم آل عنيزة .

رفاق السفـــر

كانت حمايتنا العسكرية تتألف من عشرين فارساً: ضابط واثني عشر رجلاً يركبون البغال، بالإضافة إلى سبعة جنود على صهوات الخيل. كان مع الجنود جملان يحملان الخيام والشعير المخصص لعلف الدواب. أما أنا فقد أخذت علفاً كافياً للدواب المخصصة للركوب أو حمل الأمتعة طوال كامل المسيرة من الدير إلى نصيبين، كما أنني تزوّدت بكمية كافية من الأغذية لي ولرجالي لمدة سبعة أيام، حيث إنه لم تكن على الطريق فرصة للتزوّد. كان ذلك يمثل في الحال الراهنة سبباً ملحاً لقطع مسافات طويلة يومياً، حتى ولو أننا لم نكن نخشى قلة المياه في طريقنا.

عند الدير سمحنا للرجال المكلّفين بالإبل والذين رافقونا منذ دمشق بتركنا والانصراف، وكان هؤلاء الرجال على درجة كبيرة من الكسل، وكانت ركابهم منهكة جدّاً، وقد شعرت بارتياح كبير للتخلص منهم. في مقابل ذلك طلبنا بوساطة المتصرف إبلاً من بدو الجبور الذين أصبحوا شبه مستقرين قرب الدير، وقَبِل الجبور تقديم هذه الخدمة على مَضَضٍ لخوفهم من فقدان ركابهم في الطريق على ما أظن، وقد حضر عندي عدد كبير من المتطوعين لمرافقتنا، من الذين كانوا منذ مدة طويلة في انتظار قافلة كبيرة ينضمون إليها على غرار ما يحدث دائماً في الأسفار عبر المناطق غير الآمنة.



أحد الجنود

ما سمحنا بمرافقتنا إلا لعدد قليل من هؤلاء الأشخاص نظراً للصعوبات التي كنا نتوقعها بسبب المؤونة، ورغم ذلك فقد نمت قافلتنا وأصبحت موكباً ضخماً، وكان من بين الرفاق الجدد ثلاثة من التجار المسلمين من المناطق المجاورة لحلب، وكانت ركابهم وأسلحتهم جيدة، وكانوا يلبسون ثياب البدو ويقصدون الموصلَ وما وراءَها لشراء الغنم (١).

غادرنا دير الزور بعد ظهر اليوم الثالث من شهر أغسطس، عازمين على عبور القافلة كافة إلى ضفة نهر الفرات الواقعة في بلاد ما بين النهرين في هذا اليوم، و لم يكن ذلك هيّناً بسبب جموح إبل الجبور. ولا ترتبط الجزيرة المذكورة آنفاً والواقعة قبالة الدير إلا بالضفة الواقعة في سوريا وذلك عن طريق جسر. أما الفرع الشرقي لنهر الفرات والذي يبلغ عرضه ثلاثة أضعاف الفرع الغربي الذي يفصل الجزيرة عن ضفة بلاد ما بين النهرين، ويبلغ نصف عرض نهر الراين عند مدينة كولونيا، فكان يتعين علينا اجتيازه على متن مركب يشبه العبارة، لا يستطيع حمل أكثر من خمس أو ست دوابّ محمّلة بالأمتعة في الوقت نفسه. يعبر أهل البلد في العادة سباحة مستعينين بِقِربة من جلد الغنم أو الماعز، حيث يحمل الرجال ملابسهم على رؤوسهم في شكل صرة، أما النساء فليس من عاداتهن خلع الرداء الأزرق الذي يرتدينه.

استغرق عبور قافلتنا وعبور رفاقنا وركابهم عدة ساعات، ولما وصلنا إلى ضفة بلاد ما بين النهرين افتقدنا طبّاخنا وكان مسيحياً أرمينياً من ماردين، وقد أرسل إلينا مع صديق له يخبرنا أنه في حلّ من التزاماته نحونا، ولذلك سيبقى في الدير ويفتح مقهى، ولا أعلم إذا كان لقاؤه مع بعض بني جنسه قد أحدث له هذه الفكرة المغرية أم الخوف من مواصلة المسير!! لقد أصابنا استياء كبير من هذا التحوّل المفاجئ وهدّدنا - للمحافظة على خدمات المطبخ - بإجراءات صارمة جعلت الهارب من الركب يتذكّر أخيراً التزاماته ويعود آسفاً إلى القافلة قبيل الانطلاق النهائي، وقد كان عقابه يتمثل في أنه عليه من الآن فصاعداً أن يتداول الركوب على حمار اشتريناه في الدير ببضعة مجيدي * أو على جمل الأمتعة، الأمر الذي خدش كبرياءه إلى حدّ كبير .

(١) كان الناس إلى أمد قريب يمارسون تصدير الغنم من بلاد ما بين النهرين وكردستان إلى سوريا ومنها إلى مصر، أما اليوم فقد أصبح استيراد الغنم ممنوعاً في مصر.

* [المترجم: تنسب هذه العملة إلى السلطان العثماني عبد المجيد، وكانت متداولة آنذاك، ولعل جمعها مجيديات].

الصعود إلى البراري في بلاد ما بين النهرين

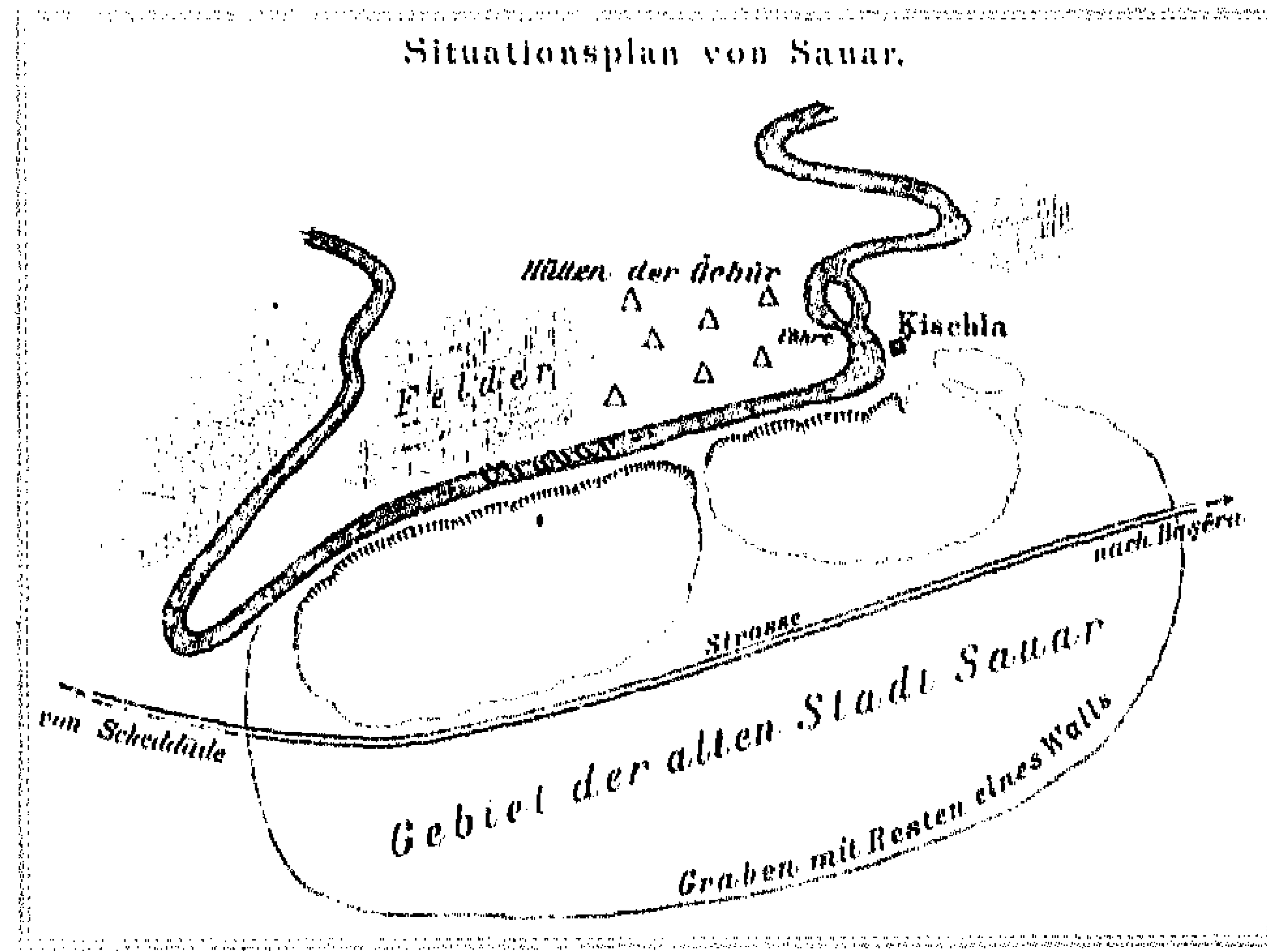
غادرنا الموضع الذي خيّمنا فيه عند الفرات صباحَ اليوم التالي، الرابع من أغسطس بكثير من الصعوبات. وكان السبب في ذلك أن رجال الجبور مثل إبلهم تماماً تلك التي غادرت مراعيها منذ قليل لم يكونوا متعودين نقل الخيام والطاولات والكراسي والصناديق الصغيرة وغير ذلك، وكانت العادة أن حمل الإبل يتمثل في كيسين أو لفّتين أو صندوقين متساويين في الثقل مشدودين إلى بعضهما بحبال. في أول الأمر زعم رجال الجبور أن أمتعتنا ثقيلة جداً، رغم أنها لم تكن تتجاوز نصف ما اعتادت إبل النقل حمله من أثقال، وكانوا لا ينفكّون يتنازعون الأمتعة في جلبة كبيرة، حيث إن كلاً منهم كان يرغب في انتقاء الأمتعة الأخف، وما كانوا ليثوبوا إلى رشدهم إلا عندما نتدخل في الموضوع بكل حزم، حتى إن البعثة العسكرية التي ترافقنا كادت أحياناً أن تتجاوز الحدود ، ثم إن الإبل بدورها تُبدي عناداً كبيراً تماماً مثل رعاتها، حيث إن الضجيج الناتج عن تحرك الأمتعة التي تحملها يجعلها تجمح وتحاول التخلص من أثقالها. ولما تحركت القافلة أخيراً تبين – بالإضافة إلى ما سبق – أن الإبل لم تكن متعودة السير بطريقة القوافل العاجلة، حيث تربط الإبل إلى بعضها بعضاً بحبال، وتسير الواحد تلو الآخر في وتيرة منتظمة هادئة؛ بل إنها كانت تتحرك بحرية ويحاول كل منها السير في المقدمة مترصداً أي فرصة للوقوف والعودة إلى الوراء، الأمر الذي تسبب في إبطاء شديد لوتيرة السير. أما عندما استقر النظام، فقد بلغ الموكب المتكوّن من حيوانات مستريحة سرعة عادية وهي من أربعة إلى أربعة كيلومترات ونصف في الساعة، في حين كنا نحن الفرسان نقطع ستة كيلومترات في الساعة .

كان علينا أن نبلغ مساء هذا اليوم "سُوَر" الواقعة عند الخابور، ونصل بذلك إلى نقطة مياه. وحيث إن الارتحال الفعلي لم يتم إلا في الساعة العاشرة والربع فإننا كنا بصدد اجتياز مرحلة شاقة من السير. قطعنا نصف الساعة الأولى باتجاه الشرق والشمال الشرقي حتى اجتزنا منطقة التربة الجصية في منخفض النهر، وبلغنا السهل المرتفع لبراري بلاد ما بين النهرين. ظللنا مدة من الزمن مشرفين على مرتفعين في هيئة الجبل وهما تل حجيف الشام على الضفة اليمنى و تل حجيف الجزيرة على الضفة اليسرى لنهر الفرات. ثم حططنا رحالنا الساعةَ الواحدةَ عند نقطة التقاء مياه الفرات والخابور حيث يكون حجيف الجزيرة على الجانب الشمالي الغربي

منا، ثم استأنفنا السير الساعةَ الثالثةَ والنصف، وما لبثنا أن التقينا بقافلة من البقارة [١] كانت تتوجه نحو الفرات، وتضم النساء والأطفال والخيام وقطعان الغنم.

سُـوَر

أخبرتنا القافلة أنها التقت منذ ساعة من الزمن بحملة غزو للشمر على آل عنيزة سلبت منها زادها من الماء، وبعد ذلك بقليل التقينا مرة أخرى بمجموعة من البقارة كانت كسابقتها في طريقها إلى الفرات، وشاهدت قبل ذلك بقليل عدداً من فرسان آل عنيزة ؛ إذن فهؤلاء هم أعداء الشمر، ومسيرتهم نحو الشمال الشرقي كانت تشير إلى توجههم مثلنا نحو الخابور، الأمر الذي جعل رفاقنا في القافلة يُضاعفون الانتباه .



مخطط سور

عندما واصلنا سيرَنا على السهل المرتفع بلغنا في الساعة السابعة والنصف منطقةً واسعة جرداء تحتوي عدة مجارٍ للمياه المالحة التي نضبت الآن، والتي أعطت لهذه المنطقة اسمها: المالحة، وفي الساعة التاسعة والربع مساء توقفنا في الوقت نفسه مع قافلتنا على حافة وادي الخابور، أمام المدينة الأثرية : سُوَر * .

(١) يدفع البقارة في هذه المنطقة الخوّة إلى الشمر، قارن بما يرد في الفصل ٢، ص٧٣.

* [المترجم: وردت في الأصل الألماني مكتوبة باللغة العربية على النحو التالي: سوأر].

تشكل هضبة سُوَر الركامية مستطيلاً يمتد من الشمال إلى الجنوب، عرضه نحو مائة وخمسين خطوة وطوله بين مائة وخمسين ومائتي خطوة .

[نهر] الخابور

تقع أعلى نقطة في الطرف الشمالي و تنخفض الهضبة في اتجاه الجنوب، ويتخللها انخفاض يمتد من الشرق إلى الغرب بحيث يقسمها إلى جزأين . وقد أجريت حفريات لا أهمية لها على السطح، ويغلب على الظن أنها هي نفسها التي ذكرها زاخاو(١)، وقد تم أثناء ذلك كشف بنايات مشيدة من قوالب الطين المثبتة بعجين الجص ، ويرجع عهد بقايا المباني التي تم كشفها إلى اليوم إلى العهد العربي على الأرجح، غير أنه لا يستبعد أن توجد تحت أنقاض هذه المدينة التي ترجع إلى العصور العربية الوسطى أنقاض مدينة ترجع إلى فترة ما قبل الإسلام . وتغطي قطع من الخزف مطلية في معظمها بمادة لـمّاعة زرقاء أو خضراء مساحات واسعة من الأرض. ويغلب على الظن أن الهضبة كانت تمثل قلعة المدينة، في حين أن منطقة المدينة الحقيقية كانت تمتد نحو الغرب على شكل نصف دائرة منخفضة متجهة إلى السهل، و كان يحيط بالمدينة جدار لا تزال بقاياه المغطاة بالطين واضحة المعالم إلى اليوم. ويجري الخابور طوال الجانب الشرقي للهضبة ، وتوجد قشلة * داخل حقل الآثار على مقربة من النهر، يتمركز فيها عدد من الجنود، وتقوم على الجانب الثاني من الخابور زهاء خمسة عشر كوخاً من القصب والأغصان تابعة للجبور، وعلى مقربة من ذلك توجد حقول زراعية، صنعت لريِّها ناعورة كبيرة واقعة في الشمال على مقربة من القرية .

ويبلغ عرض الخابور عند سُوَر من خمسة وعشرين إلى ثلاثين متراً، وقد يكون هذا متوسط عرض النهر من هنا فصاعداً حتى نقطة التقائه بالجغجغ. والخابور هو الرافد الوحيد الذي يصب في الفرات تحت مصبّ البليخ، والخابور الحقيقي الذي ينبع عند قراجه داغ –جنوب غربي ديار بكر– والذي يوجد منبعه الأصلي عند القرية القديمة التي تسمى رأس العين، يجري في أعاليه أساساً في اتجاه الجنوب الشرقي، حتى يجبره نهر الجغجغ القوي التيار والكثير المياه

....

(١) قارن زاخاو– رحلة سوريا وبلاد ما بين النهرين لايبتزيغ ١٨٨٣ م، ص ٢٩٦
* [المترجم : قشلة : كلمة تركية تعني ثكنة عسكرية أو مركز الجُنْد] .

على الانضمام إليه واتباع اتجاهه، ويقع مصبُّ الخابور في الفرات على مسافة ساعة جنوب سُوَر عند آثار القلعة الرومانية القديمة " سيرسيزيوم" التي لا تبعد بدورها عن الدير إلا مسافة يوم واحد، أما روافد الخابور جنوب مصبّ الجغجغ فلا نذكر منها إلا الرافدين الكبيرين: «الحول» الذي ينشأ من سيول السبخة التي تحمل الاسم نفسه وتقع جنوب غربي سنجار و «شعيب أبو حمضة» الذي يصب في الخابور شمال تل فدغام(١) .

صلاحيته للملاحة

يرجح أن يكون هذان الجدولان الوحيدين اللذين يحتويان على مياه في فصل الصيف أيضاً. و لم أتمكن في المكان عينه من الحصول على معلومات بخصوص جدولين آخرين سجلهما زاخاو في خريطته بناء على بحوثه واستفساراته، ويصبّان في الخابور قبالة تل الشدّادة وهما "دورين" و " التف "، غير أنه يمكن ملاحظة عدة أخاديد تشق السهل على جانبي النهر، قد تمثل جداول لا يستهان بحجمها في الشتاء، وحيث إن خط الفصل بين الخابور والجغجغ من ناحية ودجلة من ناحية أخرى يوجد مباشرة بالقرب من دجلة، فإن الخابور وروافده تمتص جميع مياه شمال بلاد ما بين النهرين منذ البليخ – أي جبل التكتك – وحتى الموصل. ومياه الخابور غزيرة حتى في الصيف، وحتى في أشد الفصول حرارة فإنه عميق إلى درجة لا تسمح باجتيازه إلا عند معابر قليلة، وحتى في هذه المواضع فإن الماء يصل إلى ارتفاع الكتف. ولا توجد عبّارات إلا في البصيرة و سُوَر و شدّادة، وهي تتمثل في قوارب بدائية يحركها الملاح مستعيناً بحبل يثبته عند ضفتي النهر.

لم تُجرَّب صلاحية الخابور للملاحة إلا مرّة واحدة على يد العقيد تشيسني (٢) بمناسبة ركوبه نهر الفرات في التاسع عشر من مايو ١٨٣٧، أي في فصل لا يزال فيه مستوى المياه مرتفعاً؛ فقد استقل تشيسني أصغرُ قاربيه منطلقاً من الفرات إلى أعالي الخابور، ويبدو أن المحاولة باءت بالفشل، وعلى الأقل يذكر الباحث الألماني هلفر (٣) الذي رافق البعثة، أن القارب البخاري لم يكن ليبلغ إلا مسافة عشرة أميال إنجليزية في اتجاه المنبع ، أما صعود الخابور منذ المنطقة القريبة

(١) قارون زاخاو– رحلة سوريا وبلاد ما بين النهرين، لابيتريغ ١٨٨٣ م، ص٢٩٦.
(٢) قارن تشيسني – تقارير بعثة الفرات لندن ١٨٦٨ م، ص ٢٥٠.
(٣) قارن يوهان فلهلم هلفر– رحلات في آسيا الصغرى والهند، الكونتسة باولينه نوستيتز، لايبتزيغ ١٨٧٣م، ص ٢٤٤ .

شمال سُوَر فإنه يبدو فعلاً غير ممكن، حيث إنه يوجد في ذلك الموضع وعدة مواضع أخرى شمالاً عدد من الشلالات والمساطب الصخرية يصعب كثيراً تجنبها، ولا توجد [النباتات] على الضفاف إلا في بعض المواضع المنخفضة، حيث لا يكاد المرء يعثر على حطب للنار أو علف للإبل. و لم أجد في أي موضع إثباتاً لمقولة لايارد (١): «إن الضفاف عامرة بالأشجار»، إلا أنه لا يستبعد أن يكون قد تم القضاء منذ ذلك الحين على كامل الثروة النباتية التي كانت موجودة على الخابور، مثلما حدث فعلاً في غير هذا المكان كأسفل نهر دجلة مثلاً.

الهضاب الأثرية عند الخابـــور

أما فيما عدا ذلك فقد كان منخفض الخابور زمن عبورنا مقفراً خالياً من النبات إلا بعض المواضع التي رأينا فيها خيام بدو أو أكواخاً من الحَلْفاء يسهل نقلها، كما رأينا بعض الأراضي التي يمكن استثمارها في الفصول الدافئة.

نجد في مقابل ذلك الهضابَ الأثرية عند الخابور عديدةً بدرجة لا يمكن معها تعريف المناطق التي ذكرها المؤلفون العرب القدماء إلا بعد دراسة عميقة منفردة خاصة، وإن الأسماء لا توحي اليوم بالتعابير القديمة إلا في حالات قليلة جداً، وتختلف هضاب الأنقاض عن غيرها من الهضاب الطبيعية التي تشترك معها في التسمية العربية " تلّ " في أن سطحها يكسوه كثير من الشَقَف* المطلية وغير المطلية بمادة لامعة، كما تحيط بها أرض تعلو وتنخفض فوقها أكوام الأنقاض، وقد تتكدس في التلّ الواحد عند منخفض الخابور بقايا أنقاض لمدن ترجع إلى عصور تفصلها قرون من الزمن عن بعضها،كالعصر الآشوري البابلي والعصر الروماني البيزنطي والعصر العربي في القرون الوسطى. ولقد أخذت تلال الأنقاض شكلها الحالي؛ لأن المباني المهمة وحدَها كالمعبد والقلعة تتركب في جزئها الأساسي وحده من مادة صلبة، في حين أن بقية أجزاء المباني والمنازل الأخرى كما هي الحال إلى اليوم في مدن الواحات الصحراوية يتم صنعها من قوالب الطوب الخفيف التي تلينها الأمطار بعد دمار المدينة، فتتداعى لتغطي الجزء الصلب من الجدران بطبقة من التراب. وهكذا أنشئت قلاع المدن الجديدة في عهود لاحقة فوق الطبقات المتكونة بهذه الطريقة، ثم تكرر ذلك المرّة تلو الأخرى (٢).

---

(١) قارن لايارد – نينوى وبابل، ترجمة تسنكر لابيتزيغ ص ٢٣٠ .

(٢) يقدم لنا تلّ أنقاض الحيسي الذي اكتشفه ودرسه مؤخراً الإنجليزي فلندرز بتري والأمريكي بليس في جنوب فلسطين مثالاً مهمّاً لتراكم البناء عبر العصور المختلفة، ويبدو أنه يمثل مدينة لاخيش القديمة، وقد تبيّن أنّ هذا التلّ يشمل أنقاض ما لا يقل عن ثماني أو عشر مدن من مختلف العصور.

* [المترجم: الشَقَف: الخزف، أو مكَسَّرُه، مفردها: شقفة].

تعدّ المناطق المحيطة بالخابور للأسف من أخطر أجزاء تركيا الواقعة في آسيا، حيث إن النهر يحتوي على المياه بصفة متواصلة ولذلك يساعد على حملات غزو كثيرة في جميع فصول السنة. كان أوّل رجل أوروبي في هذا القرن أخبرنا عن شهادة عيان للخابور هو هنري لايارد الباحث المعروف عن نينوى، والذي عيّن فيما بعد سفيراً لإنجلترا في القسطنطينية، وكانت وفاته في سبتمبر ١٨٩٤، ولقد قام هذا الرجل النشيط بحفريات في عربان سنة ١٨٥٠ وخاصّة حين كان قادماً من الموصل إلا أنه لم يزر الخابور إلا في المنطقة الممتدة من تل كوكب إلى تل شمساني .

رحّالة سابقون في منخفض الخابور، باتجاه أعالي الخابور

عبر " البلانتس "(١) الذين تفتقر معلوماتهم الجغرافية دائما إلى الدقة، عبروا النهر أثناء رحلتهم في بلاد ما بين النهرين سنة ١٨٧٨عند تلّ فدغام على متن عبّارة خشبية صغيرة صنعها الشمر. وكان الأستاذ زاخاو ينوي دراسة الخابور حتى تل كوكب شتاء عام ١٨٨٠، إلا أنه عدل عن ذلك بسبب الظروف غير الملائمة الناتجة عن البرد الشديد وتساقط الثلوج، الأمر الذي يعدّ ظاهرة نادرة في هذه البقاع، وقد غادر النهر عند سُوَر بعدما تبعه من سرسيزيوم ليبلغ الموصل جنوبي سنجار(٢). وصل الأستاذ موريتز والمهندس المعماري الدكتور كولدواي سنة ١٨٨٧، أثناء عودتهما من بابل حيث أجريا حفريات، وصلا إلى الخابور شمالي عربان، وكانا قادمين من الموصل ، ثم تبعا النهر حتى مصبّه (٣). أما مجرى الجغجغ جنوب نصيبين فإنه لم يستكشف البتة، و لم يشاهد لايارد إلا مصبّه في الخابور عند تل كوكب، أما هاوسكنشت فقد عبره مرة واحدة عند أسفل مجراه.

غادرنا سُوَر صباح الخامس من شهر أغسطس الساعة العاشرة والربع لصعود مجرى الخابور، وما لبث النهر أن أخذ منعرجاً واسعاً إلى الشرق في حين واصلنا نحن سيرنا عبر السهول المقفرة في اتجاه الشمال والشمال الشرقي أولاً ثم في اتجاه الشمال، و مررنا في الساعة الثانية

---

(١) انظر المرجع المذكور المجلد الأول، ص ٣٤٠.

(٢) يقول زاخاو في المرجع المذكور ص ٢٩٤: " في هذه الظروف كان علي أن أعدل آسفاً عن خطتي، وإن شرحي المفصل للأسباب التي دفعتني إلى ذلك يرمي إلى تبرير موقفي مسبقاً تجاه ما قد يصيبني من اللوم ، وكأنني فرّطت دون سبب قاهر في فرصة دراسة المجرى الأوسط والأسفل لنهر الخابور غير المعروفين إلا قليلاً، هذه الفرصة التي قد لا تتاح عن قريب مرة أخرى لرحالة ألماني".

(٣) لا يوجد إلى اليوم إلا جزء من الطريق على خريطة موريتز للدراسة الأرضية القديمة "طوبوغرافيا " لباليرينا، و لم ينشر الرحّالان العالِمان أيَّ عمل عن نتائج بحوثهما للأسف إلى اليوم.

عشرة بقرية يسكنها العقيدات وتقع على يسار الخابور، وتصنع أكواخها من الأغصان وأنسجة الحَلْفاء، كما أننا شاهدنا مراراً مثل هذه القرى والأكواخ أثناء سيرنا على الضفة اليسرى للنهر. بلغنا في الواحدة ظهراً تل الحصين الذي يقوم قبالته على الجانب الشرقي للخابور تل الشيخ أحمد ، وتل الحصين هضبة من الأنقاض طولها زهاء مائة وخمسين متراً، تمتد من الشرق إلى الغرب، وعرضها قرابة أربعين متراً، وارتفاعها بين العشرة والاثنَي عشر متراً. ويشير ارتفاع الأرض جانب الهضبة الغربي إلى أن مدينة قليلة الاتساع كانت تتاخمها. كما أن هضبة تلّ الشيخ أحمد المقابلة تغطي بقايا مدينة سابقة دون شك .

الهضبة الأثرية مرقـــدة

شاهدنا حياً كبيراً لقبيلة العقيدات أيضاً على هذا التل ، وأخذنا استراحة من الواحدة وخمس وثلاثين دقيقة إلى الرابعة وخمس وخمسين دقيقة عند معبر الشريعة(١). برزت من المياه جلاميد صخرية على مسافة صغيرة جنوبَ هذا الموضع تشكل جزءاً من مصطبة تعترض مجرى النهر، ثم شاهدنا في الساعة الخامسة والنصف من جديد مساكن بشرية. على يسار النهر وجدنا مرة أخرى حياً من أكواخ العقيدات الذين يعملون هنا في الزراعة لحساب فارس باشا، ولا يحصلون في الشتاء إلا على الثُمُن – جزء من ثمانية أجزاء – من المحصول مقابل عملهم، أما في الصيف فيحصلون على نصف هذه المحاصيل الثانية للسنة، ويقدّمون الباقي إلى شيخ الشمر.

عبرنا جدولاً شتوياً ناضباً في الخامسة وأربعين دقيقة لم يبق منه إلا بعض الغدران، وصفه لي أحدهم بأنه شديد الملوحة، ثم أشارت هضبة من الأنقاض من جديد إلى مدينة قديمة، وبلغنا التل الأثري الهائل لمرقدة في السادسة والنصف. ويكاد شكل التل أن يكون مربعاً وارتفاعه خمسة عشر متراً، وطول ضلعه بين المائة وخمسين والمائتَي متر. وقد نشأ دون شك على أنقاض القلعة القديمة للموضع، في حين أخذ هذا الأخير اسمه من حقل الأنقاض الممتد حوله وخاصة باتجاه الجنوب ، والذي تدل مقاييسه على أن مدينة كبيرة كانت قائمة عنده، وليس عند تل الأنقاض الذي لا يزال موجوداً إلى الآن، وتشير بقايا الجدران -التي حافظت حفاظاً جيداً على هيئتها عند النهر وفي اتجاه عمق البر - إلى عهد ازدهار متأخر في العصور الوسطى، وقد تكون هذه الأنقاض بقايا مدينة ماكسين القديمة، وتبرز داخل النهر بقايا بناء يشير إلى وجود جسر أصابه

---

(١) "الشريعة" تعني المعبر، [والمسلك في مسيل الماء ومجراه] .

الدمار، ذكر الإصطخري [١] : «إنه كان سابقاً قائماً عند ماكسين»، وعلى مرتفع تل مرقدة آثار ترجع إلى عصر حديث، فقد أرغم متصرف الدير أرسلان باشا بداية السبعينيّات من هذا القرن بدو البقّارة على بناء بيوت حجرية في هذا الموضع والاستقرار بصفة دائمة. إلا أن هذه المحاولة الإيجابية لضم سكان الخابور الرحّل إلى إطار المدنية قد فشلت فشلاً ذريعاً، فقد غادر السكان البيوت التي أنشأوها في مرقدة وغيرها من المواضع عند الخابور، بعد ذهاب أرسلان بفترة وجيزة، وهي اليوم متداعية كلياً.

سلسلة هضاب الحمة

يشاهد المرء منذ هضبة القلعة منظراً واسعاً على منخفض الخابور حتى سنجار، أما البراري التي تمتد على الجانب الغربي فتحجبها عن النظر مرتفعات بركانية مغطاة بكتل صخرية من البازلت والتي تسمى " الحمّة "، وتبدأ في الارتفاع على بعد كيلومترين جنوبَ مرقدة لتطوق كامل الوادي غربَ النهر.

غادرنا مرقدة في الثامنة وعشرين دقيقة صباح يوم الأحد السادس من أغسطس، وواصلنا التوجه إلى الشمال لنغادر النهر الذي يأخذ منعرجاً واسعاً عند هذه النقطة. كما غادرنا سلسلة الهضاب البركانية " الحمّة " الواقعة على يسارنا، وعندما تجاوزنا المدينة في الساعة العاشرة وعشر دقائق اقترب الطرف الشمالي للسلسلة الممتدة على شكل قوس من جديد من طريقنا، ويطلق العرب على هذا الموضع من السلسلة عبارة " خشم " وتعني أنفاً أو نتوءاً.

رأينا في الساعة العاشرة وأربعين دقيقة على يميننا الهضبة الأثرية المسماة تل شمسانية، والتي وصل إليها لايارد في رحلته من عربان باتجاه أسفل النهر [٢]، ويضع موريتز وزاخاو الشمسانية خطأ في خرائطهما على الضفة اليسرى لنهر الخابور، وذلك لأن الهضبة تقوم على الجانب الغربي للنهر.

وتمتد سلسلة هضاب الحمة منذ " الخشم " على طريقنا إلى الشمال حتى تنتهي تماماً في الساعة العاشرة وخمسين دقيقة ، ثم ظهرت الآن عدة خيام على الجانب الشرقي تغطي الضفة

(١) قارن الاصطخري طبعة دي غويه، ص ٧٤ ملاحظات: كانت ماكسين مقراً لمعاصر الزيت، وسوقاً مزدهرة للقطن. قارن أيضاً ابن خرداذبه ص ٩٦، وأبو الفداء، ص ٢٣٨ .

(٢) لايارد – المرجع المذكور ص ٢٧: يكتب – شمشاني، وأما أنا فقد حصلت على الكتابة المذكورة في النص، وكتب ياقوت مثله في المجلد الثالث، ص ٣١٩.

على مسافة ثلاثة أرباع الساعة في اتجاه الشمال، تملكها قبيلة منفصلة من آل عنيزة وهي فرع من " ابن هذّال " ، الذي انقطع عن قومه وجاء إلى بلاد ما بين النهرين بعد إذن من الشيخ فارس.

بلغنا تل الفدغم " الفدغمى " على يميننا في الساعة الحادية عشرة والنصف، وهو دون شك هضبة أنقاض قديمة. و ظهرت تلول المعزة الثلاثة على اليسار – أي الجانب الغربي من طريقنا– والتي تمتد من الجنوب إلى الشمال خلف أطراف سلسلة الحمّة، وأصبحت الأرض متموجة من جديد قرابة الساعة الثانية عشرة .

شـدّادة

وأشار مرافقونا من هنا إلى هضبة تقع على ما يبدو شرقَ شدادة وتسمى جبسة *، ولقد بلغنا في الواحدة وثلاثة أرباع الساعة بمجموعة الهضاب الأثرية الكبيرة لشدّادة التي كنا قد شاهدناها قبل ساعتين، وتمتد الهضبة الرئيسة من الجنوب إلى الشمال، ويبلغ ارتفاعها ستة أمتار، وعرضها بين خمسين وستين متراً، يضيق قليلاً في الجزء الجنوبي، وتعلو المرتفع الصغير عند طرفه الشمالي قمة كروية لا يقل ارتفاعها عن خمسة عشر متراً، و يوجد مرتفع واسع في مقدمة الطرف الجنوبي، يكاد يدرك أطراف الخابور، وكانت المدينة القديمة تمتد إلى الغرب والجنوب الغربي لهذه الهضبة كما يؤكد ذلك عدد من أكوام الأنقاض. أجريت حفريات في الجزء الجنوبي من تل شدّادة الذي تتوج قشلة حديثة قمته، وكشفت الحفريات عن مبان صغيرة مبنية من قوالب الطين الخفيف الصلب. ويرجح أن هذه الحفريات قد أحدثت للحصول على المواد اللازمة لبناء القشلة ، ولاحظنا أن حصن شدّادة أوسع من نظائره في عين البيضاء وبير قباقيب وسُوَر، وقد كان على شكل مستطيل مفتوح في اتجاه الجنوب تكفي مساكنه وإسطبلاته (١) لإيواء بضع عشرات من الجنود. وقد أنشأ الجندرمة (٢) عند سفح التل بينه وبين النهر مركزاً أقاموا فيه مع عائلاتهم وقطعان الغنم، وكانت مساكنهم تماثل أكواخ الحلفاء (٣) سبابيط (ج) سيباط(٤) التي يسكنها بدو الخابور. وكانت الجدران تتمثل في حصائر من القصب مشدودة إلى بعضها،

* [المترجم: ورد هذا الاسم في النص الأصلي الألماني مكتوباً باللغة العربية كما يلي: شبسة] .

(١) [المترجم: إسطبلات جمع مفرده إسطبل ومعناها حظيرة الخيل].

(٢) [المترجم: الجندرمة كلمة أصلها فرنسي وتعني شرطة المناطق الريفية].

(٣) [المترجم: الحلفاء نبت أطرافه محددة كأنها سعف النخل والخوص، ينبت في مغايض المياه] .

(٤) [المترجم: هكذا وردت الكتابة باللغة العربية في النص الألماني، وهي في العربية: ساباط ج سوابيط و ساباطات: سقيفة بين دارين بينهما ممرٌّ نافذ، انظر المعجم مادة «سَبِطَ»].

يسهل لفُّها ونقلها عند الحاجة. وكان السقف مصنوعاً من الحَلْفاء ومن أغصان الأشجار أو من أنسجة الخيام القديمة، وقريباً من هضبة الآثار، على مسافة قليلة من المكان الذي يصب عنده رافد قادم من الغرب في نهر الخابورفي الصيف، وجدنا مرة أخرى عبّارة (١) تشبه التي وجدناها في سور إلا أنها في حال أسوأ، وتوجد شمال القشلة ناعورة تابعة لرجال من البقّارة يقيمون في منازل على الضفة اليسرى للنهر.

نظراً لأهميتها كمحطة على طريق القوافل بين دير الزور والموصل، فإن شدّادة هي مركز إداري تابع لمتصرف الدير، وفي هذا المكان تقطع الطريق العامة نهر الخابور، وتتجه في خط مستقيم إلى الطرف الغربي لجبل سنجار، وتمتد على سفحه الجنوبي حتى الموصل .

كنا نريد أن نسلك طريقاً أخرى أقلّ استعمالاً من السابقة تمتد إلى جانب مجرى الخابور على ضفته اليمنى حتى مصبّ الجغجغ، وتسير إلى جانبه حتى نصيبين، حيث تتحد مع الطريق الكبيرة التي تربط بين ديار بكر والموصل .

كان من بين مهام مدير شدّادة الإشراف على بدو الخابور، وقد كان تحت إمرته جنود يتراوح عددهم بين الخمسة عشر والعشرين جندياً في الفترة التي كنت هناك، ولا شك أن هذا عدد كبير مقارنة بعدد أفراد حاميات قشلات* أخرى. وقد نشب خلاف بين هؤلاء «الضابطية» والجنود الذين يرافقونني؛ لأن «الضابطية» استاءوا من محاولات مرافقيّ العسكريين الحصول على الزاد من غذاء وعلف للبهائم. كان هؤلاء يرجون العثور على كميات كافية من الشعير والأغذية في شدادة لاستكمال مؤونتهم الضئيلة نسبياً، إلا أن أملهم في ذلك خاب، فإن كنا قد عانينا من نقص الماء في الصحراء السورية فإن الزاد بدأ ينفد الآن من الناس والبهائم، حيث أصبح يستحيل علينا المكوث مدة طويلة على الطريق ، و لم يتمكن رفاقي من استكمال زادهم في المحطة التالية « الحسكة ».

كان المدير ينوي الذهاب إلى الموصل لقضاء عطلة مَرَضية هناك، فرحّب بانتهاز الفرصة للانضمام إلى قافلتنا، وكانت الطريق العادية التي تمر جنوب سنجار، وتؤدي إلى الموصل مقطوعة بسبب ما ذكرناه عن الحرب الناشبة مع اليزيديين. وإن السفرعبر البراري في الشمال لم يكن

(١) العبّارة: مركب يستعمل لعبور النهر .

*[المترجم : قشلات جمع مفرده قشلة : مركز الجُنْد أو ثكنة عسكرية] .

خالياً من الأخطار على المسافر الوحيد، وحيث إن المدير تأخّر في ترتيب أموره فقد غادر بعدنا، غير أنه أدركنا في مخيم الشيخ فارس بعد أن اجتزنا نصيبين، واستمرّ في قافلتنا حتى بلغنا الموصل.

غادرنا شدّادة صباح اليوم التالي الساعةَ السابعة وعشرين دقيقة، وكانت السهول الواسعة التي يسميها البدو «صحراء بعاج» تمتد على يسارنا، وحين قاربت الساعة الثامنة والنصف شاهدنا على يمين الطريق، على الضفة الغربية من النهر والتي كنا نسير عليها، قرية متوسطة الحجم تابعة لقبيلة البقّارة، والتي زعموا أنها تضم مائتَي خيمة وكوخ وتحمل اسم "الغرقانة"، وهو الاسم نفسه الذي يحمله تلّ يقع إلى يميننا على الضفة الشرقية للنهر شاهدناه في التاسعة وخمس وعشرين دقيقة، وفي العاشرة وعشرين دقيقة بلغنا تلّ مسيطير الذي يقع على الجانب الشرقي الأيسر للنهر، وتمتد شرق ذلك سلسلة هضاب من الغرب إلى الشرق في اتجاه الخابور.

عربــان

وقعت أنظارنا في العاشرة والنصف لأول مرة على تلّ كوكب القائم أمامنا على مسافة بعيدة في اتجاه الشمال، وصلنا بعد نصف ساعة إلى عربان الذي يسميه البدو عجابة [1]. تختفي بقايا عربان تحت هضاب مختلفة يقع أهمها مباشرة على نهر الخابور، فقد جرف النهر جزءاً منها، فأخذ الجانب الواقع على النهر هيئة الجدار العمودي الذي نلاحظ عليه معالم واضحة لحيطان قديمة صنعت من القوالب الخفيفة، وهنا حفر لايارد حفراً أفقية على هيئة الأنابيب، وكشف بذلك عن أشياء ذات أهمية بالغة، وفي مقدمتها عدة ثيران مجنحة ذات رؤوس بشرية على شاكلة ما يوجد في نينوى غير أنها في طور قليل التهذيب والتثقيف.



ثور عربان، نقلاً عن لايارد

(١) يذكر زاخاو في المراجع المشار إليها، ص ٢٩٦: خطأ "عجاجة". وتشير الطريق التي استكشفها زاخاو من تل شدّادة إلى حرّان إلى عجاجة أيضا كمحطة ثالثة على الطريق، ويجوز أن تكون منطبقة على عجابة أو عربان عند الخابور، وعندئذ يجب البحث عن المحطات التي تتخلل هذه المسافة وهي: تل مرفيه وعين السحل في وادي الخابور.

ولا يزال أحد هذه الثيران قائماً إلى اليوم في المكان نفسه، موجهاً رأسه إلى داخل النفق، ويبلغ ارتفاعه متراً وربعاً[١]، وتتركب اللوحة الحجرية التي نحت عليها من مادة ترابية لينة يبلغ عرضها خمسة وعشرين سنتمتراً، و لم يعثر لايارد على كتابات مهمة تُنبئنا عن عصر الازدهار وعن الاسم القديم والتاريخ القديم للموضع، ويرى فينكلر[٢] أن هذه الآثار ترجع إلى حضارة قامت في بلاد ما بين النهرين قبل العهد الآشوري، غير أنها كانت على ارتباط وثيق بالحضارة البابلية. وقرابة ألف وخمسمائة سنة قبل الميلاد نزحت قبائل مترحلة من أصل آرامي، وأخضعت البلاد كلها شيئاً فشيئاً. و لم يتم ضم منطقة الخابور إلى المملكة الآشورية إلا في النصف الأول من القرن التاسع قبل الميلاد بعد غزو عابر قام به الفراعنة. ولا يوجد اسم «عربان» بين أسماء المدن التي يذكرها الملوك الآشوريون، إلا أنه لا مجال للشك في أن إحدى تلك المدن هي عربان[٣]. وقد بقيت المدينة قائمة بعد العهد الآشوري -بلا ريب- وإن لم نسمع عنها إلا بعد بداية العصر الميلادي. وقد يكون الإسكندر الأكبر المقدوني قد لامس موضع المدينة حيث إن حملته من سوريا إلى بلاد فارس قد مرت بالتأكيد عبر وادي الخابور، وإن لم يذكر مؤرّخوه شيئاً من هذا القبيل، وكان بطليموس أول من ذكرها من جديد. وقد نالت «عربان» أواخرَ العهد الروماني أهمية عسكرية متميزة كمحطة أساسية على خط الحدود مع مملكة البارتهر "بارتر". وكان هذا الخط يتشكل من الخابور والجغجغ، وكان مركزه في الشمال نصيبين وفي الجنوب سيرسيزيوم ، وقد ورد فيNotitia dignitatum[٤] وبروكوب [٥] أن وادي الخابوركان في ذلك العهد محصناً تحصيناً منيعاً، وكانت فيه مراكز عسكرية عديدة.

وقد استولى المسلمون على عربان وجميع مدن منخفضات الخابور بطريقة سلمية [٦]، وبقيت عربان في العهد العربي أيضاً عاصمة منخفضات الخابور[٧] والمستودع الكبير للقطن.

(١) لقد نقل الثور الآخر مع عدد من الأشياء الأخرى إلى المتحف البريطاني . قارن لايارد في نينوى وبابل ترجمة تسنكر، ص ٢٠٨ وما يليها ، وهو يحمل كتابة مسمارية قصيرة تذكر أنه يعود إلى ملك اسمه موشيش – نينيب . قارن أيضاً فينكلر، تاريخ بابل وآشور، لايبتزيغ ١٨٩٢م، ص ١٥٠ .

(٢) في المرجع المذكور: ١٤٠ – ١٤٣ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٣– ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ؛ وقارن أيضاً فينكلر، بحوث عن الشرق القديم، المجموعة ١ ، ١٨٩٣ – ١٨٩٧ ص ٧٥ – ٩٧ ، ١٤٠ – ١٥٨ ، ٢٠١ – ٢٤٣ ، خاصة ٢٢٧ وما يليها ٣٨٠ – ٣٨٩ ، ٥٥١ .

(٣) قارن ماير– تاريخ العصور القديمة: الجزء الأول، شتوتغارت ١٨٨٤ م، ص ٣٣٤

(٤) نوتيسيا ديجنيتاتوم، طبعة سيك، الفصل ٣٥ و ٦٣.

(٥) بروكوب – دي أيديفيسيس – الجزء الثاني ٦.

(٦) قارن البلدسوري، ص ١٧٨.

(٧) عن مقدسي عند شبرنجر– طرق البريد والمواصلات في الشرق، ص ١٦٤ .

وعلى كل حال يذكرها المؤرخون والجغرافيون كثيراً كمدينة مزدهرة، وأما عن تاريخ تدميرها وتخريب كامل منخفضات الخابور فإنه ليس بإمكاننا إلى اليوم إلا الظن والتخمين، فربما حدث ذلك عند الغزو المغولي بقيادة تيمور؛ لأن أحد قادته سلك الطريق عبر وادي الخابور. وإثر ذلك ما لبث البدو الرحل أن تولوا السيادة فأخرجوا آخر سكان المواقع الثابتة ومنعوا قيام مواقع جديدة؛ فاندثرت أجهزة الري بسبب ذلك، ومن ثمّ تحولت الأراضي الخصبة إلى البراري المقفرة الحالية، وعلى الأقل يمكن القول: إن التاريخ لم يذكر شيئاً عن أي مدينة في وادي الخابور منذ ذلك العهد. ولاشك أن الحفريات المنظمة – خاصة في عربان– سوف تؤدي إلى نتائج مهمة عن الحضارة القديمة في هذه البلاد. وعلى مسافات قريبة تلال صغيرة أخرى تنتمي دون شك إلى منطقة عربان الواسعة، بالإضافة إلى هضاب الأنقاض الكبيرة التي ذكرتها، وتشير إلى وجود سابق لمواقع سكنية.

أما عن العهد العربي، فإن أهم آثاره تتمثل في بقايا جسر حجري كبير، وقد بقي منه ثلاثة أعمدة مع الأقواس التابعة لها ، وقد تم صنعها بطريقة فنية من قوالب حجرية ضخمة، وتحمل إلى جانب الزخرفة كتابات جميلة بالخط النافر. وبأسف شديد كان علينا أن نواصل السير في اليوم نفسه بسبب قلة زاد القافلة، فلم يبق لي متسع من الوقت لأزيل تلك الترسبات التي تغطي الكتابات، و ما كان جلياً منها فهذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

الله تعالى...... بإذن الملك الرحيم

العا لم المظفر المنصور المجاهد المرابط.....

و لم يكن يتضح من النص أي تاريخ ، أو اسم يسمح بتحديد تاريخ بناء الجسر، و تدل طريقة البناء في مجملها على نضج كبيرفي فن البناء، وتشير صلابة المبنى وقوته إلى أن المواصلات مع الضفة المقابلة كانت دون شك ذات أهمية كبرى (١) .

(١) أشكر الأستاذ دي غويه الذي أخبرني أن هذا الجسر لم يذكر من قِبَل المؤلفين العرب. يصف ابن حوقل، ص ١٣٩: «طريقاً تذهب من الخانوقة على الفرات – مسافة يومين شمال كركيسيا (نفس المرجع ص ٥٥) وبالقرب من الرقة – إلى عربان في أربعة أيام ومن ثم إلى سنجار في يومين . ومن سنجار تواصل الطريق بطبيعة الحال إلى الموصل . منذ الخانوقة تتجه الطريق إلى الشمال الغربي في اتجاه أعالي الفرات إلى الرقة».

إن الأعمدة تقوم اليوم على اليابسة، ويغلب على الظن أن الخابور قد حوّل مجراه باتجاه الشرق، كما يدل على ذلك تداعي هضبة الأنقاض الكبيرة بسبب التآكل .

شاهدنا تل الكوكب القاتم اللون بوضوح في الشمال عندما وصلنا إلى هضبة عربان الأثرية التي يوجد على سطحها العديد من قبور البدو. كما طالعتنا سفوح جبل سنجار من الشرق وراء البراري، واكتنفت الأفقَ من الغرب سلسلةُ جبل عبد العزيزالمنخفضة، ولايزال هذا الجبل مجهولاً تماماً إلى الآن، ويمكن مشاهدته من معظم النقاط المرتفعة عند الخابور، ويمتد على مسافة يوم واحد موازياً لمجرى النهر، ويقول لايارد[1] واصفاً جبل عبد العزيز: إنه "سلسلة منخفضة من الجبال المغطاة بالغابات "، ويعتقد زاخاو[2] كذلك معتمداً على معلومات أخذها عن البدو، أن سلسلة الجبال هذه كثيرة الأشجار، إلا أنني لم أستطع أن أتبين وجود غابات بسبب المسافة البعيدة التي تفصلني عن السلسلة، ولا تزال بعض الحمر الوحشية[3] تعيش إلى اليوم في هذه المنطقة، ويقول البدو: إن قطّاع طرق تابعين لقبائل غربية يسكنون جبل عبد العزيز.

عدنا إلى ظهور الخيل الساعة الثالثة والربع تقريباً؛ وكانت قافلتنا قد وصلت في سيرها إلى الهدف المحدد لهذا اليوم و لم يحصل لها أي تأخير، فحافظت بذلك على وتيرة ثابتة في السير. عبرنا الفقير [4] في الرابعة وخمس وأربعين دقيقة، واجتزنا بعد مدة قصيرة الميلبية وهما منخفضان تجري فيهما مياه جبل عبد العزيز إلى الخابور، وعبرنا وادي الشيخ صليب في الخامسة والربع ، وشاهدنا خلف هذا الوادي عدة هضاب تخترقها الطريق المؤدية مباشرة إلى النهر. ويرتفع تل طابان على الطرف المقابل أي الضفة الشرقية، ويقوم مزار على ذروته يضم تحت قبته ضريح محمد أمين كبير شيوخ الجبور. وقد مد محمد أمين يد المساعدة إلى لايارد أثناء إجراء حفرياته، ويقول البدو: إنه مات قبل أربعين سنة، أي بعد أربع سنوات من مجيء لايارد إلى المنطقة، لكن لا ينبغي الاعتماد على مثل هذه الأقوال؛ لأن البدو يفتقدون إلى الإحساس بالزمن ومقاييسه والمسافات على حد السواء.

....

(١) انظر المرجع المذكور ص ٢٠٦ .

(٢) انظر المرجع المذكور ص ٢٩٥ .

(٣) نجد في بعض الآثار الآشورية تمثيلاً لمشاهد الصيد على الحمر الوحشية، قارن الصورة في الفصل٥ من هذا الكتاب، ص ١٩٥.

(٤) نبّهني الأستاذ دي غويه إلى أن عبارة " فقير" تطلق أيضاً على المنخفض الذي توجد فيه آبار .

تل طابان

وجد لايارد عند زيارته لتل طابان بقايا قلعة حديثة، كما وجد حاجزاً صخرياً بالقرب من الهضبة أنشأه محمد أمين، ليكون مأوىً للجبور ضد غارات آل عنيزة، ويذكر لايارد هضبتَي آثار: "مشنق" و "أبو شلح" (١) على الضفة اليسرى للخابور بين عربان وطابان. وكان لايارد قد حط رحاله على مسافة أربع ساعات ونصف شمال عربان في مكان اسمه " نهب" يقع على الضفة الشرقية اليسرى لنهر الخابور قرب هضبة كبيرة. ولاحظ لايارد عند النهر وجود بقايا جدران حجرية يعتقد أنها بقايا سدود للري، كما سجل وجود هضبة اسمها " تل المهليبية ". وقد مرَّ على بُعد أربعة أميال إلى الشمال بهضبة كبيرة اسمها " الثنينير"، توجد قربها بقايا سد حجري يسمى "سبعة صخور". هذه الأماكن التي ذكرها لايارد بأنها توجد على الضفة الشرقية لنهر الخابور لم يذكرها لي مرافقي، وقد كنت أسير على الضفة الغربية أي اليمنى للنهر عكس الرحالة الإنجليزي. ويطلق اسم طابان على مجموعة المرتفعات المتكونة من تراكم الآثار التي توجد أنقاض مدينة طابان بينها بلا ريب، والتي ورد ذكرها عدة مرات في العصور القديمة. كان يوجد دير (٢) في طابان زمن ما بعد الميلاد، أما في العصور الوسطى فكانت تقوم هنا قرية، ويذكر ياقوت (٣) أن طابان هي قرية صغيرة، وهنا يصب الرافد الذي سبق ذكره في بحيرة خاتونية وبذلك في سبخة الحول (٤). ويرسم مجرى نهر الخابور عند طابان قوساً واسعة في اتجاه الشرق، وقد بدا لنا أن الطريق التي كنا نسلكها تتبع هذا المنعرج.

كان هدف مسيرنا في هذا اليوم الثكنة " القشلة " الواقعة في الحسكة عند مصبِّ الجغجغ في الخابور، لكن على الضفة اليسرى المقابلة. وبما أننا كنا نرغب في إدراك القافلة التي سبقتنا في أسرع وقت ممكن، حتى يتسنى لنا الانضمام إليها عند عبور الخابور، فقد غادرنا النهر الساعة الخامسة وخمساً وأربعين دقيقة، وسرنا عبر القفار في اتجاه جبل كنا نراه عن بُعد ونحسب أنه تل كوكب، غير أننا فقدنا الاتجاه على هذه الأرض التي بدأ سطحها عند نزول الليل يصبح متموجاً. قطعنا عدداً من الوديان الخالية من المياه – ربما كانت قنوات قديمة جافة –، ومررنا ببقايا آثار واضحة المعالم، توجد عندها على ما يبدو بقايا سد مندثر، وإثر ذلك مررنا على يميننا بمرتفع بدا لنا أنه من أصل بركاني، يحتمل أنه ينتمي إلى سلسلة هضاب تقع جنوب الحسكة.

---

(١) قارن لايارد – نينوى وبابل، ترجمة تسنكر، ص ٢٣٠
(٢) قارن أسيماني – المكتبة الشرقية، الجزء ٢، ص ٢٢٢ و ٢٢٦
(٣) ياقوت، الجزء ٣ ص ٤٨٥
(٤) قارن لايارد – نينوى وبابل، ترجمة تسنكر، ص ٢٤٧

تل الحسكة

وتمتد من الغرب إلى الشرق طوال أعالي الخابور، والتي قيل لنا في الحسكة: إنها تدعى تل البنت. أخيراً وبعد مسيرة تائهة دامت عدة ساعات، أبصرنا عن بعد نيراناً تمتد من الغرب إلى الشرق، تبيّن لنا فيما بعد أنه أوقدها بدو كانوا يخيّمون على الضفة اليسرى لشمال الخابور عند أعالي مصب الجغجغ، ثم بعد بحث طويل وجدنا نهر الفرات على بعد كيلومترات جنوب هذا الموضع الذي وصلنا عنده إلى الخابور، واتسع النهر عند هذا الموضع اتساعاً كبيراً حيث بلغ عرضه قرابة مائة متر، وكانت مياه النهر تبلغ رُكَب الخيل. وعندما بلغنا الضفة الأخرى وجدنا جماعتنا وقد نصبوا الخيام عند سفح تل كبير يقع في الزاوية التي يكوّنها التقاء الجغجغ مع الخابور، ويبدو أن رفاقنا لم يكن يساورهم أي قلق بخصوصنا.

يبلغ ارتفاع تل الحسكة (١) قريباً من عشرين متراً، ويمتد شمالاً في مرتفع أدنى من ذلك يتكون من صخور بركانية، وكانت تبدو على الجانب الشمالي للتل مجموعة من بقايا الجدران السوداء بالإضافة إلى كمية كبيرة من قطع الزجاج المكسور التي تشير إلى موقع مستوطنة سابقة العهد، وتقوم على أعلى قمة ثكنة عسكرية فيها جنود تابعون لولاية ديار بكر عند مرورنا بذلك الموضع ، وكان هؤلاء على غرار زملائهم يسكنون مع عائلاتهم في شدّادة في أكواخ من القصب والطين خارج المحطة، كنا نستطيع رؤية السهل بكامله من أعلى قمة تل الحسكة، وقد انتشر فيه عدد كبير من التلال الصغيرة كأنها تلال الخلدة في جميع الاتجاهات، وكانت تقع إلى جنوبنا مرتفعات تل البنت البركانية التي مررنا بها بالأمس، وخلفها في اتجاه الجنوب والجنوب الغربي مرتفعات عبد العزيز.

وإنه ينبغي نقل نقطة التقاء الخابور بالجغجغ من الموضع الذي ظلت الخرائط تشير إليه حتى الآن نحو الشمال في اتجاه نصيبين. ولقد تعجبت لما قطعت المسافة المرسومة على الخرائط بين تل الحسكة ونصيبين على ظهور الخيل في وقت قصير لا يزيد على أربع عشرة ساعة .

يتبين استناداً إلى يومياتي أن مسيرتنا في اليوم الأول من الدير إلى سُوَر استغرقت مدة إحدى عشرة ساعة على ظهور الإبل، وثماني ساعات وخمساً وعشرين دقيقة على ظهور الخيل.

---

(١) بدو هذه المنطقة يلفظون حرف الكاف مثل – تش – وبذلك يسمون التل – الحستشه.

فإذا كانت المسافة التي يقطعها راكب الإبل أربعة كيلومترات ونصفاً في الساعة، وراكب الخيل ستة كيلومترات فإن ذلك يعني أن المسافة بين الدير وسُوَر تبلغ تسعة وأربعين كيلومتراً ونصفاً، وتلك هي المسافة حقاً بين الموضعين .

تحديد المسافات

قطعنا في اليوم الثاني– كما تنص اليوميات – بين سُوَر ومرقدة مسافة ثماني ساعات وعشرين دقيقة على ظهور الإبل، وست ساعات على ظهور الخيل، وهذا يعني سبعة وثلاثين كيلومتراً ونصفاً حسب وتيرة سير الإبل، وستة وثلاثين كيلومتراً حسب وتيرة سير الخيل.

تذكر اليوميات في اليوم الثالث تلك المسافة بين مرقدة وشدّادة حسب ساعات ركوب الخيل فقط، وهي خمس ساعات وخمس وعشرون دقيقة. تناسب هذه المدة مسافة ثلاثة وثلاثين كيلومتراً، وهي مسافة تستدعي سبع ساعات من ركوب الإبل، وهو أمر يتماشى تماماً مع الواقع.

بلغت المسيرة في اليوم الرابع من شدّادة إلى الخابورعند تل الحسكة زهاء اثنتَي عشرة ساعة على ظهور الإبل، وذلك يعني مسافة تبلغ أربعة وخمسين كيلومتراً، وتذكر اليوميات مسافة ثلاث ساعات وأربعين دقيقة على ظهور الخيل بين شدّادة وعربان، وذلك يعني اثنين وعشرين كيلومتراً تقريباً، ثم مسيرة ساعتين وخمس دقائق على ظهور الخيل من عربان إلى وادي صليب " طابان " ، وذلك يعني مسافة اثنَي عشر كيلومتراً ونصفاً، وبما أننا ضَلَلْنا نحن الفرسان طريقنا لاحقاً فإن المعطيات الزمنية لباقي هذا اليوم تفقد أهميتها.

انطلقنا نحن الفرسان في اليوم الخامس الساعة التاسعة وخمسين دقيقة من تل الحسكة، وقطعنا من الساعة التاسعة وخمسين دقيقة إلى الواحدة والربع، ومن الرابعة وخمس وعشرين دقيقة إلى التاسعة والربع مسيرة ثماني ساعات على ظهور الخيل، الأمر الذي يعني مسافة تقارب ثمانية وأربعين كيلومتراً حتى تل الشرابة. أما القافلة فلم تنطلق قبلنا بكثير، ربما بعد التاسعة بقليل، و لأنها لم تتوقف حتى الساعة العاشرة مساء، فقد قطعت مسيرة اثنتَي عشرة ساعة على ظهور الإبل، وقد كانت بطيئة السير في هذا اليوم، لأنها كانت مرهقة جداً، الأمر الذي سمح لنا نحن الفرسان – حسب يومياتي – بتجاوزها في الساعة الثامنة وعشر دقائق، ووصلنا إلى المخيم في التاسعة وعشر دقائق، أما القافلة فلم تصل إلا في الساعة العاشرة مساء.

فإذا اعتبرنا سرعة القافلة بلغت في هذا اليوم أربعة كيلومترات، فإن المسافة المقطوعة من تل الحسكة إلى تل الشرابة تقدر بثمانية وأربعين كيلومتراً.

قطعنا نحن الفرسان في اليوم السادس – حسب يومياتي – مسيرة خمس ساعات ونصف، وذلك يعني ثلاثة وثلاثين كيلومتراً تقريباً، وظلّت القافلة في الطريق ثماني ساعات ونصفاً، فإذا حسبنا هذه المرة أيضاً أربعة كيلومترات في الساعة، فإن المسافة تكون بين ثلاثة وثلاثين وأربعة وثلاثين كيلومتراً، وبهذا نتفق على أن المسافة بين الدير وسور يبلغ تسعة وأربعين كيلومتراً ونصفاً، وبين سور وتل الحسكة قرابة مائة وأربعة وعشرين كيلومتراً، وبين الحسكة ونصيبين اثنين وثمانين كيلومتراً، ولأنّ لايارد وضع ما يسميه " تل الحسيهه " شمال غربي ما يسميه تل كوكب فإنه من الطبيعي أنني لم أشاهد تل كوكب، نظراً إلى أنني قطعت المسافة على الضفة الغربية في الليل ، ولقد تنقلت مدة طويلة جنوب تل الحسكة في أرض جبلية حَسِبتها في ظلام الليل بركانية، ولأن تل البنت الواقع جنوب تل الحسكة هو بركاني المظهر أيضاً.

نهر الجغجغ

فإنه ليس من المستبعد أن يكون تل كوكب الواقع على الضفة الشرقية للخابور جنوب تل الحسيهه تل "الحسكة" - الذي فحصه لايار(١) ووجد فيه فوهتين بركانيتين وحفرة عمقها خمسون قدماً تحتوي على ماء صالح للشراب في غدير - على علاقة وثيقة مع المنطقة البركانية التي كشفتها بنفسي على الضفة الغربية للخابور جنوب تل الحسكة(٢). أما تل الحسكة نفسه فقد اطلعت على أنه هضبة بركانية يقيناً، وبدا لي عن بُعد أن التل الأسود الواقع إلى الشمال هو الآخر من تكوين بركاني كما يدل عليه الاسم "التل الأسود"، وبذلك فنحن إزاء منطقة بركانية كبيرة كما هي الحال في السلسلة الجبلية "الحمة" التي يقع جزؤها الجنوبي قبالة مرقدة.

تواصلت المسيرة من تل الحسكة إلى نصيبين، فكانت البداية باتجاه الشمال الغربي وبعد ذلك باتجاه الشرق ثم باتجاه الشمال الشرقي حتى نهاية مسيرتنا، وكانت الطريق تمرّ غالباً بجانب الجغجغ الذي كان متوسط عرضه لا يتجاوز ستة أمتار، لكنه كان عميقاً لا يمكن اجتيازه إلا عند بعض المواضع حتى خلال هذا الفصل، وكانت المياه صافية نسبياً، أما مجرى

(١) قارن لايارد – اكتشافات في أنقاض نينوى وبابل، ص ٣٢٢ .

(٢) يذكر لايارد وكذلك هاوسكنيشت هضبة تدعى أبوبكر بين تل الحسيهة ونقطة التقاء الخابور مع الجغجغ. أما تل كوكب فقد مرّ به لايارد على الضفة اليسرى للجغجغ والخابور.

النهر فلم يكن يبلغ عمقاً كبيراً في الأرض كما هي الحال بالنسبة لنهر الخابور، حيث يغمر الفيضان في زمن ارتفاع مستوى المياه ضفتيه اللتين تغطيهما الحَلْفاء ونبات الطِرْفة القليل الارتفاع حتى في فصل الصيف، ويجلب النهر إلى الخابور مياه جداول سلسلة جبال طور عابدين، وتجري مياهه إلى السفح في خط قليل التعرج، وعبر شلالات قوية بطريقة تذكر بأنهار السلاسل الجبلية في أوروبا، على عكس ما نجد في أواسط وأسفل الخابور. وقد وجدنا المنطقة جدباء بسبب الجفاف الناتج عن حرارة الصيف ما عدا بعض نباتات البراري التي تناثرت هنا وهناك. أخذت الأرض في الارتفاع شيئاً فشيئاً حتى نصيبين، وتغيرت طبيعة المنطقة على بُعد ساعات قليلة شمال الحسكة ، وحلّت محل براري المنطقة الوسطى لبلاد ما بين النهرين منطقة متموجة تبدو أفضل من سابقتها، حيث تتخللها عدة جداول صغيرة وجدنا بعضها قد فاض وكوّن مروجاً صغيرة كالمستنقعات في طبيعتها رغم أننا كنا في شهر أغسطس، وكذلك في وادي الجغجغ يُشاهَد العديد من الهضاب الركامية على الحضارة الغابرة للبلد.

وجدنا على يميننا وراء نهر الجغجغ تل الأسود الذي سبق ذكره في الساعة العاشرة وخمس وأربعين دقيقة، مع ملاحظة أنه من أصل بركاني .

بين تل الحسكة و نصيبين

أبصرنا تل السلماني في الحادية عشرة وخمس دقائق على الضفة الشرقية للجدول إلى اليمين وعلى مسافة قليلة، وعبرنا الجدول الذي يسمى نهر عاوج (١) في الحادية عشرة وخمس وعشرين دقيقة، والذي كان جافاً في هذا الفصل غيرأنه قد يجلب مياهاً كثيرة إلى الجغجغ في فصل الأمطار، ومررنا في الحادية عشرة والنصف على يميننا على الضفة اليمنى للجغجغ بتل البرازة (٢)، ووصلنا في الحادية عشرة وخمس وأربعين دقيقة إلى أنقاض جسر حجري قديم يدعى" الصفيّة "(٣)، كان سابقاً يقطع نهر الجغجغ، ولا تزال بقايا الأعمدة المرصوصة رصّاً محكماً قائمة إلى اليوم في مجرى النهر، وقد اختارها عدد من النسور موقعاً لأعشاشها، ولا شك أنه من المحتمل جداً أن هذا الجسر كان تابعاً للطريق الرومانية المرسومة على الخريطة والتي تقود

(١) [المترجم: عاوج – هكذا وردت الكتابة باللغة العربية في الأصل، ولعله" عويجة" النهر الموسمي المعروف إلى اليوم] .
(٢) [المترجم : تل البرازة – هكذا وردت الكتابة باللغة العربية في الأصل، ولعله " تل البرازى "، وهذه كلمة كردية تعني "الخنازير"، والتل معروف بالعربية " تل الخنازير"].
(٣) [المترجم : وردت في الأصل كما يلي – Sufaije].

من رأس العين إلى بحيرة الخاتونية، وإننا نعلم أن الرومان كانوا يمدون طرقهم على خط مستقيم حسب الإمكان، وجسر الصفيّة هذا يقع فعلاً على الخط المستقيم الرابط بين النقطتين المذكورتين؛ أما الأماكن الأخرى المذكورة في الخريطة على الطريق المحتملة فهي بير علي، وثلابة، وثبيدة وهي أماكن أعتقد أنها لم تعرف إلى اليوم (١).

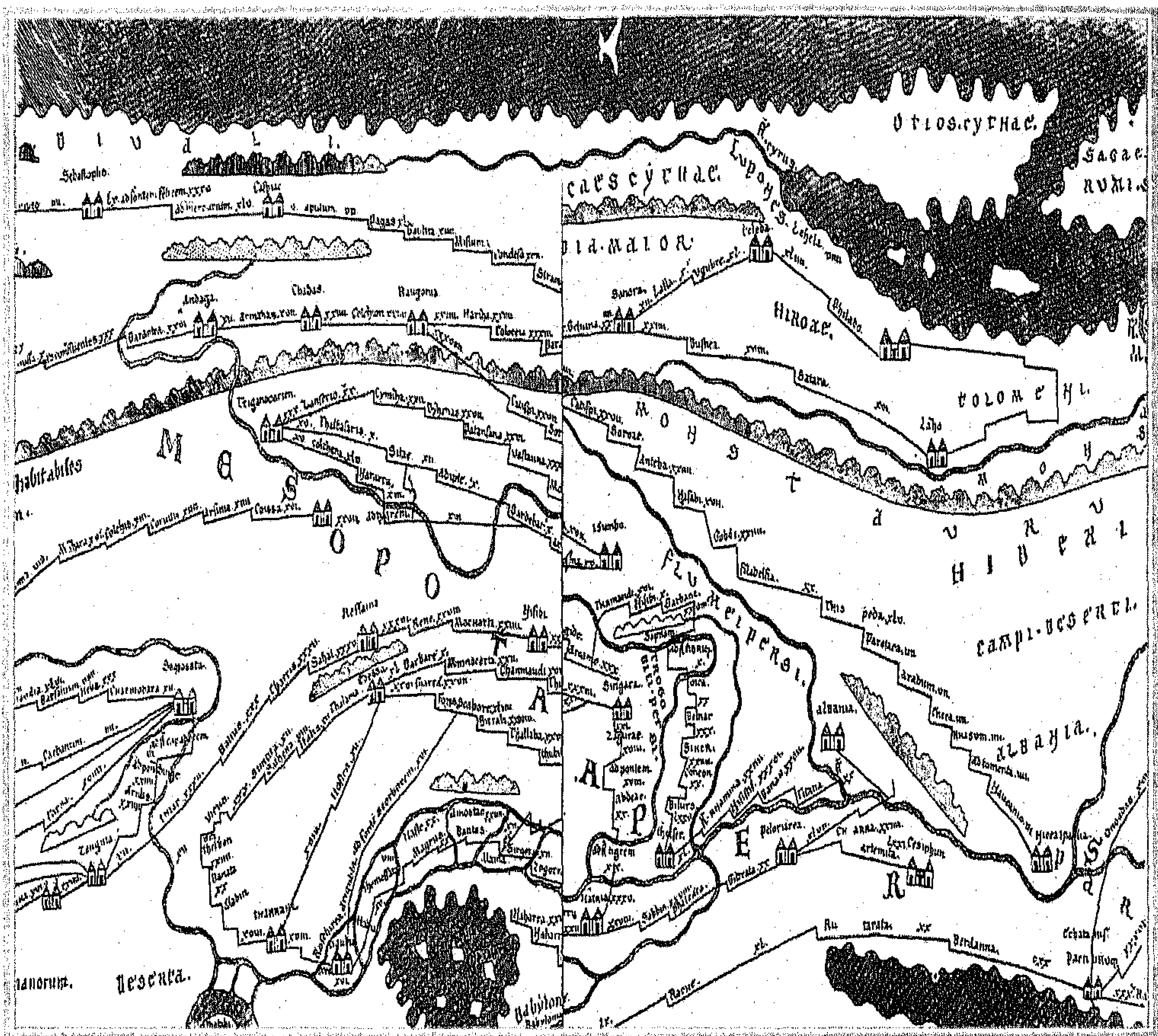
واصلنا مسيرتنا الآن بعد استراحة لمدة عشر دقائق باتجاه الشرق متبعين تغيّر اتجاه النهر. وتوقفنا في الواحدة والربع عند أجمَة من الطرفة كانت تضم الأشجار الحقيقية الأولى التي رأيناها منذ غادرنا نهر الفرات فكان ظل الأجمة منعشاً ومغرياً فلم نواصل مسيرتنا إلا عند الرابعة والنصف، ثم تغيّر اتجاهنا الآن صوب الشرق والشمال الشرقي حتى أصبح عند الساعة الخامسة باتجاه الشمال الشرقي مباشرة ، في الخامسة وعشرين دقيقة عبرنا سيل تل البقر– وهو رافد غير مهم للجغجغ – وصعدنا بعد نصف ساعة سلسلة صغيرة من الهضاب تسمى تلول حوايج سعيد.

على امتداد منخفض الجغجغ

تقود الطريق مباشرة من هنا وحتى الساعة السادسة وعشرين دقيقة باتجاه الشمال لتنعطف عندئذ قليلاً نحو الشرق. ثم ظهر تل وراء الجدول في الساعة السادسة وخمس وعشرين دقيقة على جانبنا الأيمن، وظهر تل البرك الكبير في الساعة السابعة والنصف وعلى الجانب نفسه، والذي هو دون شك التل المسمى "البك" على خريطة هاوسكنشت. ثم تجاوزنا قافلتنا في الساعة الثامنة والربع، وقررنا أن نتوقف في الساعة التاسعة والربع بعد ساعة من السير الحثيث في مكان مناسبعلى السفح الشمالي الشرقي لتل الشرابة، وهو تل ركامي كبير، أعلاه مسطح، ينتصب مباشرة عند ضفة الجغجغ، و لم تصل القافلة إلا في الساعة العاشرة، وكان النهر في هذه الأثناء قد احتوى رافد "الردّ" القادم من الشرق، وأخذ ينعرج انعراجاً خفيفاً في اتجاه الشرق.

كنا نعتقد أن نصيبين لا تزال على مسافة بعيدة منا؛ فحثثت القافلة على الانطلاق المبكر في صباح اليوم التالي – التاسع من أغسطس– رغم أن جماعتي وركابهم كانوا قد خلدوا إلى الراحة في ساعة متأخرة من الليلة السابقة بعد مسيرة شاقة ؛ ولذلك انطلقت القافلة في الساعة

(١) ربما تقع الجسور القديمة للجرجب وجراحي – Gerrahi التي رسمها هاوسكنشت على خريطته على الطريق الرومانية رأس العين – نصيبين، و نصيبين – سنغارا – Singara قارن كتاب هاوسكنشت: طرق في المشرق ١٨٦٥ – ١٨٦٩م، كتبه كيبرت، برلين ١٨٩٢م.



Otios.cythae.
Hiroae.
campi deserti.
albania.
deserta.

السادسة والنصف، أما أنا فقد فحصت الهضبة الركامية لتل الشرابة والتي لم أجد على سطحها شيئاً متميزاً. وتبعت القافلة التي كان يحرسها أصدقاؤنا من الشمر والجنود نِعمَ الحراسة بعد ذلك بساعتين، ثم ما لبث أن ظهر عدد من التلال على يميننا وراء النهر. و في الساعة التاسعة والنصف كان على يميننا تل حمدة، وقد سجل هاوسكنشت تل الأحمدي الذي لابد أن يكون نفس تل حمدة هذا، غير أنه يقع على خريطته في موضع بعيد جداً إلى الجنوب، وعلى كل حال فإن الاتجاه وحدَه يقترب من الواقع، أما المسافة فقد أسيء تقديرها تماماً. و لم يقطع هاوسكنشت إلا مدة ساعات قليلة على ضفة الجغجغ، واضطر إثر ذلك إلى الانعراج شرقاً بسبب المستنقعات الكبيرة على الضفة الشرقية للنهر.

وصلنا الساعة الحادية عشرة إلى المجرى المستنقعي لسيل أبوراسين، الذي قد يكون الجدول المزدوج نفسه الذي على خريطة هاوسكنشت في هذا الموضع، والذي سجل أن بقية مجراه مجهولة، وتشير كمية الماء الكبيرة نسبياً التي عثرنا عليها في هذا المكان، والتركيبة الإجمالية لمجرى الجدول إلى أن سيل أبوراسين لابد أن يكون جدولاً ذا أهمية معتبرة، وأنه يأتي من مسافة بعيدة نسبياً، ولقد وجدنا منازل للبدو على مقربة من الجدول.

الوصول إلى نصيبين

وشاهدنا قطعاناً من البقر من جديد ، وكانت الأُولى التي وقع عليها نظرنا على ما أذكر منذ أن غادرنا " ضمير" على مسافة يوم شرقي دمشق. وفي الزاوية التي يكوّنها التقاء " السيل" مع الجغجغ انتصبت إلى يميننا هضبة أثرية تسمى تل الذهب، واسترعت انتباهنا فوراً الخصوبة غير العادية للأرض، وهي ظاهرة واضحة حتى اليوم، مع أنه لا تبذل أي مجهودات لري الحقول رغم توافر المياه في الجغجغ وفي عدة روافد أخرى بصفة دائمة. وإنه من اليسير تحويل منطقة الجغجغ الأعلى بسهولة إلى أرض متميزة الخصوبة بلا ريب. وتدل كثرة النباتات في كل الأماكن التي تصلها المياه دلالة أكيدة على ذلك، ناهيك أن الناس يزرعون حتى الأرز في ضواحي نصيبين بنجاح ملحوظ.

شاهدنا في الحادية عشرة وخمسين دقيقة شرقي النهر على السفح الشمالي لهضبة متموجة قرية مقفرة تابعة لبدو من قبيلة طيء، وكانت بعض البيوت الحجرية تتميز بحجمها الكبير نسبياً، وكان رجال قبيلة طيء قد بنوها قبل بضع سنين بإيعاز من الحكومة التركية، إلا أنهم

يفضلون السكن في الخيام قريباً من القرية. وعبرنا في الساعة الثانية عشرة مجرى مياه يبلغ عرضه بضعة أمتار يدعى خنيس (١) ، وهو الرافد الغربي للجغجغ الذي يتفرع عنه على مسافة قليلة شمال غربي نصيبين ، وقبل أن يتقاطع الجدول مع طريقنا كان قد لفّ حول هضبة كبيرة نسبياً تقع على شمالنا وتسمى – تل أبوذويل – راسماً في ذلك نصف دائرة باتجاه الجنوب، وقريباً من الساعة الثانية عشرة وعشرين دقيقة وجدنا على يميننا على مسافة قريبة تل الحاج بدر وفي الساعة الواحدة وعلى اليمين أيضاً باتجاه الشرق وجدنا تل طرطب وتل طراطب، وبعد عشر دقائق كان على شمالنا في الجانب الغربي تل فارس الذي تقوم على سفحه قرية حديثة البناء. وكنا خلال ذلك قد تجاوزنا قافلتنا، ووصلنا في الساعة الثانية إلى مدينة نصيبين التي كانت تطالعنا منذ مدة طويلة بأعمدتها الأثرية المنتصبة على هضاب ركامية ضخمة.

كنا قد قطعنا شوطاً هاماً من رحلتنا بوصولنا إلى هذه المدينة المشهورة؛ فبعدما وطئنا حقل الآثار للمدينة القديمة، والذي يرتفع قليلاً عن الأرض الصحراوية،ويتكوّن من مجموعة مرتفعات.

كنيسة القديس يعقوب

توجهنا إلى الكنيسة القديمة التي فيها ضريح القديس يعقوب مؤسس المذهب اليعقوبي، فهذه الكنيسة المبنية بقوالب ضخمة يرجع تاريخ جزئها الأسفل ربما إلى عهد ما قبل الميلاد، ويجوز أنه تحوّل فيما بعد من معبد وثني إلى كنيسة مسيحية، إذ يذكّر الزخرف الكثير في داخل الكنيسة، والذي يمثل عناقيد من ثمارالعنب بمعابد بعلبك وتدمر بشكل يلفت الانتباه. ويتكوّن الداخل من ثلاثة صحون كبيرة لا يزال الأيمن منها أفضل حالاً من البقية، و كانت الإضاءة ضعيفة للأسف حيث لا يستطيع المرء تبين الزخرف ورؤوس الأعمدة إلا بعناء، كما أن السطرين المكتوبين بالإغريقية تحت أحد الأبواب (٢) أصابهما التلف فلا يمكن فهم مدلولهما. يوجد درج يؤدي إلى سرداب بالجانب الأيمن للصحن الأيمن يأوي الضريح الحجري الكبير للقديس (٣). وكما يحدث كثيراً في الشرق فإن المسلمين أيضاً يحترمون هذا القديس المسيحي.

---

(١) [المترجم: هكذا ورد باللغة العربية في الأصل الألماني] .
(٢) قارن – بادجر – النساطرة و شعائرهم الدينية، لندن ١٨٥٢ المجلد الأول، ص ٦٧.
(٣) قارن – باري – ستة أشهر في دير سوري، لندن ١٨٩٥ م، ص ٢٢٥ و ٣٣١ مع صور من الكنيسة.

تنتصب الكنيسة غارقة في ركام حقل الآثار المحيط بها، والذي أزيل عن الجانبين الشرقي والغربي وحدَهما، لتحل محله رؤوس الأعمدة والأحجار المزخرفة الأخرى التي عثر عليها، وتم في الجانب الشرقي مؤخراً باستعمال سقف الكنيسة، بناء مسكن ذي عدة طوابق لأُسْقُف اليعقوبيين، و يدعى الأسقف الحالي سيريلوس مطران حنا، وأثناء زيارة قمت بها فيما بعد التقيت عنده بشماسين يدعى أحدهما أفرام والآخر سيمون أهديا إلي مخطوطاً عربياً صغيراً يحتوي في جزئه الأول على قائمة الأقسام – المحافظات أو الولايات – الخمس لبلاد ما بين النهرين خلال عهد ازدهار المسيحية فيها ، ولكن للأسف بدون تحديد للحقبة الزمنية بالإضافة إلى إحصاء غير دقيق للأديرة والرهبان في البلاد، ويضم الجزء الثاني مجموعة من الملاحظات التاريخية، مثل دخول سكان أزناور في الإسلام سنة ١٢٧٩ م، فيما عدا ذلك يحتوي المخطوط على تصوير للاضطهاد التركي والأحداث المأساوية المتميزة. و تعالج الملاحظات الأخيرة مجاعة سنة ١٨٨٠م، وقد سجلت التواريخ طبقاً للحساب السلوقي (١) الذي لا يزال مستعملاً إلى اليوم عند اليعقوبيين السوريين وخاصة عند الرهبان.

يتراءى للناظر عند الصعود فوق سَقف منزل الأُسقُف مشهد جميل لحقل آثار المدينة القديمة، وأكواخ المدينة الحديثة وحدائقها .

أنقاض مدينة نصيبين ، نصيبين اليوم

يقع البصر في اتجاه الشمال على المنظر الجميل لجبال طور عابدين التي تنساب من الغرب إلى الشرق ، و يمتد سهل بلاد ما بين النهرين اللامتناهي في اتجاه الجنوب، وتظهر في الجنوب الشرقي المرتفعات الزرقاء لسلسلة جبال سنجار، وعلى مسافة قليلة من الكنيسة في اتجاه الجنوب الغربي تنتصب الأعمدة القديمة المذكورة آنفاً رمز مدينة نصيبين، وعددها خمسة تتوجها رؤوس يزينها زخرف عناقيد العنب، ولا يزال اثنان منها يحملان دعامة، وعلى عمود آخر عش لبعض طيور اللقلق، ويمكن في موضع أبعد باتجاه الجنوب الغربي تبيّن آثار سور المدينة القديم، أو على الأقل يمكن ملاحظة الارتفاع المفاجئ لحقل الآثار عن الأرض الصحراوية، ولكن لا توجد على سطح الأرض بقايا مبانٍ أو بوابات تشير إلى عهود غابرة.

---

(١) [المترجم: سلوقي نسبة إلى السلوقيين، وهي سلالة إغريقية أسسها بعض قادة الإسكندر الكبير ملكت من ٣١٢ ق م إلى ٦٤ ق م ، وامتد نفوذها بين الهندوس والمتوسط].

يتفرع نهر الجغجغ في أعلى المدينة إلى فرعين يجري أحدهما ويسمى «خنيس» في الجزء الغربي من المدينة، ويجري الآخر في الجزء الشرقي منها، ويقوم على الفرع الشرقي للنهر جسر له اثنا عشر قوساً، يرجع عهده على ما يبدو إلى العصور القديمة، ويقع هذا الجسرعلى مسافة نصف ساعة من الكنيسة اليعقوبية، وينبغي على المرء للوصول إليه أن يجتاز سوق المكان الذي يتركب من عدة صفوف من الأكواخ المبنية من الطين؛ فإذا كانت المدينة القديمة قد بلغت موقع الجسر، وهذا الأمر الذي لا يبدو مستحيلاً، فلا بد أنها كانت قد توسعت توسعاً عظيماً، و لم نجد على الجسر الذي حططنا رحالنا عنده أي زخرف أو أية كتابة، أما في بيوت المدينة الحديثة فيوجد العديد من بقايا الأعمدة ورؤوسها التي تداخلت في البناء الحديث وتلاشت فيه. ولاشك أن فحص هضاب الركام والأنقاض التي تُواري بقايا مدينة ضاربة في القِدَم أكثر من ذلك على ما يبدو قد يأتي ببعض النتائج المهمة، خاصة وأن نصيبين هي إحدى أقدم وأهمّ مدن بلاد ما بين النهرين، حيث إنها قد عاشت ألفاً وخمسمائة سنة بعد سقوط نينوى.

واليوم لا تشغل مدينة نصيبين إلا جزءاً صغيراً من حقل الآثار، و شمال كنيسة يعقوب يمتد أولاً الحي المسيحي والحي اليهودي، ويليهما الحي الإسلامي الذي تفصله عن الأولَين ساحة فارغة. و قد يبلغ العدد الإجمالي من البيوت الفقيرة ثلاثمائة أو أربعمائة، يسكن المسلمون نصفها تقريباً، أما النصف الثاني فيسكنه المسيحيون وهم يعقوبيون في معظمهم، واليهود.(١) وتمتد حدائق غنّاء على ضفاف خنيس في اتجاه الغرب، وعلى الضفة اليسرى لفرع النهر يوجد مسجد صغير، وعلى مقربة منه تقوم آثار لمبنى يعود إلى العهود العربية القديمة، ويشبه القلعة في شكله ويتميز بجدران غليظة وقباب، وقد تحوّل هذا المبنى اليوم إلى مقهى.

تاريخ نصيبين

قبالة هذه الآثار ثكنة مربعة الشكل متوسطة الحجم تشبه القلعة، وهي الثكنة نفسها التي تحدث عنها النقيب البروسي مولباخ المرافق الكبير لمولتكه أثناء إقامة هذا الأخير في الجزء الآسيوي من تركيا، وذكر أنه تم بناؤها أثناء الحرب بين تركيا وقوات إبراهيم باشا المصرية (٢).

---

(١) زاخاو – في المرجع نفسه ص ٣٩١، يذكر سنة ١٨٧٩ م قرابة مائتَي بيت منها عشرون فقط سورية. أما باري – في المرجع نفسه ص ٢١٤، فقد وجد سنة ١٨٩٢ م ثلاثمائة بيت للمسلمين ومائة وخمسين بيتاً لليهود وزهاء ثلاثين بيتاً لليعقوبيين.

(٢) قارن ريتر – المرجع المذكور ص ٤٣٤ ثم فون مولتكه– رسائل حول الأوضاع والأحداث في تركيا في السنوات من ١٨٣٥ إلى ١٨٣٩م، الطبعة السادسة، برلين ١٨٩٣م، ص ٢٦٠.

و لم تكن هناك قوات عسكرية نظامية أثناء زيارتي للمدينة، وكانت الحامية بكاملها لاتعد أكثر من عشرة أو خمسة عشر جندياً، ويمثل الحكومة التركية حالياً في نصيبين قائم مقام لا يتميز منزله عن بقية البيوت الطينية إلا بطابق ثانٍ.

لقد ورد ذكر نصيبين بناء على البحوث التي تمت إلى اليوم لأول مرة في العهد الآشوري؛ إذ تنص القوائم الإدارية سنة ٨١٦ قبل الميلاد عن حاكم لمدينة نصيبين (١) وتفيد الكتابات الآشورية التي تذكر الاسم مراراً أن نصيبين كانت عاصمة لإحدى المقاطعات الآشورية، وبعد سقوط نينوى زهاء سنة ٦٠٦ قبل الميلاد انتقلت السيادة على نصيبين إلى البابليين كما هي الحال بالنسبة لكامل المملكة الآشورية، وبعد سقوط الإمبراطورية البابلية قرابة سنة ٥٨٦ ق.م ورث الملوك الأخمينيون الفرس المملكة البابلية في شمال بلاد ما بين النهرين أيضاً، وبسقوط المملكة الفارسية في عهد ملكها الأخير داريوس تولى الإسكندر الأكبر السيادة على بلاد ما بين النهرين، وبعد وفاة هذا الملك تداعت مملكته الشاسعة بالسرعة نفسها التي نشأت بها، وقد كوّن جنرالات القائد الغازي من الأجزاء المتداعية ممالكَ حكموها بأنفسهم؛ فكانت بلاد ما بين النهرين في البداية من نصيب القائد سليوكوس الذي كان يقيم على نهر دجلة، ومن هناك تولتها السلالة التي أسسها.

ما توفّرت لنا غير معلومات قليلة عن مصير نصيبين في ذلك العهد؛ فقد أصبحت المدينة مع ضواحيها مستعمرة إغريقية مزدهرة للمملكة السلوسية وسمّيت أنطاكية المقدونية (٢) ولكن هذا الاسم اختفى بانضوائها لاحقاً تحت لواء روما، و لم يظهر في شمال بلاد ما بين النهرين إلا في القرن الأخير قبل الميلاد مملكة عظيمة تنسب عادة إلى الأرمن، أو على الأقل يحمل ملوكها أسماء أرمنية ، وفي هذا العهد يعود المؤرخون إلى ذكر نصيبين، و في النصف الثاني من القرن الأخير قبل الميلاد ثبّت الرومان أقدامهم في الشرق الأوسط، واصطدموا بهذه المملكة الأرمنية والمملكة البارتية الجديدة التي نشأت على أنقاض المملكة الفارسية القديمة ومملكة السلوقيين في بلاد ما بين النهرين، ونفذ القائد الروماني لوكولوس سنة ٦٨ ق.م من

....

(١) قارن شرادر– الكتابات المسمارية والعهد القديم " الإنجيل "، الطبعة الثانية، جيسن، ١٨٨٣ ص ٤٨٠.

(٢) قارن كيبرت – الجغرافيا القديمة، ص ١٥٥، بلينيوس – ملاحظات تاريخية، الجزء الأول، ص ١٦ .

أرمينيا عبر أعالي الفرات إلى شمال بلاد ما بين النهرين، وهزم الملك الأرمني تيجرانيس، واستولى على العاصمة التي بناها تيجرانوسيرتا [١]، ثم توجه إلى نصيبين كما كان يسميها الرومان، حيث كان يحكم أخو الملك تجرانيس، وسقطت المدينة التي يبدو أنها كانت محصنة تحصيناً منيعاً في ذلك العهد بعد حصار طويل، وأنشأ القائد الروماني إثر ذلك في نصيبين مقره الشتوي غير أن إقامته في الجزء الذي استولى عليه من بلاد ما بين النهرين لم تكن طويلة، ذلك أن هزيمة أحد ضباطه أمام الملك متراداتس في منطقة بنطس حملته على العودة إلى آسيا الصغرى؛ أما الحملات الأخرى التي تلت هذا الانتصار الأول للرومان في بلاد ما بين النهرين فإنه لم يكتب لنتائجها أن تدوم، وقد مني كراسوس الذي كان يخطط للاستيلاء على كامل بلاد مابين النهرين بهزيمة نكراء أمام البارتيين فور دخوله أقصى الشمال الغربي عند قرة حران سنة ٥٣ ق. م، وقتل في الموقعة نفسها، وكذلك فشلت محاولة احتلال أخرى قام بها أنطونيوس سنة ٤١ ق.م [٢]. خلال تلك الفترة استقرت المملكة الأرمنية تحت خط جانبي لمملكة البارتيين الأرزاسيين [٣] بين الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية البارتية، وظلت سنين طويلة مصدر خلاف بين الإمبراطوريتين، ولا شك أن أوغوسطوس نجح في تحقيق سيطرة النفوذ الروماني، إلا أن الإمبراطور ترايان هو أول من استطاع فعلاً أن يخضع بلاد ما بين النهرين إلى السيادة الرومانية؛ ففي سنة ١١٥ م استولى على أهم المدن في البلاد، وجعل من نصيبين قاعدة لعملياته التالية ضد مملكة البارتيين [٤]. وقد صنع هذا الإمبراطور السفن من أخشاب الغابات التي تمتد شمال نصيبين، وحملها مجزأة على عربات أوصلتها إلى دجلة، إلا أن الإمبراطورين المسالمين اللذين جاءا بعده وهما حادريانوس وأنطونيوس بيوس أرجعا جميع المناطق المغتصبة إلى البارتيين، وعاد الفرات من جديد ليمثل الحدود بين الإمبراطوريتين.

ولم يتم ضم بلاد ما بين النهرين نهائياً إلى الإمبراطورية الرومانية إلا في نهاية القرن الثاني للميلاد، فقد استطاع الإمبراطور سبتيميوس سيفيروس بعد معارك حالفه فيها الحظ ضد البارتيين أن يستولي على شمال بلاد ما بين النهرين، وأن يجعل من نصيبين مستعمرة رومانية

---

(١) قارن زاخاو– حول موقع تيجرانوسيرتا، دراسات للأكادمية الملكية للعلوم في برلين ١٨٨٠، ص ٣٨.
(٢) قارن مومسن– التاريخ الروماني، المجلد الخامس، ص ٣٦٤ وما يليها.
(٣) قارن كيبرت – في المرجع نفسه، ص ٧٦.
(٤) قارن مومسن– في المرجع نفسه، ص ٤٠٠.

ويرفعها إلى عاصمة المقاطعة الجديدة، وبعد مدة لا تكاد تصل إلى عشر سنوات من ذلك سقطت الدولة البارتية إثر انقلاب داخلي، واستولت على العرش سلالة فارسية صِرفة وهي سلالة الساسانيين، وبدأت فوراً في الحرب ضد الرومان .

تواصل عهد ازدهار نصيبين خلال هذه الفترة، وأصبح سكانها مسيحيين مثل سكان معظم مناطق بلاد ما بين النهرين، وأصبحت المدينة مقراً للأسقف، وهناك تلتقي مختلف الطرق التجارية والعسكرية، ونجد في كتاب Tabula Peutingerana أن الطرق العسكرية تؤدي إلى سنجار وحترا، وفي الغرب إلى رأس العين، ومن المحتمل جداً أن هذه الطرق كانت تؤدي إلى أواسط الخابور ، وفي الشمال إلى سلاسل الجبال (١).

بعد انهيار النفوذ الروماني وقعت نصيبين من جديد في أيدي الفرس، وبقيت الحال كذلك حتى جاء الإمبراطور ديوكليتيان، واستطاع من جديد بسط النفوذ الروماني في البلاد سنة ٢٩٧م بعد حروب دامت سنين طويلة ، وعند ذلك تم تحصين نصيبين تحصيناً متيناً، وارتقت إلى عاصمة لمقاطعة الحدود مع مملكة الفرس، ووضعت التجارة مع البلدان المجاورة تحت رقابة حكومية مشددة، وتحوّلت إلى مدينة نصيبين المحصّنة، والتي تمثل قاعدة القوات الحدودية الرومانية في الجزء الشرقي من بلاد ما بين النهرين.

وقد برهنت المدينة على أنها حصن منيع للدولة الرومانية في الحروب الدامية مع سابور الثاني التي حاصرهم الفرس أثناءها ثلاث مرات دون جدوى ، و يبدو أن المدينة كانت في ذلك العهد محصّنة بثلاثة جدران وخندق عميق مملوء بالماء، وقد أبلى الأُسقُف يعقوب البلاء الحسن أثناء أعنف حصار ضرب على المدينة سنة ٣٥٠ م، وهو الأسقف نفسه الذي يثوي اليوم في كنيسة نصيبين؛ فقد عرف كيف يحمل المسيحيين الذين يدافعون عن المدينة على الصمود أمام العدو حتى عندما أنشأ الفرس بحيرة حول المدينة عن طريق صنع سدود للجداول الجارية حولها، ونفّذوا هجومهم على المراكب. ثم بعد أربع عشرة سنة من ذلك تخلّى الإمبراطور جوفيان عن نصيبين، كما تخلى عن باقي بلاد ما بين النهرين للفرس بعد الحملة الفاشلة التي قام بها جوليان، وبقيت نصيبين منذ ذلك العهد بوابة في وجه الإمبراطورية البيزنطية. أما البقية الباقية

(١) مومسن- في المرجع ص ٤٤٤ .

من السكان المسيحيين فقد كان عليهم أن يهاجروا إلى آمد " ديار بكر". وقد حصّن الفرس نصيبين تحصيناً شديداً فلم يجرؤ حتى باليزار على مهاجمتها، ومرة واحدة أخرى نزلت جيوش رومانية بيزنطية عند نصيبين بقيادة الإمبراطور هرقل سنة ٦٢٧م لمدة قصيرة، وكان ذلك أثناء الحرب ضد كسرى ملك الساسانيين (١) .

سقطت نصيبين سنة ٦٤٠م أمام القوة الصاعدة المتمثلة في الفتح الإسلامي الذي شمل كامل بلاد ما بين النهرين في غضون بضع سنين، بعدما وقعت عاصمة الساسانيين كتيسيفون "المدائن" في يد المسلمين قبل ذلك بسنين، وتحت نفوذ السادة الجدد تدهورت المدينة وأصبحت قرية ريفية غير ذات بالٍ أثناء الخلافة الأموية والعباسية من بعدها، ومع ذلك يذكر ابن حوقل في بعض ملاحظاته (٢) أن نصيبين كانت تدفع حتى ٣٦٠هـ - ٩٧٠/ ٩٧١ م - مبلغاً من الضرائب يقدر بمائة ألف دينار أي ما يعادل ١٨٠٠,٠٠٠ مارك ألماني.

تمكن حكام ذوو طموح من تأسيس ممالك مستقلة بعد تدهور الخلافة العباسية؛ فقد أسست العائلة التركية «الأرتقيون» (٣) مملكة صغيرة مستقلة عن بغداد شمال بلاد ما بين النهرين، واستطاع ملوك هذه السلالة المحافظة على كيانهم عبر العواصف التي هزت كيان الشرق الأوسط خلال القرون الموالية، ودمرته تدميراً سواء أكانت عند قدوم المغول الذين استولوا على بغداد بقيادة هولاكو - حفيد جنكيز خان(٤) - في ١٧ يناير ١٢٥٨(٥) وقتلوا آخر خليفة عباسي مقيم هناك، أم عند حملات التدمير الكبيرة التي قام بها التتار بقيادة تيمورلنك، فقد عرف الأرتقيون كيف يحافظون على أنفسهم ونفوذهم بالخضوع للسادة الجدد، في حين سقطت واندثرت السلالات الحاكمة الأخرى في الشرق الأوسط لما تصدت للعدو، واندفعت إلى قتاله.

اختار الأرتقيون ماردين القريبة مقراً لهم، وختموا بذلك نهائياً مصير نصيبين لكن سور المدينة بقي قائماً حتى القرن الرابع عشر على امتداد محيط يبلغ ٦٥٠٠ خطوة (٦) .

....

(١) قارن نولدكه - ترجمة الطبري ص ٢٩٤.
(٢) نشرها - دي غويه - ص ١٤٠ - ١٤٣.
(٣) [المترجم : الأرتقيون سلالة تركمانية حكمت ديار بكر من القرن السادس إلى القرن التاسع الهجري] .
(٤) قارن مولر - الإسلام - المجلد الثاني ص ٢٢٩.
(٥) قارن مولر - في المرجع نفسه ص ٢٣٣.
(٦) قارن ريتر - في المرجع نفسه ص ٤١٩.

تولت السلطة سلالةٌ تركية أخرى بعد الأرتقيين هي سلالة القاراقوجنلو، التي انتزعت منها الدولة الفارسية الصاعدة لسلالة الصفويين النفوذ تحت حكم الشاه إسماعيل سنة ١٥٠٢م لمدة بضع سنوات إلى أن سقطت سنة ١٥١٦م في يد العثمانيين تحت نفوذ السلطان سليم الثاني الذي استولى على مصر، ومنذ ذلك العهد بقيت بلاد ما بين النهرين تحت النفوذ العثماني، أما الفرس الذين هاجموا العراق واستولوا على بغداد وكربلاء في الفترة بين سنة ١٦٢٢م وسنة ١٦٤٨م فإنهم لم يبلغوا مدينة نصيبين.

تبدأ تقارير الرحالة الأوروبيين في القرن السابع عشر حول نصيبين حيث يصور لنا تافيرنيي(١) المدينة التي كانت على قدر كبير من الازدهار، وقد أصبحت قرية غير ذات أهمية، يسكنها عدد قليل من المسيحيين التابعين للمذهب اليعقوبي.

رحالة أوروبيون في نصيبين، مناظر المدينة

أما نيبور الذي مرّ في نصيبين بعد ذلك بقرن من الزمن سنة ١٧٦٦م، فقد قدّر حجم المكان بمائة وخمسين كوخاً من الطين، ولكنه يتحدث عن قلعة قديمة من الصخور المنحوتة لم يبق منها اليوم أي أثر(٢)، وأما معظم بقايا المدينة القديمة التي يسهل الوصول إليها فقد استنفدها بلا ريب البناء الحديث للثكنة التي ذكرناها آنفاً.

كان يجب على سكان نصيبين دفع الجزية إلى قبيلة طيء إلى عهد قريب رغم وجود السلطة التركية فيها، وفي مقابل ذلك أخذ شيخ طيء على عاتقه مهمة حماية المكان من البدو الآخرين ومن الأكراد، ولهذا الغرض أنشأ قلعة في الشمال خارج الجسر الكبير القديم لا تزال إلى اليوم تابعة لمن يتولى الحكم من شيوخ طيء، ثم وقعت نصيبين فيما بعد تحت نفوذ الشمر، وظلت تدفع لهم الخوّة مدة من الزمن، وبفضل التدخل الحازم للحكومة في الفترة الأخيرة يمكن اعتبار خطر البدو على نصيبين قد تبدّد نهائياً.

وبالرغم من ذلك لم يتحقق الأمل إلا جزئياً في انتعاش نصيبين بفضل خصوبة المنطقة المحيطة بها، وبفضل موقعها على طريق نشيطة الحركة منذ قرون عديدة بسبب القوافل والبريد بين حلب وديار بكر والموصل.

(١) قارن تافيريني – وصف الرحلات الست إلى تركيا و بلاد فارس والهند، الطبعة الألمانية، جنيف ١٦٨١ م، ص ٧٤ و ٧٥.
(٢) قارن نيبور – رحلة في البلاد العربية ، أمستردام ، ١٧٨٠م المجلد الثاني، ص ٣٠٧.

ثم إن تطور المدينة قد انتكس حديثاً بسبب فساد المناخ؛ ذلك أنه يقال: إن المياه التي تجري في خنيس الفرع الغربي للجغجغ تسبب الموت. لكنه يرجح أن إهمال وفساد المياه اللذين نتجا عن تداعي المدينة هما السبب في الانتشار المفزع للأمراض الفتاكة في نصيبين (١)، ثم إن زراعة الأرز التي تمارس هنا منذ زمن يصاحبها ظهور الملاريا كما هو معروف في كثير من الأحيان، فعلى سبيل المثال لما قام الرحالة الإنجليزي كاميرون برحلته عبر بلاد ما بين النهرين سنة ١٨٧٩م بإيعاز من حكومته بهدف دراسة طريق عبور خط سكك حديد دجلة الذي كانت تخطط له إنجلترا، أصيبت نصيبين آنذاك بوباء التيفوس الذي ذهب ضحيته عدد كبير من السكان(٢). وإن تنظيم مجاري المياه في نصيبين الذي لا شك أنه يتوافق مع الاستغلال المنظم للأراضي الفلاحية الجيدة في منخفضات الجغجغ من شأنه أن يحسّن دون منازع الظروف الصحية للمدينة، وبذلك تتوافر الشروط الأساسية لازدهار جديد لـمدينة نصيبين.

....

(١) تعتبر المنطقة المحيطة بالتكنة الكبيرة مهداً متميزاً للحمى بسبب ثروتها النباتية الجيدة .
(٢) قارن كاميرون – طريقنا السريعة في المستقبل ، المجلد الثاني، ص ٢٠١ وما يليها.

الفصل الثاني

البدو -١-

وفد الشيخ فارس في نصيبين - في الطريق إلى ديار الشيخ فارس - استراحة في ديار طيء - الوصول إلى ديار الشمر - شخصية الشيخ فارس - الحياة والنشاط في المخيم - الحي البدوي، خيمة البدوي - إعداد القهوة - أدوات المطبخ الهودج - تفضيل البدوي لحياة الخيمة - ازدراء البدو للمدن - أول ذكر في التاريخ لسكان الخيام من العرب - مقالة سترابو حول الرعاة المتنقلين في بلاد ما بين النهرين - تأثير الإسلام، قبيلة طيء - نزوح العرب - بنو قيس - الخزرج بنو تميم - بنو لام - الشمر في البلاد العربية - هجرة الشمر إلى سوريا - بنو عنيزة، الشمر يقطعون نهر الفرات - أحدث الأمثلة عن نزوح البدو، بنو هنادي بنو سليم وبنو هلال - الشمر في بلاد ما بين النهرين - دور الشمر في اضطرابات بغداد سنة ١٨٣٠ - صفوق: شيخ الشمر - الشيخ الخصم شلوش - معارك بين الشمر وبني عنيزة - الشيخ صفوق والحكومة - انقسام جديد للشمر الشيخ نجريس ونهاية الشيخ صفوق- أبناء الشيخ صفوق: الشيخ فرحان، الشيخ عبد الكريم - الشيخ ماجوم، الشيخ عبد الكريم، الصراع ضد الأتراك - حداثة الشيخ فارس، أصغر أبناء الشيخ صفوق - تقسيم بلاد ما بين النهرين، شمر الشمال وشمر الجنوب - أبناء فرحان - نفوذ الشمر في بلاد ما بين النهرين، الخوّة - ميثاق الخوّة بيني وبين الشيخ فارس، مجموعات القبائل البدوية - قبائل غرب الخابور - قبائل في بلاد ما بين النهرين - قبائل على الخط الرابط بين الدير وفلوغة - سكان شاطئ دجلة - جنسيات غير عربية بين العرب - الأكراد التركمان - الشركس - موقف الباب العالي من قضية البدو - بناء بيوت ثابتة، مدرسة البدو في القسطنطينية- ضرورة الإجراءات العسكرية - نجاح السياسة التركية مع البدو - توسيع شبكة التلغراف في الصحراء.

وفد الشيخ فارس في نصيبين

فوجئنا في اليوم الثاني من وصولنا إلى نصيبين بقدوم مجموعة تضم زهاء عشرين بدوياً إلى مخيمنا، وكان رجال فارس باشا الذين رافقونا من دير الزور إلى هنا قد أرسلوا إلى سيدهم يخبرونه بعزمي على زيارته، فأرسل الشيخ هذه المجموعة من الفرسان لترافقني في طريقي إليه.

وكان على رأس هذه الكوكبة من الفرسان صبي رائع الجمال في الثانية عشرة من عمره، هو الابن الثاني للشيخ فارس. كان الفتى يحمل مثل رفاقه رمحاً طوله خمسة أمتار مما يجعله يضاهي أربع مرات قامة البطل الصغير نفسه، وثبّت الفرسان رماحهم في الأرض في صمت أمام خيمتي وحيّوني بالطريقة الاحتفالية المعروفة، وبلّغوني دعوة الشيخ فارس، فقدمت للضيوف مأدبة عشاء كما تقتضيه عادات الضيافة عند البدو، وفي صباح اليوم التالي تقدمتنا قافلتي مع بعض الرجال من قبيلة الشمر بعدما قدمت للضيوف هدايا من الملابس، حيث أعطيت ابن الشيخ فارس قفطاناً من الحرير الأحمر " زبون " وكفّية من الحرير وحذاء أحمر، وأعطيت ابن عم الشيخ قفطاناً قصيراً من الحرير الأزرق، وكفّية من الحرير، وحذاء فرسان أحمر اللون، أما بقية المرافقين فقد حصل كل منهم على كفية. أما نحن فلم ننطلق إلا في الساعة الواحدة ظهراً، وقبل ذلك ذهبت إلى سوق نصيبين لاستكمال زادي من الهدايا التي كنت أنوي توزيعها قريباً في مخيم الشمر.

الطريق إلى ديار الشيخ فارس

تتجه الطريق إلى الشيخ فارس نحو الجنوب الشرقي عبر البراري، بعدما عبرنا رافداً من روافد الجغجغ مررنا بسلسلة من القرى تركناها على يسارنا. وبعد دقائق قليلة من مغادرتنا المدينة مررنا أولا بقرية "ويسيكة " المهمة، ثم قرية عنيترة(١)، وفي الساعة الواحدة وخمس وثلاثين دقيقة مررنا بقرية "صيقية" وهي قرية حديثة العهد، وفي الثانية مررنا بقرية "السلام عليكم" وفي الثانية والنصف بقرية "سوطي" (٢)، وفي أثناء ذلك كنا قد توجهنا في زاوية حادة تاركين خلفنا أطراف جبل الطور، إلا أن القرى المتناثرة على سفوحه ظلت مدة طويلة على مرأى منا.

---

(١) [المترجم: هكذا وردت في الأصل، لعلها «عنترية»: قرية كبيرة كثيرة السكان، وأصبحت الضاحية الشرقية لمدينة القامشلي الحديثة ذات الموقع الاستراتيجي المتميز الذي يصل بين تركيا وسوريا والعراق].

(٢) [المترجم: هكذا وردت في الأصل مكتوبة باللغة العربية، وهي قرية حاضرة عامرة معروفة «شَوطي»].

حثثنا السير حتى أصبحت الخيل تعدو في معظم الوقت بينما كان فرسان الشمر يقدمون دون كلالة عروض الفروسية والقتال " لعبة الجريد" التي كثيراً ما يسميها عرب الحاضرة "الفنتازيا". تتمثل هذه اللعبة في أن ينفصل بعض الفرسان عن القافلة ملوّحين برماحهم في هزّ متواصل ، مقلّدين دور الهارب والمتابع له، متبادلين الأدوار في ذلك، أو أن يحاول الفرسان انتزاع كفّيات بعضهم بعضاً مثلما نفعل فيما نسميه " لعبة الوردة ".وهكذا يضع الفرسان أنفسهم وخيولهم تحت تجربة قاسية من حيث الرشاقة والحركة بالنسبة للفرسان، ومن حيث السرعة بالنسبة للخيل (١).

استراحة في ديار طيء

وصلنا إلى مخيم طيء بعد الساعة الثالثة بقليل حيث تنتصب في المدخل الغربي خيمة عملاقة للشيخ عبد الرحمن كبير شيوخ القبيلة وأحد أصهار الشيخ فارس باشا، واضطررنا إلى النزول من ركابنا لتناول القهوة، ورغم عجلتنا اضطرنا الشيخ إلى البقاء ساعة من الزمن ، فلم نتمكن من مواصلة سيرنا إلا بعد الساعة الرابعة، وكان علينا أن نحثّ السير لتدارك الزمن الذي ضاع منا، وبعد عشرين دقيقة وصلنا إلى آثار تل بريش الذي تقع عند سفحه قرية صغيرة تتكون من بضع منازل مبنية من الطين، وعبرنا هنا أول نهر متوسط الحجم يشق طريقه من الشمال إلى الجنوب وهو سيل برييج (٢)، بعد ذلك بعشرين دقيقة قطعنا نهراً آخر، وقرابة الساعة الخامسة والنصف طالعنا مخيم الشيخ فارس شيخ الشمر عبر أرض سهلة عند منخفض يسمى "الخريبة" يقع على مسافة عشرين دقيقة من هضبة الآثار الكبيرة المسماة "سهيلة "، وعلى السفح الجنوبي من الهضبة تقع قرية صغيرة للأكراد، و لم يكن مخيم الشمر الواقع أمامنا كبيراً إذ كان يضم بين مائة ومائة وعشرين خيمة على أقصى تقدير، إلا أنه لم يكن يمثل ديار القبيلة بكاملها.

---

(١) قليلاً ما يعرف سكان الصحراء الشمالية العربية " الفنتازيا" على الطريقة السائدة خاصة في شمال إفريقية والمغرب والمعروفة باسم "لعب البارود"، وفي لعب البارود ينطلق الفرسان ركضاً في خط مستقيم وفجأة يندفعون بسرعة كبيرة، وعند إشارة معينة يطلقون النار على الأرض أو في الفضاء، أو يقذفون بنادقهم إلى أعلى ليلتقطوها عند النزول وهم قائمون على سروجهم والخيل في عدو سريع. وفي المغرب يؤدي الراجل أيضاً لعبة البارود فيقفز مصوباً بندقيته إلى الأرض مطلقاً النار كأنه يرمي عدواً منبطحاً.
أما في بلاد ما بين النهرين فإن ألعاب الفرسان تركز على النزال الفردي، وأما بخصوص لعبة كان يمارسها العرب قديماً وتتمثل في متابعة الفرسان لكرة يضربونها بعصاً خشبية، فقارن في ذلك يعقوب في كتابه "حياة البدو والعرب قديماً" الطبعة الثانية برلين ١٨٩٩ م، ص ١١٢. يجوز أن هذه اللعبة دخلت بلاد الهند مع الإسلام ، فهي تشبه إلى حد كبير لعبة " البولو" التي وجدها الإنجليز وتعرفوا عليها في الهند وجاؤوا بها إلى أوروبا.

(٢) [المترجم: هكذا وردت في الأصل مكتوبة باللغة العربية، ولعلها تكون " بريج" وهي قرية حاضرة معروفة].

يقع المخيم الأساسي في الجنوب الشرقي، في مكان يكثر فيه الماء لسدّ حاجة الناس والدواب؛ ذلك أن النهر الذي يخترق مخيم الشيخ فارس يكاد يكون جافاً، ولذلك يتم جلب المياه من عدد من الآبار.

الوصول إلى ديار الشمر

يكشف مخيم البدوعن منظر غاية من الروعة والجمال: من الخلف لون البراري الأصفر الشاحب، يتميز من أمامه لون الخيام السوداء التي تبرز من فوقها رماح عديدة، و يطلع الفرسان وحداناً ثم يختفون من جديد، في حين تبقى معظم الخيول مربوطة من أرجلها بحبال طويلة إلى أوتاد في ظل الخيام، و يروح ويغدو بينها الأطفال والكلاب.

عندما أشرفنا على مخيم الشيخ فارس من المرتفع ، استأنف مرافقونا من البدو ألعاب الفروسية بنشاط مضاعف، وراحوا يطلقون صيحات متوحشة وهم ينقضّون انقضاضاً على الخيام التي انطلق منها عدد من الفرسان للمشاركة في ألعاب القتال، استقبلنا الشيخ فارس قائماً على قدميه أمام خيمته، يحيط به عدد من رجاله، فترجّلنا بمساعدة المستقبلين، ثم دخلنا مجلس الرجال في خيمة الشيخ، وكان يجثو هناك على الأرض عدد يزيد على المائة من الرجال الذين هبّوا قائمين بمجرد دخولنا، وفي وقار لا يمكن وصفه دُعينا إلى الوسائد المستندة إلى الجدار الفاصل بين مجلس الرجال ومجلس الحريم. وما كدنا نفعل حتى عاد البدو إلى الجثو في أماكنهم واستئناف المحادثة التي توقفت عند ظهورنا بالصوت الخافت المعهود، وجلس المضيف إلى جانبنا وبدأ تبادل التحية المتكرر في لهجة رسمية.



البدو

وفي كلفة شديدة تم إعداد القهوة ودارت لما يزيد عن النصف ساعة حتى أنهى جميع الحاضرين رشف هذا السائل الأسود بارتياح مسموع، وأريد أن أسجل هنا أننا لم نتعرض إلى أية مضايقة من طرف البدو، لا عند استقبالنا ولا أثناء إقامتنا في مخيم الشمر، ولقد كانوا على قدر كبير من الاحترام والاستقامة، كما أن تصرفهم فيما بينهم كان هادئاً ومتزناً، ثم إنني أريد أن أؤكد نظراً للسمعة السيئة المنسوبة إلى البدو عند أهل المدينة، أنه لم يسرق من أمتعتي أي شيء أبداً.

جاء كثير من الضيوف من خيام بعيدة للشمر؛ الأمر الذي سمح لي بمتابعة مراسم الاستقبال عن كثب، وكان أهل الضيافة يجيدون التفرقة في طريقة استقبالهم لضيوفهم حسب أهمية الشخص دون أن يتخلوا في ذلك عن شيء من وقارهم. أما عن الشيخ فارس فقد وجدته كالأمير الذي يبدو شخصه الوقور في تناقض غريب مع الملابس البسيطة لهذا الباشا التركي الذي يحمل لقب "السعادة" إلا أن هذا اللقب ما كان يراعى من طرف رجال قبيلته الذين كانوا ينادونه بكل بساطة: "يا شيخ" أو "يا فارس" (١) .

كان فارس سميناً بالنسبة لما هو معهود عند البدو؛ ذلك أنه لم يشارك منذ سنين في الغزوات والحروب بل كان يعيش حياة مريحة تماماً، وعلى عكس البدوي النحيف الذي وصفه البلانتس وزاخاو عند التقائهم به سنة ١٨٧٨م وسنة ١٨٨٠م على التوالي، فقد أصبح الآن يضاهي في بدانته عرب المدينة أو الأتراك، وقد كان متوسط القامة، وكان رأسه يعلو رقبة غليظة، وتحفها لحية حادة سوداء، يتخللها شيء من الشيب يحلي شفته العليا، وكان له حاجبان كثيفان يظللان عينيه الذكيتين البراقتين، أما وجهه فكان مكتنزاً، وأنفه العريض شديد الانحناء، أسمر اللون تنمّ تقاسيم وجهه عن مزيج عجيب من الطيبة والودّ والقسوة اللامتناهية. أما ملابسه فقد كانت كما ذكرت بسيطة: كان القميص قد اتخذ لوناً غير محدد يشهد على طول الاستعمال، والعباءة البنية لا تكاد تحمل وشاحاً، وكانت الكفية بسيطة أيضاً، سوداء ذات حاشية صفراء، وكان يشد عقاله إلى الرأس بلثام أبيض يحيط بالذقن ، وكان حافي القدمين داخل الخيمة طبعاً، أما خارجها فكان يرتدي خُفاً أحمر. وكان دائماً يتقلّد سيفاً عريضاً منحنياً ونادراً ما يتخلّى عن غليونه التركي.

---

(١) يذكر أويتينج في كتابه "يوميات سفر في أعماق البلاد العربية"، لندن ١٨٩٦، المجلد الأول، ص ١٧٢، هامش (٢) أن الأمير محمد بن رشيد حاكم نجد الذي توفي منذ فترة، كان أيضاً يخاطب بكل بساطة باسمه: "يا محمد".



الشيخ فارس

الحياة والنشاط في المخيم أو الحي

كانت الضيافة عند الشيخ فارس مبالغاً فيها حتى بالمقاييس العربية؛ ذلك أنها شملتني وقافلتي والعشرين جندياً الذين كانوا يرافقوننا وركابنا كافة، أما أنا فكنت أتناول جميع وجباتي مع الشمر في خيمة الشيخ فارس، وقد نصبت خيامي وخيمة الضابط المرافق لي مباشرة إلى جانب خيمة الشيخ فارس .

مرت الأيام التي قضيتها في مخيم الشمر بسرعة نظراً للأحداث الكثيرة التي تخللتها؛ فقد زارني أثناء إقامتي عند الشيخ فارس شيخ قبيلة طيء في عدد من رجاله بغية الحصول على هدية مقابل القهوة التي تناولتها في خيمته، كذلك جاء شيوخ القبائل الصديقة: كالجبور، والحديديين، والبقارة، وقيس وغيرهم بسبب تسوية موضوع " الخوّة " في معظم الحالات، وقد كان لي اهتمام خاص بزيارة ستة من الأكراد يقودهم صبي حسن المحيا في العاشرة من عمره، كانوا يركبون خيولاً جميلة، ويرتدون ملابس غاية في الحسن تختلف كلياً عن ملابس البدو، وكان هؤلاء أيضاً يحملون رماحاً طويلة ثبتوها في الأرض أمام خيمة الشيخ فارس للدخول عندئذ إلى مجلس الرجال ، فجلس الصبي وعمّه المرافق له في مقعد على الوسادة الطويلة المحاذية لمجلس الحريم، غير بعيد عن المكان الذي أجلس فيه، بينما اختلط بقية الأكراد بالبدو الجالسين في الخيمة، ووضع الضيف كيساً كبيراً من التبغ أمامه وما لبث محتواه أن آوى إلى غلايين الشمر. كان اسم السيد الصغير عيسى، وكان من أبناء شيخ قرية صغيرة واقعة على الأطراف الجنوبية لجبل الطور سكانها مسيحيون، وكانوا رجال حرب وقتال تماماً مثل إخوانهم المسلمين من أهل القبيلة، ولا يقلون عنهم شيئاً في التزام الدين، كان هدف زيارة الشيخ عيسى للشيخ فارس نفس الهدف الذي جاء من أجله بقية سادة القبائل، فقد كان يرغب في تخفيض مبلغ

" الخوّة "، وقد تحقق له ذلك إلى حد ضئيل ، وكانت تلك أول زيارة له عند سيده منذ وفاة والده وتولّيه النفوذ على قومه، وكان عمه ينوب عنه في الكلام في قضيته، أما هو نفسه فقد بدا وكأنه لا يحظى بتقدير كبير، في الوقت نفسه تقريباً قدِم كبير شيوخ قبيلة عدوان واسمه فاضل، من ربوعهم الواقعة حاليّاً عند قور نشار شمال رأس العين، على مسافة عدة أيام من مخيم الشيخ فارس، لأداء واجب السلام على هذا الأخير. كما جاء موظف مدنيّ تركيّ " عشاير ماموري" يصحبه بعض الجنود للمطالبة بالضرائب على قطعان حيوانات البدو، و لم تكن قطعان الإبل والغنم الكبيرة التي يتعين على هذا الموظف عدّها لتحديد مبلغ الضرائب موجودة في مخيم الشيخ فارس ، وإنما كانت عند باقي رجال القبيلة.

بعد طلوع الشمس بقليل تجمع الرجال في خيمة الشيخ فارس، وفي الساعة العاشرة قدم الفطور الذي يتكون في معظمه من بقايا وجبات اليوم السابق مع العسل والخبز الطازج، ويأتي معظم الزوار في العادة بعد الظهر فتمتلئ الخيمة في الغالب، وتجري القهوة مجرى السيل إذا جاء ضيف جديد يستحق إكراماً متميزاً. وبعد الغروب بقليل تُقدَّم وجبة اليوم الأساسية فيأكل مئات من الناس من جفنات عظيمة عليها الأرز والبرغل، وفوق ذلك عدد من الخرفان، ويسقى الطعام بكميات كبيرة من السمن. أما الإنارة فكانت ضعيفة؛ لأنها تصدر عن بضعة مصابيح زيتية وعن النار التي يتم عليها إعداد القهوة، وقد أضفت المصابيح التي جئت بها من خيمتي شيئاً من بهجة الاحتفال على هذا التجمع، وعندما أرخى الليل سدوله انسحب الشمر إلى خيامهم حتى لا يضايقوا ضيوف الشيخ فارس. يتم نصب خيام البدو بطريقة غير منتظمة، بحيث توضع الخيام في مجموعات يتحكم فيها عامل ملاءمة المكان وعامل القرابة العائلية، وتتوزع هذه المجموعات في العادة على مسافات كبيرة، أما عند الخطر فإنها تتزاحم في مكان ضيق، ويتم نصب الخيام إذا أمكن على شكل صفوف.



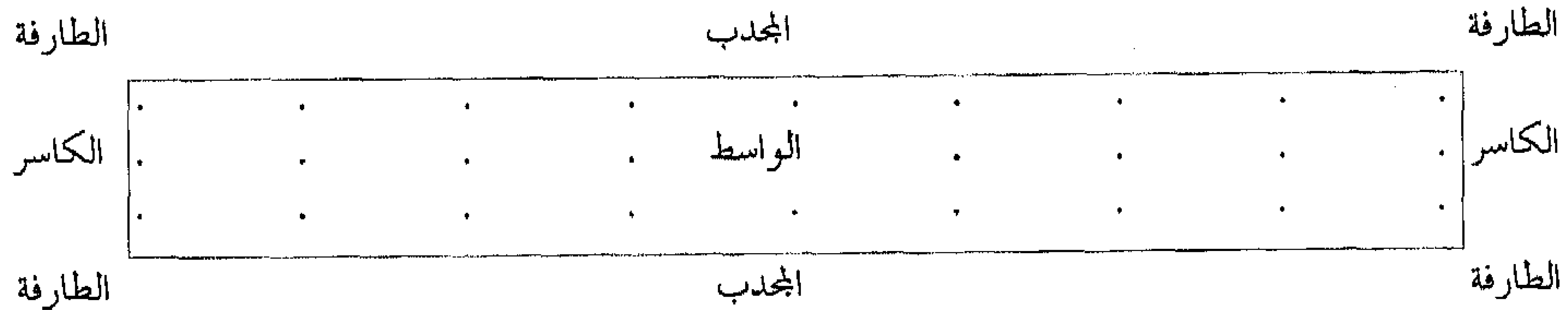
صورة لخيمة بدوية

الأسماء العربية لأجزاء الخيمة البدوية

البيت: الخيمة.
الشقاق: سقف الخيمة.
الرواق: الستار النازل من سقف الخيمة والذي يكتنف الخيمة تقريباً، ويكون عادة مرفوعاً عند مدخلها.
الخدرة: الحاجز الذي يفصل بين قسم الحريم وقسم الرجال.
الربعة: قسم الرجال من الخيمة.
العواميد: هي الأعمدة عامة، ولكل خيمة ثلاثة صفوف من الأعمدة باتجاه الطول، هي التي ترفع سقف الخيمة.
الواسط: هي جميع أعمدة الصف الأوسط عدا عمودَي الركن، والواسط هو أكثر أعمدة الخيمة طولاً(١) .
الكاسر: هما عمودا الركن للصف الأوسط.
المجدب: هي جميع الأعمدة متساوية الطول للصفين باتجاه الطول عدا عمودَي الركن لصفي الطول الخارجيين.
الطارفة: أعمدة الركن للصفين الخارجيين باتجاه الطول.
الطرايق : أجزاء من النسيج قليلة العرض تصلح لشد القطع التي تتركب منها الخيمة ولحماية السقف عند المناطق التي ترفع فيها الأعمدة سقف الخيمة، وتخاط الطرايق إلى الوجه الداخلي لسقف الخيمة.
الكراب: قطعة من الخشب على شكل شوكة تمثل طرف الأعمدة، وتحمل سقف الخيمة وتثبت فيها الحبال التي تشد الخيمة.
الطناب: أو الحبل – حبال الخيمة (٢) .

....

(١) في مصر يسمى العمود الأوسط "الواسط"، ويطلق اسم العامر على العمودين الجانبيين اللذين يحددان مع الواسط اتجاه الأعمدة الأخرى التي تحمل الخيمة ، ويطلق اسم "المقدم" على العمود المثبت باتجاه الطول عند المدخل .
(٢) الطناب يسمى في مصر "الحبل" . والمثلث الخشبي المكون من قطعتين والذي يصلح كحلقة ربط للحبل والعمود والخيمة يسمى في مصر "شعب" جمعه شعوب .



الحي البدوي، خيمة البدوي

يعرف بدو بلاد ما بين النهرين وسوريا طريقة نصب الخيام على شكل نصف دائرة " الدوار" مثلما عهدناها خاصة عند بدو شمال المغرب، وهذا الترتيب على شكل نصف دائرة، أو بالأحرى على شكل حدوة الفرس يجعل الخيام إذا شدت حبالها شداً واسعاً وثيقاً، واتجهت أبوابها كافة إلى الداخل على هيئة الحصن الذي يحمي أهله من فرسان العدو ما لم يكونوا مزوّدين بأسلحة نارية.

إن إحاطة الخيام بسياج من النباتات الشائكة على الطريقة المعروفة في شمال إفريقية "الزريبة" غير مستعمل في مناطق البراري؛ وذلك لعدم توفر المواد اللازمة ولكن عند توافرها مثلاً في منخفضات نهر الفرات، فإن استعمالها معروف ومحبَّذ، كما تحفر السواقي في كثير من الأحيان حول كل خيمة في فصل المطر لتيسير جريان المياه، وتكون خيام بدو الصحراء العربية وبلاد ما بين النهرين دائماً ذات زوايا، خلافاً للخيام المستديرة التي يستعملها المسافرون والجيش التركي في المشرق (١).

وتحقق خيمة البدوي في شكلها البدائي غرض الوقاية من البرد والشمس، وفي الأعمّ تشدّ الخيمة بحبال إلى أعمدة مثبتة باتجاه طول الخيمة. والخيمة ليست قطعة مستطيلة واحدة بل تتركب من عدد من القطع العريضة المنسوجة من شعر الماعز ووبر الإبل ، أما عدد الأعمدة فيتراوح بين اثنين وتسعة أعمدة .

عادة ما توثق الخيمة عرضاً بحبال قصيرة قريباً من الأرض، في حين يبقى جانب الطول مفتوحاً على وسعه عن طريق شده إلى حبال طويلة حيث يبلغ علو المدخل ارتفاع قامة الرجل أو أكثر حسب طول الأعمدة، وكثيراً ما يتم رفع الخيمة بعدد من الأعمدة الموازية للأولى من جانب أو من جانبين، ويوجّه الجانب المفتوح من الخيمة عكس اتجاه الريح والمتغيرات الطبيعية، أما في زمن الحر فإن الخيمة تفتح من جانبين متقابلين لتيسير مجرى الهواء.

(١) تعرف خيام هؤلاء عامةً بلونها الأخضر الفاتح .

حجم خيمة الشيخ كبير جداً، وتتركب خيمة الشيخ فارس من عدة شقق (١) عرض الواحدة منها ثلاثة أرباع المتر تقريباً، تخاط هذه الشقق إلى بعضها بطريقة غير محكمة، وتُفكّ للترحال إذ إن خيمة كاملة تمثل عبئاً ثقيلاً لا يتحمله جمل واحد (٢). كان عرض خيمة الباشا يقارب خمس عشرة خطوة وطولها قرابة خمس وثلاثين خطوة، وكانت الأعمدة الوسطى ترتفع إلى ضعف ارتفاع قامة الرجل. وتقسم الخيام الكبيرة دائماً إلى غرفتين يفصل بينهما جدار هو "المعند". تسمى الغرفة الكبرى " المقعد" ، وتخصص عادة لاستقبال الرجال والضيوف وعقد الاجتماعات، أما الصغرى وهي " المحرم " فتخصص لإقامة النساء، وفي غرفة الرجال تفرش على الجدار الداخلي الفاصل وعلى الجوانب مفارش وأغطية وسجاد ووسائد حسب إمكانيات صاحب الخيمة وثرائه . أما في الخيام الكبيرة فتفرش هذه الأمتعة على شكل نصف دائرة، أو على شكل حدوة تتجه إلى الجانب الغربي صباحاً وإلى الجانب الشرقي بعد الظهر.



خيمة بدوية

---

(١) بوركهارد – ملاحظات حول البدو والوهابيين ، فايمار ١٨٣١ م، ص ٢٩ و ٣١ يذكر خطأ كلمة "شوكه " عوضاً عن " شقة ".

(٢) إذا كانت هناك قطع تتدلى من سقف الخيمة إلى الأرض فإنه يطلق عليها اسم " رواق، رواقات" وتصنع عادة من وبر الإبل حتى ولو كانت الخيمة من شعر الماعز.

إعداد القهوة

أخيراً توضع " القِرْبة " وسطَ غرفة الرجال في مكان مرتفع مخصص لهذا الغرض ، أو على حجر، ويغرف منها الماء في وعاء يسمى "الطاسة" التي تصنع من النحاس أو من الخشب، فأما الطاسة النحاسية فشكلها نصف كروي، وأما الطاسة الخشبية فهي على هيئة مقياس اللتر (١). وغير بعيد عن القرب توجد بعض الأحجار على شكل موقد للنار يسمى " وجاق " يستعمل مكاناً لإعداد وطبخ القهوة، ولكن تكفي حفرة بسيطة في الأرض أحياناً لهذا الغرض ، وفي الخيام الصغرى حجماً يعالج الموقد بنفس الطريقة التي سبق ذكرها، بحيث يوضع مباشرة أمام الخيمة بطريقة لا تسمح للدخان بالدخول إليها، ولعملية إحضار القهوة دور هام في حياة البدو، و يقوم بذلك في شيء من الأبّهة الشيخ نفسه أو أحد المقرّبين الذي يضطلع بمهمة المراسم، أو أحد الخدم المقربين بمساعدة ثلاثة أو أربعة أشخاص آخرين، ويتم انتقاء حبوب القهوة أمام الضيوف، ثم توضع في مقلاة تسمى " القدرة " أو في المحمصة أو المحماص (٢) ، وبعد ذلك توضع على النار، والمحماص وعاء من الحديد على هيئة الملعقة وله ذيل طويل. ولا يفتأ المرء يحرك الحبوب بقضيب حديدي مثبت عند ذيل المحماص حتى تتم عملية التحميص ببطء وحذرشديدين، بعد ذلك تدقّ حبوب القهوة في "هاون"، ويلاحظ أنه يفضل الهاون السوري والدمشقي بالذات المصنوع من الخشب ويسمى" المدق " ، وهو كبير الحجم بقدر المقعد الصغير ومنحوت بطريقة فنية، ومزين بمسامير تدق عند حواشيه أو مزخرف بالصدف، ويمثل الهاون أداة مهمّة في بيت البدوي المحترم، وأما المهراس الذي يصنع من الحديد أو النحاس الأصفر فيسمى " الهاون " (٣)، و يولي البدو للرّنين الجميل أهمية كبيرة، وتطحن حبوب القهوة في دقّ متوازن، كثيراً ما تراعى فيه الوتيرة الموسيقية .

بعد ذلك تطبخ القهوة في وعاء يسمى " القمقم " (٤) وهو إبريق من النحاس الأحمر أو الأصفر، دقيق الرقبة وله مقبض " أذن " وغطاء وزلومة " منقار"، وتوجد منه أحجام مختلفة لتسع عدة لترات من السائل في حين لا يسع أصغرها إلا بضعة فناجين. وعادة ما تُصفُّ القماقم

---

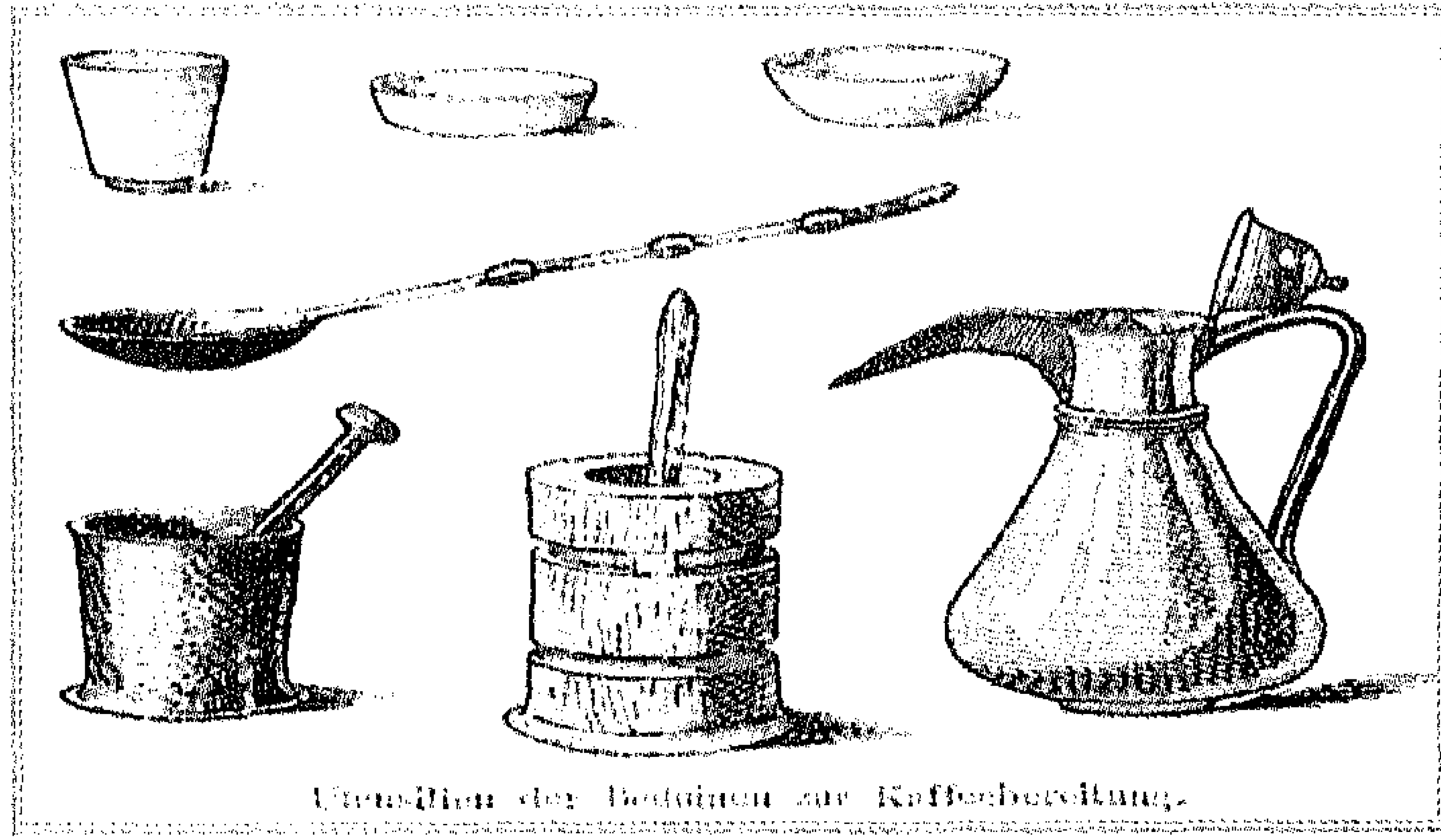
(١) يستعمل البدو في مصر وعاء خشبياً على شكل مجرفة يسمى القدح.

(٢) انظر اويتنج – يوميات رحلة في أعماق البلاد العربية ، لندن ١٨٩٦ م، ص ١٩٥.

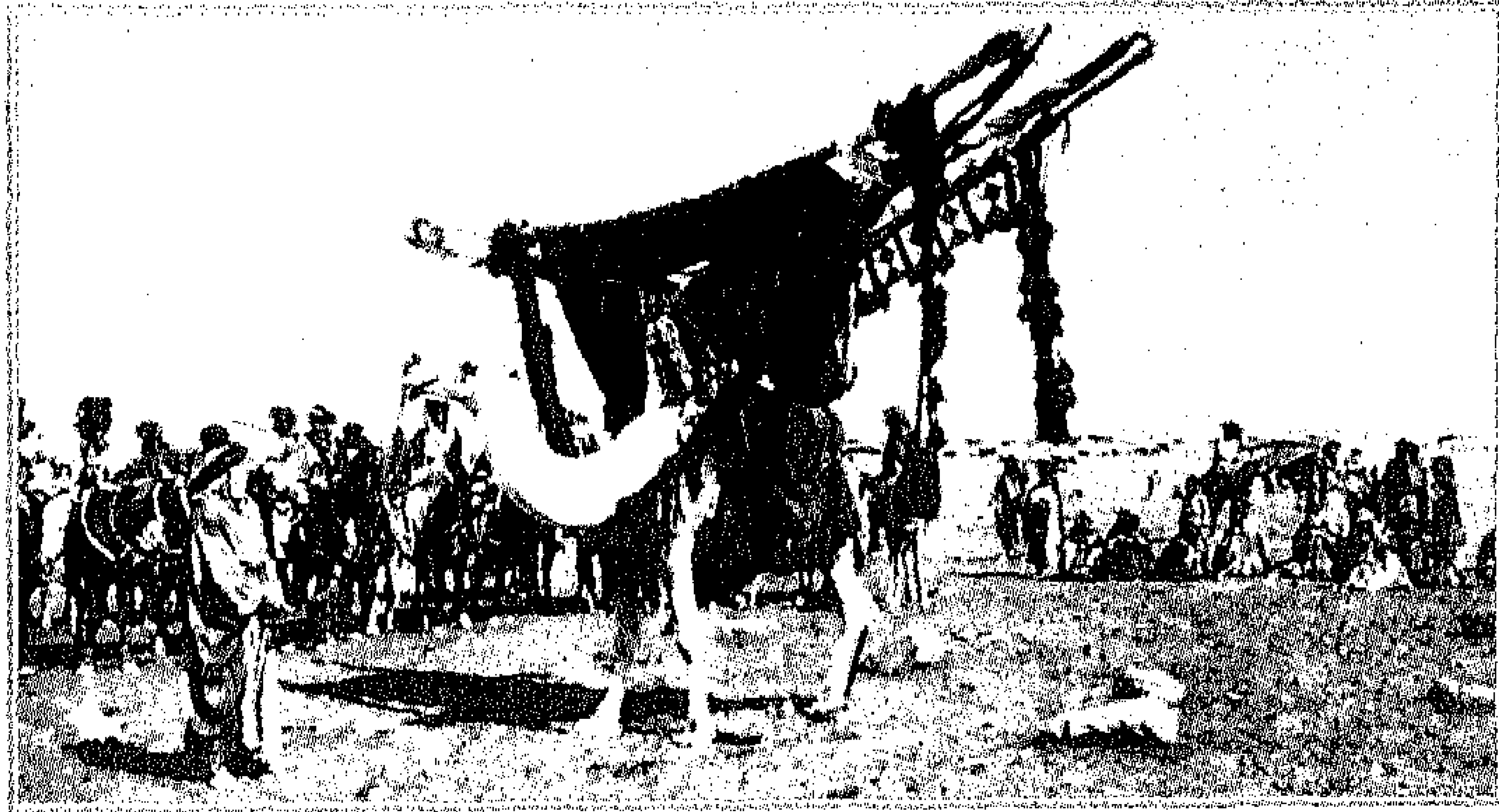
(٣) يسمى " النقر" أو " الجرن " انظر الصورة من كتاب اويتنج، ص ٨٣.

(٤) يسمى " دلة " في سوريا ونجد ، قارن بكتاب هوبر – يوميات مسافر في البلاد العربية ١٨٨٣/٨٤ باريس ١٨٩١م، ص ١٣١ وأويتينج ، ص ٨٣/٨٤ ، بالإضافة إلى أسماء أخرى لأدوات منزلية وما شاكلها مما يستعمل في الحياة اليومية.

بانتظام حسب أحجامها إلى جانب الموقد، وأما الفناجين فلها نفس شكل أمثالها المستعملة في المدن إلا أنها أكبر منها بكثير، و يتذوق الطاهي القهوة عدة مرات، ويصبّ ما يتبقى في الفنجان من جديد في الإبريق ، ولا يضيف البدو السكر إلى القهوة إلا نادراً في حين تستعمل التوابل بكثرة خاصة حبّ القرنفل (١)، و تراعى الأولوية عند تقديم القهوة إلى الحاضرين حسب المقام، ولا يصبّ في الفنجان إلا شيء قليل (٢)؛ فإذا أراد البدوي إكرام ضيف بصفة متميزة، فإنه يقدم إليه القهوة ثلاث مرات أو أكثر، ولا يجوز له الرفض إلا بعد المرة الثالثة إذا كان حريصاً على عدم إهانة المضيف.


Utensilien der Beduinen zur Kaffeebereitung.

صورة لأدوات إعداد القهوة



صورة لهودج المرأة البدوية

(١) في نجد يستعمل الهيل بكثرة ويسمى عند البدو المصريين "حب هان" وكثيراً ما يضاف الزعفران إلى القهوة .
(٢) يعتقد لفتي أنه وجد تعليلاً لهذه الظاهرة ، انظر المجلد الأول، ص ٢٤٥.

ونادراً ما يزيد عدد الفناجين على الستة، وأقصاه عشرة أو اثنا عشر فنجاناً وإن بلغ عدد الضيوف المائة، ولا تغسل الفناجين أبداً أثناء تناول القهوة، و في الخيام المؤثثة تأثيثاً جيداً تصبّ القهوة قبل تقديمها ثلاث مرات متتالية في أباريق أصغر كل مرة، وتسمى على التوالي لقمة، مصفاة، مصبّ، ويتناول كبار الضيوف فناجين القهوة من يد كبير المكلفين بإحضارها الذي يصبها ويقدمها بنفسه، أما بقية الحاضرين في خيمة الشيخ فارس فتدار عليهم في صينية توضع عليها الفناجين التي تملأ بالقهوة عند الموقد.

تتراكم عادة أكياس وأوعية تحمل الزاد والحبوب والملابس وغيرها في غرفة النساء عند الجدار الفاصل، حيث تحفظ الفرش أيضاً بعد طيّها، ويوجد قريباً منها موقد حجري كبير شبيه بموقد القهوة الصغير في غرفة الرجال، وأما الطهي فيتم باستعمال أوعية حديدية أو نحاسية مطلية يسمى أصغرها " طنجرة " تطبخ فيها الوجبات العادية لأهل البيت، وعند استضافة عدد كبير من الناس يستعمل الوعاء الذي يسمى " دست" ويتسع لعشرين لتراً أو أكثر، والوعاء الأكبر من هذا يسمى " القدرة "، فأما الطنجرة والدست فإنها تضيق في أعلاها في حين تكون القدرة على شكل مرجل نصف كروي له حافة عرضها ثلاثة أو أربعة سنتيمترات، هذه المراجل تستعمل أيضاً لتحويل الحليب إلى جبن عن طريق رجّها لفترة من الزمن، ويقدم الطعام في وعاء يسمى " المنسف"، وهو طبق أو صحفة مستديرة منخفضة يختلف قطرها من عشرين سنتمتراً إلى متر أو أكثر، وأما الملاعق فيزدريها البدو ويستعملون عند الطبخ ملاعق خشبية كبيرة تسمى " مغرفة "، ويطلق على الصغار منها اسم "خاشوقة"، وقد توضع هذه الأخيرة على المائدة عند وجود الحضر من بين الضيوف.

وجدت عدة مرات " الهودج" (١) في وسط غرفة النساء في خيام الشمر، وهوعبارة عن حمالة على هيئة المقعد الوثير تجلس فيه المرأة فوق ظهر البعير.

---

(١) انظر الصورة في الصفحة السابقة ٥٦ وأيضاً الصورة الموجودة عند لايارد – نينوى وبقاياها، المجلد الأول ص ٨٥٤، وانظر الهودج المغربي في كتاب يعقوب ص ٢٨.

الهودج

وللهودج سقف تحمله قضبان خشبية مقوّسة وتعلق عليه قطع من القماش، أما بدو بلاد ما بين النهرين فيجعلون على جانبيه قطعاً من الخشب في وضع أفقي بحيث تزيد في طوله، كما أنه يُحلّى بأهداب ذات ألوان زاهية، ولا يستغني أعيان الشمر عن هذا الزخرف أبداً، وتحفظ سروج الخيل والأشياء الثمينة إن توافرت في غرفة النساء أيضاً. وتودَع الثياب الثمينة وحلي النساء والمال في فصل الصيف عادة عند بعض الأصدقاء في المدن المجاورة، هذا على الأقل ما أكّدوه لي عند سؤالي؛ إلا أنه يجوز أن تكون هذه الأمتعة قد رهنت للتمكن من دفع الضرائب نقداً.



بدو في طريقهم إلى المدينة

تفضيل البدوي لحياة الخيمة

تقسم غرفة النساء في الخيام الكبيرة باستعمال الستائر إلى حجرات تبسط فيها فرش مختلفة للنساء، ويملك كبار الشيوخ خياماً إضافية تعيش فيها زوجاتهم مع الأطفال وبعض الخدم، خاصة إذا كانت هؤلاء الزوجات على علاقة سيئة مع الزوجة الأولى.

ويرجع إصرار البدوي على استعمال هذه الخيام التي تضمن حماية كافية من عوامل الطبيعة إلى نمط حياته و طبيعة البدوي ، ويفتخر ابن البراري بخيمته السوداء إلى درجة احتقار الحضر ومنازلهم الحجرية؛ ولهذا يواجه الباب العالي صعوبات كبيرة في سعيه إلى إيجاد شيء من الحضارة والمدنية عند البدو عن طريق حملهم على الاستقرار، فقد استجابت قبيلة طيء مثلاً إلى طلب الحكومة، وشيّدت بيوتاً ثابتة أو حصلت عليها من الحكومة، غير أنها لا تزال تسكن

الخيام في حين تبقى البيوت الثابتة خالية (١)، ويذكر لايارد (٢) أن امرأة بدوية هي زوجة سطام شيخ الشمر رفضت أن تتحمل معرّة النوم حتى في خيمة بيضاء من الخيام التي يستعملها أهل المدن ، كما يذكر أن أميرة مصرية في عهد الخديوي عباس الأول – وكانت ابنة شيخ بدوي – أمرت بنصب خيمة لها فوق سطح القصر الذي تعيش فيه (٣)، ولا يزور البدو المدينة إلا على مَضَضٍ، أما شيوخ القبائل الكبيرة فلهم وكلاء في الأماكن التي ينبغي عليهم زيارتها بين الحين والآخر إما لقضاء حاجة ماسة أو لشراء كميات كبيرة من الزاد، كما أن أهل المدينة يظهرون بدورهم نفوراً شديداً من أبناء الصحراء المتوحشين .

ازدراء البدو للمدن

إن كره البدو (٤) لحياة الاستقرار يوضح السبب في أنهم لم يستطيعوا أبداً الانضمام إلى شعب موحد، وليس هناك أدنى شك في أن سكان الخيام والرعاة الرحّل قد جابوا الصحراء العربية الشمالية وبلاد ما بين النهرين منذ أمد بعيد، فالإنجيل يذكر أن إبراهيم عليه السلام نزح مع جموع قومه من بلاد ما بين النهرين إلى الأراضي المقدسة والبحر الميت، والوثائق التي تشير إلى وجود البدو في شمال شبه الجزيرة العربية تثبت أن المعطيات الحضارية لهؤلاء الناس كانت ولا زالت على نفس النمط الذي نجده عندهم إلى اليوم، وفي هذا الصدد يحظى تراثهم الشعبي القديم بقيمة كبيرة في الدلالة على صحة هذا القول .

أول ذكر في التاريخ لسكان الخيام من العرب

نجد أول ذكر للعرب الذين كانوا على ما يبدو يركبون الإبل في تقرير بالكتابة المسمارية للملك الآشوري سلمنصار الثاني الذي حكم من سنة ٨٦٠ إلى ٨٢٥ قبل الميلاد(٥). وقد شنّ الملكان سنحريب وآشور بانيبال(٦) في القرن السابع قبل الميلاد حرباً كبيرة على العرب الذين

---

(١) انظر الفصل ٦ ص ٢١٥ وقارن الفصل ١ ، ص ٢١.
(٢) نينوى وبابل، ص ٢٠٣.
(٣) انظر المجلد الأول الفصل ٥ من هذا الكتاب، ص ٢٠٢.
(٤) كلمة " بدو" مفردها بدوي، وتعني بالنسبة لي: الرّحّل الذين هم من أصل عربي.
(٥) ديليتش – أين كان موقع الجنة ، لايبتزيغ ١٨٨١ م، ص ٢٩٥.
(٦) ديليتش المرجع المذكور ، ص ٢٩٦ وما يليها.

كانوا يسكنون الخيام في الأراضي الآشورية (١). وقد برهن ديليتش (٢) على وجود قبائل بدوية عربية بالذات منذ عهد الآشوريين، معتمداً على عدد من الشواهد البَدَهية في المراجع الآشورية.



بدو في المدينة

مقالة سترابو حول الرعاة المتنقلين في بلاد ما بين النهرين

أما أول ذكر مفصل عن الأوضاع السياسية وحال الشعوب البدائية في بلاد ما بين النهرين فنجده في القرن الأول بعد الميلاد عند سترابو، الذي يذكر حرفياً أن كامل بلاد ما بين النهرين جنوب الجبال الكردية وشمال شبه الجزيرة العربية حتى صحراء النفود الكبرى كان يقطنها عرب يسكنون في الخيام، ويقول: «إنهم لصوص ورعاة يتنقلون بسهولة إلى مناطق أخرى إذا نفدت المراعي وفرص النهب».

كانت الطريق التجارية الكبيرة بين سوريا وسلوقيا في بلاد بابل تمر عبر مناطق هذه القبائل البدوية المقيمة في بلاد ما بين النهرين، وكانت هذه القبائل تحافظ على السلم مع القوافل العابرة لكنها تفرض " رسوماً جمركية ". وكانت القوافل تفضل الطريق عبر الصحراء على طريق دجلة والفرات؛ لأن مختلف الأمراء الصغار المقيمين هنا يطالبون برسوم أعلى على البضاعة العابرة، ويذكر سترابو في الكتاب السادس عشر في الفصل الثالث مرة أخرى الرعاة المتنقلين في بلاد

(١) ديليتش المرجع المذكور، ص ٣٩٦

(٢) لم تكن عادات البدو الأولين تختلف عن عادات البدو اليوم إلا قليلاً. قارن صورة المردوف على ظهر الناقة من قوجون جيك نقلاً عن بلايس اللوحة ٥٥، ٤ في الصورة التابعة للفصل ١٤، ص ١٨٥

(٣) المرجع المذكور، ص ٣٠٥ وما يليها.

ما بين النهرين ويصفهم بأنهم لا يكادون يمارسون الفلاحة، وفي مقابل ذلك يُربّون قطعان الماشية من جميع الأنواع خاصة منها الإبل، كما يذكر وجود أمراء قبائل عربية إلى جانب البدو على ضفاف نهر الفرات حتى بابل، ويذكر وجود إمارات عربية صغيرة في سوريا حيث يعيش العرب في مدن ، ويتميزون على سكان بلاد ما بين النهرين من أهل الخيام بشيء من التحضر بسبب اختلاطهم بالسوريين، وربما كان هؤلاء المتحضرون بدواً سابقاً ، ثم دفعتهم قبائل أقوى منهم إلى مغادرة المراعي واللجوء إلى أطراف الصحراء، ولما أحسوا بالضعف عن مواصلة الترحال استقروا وتقبلوا شيئاً من الحضارة .

يشهد التاريخ أن شعوباً عربية قد كوّنت ممالك أو دولاً ذات شأن في حالات عديدة بعد أن كانت تعيش حياة تنقّل دائم، والمثال على ذلك: الغساسنة في حوران، واللخميون في الحيرة عند أسفل الفرات (١).

و لم تتغير الأوضاع في الصحراء عبر القرون التالية عما ذكره سترابو؛ فقد تواصل نزوح القبائل العربية من شبه الجزيرة إلى الشمال حيث أزاحوا الشعوب المقيمة هناك والتي انقرضت شيئاً فشيئاً، أو استقرت عند أطراف الصحراء .

تأثير الإسلام ، قبيلة طيء

قبل التغيير الكبير الذي أحدثه ظهور الإسلام في سوريا وفي الصحراء العربية، كان بنو طيء يمثلون أكبر قبيلة لا تزال بقاياها موجودة إلى اليوم (٢). وقد بلغت هذه القبيلة درجة كبيرة من الأهمية حتى أصبح السوريون وحتى الصينيون يطلقون اسم هذه القبيلة على جميع العرب.

نزوح العرب

وتواصل نزوح العرب من شبه الجزيرة إلى الشمال بعد ظهور الإسلام، ولا تزال بقايا من قبيلة قيس التي شاركت في هذه الحملات إلى اليوم في شمال بلاد ما بين النهرين، كما توجد بقايا قبائل أخرى حجازية خاصة عند وسط دجلة وأسفله مثل: الخزرج، وبني تميم، وبني لام، و لم

....

(١) مملكة odenate في تدمر، ومملكة حترا في بلاد ما بين النهرين التي لا يعرف عن تاريخها شيء كثير ، وكان معظم سكانهما من الآراميين.

(٢) أصل قبيلة "طيء" من جنوب شبه الجزيرة العربية، انظر فيستنفيلد في كتابه – لوحات نسب القبائل والعائلات العربية،المجلد الثاني، ص ٦ و٧ وانظر ديفيريا في مقالته – أصل الاتجاه الإسلامي في الصين، في مئوية مدرسة اللغات الشرقية، باريس ١٨٩٥م.

يتوقف هذا النزوح في العصور الوسطى وحتى العصور الحديثة، وقد حدثت في القرون الأخيرة تحركات ذات أهمية متميزة نستقي معلومات عنها مما لا يزال متداولاً من القصص حولها.

الشمر في البلاد العربية

وقبيلة الشمر هي أول قبيلة مسّها هذا التحول، ونجدها إلى اليوم ذات نفوذ لا يُنازَع في بلاد ما بين النهرين، كما أنها تمثل الثقل الأكبر في نجد حيث أصبح ابن رشيد - وهو أحد رجال الشمر - سيداً على كامل وسط شبه الجزيرة العربية بعد إخضاع الوهابيين، وقد جمع بالجريف عند سفره إلى نجد سنة ١٨٦٢م و ١٨٦٣م (١) في المكان ذاته معلومات عن تاريخ نشوء قبيلة الشمر، حيث يبدو أن عدداً من القبائل العربية خاصة منها بنو تغلب وبنو عبس والحوازم، انضم بعضها إلى بعض عند جبل الشمر، وكوّنت قبيلة حملت اسم هذا الجبل، وسادت منذ ذلك الوقت وسط شبه الجزيرة العربية، وقد حدث هذا في العصور الوسطى إثر تقلبات ترجع إلى ظهور الإسلام على ما يبدو. أما اسم الشمر ذاته فيرجع أصله إلى جنوب شبه الجزيرة (٢)؛ ففي منتصف القرن السابع عشر تحركت أجزاء من هذه القبيلة - التي كانت آنذاك كبيرة جداً بدون شك- في اتجاه الصحراء السورية التي لابد أنهم اعتبروها أرضاً موعودة، ومراعي مرغوباً فيها بسبب كثرة أعشابها في الربيع والصيف وغزارة مياهها مقارنة بأوضاع وسط شبه الجزيرة.

هجرة الشمر إلى سوريا

كان عدد من القبائل مثل: بني عامور، والحديديين يسكنون البراري السورية في ذلك الوقت، و لم يذكر الرّحّالة في ذلك العهد إلا عدداً قليلاً من أسماء تلك القبائل للأسف، غير أن قبيلة الموالي كانت آنذاك أقوى قبيلة في الصحراء السورية، وكانت لهم مع الشمر وقائع دامية على مدى زمن طويل (٣)، وقد انتصر الشمر ودفعوا الموالي إلى منطقة العلاء في الشمال الغربي من سوريا، شرق حماة وحلب، حيث نجدهم يمارسون النشاطات الزراعية إلى اليوم (٤)، ويذكر بلانتس أن أصل الموالي يرجع إلى أحد أبناء الخلفاء الأمويين، وقد جاء مبعوثاً إلى بلاط

(١) قارن فيتزشتاين، المجلد ٢٢ ص ٩٠، ودافتي، المجلد الثاني، ص ٣٧ وما يليها.
(٢) قارن لوحات النسب عند بريدو – القصيدة الحميرية.
(٣) انظر بالجريف في كتابه – يوميات سنة من الترحال عبر وسط وشرق البلاد العربية، المجلد الأول، ص ١١٨.
(٤) انظر كتاب بوركاهارد، ص ٣١١، حيث يذكر أن الموالي فقدوا سيادتهم على الأراضي المحيطة بحلب وحماه في بداية القرن العشرين وتولاها بنو عنيزة.

الإمبراطورة تيودورا وحاز إعجابها إلى درجة أنها أجزلت له العطاء، ووهبته العديد من الخدم حتى استطاع أن يشكل من حوله قبيلة، ثم أصبح مستقلاً واستقر في الصحراء (١).

وبعد فترة قصيرة من استحكام أمر الشمر في سوريا ظهرت موجة جديدة من النازحين من شبه الجزيرة وهم آل عنيزة، ونجد بقاياهم في جنوب نجد إلى اليوم، ويدلّ اسم مدينة عنيزة القائمة هناك على الموطن الأصلي لهذه القبيلة (٢).

وليس هناك دليل على نزوح قبائل أخرى بعد الشمر وآل عنيزة من الجنوب إلى سوريا وبلاد ما بين النهرين، ولذلك يُرجّح أن جميع القبائل الأخرى التي نجدها اليوم في هذه المناطق هي من بقايا البدو الذين كانوا يجوبون هذه الأراضي منذ القِدَم.

وقد نشبت معارك دامية بين آل عنيزة والشمر انتهت بتخلّي الشمر عن سوريا لآل عنيزة(٣)، الذين يعرفون بلا ريب خصوبة أراضي بلاد ما بين النهرين في غزواتهم السابقة لها.

بنو عنيزة ، الشمر يقطعون نهر الفرات

ثم دخلوا شوطاً جديداً من الترحال، فعبروا نهر الفرات وأخضعوا شيئاً فشيئاً كامل بلاد ما بين النهرين من خط عرض بغداد إلى سلاسل الجبال الكردية في الشمال، أما الذين سكنوا هذه المناطق إلى ذلك الحين فقد اضطر فريق منهم إلى التراجع إلى خارج هذه المناطق مثل قبيلة طيء التي نزح معظمها إلى بلاد ما بين النهرين، وانقسمت إلى قسمين: استقر أحدهما في شمال سنجار، وذهب القسم الآخر إلى ما وراء دجلة جنوب شرقي الموصل محاذياً لنهر الزاب، واضطر الفريق الثاني الذي يتألف من مجموعة من القبائل إلى التخلي عن حياة البداوة، واستقر في منخفضات الوديان، ونذكر منه خاصة قبيلة الجبور الكبيرة التي انقسمت بدورها إلى عدة فروع نزلت عند دجلة والخابور، ونزل بعضها عند نهر الفرات، ونجد بعد ذلك القبائل الصغيرة مثل البقارة والعقيدات التي أنشأت قرى استقرت فيها عند الخابور والفرات.

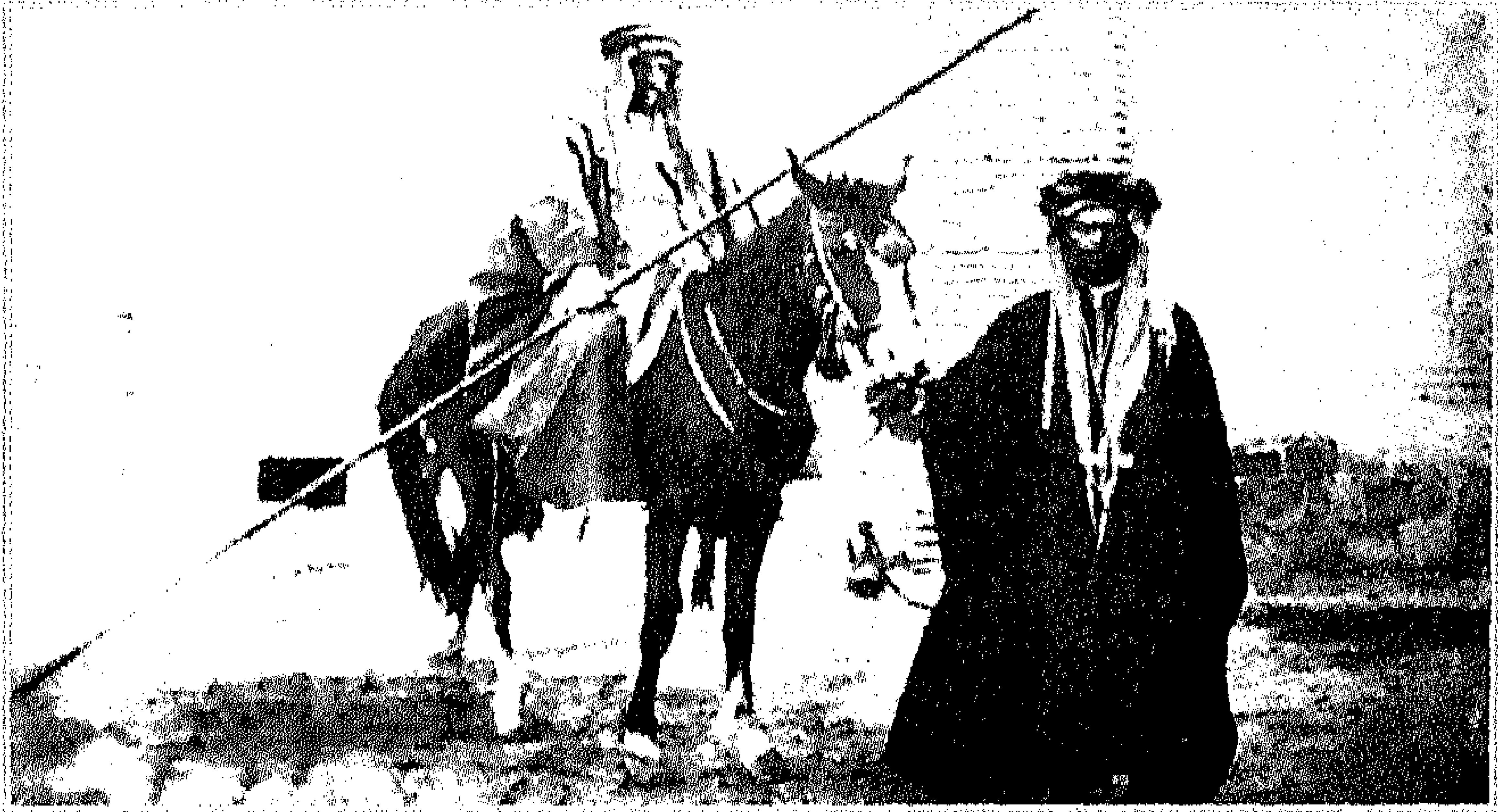
---

(١) انظر بلانتس ، المجلد الأول ص ١٧٦.

(٢) يعدّ بنو عنيزة قبيلة من أعرق القبائل العربية، وقد سبق ذكرها منذ عهد بعيد، وأصلها من بني ربيعة وعلى وجه التحديد من بني وائل أعداء [النبي] محمد عليه الصلاة والسلام، انظر بوركهارد، ص ٣١٠، ويعقوب في: حياة البدو القدماء، الطبعة الثانية، برلين ١٨٩٧ م، ص ٣٣: ويذكر ابن الأثير سنة ١١٩١م، الجزء ١٢ ، ص ٦٧: بنو عنيزة الذين يسكنون عشرين قرية على الجبال الرابطة بين الحجاز واليمن، وهي المنطقة التي تسمى اليوم عسير.

(٣) لا يزال آل عنيزة إلى اليوم القبيلة السائدة في صحراء سوريا، وقد تجرّأوا في الخمسينيات على غزو مدينة حلب ونهبوها نهباً، وأخذوا معهم عدداً لا يُحصر من الأشياء الثمينة التي يرجّح أنهم سارعوا إلى بيعها؛ لأنهم لا يعرفون سبيلاً آخر إلى الاستفادة منها.

وقد تكوّنت هذه التجمعات الجديدة للقبائل البدوية في سوريا وبلاد ما بين النهرين في أول القرن الماضي على آخر تقدير وظلت على حالها إلى اليوم (١)، ولا يزال نهر الفرات يمثل الفاصل بين القبيلتين الكبيرتين المهيمنتين: عنيزة في سوريا، والشمر في بلاد ما بين النهرين.



شيخ عنيزة مع بدوي من الحمد الشرقي

أحدث الأمثلة عن نزوح البدو
" بنو هنادي"

أما طريقة نزوح القبائل البدوية في العصر الحديث فإن تاريخ قبيلة هنادي الصغيرة يضرب مثلاً واضحاً على ذلك؛ فالموطن الأصلي لهذه القبيلة هو المغرب (٢) الذي نزحت إليه من شبه الجزيرة العربية في زمن غير معروف، ونجدها بعد ذلك في الجزء الغربي من دلتا النيل قرب الإسكندرية، إلا أن القبيلة الأقوى وهي قبيلة ولد علي التي لا تزال إلى اليوم بين سيوا ومصب النيل أخرجت قبيلة هنادي من مناطقها، فتوجّهت في بداية هذا القرن إلى المناطق الشرقية من دلتا النيل، وعندما زحف إبراهيم باشا في الثلاثينيات بجيوشه المصرية على سوريا رافقته قبيلة هنادي بصفة فرسان لا ينتمون إلى الجيوش النظامية، ووصلت معه إلى أقصى مناطق سوريا الشمالية، ولما غادر إبراهيم باشا سوريا بقيت قبيلة هنادي - ولا تزال - تعيش إلى اليوم حياة

....

(١) لا بد أن يكون قد حدث نزوح آخر للشمر من وسط شبه الجزيرة العربية إلى بلاد ما بين النهرين في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، قارن لايارد، نينوى وبابل، ص ٨٩٤ .

(٢) انظر بوركهارد، هوامش، ص ٣١٨.

شبه بدوية بين حلب والفرات حيث وجدها زاخاو سنة ١٨٨٠م، (١) كما وجدها أيضاً جنوب دمشق، وبقي جزء من القبيلة في مصر، ولا يزال يوجد عدد يبلغ ٢٧١٠٣ نسمة شرق الدلتا في محافظة الشرقية بالذات (٢)، وفي السنين الأخيرة عادت بعض العائلات من هذه القبيلة إلى النزوح من مصر إلى سوريا، والاستقرار قرب مدينة حماة .

ونذكر مثالاً على توسع نزوح القبائل العربية: قبيلتَي بني سليم و بني هلال، فقد كانت هاتان القبيلتان من السابقين في الدخول إلى سوريا تحت راية الإسلام، واستقرتا حيناً من الدهر في حوران، ثم أُوعِز إليهم بالرحيل إلى مصر ففعلوا، ونزلوا عند دلتا النيل، لكن ميولهم إلى اللصوصية جلب إليهم سخط السكان فاضطروا إلى الانتقال إلى صعيد مصر، وهنا أيضاً لم يتوقف سوء تصرفهم، إلا أن وزير الخليفة الفاطمي المستنصر حملهم زهاء سنة ١٠٥٠ م على النزوح إلى غرب شمال إفريقية (٣)، ووعد كُلاً منهم بقطعة من الذهب وناقة؛ فتوغّلوا شيئاً فشيئاً حتى بلغوا المغرب الأقصى، ويرجّح أن يكونوا هم السبب في تعريب شمال إفريقية.

الشمر في بلاد ما بين النهرين

يقول شيوخ الشمر: إن أصلهم يعود إلى زمن الرسول ﷺ ولذلك فإنهم يطلقون على أنفسهم اسم " بيت محمد "، ويزعمون أن جدهم الأول كان صحابياً من الأنصار.

لم يكن وضع الشمر في بلاد ما بين النهرين مريحاً منذ البداية، فقد كان لهم أعداء في كل مكان، وكان عليهم أن يخوضوا حروباً متواصلة، ليس مع القبائل التي أخرجوها من ديارها فحسب، وإنما يرجّح أن يكونوا قد تحاربوا أيضاً مع الأتراك، وقد أصبح لهم فيما بعد أعداء على قدر كبير من الأهمية والقوة وهم التركمان والأكراد، والشركس أيضاً في الفترة الأخيرة. وتذكر القصص أن شيوخهم تميزوا خلال هذه الحروب الكثيرة بالخصال العربية الأصيلة، ولا شك أن عدد القبيلة الذي لا يزال يبلغ إلى اليوم عشرات الآلاف من المقاتلين، رغم جميع الوقائع الدامية التي خاضوها، هو الدليل على قوة إرادة غير عادية يتميز بها رجال هذه القبيلة، ومن ناحية أخرى يغلب الظن أن عدداً من القبائل التي خضعت للشمر - خاصة منها القبائل

....

(١) انظر زاخاو، ص ١٤٣.

(٢) قارن – التعداد العام لمصر، غرة يونيو ١٨٩٧، القاهرة، المجلد الثالث، ص ١١.

(٣) انظر مولر– الإسلام، المجلد الثاني، ص ٦٢٨.

الصغيرة - قد التفّت حولهم واندمجت معهم، رغم أن العداوة التي لم تخمد نارها كلياً مازالت تنفجر في كثير من الأحيان في شكل اصطدامات متجددة .

وقد برز الشمر لأول مرة كقوة سياسية في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر أثناء اضطرابات بغداد، فقد شكل داود باشا حاكم بغداد سنة ١٨٣٠م قوة عسكرية منظمة تنظيماً أوروبياً بغية الاستقلال، واتبع في ذلك مثال محمد علي باشا في مصر، وظهر وباء الطاعون في الفترة نفسها سنة ١٨٣٠م فقضى على معظم سكان بغداد، وذهبت ضحيته جموع غفيرة من جنود داود باشا، وعلاوة على ذلك فاض نهر دجلة وغمر المدينة بكاملها، وعندما جاءت نهاية فصل الحر التي وضعت حدّاً للوباء وللفيضانات، جاء علي باشا الذي عيّنه الباب العالي مؤخراً حاكماً على حلب ليتولى إدارة بغداد، ولما تصدّى له داود باشا لجأ علي باشا إلى صفوق شيخ الشمر وطلب منه المساعدة، و لم يكن صفوق في الواقع إلا شيخاً لفرع من الشمر، لكنه كان فرعاً متميزاً، وهو فرع الجربا الذي أصبح يطلق على كامل شعب الشمر.

دور الشمر في اضطرابات بغداد سنة ١٨٣٠م
" الشيخ شلوش "

استطاع علي باشا أن يدخل بغداد بمساعدة الشيخ صفوق، و لم يتمكن داود باشا من إنقاذ حياته إلا بتسليم جميع ثرواته، وانتقل إلى القسطنطينية لقضاء ما بقي من أيامه دون التعرض إلى المضايقة، وبعد دخول علي باشا إلى بغداد طالبه الشمر بالجزاء الموعود لكنه لم يستطع أو - لم يرغب - في الوفاء بوعده، الأمر الذي جعل الشمر ينسحبون إلى أواسط بلاد ما بين النهرين، وينصرفون إلى نهب القوافل، ثم توجهوا إلى بغداد وحاصروها مدة ثلاثة أشهر، إلا أنهم اضطروا إلى الرجوع إلى الصحراء متوعّدين بالعودة في السنة التالية، وحيث إن علي باشا لم يكن يملك قوة عسكرية يجابه بها الشمر فقد طلب المساعدة من قبيلة عنيزة، وسعى إلى انقسام قبيلة الشمر إلى شقين متعاديين تطبيقاً للمقالة الشهيرة " فرّقْ تسدْ " .

واستطاع علي باشا أن يمكّن أحد أبناء إخوة صفوق - ويدعى شلوش - من نفوذ كبير جعل فريقاً من الشمر يبايعه شيخاً عليه، ولكن الفريق الأكبر بقي على ولائه للشيخ صفوق، وكانت قبيلة عنيزة في هذه الأثناء قد وصلت في جيش يعدّ خمسة وثلاثين ألف رجل طمعاً في المراعي الخصبة التي كانت في حوزة الشمر، لكن علي باشا أوجس خيفةً من هذه القوة التي طغت على

بلاد ما بين النهرين فأعلن أنه لم يعد في حاجة إلى مساعدتهم، لكن آل عنيزة لم يكترثوا لإعلانه ونزلوا قرب بغداد؛ فعاد علي باشا إلى الشيخ شلوش يلتمس منه العون، وحتى العدو القديم الشيخ صفوق أرسل ألفَي رجل لمناصرة ابن أخيه، ذلك أن حرباً كهذه تهدد شرف قبيلة الشمر بكاملها، وانتصر آل عنيزة في هذه الحرب، وصبّوا غضبهم خاصة على رجال الشيخ شلوش الذي وقع هو نفسه أسيراً ومزّق إرْباً، أما جنود السلطان فقد كان حظهم أوفر من حظ رفاقهم من البدو، و لم ينسحب آل عنيزة إلا بعدما استنجد علي باشا بقبيلة زبيد التي كانت مستقرة في جنوب بلاد ما بين النهرين منذ القِدَم، والتي وصلت إلى بغداد بين شتاء عامَي ١٨٣٤ و ١٨٣٥م.

عاد الشيخ صفوق عندئذ إلى السيادة على الشمر كافة، وحظي بالقبول الحسن لدى الحكومة التركية التي لم تنسَ فضله في القضاء على محمد علي ميرزا ابن ملك الفرس فتح علي شاه في غزوة مشهودة (١)، وقد سمت مكانة الشيخ صفوق في منتصف الثلاثينيات حتى أصبح يلقّب بـ "ملك الصحراء"، وقد استعمل الشيخ صفوق نفوذه بطريقته الخاصة دون شك؛ ففرض الضرائب على بلاد ما بين النهرين كاملة، ونهب القوافل ومناطق الحدود الصحراوية، وتصرّف تصرُّف الأمير المستقل تجاه الباب العالي .

الشيخ صفوق والحكومة

شرع السلطان محمود الثاني في إصلاح الإمبراطورية العثمانية كافة؛ فكان لا بد من وضع حد لهذه الأوضاع أيضاً، وقد سبق له أن تخلص بالحيلة أو بالقوة من الحكام الصغار الذين كانوا يعيشون في شبه استقلال في آسيا الصغرى ويلقبون بـ " الديرى باي "، وتعني العبارة " أمراء الوديان والمنخفضات"، ومنذ أن أصبح السلطان يملك جيشاً منظماً تنظيماً أوروبياً خاصة بفضل جهود ضباط من بروسيا (٢)، اتجه نظره إلى المناطق الشرقية فأخضع أولاً الأمراء الأكراد، ثم بدأ يسعى إلى فرض وإرساخ النظام في بلاد ما بين النهرين، ولمّا لم يكن من السهل التغلب بالقوة على الشيخ صفوق؛ فقد لجأ محمد رشيد باشا قائد القوات التركية إلى استدراجه عن طريق الغدر وأسْره وإرساله إلى القسطنطينية، إلا أنه استطاع أن يتحرّر بعد بضعة أشهر،

(١) انظر لايارد – نينوى وبقاياها ، المجلد الأول، ص ٩٤.
(٢) انظر مولتكه، ص ٢٥٤ – ٢٩٨.

وأن يرجع إلى بلاد ما بين النهرين، وأصبح الشيخ صفوق مصدر فزع لمقاطعتَي الموصل وبغداد، وتوسعت غزواته حتى بلغت نهر دجلة في المناطق الشرقية.

وقد وقف الشيخ صفوق العدو اللدود للأتراك بين الحين والآخر إلى جانب الباب العالي عندما كان ذلك يتماشى مع سياسته الشخصية، وقد أخرج قبيلة آل هنادي التي جاءت كما ذكرنا سنة ١٨٤٠م مع إبراهيم باشا إلى شمال سوريا واستقرت في رأس العين - من ديارها (١)، وكان كل طموح الشيخ صفوق موجّهاً إلى استرجاع نفوذه الشخصي وسيادته المطلقة على بلاد ما بين النهرين ، ولأن القوة العسكرية التركية الجديدة قد تعرضت إلى إبادة تامة على أيدي الجيوش المصرية في موقعة نزيب سنة ١٨٣٩م؛ فإن الباب العالي لم يكن قادراً على مجابهة الشيخ صفوق بالقوة، فالتجأ ثانية إلى محاولة التفريق بين الشمر عن طريق تعيين نجرس (٢) أحد أبناء إخوة صفوق شيخاً على القبيلة.

الشيخ نجرس و نهاية الشيخ صفوق

ازداد نفوذ نجرس وأصبح يشكل خطراً، عندئذٍ تواطأ نجيب باشا والي بغداد مع الشيخ صفوق، ووعده بمساندته بقوة عسكرية كبيرة في مجابهة خصمه العنيد، وهكذا ارتكب صفوق خيانة لا تغتفر عند العرب ليتخلص من منافسه القوي، فقد دعا نجرس لزيارته لتسوية الخلافات بينهما بالتي هي أحسن، و لم يلبّ نجرس هذه الدعوة إلا بعدما عاهده فرحان بن الشيخ صفوق على ضمان سلامته، وكان هذا الأخير يحظى بتقدير كبير بين رجال الشمر، وقد تمت هذه الحادثة على النحو الآتي: لمّا كان الشيخ نجرس واثقاً من "عهد العربي" الذي أعطاه إياه الشيخ صفوق فقد توجّه إلى ديار هذا الأخير بدون حاشية تحميه، ولكن عندما لاحظ أن صفوقاً لم يهبّ واقفاً للسلام عليه عند دخوله أيقن أنه لا محالة هالك، إلا أنه جلس رغم ذلك في الخيمة بكل هدوء، ولكن الشيخ صفوق ما لبث أن استلّ سيفه رغم رجاء ابنه له بعدم الغدر بالضيف بهذه الطريقة المشينة، وقطع رأس ابن أخيه، و لم ينجُ فرحان هو الآخر من سخط أبيه إلا بأعجوبة بسبب حمايته للعدو البغيض.

(١) انظر اينزوورث – رحلات في آسيا الصغرى، المجلد الثاني، ص ٢٦٥.

(٢) يطلق روس عليه اسم "نجيريب" انظر ريتر – المجلد ١١، ص ٤٧٣ من المرجع المذكور .

غير أن صفوقاً لم ينعم بهذا الانتصار لمدة طويلة، فقد أرسل نجيب باشا الذي كان قد تسلّم كتاباً يقول فيه صفوق: " إنه قام بهذا الاغتيال لفائدة الباب العالي" الذي أرسل القوة العسكرية الموعودة والتي كان الشيخ صفوق ينوي بمساعدتها إخضاع الشمر المستنكرين لحادثة الغدر، لكن بعثة الباشا كانت تهدف إلى أمر آخر، فما كاد الشيخ صفوق يبتعد عن خيمته حتى أحاط به الجنود الأتراك وفتكوا به، ثم أرسلوا رأسه إلى بغداد (١) .

رغم جميع أعمال الغدر التي قام بها الشيخ صفوق في سنواته الأخيرة، فإنه لا يزال إلى جانب جده الذي يحمل الاسم نفسه بطلاً قومياً ليس للشمر فحسب وإنما لجميع بدو شمال شبه الجزيرة أيضاً، ولا يزال الناس إلى اليوم يتداولون العديد من القصص حول شجاعته وكرمه، أما أعمال الغدر فقد استطاع أهله إخفاءها عن قصد، و لم يخبر الشيخ فارس زاخاو(٢) إلا عن حادثة الاغتيال التي أودت بحياة الشيخ صفوق.

أبناء الشيخ صفوق: الشيخ فرحان والشيخ عبد الكريم

خلّف الشيخ صفوق ستة أبناء، هم: فرحان (٣)، وعبد الرحمن، وعبد الكريم، وعبد الرزاق، وماجوم، وفارس .

تتفق أخبار الرحّالة الذين التقوا الشيخَ فرحان على أنه كان ذا طبع هادئ مسا لم يكاد يغلب عليه الخوف، فقد كان على عكس إخوته الذين يتميزون بقدر كبير من الحيوية، يميل إلى البقاء " وراء الستار "، ويسعى قدر الإمكان إلى المحافظة على علاقة طيبة مع الأتراك، وقد حثّه هؤلاء على اتباع سياسة أكثر حزماً، كما حصل في السبعينيات على لقب باشا وعيّن له راتب سنوي، أما اليوم، بعد بضع سنين من وفاته؛ فقد ذهب اسمه طيّ النسيان، ويذكر البلانتس أنه كان يطلق عليه اسم " كديش" الذي يقترب معناه من معنى "هجين" استخفافاً به؛ لأن أمّه كانت حضرية من بغداد و لم تكن من نساء البدو، وقد تزوج فرحان بدوره عدداً من النساء الكرديات وغيرهن ممن لا ينتمين إلى البدو.

(١) انظر لايارد – المجلد الأول، ص ١١٤.

(٢) انظر لايارد – المجلد الأول، ص ٣٠١.

(٣) يذكر لايارد أيضاً، نينوى وبابل، ص ٢٥٤، أن فرحان هو ابن الشيخ صفوق كبير شيوخ الشمر، ويذكر بيترمان في كتابه – رحلات، المجلد الثاني، ص ٣٣٨ أن فرحان هو كبير الشيوخ، والابن الأكبر لصفوق بلا ريب .

الشيخ ماجوم، الشيخ عبد الكريم، الصراع ضد الأتراك

ولا نعرف عن عبد الرحمن وماجوم إلا القليل، ويبدو أنهما سقطا في المعارك الدامية التي نشبت مع قبائل أخرى أو مع الأتراك، وبعد وفاة صفوق بمدة وجيزة تولى ابنه الثالث عبد الكريم سيادة الشمر، وكان يتّصف على غرار أبيه بجميع ميزات الشيخ البدوي الأصيل من شجاعة وكرم وسماحة، وقد لقي نهاية مأساوية أيضاً على غرار أبيه، ويذكر زاخاو أن عبدالرزاق الأخ الأصغر لعبد الكريم تخاصم ذات يوم مع حاكم ماردين التركي، ووصل به الأمر إلى الاعتداء عليه بالضرب، ثم ركب فرساً من خيل الباشا وفرّ إلى الصحراء، وقد كانت هذه الحادثة بداية صراع دموي بين الشمر والأتراك، فلقي عبد الرزاق حتفه في إحدى الوقائع العديدة، وكان على عبد الكريم أن يثأر لأبيه وأخيه، فدام الصراع بينه وبين الأتراك سنينَ طويلة، ونهب الشمر جميع المناطق المسكونة في كامل بلاد ما بين النهرين حتى إن سكان المدن الكبيرة أصبحوا لا يتجرّأون على مغادرتها، و لم تسلم حتى مدينة الموصل من النهب والسلب، وفي النهاية خان الحظ الشيخ عبد الكريم فلجأ إلى قبيلة منتفك في جنوب بغداد، وهناك نال جزاء الغدر الذي ارتكبه أبوه تجاه نجرس، ويقال: إن فرحان نفسه كشف للحكومة التركية عن مخبأ أخيه عبد الكريم، وإن شيخ المنتفك سلّمه إلى الباب العالي، وسِيقَ إلى مدينة الموصل، وهناك تم إعدامه شنقاً عند الجسر سنة ١٨٦٨م .

حداثة الشيخ فارس

أصبح فرحان الشيخَ الأكبر على الشمر كافة - هكذا - وبدون منازع، وكان فارس لا يزال صغيراً غير قادر على التصرف في شؤون قبيلته، وقد فرت أمّه عمشة - وهي من بنات قبيلة طيء المرموقة، وكانت تعتبر بطلة مثل زوجها الشيخ صفوق - بعد موت زوجها إلى أقاربها داخل شبه الجزيرة، وأخذت معها ابنها فارساً.

كان أقارب شيخ الشمر في بلاد ما بين النهرين يملكون في نجد آباراً وواحات، وهناك لقيت عمشة حفاوة الاستقبال، وأمن الحماية عند ابن رشيد الذي كان يتمتع بنفوذ كبير بين الشمر، و لم ترجع إلى بلاد ما بين النهرين إلا في السبعينيات عندما ترعرع فارس ودخل طور الرجولة.

وما لبثت مجموعات كاملة من الشمر أن انفصلت عن فرحان الذي لم يكن محبوباً بسبب قلة مروءته وخموله، والتفّت حول الشيخ الجديد الذي يضاهي أباه وأخاه عبد الكريم في التحلي بخصال البداوة الأصيلة، وتجنّب فارس في البداية طريق أخيه فرحان الذي كان يقيم

عند دجلة، وتراجع مع أتباعه إلى أقصى شمال بلاد ما بين النهرين، غير أن نفوذه تزايد بسرعة إلى درجة أنه استطاع إخضاع قبائل مناطق الخابور والبليخ شبه المستقرة ومجابهة أخيه الأكبر، وبذلك اندلع صراع بين الأخوين كان يشبّ تارة ويخمد طوراً، إلى أن انتهى بتقسيم بلاد ما بين النهرين.

من الآن فصاعداً أصبح الخط بين الموصل ومجادين على شاطئ الفرات يمثّل الحدود بين فريقَي الشمر: فرحان في الجنوب، وفارس في الشمال الغربي، وسوف أطلق على رعايا فرحان شمر الجنوب، وعلى رعايا فارس شمر الشمال من هنا فصاعداً.



بدر بن فرحان شيخ الشمر

تقسيم بلاد ما بين النهرين
شمر الشمال وشمر الجنوب، فارس باشا

خلّف فرحان العديد من الأبناء بلغتني أسماء لأحياء منهم وهم: العاصي، ومجول، وجارالله، وأمّ هؤلاء الثلاثة من قبيلة عمود، وشلال، وعبد العزيز، وفيصل ، وأمّ هؤلاء الثلاثة من قبيلة طيء، وعبد المحسن ،وحايس، وثويني، وأمّ هؤلاء الثلاثة من قبيلة زوبة، وسلطان، ومطلق، وحميدة وهم من أمّهات مختلفات، وبدر، وأحمد، وزيد،وميزر، وهؤلاء الأربعة من أمّ واحدة تزوجت بعد وفاة فرحان أخاه فارساً لكنها لم تنجب منه، وهي تعيش اليوم مع أبنائها من الزواج الأول، وقد نشب الخصام بين الإخوة على خلافة الأب، وعرف كل منهم كيف يضمن لنفسه أتباعاً من بين القبائل، وتنافس عدد منهم عند والي بغداد للحصول على لقب باشا العربان بعد وفاة والدهم طمعاً في كسب ولاء جميع الشمر، أما الباب العالي فما كان عليه إلا

أن يبقى وفياً لسياسته القديمة في تداول تبجيل الواحد من الإخوة على الآخرين لبثّ العداوة بينهم، وإنهاك قوة شمر الجنوب بذلك.

ويبدو أن شمر الجنوب يفوقون اليوم شمر الشمال عدداً، غير أن هؤلاء يتبعون الشيخ فارساً كقائد أوحد، ويتمتعون بناء على ذلك بقوة أكبر، وقد كانت العلاقة بين فارس والباب العالي حسنة عند زيارتي له، لكنه كان عند زيارة بلانتس له متردّداً في الارتماء بين أحضان الأتراك، وكان يتحدث باحتقار عن أخيه فرحان الذي قبل لقب باشا من الأتراك، وكان الشيخ فارس بعد ذلك بسنتين عند زيارة زاخاو له، قد انضم إلى صفوف الأتراك الذين عرفوا كيف يستميلونه بالألقاب الرنانة، فبعد حصوله على لقب قائم مقام الشمر، حصل على لقب باشا بعد ذلك ببضع سنين فتساوى بذلك مع منافسه فرحان، في هذه الأثناء خضع فارس خضوعاً تاماً للحكومة التركية، وامتثل لدفع الضرائب، وقد بلغ به الأمر أن ذهب إلى القسطنطينية، وقدّم ولاءه إلى السلطان مثلما فعل أخوه فرحان وعدد من كبار شيوخ القبائل البدوية من قبل.



الشيخ فارس مع أبنائه وخدمه

أبناء فرحـــان

تزوج فارس عدداً كبيراً من النساء على التوالي، وكان يسعى إلى إنجاب أكبر عدد ممكن من الأبناء و يحسد أخاه فرحان في هذا الصدد، وكان أكبر أبنائه شاباً ضعيفاً ليّن البنية سبق أن ذكره زاخاو كطفل مريض عمره سنة ونصف، أما ابنه المفضّل فكان صبياً في الثانية عشرة من عمره يتميز بالجرأة والنباهة، وهو الذي جاء لاستقبالي في نصيبين وربطتني به أواصر الصداقة فيما بعد، ويبدو أنه يستطيع أن يصبح مثل الشيخ صفوق والشيخ عبد الكريم، إذ يحبه جميع

الشمر إلى حدِّ العبادة، ويتقبلون منه أسوأ أنواع الوقاحة. وأذكر أنه كان يتميز منذ ذلك العهد بالجرأة والاعتماد على النفس، ولكنه كان مع ذلك مهذباً مع الضيوف، أما الابن الأصغر للشيخ فارس فكان عمره بين سنة وسنتين .



الشيخ فارس وأبناؤه

ويتمتع الشمر اليوم بسيادة مطلقة على بلاد ما بين النهرين من أورفة إلى منطقة بغداد ، وتدفع أغلب القبائل المقيمة في هذه الأراضي الخوَّة للشمر، ولا تعفى من هذه الضريبة إلا القبائل القادرة على الدفاع عن نفسها، أو التي تربطها بالشمر علاقات متميزة بسبب القرابة، مثل قبيلة طيء، وكان الواجب حتى على القرى الكبيرة مثل نصيبين ومجادين وعانة أن تدفع الخوة إلى أمد غير بعيد، وقد تخلت هذه المناطق عن هذا الالتزام عندما أمرت الحكومة التركية وحدات عسكرية صغيرة بالتمركز في هذه الأماكن، وليس هذا فحسب؛ بل أصبح الفلاحون المستقرون في المناطق المجاورة أيضاً في حل من دفع هذه الضرائب.

نفوذ الشمر في بلاد ما بين النهرين، الخوة

يختلف مبلغ الخُوَّة كثيراً من حالة إلى أخرى، إلا أنه ينبغي على الفلاحين عامة دفع نسبة مائة وخمسين بالمائة من مبلغ الضرائب التي يدفعونها إلى الحكومة التركية، ويقدّمون إلى جانب النقود المواد الغذائية كالقمح والشعير والأرز، والملابس، والأسلحة والبارود، والتبغ والقهوة والسكر وغيرها، وليس نادراً أن تضطر قرى وقبائل بدوية ضعيفة واقعة على مناطق متنازعة بين قبيلتين قويتين لِدفع الخوة إلى الطرفين ، مثلما يحدث لبعض قرى الفرات مع الشمر وآل عنيزة، ثم يجب تقديم هدايا متميزة في كثير من المناسبات بالإضافة إلى الخوة، عند قدوم أحد الشيوخ أو بعض رجاله مثلاً، ويبدو أن الشمر يطالبون القوافل والقطعان بالمبالغ التالية: قرش

ونصف - سبعة وعشرون فلساً ألمانياً - على كل مطية، من خمسة إلى عشرة غازي أو مائة إلى مائتي قرش - ثمانية عشر إلى سبعة وثلاثين ماركاً ألمانياً - على كل قطيع غنم يضم مائتين إلى ثلاثمائة رأس، وقد كان على أهل تكريت إلى زمن غير بعيد دفع الخوة على أجهزة الري أيضاً.

وتتمثل الخوة بشكلها الحالي في أن يلتزم الشخص الذي تسلّمها بحماية الشخص أو القرية أو القبيلة التي تدفع الخوة من غارات قبيلته، ويلتزم أيضاً بإعادة المتاع المسلوب إلى أهله إذا تعرضوا للاعتداء رغم الحماية، ويدفع الفرد لحاميه بضعة مجيدي سنوياً أو يعطيه عباءة .

ويوجد نوع آخر من الخوة يختلف عن الذي يدفع فيه طرف واحد، ويعقد هذا النوع بين الأنداد ويحمل الاسم الخوة نفسه، الذي يرجع أصله إلى " الأخوة "، وفي هذه الحال يكون لهذا الاستعمال تبرير أكثر من العلاقة التي ذكرناها أولاً، ونجد هذه العلاقة منتشرة بكثرة بين القبائل القوية وأعيان المدن، فيضمن شيخ القبيلة للسيد الحضَري سلامة ممتلكاته في البادية حتى ضد القبائل الأخرى في كثير من الأحيان، وفي مقابل ذلك يتولى السيد الحضَري رعاية مصالح الصديق البدوي تجاه الحكومة عند الضرورة، ويحفظ له الأمتعة الثمينة في زمن الخطر، وفي هذه الحال يتبادل الطرفان الهدايا؛ فيقدم البدوي الخيل والإبل، ويقدم الحضري الملابس الثمينة والأسلحة ونحوها، وهكذا عقدت أنا أيضاً "الأخوة" مع الشيخ فارس في جوّ احتفالي وأمام الشهود .

ميثاق الخُوّة بيني وبين الشيخ فارس ، مجموعات القبائل البدوية

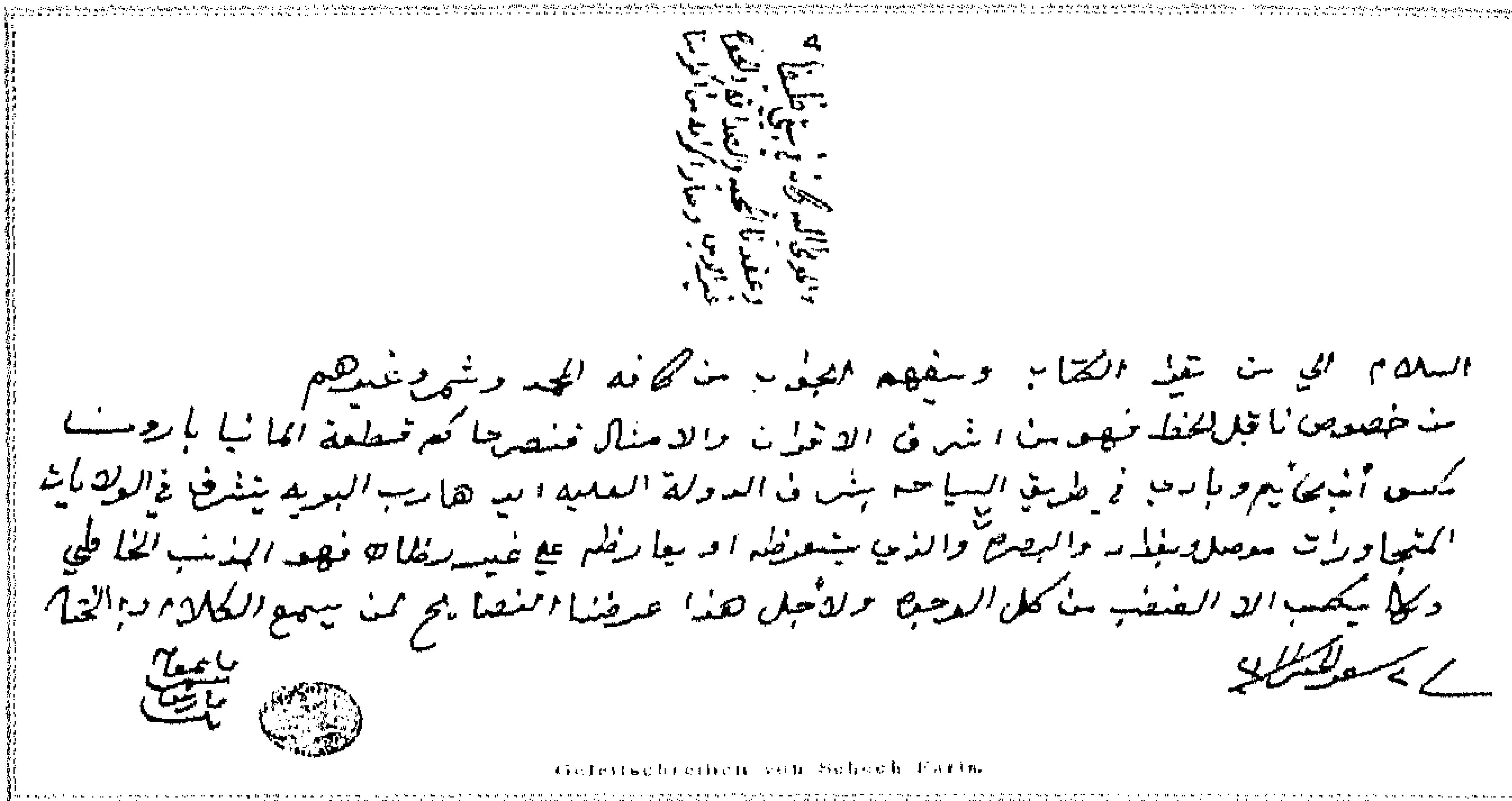
وقد سجل الكاتب وثيقة وضع عليها ختم الشيخ فارس، وفي ما يلي نص الرسالة التي سلّمني إياها الشيخ فارس :

" إن حامل هذه الرسالة رجل من أكبر أعيان عصرنا هذا، وهو البارون ماكس فون أوبنهايم، قنصل ملك ألمانيا (١)، وهو يقوم حالياً برحلة عبر المملكة الموقرة - حماها الله - لزيارة الأقاليم المجاورة: الموصل وبغداد والبصرة، وكل من يعترض طريقه أو يتسبب له في مصاعب فإنه يقترف بذلك ذنباً، ويجلب إلى نفسه الغضب والسخط؛ ولذلك فإننا نحذّر كل من تبلغه هذه العبارات ".

---

(١) انظر النص العربي للرسالة: في هذه المناطق من الشرق التي يقِلُّ فيها عدد الزوار الأوروبيين، يعدّ كل قادم من أوروبا قنصلاً أو طبيباً .

سأحاول فيما يلي وضع قائمة للقبائل البدوية في بلاد ما بين النهرين والمناطق التي تحدها دون زعم بأنني أستوفي بذلك البحث في هذا الموضوع [1]؛ لأن العرب ليس لديهم أي وعي بظاهرة الإحصاء، وأضِف إلى ذلك أن بعض القبائل يحمل اسمين في آن واحد وبعضها يجب ذكره كفرع من قبيلة كبيرة، لكنها تطالب بتسجيلها كمجموعة مستقلة بسبب العداوة القائمة بين القبائل، وتستند معلوماتي في معظمها إلى ما بلغني عند الشيخ فارس وما حاولت التأكد منه في الموصل وبغداد، ولا تمثل مصدراً موثوقاً خاصة بالنسبة للقبائل التي تدفع الجزية للشمر.


Geleitschreiben von Scheich Faris.

صورة لرسالة الشيخ فارس

قبائل غرب الخابور

١ - قبائل غربي الخابور " استناداً إلى استكشافات في شدادة "

١ - قيس: ٢٠٠٠ خيمة شرقي أورفة، تستقر في الشتاء على الجانب الغربي لجبل عبد العزيز.

٢ - بني محمد: ٥٠٠ خيمة صيفاً وشتاء في صحراء سروج وهي فرع من قبيلة قيس.

٣ - برازية: وهم أكراد في الأصل، ١٥٠٠ خيمة في صحراء سروج، في الشتاء في الجنوب الغربي من أورفة، يدفعون الخوة للشمر.

٤ - ولدة: ١٠٠٠ خيمة، في الصيف عند قلعة جعبر، وفي الشتاء عند جبّ شعير شرقي سروج.

(١) وضع بوركهارد – ملاحظات إلخ ص ٣٢٤، ثم من بعده بلانتس، المجلد الثاني، ص ١٨٣ ثم تويدي ص ١٢١، إحصائيات تتعلق ببدو الصحراء السورية.

٥ - عفاضلة: ٢٠٠٠ خيمة، في الصيف جنوبي تل الحيشة، وفي الشتاء في الفيض غربي بليخ، ويدفعون الخوة للشمر وعنيزة.

٦- عساف: من ٨٠٠ إلى ٩٠٠ خيمة، في الصيف شمالي تل الحيشة، وفي الشتاء في الوعرة السهل الصخري شرقي البليخ، يدفعون الخوة للشمر وعنيزة .

٧ - تركمان: ٧٠٠ خيمة، في الصيف حول الحمام بين الحيشة وتل الأبيض، وفي الشتاء في وادي الحمر شرقي الحمّام، وبينه وبين رأس العين شرقي سلوق (١).

٨ - مشهور: وهم في الأصل بقارة ١٠٠ خيمة، في الصيف في تل الأبيض، وفي الشتاء في وادي الحمر مع التركمان، يدفعون الخوة للشمر.

٩ - أبو خميس: ٢٠٠٠ خيمة، في الصيف في منبج غربي الفرات، وفي الشتاء في عين البيضا على مسافة عشر ساعات من تل شدادة.

١٠ - طرفاوي: ٢٠٠٠ خيمة، صيفاً وشتاء على مسافة ست ساعات شرقي البليخ .

١١ - دقرلية: ٦٠٠ خيمة، في الصيف على مسافة يوم من ديار بكر وغربي ماردين عند الشحارة، وفي الشتاء في قونشار، يدفعون الخوة للشمر .

١٢ - مويسراك: ١٥٠٠ خيمة، في الصيف مع الدقرلية في الجزء الغربي من الشحارة، وفي الشتاء على الجانب الجنوبي الغربي، غربي رأس العين وجبل عبدالعزيز، وهم لا يدفعون الخوة.



بدو عدوان

(١) كان التركمان منذ الحروب الصليبية مستقرين في شمال بلاد ما بين النهرين خاصة عند البليخ، انظر ابن الأثير، المجلد العاشر، ص ١١٣ . وأبو الفدا، المجلد الثاني، ص ٢٢٠.

١٣ - شخان*: أكراد ١٠٠٠ خيمة، في الصيف بين ديار بكر وماردين، وفي الشتاء غربي رأس العين وجبل عبد العزيز.

١٤ - ملية: أكراد ٨٠٠ خيمة، في الصيف في قورنشار غربي ماردين، وفي الشتاء على الجانب الجنوب الغربي، غرب رأس العين .

١٥ - عدوان (١): ٩٠٠ خيمة، صيفاً وشتاء في قورنشار، يدفعون الخوة إلى الشيخ فارس.

١٦ - جيجان*: شركس ٨٠٠ خيمة، صيفاً وشتاء في رأس العين.

١٧ - جبور: ٢٠٠٠ خيمة، في الصيف عند الخابور، وفي الشتاء في منطقة سنجار، ويدفعون الخوة للشمر(٢).



خيمة شيخ عدوان



بدوي من الجبور

* [المترجم: لعلهم شيخان، فإنه لم يُعرف أناس في تلك المنطقة باسم شخان]

(١) يعيش جزء من هذه القبيلة في فلسطين على الضفة الغربية لنهر الأردن، وقد التقيت بشيخ عدوان هناك على مقربة من العريش عندما زرت فلسطين سنة ١٨٩٧ صحبة ولي عهد الدوق الأكبر لمقاطعة زاكسن كوبورج وغوطا الذي توفي.

* [المترجم: إنهم المهاجرون الشيشان من بلاد القوقاز التي ينتمي إليها الشراكسة والأبخاز، وليسوا جميعاً من أصل واحد، وهؤلاء يفخرون بأجدادهم من أبطال الشيشان كالإمام شامل الذي قاوم الروس، ويتميزون بالثقافة والالتزام بتراثهم وعاداتهم في اللباس والأناقة، والرقصُ عندهم من فنون الحرب والقتال].

(٢) لا يدخل في هذا الإحصاء القسم الشرقي من الجبور عند نهر دجلة .

١٨ - عقيدات: ٨٠٠ خيمة، في الصيف عند الخابور، وفي الشتاء عند الخشام والروضة، يدفعون الخوة للشمر.
١٩ - بقارة " رعاة البقر": ١٢٠٠ خيمة، في الصيف عند الفرات، وفي الشتاء عند جبل عبد العزيز، و يدفعون الخوة للشمر.

قبائل في بلاد ما بين النهرين

٢ - قبائل بلاد ما بين النهرين

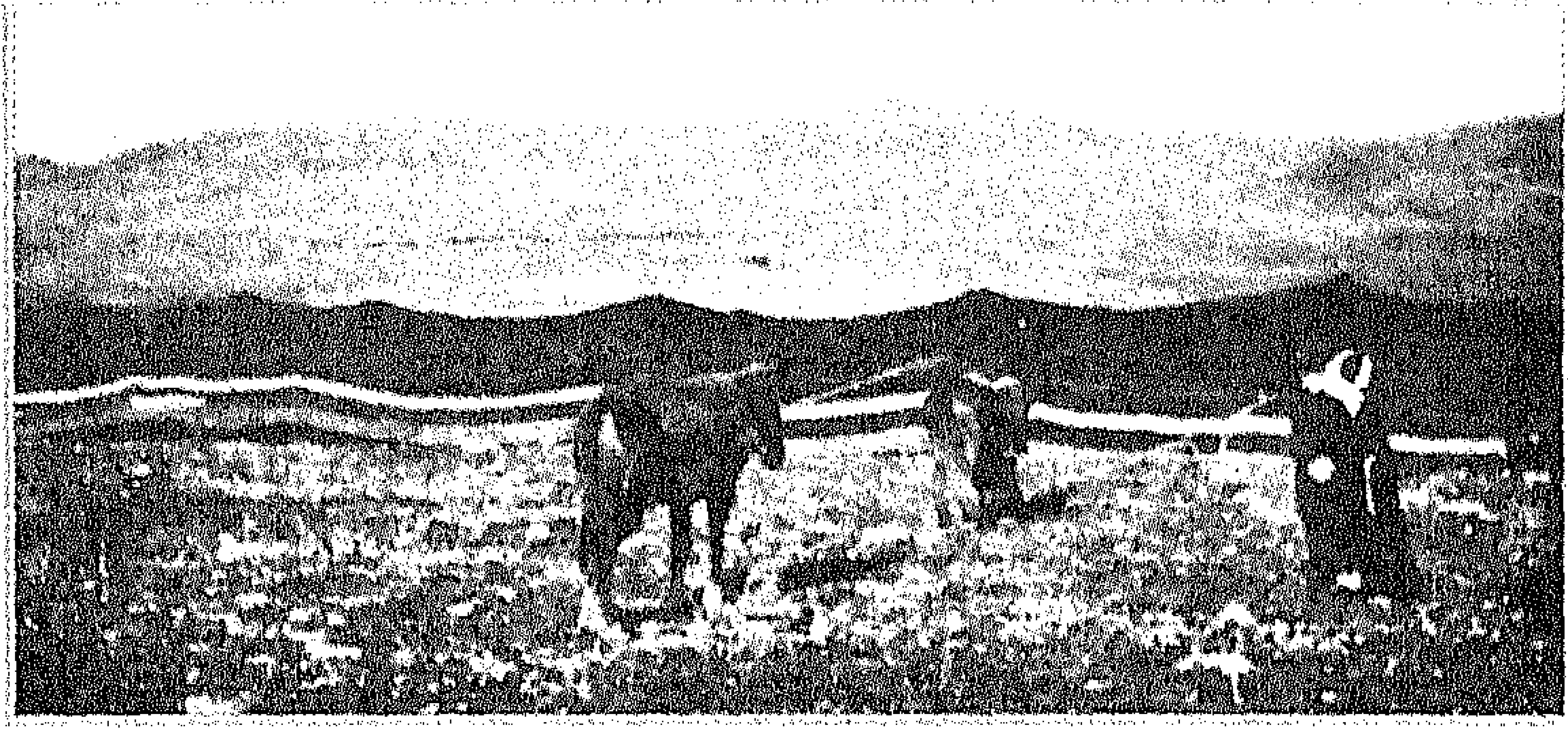
١ - موالي "سادة" (١): يعملون غالباً في الزراعة أو تربية ماشية، ٤٠٠ خيمة، في الصيف حول أورفة، وفي الشتاء في السهول الواقعة غربي سنجار، يدفعون الخوة إلى فارس.
٢- حديديين: ١٥٠٠ خيمة، في الصيف عند مواقع المياه والآبار بين نصيبين وأورفة - أهم الآبار هي بئر أم الصلابيخ الواقعة على مسافة اثنتي عشرة ساعة شرقي أورفة - وفي الشتاء عند جبل عبد العزيز، يدفعون الخوة للشمر.
٣ - شركس: يكتب فون أوبنهايم بالحروف العربية " جركس ": ١٠٠٠ خيمة، صيفاً وشتاء على أعالي الخابور، فلاحون يتطوعون في العادة في الجيوش التركية، لا يدفعون الخوة، ويتمتعون بحماية متميزة من الحكومة.
٤ - جبور: غالباً فلاحون ٥٠٠٠ مسكن " بيت دوم، أو خيمة ، بيت شعر" صيفاً وشتاء بين حمام علي وشريعة الغزال في اتجاه الجنوب حتى مسافة ساعتين من عاشق، يدفعون الخوة للشمر.
٥ - خزرج: صيفاً وشتاء بالقرب من سميقة، وهي قرية تضم ٣٠٠ بيت تقريباً على مسافة أربع عشرة ساعة شمالي بغداد، وباتجاه الجنوب حتى بلد والطارمية على مسافة ساعتين أو ثلاث من دجلة، وهم فلاحون يعدّون زهاء ألف بيت في ثلاثة أنماط من البناء ، ولا يدفعون الخوة بسبب قربهم من مدينة بغداد .
٦ - بني تميم: صيفاً وشتاء قرب الطارمية، وهم رعاة يعدّون ألفاً وخمسمائة بيت ولا يدفعون الخوة (٢) .

---

(١) ربما تعني هذه العبارة أيضاً " الأقارب " وهي جمع "مولى" وتطلق على الزبائن غير العرب لقبيلة عربية وتقابلها عبارة " الأصيل" من العرب، [المترجم : تأتي بمعنى السيد وبمعنى التابع، وهي من أوسع المفردات العربية معنىً، محيط المحيط، البستاني].
(٢) يطلق عليهم جونز اسم " بني تني" انظر: صفقات بومباي، المجلد ٩ ، ص ٣١٤.

٧ - مجمع: ٥٠٠ بيت، صيفاً وشتاء على ضفاف دجلة، وتمتد منطقتهم على مسافة بضع ساعات حتى الكاظمين، قرابة نصف ساعة شمالي بغداد .

٨ - مَشاهِدة: صيفاً وشتاء على جانب النهر جنوبي قبيلة مجمع، وتنتهي منطقتهم في نصف ساعة شمال الكاظمين.



مخيم بدو عدوان

٣ - قبائل على الخط الرابط بين الدير وفلوغة

١ - أبو معيت: صيفاً وشتاء على ضفاف الفرات حتى الميادين ، ١٥٠٠ بيت، وهم فلاحون لا يدفعون الخوة بسبب قربهم من مدينة دير.

٢ - أبو حليحل: ١٢٠٠ بيت تقريباً، تماماً على شاكلة أبو معيت.

٣ - البوكمال: ٢٠٠٠ بيت، صيفاً وشتاء بين ميادين والعرسي، على مسافة اثنتي عشرة ساعة جنوب ميادين ولا يدفعون الخوّة.

٤ - جغايفة: بين العرسي وعانة، ٢٠٠٠ بيت، لا يدفعون الخوة و يُربُّون الأغنام والخيل.

٥ - دليم: بين هيت وفلوجة، ٣٠٠٠ بيت، ولا يدفعون الخوة .

٦ - زوبع: ٣٠٠٠ بيت، بين فلوجة والرضوانية، وهي مجرى جاف يتفرع عن الفرات على بعد مسافة ساعتين جنوب فلوجة، لا يدفعون الخوة.

٧ - جنابين: على جانبي الفرات بين الرضوانية والمسيب على النهر بين بغداد وكربلاء.

٨ - غرير: حوالي ٢٠٠٠ بيت على جانبي الفرات، لا يدفعون الخوة.

٩ - زبيد: فلاحون ورعاة ويربون الإبل، ٥٥٠٠ بيت بين المسيب وعلاج "علاق" تبعد تسع ساعات شرقي الحلة .

١٠ - جبور: ٥٠٠٠ بيت بين علاق والديوانية، وهي مدينة مهمّة على الفرات.

١١ - عفق: ١٠٠٠٠ بيت بين الديوانية وأبو جواريب.

١٢ - اقرع: ١٠٠٠٠ بيت بين أبو قعارير والخضر.

١٣ - بدور: ٦٠٠٠ بيت بين الخضر وسوق الشيوخ.

١٤ - بني أسد : ٦٠٠٠ بيت، بين سوق الشيوخ و القرنة .

١٥ - كتيبان: ٣٠٠٠ بيت، فلاحون بين القرنة والبصرة .

١٦ - بعيج: ١٠,٠٠٠ بيت بين بغداد وبغيلة، وهي مدينة صغيرة حديثة العهد تضم ثلاثمائة بيت على مسافة أربعة أيام تقريباً جنوب بغداد .

١٧ - الرفيع: ١٠,٠٠٠ بيت بين بغيلة وكوت، وتطلق عبارة "قوم" على القبيلتين الأخيرتين وتعني أنهما في حالة حرب فيما بينهما.

١٨ - منتفك: بين كوت والناصرية - وهي مدينة كبيرة عند أسفل الفرات وهي مركز متصرف تابع لولاية البصرة - وتعد قبيلة المنتفك زهاء ٥٠٠٠٠ بيت، ويعيش بعضهم في الشامية، وتخضع القبيلة اليوم إلى الحكومة، وقد كان شيخها الأكبر ناصر باشا الذي خلفه فالح باشا.



صورة لبدو المنتفك

١٩ - الحميد: ٣٠٠٠ بيت بين الحي والشطرة، وتقع الحي على مسافة يوم جنوبي الكوت على شط الحي، وكلتا المدينتين مركز قائم مقام تابع للناصرية التي هي أحد الألوية الثلاثة لولاية البصرة.

اشتهرت هذه القبيلة بصلابة رجالها وشجاعتهم، وهذا ما يفسر قدرتهم على الصمود أمام عدوهم قبيلة المنتفك.

٢٠ - معدان: ١٠٠٠ بيت، فلاحون يزرعون الأرز، وصيادو سمك بين الشطرة والقرنة، وينقسمون إلى أربعة فرق:

أ - غزالات

ب - ذبات

جـ - حويطات

د - شبيتات

٢١ - عقيل: يسكنون ٣٠٠ بيت تقريباً في بغداد، وهم من رعاة الإبل، ويوجد القسم الأكبر في نجد حيث يعدّ مائتي ألف بيت من هذه القبيلة.

٢٢ - بقّارة "رعاة البقر": بين دير وقلعة أم عمد على مسافة قرابة ست ساعات شمالي الدير(١).

تنتسب القبائل التالية إلى المذهب السُنّي: البقارة، الموالي، الحديديين، الشركس، الجبور، الخزرج، المشاهدة، أبو معيت، أبو حليحل، البوكمال، الجغايفة، دليم، زوبع، الجنبيين، غرير، الرفيع من بين القبائل التي ذكرتها. ومن المنتفك تنتمي عائلة شيوخ سعدون الكبيرة إلى السُنة، في حين ينتمي الباقي إلى الشيعة، ثم عقيل والعابد، أما الذين ينتمون إلى الشيعة فهم: بنو تميم، مجمع، زبيد، عفق، اقرع، بدور، بنو أسد، كتيبان، بعيج، والبقية من قبيلة منتفك والحميد وطيء ومعدان .

٤- سكان شاطئ دجلة

يسكن جميع البدو المقيمين على ضفة دجلة في بيوت من الحَلْفاء والقشّ في الصيف، وفي الشتاء يسكنون في خيام البدو المعهودة، أما القبائل المستقرة في القرى فتسكن صيفاً وشتاء في بيوت من طوب الطِّفْل، ولا ينصبون الخيام المصنوعة من وبر الإبل إلا عندما تهدم الفيضانات بيوتهم، وتدفع جميع القبائل البدوية التي تسكن الضفة اليمنى من دجلة، من الموصل حتى الطرمية، باستثناء البوحميد، الخوَّةَ إلى الشمر، وعلى وجه التحديد إلى أبناء فرحان، أما القبائل التي تسكن الضفة اليسرى فلا يدفع الجزية إلى الشمر إلا بعضُها.

(١) أعتقد أن المعنيّ بـ "الدير": مدينة حلبية الأثرية .

١ - الجبور: يقيمون صيفاً وشتاء على الضفة اليمنى للنهر بين الجهينة التي تقع على مسافة خمس ساعات غربي الموصل، وقلعة رياش التي تقع مسافة أربع ساعات غربي تكريت، أما على الضفة اليسرى فيقيمون في منطقة الحميرة وتقع على مسافة أربع ساعات شرق الموصل وتل الذهب الذي يبعد مسافة عشر ساعات عن تكريت. وإضافة إلى ذلك تتناثر بعض البيوت على ضفتي النهر وبالتحديد في ضواحي الضلوعية، وجميعهم يدفعون الخوة.

٢ - البوحسين: يقيمون على الضفة اليمنى بين الموصل والجهينة ما عدا حمام علي الذي يسكنه البوحمد، ثم نجد البوحسين أيضاً على الضفة اليسرى لدجلة قبالة حاوي أصلان.

٣ - تركمان: يقيمون على الضفة اليسرى بين الموصل وحاوي أصلان، و يقيمون في قرية سلطان عبد الله على الضفة اليسرى للنهر على مسافة أربعة أيام شمال سامراء وخمسة وثلاثين كيلومتراً - ثماني ساعات - جنوب نمرود.

٤ - البوعباس: يقيمون على الضفة اليمنى بين المهيجر والمعيجل أو التينة وتبعد أربعة كيلومترات جنوب سامراء، أما على الضفة اليسرى فيقيمون بين شناص، وهي قرية تبعد مسافة ساعة ونصف شمال سامراء، وبين السعيوية قرابة خمسة وثلاثين كيلومتراً شرقي سامرّاء، وهم على المذهب السُنّي على غرار مدينة سامرّاء في مجملها، رغم وجود عدد كبير من الشيعة أيضاً فيها.

٥ - جحيش: وهم فرع قليل العدد من قبيلة طيء يسكنون على النهر، ويشكلون نصف سكان قريتَي نايفة ونمرود.

٦ - البوحمد: لا نجدهم إلا في حمّام علي.

٧ - بنو تميم: يتناثرون هنا وهناك غالباً على الضفة اليسرى بين المراح والجديدة، أما على الضفة اليمنى فيقيمون في الحصى والزنبور، وجميعهم شيعة.

٨ - المجمع: يقيمون على ضفتي دجلة وبين صدر الدجيل والبلد.

٩ - المشاهدة: يقيمون على الضفة اليمنى بين الطارمية والشريعة البيضاء، ثم نجدهم أيضاً على الضفة اليسرى بين حويجة الغرب والمعظم.

١٠ - الحباب: ثلاثون بيتاً فقط نجدها في موقع على الضفة اليمنى يبعد كيلومترين تقريباً شرق السفينة.

توجد ثلاث جنسيات غير عربية ضمن القبائل المذكورة آنفاً وهم: الأكراد والتركمان والشركس، والأكراد أكثر الثلاثة عدداً، ويتنقلون عامة عند أقصى الأطراف الشمالية

للصحراء، وهم يقيمون على كل حال في تلك المناطق منذ قرون عديدة رغم أن موطنهم الأصلي هو جبال شمال بلاد ما بين النهرين، يحمل سادة القبائل لقب " آغا " أو" بيك " ويسكنون قصوراً محمية بقلاع على أعالي الجبال، وينتمي هؤلاء الأكراد إلى الشعب الكردي الذي يتناثر في منطقة على شكل هلال واسع من الخليج الفارسي حتى آسيا الصغرى، وقد ظل الأكراد منقسمين إلى عدد كبير من القبائل بسبب هذا الاتساع الجغرافي الذي يمنع تكوين دولة موحدة، وينتمي الأكراد اليوم إلى بلاد فارس، وروسيا، [والعراق وسوريا] وتركيا حيث نجد العدد الأكبر منهم، ويقدر بخمسة ملايين.

جنسيات غير عربية بين العرب

[الأكراد]

أصل الأكراد هندوجرماني، وأقرب جنس إليهم هم الفرس، و لم يخضع الأكراد نهائياً إلى الحكومة التركية إلا في هذا القرن، ورغم انتماء أكبر فريق منهم إلى الديانة الإسلامية فإنهم لا ينخرطون في صفوف الجيش النظامي، ولا يجرى عليهم التجنيد العادي، وقد أصبحوا مقابل ذلك في الفترة الأخيرة يشكلون جزءاً هاماً من الفرسان* غير النظاميين عن طريق ما يسمّى كتائب الحميدية، ثم إن شرطة المقاطعات العربية تتكوّن في معظمها من الأكراد، ولا تختلف القبائل المسيحية القليلة في مظهرها عن نظائرها من المسلمين كما لا تقلّ عنها ميولاً إلى الحرب، ويمارس الأكراد في جبالهم الفلاحة وتربية الماشية، لكن الناس يتجنبونهم بسبب مزاجهم الانفعالي وميولهم إلى الغضب، ويغلب الظن أن قبيلة اليزيديين في سنجار(١) تنتمي إلى الأكراد أيضاً.

[التركمان]

أما التركمان الذين تربطهم صلة قرابة بالعثمانيين والأتراك المستقرين في آسيا الصغرى فعددهم أقل بكثير من الأكراد، ونجدهم خاصة في الركن الشمالي الغربي للبلاد عند البليخ في

* [المترجم: أطلق عليهم المؤرخون عامة والألمان خاصة لقب "فرسان الشرق" لخصائص تميّزهم كالوفاء والشجاعة النادرة، والصلابة في القتال، والعِفّة والترفع عن الغنائم، والبسالة والرحمة. ظهر فيهم أبطال كصلاح الدين الأيوبي، وعلماء أعلام كأبناء الأثير والآمدي وابن الجزري، وهم شافعية من أهل السُنّة والجماعة].

(١) انظر فصل ١٣ ص ١٤٧.

اتجاه أورفه، ويقيم التركمان شرقي الدجلة أيضاً، بين الموصل والزاب الكبير، ونجد كذلك عدداً كبيراً منهم غربي الفرات، في أقصى طرف من شمال سوريا، وبالذات في آسيا الصغرى، و موطن التركمان الأصلي هو ما وراء نهر أكسس[1]، وقد نزحوا منه في العصور الوسطى قبيل الحروب الصليبية وأثناءها، وساهموا في الدفاع عن فلسطين ضد الجيوش الصليبية.



التركمان



خيمة للتركمان في البقاع

[الشركس]

أحدثُ نازحين إلى بلاد ما بين النهرين هم الشركس الذين يقيمون في منطقة رأس العين، وموطنهم الأصلي هو القوقاز الذي استولى عليه الروس فغادروه في بداية الستينيات في بضعة آلاف من الناس، وقد توجهوا إلى تركيا واستوطنوا في البداية في بلغاريا في عدد من القرى الواقعة على المنطقة الممتدة من البحر الأسود إلى حدود صربيا لاستعمالهم في حراسة

(١) هي المنطقة التي تضم اليوم طشقند وسمرقند وأذربيجان أي ما وراء نهر أكسس.

البلغاريين، وإليهم تنسب الأحداث التي أطلق عليها اسم " الفظائع البلغارية "، والتي دفعت روسيا إلى التدخل وإعلان الحرب على تركيا سنة ألف وثمانمائة وسبع وسبعين ميلادية، وبمجيء الاحتلال الروسي أصبح على الشركس أن يغادروا البلاد، وبما أنهم لم يرجعوا بعد أن استتبّ السلم؛ فقد اضطر الباب العالي إلى البحث عن موطن آخر لهم يستقرون فيه لذلك انتقل فريق منهم إلى آسيا الصغرى (١) وتوغلت فرق أخرى في سوريا وبلاد ما بين النهرين، لكنهم ما لبثوا أن جلبوا لأنفسهم كراهية الأهالي المستقرين في تلك المناطق بسبب ميولهم إلى النهب واللصوصية، وعلى وجه التحديد، ما لبث الشركس الذين استقروا عند حدود الصحراء ومن بينهم الجالية التي نزلت في رأس العين أن دخلوا في معارك دامية مع البدو المستقرين في الأراضي التي نزلوا فيها أو بجوارها، وقد تفاقم الوضع إلى أن أصبحت العداوة صراعاً عنصرياً خاضه الطرفان بضراوة ليس لها مثيل، وانهزم الشركس بسبب قلّة عددهم رغم ما يتميزون به من بسالة، وخلال بضع سنين تمّت الإبادة الكاملة تقريباً، خاصة لسكان رأس العين، وتم تعمير المنطقة من جديد سنة ١٨٨٣م وتم تعيين قائم مقام من الدير أولاً ثم من ديار بكر، وعادت الطمأنينة شيئاً فشيئاً إلى الجالية أثناء دفع عجلة السلم مع الشمر في السنوات التالية، رغم أن العداوة لم تنتهِ تماماً في الواقع .

موقف الباب العالي من قضية البدو

وجّه الباب العالي منذ أن بدأ ممارسةَ نفوذه على سوريا وبلاد ما بين النهرين عناية خاصة إلى القبائل البدوية التي تم إخراجها من الصحراء؛فاضطرت إلى الاستقرار عند أطرافها. لقد حافظت هذه القبائل على ما يذكرها بحياة الترحال السابقة عن طريق استعمال الخيام، أو اتخاذ بيوت بسيطة من المواد الخفيفة، إلا أنها تركت النهب والسلب، وأصبحت لا تعيش من قطعان الماشية التي تملكها بل على المحاصيل الزراعية التي تنتجها باستعمال طرق لا تزال بدائية إلى حد بعيد، ثم إنهم ظلوا يطلقون على أنفسهم اسم "عرب" وهو الاسم الذي يودّ البدو المترحلون احتكاره لأنفسهم دونَ غيرهم؛ ولذلك يطلقون على هؤلاء الذين استقروا اسم "فلاحين"، وعلى كل حال لا يزال هؤلاء الذين أصبحوا مستقرين بدرجات متفاوتة يعودون إلى حمل السيف والرمح وينقلبون إلى ما كانوا عليه سابقاً: أبناء الصحراء الطلقاء، ويحدث ذلك عندما يشتد عليهم عبء

(١) شاهدت سنة ١٨٩٥ م في أنجورا مئات من الشركس الذين كانوا قد غادروا قراهم الواقعة في المناطق الروسية منذ أمد قريب، وكانوا لا يزالون يلبسون حللهم التقليدية، ويبحثون عن منازل جديدة ناقلين متاعهم في عربات تجرّها الثيران .

الضرائب والخوة التي يطالب بها إخوانهم الأقوياء الذين ظلوا على نمط الحياة البدوية، وقد حاول الباب العالي حمل هذه القبائل على إنشاء واستعمال بيوت ثابتة، لكن يبدو أن هذه المحاولة مُنيَت بفشل ذريع حتى الآن، وقد تحقق الهدف مع بدو الجبور الذين استقر قسم منهم على ضفاف دجلة، لكن النجاح كان أقلّ من ذلك بكثير مع قبيلة طيء، وتقدّم المنازل المهجورة في قرية مَرْقَدة عند الخابور(١) دليلاً واضحاً على مزاج سكان الصحراء الجامح.

بناء بيوت ثابتة، مدرسة البدو في القسطنطينية

يذكر زاخاو (٢) وجود مثل هذه القرى المهجورة في عدة مناطق من منخفضات الفرات شمالي الدير، أما القبائل القوية فإنه لا يرتجى منها الإذعان إلى مثل هذه الإجراءات، إلا أن منح لقب "باشا" لشيخ الشمر فرحان بن صفوق وتخصيص دخل سنوي له كان يهدف إلى حمل هذا الشعب الكبير من البدو في بلاد ما بين النهرين على الاستقرار، وقد شيد فرحان لنفسه بيتاً على هيئة القلعة في قلعة الشرقات على نهر دجلة؛ غير أنه لم يتبعه أحد من قومه في هذه المبادرة، ورغم أن الشيخ فرحان لم يسكن في هذا المنزل إلا زمناً قصيراً بل كان إلى آخر أيامه يستعمل الخيمة عوضاً عنه، فإنه فقد كثيراً من الاحترام والتقدير في الصحراء بسبب استجابته لتعليمات الباب العالي، ويبدو أن بعض أبناء فرحان عادوا في السنوات الأخيرة إلى بناء منازل على مقربة من سامرّاء حيث ما زالوا يسكنون إلى اليوم (٣) .

تتمثل المحاولة الأخرى لحمل البدو على المدنيّة والتحضّر في المدرسة التي أنشئت في القسطنطينية سنة ١٨٩٢م "عشيرة مكتبي " والتي تهدف إلى تعليم أبناء الشيوخ والأعيان من البدو وحدهم، وقد ضمّت هذه المدرسة في السنة الأولى من تشييدها واحداً وستين طالباً من بينهم حميده بن الشيخ فرحان باشا، وابن كبير شيوخ المنتفك فهد باشا، وأحد أقارب شيخ الروالة سطام بن شعلان، وقد أنشئت هذه المدرسة بمبادرة شخصية من السلطان عبد الحميد الحاكم الحالي الذي يتابع تطورها باهتمام كبير، وقد زرت المدرسة سنة ١٨٩٥ تلبية لرغبة أعرب عنها لي السلطان شخصياً، ثم كرّرت الزيارة سنة ١٨٩٧م، فكان المكان قد أصبح ضيقاً وكانوا قد شرعوا في تشييد مبنى جديد، كان كل شيء في المدرسة يدل على النظافة والنظام

---

(١) انظر الفصل ١، ص ٢١.
(٢) انظر المرجع المذكور، ص ٢٦٤.
(٣) يوجد من بينهم حميده الذي تربّى في القسطنطينية.

وكان الانطباع عن المدرسين والطلبة جيداً، ولا شيء يذكّر بأن هؤلاء الصبيان الذين يلبسون زياً أخضر ضيقاً يلتصق بأجسامهم كانوا قد ترعرعوا بحرية في الصحراء إلا ملامحُ وجوههم وبريقٌ يتلألأ في عيونهم، ويوجد الآن في المدرسة صبيان أكراد، وأبناء شيوخ من طرابلس الشام ومن اليمن، وتتحمل المدرسة جميع مصاريف الطلبة بما في ذلك مصاريف العودة إلى مواطنهم في العطل، وتتوافر العناية التامة أثناء هذا السفر، وتخصّص وحدة عسكرية للمرافقة، حتى إن حمّالة مغطاة " تخت الروان " تجرّها البغال ترافقهم في بلاد ما بين النهرين تحسّباً لحالات المرض .

ضرورة الإجراءات العسكرية

تُدرّس في مدرسة البدو اللغةُ التركية والجغرافيا والتاريخ - خاصة تاريخ الإمبراطورية العثمانية - وعلوم الحساب والدين، ويتمثل الهدف الأساسي للمدرسة في تربية الطلبة تربية تجعل منهم أتباعاً طيعين للسلطان، وتعلمهم الأدب والنظام عسى أن يتعودوا هذه الصفات ويحبّوها، ويساهموا في تحضّر أبناء قبائلهم عند رجوعهم إلى أوطانهم .

تشمل محاولات التوطين والتعليم أوجهاً إيجابية بلا ريب، إلا أنني أرى أنه ينبغي على الباب العالي أن يركّز في سياسته تجاه البدو على اتخاذ إجراءات عسكرية حازمة ضد غزوات البدو الرُحّل لحماية المستوطنات المستقرة عند أطراف الصحراء، وسفوح الجبال وعلى الأنهار والجداول، وأن يعمل على تخليص هذه المستوطنات من دفع الخوة، ووضع حدّ للنهب والسلب الذي تتعرض إليه القبائل المسالمة المتنقلة في الصحراء، ثم إنه يجب توسيع رقعة الأراضي المستصلحة حتى لا يبقى لأولئك الذين يتشبثون بالحياة البدوية إلا البراري غير الصالحة للزراعة، عندئذ سيتبيّن ما إذا كان البدو يريدون ويستطيعون العيش على تربية الماشية بعدما يتم تطويقهم من كل جانب، وما إذا كانوا قادرين على ترك النهب والسلب والغزو، أو أنهم لا يجدون مورداً للحياة؛ فيُضطرون في النهاية إلى العمل في الزراعة، أو الانسحاب والرجوع إلى المكان الذي جاؤوا منه، ألا وهو الصحراء العربية (١) .

(١) **قضية البدو في مصر:** هناك دليل متميز على أن التخطيط المُحْكَم للحكومة يستطيع تغيير طريقة عيش البدو، وهذا الدليل هو ما حدث في مصر؛ فقد كانت الأوضاع قبل عهد محمد علي باشا مشابهة تماماً لأوضاع سوريا وبلاد مابين النهرين، وكان البدو يعيشون حياة حرّة مستقلة خارج المناطق الزراعية التي يعمل فيها فلاحون مسلمون وأقباط قرب النيل وروافده، والقنوات القليلة التي كانت موجودة في ذلك العهد، وقد شكلوا أثناء الحملة الفرنسية قوة مقاتلة لا يستهان بها، وقد تصرّف العبقري محمد علي باشا تصرّفاً حكيماً معهم، فبعدما استعملهم كما شاء لترسيخ نفوذه في مصر، دفع بالآلاف من هؤلاء الرجال المتمرسين في القتال إلى المشاركة في حملاته ضد الأتراك في البلاد العربية، وقد استقر جزء من قبيلة هنادي التي جاء بها إلى سوريا في المناطق المجاورة =

لا بد من الاعتراف بأن الحكومة التركية قد فعلت الكثير بخصوص هذا الموضوع في العقود الأخيرة، فقد أصبحت مسافات كبيرة في سوريا آمنة بعدما كانت حتى الستينيات مرتعاً لأهواء البدو يفعلون فيها ما يشاؤون حسب ما يذكره شهود عِيان موثوق بهم .

....

= الحلب، حيث لا يزالون يشكلون إلى اليوم قبيلة مستقلة قادرة على البقاء والعيش الكريم، وفي مقابل الخدمات التي قدمتها له هذه القبائل أعطى لبعض شيوخهم مساحات كبيرة من أراض غير مزروعة لكنها قابلة للاستغلال والاستثمار، وفي الوقت نفسه أرغم البدو باستعمال قسوة لا مثيل لها على إنهاء اعتداءاتهم على المزارعين وتركهم وشأنهم، وفي البداية لم يتوجّه إلا عدد قليل من البدو إلى زراعة الأراضي التي حصلوا عليها، لكنّ الناس اقتنعوا شيئاً فشيئاً بأن هؤلاء القلّة الذين سلكوا هذه الطريق قد حققوا مستوى جيداً من الرفاهية يزيد بكثير على ما يتمتع به إخوانهم الذين يعيشون مما تدرّه عليهم تربية الإبل والأغنام والماعز والخيل - أما تربية البقر فيعتبرها البدوي المصري عملاً مشيناً ولذلك لا يمارسه إلا العرب البقارة الذين يقيمون في بعض مناطق السودان- وقد قلّت المراعي الخصبة رغم ذلك، وقضى جنود وشرطة محمد علي باشا ومن خلفه في الحكم على ظاهرة النهب والسلب والغزو في الأراضي الجديدة ، أما الذين تشبثوا بعاداتهم القديمة ورفضوا التخلي عن الغزو وعن قطعان الماشية فقد أرغموا على التراجع شرقاً وغرباً من ضفاف النيل ومن الدلتا، وساهمت الطبيعة المتميزة للصحراء المصرية بلا ريب في التأثير على أعداد من البدو الذين تراجعوا، وعلى مواصلة جلبهم إلى المناطق الخصبة، حيث يُضطرون إلى التمدن والإذعان إلى قوانين الحكومة؛ وعند المقارنة بمنطقة الحماد في البراري السورية وبلاد ما بين النهرين، نجد أن الصحراء المصرية أكثر رمالاً وجدباً وأقل مياهاً وغير قادرة على توفير الغذاء لعدد كبير من الناس والأنعام طوال جميع فصول السنة؛ ولا يزيد عدد البدو الرحل في مصر في الوقت الحاضر على عُشْر العدد الإجمالي للبدو فيها، وتشير أحدث إحصائيات صدرت سنة ١٨٩٨م إلى أن العدد الإجمالي للبدو المصريين يبلغ ٤٢٧ ٦٠١، ويبلغ عدد البدو الرحل من بين هؤلاء ٧٠ ٤٧٢، أما البقية فقد أصبحوا مستقرين ، بحيث يعيش ٨٨٠ ٢٤٠ مبعثرين في قرى ومدن يعيش فيها الفلاحون، في حين أنشأ العدد الباقي وهو ٠٧٥ ٢٩٠ قرى وتجمّعات سكنية جديدة، ويعيش الشيوخ الأغنياء في القاهرة وفي أراضيهم الشاسعة في مساكن رائعة مجهزة بقدر متفاوت على النمط الأوروبي، ويفضلون الزواج من النساء التُرْك أو الشركس، ويعيش بقية البدو الذين استقروا وفقاً لظروفهم الاقتصادية في أكواخ أو مساكن على غرار مساكن بقية الفلاحين، ولكن قد يشاهد المرء بين الحين والآخر بعض القرى التي لا تزال تمر بمرحلة انتقالية، يعيش أهلها كافة في الخيام، وينصب بعض الذين أصبحوا يعيشون في مساكن ثابتة خياماً إلى جانب قراهم في فصل الصيف، وكذلك يتميز البدو الذين أصبحوا مزارعين عن غيرهم من الفلاحين في ملابسهم وفي لغتهم العربية، ولن يوافق البدوي الذي أصبح مزارعاً أبداً على تزويج ابنته من فلاح، في حين يتزوج هو من بنات الفلاحين، الأمر الذي يساهم بدوره في زيادة الاختلاط بين المجموعتين، ويمكن القول: إن البدوي بصفة عامة لا يزال إلى اليوم ينظر نظرة ازدراء واحتقار إلى الفلاح، ونجد خاصة أن البدو الذين لا يزالون يترحلون يستندون إلى امتيازات قديمة، ويتمتعون بحمل سيوفهم عندما يزورون المدن، وقد طالب البدو في السنين الأخيرة - دون جدوى - بحقوق أخرى أعطاهم إياها وخصّهم بها محمد علي باشا، ذلك أن الحكومة المصرية حاولت إدخال تغييرات جذرية على الإدارة الداخلية، وفرضت على القرى البدوية قبول الواقع، ومكافأة الأشخاص الذين عينتهم الحكومة في منصب العمدة والغفير، وأهم شيء عند البدوي المصري هو أن لا يرغم على أداء الخدمة العسكرية، وقد تسببت الحركة التي نتجت عن هذا الموقف في نزوح بعض عائلات قبيلة هنادي إلى سوريا حيث تمارس - كعهدها في مصر- النشاطات الزراعية التي ترعرعت عليها، والتي ترتاح إليها أيّما ارتياح، أما العودة إلى نمط حياة الترحال البدوية في مصر فإنه موضوع لم يحظ بشعبية كبيرة و لم يكسب كثيراً من المناصرين، وفيما عدا ذلك لا يزال الشيوخ الأصليون للبدو يتمتعون بنفوذ واسع، وتعتمد الحكومة على أفراد عائلات الشيوخ الذين لا يزالون إلى اليوم مسؤولين عن المحافظة على النظام في الصحراء. وقد حفظ عدد كبير من البدو المصريين علاقاتهم مع أهلهم الذين يعيشون على الجانب الآخر من البحر الأحمر في شبه الجزيرة العربية، وقد جاء شيوخ قبائل بيلي والحويطات التي تعيش في الحجاز إلى مصر سنة ١٨٩٨م بسبب المجاعة التي انتشرت على السواحل العربية لطلب المساعدة بالحبوب والمال من أهلهم الذين يعيشون في مصر، وقد حصلوا فعلاً على ذلك بكميات كافية لسد حاجاتهم .

نجاح السياسة التركية مع البدو

وقد أصبح خط الفرات آمناً منذ أن أنشئت فيه ثكنات عسكرية تفصل بين الواحدة والأخرى منها مسافة يوم من السير، ورغم قلة الحماية المباشرة التي تمنحها هذه الثكنات التي يقوم عليها بين ثلاثة وعشرة جنود على الأكثر فإن الحركة على هذه الطريق قد نشطت بشكل جيد بعد أن كانت شبه منعدمة، وتتمتع هذه المراكز بحماية منيعة تتمثل في الوحدات العسكرية النظامية التي تدعى " البغّالة " في دير الزور، والتي وفَّرها وقام عليها عدد من الحكام الذين يتمتعون بالحكمة والحزم، وكان لاستصلاح أراضي دجلة لفائدة الإمبراطورية أثرٌحسَن في إحياء الأراضي البور، وأمّنت الاستعانة بالبدو في هذه الأعمال دخلاً مضموناً لهم ووفّرت لهم حماية الجنود المخصّصين لرعاية هذه الممتلكات الحكومية، وقد عادت هذه الحماية بالنفع على سكان المناطق المجاورة أيضاً (١) .

إلا أنه ينبغي اتخاذ إجراءات كثيرة أخرى بخصوص الجزيرة في أعالي بلاد ما بين النهرين، إذ يجدر توجيه العناية أولاً إلى المنخفضات الخصبة للجغجغ والخابور ليس لأنها تمثل طريق تنقل طبيعية فحسب، بل لأن استصلاحها يبشّر بمحصول وافر أيضاً، إلا أنه يجب أن يتزامن ذلك مع إعادة بناء وصيانة أجهزة الري، وتزويدها بالحماية العسكرية، وتوجد في هذه المناطق بطبيعة الحال عدة محطات عسكرية، إلا أنها غير كافية لا من حيث عددها، ولا من حيث نوعية القائمين عليها، ذلك أن جنود فرق " الضّبطية " لا يناسبون هذه المهمّة ويحسن أن يحل محلهم جنود نظاميون وأفضلهم راكبو البغال الذين سبق ذكرهم والذين برهنوا على كفاءة كبيرة في هذا المجال .

حتى وإنْ تسببت هذه الإجراءات في مصاريف غير زهيدة؛ فإن تطور البلاد لن يلبث أن يجزيها خيراً، ثم إن صرف المبالغ الكبيرة لن يستمر إلا سنوات قليلة.

توسيع شبكة التلغراف في الصحراء

يتمثل الإجراء الضروري الآخر في هذا الصدد في توسيع شبكة التلغراف، وقد تم وصل الخط مع دير الزور بعد زيارتي لبلاد ما بين النهرين، أما قبل ذلك فقد كانت هذه المدينة المهمة

(١) قارن مثال قلعة شرقاط، الفصل ٦، ص ٢١٠.

بموقعها المركزي بين الشعبين الكبيرين آل عنيزة والشمر منعزلة تماماً، وكانت أورفة التي تقع على مسافة عدة أيام أقرب محطة تلغراف، إلا أنه لا يكفي ربط مدينة دير الزور بخط تلغراف مع مدينة حلب وحدَها، بل يجب ربطها بنصيبين والموصل أيضاً، أما الخط الذي يمتد من بغداد في اتجاه أعالي الفرات فقد تم وضعه خصيصاً لمراقبة آل عنيزة ولا يصل إلا إلى قلعة رمادي، ثم يجب إنشاء ثكنات عسكرية على غرار ما حدث في العهد العباسي من إنشاء خانات - جَمْعٌ مفردهُ: خان - كمحطات على طريق القوافل (١) على امتداد خط التلغراف الذي سيصبح مساره طريق تنقل، ولابد كذلك من إنشاء مراكز عسكرية كبيرة بين المسافة والأخرى. ورغم أن البدوي سريع في ترحاله حتى عندما تصحبه الزوجة والأطفال فإن البغّالة يفوقونه سرعة خاصة لأن القطعان الكبيرة من الأغنام والإبل تعرقل قدرة البدو على الحركة في ساعة الجد، وقد شكّل الأتراك في الحجاز وحدات من الهجانة - جنود يركبون الإبل - لأن الفرسان العاديين لا يصلحون للطرق الصحراوية هناك (٢)، وقد أحرز هذا الإنجاز نجاحاً كبيراً، وقد سبق أن استعمل الروم الطريقة نفسها فأنشأوا بحذق استراتيجي (٣) كبير مراكز عسكرية في سوريا وبلاد ما بين النهرين وأقاموا عليها الخيالة وخاصة الهجانة وعرفوا بذلك كيف يراقبون البدو ويكبحون جماحهم.

فإذا تسنّى إدراك البدو في أي حين عن طريق خط التلغراف والوحدات العسكرية فإن ذلك سيحملهم إما على الاستقرار، أو على الأقل على العدول عن أعمال النهب والسلب والتحوّل إلى بدو مسالمين يمارسون تربية الماشية، ويمكن عندئذ فرض الضرائب المنتظمة التي بدأت الحكومة منذ الآن بتحصيلها منهم، إلا أن الاستفادة منها لاتزال إلى اليوم موضع رَيبٍ واستفهام.

إن البدوي يستحق - ولا شك - تعاطفنا ومساندتنا، إلا أنه علينا ألا ننسى أنه يشكل عراقيل في سبيل الانتفاع بالموارد الطبيعية الوفيرة في سوريا وبلاد ما بين النهرين، وإذا لزم الأمر فلابد من التضحية به في سبيل تطوير هذه البلدان التي لاتزال الاستفادة الاقتصادية منها في طور البداية.

....

(١) انظر المجلد الأول من هذا الكتاب الفصل ٧ ص ٢٥٩ وما يليها.
(٢) من المعروف أن للجيش المصري مثلما للجيش الهندي كتيبتين من الهجانة.
(٣) انظر المراكز العسكرية العديدة على Notitia Dignitatum و Tabula Peutingerana

الفصل الثالث

البدو -٢-

دستور القبيلة - دَور الشيخ - " الكرم" الخصلة الأولى للشيوخ - التسلسل الوراثي العناصر الدخيلة على القبيلة، العبيد الزنوج - السلطة القضائية - قانون البدو الثأر - نتائج ظاهرة الثأر - مزايا ظاهرة الثأر - "حق اللجوء" الحماية الصغرى الحماية الكبرى - كرم الضيافة، المظهر الخارجي للبدو - الجشع والسرقة الغزو، عُدَّة الغزو - البدو خلال الغزو - الحروب بين قبائل البدو - سلاح البدو: أسلحة الطعن والضرب والأسلحة النارية - الصيد - الأنعام: الإبل وأسماء عدة ركوبها عند العرب-الأغنام والماعز- الخيل العربية - الخيل الأصيلة الخمسة تقويم الخيل "السلالة" - البنية - اللون - العلف، اللجام - الحدوة، وقاية السنابك تجارة الخيل - ثمن الخيل - نسب الخيل، أصل الخيل الإنجليزية الكريمة - الصفات العامة للبدو - الصليب - مظهر البدو - المظهر واللباس - ملابس وحلي المرأة الوشم ، الحياة العائلية - دور المرأة وأعمالها - تعدد الزوجات والحب - الزواج والغيرة، الطلاق - كثرة الأبناء، الختان - تربية الأطفال - موارد العيش عند البدو مأكولات البدو - الأمراض - الموت والدفن - مظاهر اللطف في طبائع البدو والتدين - تأثير الحركة الوهابية - أداء الفرائض الدينية في مخيم الشمر.

دستور القبيلة

يعتمد دستور القبيلة عند البدو على النظام الأبوي، وينبني في الأساس على دستور العائلة، وتتكون القبيلة من مجموعات تزيد أو تنقص عدداً من العائلات والأُسَر التي تربط بينها صلة الرحم وتسمى " عشائر "، ويقودها - مخاتير جمعُ " مختار " - وتوجد على رأس كل من هذه المجموعات شخصيةٌ يتم الاعتراف بسيادتها عن طواعية وتسمى "الشيخ"، ويشكل الشيخ وعائلته وأقاربه نواة الفريق، ويخضع مجموع شيوخ الفرق التي تكوّن القبيلة كاملة إلى شيخ يحكم القبيلة كافة، ولا يحمل هذا القائد لقباً آخر غير لقب الشيخ.

كبير الشيوخ هو الرجل الذي يتم اختياره عن طواعية من طرف جميع أفراد القبيلة ويمثلها أمام القبائل الأخرى، لكن نفوذه الفعلي محدود نسبياً رغم أنه يستطيع أن يكتسب نفوذاً معتبراً بفضل خصاله الشخصية كالشجاعة والكرم وغيرها.

دور الشيخ

يتولّى الشيخ الذي يكسب مرتبة عالية من الاحترام بفضل حزمه وشجاعته شؤون القبيلة بشكل مستقل حتى في القضايا المهمة دون أن يتخلى عنه أفراد القبيلة، إلا أنه ينبغي عليه من حيث المبدأ أن يستشير أعيان القبيلة " المخاتير " الذين يشكلون مجلساً استشارياً يبدي رأيه في جميع القضايا التي تهم القبيلة، ويمكن القول بعبارة أخرى: إن الشيخ لا يستطيع أن يأمر بل أن يقترح وأن يبدي رغباته وأن يُسديَ نصيحته فحسب، فهو لا يستطيع مثلاً أن يأمر بشدّ الرحال، لكنه بإمكانه أن يبادر بذلك دون أن يكون أي فرد من القبيلة مُلزَماً باتباعه، فإذا شد الشيخ رحاله و لم يتبعه أحد من القبيلة أو اتبعه نفر قليل في تأخُر وتردّد فإن ذلك يدل على عدم رضاهم عنه (١)، وليس من حق الشيخ أن يتخذ القرار فيما يتعلق بالحرب و السلم، وهو ليس قائداً دون منازع أثناء الحروب، فإذا رأى أفراد القبيلة أن رجلاً آخر يملك تجربة أكبر منه في الحرب فإن ذلك الرجل هو الذي يتولى القيادة ويطلق عليه اسم " العقيد "، ولكن مدة سلطته لا تتجاوز الفترة التي تستغرقها الحرب، ويظل منصب العقيد وراثياً في بعض العائلات عند العديد من القبائل (٢)، ثم نجد كذلك أن سلطة الشيخ محدودة جداً في شؤون القضاء، وتعوزه على وجه الخَصوص الوسائلُ اللازمة لتنفيذ الحكم الذي يصدره، ذلك أن الفرد من القبيلة يستطيع أن يفلت من الحكم بانفصاله طواعيةً عن القبيلة (٣) .

ولا يحصل الشيخ بصفة عامة من منصبه على أي امتيازات، بل إنه لا يجني من ورائه إلا الواجبات، حيث تتطلب مهمة التمثيل تضحيات كبيرة منه لا يلاقي من القبيلة في مقابلها غير الاعتراف والشهادة له بذلك، وهو الذي يتحمل مسؤولية موارد الإنفاق التي يقتضيها هذا الواجب؛ ولذلك ينبغي على الشيخ أن يكون دائماً من أغنى رجال القبيلة حتى يستطيع القيام بواجب الضيافة بالقدر الذي يحتّمه عليه هذا المنصب .

(١) يمكن القول بصفة عامة: إن المخيم يبقى في موضعه القديم حتى ينفد المرعى والماء، أما بقاء القبيلة بعد ذلك مجتمعة أو تفرقها فإنه يعتمد على كثافة المراعي الجديدة، وعلى مدى خطر الغزو من طرف القبائل المعادية .

(٢) قارن بوركهارد – ملاحظات حول البدو والوهابيين، ص ٢٣٨ وما تبعها.

(٣) قارن دافتي في المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٢٤٩.

" الكرم " الخصلة الأولى للشيوخ

يدّعي البدو عموماً أن شيخهم لا يملك أية ثروة عندما يتطرقون إلى الثناء على كرمه، ويؤكدون أنه يوزّع ما يملك على أفراد القبيلة، ويتمثل المورد الأساسي لمداخيل الشيخ في الخوة، وكذلك في نصيب أوفر من مكاسب الغزو إذا كان الشيخ في الوقت نفسه قائداً للغزوة أي عقيداً، ذلك أنه يحق لهذا الأخير التمتع بامتيازات (١) معينة عند توزيع غنائم الغزو (٢). إلا أنه ينبغي الإشارة إلى أن الشيخ يحصل على نصيب من المكاسب حتى من الغزوات التي لا يشارك فيها شخصياً، وينبغي على الشيخ دون شك أن يحتفظ لنفسه ببعض الثروة حتى يستطيع تقديم الهدايا عند اللزوم، كما أنه يجب دفع الثمن نقداً للأشياء التي لا يمكن الاستغناء عنها عند استضافة الغرباء من القهوة و السكر وغيرها، وقد يقع الشيخ في كثير من الأحيان في مواقف حرِجة بسبب التناقض الكامن بين جمع الثروة والكرم، ولا يخلو تراث الصحراء من كثير من القصص المتداولة التي تصور لنا ما سبق وتشهد عليه، ولا تزال قصة حاتم الطائي إلى اليوم مضرباً للأمثال، حيث زاره وفد من قِبَل الإمبراطور البيزنطي بغية شراء فرس ثمينة كان يملكها، وكانت قبيلة طيء أثناء هذه الحادثة تعاني من المجاعة وعدوان القبائل الأخرى؛ فلم يبق لحاتم من الأنعام غير الفرس المذكورة، فما كان من حاتم الطائي إلا أن ذبح الفرس الثمينة للقيام بواجب الضيافة، لأنه لم يكن يعلم سبب قدوم الوفد إليه(٣)، كذلك يقصّ بوركهارد حكاية مماثلة عن شيخ الشمر في مطلع هذا القرن (٤)، والعجيب في الأمرهو أن قبيلة عنيزة العدو اللدود للشمر هي التي قصّت على بوركهارد حكاية هذا الكرم النادر لشيخ الشمر(٥)، ويمكن استنتاج الشاهد الحسي على مدى كرم الشيخ، وسعة ثروته من حجم المنسف - وعاء منبسط على شكل الصينية يقدم عليه الأرز أو البرغل - الذي يقدمه لضيوفه، ويتمثل الدليل على أن الكرم هو خصلة يعترف بها حتى العدو في الحادثة التالية:

فقد شيخ من شيوخ قبيلة عنيزة منسفاً كبيراً متميزاً عندما وقع ضحية للغزو، غير أن هذا المنسف أعيد إليه لاحقاً حتى يتسنى له استعماله من جديد في إكرام الضيوف.

---

(١) يتمثل ذلك عند قبيلة الفقرا في ربع الغنائم، قارن دافتي في المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٢٥١.

(٢) يستطيع المقاتل المتميز بالشجاعة والسرعة بالإضافة إلى ذلك الحصول على غنائم معينة عند تسجيل سبقه إلى دواب معينة أثناء الهجوم على مخيم العدو، أو عند الاستيلاء على الغنائم، ويشير المالك لمدح سرعة حصان أو بعير إلى عدد الأشياء التي سبق إلى كسبها على ظهر هذه الدابة أثناء الغزو .

(٣) قارن يعقوب – حياة البدو عند العرب القدماء ، ص ٨٧.

(٤) قارن بوركهارد في المرجع نفسه ، ص ٢٧٦.

(٥) قارن فيتز شتاين – يوميات رحالة في حوران، ص ١٤٦ وكذلك دافتي - المرجع نفسه المجلد الأول، ص ٤٣٣ وما تبعها.

التسلسل الوراثي

منصب الشيخ في العادة وراثي، لكنه ليس من الضروري أن يرثه ابنُه الأكبر، رغم أنه يبدو أن القاعدة كانت على هذا النحو عند الشمر، إذا اعتمدنا على ما استطعنا تتبعه من تاريخهم، ويجوز أن يرث أحد الإخوة أو الأقارب هذا المنصب إذا كان يتمتع بالمزايا التي تتطلبها هذه المهمة بصفة متميزة، وإذا توفي الشيخ و لم يبلغ أبناؤه سن الرشد، فإنه يمكن اللجوء إلى نوع من الوصاية التي يتولاها كبار القبيلة- إذا كانت القبيلة مهددة بالحروب- إلى أن يستتبّ السلم، ويصبح ابن الشيخ المتوفَّى قادراً على ممارسة منصبه بصفة مستقلة، إلا أنه يمكن أن يختار مجموع أفراد القبيلة شخصاً آخر من أنفسهم يتوسّمون فيه كفاءة أكبر لأداء هذه المهمة، فإن لم تتفق الآراء حول الجدارة والكفاءة فإنه ليس نادراً أن يؤدي ذلك إلى انقسام القبيلة، الأمر الذي يحصل أيضاً عندما يطالب عدة أبناء بالإرث في الوقت نفسه، وفي العادة يرجع سبب تولي أحد أفراد عائلة الشيخ المتوفَّى للمنصب إلى أن هذه العائلة هي الأشد بأساً وأعز نفراً، وبناء على ذلك فهي الأوفر ثروة وأكثر غنى، وتستطيع بقوتها وكرمها وسمعتها في القبيلة كسب أكبر عدد من الأنصار من العائلات الأخرى، أما إذا تولت النفوذَ عائلةٌ أخرى فإن ذلك قد يؤدي إلى انقسام القبيلة، و يحدث ذلك أيضاً عند ما يسعى عدد من أفراد عائلة الشيخ المتوفَّى إلى جمع أكبر مجموعة من الأنصار حول كل منهم، فتنشب نار الفتنة بين المتنافسين، ويفتخر كثير من عائلات الشيوخ بأنهم يستطيعون تتبع نسبهم إلى القرون الغابرة، فعائلة فارس شيخ الشمر تدعو نفسها بكل اعتزاز "بيت" أو "آل محمد" لأنها كانت مرموقة منذ زمن الرسول[ﷺ] وكان شيخها في ذلك العهد صحابياً كما يزعمون، ولكن توجد في الواقع إلى جانب عائلة الشيخ الحاكمة -في كل قبيلة تقريباً- سلسلة من العائلات الأخرى تعتقد أنه يحق لها التمتع بمكانة مرموقة مقارنة ببقية البدو "النفر" وذلك بسبب التاريخ المجيد الذي تتمتع به منذ قرون بعيدة.(١)

يوجد في كثير من القبائل إلى جانب المجموعات العائلية عدد من العناصر الغريبة التي كانت تنتمي إلى قبائل أخرى، ثم انفصلت عنها بسبب عدم رضاها عن الأوضاع، ولا شك أن السبب الأساسي في ذلك هو أنهم يتطلعون إلى حياة أفضل تحت راية شيخ أكثر شجاعة وكرماً، وتوجد طبقة أخرى من هؤلاء الموالي يشكلها أولئك الذين اضطروا إلى الانفصال عن قبيلتهم الأصلية بسبب جرائم القتل في العادة، ولا يعودون إليها حتى بعد دفع الدية، وتستطيع حتى القبائل المعادية -إذا حصلت على إذن لها بذلك- أن تقيم في مراعي قبيلة أخرى دون أن يمسّها

(١) قارن بلانتس في المرجع المذكور، المجلد الثاني، ص٨٧، ودافتي في المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٢٥١.

أي ضرّ، وتعتبر عندئذ ذلك فرعاً من تلك القبيلة، وهكذا لقيت عند الخابور - كما سبق أن ذكرت - فرعاً كبيراً من قبيلة عنيزة، كان يقيم منذ سنوات عديدة في مناطق الشمر بإذن من الشيخ فارس، ويتبعه أثناء الحروب.

العناصر الدخيلة على القبيلة " العبيد الزنوج "

يشكل الخدم الزنوج والعبيد الذين كانوا يعيشون بين البدو منذ العصور الجاهلية (١) جزءاً آخر من القبيلة، ويصرّ شيوخ القبائل الكبرى على امتلاك عدد وافر من الزنوج "العبيد" الذين يمثلون نوعاً من الحرس الشخصي، ولا يبتعدون عن سيدهم أبداً سواء في المخيم أو أثناء الحرب، ويرسلهم سيدهم لأداء مهامّ خاصة مثل تحصيل الخوة، وتخشى القرى التي تدفع الجزية هؤلاء العبيدَ خشية متميزة بسبب بطشهم الشديد، وإن وجدنا أفقرَ البدو وأقلّهم مكانة يترفّع ترفعاً كبيراً أمام هؤلاء العبيد، فإن ذلك لا يمنع هؤلاء من كسب قدر وافر من الاحترام والنفوذ في القبيلة، وقد جاء هؤلاء الزنوج من موطنهم الأصلي الإفريقي إلى البلاد العربية في العادة بطريقين: مكة في الغرب، ومسقط والبصرة في الشرق، أما في العهد الحديث فقد تراجعت تجارة العبيد تراجعاً كبيراً بفضل مراقبة القوى الأوروبية - وإن كانت ماتزال بعيدة الانقراض - وإن الانتقال إلى قبائل عنيزة والشمر لا يتسنّى إلا لعدد قليل من الزنوج المولودين في إفريقيا، أما الذين نجدهم اليوم في هذه القبائل فيغلب على الظن أنهم ولدوا في البلاد [العربية ذاتها]؛ ولا تتزوج نساء القبيلة عبداً أبداً، وكذلك لا يتزوج رجال القبيلة من الإماء، ويزوّج الشيخ أو السيد عبدَه في العادة أمَة من بنات أحد عبيده، أو يزوّجه خادمة أو امرأة غريبة عن القبيلة حالَ موافقتها على ذلك ومن فَوْرِها، وقد تلاشى الطابع المميز للزنوج شيئاً فشيئاً بسبب هذا الاختلاط بالدم العربي حتى إنه قد اختفى في بعض الحالات اختفاء تاماً، ولقد وجدت عند الشيخ فارس عبيداً من دم مخلوط يجانسون الشمر أكثر من مجانستهم للزنوج، ويعامل السيد عبيده معاملة حسنة فيحصلون على خيول وأسلحة جيدة، أما ولاؤهم وشجاعتهم فهي مضرب الأمثال، وقد التقيت عند الشيخ فارس بزنجي خالص ولد في مخيم غريب وعتقه سيده وكان قد أجّر نفسه خادماً للباشا وكان يتمتع بمكانة مرموقة جداً ويتولى تقديم القهوة والإشراف على قطاع الرجال في الخيمة، ونجد هؤلاء الخدم الزنوج الأحرار في جميع المخيمات الكبيرة، ويتمثل أجرهم في الحصول على منتجات طبيعية.

---

(١) قارن يعقوب في المرجع المذكور، ص ١٣٧.

السلطة القضائية

وتشمل سلطة سيد القبيلة جزءاً من الشؤون القضائية [1] كما ذكرنا، غير أن الشيخ لا يمثّل في الواقع إلا نوعاً من التحكيم، لأن الخضوع أو عدم الخضوع لحكمه يتوقف على الأطراف المعنيّة بالأمر، أما الشخص الذي يُصدِر الحكم الفعلي في القبيلة فهو القاضي الذي تنتخبه القبيلة، ويكون منصبه عادة وراثياً في عائلته، وللشمر ثلاثة من القضاة الوراثيين يسمى الواحد منهم " مبشراً "، ويوجد اثنا عشر مساعداً للقضاة كذلك يتم تعيينهم حسب القضايا اعتماداً على كفاءاتهم المتميزة، وتتم المداولات في القضايا ومعالجتها أمام القاضي شفوياً طبعاً وفي زمن قصير جداً، وفيما عدا ذلك يبقى للأطراف المتنازعة مطلق الحرية في اللجوء إما إلى القاضي - إذا كان في القبيلة قاض - أو إلى الشيخ لفضّ النزاع، ويمكن دعوة حكم من القبيلة نفسها أو من قبيلة أخرى حسب الرغبة إذا اتفقت الأطراف على ذلك، وفي هذه الحال تأتي الأطراف المتنازعة إلى خيمة الحكم حيث ينبغي أن يقام " المعاد "، وعلى كل طرف أن يعيِّن كفيلاً يتحمل الخسائر المادية التي يقضي بها الحكم على الطرف الذي يخسر القضية، وإضافة إلى ذلك تصطحب الأطراف بعض الأعيان من الأصدقاء أو الأقارب الذين يقومون بدور الدفاع عن قضية طرفهم، ويقدم الحكم لهؤلاء الأشخاص كافّة الغذاء لمدة قد تبلغ عدة أيام، ويتقاضى مقابل ذلك مَبالغَ تتحمل الأطراف المتنازعة تسديدَها إليه بانتظام[2]، وقد توجَّه الدعوة لقاضيين أو ثلاثة أو أربعة لحضور بعض المداولات المهمة، أما التكاليف التي تدفع للقاضي فهي مرتفعة نسبياً وتسدد عادة بالحيوانات خاصة الأغنام والإبل، ولقد حضرت في مخيم الشمر مشهداً قضائياً دعت له الأطراف المتنازعة قاضياً، وراحت تصور له الوقائع بطريقة معقدة، إثر ذلك طلب القاضي من الشيخ أن يعطيه السيف ليمسكه بيده، ويصدر الحكم في جو احتفالي متميز، و لم يكن الطرفان راضيين عن الحكم الذي قضى بأن يدفع أحدهما ديناراً مجيدياً " غازي" في حين كان على الآخر أن يقدم شاة، لكن الغضب ما لبث ذهب وهدأ الطرفان، ويرمز تسليم السيف إلى أن الشيخ يضمن تنفيذ الحكم، وهو أمر ليس له أية قيمة فعلية كما ذكرنا، لكن كثيراً ما تكون الأطراف ملتزمة معنوياً بالخضوع إلى الحكم، وإلا يدفعهم الجوّ العام إلى الهجرة والانضمام إلى قبيلة أخرى .

(١) قارن فيما يتعلق بقانون البدو يعقوب في المرجع المذكور، الطبعة الثانية، ص ٢٠٩ وما تبعها، وكذلك دافتي في المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٢٤٨ و ٢٤٩.

(٢) تفضل قبائل العرب والمصريين في شمال البحر الأحمر دعوة رجال من قبيلة عقبة للتحكيم لأن سمعتهم تشهد بقدرتهم على إصدار أحكام متميزة في التوفيق.

ويشمل التحكيم القضايا المدنيةَ والجنائية على السواء، وقد تقام بين الحين والآخر محاكم شرعية، وفي عدة مناطق يعتبر بعض الرجال مؤهلين بصفة متميزة لإصدار هذه الأحكام الدينية الشرعية (١)، أما القوانين المكتوبة فهي غير معروفة عند أهل الصحراء، غير أنه نشأ على مرّ العصور نوع من القانون العرفي سواء في الأحكام المدنية أو الجنائية، وتتميز الأحكام الصادرة في قضايا الاعتداء الجسدي (٢) بقسوتها؛ الأمر الذي يعالج بطريقة إيجابية ميولَ البدو إلى المشاجرة اليدوية بسبب مزاجهم الحادّ، ولا يوجد عقاب بالسجن ولا عقوبة بدنية، ولذلك ينبغي النظر إلى العدالة في مجملها من وجهة نظر قانون الملكية، وهكذا يمكن التكفير عن جميع القضايا الجنائية بدفع غرامة مالية أو مادية، حتى في حالات القتل، إذا وافق أهل القتيل على [قَبول] الدية التي تختلف كثيراً حسب مكانة وقدر القتيل ومكانة القاتل، لكنه يبدو أنها لا تقل أبداً عن عشرين ناقة (٣)، فإذا تم الاتفاق على ذلك فإن القبيلة كافّة تتعاون عادة على دفع الدية في حال عوز القاتل أو عائلته، أما إذا رفض أهل القتيل قبول الدية فعندئذ:

الثأر

يدخل قانون الصحراء حيّز التنفيذ الذي يقضي بالقصاص " دم بدم "، وقد سبق أن سجّل العهد القديم هذا القانون، وأكّده القرآن في سورة البقرة آية ١٧٣ (٤)، إلا أن البدو قد جعلوا

(١) هناك طريقة شائعة في مصر لهذا النوع من المحاكم الشرعية تقضي بتسخين محمصة على النار حتى تصبح متوهجة، وينبغي عندئذ على الطرفين لحسها، ويخسر القضية الطرف الذي يرى الحكم أن لسانه قد لحقت به حروق أكثر من الآخر.

(٢) يخضع بدو مصر وغزة في حال الإصابة بجروح إلى حكم من قبيلة سليم الذي يحدد الغرامة حسب حجم الإصابة، ويعتبر بنو عقبة وبنو سليم من أعرق القبائل وأكثرها وجاهة، إلا أنهم اندثروا في المناطق المعروفة بهم، ولايزال بعض الأفراد منهم يعيشون مبعثرين هناك بين القبائل.

(٣) الدية ثابتة عند قبائل مصر والحجاز على البحر الأحمر، وقدرها أربعون بعيراً من الإبل المخصصة لحمل الأثقال، إضافة إلى ناقة للركوب على دية الرجل الواحد، ويبدو أنه من الصعب في هذه المناطق حمل عائلة القتيل على قبول الدية، وتبلغ ديّة المرأة في هذه الربوع ضعف ديّة الرجل، وتبلغ دية الطفل أربعة أضعاف دية الرجل، والسبب في ذلك بسيط وهو أن البدوي يحترم المرأة ويسعى إلى حماية النساء والأطفال الذين يمكن مباغتتهم في المخيم الأعزل أثناء الغزو، وكانت الدية في العصور العربية القديمة أكثر من ذلك بكثير إذ كانت تبلغ مائة ناقة أو ألفي شاة. قارن ف. كريمر- تاريخ الحضارات، المجلد الأول، ص ٤٦٦.

(٤) [المترجم: يستشهد المؤلف خطأ بالآية ١٧٣ من سورة البقرة!! والصّوابُ قوله تعالى:

﴿ يا أيُّها الذين آمنو كُتِبَ عليكمُ القِصاصُ في القَتْلى الحُرُّ بالحُرِّ والعَبْدُ بالعَبدِ والأُنثى بالأُنْثى فَمَنْ عُفيَ له من أخيهِ شَيْءٌ فَاتِباعٌ بالمعروفِ وأداءٌ إليهِ بِإحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفيفٌ مِنْ رَبّكمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَليمٌ ﴾ سورة البقرة: الآية ١٧٨]

من هذا القانون أداة يستعملونها بطريقة صارمة جداً قد تصل إلى الظلم والجور أحياناً؛ وذلك عندما يتجاوزون الحدود التي وصفها القرآن في وجهين كما يلي: يقضي قانون البدو بأنه إذا استطاع القاتل أن يفلت من الثأر فإن أقاربه حتى الدرجة الخامسة يكونون معرَّضين لذلك، ويلتزم أقارب القتيل حتى الدرجة الخامسة بأخذ الثأر، وهكذا فإن كل قريب للقتيل يتفق نسبه في الدرجة الرابعة مع نسب القتيل - الجد نفسه - عليه أن يأخذ بالثأر، ويجوز له أن يفعل ذلك مع أحد أقرباء القاتل إذا تعذّر عليه الثأر مباشرة من الجاني، حتى لو كان قريباً من الدرجة الخامسة، وهذه الطريقة في تطبيق القانون تسمى "الخمسة"، وإذا ذهب أكثر من شخص ضحية للثأر فإن عائلة القاتل الأول تستطيع أن تنتقم من العدد المناسب من أقارب القاتل الأخير.

لقد بلغ الوضع الحالي للثأر أن يصيب الانتقام أي فرد من أفراد قبيلة القاتل أو أهل بلده بسبب تعذُّر إثبات صلة القرابة مع القاتل؛ ولذلك ينبغي على الرحالة الأوروبيين أن يتحفَّظوا جداً، وألا يستعملوا الأسلحة النارية إلا في حال الضرورة القصوى؛ لأن ذلك يعرّض الأوروبيين القادمين من بعدهم إلى خطر الذهاب ضحية للذنب الذي اقترفه [الذين من قبلهم]، بصرف النظر عن صعوبة إفلاتهم من الثأر في الصحراء، وليس من الضروري إعلان الحرب أو القتال لأخذ الثأر، ذلك أن الثأر يؤخذ بمجرد ما تتاح الفرصة بلقاء العدو، حتى وإن كان نائماً.

نتائج ظاهرة الثأر

يمكن سرد الأمثلة العديدة للدلالة على مدى جدّية واجب الثأر، ومدى قدسيته التي تصوّر أهل القتيل كثيراً ما يتحملون مشقةَ أسابيع طويلة من الفرار يعرّضون أنفسهم خلالها لخطر الموت، ثم إن الثأر لا ينقضي أبداً، وقد يصيب الشخصَ الذي لا يتوقعه البتة حتى بعد قرن من الزمن، و"يأخذ البدوي ثأره، وإنْ بعدَ أربعين عاماً" كما يقول المثل العربي(١).

النتيجة الطبيعية لهذه العادة التي ترجع إلى آلاف السنين، والتي ينبذها الدين على الأقل جزئياً هي أنها تؤدي إلى وضع يماثل قانون الغاب في أبشع صوره، ويرجع سبب بقائها خاصة إلى حملات الغزو والنهب التي لا ينفك البدو عن القيام بها، والتي تؤدي بطبيعة الحال إلى القتل والإصابة، حيث إنه لا يتم تنفيذ القصاص إلا إذا حدث القتل داخل القبيلة نفسها، فقد نشأت في كامل الصحراء العربية عداوات لا نهاية لها، بدأت منذ آلاف السنين ولا تزال تتطور إلى

(١) يعبّر الرقم "أربعون" [عن الكثرة] وعدد كبير غير محدود عند العرب والفرس.

اليوم وتقضي بذلك على عدد كبير من السكان، وقد بلغ الأمر في بعض الحالات أن قبيلة بتمامها انقرضت بسبب مسألة الثأر، وقد احتاج الشعب العربي لخصوبة متميزة إلى جانب تعدد الزوجات الذي يُعَدُّ ظاهرة معروفة منذ القِدم - لكي لا يؤول البدو إلى الانقراض التام. وتتمثل النتيجة الأخرى لقضية الثأر في الحذر الشديد والانطواء على النفس اللذين يتميز بهما البدوي ؛ لأنه يعيش في خوف دائم من أن يكون أي شخص تجمعه به الصُدَف طالبَ ثأر أو عدواً قديماً؛ ولذلك يسعى البدو إلى تعويد الأطفال منذ حداثة سنّهم على كتمان أسمائهم وأسماء القبائل التي ينتمون إليها، ولا شك أن هذا هو السبب في كذب البدوي عندما يُدلي بمعلومات رغم الشواهد الكثيرة التي تثبت خلاف ما يقول .

وفوق هذا كله تجعل قضية الثأر أيَّ أساس لسلطة منظمة كما هو مألوف عندنا مستحيلاً في المناطق التي يسكنها البدو، وبناء على هذا أنكر الوهابيون حق الثأر في وسط الجزيرة العربية حين اعتقدوا أنهم تمكنوا من السلطة الكافية، إلا أنهم لم يفلحوا في محاولتهم القضاء عليه، وكذلك أخذ محمد علي باشا على عاتقه مهمة القضاء على هذه العادة التي كانت مزدهرة حتى عند الفلاحين العرب الذين آلوا إلى الاستقرار، وقد حاول الروس أيضاً في القوقاز حسب إمكانياتهم وضع حدٍّ لهذه الظاهرة التي يمارسها السكان بطريقة في منتهى البشاعة، رغم أنهم يتقبّلون بتسامح كبير عادات إسلامية أخرى رائجة في المنطقة.

مزايا ظاهرة الثأر
حق اللجوء "الحماية الصغرى"

حاول الباب العالي وأخيراً - حيثما استطاع - الحدَّ من قضية الثأر عند القبائل التي أصبحت مستقرة، ونجد في مقابل ذلك أن ظاهرة الثأر تأتي بنتائج في غاية من الإيجابية عند شعب لا يزال على مستوى متواضع من التحضر؛ فهي تكبح جماح التوحش وانفجار الانفعالات العنيفة التي تؤدي إلى الاعتداءات الجسدية التي قد تنتهي بقتل الخصم، ويتم ذلك عن طريق زيادة الوعي بأن سفك الدماء يؤدي إلى سفك دماء أخرى، وأن الموت لا يهدّد الجاني وحدَه وإنما يهدد أهله وذويه أيضاً، وبفضل هذا الوعي نلاحظ أن البدو يجتنبون استعمال العنف، واستخدام القوة البدنية مهما كثرت حالات النزاع والشتم، و يمكن ملاحظة الظاهرة نفسها حتى عند الحضريين والفلاحين، ويحاول البدو تجنب سفك الدماء عند غزو المخيمات المعادية وعند نهب القوافل أيضاً، وفي أغلب الحالات يتم إخلاء سبيل الخصم إذا استجاب إلى نداء

"حَوّلْ" وتوقف وسلّم مطيته وسلاحه لملاحِقه، وهكذا تعزز ظاهرة الثأر احترام حياة الإنسان نفسه، ولا شك أن اعتزاز البدوي - خاصة أمام الحضريين والفلاحين - يرجع بقدر كبير إلى وعيه بأنه يملك حماية متمثلة في أهله وقبيلته، وأنهم يثأرون له عن أي مكروه قد يصيبه.

وتوجد ظاهرة أخرى عريقة ومميزة تماماً مثل ظاهرة الثأر وهي "الحماية وحق اللجوء"، وتنبع هذه الظاهرة من صفة هي من أنبل الصفات المميزة للطبع العربي ألا وهي السماحة والكرم تجاه المضطَهَد أمام أعدائه، وتجاه الضعيف العاجز أمام القوي المتسلط؛ فكل غريب يدخل خيمة بدوي أو يقف أمام حبال خيمة يتمتع بحماية صاحب الخيمة مادام مقيماً عنده، وإذا تناول شخص طعاماً مع بدوي فإنه يتمتع بحق الحماية مدة الثلاثة أيام وربع اليوم التالي، حتى وإن غادر الخيمة، ذلك أن البدو يعتقدون أن الطعام يبقى في بطن الضيف هذه المدة من الزمن، فإذا تعرّض الضيف خلال هذه المدة إلى السرقة من طرف أحد أفراد قبيلة المضيف، فإن وساطة هذا الأخير تضمن إعادة الأشياء المسروقة إلى صاحبها، وتسمى هذه العادة " الحماية الصغرى " التي يجب على كل شخص أن يقدمها، وإلا فإنه يعرّض نفسه إلى الإنكار [من قبيلته] والاحتقار العام.

الحماية الكبرى

ونجد إضافة إلى ذلك ما يسمّى " الحماية الكبرى " أو " العقد " وهي الحماية التي يطلبها المطارَد من قِبَل عدوه أو المطارد له، ومن الواضح أنه لا يستطيع القيام بالحماية الكبرى إلا الغني القوي، ذلك أنه إذا قام بالمطاردة عدد من الأشخاص، أو ربما قبيلة بكاملها فإنه يتحتم على الحامي أن يجند أيضاً قبيلة بأسرها لمساعدة المطارَد؛ ولذلك يتوجّه المطارَد في مثل هذه الحال عادة إلى الشيخ الذي قد يقع بذلك في موقف شديد الحرج، لكن بدو الصحراء يؤمنون عادة بالمبدأ الذي يقضي بأنه لا يمكن رفض حتى هذا النوع من الحماية إلا في حالات نادرة جداً، غير أنه يجوز للشخص الذي يقدم الحماية أن يبذل قصارى جهده ليزيد في صعوبة الأمر، و يجعله مستحيلاً على طالبه، وذلك بسبب العواقب الوخيمة التي قد تنتج عن ذلك؛ ولهذا يتعين على المطارَد أن يقوم بشكليات متعددة أبسطها قَوْل عبارة " أنا دخيلك " عندما يطأ خيمة البدوي الذي يلجأ إليه ويطلب حمايته، وتعني هذه العبارة: أنا أطلب حمايتك، ثم ينبغي على المطارَد أن يعقد عقدة في كفيته [غطاء رأسه] ويجب على صاحب الخيمة أن يحلّها إذا وافق على حماية المطارَد(١)، لكن الالتزام الأكيد الذي يقع على عاتق البدوي يحدث عندما يحصل المطارَد بأي

(١) قارن فتزشتاين، المذكور، ص ١٤٨.

طريقة على تدخل الحريم في الموضوع، وتتمثل أوضح طريقة في الوصول إلى هذا الغرض في أن يحاول المطارَد النفوذ إلى قسم النساء من الخيمة، وأن يمسك بملابس إحدى النساء، أو يضع يده على صدرها، ويعبّر بذلك عن حاجته إلى الحماية كما يعبّر عنها الطفل الذي يستغيث بامرأة، ويعتبر المضيف طبقاً للعادات البدوية أنه من واجبه حماية المطارَد، كما يحمي نساءه وأطفاله الذين لجأ المطارَد إلى مسكنهم من الخيمة.

ولقد كان على السياسة التركية التي تسعى إلى إيجاد أوضاع قانونية منظمة أن تقف أيضاً في وجه هذه العادة التي تنبع من إحساس نبيل، ولذلك فقد تراجع عدد حالات طلب الحماية والاستجابة لها تراجعاً ملحوظاً في المناطق التي أصبح تأثير الباب العالي فيها ملموساً خاصة في المدن، وقد أصبحت ظاهرة الحماية الكبرى ضرباً من الخيال حتى عند القبائل البدوية الصغيرة المتصدعة التي تعيش من النهب والسرقة، هنا أود أن أذكّر بالتجربة التي عشتها بنفسي في مخيم غياط حيث أصر المضيف ذبلان على النّوم مسلحاً في خيمتي خشية العار الذي قد يلحقه لو أقدم أحد رجال قبيلته على نهبي، أو ربما قتلي وأنا على مقربة من خيمة أخيه (١).

كرم الضيافة، المظهر الخارجي للبدو

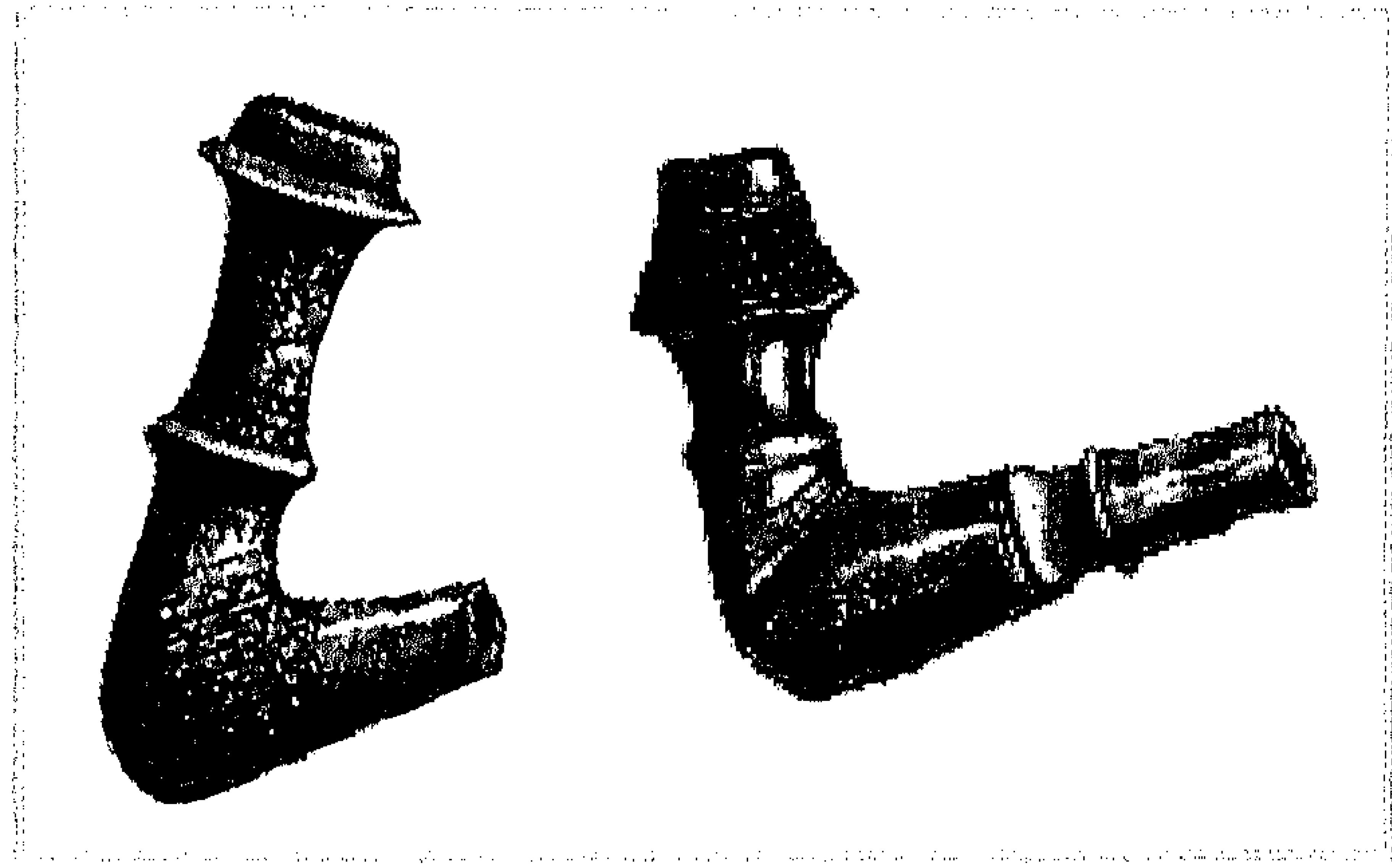
تنبثق ظاهرة الكرم البدوي من المصدر نفسه الذي نبعت منه ظاهرة الحماية، ويمكن بطبيعة الحال إرجاع هذه الميزة إلى طبيعة الحفاظ على الذات، حيث إن الصحراء لا تحتوي على فنادق، وعندما يضيف البدو غريبا تاه في الصحراء، أو لجأ لمن يأويه ويطعمه فقد يكون فِعل ذلك بدافع الرجاء في أن يعامل بالمثل في ظروف مشابهة قد يمرّ بها، ولكن الطريقة التي يمارس بها كرم الضيافة اليوم، والتي نعرفها من تصوير المؤرخين والشعراء منذ آلاف السنين تتجاوز بكثير القدرَ الضروري من واجب إكرام الضيف، إذ لا يمكن أبداً أن يغادر شخص خيمة البدوي دون أن يقدم له الضيافة مهما كان البدوي فقيراً وإنِ اضطر إلى ذبح آخر شاة يملكها في سبيل إكرامه(٢)؛ إذ يسارع صاحب الخيمة إلى الفارس الذي لا يزال على صهوة جواده، ويحاول الأخذ بالرمح واللجام، ويمسك الفارسَ بقوة ليحمله على الترجل، أما إذا كان الغريب في عجلة من أمره ولا يرغب في النزول في المخيم فعندئذ يقدّم له المضيف لبن الماعز والإبل

(١) قارن المجلد الأول من هذا المرجع، الفصل السادس، ص ٢٣٨.

(٢) إذا كان الضيف ينوي قضاء عدة أيام في مخيم لا يوجد فيه شيخ غني، فإن العادة تقضي بأن يدعو رجال القبيلة كل بدوره هذا الضيف لتناول الطعام حتى لا يتحمل المضيف الذي ينام الغريب في خيمته عبئاً لا طاقة له به، وعندما تسمح الظروف يقدم المضيفون ذبيحة كل يوم للضيف.

والمرطبات الأخرى من كل جانب، وبطريقة فيها كثير من التفاني في خدمته، وقد لا يترك البدوي باباً من الاعتذار إلا طرقه – خاصة عندما يكون صاحبَ شأن مثل رب العائلة أو الشيخ – إن لم يستطع أن يقدم للضيف أشياء ثمينة، وبخاصة القهوة التي ينبغي عليه أن يشتريها من المدينة.

يتميز المظهر الخارجي للبدوي المحترم بكثير من الوقار عندما يستقبل ضيفاً، فبينما يعتني رجاله بمطية الضيف، يستقبل رب البيت ضيفه عند مدخل الخيمة، ويجبره على الجلوس في مقعد الشرف، بينما يسارع من كان جالساً هناك بمغادرة المكان، وعندئذ يدرك الضيف أنه هنا في منزله، وأنه عليه أن يتناول الطعام وينام هناك، ويبقى الضيف المبجّل في العادة مدة ثلاثة أيام عند المضيف المحترم، وتشمل الضيافة فيها رفاق الضيف أيضاً، ومن غريب الأمور: هذه العادة التي يبدو أنها لم تظهر إلا في الفترة الأخيرة، والتي تتمثل في أنه ينبغي على الضيف أن يمرر كيس تبغه على الحاضرين، أو يملأ الغلايين القصيرة المصنوعة من الفخار وتسمى "سبيل" عندما يرميها إليه الحاضرون حتى يفرغ الكيس، أما إذا أعجب الضيف بأي شيء عند مضيفه فإن العادة تقضي بأن يقدم له هذا الشيء كهدية، إلا أن المسألة تبقى بطبيعة الحال مجرد مجاملة في العادة، ثم إن قبول الهدية بهذه الطريقة دون تقديم مقابل لها يعتبر بدوره أمراً غير لائق وغير مقبول.



صورة السبيل "غليون البدوي "

الجشع والسرقة

إذا أخذنا بعين الاعتبار الرغبة الشديدة لكل بدوي في قضاء واجب إكرام الضيف بأفخم طريقة ممكنة؛ فإن ذلك يتسبب في ارتباط طبيعي بميول البدو إلى جمع الثروات التي هي السبيل الوحيد الذي يسمح بأداء هذا الواجب المشرِّف على أحسن وجه، ومن هذه الظاهرة ومن الفرحة المتميزة التي يبعثها شعور التملك في نفوس الشعوب البدائية، والتي يتقاسمونها منذ الطفولة تتضح لنا أسباب الجشع الذي يلازم البدوي، والذي يؤدي في كثير من الأحيان إلى التسول أو إلى التصرف الإجرامي حسب مفاهيمنا ومنظارنا نحن، فلا يأنف البدوي مثلاً أبداً من طلب عباءة أو سلاح من شيخ حصل عليه لِتوِّه هدية من غريب، ونلاحظ خاصة أن البدو لا يستنكرون السرقة البتة، بل على العكس من ذلك، فكلمة " حرامي" وخاصة إذا كانت تعني السارق المحترف تكاد تكون مصدر اعتزاز وفخر، ويطلب البدو من الأطفال والشبان أن يبرهنوا على كفاءتهم في القيام بعمليات سرقة بمهارة متميزة، وعلى غرار ما كان يفعله أهل سبارطة تماماً، ينال الطفل الذي يقوم بذلك دون أن يضبطه أحد كثيراً من الثناء والجزاء.

ويعتبر كل بدوي أنه من حقه الشرعي أن يمارس عملية النهب والسلب بشكل علني، وتتمثل أبسط طريقة للقيام بعمليات السلب في ذهاب نفر من الرجال على الأقدام لسرقة الحيوانات، خاصة منها الإبل .

الغزو ، عدّة الغزو

وأكثر هؤلاء اللصوص حذقاً(١) هم الذين يستدرجون الكلاب ويفكّون عقال الإبل ويموّهون القفية، في حين يشد رجال آخرون الحيوانات لبعضها بعضاً وينصرفون بها، أما إذا أخفق اللصوص في سعيهم وخافوا أن يكشف أمرهم فينبغي عليهم أن يدخلوا عن طواعية خيمة الشخص الذي كانوا ينوون سرقته ويعترفوا بأمرهم ويعلنوا أنهم عازمون على ترك هذا العمل في سبيل تجنب عاقبة أمرهم، عندئذ تتم استضافتهم ويستطيعون وفقاً للأعراف السائدة أن يذهبوا في سبيلهم بسلام، وتحميهم استضافتهم في إحدى الخيام من جميع أفراد القبيلة الآخرين بناء على قانون الحماية، أما إذا تم ضبط اللصوص بعد القيام بعملية السرقة فإنهم يتعرّضون إلى عقاب شديد، ولا يتعرّض الجاني إلى القتل خشية الثأر، لكنه قد يتعرّض إلى

(١) يسمّى الرجال الذين يذهبون للسرقة راجلين [مشاة]غرابة ".

الضّرب المبرّح، ثم يسجن في حفرة ضيقة ويشدّ شعره بحبال، ولا يحصل إلا على شيء قليل من الطعام فتخور قواه، ويشتد ضعفه فلا يستطيع الهرب، وإذا ارتحلت القبيلة فإنه يشدّ على مطية، ويظل اللص في هذا السجن المؤلم حتى يفديه رجال قبيلته، أو يتمكن من الخلاص بأي طريقة أخرى، إلا أنه قد يطلق سبيل السجين لكي يستطيع جمع مال الفدية، بشرط أن يكفله أحد الأشخاص، ويبدو أنه لم يحدث أبداً أن نكث السجين عهده، ولم يرجع عن طواعية إلى السجن إذا لم يستطع جمع المال اللازم لتسديد الفدية(١).

وتحتاج الغزوات الكبيرة إلى تمهيد أوسع وأدق، وهي تمثل حملات الغزو الحقيقي التي يشترك فيها عدد من الرجال يتراوح بين اثني عشر وعدّة مئات، وقد لا يشمل رجال القبيلة وحدَهم بل ينضم إليهم في كثير من الأحيان متطوعون من قبائل أخر.

ويمتطي الغزاة الخيل في الفصول التي يتوافر فيها الماء في كل مكان، أو يستعملون الإبل " الذلول "، ويأخذ راكب المطية في الغزوات الكبيرة رجلاً آخر خلفه على الدابة " مردوف أو رديف " يترجّل أثناء المعركة ويواصل القتال راجلاً، أو يسعى إلى جمع أكبر عدد من إبل الخصم، ويأخذ الغزاة في بعض الأحيان عدداً من الخيل يركبونها عند القتال، أو يستعملونها للهرب فحسب، وفي فصلي الشتاء والربيع تهدف الغزوات إلى الاستيلاء على قطعان الغنم، أما في فصل الصيف عندما يستوجب الأمر قطع مسافات طويلة عبر مناطق خالية من المياه؛ فإن الغزو يهدف إلى سلب الإبل والخيل وحدَها.

البدو خلال الغزو

ينبغي على كل شيخ يعتزّ بمكانته أن يقوم كل سنة بغزوة كبيرة أو عدة غزوات تستغرق عدداً من الأسابيع أو الأشهر في بعض الأحيان، وقد شوهد رجال على مطايا من الإبل قبل تاريخ وصولي بقليل، كانوا قد جاؤوا ضمن غزوة قام بها ابن رشيد في بلاد نجد(٢)، وكان على هؤلاء الغزاة قضاء أسابيع عديدة لقطع المسافة الرهيبة من جبل الشمر حتى منطقة نهر الفرات التي كانوا يقصدون غزوها، وتقدّر هذه المسافة بمائة وعشرين ميلاً ألمانياً في خط مستقيم، وقد رجع بعض رجال الشمر من غزوة صغيرة فاشلة قادها الابن الأكبر للشيخ فارس خلال إقامتي

---

(١) قارن بوركهارد في المرجع المذكور، ص ١٢٧ وما يليها.

(٢) وصلت غزوة في سنة ١٨٩٩ أيضاً حتى نهر الفرات وقام بها عبد العزيز الذي خلف عمه محمد بن رشيد المتوفّى نهاية سنة ١٨٩٧ في الحكم.

في مخيمهم، ولاشك أن العتاد المستعمل في مثل هذه الغزوات هو من أبسط ما يمكن تصوّره، فإذا تم الغزو على ظهور الخيل فإن الفارس يشدّ قربة من جلد الماعز ملآنة بالماء إلى بطن الفرس فتحافظ على شيء من البرودة بفضل الظل الذي يحميها ويستطيع الفارس أن يشرب منها عندما يترجل دون حاجة إلى فكّها من الفرس، ويتعرض الفارس ومطيته إلى امتحان عسير جداً في الصبر والجَلَد أثناء الغزو بطبيعة الحال، ويعتبر كل بدوي أن من حقه أن ينهب ويسلب أي غريب يصادفه أثناء الغزو إذا شعر بأن جماعته أشد بأساً وأكثر قوة من القافلة التي ينوي نهبها.

ونستنتج من هذا أن البدويّ يحاول قدر الإمكان الحفاظ على حياة الخصم، ويتوخّى سبيل الاقتراب من العدو دون إشعاره ثم يباغته، وتلوذ الضحية بالفرار في العادة دون أية مقاومة وتترك الأنعام للعدو، وإذا حالف الحظ الغزاة فإن المخيم يقع في أيديهم بتمامه وكماله، بما فيه من خيام ومعدات، أما إذا تبعهم القوم فإنهم يضطرون في كثير من الأحيان إلى التخلي عن جزء كبير من الغنيمة، ويفلح الغزاة القادمون من بعيد في الإفلات من مطاردة القبيلة التي هجموا عليها وحلفائها، خاصة إذا كانوا في نفر قليل، لأنه لا وجود للطرق في الصحراء، وإذا وجدت فقليلاً ما تكون منبسطة، بل هي متموجة الأديم في العادة، ويبرهن الغزاة على مثابرة عجيبة أثناء هربهم فلا يتوقفون ليلاً ولا نهاراً، ويتسنى لهم الابتعاد مسافات شاسعة قبل أن يتمكن المخيم الذي تعرّض للغزو من جمع الرجال والسلاح وإعداد الزاد الكافي لمتابعة قد تستغرق فترة طويلة من الزمن، وفضلاً عن ذلك فقد تعوّد كل بدوي منذ حداثته أن يجوب شمال الجزيرة العربية وبلاد ما بين النهرين، ويعرف مختلف القبائل وديارها التي يستطيع أن يلجأ إليها.

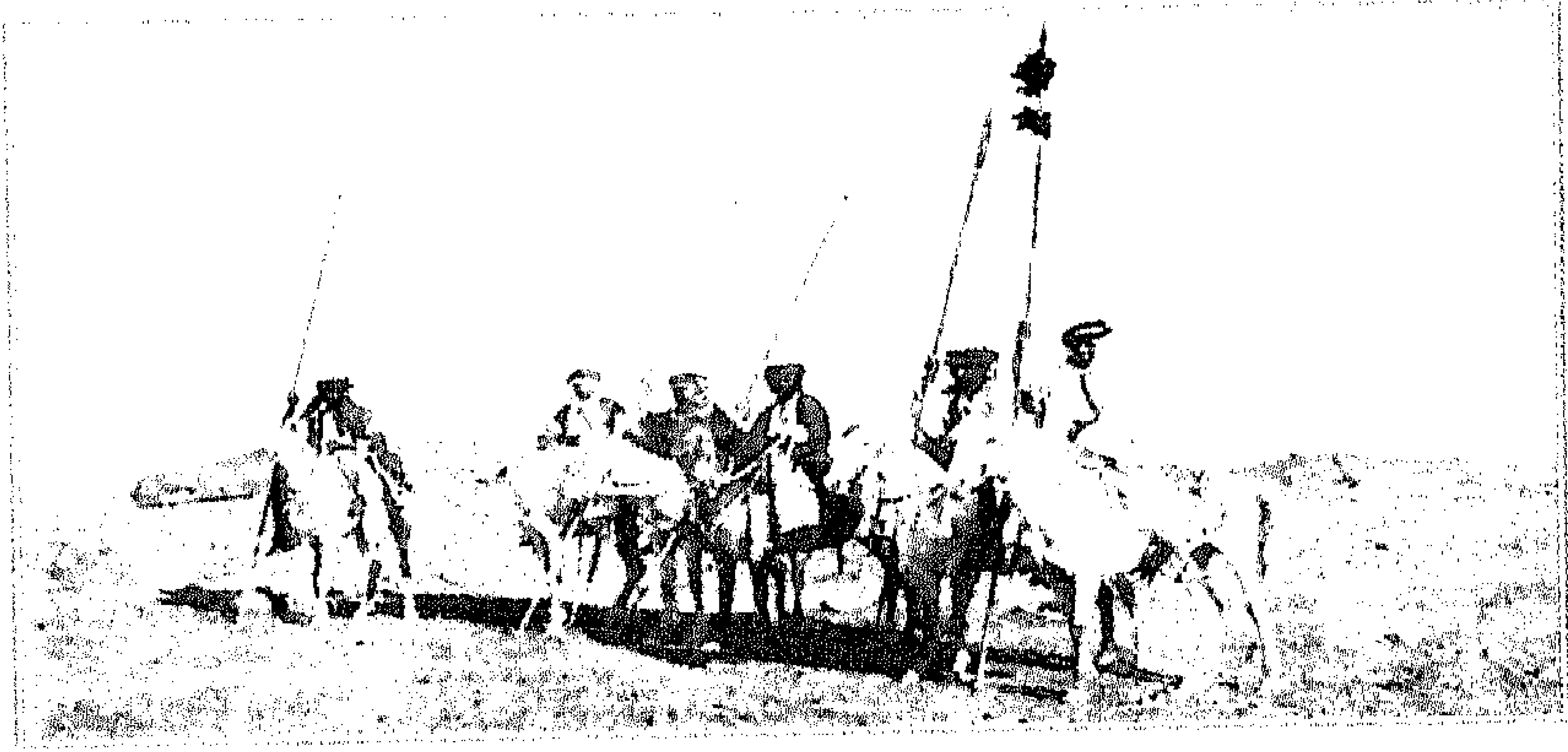
الحروب بين قبائل البدو

يجب التمييز بين الغزو الذي يقوم به البدو بدافع الجشع وحب الغنيمة، وبين الحروب التي يضطرون إلى خوضها والتي تمثل صراع حياة أو موت؛ لأن قطعان الماشية تتطلب مراعي ذات مساحات شاسعة، فإذا أصبحت غير كافية لأي سبب من الأسباب فإنه ينبغي البحث عن غيرها، ولا تترك قبيلة مكاناً خصيباً عن طواعية إلا إذا أدركت أنها ضعيفة بقدر لا تستطيع معه الدفاع عنه، فإذا غادرت ديارها وجب عليها أن تبحث عن مكان آخَر، فتُضطَر إلى إقصاء قبيلة أخرى عن مراعيها وهكذا دواليك، حيث يمكن لهجرة قبيلة واحدة أن تتسبب في حركة نزوح شاملة تمس جميع الأوضاع المتعلقة بزمن معين ويبلغ مداها مناطق شديدة الاتساع، أما إذا

رفضت قبيلة أن تتخلى عن مراعيها فإن ذلك يقود إلى الحرب التي قد تدور رحاها طوال عقود عدة من الزمن، ويزداد هذا الوضع الدائم من الحروب والذي يمثل نتيجة حتمية لحياة الترحال، يزداد حدة بسبب العداوات بين القبائل الكبيرة التي تشعر بأنها قوميات متميزة، وهكذا ينشأ الخلاف السائد حالياً بين قبيلتَي عنيزة والشمر، رغم أن ديارهم تفصلها حدود جغرافية واضحة تتمثل في نهر الفرات الكبير، وهذا الخلاف الذي تعبّر عنه الغزوات والحروب الدائمة بين الفريقين.

لم تصلنا إلى اليوم تقارير شهود عِيان عن تفاصيل القتال المفتوح بين البدو، ولكنه يبدو أن المعارك العنيفة بين بعض القبائل تدور على الشكل التالي: يندفع فريق من الشباب "فداوية"(١) - من بينهم عدد من الزنوج - إلى الصفوف الأمامية لِقتال في حين يسير وسطَ الفريق بعيرٌ قوي مزيّن بزخرف متميز، ويحمل هودجاً "عطفه" عليه ألوية مختلفة وفيه غادة من أجمل فتيات القبيلة (٢) تشعل بأهازيجها جذوة الحماس والشجاعة عند المقاتلين، ويبدو أن الشمر يأخذون جحافل من النساء إلى المعارك لكي يزِدن بغنائهن في حماس وإقدام الرجال، وتسمى هؤلاء النساء "عماريات".

أما أسلحة البدوي إذا كان راكباً فهي بالدرجة الأولى "الحربة" التي يبلغ طولها خمسة أو ستة أمتار وتسمى "شلفه".



فرسان من البدو

....

(١) قارن المجلد الأول من هذا المرجع الفصل الرابع، ص ١٣١

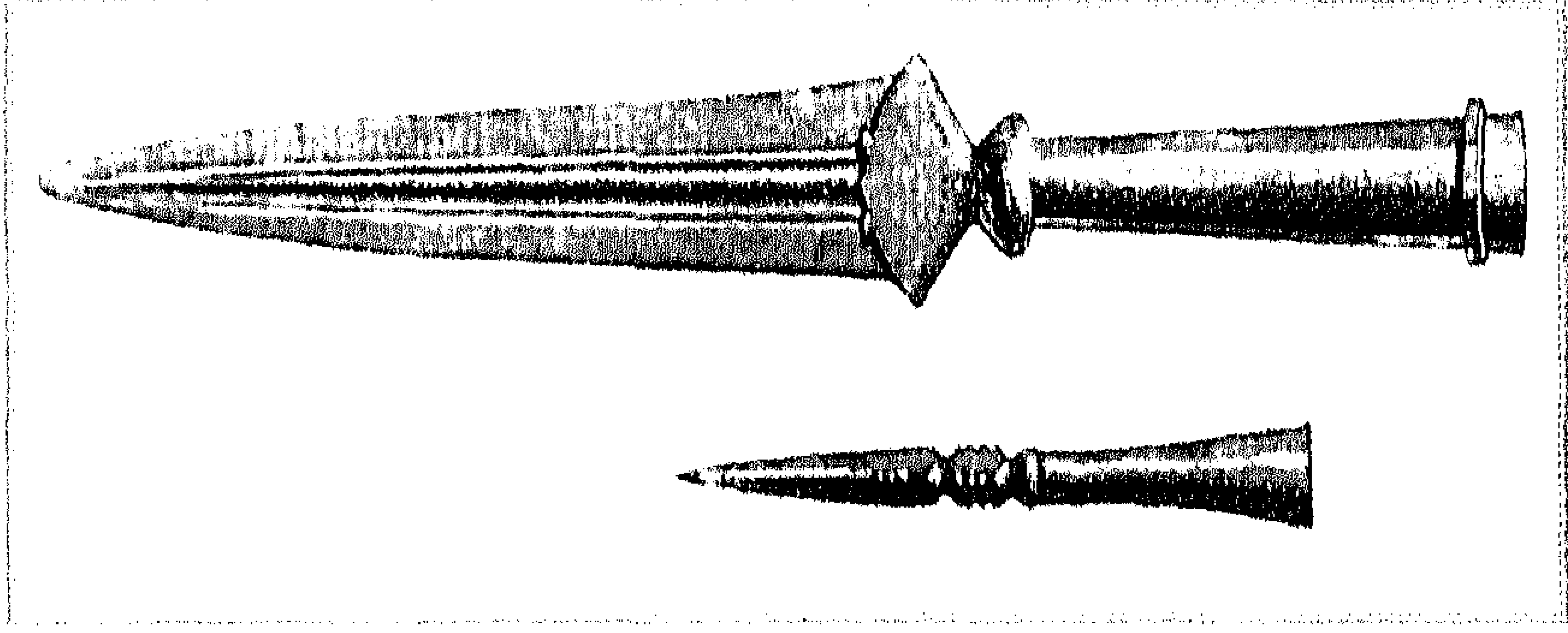
(٢) يقول بوركهارد في المرجع المذكور ص ١١٨ بهذا الصدد: شاباً أو عجوزاً أو عبداً.

سلاح البدو

تُصنَع يد الحربة من قصب البامبو الذي يجلب من الهند، أما رأس الحربة " فالة " فتتكون عادة من نصل عريض ذي حدّين يبلغ طوله قدماً أو قدماً ونصفاً، وكثيراً ما تستعمل لهذا الغرض نصال خناجر جيدة من بلاد فارس، وخلافاً لذلك قليلاً ما نجد رأس الحربة ذات الحوافّ الثلاث على شكل المشرط " رمح "، وقد يثبّت البدوي حزمة من ريش النعام تحت رأس الحربة في بعض الأحيان، غير أن هذه العادة بدأت تنقرض شيئاً فشيئاً بسبب انقراض طيور النعام في شمال الصحراء العربية، وفيما عدا ذلك، كثيراً ما تزيّن رأس الحربة بقطع معدنية تشد إليها بخيوط، أو تضاف رأس حربة أقصر عند الكعب لكي يتسنى تثبيت الحربة في الأرض، ويتميز البدو بمهارة عجيبة في استعمال هذا السلاح القومي، فيمسك البدوي الحربة بقبضته في الاتجاه المعاكس، خلافاً لما اعتدناه عند الأوروبيين، ويرفع ذراعه إلى أعلى ملوّحاً بها في حركة تجعلها تهتزّ، ويستطيع الحفاظ على اهتزازها بسهولة بسبب ركض الفرس الذي يمتطيه، ويفضّل البدو الحراب الخفيفة الدقيقة لسهولة اهتزازها، ونلاحظ الطريقة نفسها في مسك الحربة على الألواح الآشورية القديمة، ولا تزال هذه الطريقة مستعملة أيضاً عند شعوب إفريقية مختلفة مثل الصوماليين، ويتم تسديد الطعنة بحركة قصيرة من مفصل الذراع، أما إذا ترجّل البدوي فإنه يحمل الحربة عادة على الكتف بطريقة لا تنمّ عن أي مهارة أو حذق في استعمالها.

تُسمّى الحراب القصيرة " قطعة "، وتسمى الرماح القصيرة الصالحة للرمي " خشت"، وقد بدأت هذه الأخيرة التي يبلغ طولها متراً وربع المتر تختفي شيئاً فشيئاً ولا يستعملها إلا الراجلون، ونجد إلى جانب الحربة أن السلاح الأساسي للفارس يتمثل في السيف المعقوف، الذي يصنع نصله عادة في أوروبا، وتصنع القبضة من القرن أو العظم أو الخشب، وتكون في كثير من الأحيان من الفضة في أسلحة الشيوخ، أما الغمد فهو من الخشب المكسوّ بالجلد الأسود.

ويحمل البدوي سيفه عادة على الجانب الأيسر تحت العباءة، ويشدّه بحبل ملوّن خاصة باللون الأحمر يمدّه فوق كتفه اليمنى.



رؤوس الحراب عند البدو

لا يستعمل بدو شمال شبه الجزيرة العربية السيف المستقيم الذي نجده في جنوب شبه الجزيرة العربية[1] وعند القبائل العربية في ما كان يسمى سابقاً " السودان المصري"[2]، والذي وجدته في مسقط ذا طول متميز ودون عارضة حماية [3]، وفي مقابل ذلك يكثر على وجه خاص رواج الخناجر المستقيمة إلى جانب السيوف المعقفة " شبلية ".

أما البنادق التي نجدها عند البدو فهي من أنواع مختلفة بداية من بندقية الفتيل " فتيلى" وبندقية القفل الحجري "جفته "[4] إلى البنادق الأوروبية الحديثة متعددة الطلقات، ورغم أن هذه الأخيرة يزداد رواجها باطّراد فإن البدو لا يريدون التخلي عن بندقية القفل الحجري القديمة، لأنه يمكن الحصول على ذخيرتها بسهولة[5]، ويجد البدو مركّبات هذه الذخيرة في أماكن متفرقة من الصحراء فيصنعون منها باروداً خشناً إلا أنه ذو قدرة ضعيفة على الانفجار حيث

....

(١) ومن هناك انتقل إلى زنجبار وشرق إفريقيا.

(٢) يحمل السيف السوداني المستقيم عارضة حماية تشكل مع النصل على هيئة الصليب مما يذكّر بسيوف الفرسان الأوروبيين القدماء، وتستعمل السيوف السودانية نفسها في الحبشة، ويبدو أن هذه السيوف تحاكي نماذجاً يعود إلى عهد الحملات الصليبية، ولا تزال بعض الأسلحة الأصلية التي تعود إلى عهد الصليبيين موجودة إلى اليوم في السودان.

(٣) قارن الصورة في الفصل ٩، ص ٣٤٦.

(٤) تستعمل هذه التسمية أيضاً للبنادق بصفة عامة، وفي سوريا تستعمل بصفة خاصة للبنادق الأوروبية ذات الماسورتين، وتستعمل قبيلة الصليب على وجه التخصيص بنادق الفتيل، قارن الصورة في المجلد الأول من هذا المرجع، ص ٢٢٠.

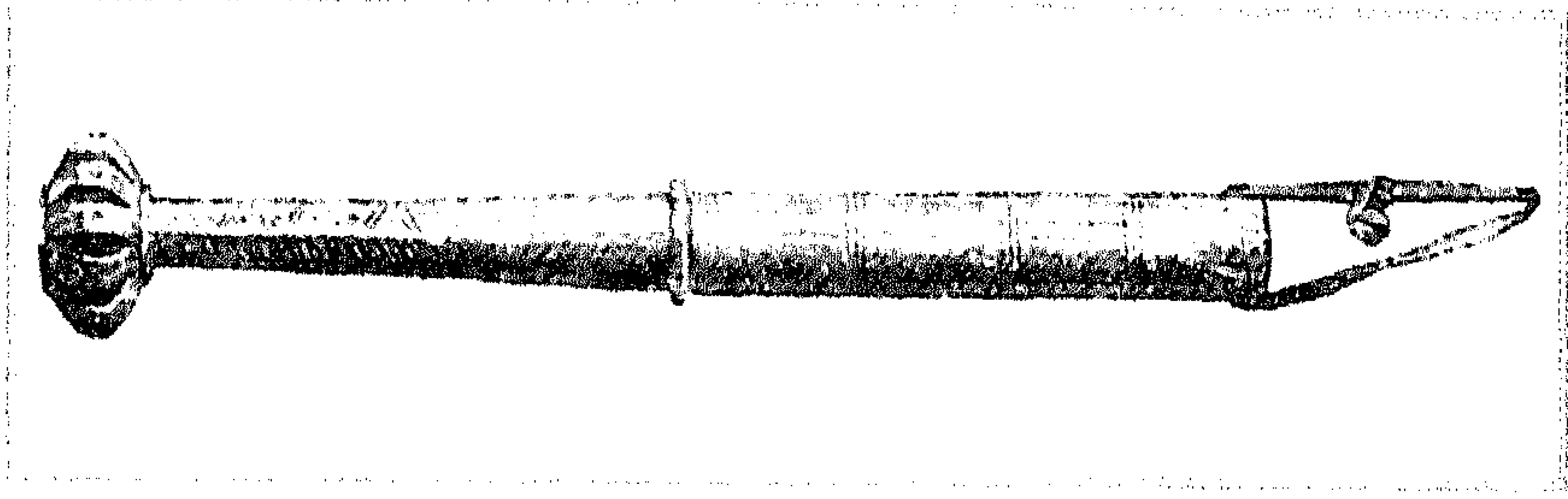
(٥) تصادر الحكومة التركية – التي تدرك تماماً خطر تحسّن التسليح عند البدو- كلّ سلاح ناري ذي تزويد من الخلف تعثر عليه عندهم، ورغم ذلك نجد حركة استيراد نشيطة لهذه الأسلحة، ويقال: إن تاجراً مسيحياً معروفاً جلب آلاف الأسلحة لقبائل المنتفك، وقد أعرب لي ذبلان عن أسفه لأن بدو الغياط قد حسّنوا عتادهم الحربي؛ ذلك أنه يعتقد أن معارك رجال قبيلته تسفك كثيراً من الدماء بسبب رغبتهم الجامحة في الغزو والقتال.

ينبغي استعمال ما لا يقل عن حفنة منه لإطلاق الرصاصة مسافة لا تزيد على بضع مئات من الأقدام، أما الفتيل فيستمدّه البدوي من قطعة يمزّقها من أسفل قميصه الذي يشهد في كثير من الأحيان على نتائج هذا الاستعمال، وأما القذائف فيصنعها البدو من صخور الحديد البنّي الموجودة بكثرة في الصحراء.ويصنع البدو قذائف من الرصاص أيضاً كذلك قذائف رش تستطيع أن تسبّب جراحاً بالغة الخطورة.

تكون البنادق[1] في العادة ذات طول متميز، وتحمل في كثير من الأحيان عند الفوهة جزءاً على هيئة الشوكة يستعمل في القتال المباشر، كما يستخدم كحاملة للبندقية عندما يتّخذ المقاتل وضع الانبطاح، ويصنع هذا الجزء عادة من الحديد لكنه قد يكون أحياناً من قرون البقر الوحشي، وهو نوع من الظباء البيضاء التي تعيش في شمال الصحراء العربية خاصة في صحراء النفود، ويبلغ حجمها حجم الأيل، وتكاد قرونها تكون مستقيمة في شيء بسيط من الانحناء باتجاه الخلف، وهذه القرون حادة ويبلغ طولها متراً وتتميز بشدة صلابتها، وتستعمل هذه البنادق ذات الشوكة في صيد الغزلان أيضاً، فينبغي على الصياد في كثير من الأحيان أن يطلق النار من بعيد وهو في وضع انبطاح هادئ؛ ولذلك يحتاج إلى رافعة تستند إليها البندقية، أما المسدّسات " بشتاوات " فهي نادرة نسبياً، ويفضّل البدو من بين المسدّسات الحديثة ذات الطاحونة - يحرّف البدو الكلمة الإنجليزية من ريفولفر إلى " ولور أو ورور أو ريللور" - يفضّلون ذات العيار الأكبر والماسورة الطويلة، وكثيراً ما نجد إلى جانب الأسلحة النارية الهراوة بمختلف أشكالها من العصا الكبيرة " مضروب " إلى الهراوة الحديدية، ويكثر استعمال الهراوة " دنبوز أو دبّوس " ويبلغ طولها بين ٣٥ و ٤٠ سنتيمتراً، وتحمل رأساً من الحجر أو القار على شكل الكرة، وهي السلاح العادي عند جميع الفلاحين وجميع البدو في جنوب بلاد ما بين النهرين، وتستعمل المطرقة ذات الرأس الصغيرة المصنوعة من الحجارة أو الفأس التي تسمى " كلنك " سواء أكان سلاح ضرب أم رمي أيضاً، ولا تزال المقاليع البدائية تستعمل بكثرة إضافة إلى ذلك، أما عصا القذف فتستعمل خاصة كسلاح للصيد.

---

(١) تحمل البنادق أسماء مختلفة، فأما تسمية " بندقية " المأخوذة عن المصريين والتي تنسب هذا السلاح إلى مدينة البندقية، أو ربما تعني الأنبوب الذي يرمى به ثمر البندق والذي يسمّى في اللغة التركية فوندوك، وتستعمل أيضاً تسمية " مكحلة " وتعني " السوداء" خاصة في بلدان المغرب العربي، ثم نجد تسمية " بارودة " في سوريا وهي مأخوذة من البارود، وأخيراً نجد تسمية " تفنك" وهي مأخوذة من اللغة الفارسية، هذه التسمية الأخيرة منتشرة في كامل بلاد ما بين النهرين، وعند المنتفك وفي مسقط.



سلاح من أسلحة البدو

الصيـــد

أما القوس والسهم فهي دون شك من الأسلحة التي أصبحت نادرة الاستعمال، وأمّا ما تبقّى من عُدّة القتال القديمة فنجد منها إلى اليوم " الدرع "[١] التي لا يستعملها إلا بعض أعيان البدو، ولا حاجة للإشارة إلى أنها لا تمثل أي حماية أمام الأسلحة النارية الحديثة[٢].

يستعمل الفارس من بين هذه الأسلحة الكثيرة السيف والرمح في العادة ويستعمل المشاة البندقية، أما الصيد[٣] فيتم عادة عن طريق التربّص بالحيوانات - خاصة الغزلان - عند مواقع ورودها ورميها من المخبأ، وفي كثير من الأحيان تصنع لهذا الغرض مواقع للرماية باستعمال الحجارة التي يختبئ وراءها الصياد، ويبدو أن المنتفك يتخذون مجناً في لون الأرض ويقتربون في حذر من الحيوانات البرية، وتطارد الأرنب البرية والداجنة باستعمال السلوقي، أو تصطاد بعصا الرماية التي يحسن الشبان استعمالها في صيد القطا والحجل والدرّاج التي يعثرون عليها عند مواقع المياه، ولا يرمي البدوي الطير أبداً أثناء الطيران، الأمر الذي يصعب عليه في جميع الأحوال نظراً لسلاحه الناري البدائي، ويستخدم الشمر الصقور في صيد الحيوانات الكبيرة والغزلان والحبارى أيضاً، ولا نجد الصقور في الغالب إلا عند الشيوخ لأن العناية بها تقتضي تكاليف عالية، ويأخذ الصقر مكانه في الخيمة على حاملة أفقية في قسم الرجال، ولا يمارس

---

(١) توجد الدروع في المناطق الإسلامية بكثرة داخل إفريقيا، وقد تم العثور على عدد كبير منها كان يلبسها أتباع المهدي أثناء المعارك الأخيرة في السودان المصري .

(٢) يذكر بوركهارد في المرجع المذكور، ص ٤٤: الخوذة الحديدية " طاس " أيضاً، ويبدو أن المجنّ " كلنك " لا يزال يستعمل في جنوب بلاد ما بين النهرين.

(٣) يبدو أن أفضل الصيادين ينتمون إلى قبيلة صليب.

(٤) قارن لايارد – نينوى وبابل، الطبعة الألمانية، خاصة ص ٢٢٦ وص ٢٥٥ فيما يتعلق بصيد الصقور، والحصول عليها والملكية المتوارثة لأعشاشها.

الصيد بالصقور إلا في الصباح الباكر، لأن هذه الطيور يصيبها الإرهاق في النهار بسبب حرارة الشمس فتصبح فريسة سهلة للنسور والعقبان، ويرسل الصقر إثر الغزلان أيضاً، إلا أنه يستعان في ذلك بالسلوقي لأن الصقر لا يملك من القوة ما يستطيع به طرح الفريسة أرضاً.

الإبل وأسماء عدة ركوبها عند العرب

الإبل هي الثروة الأساسية للبدوي، غير أنه لا توجد إحصائيات موثوقة لعدد الإبل عند القبيلة، لكنه قد يبلغ الآلاف، أما التعداد الذي تقوم به السلطات التركية حالياً لغرض جمع الضرائب فلا يعطي إلا فكرة غير دقيقة عن الواقع، وعلى كل حال فهو أدنى بكثير من العدد الحقيقي الموجود، وتملك كل قبيلة - وأحياناً كل فرع منها وكل شيخ من الشيوخ - وسماً خاصاً تحمله الحيوانات التي يملكها[1]، وقد يعثر المرء في كثير من الأحيان على هذا الوسم منقوشاً على الأحجار في الصحراء[2]، وإلى جانب اللبن واللحم يستفاد من وبر الإبل الذي يغزل، ويستعمل في صنع الخيام وغيرها أو يباع في القرى المجاورة، وقد انتعشت تجارة الوبر مؤخراً في شمال الصحراء العربية، أما الأسواق الأساسية فهي دمشق وحلب والدير والموصل وبغداد.

أسجل فيما يلي الأسماء العربية لأجزاء سرج الإبل:

الشداد: سرج الركوب.

البدود: الوسادة الجلدية الأمامية.

الهدوب : خيوط متدلية وما شابه ذلك، والهدف منها هو الزينة.

الغزالة: الأوتاد أو القطع الخشبية عند أطراف السرج من الأمام والخلف.

الغزالة القدامية: الوتد أو القطعة الخشبية الأمامية للسرج.

الغزالة الورانية: الوتد أو القطعة الخشبية الخلفية للسرج.

---

(١) يملك كبار تجار الإبل "عقيل: تاجر إبل" علامات وسم خاصة بهم أيضاً، وتقابل هذه العلامات ما نستعمله نحن في تربية الخيول، أو ما يستعمله الأمريكيون الشماليون في مجال تربية البقر.

(٢) نجد صوراً لهذا الوسم عند بوركهارد - ملاحظات حول البدو، ص ١٦١، قارن دافتي أيضاً - رحلات في الصحراء العربية، المجلد الأول، ص ١٢٥، ويتمثل وسم شمر بلاد ما بين النهرين في صليب ممدود.

الظلفة: القطع الخشبية العريضة الموجودة بين الأوتاد المذكورة والتي تكوّن الهيكل الفعلي للسرج .

الجلمود: الحبال المصنوعة من أوتارعضلات الإبل والتي تربط الأجزاء الخشبية للسرج إلى بعضها.

البطان: الحزام الأمامي للسرج .

الحقب: الحزام الخلفي للسرج (١)

الأغنام والماعز

يربّي البدو الأغنام الماعز أيضاً ولكن بدرجة أقل من الإبل، وتجمع قطعان الأغنام والماعز تحت تسمية " غنم"، وتشترى جميع هذه الحيوانات من طرف تجار متنقلين أو تجلب إلى أسواق المدينة.

أما ملكية الخيل فهي علامة من علامات الغنى المتميز، ولا شك أن عدد الخيول الجيدة اليوم ليس مرتفعاً عند البدو مثلما يعتقد البعض، ويجوز التساؤل بصفة عامة عما إذا سبق لهذا العدد أن كان في أي وقت مضى مرتفعاً بالقدر الذي يعتقده الناس، ومن الواضح أن عدداً كبيراً من الخيول يلقى مصرعه في حملات الغزو الدائمة والحروب الطويلة الأمد، وكذلك يغادر كثير من الخيول موطنها لأنها تُهدى إلى الموظفين الأتراك في العادة، وقد حدثت الثغرة الكبيرة الأولى في ثروة الخيول العربية - كما يبدو في هذا القرن - في عهد الخديوي عباس الأول الذي

---

(١) يطلق البدو المصريون على السرج اسم الغبيط – قارن يعقوب في المرجع المذكور، ص ٦٨. [المترجم: المفردة عربية فصيحة، وقد ورد في معلقة امرئ القيس: تقول وقد مال الغبيط بنا معاً ...، وتعني ضرباً من الرحال أو الهوادج].
أما الأسماء الأخرى المستعملة حالياً في مصر فهي كما يلي: الوسادة الجلدية المثبتة أمام الوتد الأمام "غزالة" والتي يضع عليها الراكب رجله المثنية تسمى " ميركه " أما الوسائد المحشوة بالقش أو بالنباتات الصحراوية – خاصة الشيح – والتي تأخذ مكانها تحت الهيكل الخشبي للسرج فتسمّى " بلود " ويسمى الحزام الأمامي – مقدم – والخلفيّ – بطانة –، أما القطع المتدلية من الحزامين فتسمى " شراريب: ج شرّابة "، ويسمّى المقعد الفعلي من السرج " القعد" والفراء الموضوع على المقعد " فروة " والعصا " محجن " إذا كانت ذات طرف معقوف إلى أعلى على شكل فأس، وتصنع هذه العصا عادة من نبات الطرفاء أو من شجر اللوز، أما الزمام فيسمّى " رسن " سواء عند الفرس أو الناقة، ويسمى الجزء العلوي من لجام الجمل الذي يمسك الأجزاء الجلدية من الرسن وراء الرأس " عضر " ويزين هذا الجزء غالباً بكثير من القطع المتدلية.

غرف ملء يديه من أموال الخزينة المصرية، و كان يسعى إلى ربط العلاقات مع العرب (١)؛ فقد اشترى من البلاد العربية أعداداً كبيرة من الإبل وخاصة من الخيول العربية الأصيلة، إذ يزعمون أنه جلب عدداً يزيد على ألف فرس أصيل لاقتنائها في إسطبلاته بمصر.

الخيل العربية

ونلاحظ أثراً بالغاً لشغف الحكومة الهندية بالخيول العربية الذي ظهر في العقود القليلة الأخيرة، ولعملية تصدير الخيل بالجملة إلى بومباي بموافقة السلطان(٢)، أما السوق الأوروبية فلا يصل إليها إلا عدد قليل جداً من الخيول الأصيلة فعلاً، خاصة أن الحكومة التركية منعت تصدير الخيول الأصيلة منعاً باتاً، سواء أكانت جياداً أم أفراساً.

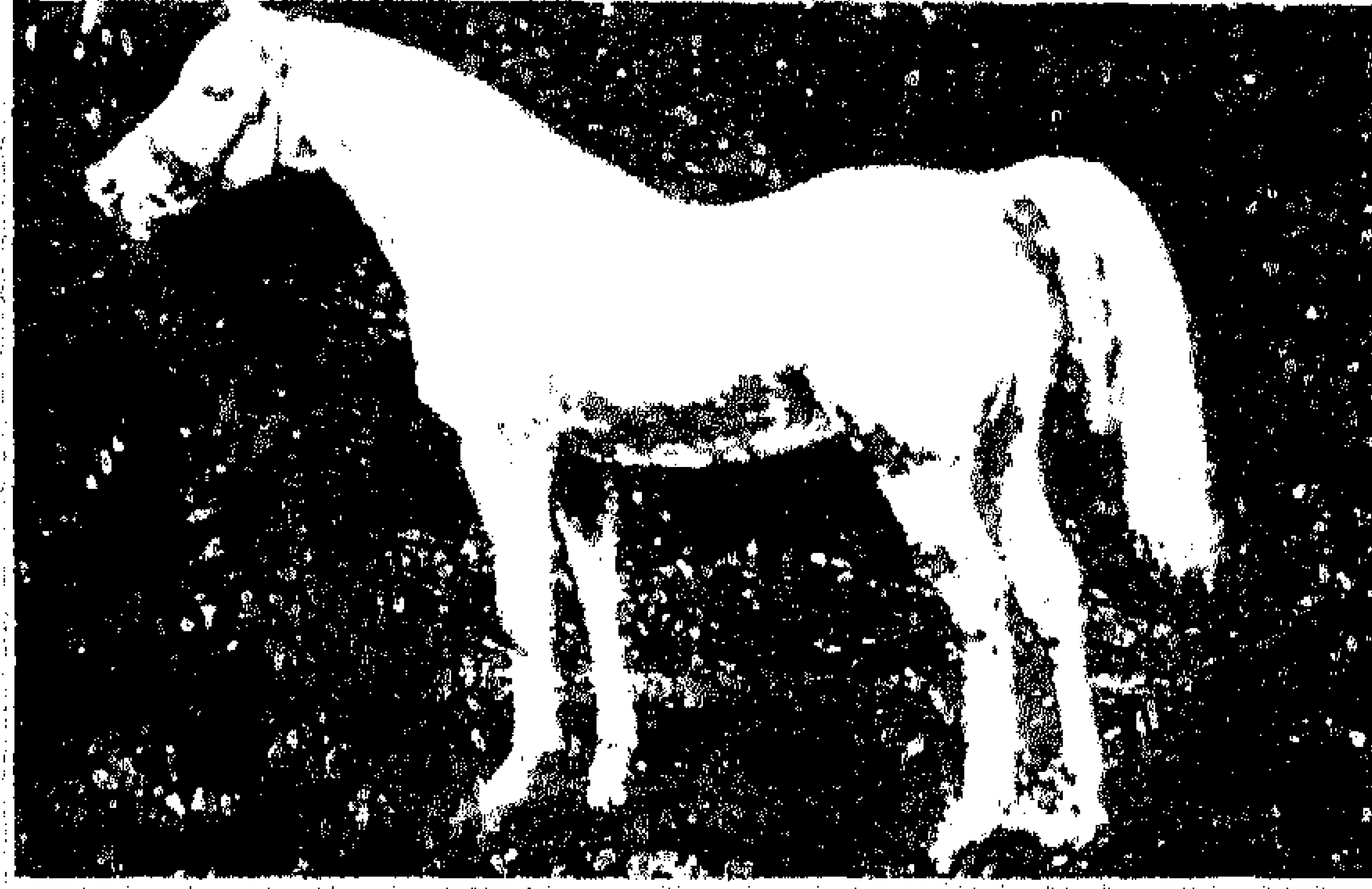
ويُعَدُّ وسط البلاد العربية المتمثل في بلاد نجد ومجموعة الواحات الواقعة جنوبها الموطن الأصلي للخيول الأصيلة، ونجد في الصحراء العربية الوسطى أن عدد الخيول الأصيلة أقل بكثير مما يعتقد في العادة (٣)، وينخفض هذا العدد بشكل ملفت للنظر إذا طبّقنا المقاييس الصارمة التي يستعملها البدو في الحكم على الخيل الأصيلة.

....

(١) قارن المجلد الأول من هذا المرجع، ص ٢٠٢ .

(٢) انظر الفصل ٣، ص ١٢٠ بخصوص تصدير الخيول إلى بومباي وبيعها لتحقيق أهداف الحكومة المصرية.

(٣) يحدد أويتنغ في – مباحثات جمعية الجغرافيا في برلين ١٨٨٦ المجلد الخامس، ص ٢٧٦، بناء على تحقيقاته المختلفة عدد الخيول الأصيلة الموجودة في بلاد نجد بخمسمائة رأس يملكها كلها ابن رشيد وعائلته، أما البلانتس في المرجع المذكور المجلد الثاني، ص ١٢ فيذكر أنه بناء على تصريحات ابن رشيد نفسه أن هذا الأمير يرسل سنوياً مائة من الخيل التي تبلغ سنة من العمر إلى الكويت على الخليج الفارسي ومن هناك تبعث إلى بومباي مقابل مائة جنيه كمتوسط ثمن لكل رأس منها، وقد عثر أويتنغ في حايل على ثلاثين حصاناً فقط عند الأمير. بينما عدّ البلانتس – رحلة إلى نجد، ص ١٢٥: ثمانين إلى تسعين رأساً في المكان نفسه، كان ما يناهز نصفها من المهور الصغيرة. قارن البارون نولده – رحلة داخل البلاد العربية وكردستان وأرمينيا، براونشفايج ١٨٩٥، ص ١٣٥: حسب معرفتنا لبلاد نجد لا تستطيع هذه الأرض أن تكون مهداً لتربية الخيول بأعداد كبيرة نظراً لقلة واحاتها وقلة نباتاتها الموجودة في فصل الربيع فحسب، لكن يتمكن سادة نجد الأقوياء من الاستيلاء على عدد من الخيول الأصيلة عن طريق الغزو، وقد تضاءل عدد الخيول وسطَ البلاد العربية في الآونة الأخيرة بسبب إرسال دفعات منها يبلغ عددها عادة المائة كهدايا للسلطان في القسطنطينية.



حصان أصيل يملكه السيد بلانت

الخيل الأصيلة الخمسة

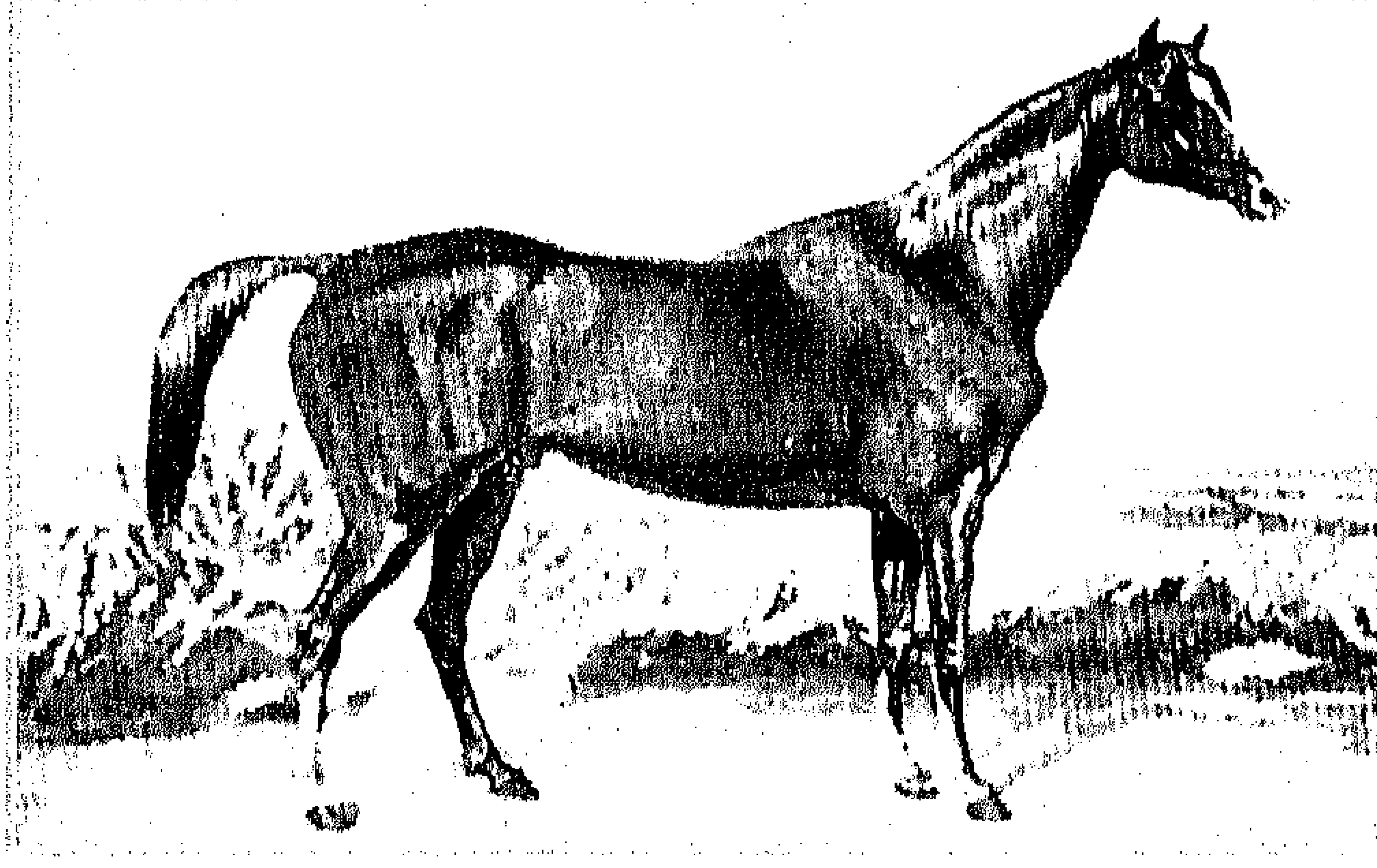
أما سكان المدينة فمقاييس حكمهم على أصالة الخيل أقل صرامة بكثير من مقاييس البدو، ويعتبر البدو أن خمس عائلات من الخيل وحدها تتمتع بصفة الأصالة الخالصة، وهي حسب المعتقدات الشعبية سلالات لخمس أفراس ميّزها الرسول ﷺ بأنها أصيلة وتسمى " الخمسة "، ولا يمكن بطبيعة الحال أن نعير هذا الاعتقاد أي أهمية لأن الخيول الأصيلة كانت موجودة قبل عهد الرسول ﷺ بكثير، لكن القول ينطبق فيما يتعلق بهذه الظاهرة على الرأي الذي لا يزال منتشراً إلى اليوم، والذي يقول: إن الخمسة تنسب إلى خيول الملك سليمان الذي يعتقد البدو أنه كان ملكاً شديد البأس وله علاقة مع الجن أيضاً.

ويسود الخلاف حول أسماء الخمسة الأصيلة، أما العدد " خمسة " فلا ينازع فيه أحد، ويعتقد كثير من الناس أن جميع الخيول الأصيلة ترجع إلى فرس واحدة هي الفرس الأسطورية كحيلات العجوز[1] وأنها خلفت جميع السلالات الخمس، ومن الملفت للنظر أن الناس يذكرون الكحيلان بانتظام على أنها إحدى السلالات، ولكل سلالة فروع خاصة بها، أما السلالات التي تحظى بأوسع نطاق من الإجماع على أنها أصيلة فهي: كحيلان، سقلاوي جدراني، حمداني سمري، معنقي، رشان، أو سلالات كحيلان وحمدان وحدبان وسقلاوي وعبيان[2]، وكثيراً ما تعتبر خيول جلفان ودحمان أصيلة أيضاً إلا أنها تعتبر بصفة عامة نصف

(١) قارن تويدي – الخيل العربية، لندن ١٨٩٤، ص ٢٣٣، وقد أخذنا من هذا الكتاب وبموافقة الناشر الصورة التي تجدونها في الصفحة التالية.

(٢) قارن بوركهارد في المرجع المذكور، ص١٦٥ وما تبعها. و بلانت – القبائل العربية المجلد الثاني، ص ٢٧١ وما تبعها. وأبتن – اكتشافات في الصحراء العربية، لندن ١٨٨١، ص ٢٩٧ وما تبعها. لايارد – في المرجع المذكور، ص ٢٤٩ وما تبعها. تويدي – في المرجع المذكور، ص ٢٣٥.

أصيلة مهجنة " كديش"، ويبدو أن سلالة سقلاوي هي الأكثر عدداً، ونذكر من السلالات الجيدة الأخرى: عضيمان، عضيمان عامر، رويشة، معزنية، أبو جنوب، وطويشة وغيرها.



حصان أصيل يملكه السيد بلانت

تقويم الخيل " السلالة"

يراعى النسب عند تقييم الخيول أكثر مما تراعى البنية، ولا توجد إسطبلات تربية الخيول في الصحراء عند الرحّل ولا عند السكان المستقرين، ولقد رأيت في دمشق الإسطبل الوحيد الذي أنشئ دون قصد على الطريقة الأوروبية، وهو ملك لمحمد باشا سعيد الذي يقود قوافل الحجيج السورية على مدى سنين طويلة(١)، وقد أصبح الحفاظ على أصالة الخيول في البلاد العربية معرّضاً لخطر كبير في الفترة الأخيرة، ولا يتخلى البدوي عن فرسه إلا مكرهاً لأنها تلد لصاحبها أمهاراً تزيد في ثروته، ثم لأنها تصلح للغزو أكثر بكثير من الحصان، وأول الأسباب في ذلك هو أنها تصهل أقل منه بكثير، وهي بذلك أقل لفتاً لنظر العدو وإثارة لانتباهه عند الغزو، وإذا اضطر البدوي إلى إهداء الخيول فإنه يهدي حصاناً ولا يتخلى إلا بصعوبة عن فرس، وقد كان البدو في العصور القديمة يقتلون في بعض الأحيان ذكور الأمهار في الأماكن التي تقلّ فيها المراعي وخلال الفصول الصعبة، أما اليوم فيبدو أن بيع ذكور الخيل(٢) قد خفّض كثيراً عدد خيول اللقاح في بعض مناطق البلاد العربية حيث تضاءل تدريجياً عدد الخيول الأصيلة الذكور المستعملة في تلقيح الأفراس العتيقة.

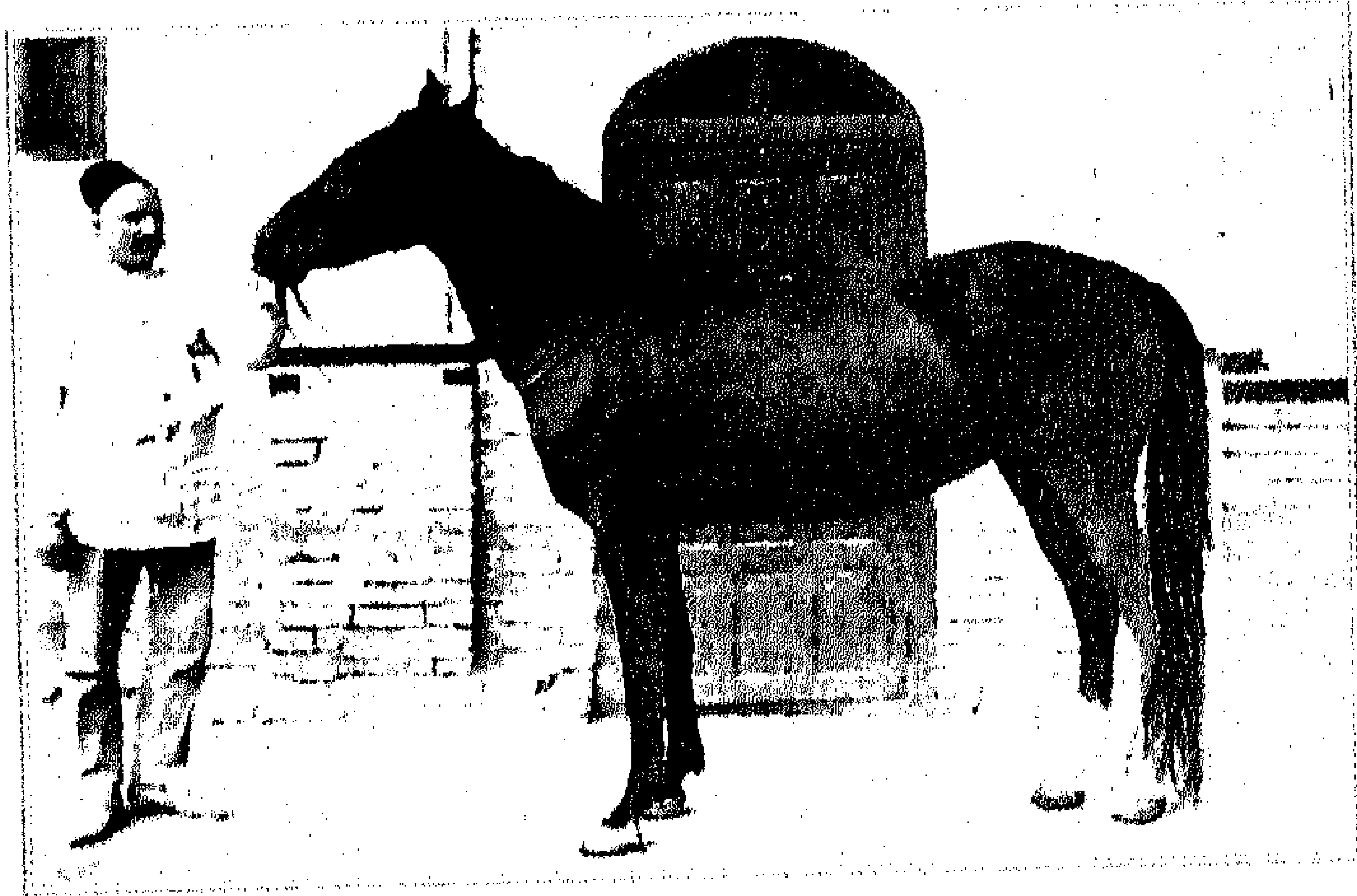
---

(١) قارن المجلد الأول من هذا المرجع، الفصل الثاني ص ٧٧ تهتم عائلة الخديوي اهتماماً بالغاً بتربية الخيول الأصيلة منذ عهد عباس الأول.

(٢) كثيراً ما يشتري التجار الخيول من البدو عندما يكون عمرها سنة واحدة فقط.

البنية

الخيول الأصيلة صغيرة الحجم مقارنة بما نعرفه وما تعوّدنا عليه من الخيل، ولا تصل إلا نادراً إلى قامة خيول الأولان (١) عندنا، وتبلغ قامة الخيول الأصيلة عادة بين مائة وأربعين ومائة وخمسين سنتيمتراً، ولا تتجاوز قامات الخيول الأصيلة هذا القدر إلا نادراً، في حين أنها تظل في أغلب الأحيان تحت مائة وأربعين سنتمتراً، وفي مقابل ذلك تتميز الخيول الأصيلة بقوائم دقيقة قوية، وتشبه رؤوسها رؤوسَ الخيول الأصيلة الإنجليزية(٢)، لكن لا نجد الرأس المكورة أبداً عند خيول البدو، وتنفتح مناخير الخيول العربية الأصيلة على اتساعها عند الهيجان، وتبدو حمراء في لون الدم، أما العيون فهي واسعة ومتوقّدة، والآذان طويلة ودقيقة، ويرى البدو أنها تشابه آذان الغزلان، وهكذا فهي ليست صغيرة كما يعتقد الأوروبيون عادة، و تزداد الرقبة دقة باتجاه الرأس، أما القوائم النحيفة الدقيقة فتعلوها أوراك طويلة، ومفاصل قوية في الركبة، ثم تأتي الرسغ الدقيقة والحوافر القوية ذات السنابك الملفتة للنظر في صغرها، والتي تكون عادة مستديرة الشكل، وتزداد قيمة الخيل الأصيلة كلما كان ذيلها في وضع أفقي .



الفرس "نجمة" من بلاد نجد من سلالة كحيلة العجوز
ويملكها القنصل الألماني في بغداد السيد ريشارتس

---

(١) [المترجم: الأولان هو الفارس البولندي الخفيف الذي يحارب بالرمح، وفي اللغة التركية تعني كلمة "أغلان" شاباً في مقتبل العمر، أما في ألمانيا فكانت الكلمة حتى الحرب العالمية الثانية تعني جنود كتائب الفرسان الثقيلة].

(٢) قارن الفصل ٣، ص ١٢٢ فيما يتعلق بانحدار الخيول الإنجليزية الأصيلة من الخيول العربية.

اللون

نذكر " المثابرة والحماس " من بين الخصال الحميدة للخيل العربية الأصيلة، ومع ذلك فإن طبعها يظل ليناً جداً، وتعلقها بصاحبها كبيراً بسبب حسن معاملته لها رغم عنايته القليلة بها، ثم نذكر خصال الإقدام والذكاء والغريزة الحادة، وتتميز هذه الخيول إضافة إلى ذلك بقناعتها النادرة(١) وشدة تحملها، ومرونتها في الحركة، ويهتم البدو بهذه الميزات الأخيرة مثل اهتمامهم بالسرعة، ويبدو أن الخيل العربية تلعب دور جهاز الإنذار في كثير من الأحيان فتعلن عن اقتراب الغريب عن طريق دق الأرض بسنابكها، أما مظاهر النقص عندها فهي كما ذكرنا صغر الحجم إلى جانب ابتعاد القوائم الأمامية عن بعضها في غالب الأحيان، وأخيراً عدم قابليتها لتعلم الخب والقفز(٢)، والبدوي فارس بطبيعته ولا يستطيع إلا نادراً أن يصقل ويهذّب طريقة سير مطيته باستعمال مهارته في الركوب، فهو يجلس على ظهر الخيل متقدماً جداً، ويترك للحصان مهمة الحفاظ على نفسه من التعثر، وكثيراً ما يطلق له العنان ساعات طويلة أثناء السير.

ولا يمثل اللون علامة على الأصالة أبداً، ولكن البدو يفضلون عادة اللون البنّيَ الذي يطلقون عليه " الأحمر" وإلى جانب ذلك يأتي في تقويمهم اللون الأصفر، أما إذا مال لون الحصان إلى الداكن فيسمى " أزرق " ثم نجد " الأبيض" و " الأشقر" و " الأدهم"، وهذا الأخير مكروه في بعض الأماكن لأنه يقال: إنه نذير شؤم، وكذلك يقال عن الأشقر؛ ولذلك فإن هاتين الفئتين أقل ثمناً من غيرهما(٣) .

تدعى جميع الخيول التي لا يمكن إثبات أصالة أمهاتها، والتي لا تنتمي إلى الخمسة هجينة " كديش "، غير أنه يوجد ضمن هذه الفئة بعض الخيول الرائعة في الجمال، والتي قد تكون أحياناً كبيرة الحجم وقوية بشكل مثير، والتي لا ينقصها عن الأصيلة في الاستعمال إلا القليل.

ولا يتمثل علف الخيل أساساً إلا فيما يمكن العثور عليه في البراري، وفي فصل الربيع تعطي النباتات القوية والأعشاب الرطبة أحسن أنواع العلف، أما عندما تحرق شمس الصيف نباتات الصحراء فلا بد عندئذ من الحصول على علف آخر يتمثل خاصة في الشعير والتبن، لأن

(١) من الملفت للنظر قدرة الخيول العربية على الاكتفاء بكمية قليلة من العلف أثناء الغزو رغم اضطرارها إلى المثابرة على السير أسابيع عديدة في بعض الأحيان دون راحة أو توقف.

(٢) قارن نولده في المرجع المذكور، ص ١٤٠.

(٣) نجد المعتقدات نفسها عند الأتراك، يوجد تقرير مفصل عن مختلف الألوان عند تويدي في المرجع المذكور، ص ٢٦٢ وما يليها.

الشوفان غير معروف في المشرق كافة، ثم إن استعماله كعلف قد يتسبب في ارتفاع درجة حرارة الجسم عند الحيوانات.

العلف واللجام

إنّ التمر يستعمل علفاً للخيل أيضاً، وتقدّم إليها حتى الأسماك الجافة والطازجة في المناطق الواقعة على البحر(١)، ويحب البدو إعطاء لبن الابل إلى الخيول الصغيرة، ويزعمون أن ذلك يمدها بقوة متميزة(٢)، أما العناية بالخيول فهي ظاهرة منعدمة انعداماً تاماً، إذ لا يكاد البدوي ينظف الخيل أبداً، ولذلك يظل مظهرها في العادة خالياً تماماً من الجاذبية، أما التعويض الوحيد عن التنظيف فيتمثل في انصراف الخيل إلى النكش في رمال الصحراء، وفي فصل الأمطار يُدخل البدو الإناث من الخيل إلى الخيام حيث تأخذ مكاناً شرفياً في قسم الرجال في حين تبقى الذكور في الخارج، ولا تغطى إلا بما يسمى "جلال" أو "عباية " قديمة، ويشير هذا بطبيعة الحال إلى دليل آخر على تفضيل الفرس على الحصان.

اللجام الذي يستعمله البدو بسيط، ويتكون عادة من زمام بدائي يتمثل في حبل واحد يثبت على العنق خلف الأذنين، إضافة إلى سلسلة تحيط بالرأس عند ظهر الأنف، وأما المقود فهو عبارة عن حبل يثبت عند السلسلة، ويمرر من الجهة اليسرى لرقبة الحصان، ويبقى الفم حراً حتى تستطيع الدابة أن تأكل من أعشاب البراري، وأن تشرب في أي وقت تشاء، وقد نجد اللجام الحادّ عند بعض البدو المستقرين عند أطراف الصحراء وخاصة النوع الذي يتكون من قطعتين من القضبان الحديدية تجمع بينهما حلقة معدنية متحركة تحيط بالفك الأسفل للحصان(٣) .

ولا يُعَدُّ السرج جزءاً ضرورياً من العُدة، وهو يشابه خاصة ما هو معروف عندنا بالمقعد الصغير، ويتم تنجيده تنجيداً ثقيلاً، أما الفرش الذي يوضع عليه فيثبت عادة في السرج ويتركب غالباً من طبقات كثيرة، و لم أعثر أبداً في سوريا وبلاد ما بين النهرين (٤) على السرج

(١) قارن تويدي- في المرجع المذكور، ص ١٢.

(٢) وتتغذى الخيول بما يسمى " المريسة " أيضاً .

(٣) تتعوَد الخيول العربية على أي نوع من اللجام، وقد وجدت أن الرسن الخفيف يتناسب تماماً مع هذا الغرض، ويستحسن استعمال مزلاج للفم بسبب حركات الرأس الفجائية التي تقوم بها الخيل.

(٤) في المدن الساحلية السورية وفي مصر تصنع اليوم بكثرة سروج مقلدة تقليداً سيئاً عن السروج الإنجليزية ليستعملها أهل البلد المتأثرين بالأوروبيين، وأنصح المسافر الأوروبي بأن يجلب معه سرجه.

المعروف في كامل إفريقيا الغربية، وهو سرج ذو مسند خلفي، ورأس أمامية قد يبلغ ارتفاعها عشرين سنتيمتراً .

الحدوة ، وقاية السنابك

ولا يستعمل البدو الركاب إلا نادراً في الصحراء، بينما يستعمل الأكراد والشركس في بلاد ما بين النهرين الركاب المعروف، والمستعمل عند العرب الذين يقيمون في المدن، والذي يشابه في شكله المجرفة، ويكون إلى يمين ويسار القدم على هيأة المثلث، ويستعمل البدوي الكعب الحديدي لحذائه كمهماز(١)، ويركب الرجل العادي حافي القدمين، ويستعمل في القتال حزاماً مزوداً بأسنان حديدية يربطه حول كاحله، أما المهماز الكبير الذي يبلغ طوله عشرين سنتمتراً والذي يتركب من صفيحة حديدية مستطيلة أو مدورة والذي يستوجب السرج المرتفع استعماله عند سكان شمال غربي إفريقيا فإنني لم أعثر عليه عند أهل شمال الجزيرة العربية.

وتختلف الحدوة عما هو معهود عندنا، ولا تحملها الحيوانات في العادة، لكنها تثبت أحياناً فتغطي جزءاً من السنابك أو تغطيها كلها، ولا تترك منها إلا بعض الفتحات الصغيرة(٢)، وكثيراً ما يترك البدو حافراً خلفياً للحصان بلا حدوة حتى يزداد قدرة على الحركة أثناء المعارك، و لم يعرف الطب البيطري عند البدو تطوراً كبيراً، وتتمثل أهم طريقة لعلاج الحيوانات عند البدو في الكيّ " الوسم "، تماماً كما هي الحال في علاج الإنسان عندهم.



ركوب الإبل

(١) قارن الصور عند تويدي– في المرجع المذكور، ص ١٨٠ و ٢٠٢ و ٢٠٣.
(٢) قارن الصور عند تويدي – في المرجع المذكور أيضاً.

تجارة الخيل

يمكن القول بصفة عامة: إن البدو لا يعرّضون الخيل إلى متاعب كبيرة، فالفارس البدوي لا يتجاوز إلا نادراً وتيرة المشي العادي ما عدا القتال أو عندما يكون مطارداً، فعندئذ يلجأ إلى الركض، ولكنه ما يلبث أن يعود إلى السير البطيء حالما يزول الخطر، أما الخبّ فهو غير معروف مطلقاً سواء أكان عند البدوي أم عند الحضري، و تثير طريقة الأوروبيين في الخب مرحاً كبيراً لدى البدو، ويعتقد الشرقي أن الخب يفسد السير الجيد للخيول الذي يوليه بحق اهتماماً كبيراً، وحتى إذا بدا سير الخيول العربية متعثراً في بعض الأحيان بالنسبة للمقاييس الأوروبية، فإنها نادراً ما تعثر حقاً عندما يطلق الفارس لها العنان، ولا تتعلم طريقة السير التي تسمى " رهواً "(١) إلا الخيول الهجينة التي ترتفع مكانتها لهذا السبب.

ويجلب البدو ذكور خيلهم لبيعها في أسواق المدن الكبيرة المجاورة للصحراء خاصة دمشق وحلب والموصل وبغداد، وقد بدأ التجار يجوبون الصحراء في الآونة الأخيرة ويشترون الخيول في المكان نفسه ثم يبيعونها في المدن أو إلى خارج البلاد خاصة إلى مصر والهند، أما سوق مصر فهي سوريا، خاصة وأن الحكومة المصرية ترسل كل سنة منذ بداية الاحتلال الإنجليزي بعثة تتوجّه إلى دمشق لشراء الخيول، ويتراوح الثمن الذي تدفعه الحكومة بين خمسة وعشرين وثلاثين جنيهاً على كل دابة، ويتم اختيار الخيول ووسمها في سوريا، وينبغي على البائع أن يوصلها إلى مصر، ويتحمّل في ذلك التكاليف والمخاطر، ويتم اختيار طريق البر في العادة للقيام بهذه المهمة، ويتحمّل البائع مسؤولية عبور الخيول للحدود المصرية التركية رغم حظر التصدير(٢)، ولا يتم تسديد ثمن الشراء إلا بعد وصول الخيل إلى مصر، وتقدَّر تكاليف النقل شاملة مصاريف عبور الحدود التي يتضمنها الثمن المتفق عليه أربعة جنيهات، وتستغرق الرحلة قرابة ثلاثة أسابيع، وأهم من جَلْب الخيول إلى مصر هو تصديرها إلى الهند كما ذكرنا آنفاً، وقد بدأ هذا التصدير منذ القرن الماضي، خاصة إلى بومباي، إذ تشتد المنافسة بين الخيول العربية والخيول المحلية، وغيرها من الخيول الأخرى التي يتم جلبها من أستراليا، والتي هي أكبر حجماً من الخيول العربية مثل الوايلر Whaler، وقد عمّمت الحكومة الهندية استعمال الخيول

(١) [المترجم: الرهو عند الخيل هو السير المتمهّل].

(٢) سمحت الحكومة منذ سنة ١٨٩٩ بالتصدير مقابل رسوم قدرها خمسة جنيهات .

العربية في جميع كتائب الفرسان تقريباً، وبصرف النظر عن الخيول الرخيصة و " الكديش " العادي (١) الذي يستعمله الجنود ،

ثمن الخيل

ويملك الضباط الإنجليز وخاصة الأمراء الهنود الأغنياء عدداً كبيراً من الخيول الأصيلة الثمينة، ويتم النقل عن طريق البحر من البصرة إلى بومباي(٢).

يختلف ثمن الخيول اختلافاً كبيراً خاصة بالنسبة للخيول الأصيلة، ذلك أن الثمن قد ينخفض جداً بسبب مظاهر بسيطة نظراً لمعتقدات البدو - كما ذكرنا سابقاً - فقد يحدث ذلك مثلاً بسبب اللون أو بعض المناقص البسيطة رغم أنها لا تؤثر على صلاحية الخيول للاستعمال، في حين أن صُدَفاً أخرى كاللون الفاتح للشفة العليا مع لون داكن لبقية الرأس قد تتسبب في ارتفاع كبير للثمن، ولا يوجد في أوروبا مقياس لتقويم الخيول الأصيلة، ويذكر بوركهارد فرساً ثمنها ثمان مائة جنيه وهو مبلغ مرتفع جداً بالنسبة لذلك العهد، وتتحدث الأساطير إلى اليوم أفراس لا يبيعها أهلها حتى بألف جنيه، وليس غريباً على كل حال أن تُدفع مائتان أو ثلاثمائة أوحتى خمس مائة جنيه لفرس من السلالات الخمس، أما تحت مائة جنيه فمن المرجَّح ألا يحصل المرء على أي من هذه الخيول حتى في بغداد المعروفة بالأسعار المنخفضة، ويمكن على عكس ذلك الحصول على حصان أصيل بداية من خمسين جنيهاً، ويمكن مقابل مبلغ مائة جنيه الحصول على بعض الخيول الجيدة حقاً، ويحدد ثمن " إلكديش " حسب صلاحيته للاستعمال وحسب عمره وشكله؛ فيبلغ ثمن حصان متوسط صالح للنقل أربعة جنيهات تقريباً في سوق دمشق، ويبلغ سعر حصان صالح للركوب من عشر جنيهات إلى عشرين جنيهاً، كذلك يمكن الحصول على هجين مقبول بداية من عشرين جنيهاً ولا يزيد سعره إلا نادراً على خمسين أو ستين جنيهاً(٣)، وتفضّل الإناث من بين فئة " الكديش " بسبب هدوئها الكبير في السير وقلة جموحها، وهي صفات تؤخذ بعين الاعتبار عند تقويم الخيل .

---

(١) تربّى خيول مهجّنة جديدة على الساحل العربي للخليج الفارسي كما هي الحال في سوريا، وتسمّى هذه الخيول في الهند الخيول العربية الخليجية، وتباع بأثمان جيدة وتشبه الخيول الفارسية .

(٢) قارن الفصل ٨، ص ٣٠٦.

(٣) قارن المجلد الأول من هذا الكتاب، الفصل ٢، ص ٦٥.

وكثيراً ما يبيع البدو الخيول فيما بينهم بطريقة المناصفة حيث تنتقل الفرس إلى ملكية المشتري في حين يعود المهر الأول الذي تلده إلى البائع، وتوجد طرق عديدة أخرى للبيع، ولا يسجل البيع أبداً كتابة بل يتم الاتفاق شفاهياً فحسب، ولكن دائماً بحضور شهود لتجنب الخلافات، ولا شك أن طريقة المناصفة تجعل عملية البيع صعبة، ذلك أنه من النادر أن يتم الاتفاق بين الأطراف المعنية . ويعتبر من المستحيل في الصحراء إخفاء مناقص الحيوانات أو ادّعاء نسب غير صحيح (١) لها.

نسب الخيل
أصل الخيل الإنجليزية الكريمة

يمكن القول أكثر مما تقدَّم: فعندما يستولي البدو أثناء معركة على خيول لقبيلة أخرى فإنهم يبعثون رسولاً إلى القبيلة المهزومة ليستفسر عن نسب الخيول المسلوبة، ولا يمتنع أحد أبداً في مثل هذه المناسبات عن الإدلاء بالمعلومات المطلوبة، أما الرسول نفسه فيتمتّع بحصانة مضمونة، وعندما يتم الاستيلاء على حصان من قبيلة أخرى، ويرجع بطريق العنف إلى مالكه الأول فإن هذا الحصان أو ما يولد له إذا كانت فرساً يرجع دون مقابل إلى المالك الأول الذي تعرَّض للسلب، ويحصل كل شخص يخبر المالك الأول برجوع دابته إلى القبيلة على ناقة أو عدة شياه حسب عادة القبيلة، وينبغي على المالك أن يقدّم هذه الهدية وإن كان المبشّر هو اللص الأول نفسه!

وليس من عادات البدو خصي أحصنتهم أبداً، إلا أنه يمكن العثور على الحصان المخصي "طواشي" في المدن السورية، هنا تنتهي كثير من الخيول - خاصة في مدينة دمشق - مشدودة أمام عربات النقل السيئة التي يتزايد عددها بلا هوادة(٢).

ومن المعروف أن أصل الخيول الإنجليزية الكريمة كافة يرجع إلى ثلاثة جياد عربية نقلت إلى إنجلترا في القرن الثامن عشر وهي بايرلي ترك Byerly Turk ، ودارلي أرابيين Darley Arabian ، وجودولفين بارب Godolphin Barb، وقد اشترى يعقوب الأول منذ سنة ١٦١٦م من تاجر يدعى "مرخم" حصاناً عربياً بمبلغ مائة وأربعة وخمسين جنيهاً، غير أن هذا الحصان لم يكن ذا قيمة متميزة علاوة على أنه مشكوك في أصله العربي، وليست أصالة بايرلي ترك و جودولفين بارب هي الأخرى خالية تماماً من الشبهات، إلا أن دارلى أرابيين من السلالات الخمس بلا

---

(١) يتم تسجيل النسب كتابة كما هي الحال بالنسبة للخيول الأوروبية، أما في الفترة الأخيرة فقد أصبح البدو -وخاصة التجار والوسطاء - أقل دقة في هذا الموضوع بسبب زيادة إقبال الأوروبيين على شراء الخيول.
(٢) من الغريب أن القوات المسلحة في دمشق تستعمل جزئياً خيولاً يتم جلبها من المجر.

ريب، وقد كان هذا الحصان من سلالة "معنقي"، وقد أرسله السيد توماس دارلي - وهو مندوب للمؤسسة التجارية الإنجليزية في حلب- سنة ١٧٠٥م إلى أخيه السيد بروستر دارلي الذي يحمل لقب " فارس ألدبي بارك " ويقيم عند مدينة يورك[١]، وقد نشأت في هذا القرن في عدة بلدان أوروبية إسطبلات حكومية وخاصة للخيول العربية، إلا أنها كانت تهدف بالدرجة الأولى إلى التهجين مع خيول عربية أصيلة (٢) .

بناء على ما توصّلت إليه معلوماتي حتى الآن يبدو لي مؤكداً أنه لا يمكن مقارنة الخيول الأوروبية أبداً بالخيول العربية فيما يتعلق بالصبر والجلد لو كانت العناية بها قليلة وعلفها سيئاً بالدرجة المعتادة عند البدو[٣]، لكنها في مقابل ذلك تصلح أكثر من الخيول العربية لأغراض أخرى غير الركوب.

الصفات العامة للبدو

مثلما يفتخر البدوي بأصالة سلالة حصانه، كذلك وأكثر منه يفتخر بأنه هو نفسه عربي أصيل على عكس العرب الحضريين الذين اختلطت دماؤهم بدماء جنسيات أخرى، ويفتخر بانتسابه إلى القبيلة التي ولد فيها وبمآثر آبائه أيضاً.



بدو من قبيلة عنيزة

(١) قارن تويدي في المرجع المذكور ص ٣٨١ و ص ٥٦١، صور دارلي أرايين في المجلة الرياضية، ديسمبر ١٨٨٢م وفي كتاب صور لخيول السباق المشهورة، عند تـ.هـ. تانتن، م.أ. ١٨٨٧ ، الجزء الأول ، ص ١.

(٢) يملك السيد ويلفريد بلانت والليدي آن بلانت إسطبلاً بالقرب من لندن – في كرابيت بارك، ثري بردجز ستايشن – يهتم بتربية الخيول العربية الأصيلة وحدها .

(٣) تبين في حلبات السباق المصرية أن الخيول الإنجليزية الأصيلة التي تربّى منذ أجيال لغرض السباق هي أفضل من آبائها الخيول العربية الأصيلة، وتنظم سباقات عامّة للخيل على الطريقة الأوروبية في القاهرة والإسكندرية وفي بيروت أيضاً.

الصليب

ويستطيع كل بدوي أن يتتبع نسبه إلى عهود غابرة (١)، وحيث إن البدوي ينظر بازدراء شديد إلى " الصليبي"(٢) الذي يرتدي جلود الغزلان ويمثل غجر الصحراء، فذلك دليل متميز على يقين البدوي بأن هذه القبيلة ليست من أصل عربي (٣)، ويردّد المغنّون المتنقلون في الصحراء الأهازيج التي تمجّد أعمال وخصال الآباء خاصة منها الشجاعة والجود وكرم الضيافة، ويحصلون مقابل ذلك على قطعة من النقود أو الملابس، أو حتى على ناقة من الشيخ العربي الذي يمدحونه.

---

(١) ليس للبدو أسماء عائلات مثل ما هو معهود عند الحضر، بل يحملون اسماً شخصياً قد يضاف إليه "ابن فلان" للتمييز بين الأشخاص، أما عائلات الشيوخ فقد تتخذ أحياناً اسم أحد الأجداد المشهورين لقباً للعائلة كما هي الحال بالنسبة لابن رشيد وابن سعود، إضافة إلى ذلك تنتشر الكنية بكثرة عند البدو.

(٢) قارن المجلد الأول من هذا المرجع، الفصل السادس، ص ٢٢٠ و٢٢١.

(٣) نادراً ما تسمع من العرب الجنوبيين أن الصليب ينحدرون من أصل بدوي – قارن دافتي في المرجع المذكور المجلد الأول، ص ٢٨٣. ويقول بوركهارد في المرجع المذكور، ص ١١: إنهم قبيلة عربية شمالية، ويبدو أن هذا الرأي ليس له أساس بعد الذي عرفناه إلى الآن عن الصليب – قارن باقي ملاحظات دافتي في المرجع المذكور المجلد الأول، ص ٢٨٠ وما تبعها في مجلة المنتدى الجغرافي الملكي، لندن ١٨٦٥م المجلد ٣٥، ص ١٨٩ وما تبعها. هوبر – يوميات رحالة في البلاد العربية ، ص ١٩٣ وما تبعها وص ٥٨٨، ويعقوب في المرجع المذكور ص ١١٤، ١١٥، ويقول بيلّي: إن الصليب نسل من قبيلة الصابئة الذين يعتبرون حرّان مدينة مقدسة بشكل خاص، ثم يعطي بيلي رأياً آخر يقول فيه: إن جدّ الصليب عربي عاشر والدته وأنجب منها ابناً، قارن المرجع المذكور، ص ١٩٠، ١٩١، وتشير علامة الصليب التي تلعب دوراً في حياة هذه القبيلة على ما يبدو – قارن بيلي في المرجع المذكور، ص ١٨٩. وفي مجلة الأجناس المجلد التاسع، ص ١٥، وتجانسها مع اسم قبيلة صليب ، تشير إلى أن نسب الصليب يرجع إلى شعب ربما كان مسيحياً في السابق، ويهمّنا فيما يتعلق بعلم الأجناس العمل الذي تقوم به هذه الفئة والذي يتمثل – إلى جانب الصيد الذي يمارسونه بإقبال شديد – في أنهم يكسبون معيشتهم عن طريق مهاراتهم في تصليح المراجل، وأداء بعض أعمال الحدادة الأخرى، قارن المثال على ذلك عند دافتي في المرجع المذكور، المجلد الأول ص ٢٨٠/٢٨١، ونلاحظ أنه لا يجوز الخلط بين الصليب و الختام الذين هم الغجر الأصليون (؟)، ويتناثر هؤلاء الختام بين مختلف القبائل، ويقومون لها ببعض أعمال الحدادة، ويدفعون الجزية، ويشاركون عند الضرورة في الحروب، أما في الحجاز– على ساحل البحر الأحمر– فيشتغلون في صيد السمك واللؤلؤ، ويشكلون في داخل الجزيرة العربية قبيلتي الشرارات وابن سمري، وتقيم قبيلة الشرارات حالياً في المنطقة بين وادي سرحان وكرك في اتجاه الجنوب، ويقال: إنهم يملكون أحسن وأسرع الإبل في البلاد العربية، وهم فيما عدا ذلك فقراء ولا يملكون خيلاً، ويخشى الناس من غزوات قبيلة الشرارات التي تشتهر بعدم الوفاء، وعدد هذه القبيلة كبير، ولذلك يعيشون في كنف قبيلتهم، و يدفع جزء منهم الجزية لابن الرشيد، في حين يخضع الجزء الآخر للسلطة التركية، وتقيم قبيلة ابن سمري جنوب الشرارات في تيمة ودرب الحج، وهي قبيلة كبيرة العدد أيضاً وتدفع الجزية لابن رشيد.

نجد من الختام الذين يقيمون في مصر فرعاً جنوب حلوان يدعى عرب الحسار ويتمتع بعيش رغيد، ونجد إضافة إلى ذلك فرعاً من الختام في الزقازيق شرق الدلتا وعددهم كبير، ويطلق عليهم اسم بني عطا.

مظهر البدو

في كل مخيم كبير عدد من المغنّين الذين يعرضون فنونهم في المناسبات المتميزة ويعرفون كثيراً من أغاني البطولة والغرام، إلا أن الأشعار التي يرتجلونها تتحدث في غالب الأحيان عن المعارك والغزوات، وعن مزايا خيول وإبل القبيلة.

وقفة البدوي معتدلة جيدة، وحركاته هادئة وقورة تنمّ عن الارتياح ما دام غير منفعل، الأمر الذي يحدث بسرعة شديدة، وقليلاً ما تتجاوز قامة البدوي طولاً وسطاً، والبدوي في العادة أهيف الجسم رقيق الأطراف، أما عضلاته فهي ضعيفة النمو خاصة عند الأطراف، وأما وجهه فهو في العادة نحيف نحيل، ولونه بنّي يميل إلى الاصفرار، يزداد بياضاً في الشتاء ويصبح داكناً في الصيف، وتقع العيون اللوزية الداكنة على خطوط منحرفة تظللها حواجب كثيفة، وتظل العيون في العادة نصف مغمضة بسبب ضوء الشمس الساطع، أما نظرة البدوي فهي حادّة، وقوة نظره رائعة تثير عجب الرحالة في كثير من الأحيان، رغم أن قِصَر النظر ظاهرة غير نادرة، ثم يتميز البدوي بحدّة السمع ولا غرابة في ذلك، لأن الصمت الرهيب في الصحراء لا يؤثر سلبياً على حاسة السمع، وشكل رأس البدوي حادّ وجبينه مرتفع، وأنفه معقوف على هيئة منقار الصقر ومقطعه دقيق، إلا أنه يصبح مع تقدم السن، وتحت تأثير الشمس وأحوال الطقس في بعض الأحيان مشابهاً لأنف مدمن الخمر في بلادنا، وشفاه البدوي رقيقة دقيقة في العادة وأذناه صغيرتان، أما يداه وقدماه فتتميز برشاقة ملفتة للنظر، وتكاد أسنانه تكون ناصعة البياض دائماً، وفي حالة صحية جيدة.



الشيخ محمد بن عبدالله من تدمر

المظهر واللباس

أما لحية البدوي فهي قليلة الكثافة ونادراً ما يكون الشارب على وجه التخصيص مكتمل النمو، وتكون اللحية في العادة كاملة حادة الشكل على الهيئة الإسبانية القديمة، أما شعر الجسم -خاصة على الصدر- فكثيراً ما يكون كثيفاً بشكل عجيب، وقد يحدث أحياناً - خاصة عند القبائل المعروفة باللصوصية كقبيلة الغياط - أن يترك البدوي شعر الرأس مهملاً متدلياً في جدائل سائبة دون استعمال كفّية، إلا أن تغطية الرأس تعدّ علامة من علامات الاحترام عند البدو، وكثيراً ما يحلق البدوي شعره في أعلى الرأس ويبقيه متدلّياً على جوانبها في جدائل وخصلات، وهذه عادة من العادات الشرقية الضاربة في القِدَم نجدها ممثلة على النحوت منذ عهد الحِثّيينَ، ويحلق الشيوخ والبدو الذين يهتمون بمظهرهم رؤوسهم على عادة المسلمين المستقرين (١).

ويمكن القول بصفة عامة: إن مظهر البدو لا يخلو من بعض الوقار، في حين يشبه مظهر رجال القبائل المعروفة باللصوصية الذين تتمثل حياتهم في صراع دائم للبقاء، مظهر الشعوب البدائية المتوحشة.

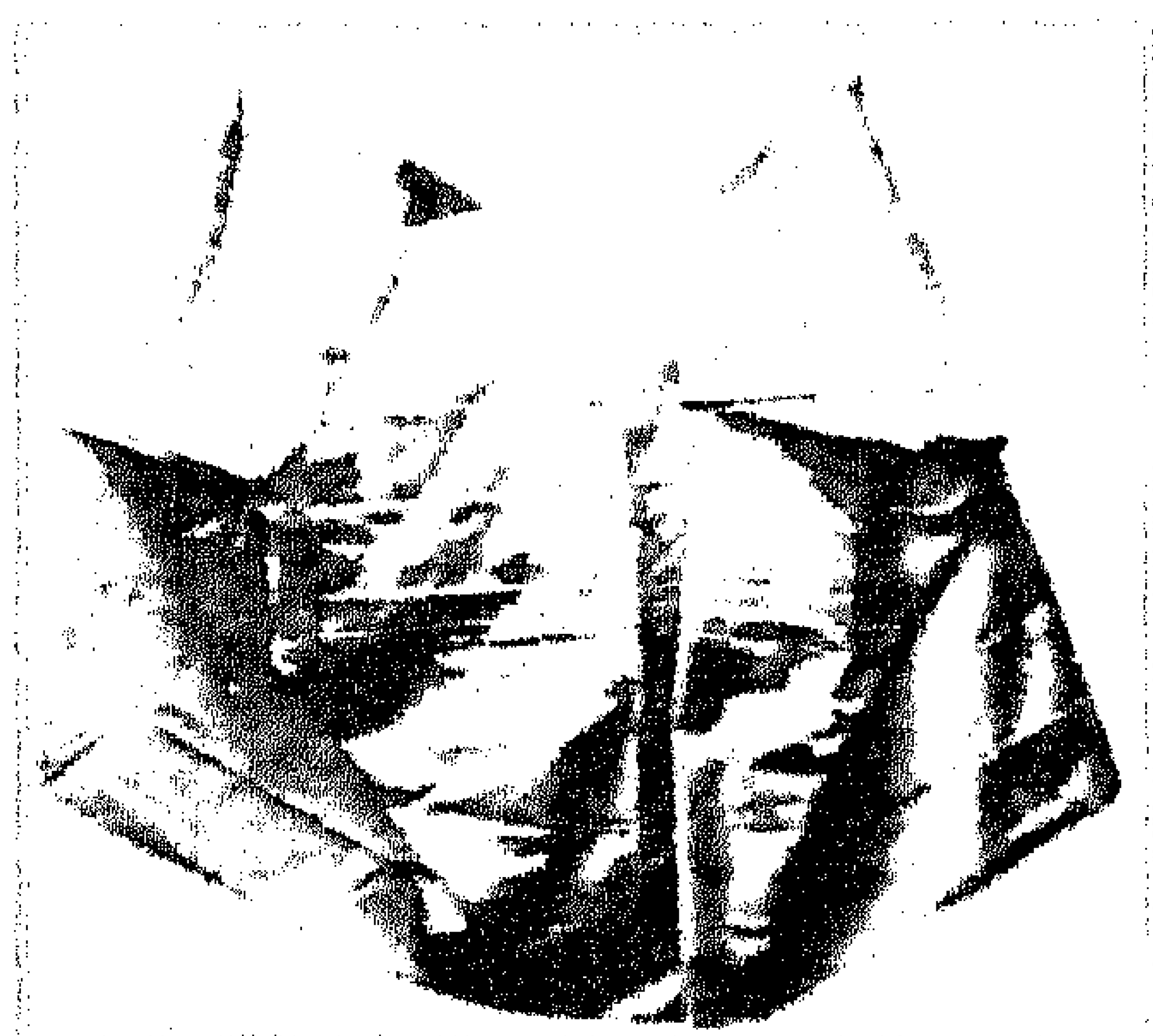
ملابس البدو بسيطة جداً في العادة، إذ يرتدي الرجل قميصاً "ثوبه" مصنوعاً من نسيج قطني رخيص له أكمام واسعة، يتحوّل لونه الأصلي الأبيض بمرور الزمن وكثرة الاستعمال إلى لون غير واضح بين الرمادي والبني، ولا يغسل البدوي هذا القميص أو يغيره أبداً ولا يخلعه إلا عندما يستحمّ، الأمر الذي يحدث كلما سنحت الفرصة، وعثر على جدول أو بئر أو أيّ حفرة تحتوي على الماء، ويشدّ هذا القميص بحزام يصنع من القطن الملون يعوض عند الفقراء بحبل عادي، ويلبس الأثرياء فوق القميص ما يسمّى " زبون " وهو رداء رقيق طويل يبلغ الكاحل ويشبه في شكله القفطان، ويصنع من الصوف الملون أو الحرير(٢) ويفضّل منه ما يحمل أشكالاً ونقوشاً في اللون الأحمر، وأكمام هذا الرداء طويلة جداً في العادة، يشمّرها صاحبها عند

....

(١) يحلق البدو الرحل في المغرب الرأس ما عدا الجزء من الشعر الذي يرجون أن يقادوا منه إلى الجنة بعد موتهم، ويقال: إن المقاتلين في القسم الآسيوي من تركيا يحلقون رؤوسهم عند اندلاع الحرب، ولا يتركون إلا جزءاً في أعلى الرأس للدلالة على تحدّيهم للموت، إذ يسهّلون على العدو أخذهم من هذه الجديلة، وقطع رؤوسهم في حال الهزيمة.

(٢) يقابل ذلك في دمشق ما يسمى " قنباز ".

اللباس ويشدّ الحزام فوق هذا الرداء - وليس فوق القميص - حتى يستطيع تثبيته، حيث إن الأزرار لا توجد إلا في الجزء العلوي منه، ويرتدي البدوي في الشتاء لباساً قصيراً على هيئة السترة يصنع من الكتّان ويسمى " لبَادة "، أو يصنع من نسيج القطن ويدعى " خرقة ". وتفضّل الأنسجة ذات الألوان الزاهية في صنع هذا الأخير، حيث يختار الأعيان نسيج الصوف الناعم " الفانيل الأحمر " الذي يسمّى " حورانية "، ويلبس فوق ذلك كله الرداء الخارجي الذي يتساوى فيه بدو الصحراء كافّة وهو " العباية " أو " العبا " التي تتمثل في معطف واسع مفتوح من الأمام مستطيل المقطع يحمل فتحات للأيدي، وتصنع العباية عادة من صوف الغنم أو وبر الإبل وقليلاً ما تكون من شعر الماعز أو من الحرير، ولون العباية أصفر بنّي أو بنّي يميل إلى السواد، أما في شمال البلاد العربية فتكون عادة مخططة عمودياً في شرط مختلفة العرض أو تكون بنّيّة اللون، وقليلاً ما تكون الشرط أفقية، ويبدو أن العباءة السوداء اللون تسود في نجد وكذلك عند قبائل المنتفك عند أسفل الفرات .

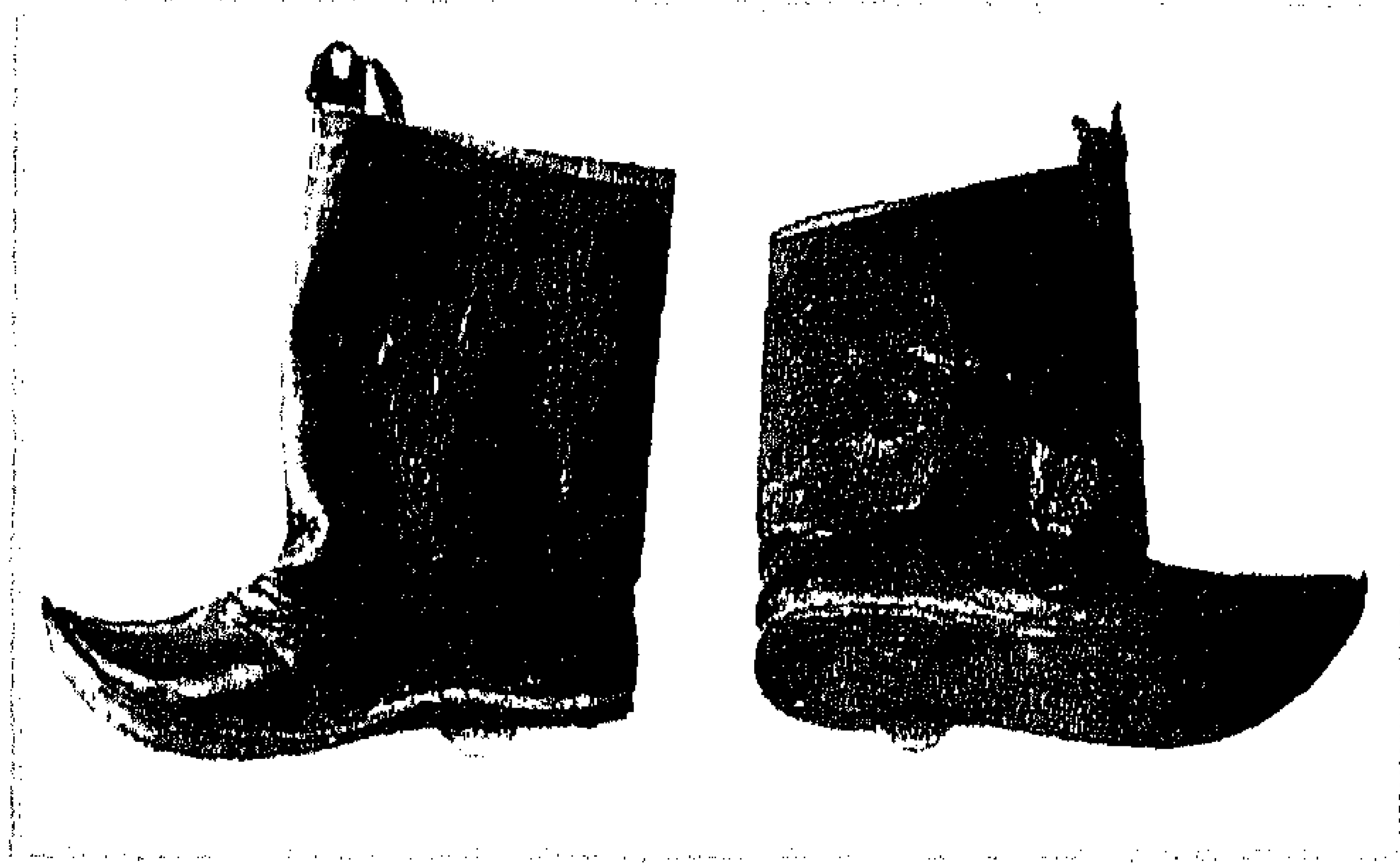


العباية

أما في المناطق المجاورة لبغداد فتفضّل العباءة ذات اللون البنّـي الفاتح الموحّـد على وجه التخصيص، ويحبّ كبار الشيوخ ارتداء عباءة ذات أشكال هندسية في لون الفضة أو الذهب في المناسبـات الرسمية والاحتفالات، وتكون هذه الأشكال الهندسية على هيئة شرط تكوّن مثلثات موجّهة إلى الأسفل تبتدئ عند الرقبة وتنتهي عند وسط الظهر، ويرتدي بعض البدو في فصل الشتاء جلداً بدائياً " الفروة " فوق العباءة، يصنع عن طريق خياطة مجموعة من جلود الغنم إلى بعضها بعضاً.

الكفيّة أو الجزية هي غطاء الرأس القومي عند العرب، وهي قطعة من القطن - أو الحرير عند الأعيان وحدَهم - تبلغ مساحتها قرابة متر مربع، تطوى في اتجاه القطر وتوضع على الرأس بحيث تتدلى زاويتان على جانبي الرأس في حين تتدلى الزاوية الثالثة على الظهر، ويشدّ هذا الغطاء فوق الرأس بحبل مصنوع من شعر الماعز " العقال " لونه أسود في الغالب ويتميز عادة بشدة متانته، ويضغط هذا الحبل على شكل دائرتين فوق الكفية، ويحمل البدو تحت الكفية في غالب الأحيان طاقية من اللباد أو القطن، وللكفية ألوان مختلفة كالأزرق والأحمر والأسود، وقد تكون ذات لون واحد أو مزخرفة باللون الأبيض، أما إذا كانت من الحرير فيغلب عليها اللون الأصفر، وأما الكفية ذات الجودة المتميزة فتكون قاتمة اللون مطرزة بالذهب أو الفضة، وتكثر الكفية الزرقاء أو الحمراء مع العقال الأبيض في جنوب بلاد ما بين النهرين .

وليس للجزء الأسفل من الجسم لباس خاص عند البدو بخلاف ما عليه الحال عند جميع الشعوب من الجنسيات المختلفة المستقرة في الشرق، وأما فيما يتعلق بلباس الأقدام إذا توافر عند البدو (٢) - وعلى كل حال عند الأعيان وحدَهم - فإنه يتمثل في شبشب أحمر، أو حذاء ذي رقبة يلبسه الفرسان عادة ويبلغ وسط بطة الساق، ويوشّي حافته العليا خيط من الحرير الأزرق يتدلّى من الأمام على شكل أهداب .

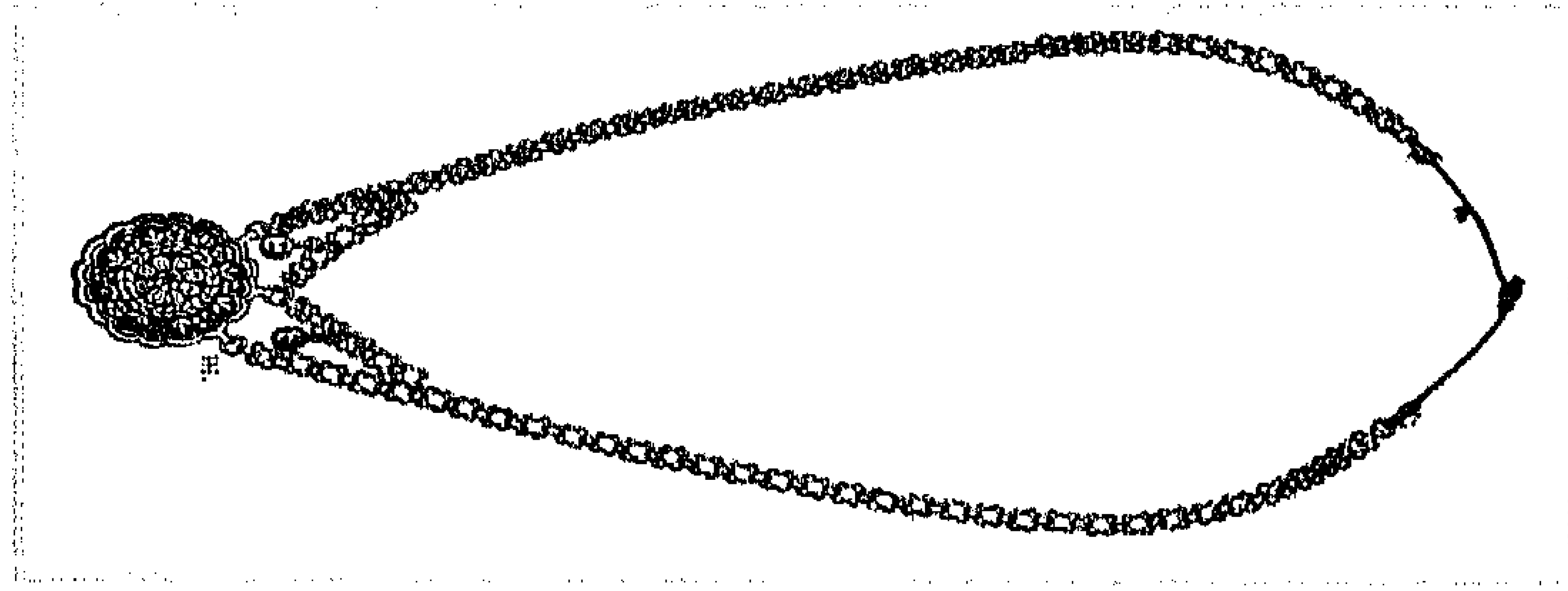


حذاء البدوي

(١) يلبس رجال ابن رشيد عقالاً ضخماً مع كفية ذات مربعات حمراء وبيضاء كما نعرفها عند قبيلة المنتفك .
(٢) يلبس البدو في نجد والحجاز وجنوب البلاد العربية الصندل المصنوع بطريقة فنية ويسمّى "نعل" وله أشكال مختلفة، أما البدو المصريون فيلبسون الصندل البسيط دون أي تحسينات فنية.

ملابس وحلي المرأة

يحمل كل من الحذاء والشبشب قطعة أمامية على شكل الخرطوم منحية قليلاً إلى الأعلى تماماً على هيئة ما نجده في أقدم الآثار في شمال سوريا وآسيا الصغرى، مثلاً في آثار زنجرلي، وليس للحذاء كعب بل تحمل أحذية الفرسان عوضاً عن ذلك أجزاء معقوفة مثبّتة في قطع مستديرة من الحديد تستعمل في الوقت نفسه كمهماز، ويتمثل لباس المرأة أساساً في رداء واسع على شكل القميص لونه أزرق في الغالب ويسمّى " ثوب جز" يُشدّ بحزام يلف عدة مرات حول الخصر، تلبس المرأة فوق ذلك في العادة مختلف الثياب بما فيها ملابس الرجال، وتلفّ المرأة رأسها بما يسمى " عصابة " تكون دائماً سوداء اللون ولماعة في كثير من الأحيان من أثر الأوساخ أو الدسم، وخلافاً لنساء المدن لا تلبس المرأة البدوية الخمار أبداً، ثم إنها تمشي في العادة حافية وقليلاً ما تلبس حذاء غليظاً أحمر أو أصفر اللون، ويتمثل حليها في أساور لليد، وخلخال للرِجل تكون عادة من الزجاج الأزرق أو الأخضر" معدد " عند المرأة العادية، ومن الفضة أو حتى من الذهب " سوار، أسورة " عند نساء الأعيان، و يسمّى حلي القدم " حجال" للصغيرة منها و " خلخال" لما هو أكبر حجماً، وتحمل المرأة في الأذن والأنف حلقات تسمّى "تراكي" أو" خزام"، أما نساء الشيوخ ذوي الثروات الطائلة فيحملن معلقات في الأنف تسمى "عران" تثبت في الجانب الأيمن أو الأيسر من الأنف.



حلي للرقبة لنساء البدو

الوشم ، الحياة العائلية

الأمر الذي يجلب الانتباه عند النساء هو الوشم الذي يكون خاصة على الخد والجبين والذقن والشفاه، ويكون على اليدين والذراع والأقدام أيضاً، وهو في لون أزرق أو ضارب إلى الأخضر، وبصفة عامة فإن عادة الوشم منتشرة في الشرق سواء عند المسلمين أو المسيحيين، رغم أن الجيل الجديد بدأ يخجل من هذا التشويه، ويكثر الوشم " دقّ عند نساء البدو على الذقن والجبين؛ فيحاكي أحياناً خماراً يغطي كامل الوجه ولا يترك إلا العينين والأنف.

وملابس الأطفال بسيطة جداً، إذ يعيش الذكور من الأطفال عراة حتى الخامسة أو السادسة من عمرهم، في حين تلبس البنات عادة قميصاً قصيراً، ونادراً ما تجدهن عراة تماماً، كذلك الأمر بالنسبة للكبار من النساء، إذ يندر أن تتعرى المرأة تماماً، أما الرجل فقد يخلع جميع ملابسه عند عبور نهر مثلاً، في حين تظل المرأة دائماً مرتدية القميص الأزرق.

تتميز الحياة العائلية كما سبق أن ذكرنا بأهمية كبرى عند البدو، إذ عليها ينبني دستور القبيلة بكامله، و الرجل هو سيد البيت والعائلة المطلق كما هي الحال في المشرق قاطبة، إلا أن ممارسة السيادة ألين بكثير مما جرت عليه العادة في المدن، إذ يعتبر الوالد أبناءه أصدقاء له أكثر من اعتبارهم خدماً، فيأكلون معه في الوعاء نفسه ويحصلون على الثناء والمديح في حضرته، ويختلف الأمر في المدن حيث لا يستطيع حتى الكبار من الأبناء الجلوس مع والدهم، أو مشاركته في الطعام إلا بإذنه، وفي حين يعتبر سكان المدينة حتى الأبناء المتزوجين جزءاً من ممتلكات الوالد في البيت، وكثيراً ما يواصل هؤلاء الأبناء الإقامة في بيت الوالد حتى بعد الزواج، نجد أن الشاب البدوي يسعى إلى الاستقلال بنفسه[1] وتأسيس بيت خاص به، الأمر الذي لا يصعب عليه نظراً لبساطة طبيعة الحياة البدوية، ذلك أن الحصول على خيمة أسهل من الحصول على منزل، ثم إنه يستطيع الحصول على حاجته في الحياة خاصة من الحيوانات التي تلعب دور النقود السائلة عن طريق النهب الذي يتعوّد عليه البدوي منذ نعومة أظفاره، إلا أن الأبناء لا يبتعدون عن والدهم عند مغادرة منزل الوالدين، إذ يواصلون الحياة بالقرب منه ويضربون خيامهم إلى جانب خيمته ويتبعونه في جميع القضايا المهمّة.



نساء البدو

(١) قارن فلشتيت – رحلات في البلاد العربية، المجلد الأول، ص ١١٠ وما تبعها.

دور المرأة وأعمالها

يختلف دور المرأة البدوية تماماً عن دور المرأة في المدينة؛ إذ تستشار في غالب الأحيان حتى في أهم القضايا رغم أنه لا يسمح لها بدخول منطقة الرجال في الخيمة وفقاً للعادات الشرقية القديمة، ولا يزال الدور الذي لعبته إحدى زوجات الشيخ صفوق والدة عبد الكريم وعبد الرزاق وفارس في تاريخ الشمر معروفاً إلى اليوم في صحراء بلاد ما بين النهرين(١) وكذلك والدة ذبلان التي استطاعت توجيه ابنها بطريقة حاسمة وقدّمت لي بذلك خدمة جليلة(٢).

و يشتد احترام الرجل البدوي للمرأة بصفة متميزة عندما تنجب هذه ولداً، ويتبين مفهوم الأمومة بوضوح عندما نعرف أن الزوج وجميع أفراد العائلة يتخلّون عن تسمية المرأة باسمها حالما تنجب ولداً وينادونها من ثمّ فصاعداً باستعمال اسم المولود الجديد فتصبح " أم فلان "، خاصة إذا كانت المرأة زوجة لأحد الشيوخ(٣)، وحتى العدو الذي يشن غزوة على القبيلة يواجه المرأة باحترام كبير، إذ يعتبر البدوي أن من واجبه أن يتخلى عن بعض الحيوانات المسلوبة لفائدة المرأة التي تلاحقه إذا كانت من القبيلة التي تعرضت للغزو، وقد سبق أن شرحنا دور المرأة في موضوع طلب الحماية.

ولا يتضارب مع هذا الاحترام البالغ أن يكون على المرأة البدوية واجب القيام بجميع الأعمال المنزلية وما يتعلق بذلك من مهام مختلفة، ومن أشقّ الأعمال التي ينبغي على المرأة البدوية أن تقوم بها جلب الماء، والبحث عن الحطب الذي قد لاتعثر عليه في بعض الأحيان إلا في أماكن تبعد مسافة ساعات عن المنزل، كما ينبغي على المرأة أن تحلب الإبل والماعز(٤) وأن تصنع الزبدة من اللبن، وتقوم المرأة بهذا العمل الأخير عادة في الصباح فتضع اللبن في قربة تعلقها على حاملة ذات ثلاث أرجل وتدفعها جيئةً وذهاباً في إيقاع متجانس حتى تتكوّن الزبدة، الأمر الذي يستغرق قرابة ساعتين من الزمن، ومن واجب المرأة إعداد الطعام، رغم أن الرجال يتولون هذه المهمة أحياناً، وتبدأ المرأة قبل مطلع الفجر بطحن الدقيق اللازم لوجبات اليوم، وهي مهمة تستغرق عدة ساعات بسبب قصور الرحى اليدوية عن أداء هذا العمل بسرعة أكبر، ولا تزال الرحى تحتفظ بشكلها الذي كانت عليه منذ عهد الآشوريين والمصريين القدماء.

(١) قارن فصل ٢، ص ٥٧ .
(٢) قارن المجلد الأول فصل ٦، ص ٢٤٠ .
(٣) هذه الظاهرة معروفة أيضا في المدن ولكن غالباً عند عامة الناس وحدهم .
(٤) يحلب الراعي أو المالك الإبل عادة بنفسه عند الرجوع إلى الحي في المساء .

تتكون الرحى كما هي الحال في معظم أجزاء البلاد الإسلامية من قطعتين مستديرتين من الحجر الصلب، القطعة العليا مقببة قليلاً يتوسطها وتد يشكل المحور الذي تدور حوله الرحى، وتوضع الحبوب في ثقبة الوتد وفي الوقت نفسه تدار الرحى لطحن الحبوب بين قطعتَي الحجر، ويكون الطحين المصنوع بهذه الطريقة خشناً بطبيعة الحال، أما القمح المستعمل في إحضار الطبق اليومي للبدو وهو البرغل فيدقّ في مهراس حجري أو معدني (١).

وتشمل أعمال المرأة صناعة النسيج الذي تستمد منه قِطَع الخيمة والأقمشة الخشنة التي تصنع منها الأكياس والأغطية وفي بعض الأحيان القمصان أيضاً، وتنصب المرأة جهاز النسج " النول " الذي يكون في العادة بدائياً في وسط خدر النساء، ومن الغريب أن الرجال يقومون بعملية النسيج في كثير من الأحيان، ويغلب على الظن أن السبب في ذلك هو معالجة الضجر الذي قد يصيبهم أحياناً (٢)، و يتبين بوضوح حبّ الرجل لذاته أمام الجنس الضعيف أثناء الترحال، فإذا كان البدوي يملك ناقة فإنه يركبها في حين تسير النساء خلفه محمّلة بمختلف الأدوات المنزلية أو ببعض أبنائها فوق ظهرها.



نساء التركمان أثناء إعداد البرغل

....

(١) قارن الفصل٢، ص ٥٧.
(٢) نجد الرجال يشتغلون على النول في قرى سوريا ومصر أيضاً.

تعدد الزوجات والحب

إن تعدد الزوجات ظاهرة غير غريبة عند البدو رغم أنه لا يمارسها في الأساس إلا الشيوخ، ويعتبر الزواج من الناحية القانونية عملية شراء*، فللحصول على المرأة يتم الاتفاق على ثمن حسب ثروة الوالد والعريس، الأمر الذي يجعله يختلف اختلافاً كبيراً من حال إلى أخرى، إذ يدفع الشيوخ الكبار قطعاناً كاملة من الإبل وعدداً كبيراً من العبيد، في حين يقدّر الثمن في العادة ببضعة من الإبل، إلا أن عملية الزواج هذه لا تتم في البادية بالطريقة الجافة التي تتم بها في المدن، حيث لا ترى العروس في العادة عريسَها إلا في ليلة الزفاف، ذلك أن البدو يراعون كل المراعاة ميول الفتاة التي لا تمنع من مخالطة خاطِب ودِّها، ويروي البدو كثيراً من قصص الحب والحرمان التي يحاول فيها الرجل استمالة قلب محبوبته المُعرِضة عنه بالقيام بأعمال بطولية متميزة، وبصفة عامة تلعب الأغنية العاطفية دوراً هاماً في أشعار العرب، وعلى وجه التخصيص حبّ البدوي الأصيل للبدوية الأصيلة، وحتى في المدن، حيث أصبحت العلاقة بين الجنسين مختلفة تماماً بسبب إقامة المرأة داخل البيت، فإن الأغاني المفضلة هي التي تقصّ حكايات الحب والسعادة والحرمان عند البدو، والفارس البدوي الذي يتقلد سيفه أبدَ الدهر ويملك من القوة ما يسمح له بالثأر لأي خطر قد يهدد شرف عائلته.



الغناء عند البدو

* [المترجم: لقد توهّمَ الرحّالة اوبنهايم أن المَهْر الذي يُقدِّمه الخاطِبُ ثَمَنٌ للفتاة!! وتصوَّر خطأً ما ذكره من "عملية شراء"؟! ونسي مكانة المرأة في المجتمع البدوي الذي يستمدّ قِيَمهُ من الإسلام ودستوره القرآن الكريم الذي جعل المَهْر حقاً مشروعاً للمرأة وطريقاً لِمِلكية خاصة بها، وحرّمَ التصرفَ بمالها إلا بإذنها وطيبِ نفسها، وجاء قوله تعالى: "وآتوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فإن طِبْنَ لكُمْ عَنْ شَيْءٍ منه نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً" سورة النساء: الآية ٤.
وكلمة "نِحْلَة" تعني هديةً أي تكريماً ومحبةً ورغبةً في الزواج من الفتاة التي تتكرّم بقَبول الهدية والخاطِب، وليس المَهْرُ ثمناً للفتاة كما زعم!! وهذا دليل على أن الرحالة يبقى ابن بِيئته المادية في الغرب، وتغيب عنه قِيَمُ الشرق، وفلسفة الأخلاق في المجتمع العربي، وإن أقام طويلاً في أكناف مجتمعنا].

الزواج والغَيرة، الطلاق

رغم الحريات التي يسمح بها البَدَوِيّ للمرأة - على خلاف عرب المدن- فهو ميال إلى الغيرة مع أدنى سبب للشك، الأمر الذي يقود في كثير من الأحيان إلى عواقب وخيمة نظراً لحدة طبع البدوي وسرعة غضبه، وقد اضطررت إلى تضميد جراح رجل في مخيم الشيخ فارس كان ابن عم له قد غار منه لا لسبب إلا لأنه تحدث مع زوجته، فهوى بسيفه على ذراعه فهشّمها تهشيماً، وكان قد أوشك على قتله لو لم يندفع بعض الأقارب لإنقاذه من الهلاك.

وتتزوّج الفتاة منذ نعومة أظفارها - في كثير من الأحيان بداية الثانية عشرة من عمرها - ورغم مواصلة النمو لاحقاً فإن الأنثى تبلغ في هذا السن نضجاً كاملاً، فحياة المرأة البدوية تشبه حياة نباتات البيوت المكيفة فتصبح أمّاً في الثالثة عشرة من عمرها وعجوزاً في الثامنة عشرة، والسبب في هذه الشيخوخة المبكرة هو الزواج المبكّر والولادة الكثيرة، والحياة القاسية مع التغذية السيئة وغير الكافية، هذا إضافة إلى رضاعة الأبناء التي تستغرق سنتين أو ثلاث سنوات على الأقل، وينبغي الملاحظة أن التشريع الإسلامي يقضي ألا يكون الفطام قبل انتهاء عامين من الولادة، لكن البدو لا يلتزمون بالتشريع الإسلامي فينبغي أن نعتبر أن هذه الظاهرة ترجع إلى عادة ضاربة في القِدَم رسّخها الإسلام لاحقاً، وتكاد المرأة البدوية تتقلص بانتظام مع تقدمها في السن، في حين تميل المرأة الحضرية إلى عكس ذلك تماماً بسبب قلة الحركة بلا ريب.

يُطلّق الزوج زوجته في أغلب الأحيان إذا كانت عاقراً، وبصفة عامة فإن ظاهرة الطلاق منتشرة عند البدو، ويكفي للبدوي كما هي الحال عند المسلمين كافّة أن يلفظ صيغة الطلاق ثلاثاً، إلا أن الطلاق لا يمثل بالنسبة للمرأة أي مساس بشرفها، حيث إنها تستطيع أن تتزوّج من جديد بعد انقضاء العدة التي تستغرق أربعين يوماً حسب ما يشرعه القرآن .

وتتعرض المرأة في كثير من الأحيان إلى معاملة سيئة من طرف زوجها، إلا أن الاعتداء الخشن يراقب عن طريق مؤسسة متميزة هي الوصي؛ إذ يجوز لكل امرأة أن تختار رجلاً من القبيلة يتولّى مهمة الذود عنها ضد أي اعتداء من طرف زوجها، أما إذا أرادت المرأة الطلاق فإنها تهرب إلى خيمة أبيها أو أقاربها(٢)، عندئذ لا يستطيع زوجها أن يُرجعها إلا بالحسنى، ولا

(١) رأيت بعيني في المغرب صبياً يبلغ طوله طولَ أمّه يأخذ ثديها للرضاعة.

(٢) كانت المرأة في الجاهلية تحصل على الطلاق بمجرد أن تعكس اتجاه خيمتها، قارن يعقوب في المرجع المذكور، ص ٢١٢.

يجوز له ذلك أبداً عن طريق الإكراه[1]، غير أنه يستطيع في مثل هذه الحال أن يمتنع عن لفظ عبارة الطلاق ثلاثاً بحيث لا يمكن للمرأة أن تتزوج غيره، وإذا أصرّ الرجل على الرفض رغم محاولة استمالته عن طريق هدية قد تتمثل في عدد من الإبل؛ فإن ذلك يعني حكماً بالعزوبية الدائمة على المرأة، ويبدو أن مثل هذه الحالات تحدث بكثرة[2].

كثرة الأبناء، الختان

يرجع السبب في كثرة الأطفال عند البدو إلى تعدد الزوجات، وحق الرجل في الزواج من امرأة أخرى إذا كانت الأولى عاقراً، فقد كان لفرحان شيخ الشمر الراحل على سبيل المثال سبعة عشر ولداً على قيد الحياة عند زيارتي لديارهم، وتتجلى هذه الطاقة الجبّارة على الإنجاب عند البدو خاصة في زمن السلم، ولعلها أهم عوامل الهجرات الكثيرة التي حدثت في شبه الجزيرة العربية عبر العصور دون أن تتسبب على الإطلاق في خلوّها من السكان، إلا أن ظروف المعيشة السيئة والصراع المتواصل تحدّ من النمو الهائل للسكان، ثم إن هذه الأسباب نفسها تجعل حياة معظم البدو قصيرة، وعلى كل حال فإن خلو المخيمات من المسنّين يجلب الانتباه بصفة متميزة[3].

لا تمثل الولادة عند البدو حدثاً متميزاً في الحياة اليومية، إذ يبدو أنها تتم بطريقة في غاية السهولة، ولا يؤثر ذلك مطلقاً على الأشغال العادية للمرأة البدوية، أما ختان الصبيان فيتمّ في جو احتفالي سمحت لي الفرصة بحضوره في مخيم الشمر، وشاهدت بعض الفتيات البدويات اللائي لا يخلون من لمسات بديعة من الجمال يؤدين بهذه المناسبة رقصة عجيبة، فقد كنّ يتحرّكن ثلاثاً إلى الأمام في خطوات موزونة على أنغام الأهازيج الصاخبة، ويحنين الصدور في اهتزاز متواصل، وفي الوقت نفسه يقمن بحركات متموّجة على هيئة حركة الحيّة بينما تقابلهنّ راقصة رابعة منفردة تقوم بالحركات الاهتزازية الموزونة نفسها .

---

(١) دافتي – في المرجع المذكور، ص ٢٣٢.
(٢) قارن بوركهارد – في المرجع المذكور، ص ٩٠.
(٣) قارن روشر– أسس الاقتصاد القومي، الطبعة العشرون، ص ٦٩٢، ونصوص الاستشهاد في الهامش ٣.

تربية الأطفال

لقد بقي المرح الذي عَمّ المخيم في حدود اللياقة و لم يتجاوزها بأية حال، ووزعت بالمناسبة على الحاضرين في الحفل آلات صغيرة للصّلصلة، وألواح من الصفيح ونايات حازت جميعها على كثير من الإعجاب، إلا أن الفرحة الجماعية أصيبت للأسف بنكسة مفاجئة بسبب تجمع أمام قرية كردية على مقربة من المخيم، وقد كان ذلك بسبب ضبط نفر من الشمر أثناء قيامهم بعملية سرقة فهرع عدد من أفراد القبيلة لنجدتهم، حيث إن القرية كلها كانت خاضعة لنفوذ البدو فقد كان الأكراد سعداء بمجرد استرجاع ما سرق منهم.

لا تكلّف المرحلة الأولى من تربية الأطفال البدو مشقة كبيرة، حيث يتركونهم لشأنهم؛ فيترعرعون على غرار الشعوب البدائية، ذلك أن أية رعاية يوليها الآباء لأبنائهم - مهما كانت بسيطة - تتسبب حتماً في هلاك الضعاف من بينهم، ويسمح البدو للصبيان بحرّيات لا تتماشى مع مفاهيمنا التربوية، إذ يرحّب البدوي مثلاً بظاهرة الوقاحة عند أبنائه، ويعتبرها علامة تبشّر بالرجولة والاستقلالية، ويقتصر توجيه الشاب فيما عدا ذلك على تهيئته لأعمال اللصوصية والقتال، وقد لاحظت في مخيم الشمر أنهم يتركون الأواني نصف الفارغة بعد الانتهاء من الأكل للأطفال، فيفرض القوي اللبق سلطته على الضعيف، وإذا بلغ الصبي قدراً من القوة يسمح له بركوب الخيل دون مساعدة ينبغي عليه عندئذ أن يتمرّس على ألعاب الفروسية، ويبدأ في حمل واستعمال رمحه منذ الحادية أو الثانية عشرة من عمره، وقد كان كبير أبناء الشيخ فارس يشارك في الغزوات منذ أن كان صبياً في الرابعة عشرة من عمره.



شاب بدوي من قبيلة عنيزة

موارد العيش عند البدو

تمثل الغزوات والحروب أوج حياة البدوي التي تنقضي فيما عدا ذلك على نمط فيه كثير من الضجر والملل، إذ يقضي البدوي الأصيل، البدوي الحر الطليق، جُلَّ يومه دون القيام بأي نشاط، ولا يزيد عمله على تقديم العلف لحصانه، أو ركوبه فترة قصيرة للسماح له بشيء من الحركة، ويقضي الرجال في المخيمات الكبرى كامل اليوم في خيمة الشيخ دون القيام بأي عمل، وتدور الأحاديث في العادة حول الخيل والغزو، أما إذا نزل ضيف فتلك فرصة مستحبّة لتغيير الجوّ، عندئذ يأتي عدد كبير من الفضوليين المتطفلين إلى خيمة صاحب الضيافة لسماع أخبار جديدة أو للمشاركة في تناول القهوة والتبغ.

مستوى معيشة البدوي بسيط في متوسطه، ويتمثل الغذاء الأساسي في البرغل، وهو طحين من القمح أو الذرة يطبخ في الغالب على البخار، ويسقى في المناسبات المتميزة بسمن من شحم الخرفان أو بلبن حامض[1] يخلطه المضيف - أو شخص آخر يكلف بهذه المهمة- بيده اليمنى على شرف الضيوف، ويوضع اللحم والشحم على البرغل المكوَّم على هيئة الهرم بعدما يقطّع أو يمزّق إلى أجزاء صغيرة كما هي العادة عند الدروز والفلاحين.



البدو

---

(١) قارن بورتر - في المرجع المذكور، ص ١٨٥- ١٩٠.

ماكولات البدو

يحب البدو أكل لحم الخرفان والإبل خاصة إذا كانت حيوانات صغيرة السن، غير أنهم لا يستطيعون التمتع بذلك كثيراً، وفي المناسبات المتميزة تقدّم الذبائح كاملة دون تقطيعها إلى أجزاء، ويمزّقها الضيوف بأيديهم بطبيعة الحال، ولا تستعمل الملعقة في الأكل إلا نادراً، وبصفة عامة فإن طريقة الأكل غير متحضّرة قياساً بمفاهيمنا نحن، إذ يشمّر البدوي كمّ ذراعه اليمنى إلى أقصاه ويشعر بمتعة متميزة وهو يتلذذ بتقاطر السمن من اليد التي تهيّئ اللقمة لتدفع بها إلى الفم، ويأكل البدوي بسرعة بالغة ويتلمّظ أثناء ذلك محدثاً أصواتاً كثيرة، ثم يحتفظ بما تبقى من الأكل ليسخّن لاحقاً ويقدّم إلى الضيوف، ويقدم البدو عوضاً عن البرغل[1] الرز أيضاً الذي يعتبرونه طبقاً جيداً[2]، وفيما عدا ذلك يأكل البدوي كل ما يعثر عليه في الصحراء وتستطيع معدته هضمه، وهي معدة جيدة الأداء بلا ريب، فيأكل مثلاً الفأر واليربوع والحراذين وخاصة منها الضب الكبير[3] والجراد وعدد كبير من الجذور والنباتات، ويحبّ البدو خاصة فاكهة البطيخ التي يستهلكون منها كميات هائلة.



البدو أثناء تناول الطعام

(١) في المغرب يقدم الكسكسي عوضاً عن البرغل، والكسكسي هو طبق مصنوع من حبوب الهرسة أو القمح المطحونة طحناً متوسطاً، يتم طبخه على بخار ماء يغلي، ويطبخ فيه لحم الخروف، ويمثل طبق الرز التقليدي نهاية وتتويجاً لأي وليمة مهما كانت فخامتها حتى في المدن التركية والمصرية، حيث نجد تنويعاً كبيراً في الأكل بفضل تطور فن الطبخ، أما الأكراد فيقدّمون الأطباق المختلفة بتداول اللحم والرز والبرغل واللبن الحامض والفواكه، خاصة منها البطيخ، حيث يقدّمونها في صحاف صغيرة توضع مثنى وثُلاثاً إلى جانب بعضها في صفوف طويلة على الأرض، ويجلس الضيوف القرفصاء متقابلين على سجادتين ضيقتين متقابلتين، قارن لاحقاً الفصل ٤، ص ١٤٨ .

(٢) الطعام السائد في نجد والمنطقة الجنوبية هو بالدرجة الأولى الرز "طمن" الذي يجلب من بلاد ما بين النهرين، وللرز أسماء مختلفة، للأنواع المختلفة كما هي الحال بالنسبة للتمور .

(٣) يوجد صنفان من حراذين الصحراء قد يبلغ كلاهما متراً من الطول، ويحسبهم بعض الرحالة تماسيح، أحدهما الحرذون ذو الذنب الشوكي ويسمى "الضب" وهو حيوان من آكلات الأعشاب -- والآخر "ورل الصحراء" الذي يتغذى بثدييات صغيرة، وبيض الطيور والحشرات، ولا يعتبره البدو صالحاً للأكل.

تمثل التمور غذاء أساسياً في مناطق النخيل التي لا تشمل شمال بلاد ما بين النهرين وسوريا، لكن الخبز لا يوجد في جميع المناسبات، ويحضِّرهُ البدو على شكل أقراص عريضة كبيرة قليلة السَمك كالأوراق على طبق يسمى صاج[1] وهو صفيحة معدنية منبسطة، أما أثناء الترحال عندما يكونون معرّضين للخطر، فقد يحضِّر البدو الخبز أيضاً على ظهور الإبل أثناء السير، فيضعون طبقة مشتعلة من روث الإبل فوق الصاج، ويبسطون أوراق العجين فوق ذلك، ثم يغطونها بطبقة أخرى من الروث المشتعل[2].

يحتل حليب الإبل والماعز مكانة أساسية في التغذية[3] عند البدو، ولا يربّى البقر والجاموس إلا عند القبائل التي أصبحت شبه مستقرة على نهر الفرات وروافده، ويحبّ البدو حليب الحيوانات حبّاً جمّاً، إلا أنه لا يتوفر بكميات كبيرة إلا في فصل الربيع، ويشرب البدو اللبن طازجاً أو حامضاً، وتعتبر الشنينة مشروباً محبباً خاصة في فصل الحرّ وهي نوع شديد الحموضة من اللبن، ممدد بكثير من الماء[4]، ومما يجلب الانتباه أن البدو لا يعرفون كيف يصنعون الجبن من الحليب[5]، ولا يحبّ الشمر الصيد، ولذلك لا يقدّمون لحوم الحيوانات المصطادة إلا نادراً على موائدهم[6].

الأمراض

ويتمتع البدوي في العادة بصحة أفضل من صحة الشعوب المستقرة بسبب حياته البسيطة ووجوده الدائم في الهواء الطلق، ثم إنه يتميز عنهم بالحذر، إذ يلفُّ نفسه لفّاً تاماً في عباءته أثناء الترحال لتفادي الإصابة بالبرودة وأمراض العيون، ويتصرف بطريقة حكيمة أثناء اشتداد الحرارة إذا تعرّض جسمه إلى عناء شديد، أما إذا أصيب البدوي بمرض، فإنه غالباً ما يحتار في

(١) قارن بوركهارد – في المرجع المذكور، ص ٩٥.

(٢) هناك طريقة أخرى لإحضار الخبز تتمثل في عجن الطحين في إناء بإضافة شيء من الماء، ثم وضع العجين على الرمل الجاف، وضغطه على شكل كعكة مستديرة، ويوضع هذا الرغيف بين طبقتين من الرماد المشتعل حتى ينضج، ويسمى هذا النوع من الخبز "القرص".

(٣) قارن يعقوب، في المرجع المذكور، ص ٩٥.

(٤) تعني كلمة "شنينة" اللبن المخيض أيضاً، أما الحليب الحامض فيسمى لبناً، هذه الكلمة تعني في مصر "الحليب الحلو" الذي يسمى عند العرب في كل مكان حليباً .

(٥) يصنع البدو في نجد نوعاً من مصبّرات الحليب، فيبخرون اللبن ويحصلون بذلك على قطع كثيفة، وتحك هذه القطع عند الاستعمال وتحل في الماء قدر الإمكان ويسمى المشروب والمادة المصبرة "مريسة" و"بقل" ويتزوّد البدو من هذه المصبّرات بكثرة أثناء الغزو، قارن دافتي في المرجع المذكور، ص ٥٨٨. قارن فامبيري – الشعب التركي، ص ٢٠٨ وما تبعها، حيث يصف مادة غذائية مشابهة للعيران، "اللبن" المكثف الذي يطلق عليه اسم "كوروت" عند البدو الأتراك.

(٦) يصبّر بدو "الصليب" الحيوانات التي يصطادونها باستعمال الملح والتجفيف مدة عدة أيام، ويسمى هذا اللحم المجفف "جله" .

علاجه، ولا شك أنه يعرف بطبيعة الحال عدداً من الأعشاب المفيدة في الصحراء، إلا أنه يعتمد أكثر من ذلك على العلاج المستعمل في جميع الأغراض، والمتمثل في ابتلاع قطع من الورق تكتب عليها عبارات سحرية غامضة أو آيات من القرآن، وينتشر كذلك استعمال الحديد الساخن "الكيّ" ضد مختلف أنواع المرض والسقم، ويستعمل في جميع أجزاء وأعضاء الجسم، فيكوي البدوي الرأس مثلا ضد الحمى التي تنجم عن الانخفاض السريع لدرجة الحرارة في الليل من ناحية، وعن قرب المخيمات من الأراضي المستنقعية، أو التي تحتوي على المياه من ناحية أخرى، أما أنا فقد كنت أستفيد عند الحاجة من الأقراص القابلة للانحلال والتي يعتبر البدو تفاعلها مع الماء ضرباً من السحر، ويترك البدوي الجِراح غالباً لشأنها، وحتى الإصابات الخطيرة تشفى بسهولة بالغة على غرار ما هو معروف عند الشعوب البدائية كافة، وتأتي أمراض المعدة وسوء الهضم بسبب سوء التغذية وطول الصوم، وبسبب القناعة في الأكل إذا سمحت الفرصة بذلك، ومن المضرّ عند البدوي أكله الخبز ساخناً حال تناوله من فوق النار، ولا يملك البدو علاجاً ضد هذه الأمراض غير المواد المسهّلة للخروج التي تحتوي عليها بعض الأعشاب الصحراوية(١)، أما أمراض العيون التي لا تنتشر عند البدو كما تنتشر عند الشعوب المستقرة، فتعالج باستعمال الإثمد الذي يبدو أن له مفعولاً مهدئاً على الالتهابات.

الموت والدفن

عند ما يموت البدوي تنتحب النساء في خيمته، وفي الخيام المجاورة لها بأصوات عالية حادّة تسمى "الولولة" كما هي عادةُ الشرق كافة في مثل هذه المناسبات(٢). ويتم دفن الميت يوم وفاته نفسه بالملابس التي عليه حين موته دون أي طقوس خاصة، ويقوم بذلك في العادة رجلان ، ولكن عند وفاة شيخ من الشيوخ يطلق عيار ناري مرة أو عدة مرات. أما الغسل الذي تنص عليه الديانة فلا يتم إلا نادراً. ويتمثل القبر في حفرة بسيطة لا يمكن أن تكون عميقة بسبب عدم وجود المعدات المناسبة. ويغطي البدو القبربالحجارة لحمايته من الوحوش. وأحياناً تثبت أعواد من الخشب تحمل خرقاً من الثياب بين الأحجار. وليس هناك علامة أخرى لتمييز القبر، بعكس ما عليه الحال عند سكان المدن والفلاحين الذين من عاداتهم وضع أنصاب تذكارية صغيرة للموتى .

....

(١) قارن الملحق النباتي في نهاية هذا الكتاب .

(٢) قارن فيما يلي فصل ٧، ص ٢٧٣.

وبقدر ما يكون البدوي حصيفاً وواقعياً بقدر ما تقوده نزعة شاعرية في اختياره للمكان الذي يدفن فيه، فطبقاً لعادة ضاربة في القِدَم سبق ذكرها في الإنجيل [١]، يرفض البدوي أن يدفن في أرض منبسطة، فضلاً عن المنخفضات والوديان، وإنما يريد أن يدفن على ربوة مرتفعة إذا تيسّر، أو على قمة جبل شامخ، حيث إنه يأمل أن يتمكن من مشاهدة أهل قبيلته عندما يحطون رحالهم بالقرب من مثواه، أو ليزداد أهل قبيلته بأساً أثناء الغزو عندما يشاهدون ضريحه. وهكذا نجد قبور البدو هذه على أغلب النقاط المرتفعة في الصحراء. أما المقابر الكبيرة فهي قليلة عند البدو، وفي أفضل الأحوال نجد عدة قبور متجمعة على كثبان ركامية قديمة.

مظاهر اللطف في طبائع البدو والتديّن

طبع البدوي مزيج عجيب من خصائل رائعة وصفات دنيئة. وهو مثال بليغ على صدق المقولة بأن الشعوب الأخرى - على غرار الأزمنة الأخرى - لا ينبغي الحكم عليها انطلاقاً من القيم الأخلاقية السائدة عند الشخص الذي يحكم عليها، وإنما ينبغي أن يكون ذلك بناء على المعطيات المتعلقة بها في ذاتها. ورغم ذلك فإن طبع البدوي تغلب عليه الصفات الإيجابية حسب مفاهيمنا. فما دام البدوي لا يتعرض إلى مسٍّ بشرفه، ومادام واجب الثأر لا يدفعه إلى التصرف بطريقة أخرى، ومادام لا يعتقد أنه محقٌّ في ممارسة نفوذه، فهو مثال للمسالمة والطيبة واللطف والترفق .

ويحب البدوي السماحة في معاملته لعدوه المهزوم إذا كان بدوياً أيضاً، ولكن يرتكب البدو في المقابل أعمالاً وحشية في كثير من الأحيان للثأر من الدروز واليزيديين، والشعوب غير البدوية بصفة عامة.

ومن القصص المميزة لمثل هذا التصرف ما حدث لعبد الكريم شيخ الشمر مع جدعان عقيد قبيلة فدعان عنيزة اللذين كانت تربطهما علاقة صداقة من باب الصُدَف، فقد وقعت ذات يوم مجموعة جدعان الصغيرة في يد عبد الكريم الذي استعد للهجوم عليهم، لكنه أرسل قبل ذلك إلى جدعان أحسن فرس يملكها حتى استطاع هذا الأخير النجاة بحياته فارّاً على صهوة هذه الفرس.

....

(١) قارن فتزشتاين – يوميات رحالة، ص ٢٦ وما يليها.

من مزايا البدو أيضاً احترام حق الملكية الذي يتضارب بصفة غريبة مع ميول البدو إلى النهب والسرقة، لكنه يزداد رسوخاً بأمثلة بليغة متعددة، فنجد أن حق الملكية على المتاع الثابت أو المتحرك لا ينقضي بهجرة أو فقدان أو وفاة صاحبه، وعلى هذا المنوال استطاع الشيخ الصغير فارس وأمه العودة إلى نجد عند فرارهم من الأتراك باعتقاد راسخ في العثور على الآبار والواحات التي غادرها أجدادهما قبل قرون عديدة، ودون خشية أن ينازعهما فيها أصحابها الجدد في ذلك العهد، وهم من قبيلة الشمر أيضاً، ويذكر لايارد(1) أن بدوياً من قبيلة عنيزة فرّ ذات يوم لبعض الأسباب إلى الموصل، ودخل مسجداً تدرّس فيه علوم الدين وانصرف إلى حياة الزهد والتعبّد، وبعد انقضاء سنين طويلة حطت قبيلته رحالها ذات يوم مُصادَفةً بالقرب من الموصل، وعلم شيخ القبيلة بوجود البدوي في ذلك المكان فأعاد إليه الإبل التي ورثها البدوي عن والده الذي كان قد توفّي أثناء غياب الابن عن القبيلة، وكانت الإبل قد تكاثرت بشدة في غيابه، إلا أن جميع أفراد القبيلة وفّروا لها كل أسباب الرعاية بصفتها مِلكاً لرجل متغيب من رجال القبيلة .

لا يتجاوز دور الدين في حياة بدو شمال البلاد العربية أن يكون دوراً ثانوياً، وأشد منهم تعلقاً بالدين بدو جنوب بلاد ما بين النهرين والبدو المستقرّون، ولا نجد عند البدو ذلك التطرّف الذي يميز تمييزاً سلبياً شعوب شمال إفريقيا التي دخلت في الإسلام، سواء أكانت مستقرة أو مترحلة، فحتى النبي محمد ﷺ تذمّر في مرات عديدة من تهاونهم في الدين (2)، وإذا كانوا قد انضموا إلى حملاته للفتح ونشر الدعوة فإن ذلك لم يكن بسبب الورع بقدر ما كان بسبب الطمع في الغنائم*، أما العرب المستقرون فهم بلا ريب أكثر تديناً من البدو بكثير.

تأثير الحركة الوهابية

عندما حاول الوهابيون إنعاش التعاليم الإسلامية من جديد، وربما العودة بالبلاد العربية إلى المبادئ الإسلامية وفقاً لمفاهيمهم الجديدة، اضطر جزء من بدو سوريا وخاصة من قبيلة عنيزة إلى الانضمام إليهم على مَضَضٍ، وقد سلّطت الحكومة الوهابية عليهم أئمة، وحثتهم على

(1) نينوى وبابل، الطبعة الألمانية، ص ٤٤٤.
(2) قارن القرآن الكريم، السورة ٤٨، إضافة إلى شبرنجر- حياة محمد ورسالته، المجلد الثالث، ص ٢٥١ وما يليها .
* [المترجم: هذا التفسير المادي يتعارض مع مفهوم التبليغ والجهاد في سبيل الله؛ فيتحرّر المسلم من أطماع الدنيا ولذاتها ويتجاوزها بإيمان راسخ، وتضحية وإيثار لثواب الآخرة، وأية غنائم في تعريض النفس للموت؟!]

الالتزام بالمظاهر الخارجية للدين خاصة منها أداء فريضة الصلاة، وما لبث البدو أن طردوا هؤلاء الأئمة بعد القضاء على النفوذ الوهابي في شمال وغرب البلاد العربية(١)، وينتمي بدو شمال البلاد العربية وسوريا وبلاد ما بين النهرين إلى المذهب السُنّي، في حين تنتمي قبائل جنوب بلاد ما بين النهرين غالباً إلى المذهب الشيعي (٢)، ومن الفوارق العجيبة أن قبيلة المنتفك شيعية في حين أن عائلة الشيوخ الحاكمة العريقة سُنّية .

ونادراً ما ترى البدو يؤدون الصلاة، لأن أغلبهم لا يستطيعون ذلك، ولا يعرفون حتى قواعد الصلاة، ولقد أتيح لي أن أتابع موقفاً طريفاً عندما شاهدت الشيخ فارس - الذي يميل إلى الراحة والخمول - يحاول القيام بواجباته الدينية أمامي في مباهاة واضحة دون أن يتمكّن من ذلك إلا بعناء كبير ومع ارتكاب أخطاء فادحة، إلا أنه لم يتبعه في ذلك رجل واحد من بين مئات رجال الشمر الذين كانوا في خيمته(٣).

أداء الفرائض الدينية في مخيم الشمر

إن الشيخ فارساً نفسَه قطع صلاته عدة مرات للحديث في قضايا عادية تماماً، وتجدر الملاحظة أن قطع الصلاة ليس ظاهرة نادرة حتى عند الشيعة المتطرفين (٤)، ثم إنه لا يوجد في المخيم أذان عند مواقيت الصلاة، ولا توجد فيه شخصيات دينية على الإطلاق، أما الشخصان

(١) كانت الحركة الوهابية التي نشأت داخلَ البلاد العربية في النصف الثاني من القرن الماضي حركة متزمتة، وكانت تهدف إلى إعادة الإسلام إلى بساطته الأصلية. وقد أدت الحركة إلى تأسيس دولة دينية يحكمها أمراء من عائلة ابن سعود المقيمة في الدرعية، وقد انضمت إليها قبائل عربية أخرى إما غصباً أو طمعاً في الغنائم وقد عاث البدو فساداً في المدن التي وقعت في أيديهم، فسقطت كربلاء والنجف ضحية لهم، وهدّدوا دمشق وبغداد والبصرة أكثر من مرة في مطلع هذا القرن، و لم تتصدّ لهم الحكومة التركية إلا عندما استولوا على المدن المقدسة مكة والمدينة، فكلّفت محمد علي حاكم مصر بطرد الوهابيين من الحجاز والقضاء على نفوذهم، وقد تحقق ذلك بعد صراع عنيف استغرق سنوات عديدة، و شارك فيه عدد من الضباط الأوروبيين خاصة الفرنسيين واندثرت خلاله الدرعية، وبدأ منذ ذلك العهد صعود الأمراء الحاليين لمنطقة نجد الذين هم من عائلة ابن رشيد التي تنتمي إلى قبيلة الشمر، والذين كانوا أتباعاً لعائلة ابن سعود التي ولّتهم على حايل، وقد قضى محمد بن رشيد، الذي توفي مؤخراً قضاء مبرماً على سلالة ابن سعود، ولا يزال بعض أفراد العائلة يعيشون اليوم مشرّدين في الكويت، وقد ظل رجل واحد من عائلة ابن سعود يحظى بنوع من السلطة المدنية كشيخ على بعض الواحات في داخل البلاد العربية ويدفع الجزية لسادة نجد بطبيعة الحال، إلا أن الأفكار الوهابية المتزمّتة لم تنقرض في وسط البلاد العربية، ونجد شبهاً كبيراً لها في تعاليم الطريقة السنوسية التي تأسّست في هذا القرن، والتي أصبح لها نفوذ عظيم في إفريقية الوسطى والشمالية، وبدأت تجد أنصاراً في مناطق أخرى من العالم الإسلامي.

(٢) قارن ما سبق في الفصل٢، ص ٨١ .

(٣) بقي الالتزام بالواجبات الدينية وخاصة الصلاة قائماً حتى بعد انقراض الحركة الوهابية عند قبائل البدو في نجد، وفي أجزاء أخرى من البلاد العربية حيث أسست التعاليم الوهابية قاعدة صلبة.

(٤) قارن بروجش - رحلة في بلاد فارس، المجلد الأول، ص ٣٥٧.

اللذان يطلق عليهما اسم " ملاّ " ويرافقان الشيخ فارساً، فهما رجلان متعلمان يشغلان وظيفة الكاتب الخاص لدى الشيخ، أحدهما شمري أصيل متقدم في السن، والآخر غريب وهو شاب جيزي رافقنا في رحلتنا من الدير إلى مخيم الشيخ فارس، أما المجموعات الدينية التي يطلق عليها اسم "طريقة " فليس لها إلا رواج قليل عند البدو، ولقد حاولت دون جدوى البحث عن أنصار الطريقة السنوسية التي يذكر دوفيريي[1] أنها وجدت أنصاراً بين قبائل بدوية مختلفة خاصة بين الشمر وفي الحجاز[2]، إلا أن التاريخ أثبت أن البدو أصبح لهم ميل كبير إلى التدين والتصوف[3] عندما استقروا.

(١) دوفيريي – الجماعة الإسلامية لسيدي محمد بن علي السنوسي، وقد أخطأ أساساً في تحديده لمواقع قبائل البدو في بلاد ما بين النهرين على خريطته.

(٢) يبدو أن الحركة السنوسية قد سجلت في الحجاز واليمن نجاحاً ملحوظاً أيضاً بين البدو الرحّل، خاصة عند بني حرب في الحجاز.

(٣) قارن المجلد الأول من هذا المرجع، الفصل ٤، ص ١٢٧ .

الفصل الرابع
من مخيم الشمر إلى الموصل

مغادرة مخيم الشمر ، القرى الكردية - زيارة الشيخ عيسى كبير الأكراد - من قرادة إلى عابرة - عند تل جلاغا - تل رميلان بين سنجار ودجلة - هجوم ينتهي بسلام - في مخيم جحش - اليزيديون "عبّاد الشيطان" - مراجع حول اليزيديين، تسمية اليزيديين - نشأة المذهب اليزيدي وتعاليمه، بعله والشيطان - المذهب السياسي والفكري عند اليزيديين- العادات والتقاليد الدينية، العلاقة بالعقائد الدينية - إحصاءات، صراع اليزيديين مع الحكومة - حملة عمر وهبي باشا موقع اليزيديين في تاريخ الشعوب - ديار اليزيديين في سنجار - مفترق مجاري دجلة والفرات، خان الصوفية - في قرية حاوي زمّار - جبل عين زالة، لقاء في الصحراء - اكتشاف آثار أبو وجنة - في المدينة الأثرية أبو وجنة - تل موس آثار إسكي موصل - على سلسلة الجبال المتاخمة لدجلة - الدخول إلى الموصل كتابات الأستاذ دي غويه حول الطريق من نصيبين إلى الموصل.

غادرتُ مخيمَ الشمر المضياف يوم الاثنين الرابع عشر من شهر أغسطس بعد إقامة استغرقت ثلاثة أيام، وكنت في اليوم السابق قد قدّمت للشيخ فارس بعض الهدايا وَفقاً لما تقتضيه العادات، فكسوته من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه، وأعطيته كفّية وثوباً فاخراً ومعطفاً ثميناً، وحذاء فروسية من الجلد الأحمر، وبندقية، وقدّمت لعدد من رجاله كفيات وأثواباً وغيرها، أما الشيخ فارس فقد أهدانا مهراً "معنقي" قاده أحد رجال الشمر الذي بدت عليه علامات هيبة الموقف إلى خيمتي، وحصل على قطعة من الذهب مقابل ذلك، وأجريت حديثاً طويلاً على انفراد مع فارس باشا في خيمته في آخر يوم من إقامتي، تطرّقنا فيه إلى جميع المواضيع التي تهم البراري وسياسة البدو، وطلب مني في نهاية الحديث أن أرسل إليه دواء لعينيه المريضتين من الموصل، وقد وفيت بوعدي الذي وعدت، وكلّف الشيخ فارس رجلين من أقاربه وعبدين زنجيين بمرافقتي في طريقي إلى الموصل، ورافقني التجار السوريون الثلاثة الذين انضموا إلينا في دير الزور .

مغادرة مخيم الشمر، القرى الكردية

وقد جاء مدير شدادة ومعه بعض أتباعه من الضابطية إلى مخيم الشيخ فارس واغتنموا الفرصة للسفر معنا إلى الموصل، هكذا استطعنا أن نكوّن فرقة من عشرين فارساً مسلّحين جميعاً حتى نستطيع الدفاع عن أنفسنا من قطّاع الطرق الأكراد، أو من غزوة صغيرة قد يقوم بها آل عنيزة.

أما الضابط الطيب الذي تم تكليفه بمرافقتنا في دير الزور والذي ذهب معنا هو ورجاله من الضابطية ودوابه حتى مخيم الشيخ فارس، فقد غادر مخيم الشمر في الوقت نفسه الذي غادرنا فيه نحن، ليعود إلى مقرّ حاميته مع رجاله وبدو الجبور، وقد رافقهم كاتب الشيخ فارس لينهي مع المتصرف في الدير معاملات شيخ الشمر بعد أن اضطر إلى قطعها بسببي، وقدّم لنا بعض رجال شيوخ طيء إبلاً لتحمل متاعنا أثناء سفرنا إلى الموصل وبدلاً من الجبور، وقد كان الرجال الجدد والدواب الجديدة أقل كفاءة وأصعب مراساً من الجبور وإبلهم.

غادرنا مخيم الشمر في جو رائع ومثير، وقد أبى باشا البدو العجوز إلا أن يشرّفنا بمرافقته لنا ساعة كاملة مع أبنائه وجميع أقاربه وخدمه، وعندما انطلق الشمر من حولنا في معمعة فوضوية مضطربة، وراحوا يقومون بألعاب الفروسية في صخب وجَلَبة، تحرّك الحنين إلى القتال في نفس الشيخ فارس مثلما تحرّك في فرسه العجوز، وفجأة اندفع إلى وسط الجمع وراح يكرّ ويفرّ وكأنه في عنفوان الشباب، ثم عاد هذا الشيخ الذي أصابه الثقل والخمول ليواصل سيره إلى جانبي، في حين راحت عيناه تتوقّدان وهو يقصّ عليّ حكايات الغزوات التي قام بها، ويتقبل مني الثناء على مهاراته هو وحصانه في ألعاب الفروسية .

افترقنا أخيراً عند قرية ساحة في الساعة العاشرة بعد كثير من الضمّ والتقبيل، وبعدما مررنا قبل ذلك بعشر دقائق بسوار، وكنا غادرنا المخيم الساعة التاسعة وكان اتجاهنا وما زال صوب الشرق والشمال الشرقي، وبلغنا الساعة العاشرة والنصف قريةَ القطبة التي يسكنها الأكراد على غرار الأماكن التي سبق ذكرها، وهنا وصلنا إلى سيل صبلاخ - صوبلاخ على خارطة هاوسكنشت- الذي يجري موازياً للجراحي ويصبّ في الردّ، والذي كان يحتوي على مياه رغم حرارة الفصل، وعبرنا جسراً خشبياً الساعة الحادية عشرة والنصف فوق نهر الجراحي الذي يحتوي بدوره مياهاً.



الشيخ عيسى وحاشيته، أكراد مسيحيون

زيارة الشيخ عيسى كبير الأكراد

ثم وصلنا إثر ذلك إلى قرية قرادة التي تقع عند سفح التل على مقربة من الجدول، والتي يقيم فيها شيخ الأكراد المسيحي الشاب عيسى، الذي تعرفت إليه في خيمة الشيخ فارس ووعدته بالزيارة، وكانت قرادة أهم قرية شاهدناها أثناء مسيرة هذا اليوم، وكانت جميع القرى التي مررنا بها حتى قرادة على غرار القرى الأخرى التي سنمرّ بها في اليوم نفسه، تقع على قمة أو على جانب هضاب يبدو أن سبب نشوئها هو اندثار قرى أخرى كانت قائمة في موقعها، وبناء على أقوال رجال الشيخ فارس تقع هضاب عديدة واسعة المساحة تغطي دون شك أنقاضاً من العهود الآشورية أو أقدم من ذلك - إذا اعتمدنا الوصف الذي بلغني عنها - تقع على مسافة تسعة أو عشرة كيلومترات جنوب قرادة بين الجراحي وسيل قطراني بناء على الوصف الذي بلغني عنها، وتقع فوقها قرية ليلان الصغيرة العامرة بالسكان حالياً، ويقول البدو: إن ليلان كانت في العصور الوسطى مدينة عربية - ربما مدينة أضرمة القديمة(١) - لا تزال بقايا أسوارها قائمة بناء على أقوال مرافقي، وذكروا لي تلاً يقع على بعد سبعة كيلومترات ونصف جنوب ليلان ويسمى تل غراسة، ويبدو أنه يحتوي على أنقاض هو الآخر.

يقيم الشيخ عيسى في منزل على هيئة القلعة، ويقع عند أعلى نقطة في القرية، وقد استقبلني بأدب يفوق بكثير ما تعوّدناه عند الصبيان الذين هم في عمره، وما لبث معظم سكان قرادة أن تجمعوا في منزله، وكان مظهر جميع رجال القبيلة يدل على أنهم مقاتلون، و كانوا رجالاً أقوياء البنية تظهر عليهم سمات الجنس الكردي، يدينون بديانة أهل الحكمة "نسطوريين"*، ويتقن

(١) قارن ملاحظات دي غويه في نهاية هذا الفصل.

* [المترجم: النسطوريون مذهب ينسب إلى نسطور ملك بيلوس وهو أكبر ملوك اليونان في حرب طروادة وأكثرهم حكمة، ويعتمد هذا المذهب على رأي كبير وحكيم القوم].

هؤلاء الأكراد المسيحيون استعمال السلاح على غرار أقاربهم المسلمين في القبيلة كما سبق أن أوضحنا، وقد قُدِّم لنا في منزل الشيخ عيسى الرز واللحم وحلويات مصنوعة من العسل والبيض وغير ذلك، ثم غادرنا قرادة الساعة الواحدة والنصف في اتجاه الشرق مع انحراف بسيط في اتجاه الشمال، فمررنا الساعة الثانية عشرة بـ " تل طير " الذي يقوم تل روفل على مقربة منه في اتجاه الغرب، وكلاهما هضبة منعزلة عليها قرى صغيرة يقيم فيها بدو نصف مستقرين من قبيلة طيء .



رجل من أصحاب المذهب النسطوري

من قرادة إلى عابرة

وصلنا الساعة الثانية والربع إلى قرية قبور البيض حيث التقينا من جديد بقافلتنا التي انطلقت قبلنا وانتظرتنا قليلاً في هذا الموضع، وكان سكان هذه القرية من الأكراد وكانت هذه المرة الأولى التي أجد فيها أكراداً يقيمون في السهول، وتوقفنا ساعة من الزمن عند الشيخ حسن شيخ القرية الذي طلب منا في أدب جمّ أن نمكث عنده بعض الوقت.

واصلنا الطريق في أرض أصبحت الآن سهلاً متجانساً، وبلغنا الساعة الرابعة وعشرين دقيقة قرية تل محيلة الذي كان على شمالنا، ويقيم فيها قوم من قبيلة طيء استقر جزء منهم منذ مدة وجيزة على بُعد كيلومترات قليلة في اتجاه الجنوب الغربي، و عبرنا الساعة الخامسة جدولاً خالياً من المياه يدعى سيل القطراني، ووجدنا الساعة الخامسة وخمس دقائق على يميننا قرية كردية تقع على تل رقيّة على بعد خمسة كيلومترات تقريباً، ومررنا الخامسة وعشر دقائق وعلى الجانب الأيمن بهضبتين تسميان تلول الرمان، ومررنا الخامسة وخمس وعشرين دقيقة بالقرب من قرية أنشأها الأكراد على تل فارسوك، وقد فصل سيل عباس الذي وجدنا فيه المياه هذه

الهضبة الركامية الكبيرة عن مرتفع آخر يقع في الجنوب الشرقي، وكانت الأرض لا تزال مغطاة بصخور البازلت وذلك دليل على الأصل البركاني للهضبة، وتوجد عند سفح هذين التلّين آثار عديدة واضحة لأزواج متوازية من الجدران، ووجدنا الخامسة وخمس وعشرين دقيقة على يميننا قرية وتل العطشانة، وعبرنا بعد ذلك بقليل المجرى الجافّ لسيل العطشانة، ومررنا الساعة السادسة وخمس عشرة دقيقة على شمالنا وعلى مسافة كيلومترين تقريباً بتل لا توجد فيه يسمى تل ديب، وبعد ستة كيلومترات تقريباً وجدنا في الساعة السادسة والنصف تل علو يميننا، وهو تل متوسط الحجم، وعبرنا السادسة وخمسين دقيقة مجرى جدول جاف، ووصلنا الساعة السابعة والربع إلى هدفنا في هذا اليوم وهو القرية الكردية عابرة، وتقوم المنازل على الجانب الجنوبي لهضبة كبيرة، ولكنها كانت خالية من السكان حيث نَصَبَ القوم خيامهم في السهل في هذا الفصل، وفي فصل الصيف يستبدل الأكراد والعرب -الذين أصبحوا مؤخراً مستقرين في غالب الأحيان- المنازلَ الثابتة بالخيام أو الأكواخ المصنوعة من الحصائر أو الحَلْفاء أو القصب أو الأغصان، والتي يسميها الأكراد باللغة التركية "جايله: مسكن صيفي" أو" زومة" باللغة الكردية، ولم تصل القافلة إلا الساعة التاسعة والربع مساء، ونصبنا خيامنا إلى جانب خيمة الشيخ المضياف، الذي يحمل الاسم الكردي الأصيل حَمو(١)، وتدفع قرية عابرة الخوة للشمر على غرار جميع القرى التي سبق ذكرها .

عند تل جلاغا

تبعنا في صباح اليوم التالي الساعة الثامنة والنصف قافلتنا التي كانت قد غادرت قبل ذلك بنصف ساعة في اتجاه الجنوب الشرقي، وتوجّهنا في هذا اليوم إلى الجنوب الشرقي صوب قرية قره جوك الواقعة غربيّ دجلة، وعلى مسافة بعيدة في اتجاه الشمال الشرقي وراء نهر دجلة ارتفعت كتلة جبل الجودي الذي توقّفت عنده سفينة نوح بعد الطوفان حسب ما يرويه أهالي البلاد استناداً إلى ما ورد في القرآن ﴿واسْتَوَتْ عَلى الجُودِيّ﴾ سورة هود: الآية ٤٤، ووصلنا الساعة التاسعة والنصف بعد منعرج يتجه إلى الشمال إلى تل جلاغا(٢) الواقع على شمال

(١) قارن زاخاو في المرجع المذكور، ص ١٦٢. [المترجم: "حَمو" تصحيف لاسم محمد في اللغة الكردية، ويُطلَق تصغيراً وحُباً وكرامةً، ومِثله "عَلو" تصحيفاً لاسم عليّ، و "برو" لإبراهيم، و "خَلو" لخليل، و "بجَلو" لجليل.]

(٢) يذكر كثير من المؤلفين جلاغا ، فيقول ريتر في المرجع المذكور المجلد ١١، ص ٤٣٠ – ٤٣٤ "جيل آغا" أو "جيرلا " أو" تيل آغا" ويقول كينير– رحلة في آسيا الصغرى، أرمينيا وكردستان، لندن ١٨١٨م، ص ٤٤٧ " تشيلي آغا"، ويقول باكنغهام – رحلات في بلاد ما بين النهرين، لندن ١٨٢٧، المجلد ١، ص ٤٣٥ " شهيل آغا"، ويتحدث مولتكه في المرجع المذكور، ص ٢٧٠ عن قرية " تيلاجا"، ويكتب كاميرون في المرجع المذكور، ص ٢١٩ " تشيل أغالس "، قارن أيضاً أينزوورث في المرجع المذكور المجلد الثاني، ص ١٢٠. أعتقد أن سفح جبل طور عابدين كان يبعد مسافة ساعات عديدة عن جلاغا .

طريقنا، والذي قد يكون موقع المدينة العربية القديمة باشزّة(١)، وتشمل القرية الواقعة على القمّة اثني عشر كوخاً تقريباً من الطين تكاد تكون متداعية جميعاً، وتشمل منزلاً أكبر حجماً يملكه الشيخ وكان نصف متداعٍ هو الآخر، وقد بدا لي أن السكان لم يهجروا القرية إلا منذ مدة وجيزة، وتقع على الجانب الشمالي للتل بعض الأكواخ التي كانت في حال أفضل من سابقتها، والتي كانت تختلف في بنائها اختلافاً واضحاً عن الأخرى فقد كانت الأعمدة مرتبطة بالطين بحيث تشكل الجدران، أما السقف فقد كان من التبن، وكانت رحىً حجرية لا تزال ملقاة على الأرض، وكان مبنى جديد مشيد من الأحجار السوداء يشير إلى مسجد بقي على شكله غير المكتمل .

غادرنا المكان الساعة التاسعة وخمسين دقيقة، وعبرنا بعد ذلك بخمس دقائق سيل خنيزير وهو فرع من فروع الردّ، ثم عبرنا الساعة العاشرة وعشرين دقيقة وادي الرميلة الذي يتسع على الأقل في فصل الشتاء، وعبرنا الساعة العاشرة والنصف جدولاً آخر يصب في الخنيزير، وكانت الجداول الثلاثة تحتوي على المياه .

تل رميلان بين سنجار ودجلة

لا تزال نباتات الحَلْفاء والعشب تنمو على الضفاف التي قد تغطيها الفيضانات في فصل الأمطار، وكان السهل - فيما عدا ذلك- تامَّ السواد بسبب حريق نشب في البراري، وقد بلغني أن هذا الموقع تابع للمنطقة الزراعية التي يملكها أكراد جلاغا، وقد التقينا عند سيل خنيزير ببعض رجال الشمر الجنوبيين الذين كانوا في طريقهم إلى ديار الشيخ فارس لجلب الرجال الذين يريدون المشاركة في غزوة كبيرة سوف يشنّها الشمر ضد آل عنيزة، وصلنا بعد استراحة استغرقت نصف ساعة عند الحادية عشرة والنصف إلى تل زنبيل والقرية الواقعة على شمالنا، وجاوزنا الساعة الحادية عشرة وخمساً وثلاثين دقيقة جدولَ سيل زنبيل الذي يحتوي على المياه، وأبصرنا في الحادية عشرة وخمس وخمسين دقيقة على مسافة ساعتين أو ثلاث تل قلعة الرميلة الذي يبدو أنه يغطي أنقاض قصر قديم، و لم نتمكن من مشاهدة تل عقلة الرميلة الذي يقع جنوبَ هذا التل وراء الردّ، وغير بعيد عن مصبّ الرميلة في الرد، وتوجد فيه بعض الآبار، ومررنا عند الساعة الواحدة وخمس دقائق بتل رميلان الخالي من المياه والذي يصبّ هو الآخر

(١) قارن ما يقوله دي غويه في نهاية هذا الفصل.

في الردّ، وربما كان في هذا المكان موقع المدينة العربية القديمة برقعيد[1]، وكانت هذه الهضبة أهم مرتفع في البراري المحيطة، وكانت مغطاة بقبور للبدو، وكنا نستطيع من هذه الهضبة أن نشاهد بجلاء تام التلالَ العديدة الواقعة على السهل المحيط بنا، والتي ربما تشير إلى مواقع قرى قديمة هنا أيضاً، وكان سنجار الطويل يتراءى لنا في الجنوب، و قره جوك في الشمال، وكانت النقطة الجنوبية لهذا الأخير تقع في اتجاه الشمال الشرقي منا، أما النقطة الشرقية الأخيرة لسنجار فكانت تقع في اتجاه الجنوب والجنوب الشرقي منا، واصلنا طريقنا الساعة الواحدة والنصف من تل رميلان باتجاه الشمال الشرقي، وعبرنا في الثالثة وعشرين دقيقة سيل السويدية الذي يحتوي المياه، وهنا وجدنا ينابيع تتجمّع في جدول تبعناه عدة دقائق عبر أرض تحيط بها هضاب ركامية، وهذا الجدول هو رافد من روافد رميلان، وتسلقنا في الثالثة وخمس وأربعين دقيقة من جديد هضبة منعزلة، وتوجّهنا عندئذ صوب الطرف الجنوبي لقره جوك، وكلما اقتربنا من هذه السلسلة زاد عدد الهضاب في المكان .

كنا نعلم أن المنطقة بين سلسلة جبال سنجار التي تركناها الآن وراءنا ونهر دجلة الذي نتوجه إليه حالياً هي منطقة شديدة الخطر على المسافر المسالم، ذلك أن سكان سلسلة جبال سنجار اليزيديين كانوا قد أعلنوا تمرّدهم على الحكومة التي كان البدو يقفون إلى جانبها هذه المرة.

هجوم ينتهي بسلام

سبق لنا أن سمعنا في ديار الشيخ فارس أن هذه المنطقة التي كنا نقطعها بالذات، هي مسرح لمعارك دامية بين البدو واليزيديين، وقد انطلقت جحافل من اليزيديين من جبال كردستان وعبرت نهر دجلة لمناصرة إخوانهم في الدين ضد القوات الحكومية في مرتفعات سنجار الغنية بالمياه وقطعان الماشية، وكان اليزيديّون يشنّون حملات غزو مستمرة ضد بدو بلاد ما بين النهرين انطلاقاً من سنجار.

واصلنا طريقنا الآن متّخذين جميع إجراءات الحيطة والحذر، فكانت القافلة تسير في الوسط وكنت أسير مع رجلين من الشمر وبعض الرجال المسلحين الآخرين في المقدمة، والبقيّة من حاملي البنادق في المؤخرة للحماية، وكان يبدو أن الخطر الأكبر يهدّدنا من الأمام، ذلك أن الهدف المقبل لمسيرتنا كان مَعْبراً كثيرَ الاستعمال على نهر دجلة، وقد بلغنا أن هذا المَعْبر بالذات

---

(١) قارن تعليقات دي غويه في نهاية الفصل .

يستعمله كثيراً اليزيديّون القادمون من كردستان، وتقدمت القافلة قليلاً حيث إنني كنت آمل أن أتفاهم مع اليزيديين بصفتي أوروبياً في حال الاصطدام ولقائهم قبل أن يكشفوا ضعفَ الدفاع لقافلتي، ويستأنسوا إلى فكرة الهجوم عليها لأنها لقمة سائغة وصيد مريح، كانت قافلتنا التي تحمل أمتعتنا قد اختفت عنا بسبب الأرض المتموّجة التي كنا نقطعها عندما فاجَأنا طلوعُ كوكبة من الفرسان من وراء أحد المرتفعات قرابة الساعة الرابعة، وكانت متوجّهة رأساً إلينا، فاندفع الفارسان الشمّريان المرافقان إلي فوراً للتصدي لِكوكبة الفرسان، إلا أنهما ما لبثا أن وجدا نفسَيهما مطوّقين من جميع الجهات، أما نحن بقية الفرسان فقد أطلقنا العنان لجيادنا لكي نلحق بزميلينا، وما كدنا نفعل حتى وجدنا أنفسنا مطوّقين بما لا يقلُّ عن مائة وخمسين فارساً راحوا يحاوروننا برماحهم الطويلة في جلبة وصخب شديدين، وبدا أن الموقف في منتهى الجِد، لكن لم يكن مهاجمونا لحسن الحظ من اليزيديين، وإنما من قبيلة جحش الموالية للشمر، وبعد عناء شديد استطاع رفاقي بفضل قدرتهم على الصراخ القوي أن يعرّفوا بأنفسهم كرجال للشيخ فارس، وبذلك هدأ الفرسان الذين كانوا يهدّدوننا برماحهم حتى علا الزبدُ أشداقَ بعضهم من شدة الحماس، وتبين بعد ذلك أن رجال جحش كانو قد أبصروا قافلتنا من مخيمهم الواقع عند المرتفعات المتقدمة من قره جوك لما كنا نحن عند تل رميلان وحسبوا أننا يزيديون قادمون من سنجار عازمون على الغزو.

كان قد سبق لرجال جحش أن اشتبكوا منذ أيام مع عبّاد الشيطان في معركة فاشلة وقع فيها عدد من رجالهم، ولذلك فإنهم اندفعوا على خيول غير مسرّجة يكاد بعضهم يكونون عراة للتصدي للعدو والدفاع عن أهلهم وأبنائهم ومتاعهم، ولم يكن أحد من مهاجمينا لحسن الحظ يحمل سلاحاً نارياً، وإلا لصعب الخروج من ذلك الموقف بدون سفك للدماء، أما الآن وقد تبين لرجال جحش خطؤهم فإن فرحتهم لم تكن تقل عن فرحتنا، فقادونا من شدة سرورهم بذلك إلى ديارهم، ومتّعونا طوال الطريق بضروب من ألعاب الفروسية.

في مخيم جحش

كانت قبيلة جحش قد ضربت خيامها عند ضفة سيل السويدية الذي كان يحمل مياه المرتفعات الجنوبية لقره جوك إلى نهر دجلة، وكان علينا - قبل الوصول إلى هناك- أن نعبر الجدول الذي كان يشكل مستنقعاً منخفضاً حتى في هذا الفصل، وكانت الأرض مغطاة بنباتات كثيفة توفر مراعي طيبة لقطعان الماشية التابعة لقبيلة جحش، وكان أصدقاؤنا الجدد قد

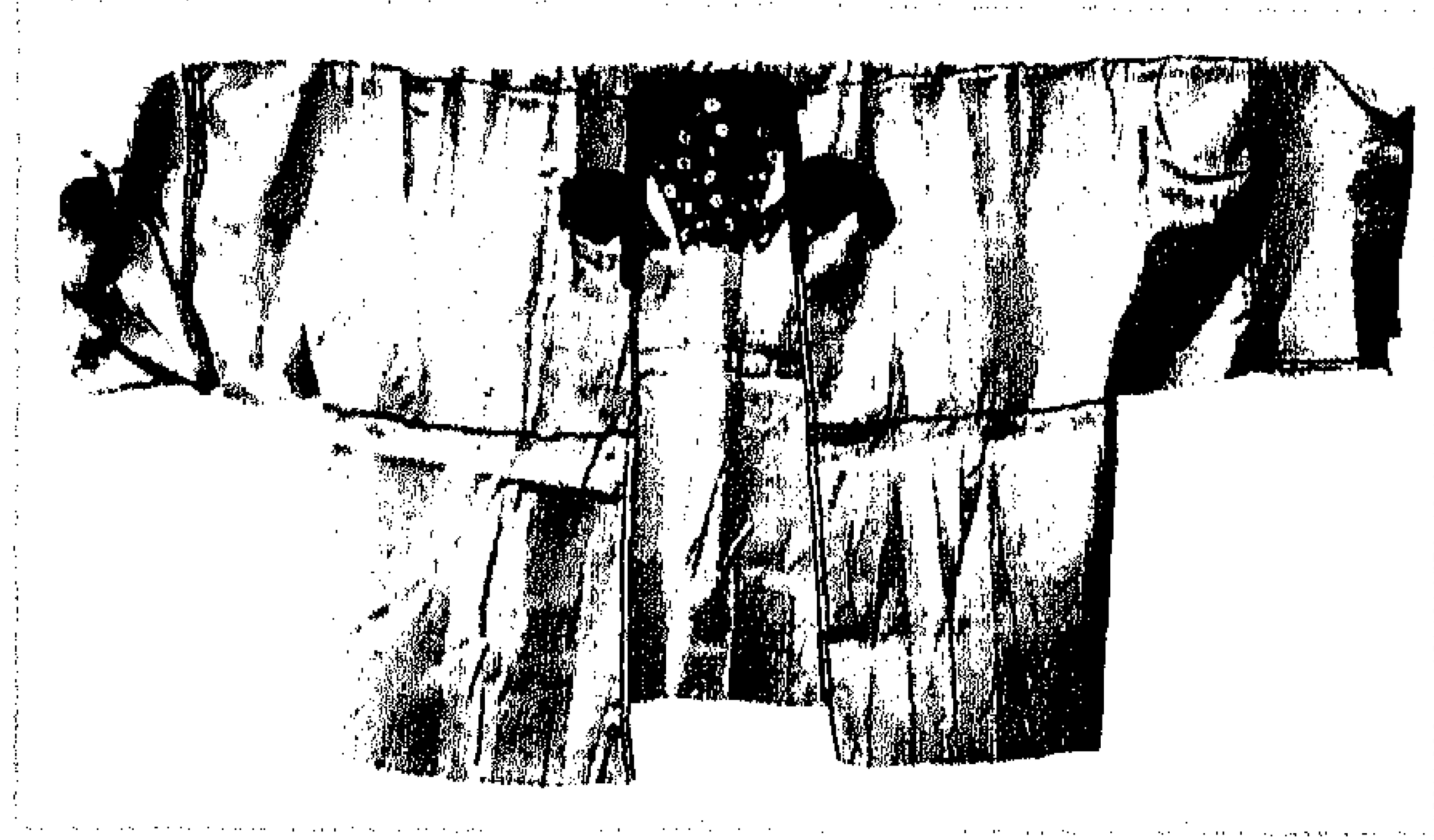
وصلوا في صباح اليوم نفسه إلى هذا المكان قادمين من الجنوب الشرقي، وكانت خيامهم السوداء متناثرة على مسافات كبيرة طوال الجدول، و قد يبلغ البعد بينها ساعات من الزمن في بعض الأحيان، فنصبتُ خيمتي إلى جانب خيمة الشيخ علو الصالح، واستقبلتنا النساء بزغاريد الفرح، وفي الحين ذبح المضيفون خروفين للاحتفاء باستضافتي إلى مأدبة عشاء.

كان الشيخ علو(١) الصالح رجلاً في متوسط العمر، قصيراً كأنه قزم، إلا أنه كان قوياً عريض الكتفين نشيطاً ولبقاً، وكان له وجه معبّر تكتنفه لحية كثيفة، وكان جميع أفراد عائلته يتميزون بقامة قصيرة تلفت الانتباه، وكان يصعب عليّ تمييزه كشيخ لقبيلة عريقة تنتمي إلى طيء لو لم يقدّم إلي بهذه الصفة، فقد كانت ملابسه قليلة جداً عندما ركب للهجوم علينا، وبعد وصولنا إلى الديار لم يأخذ لنفسه الوقت ليستكملها، ولاحظت أن بعضاً من خيول قبيلة جحش كانت من الجياد الأصيلة المتميزة، و في المساء خرج من قره جوك عدد من الخنازير البرية التي كانت تسعى إلى مواردها المعتادة، لكنها وقفت مشدوهة عند مشاهدة الخيام، وما لبثت أن اختفت من جديد في سرعة فائقة، وكانت جميعها تنتمي إلى فصيلة ضخمة قوية، ويبدو أنّ في بلاد ما بين النهرين فصيلة أخرى أصغر حجماً من هذه. انتبهنا بعد منتصف الليل إلى إطلاق عيارات نارية، وفي الحين سارع جميع رجال القبيلة إلى أسلحتهم، وجيء لي أنا بحصاني الذي امتطيته وأنا ماسك بندقية في يدي، إلا أنه ما لبث أن تبين أنه لا وجود لهجوم يزيدي هذه المرة أيضاً، ولكن حراس الماشية كانوا قد أطلقوا النار تحسّباً وإنذاراً لمن قد تراوده نفسه بغزوهم، ويبدو أن الفهود مازالت تعيش في قره جوك، أما الأُسُود التي لا تزال توجد بكثرة في هذه الربوع حتى هذا القرن، وليس في عهد الآشوريين - وحدَهم- الذين يصور لنا العديد من نحوتهم معاركها - فإنها قد اختفت تماماً من شمال بلاد ما بين النهرين، ولا يمكن العثور عليها إلا بين الفينة والأخرى في غابات بلاد بابل الأصلية.

كانت العباءة البيضاء التي كنت أرتديها أنا ونجيب سلّوم من بين الأسباب الرئيسة لهجوم بني جحش علينا، وكانت هذه العباءة رداء خفيفاً كنا نلبسه لوقاية أنفسنا من أشعة الشمس الرهيبة، وقد اعتقد كثير من بني جحش لهذا السبب أننا من اليزيديين، ذلك أن البدو في هذه

(١) [المترجم: "عَلو" تصحيف لاسم عَليّ في اللغة الكردية، انظر هامش ١، ص ١٤٩]

المناطق البرية لا يرتدون العباءة البيضاء، وعلى عكس ذلك يكره اليزيديون الألوان القاتمة، وخاصة منها الأزرق، ويحبّون الرداء الكردي الأبيض القصير على وجه التخصيص.



الرداء الكردي

اليزيديون "عبّاد الشيطان"

لم تعرف طائفة اليزيديين العجيبة عن قرب إلا في هذا القرن، وقد حدث ذلك خاصة عن طريق الإنجليزيَين بادجر(١) ولايارد(٢) اللذين كتبا عنها كتابات مستفيضة، ونجد إضافة إلى ذلك تقارير متفاوتة في الدقة عن هذه الطائفة التي تعبد الشيطان كتبها رحالة إنجليز آخرون في النصف الأول من هذا القرن، مثل أينزوورث وفرايزر وريتش وباكينغهام وفوربس وغيرهم.

مراجع حول اليزيديين

ويذكر الألماني الروسي هاكستهاوزن في كتابه " بلاد ما وراء القوقاز" بعض المعلومات حول اليزيديين الذين يعيشون في المناطق الروسية، ونذكر من الكتابات الفرنسية تقارير سيوفي وهو سوري مسيحي(٣) كان قنصلاً لفرنسا في الموصل على مدى سنين طويلة، ثم نذكر كتاب "اليزيديون"(٤) الذي ألّفه شابو(٥) ومونان(٦)، أما من الألمان فقد اهتم زاندرزكي(٧) وبيترمان(٨)

(١) النسطوريون وشعائرهم، المجلد الأول، ص ١٠٥ وما يليها.
(٢) نينوى وبابل، ص ٦٣ وما يليها. نينوى وبقاياها، المجلد الأول، ص ٢٩٤ وما يليها.
(٣) المجلة الآسيوية، المجموعة ٧ المجلد ١٥، ص ٧٨ وما يليها ومجلد ٢٠، ص ٢٥٢ وما يليها، وكذلك المجموعة ٨ المجلد ٥، ص ٧٨ وما يليها.
(٤) تاريخ متحف جيمي باريس ١٨٩٢.
(٥) المجلة الآسيوية، المجموعة ٩ المجلد ٧ ، ص ١٠٠ وما يليها.
(٦) قارن ملاحظات حول اليزيديين، في تقرير عن باشاوية بغداد، ص ١٨٣ – ٢١٠.
(٧) رحلة من سميرنا إلى الموصل، شتوتجارت ٧٥٨١ المجلد الثالث ، ص ٣٩٢ – ٦٩٢ و٩٠٣ – ٢٢٣.
(٨) رحلات في الشرق، لايبتزيغ ١٨٦٠ المجلد الثاني ص ٣٣١ وما يليها.

بصفة خاصة بهذه الطائفة، وقد عثر نيبور[1] على اليزيديين عند الزاب وانكبّ على بحث ديانتهم بمثابرته المعتادة، ولكنه لم يحصل إلا على معلومات زهيدة حولها، وأخيراً استطاع رجل الدين الإنجليزي باري[2] في الموصل الحصول على مقتطفات من الكتاب المقدس لهذه الطائفة وهو كتاب "الجلوة" وبذلك تمكّن من تقديم معلومات موثوقة عنها، وقد نشر ليدزبارسكي[3] مع ملاحظاته الخاصة تقريراً هاماً من الكتاب الجامع "كود زاخاو ٢٠٠" تابع للمكتبة الملكية في برلين، الذي سبق أن نشر منه باري[4] ترجمة إلى الإنجليزية مع بعض الإلغاءات وشيء من الاختلاف، و نجد في هذا التقرير ملاحظات قيّمة حول التعاليم اليزيدية مع شرح للأسباب التي تمنع اليزيديين من الانخراط في الخدمة العسكرية في الجيش التركي، ويمكن القول بصفة عامة: إن أسرار ديانة اليزيديين غير معروفة في الشرق ومجهولة عند المسلمين والمسيحيين، ولكنهم كافّة يلصقون بها من جميع ضروب التهم المشينة كما هي الحال في العادة مع الطوائف الدينية السرّية.

ويبدو أن هذه الطائفة لم تنبثق عن الإسلام، وإنما يرجع أصلها إلى ديانات وثنية شرقية قديمة، غير أنها أخذت عدة أشياء عن الإسلام والمسيحية واليهودية على حد السواء، بحيث أصبحت التعاليم الدينية خليطاً فوضوياً من جميع التصورات الدينية والتعاليم العقيدية المختلفة، أما التسمية فيغلب على الظن أنها ترجع إلى الكلمة الفارسية الكردية "يزد" التي تعني "الإله"، غير أن اليزيديين أنفسهم يرجعون أصل التسمية - ربما مجاملة للمسلمين أو خوفاً منهم - إلى الخليفة الأموي يزيد، أما فيما بينهم فإنهم يسمون أنفسهم "دوازن" جَمْعٌ مفرده: دازني.

---

(١) رحلات في بلاد العرب، أمستردام ١٧٨٠ المجلد الثاني، ص ٢٧٩ وما يليها.

(٢) ستة أشهر في دير سوري لندن ١٨٩٥، ص ٣٥٧ وما يليها.

(٣) محاضرة حول اليزيديين في ز. د. م. ج. ١٨٩٧ المجلد ٥١، ص ٥٩٢ وما يليها، قارن كذلك كفولزون - الصابئة ومذهبهم "هنا وهناك"، هوفمان - مقتطفات من الملفات السورية للشهداء الفرس، ص ١٢٥، ١٢٦. زاخاو - رحلة في سوريا وبلاد ما بين النهرين، ص ٢٣١.

(٤) في المرجع المذكور، ص ٣٧٢، ٣٧٣ يذكر باري خطأ سنة ١٣٨٩ ميلادية عوضاً عن سنة ١٢٨٩ هجرية، الملاحظة رقم ٣ عند ليدزبارسكي هي الملاحظة رقم ٤ التي ألغاها كاتب باري.

تسمية اليزيديين
ونشأة المذهب اليزيدي وتعاليمه

تاريخ نشوء طائفة اليزيديين مجهول، إلا أنها قد تكون نشأت في الفترة التي تنتهي بغارات المغول، والتي ظهرت خلالها في بلاد فارس تطلعات ضد السيطرة العربية، وجدت متنفساً لها في تأسيس هياكل دينية غريبة تعتمد غالباً على الديانة القومية القديمة مع إدخال بعض العناصر الإسلامية، وغيرها من الأفكار الأخرى (١).

ويبدو أن الفكرة الأساسية في التعاليم اليزيدية تنبثق من الديانة الزارادشتية، ثم إنها أخذت عدداً من العناصر من عقيدة الحرّانيين، ويدين اليزيديون بمبدأين: فهم يطلقون اسم "بعله" على الخير أو الإله الذي تم آخر تجسيد له في الشيخ "عدي"، و تعني كلمة " بعله " "الأعلى"، ويوجد قبر الشيخ "عدي" على بعد خمسة وأربعين كيلومتراً شمال الموصل(٣) ويبدو أنه ظهر في عهد الخليفة العباسي المقتدر ٩٠٨ - ٩٣٢م، هذا الموضع هو المكان المقدَّس الأساسي الذي ينبغي على كل يزيدي أن يزوره مرّة على الأقل في حياته، والذي ينعقد فيه احتفال كبير في شهر أكتوبر من كل سنة، أما المبدأ الثاني فهو الشرّ أو الشيطان، ويغلب على الظن أنه يتطابق مع ما يسمّونه الملك طاوس(٤) ملك اليزيديين، أو بعبارة أدق الملاك الطاوس، وبصفة عامة يحتل هذا المبدأ مرتبة أدنى من المبدأ الأول، ويتحد معه في الذات الإلهية، إلا أن اليزيديين يقدّسون الشيطان تقديساً متميزاً؛ ولذلك فإنهم يعتبرون في المفاهيم الشعبية عبّاداً للشيطان، ويتجلى هذا التقديس في التحريم التام للتلفّظ بكلمة " شيطان" أو أي كلمة أخرى مجانسة(٥)، حتى إنه يقال: إن من يخرق هذه القاعدة يتم إعدامه فوراً حتى وإنْ كان ضيفاً على القبيلة، وذلك لدرء

....

(١) قارن المجلد الأول من هذا الكتاب، الفصل ٤، ص ١٢٠ وما يليها، وقد سمع بيترمان في الموصل أن اليزيديين يعرفون الدروز الذين يقولون عنهم: إنهم يرجعون في أصلهم إلى عهد الملوك الآشوريين أو الفرس القدماء، وإنهم بقايا من جيوشهم أو مستوطنيهم الذين استقروا في الجبال شمال فلسطين وكفروا بالله، ويعتقد بيترمان أنهم يحملون لهذا السبب الاسم الناتج عن دغم كلمتين فارسيتين هما " دُور" وتعني " بعيد "، و " يزد " وتعني " إله "، وبذلك يكون معنى الاسم " البعيدون عن الله "، في المرجع المذكورالمجلد الثاني، ص ٣٣١.

(٢) يقول آخرون: إن عديّاً هو تجسيم لمبدإ الشر – قارن باري في المرجع المذكور، ص ٣٧٢ – ويرى آخرون أنه وزيرلله.

(٣) أصل الشيخ عدي من ضواحي مدينة حلب، قارن باري في المرجع المذكور، ص ٣٦١، ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

(٤) " مَلَك " بفتح اللام التي تعني الملائكة وليس " صاحب السلطان ". [المترجم: صاحب السلطان بكسر اللام "الملِك"].

(٥) قارن لايارد – نينوى وبقاياها ، ص ١٥٨.

الكارثة التي قد تحل بهم من جراء هذا التجاوز(١)، وينبغي على اليزيديين زيارة الملاك طاوس - الذي هو طائر فوق هيكل شمعدان(٢)- ثلاث مرات في السنة ليعربوا له عن تقديسهم وولائهم(٣)، ويعتبر الملاك طاوس رب الأرض، أما الإله الآخر غير المرئي فهو رب السماء، وقد تولّى الملاك طاوس الملك ستة آلاف سنة ومازالت له أربعة آلاف أخرى، وبعد انتهاء هذا الأجل تأتي فترات ست أخرى، مقدار كل واحدة منها عشرة آلاف سنة يتجلى فيها الإله في صورة أخرى .

المذهب السياسي والفكري عند اليزيديين

وينص دستور اليزيديين على رئيس سياسي يحمل لقب " أمير أو باي"(٤) ورئيس ديني يحمل لقب " شيخ " ويخضع للرئيس السياسي، وتتمتّع عائلتان بتوارث هذين المنصبين، ويقال: إن الأمراء ينحدرون من سلالة صابور ملك الفرس(٥)، وتوجد سلسلة من المناصب الدينية على مستويات وطبقات متعددة فيما عدا منصب "الشيخ"، وتضم الطبقة الأولى ما يسمى " بير " ويعني في اللغة العربية شيخاً أو عجوزاً(٦)، وتتمثل مهمّة هؤلاء الأشخاص في مراقبة الاحتفالات الدينية، وتضم الطبقة الثانية " القوال " وهو المتحدث الذي ينشد الأناشيد ويلقي الخطب الدينية، وتضم الطبقة الثالثة " الكودجاك " وهم الموسيقيون(٧)، ثم تضم الطبقة الرابعة " الفقير " وهم الدراويش الذين يلقنون الأطفال التعاليم الدينية(٨)، ويذكر باري(٩) طبقة أخرى هي " الملا " الذي يحافظ على الكتب المقدسة وعلى أسرار الدين والذي يتولى إصلاح وتسوية شؤون القوم وتدريس العلوم الدنيوية.

(١) قارن: كتاب " الجلوة "، المادة ٤، وباري في المرجع المذكور، ص ٣٧٦، ثم قارن أيضا الفقرة ٥ من كتاب ليدزبارسكي في المرجع المذكور، ص ٦٠٠. بناء على ما ورد هنا، ينبغي على اليزيدي المعني بالأمر أن يقتل من يكفر بالشيطان ثم ينتحر، يقول باري في المرجع المذكور، ص ٣٧٣: يقتل الكافر أو يقتل نفسه.

(٢) صور للملاك طاووس عند بادجر في المرجع المذكور المجلد١ ، ص ١٢٤وفي لايارد– نينوى وبابل اللوحة ١٥ رقم هـ.

(٣) قارن باري في المرجع المذكور، ص ٣٧٢. وليدزبارسكي في المرجع المذكور، ص ٥٩٨ ملاحظات، ومن الملاحظ أنه يتم تداول صور الملاك طاوس في مناطق اليزيديين .

(٤) يبدو أن أمير اليزيديين الحالي هو علي بن حسين باي الذي شغل هذا المنصب مدة أربعين عاماً.

(٥) قارن باري في المرجع المذكور، ص ٣٧٨.

(٦) قارن ليدزبارسكي في المرجع المذكور، ص ٥٩٩ هامش ٤ .

(٧) يبدو أن الموسيقى والرقص يلعبان دوراً متميزاً عند اليزيديين، ويبدو أن النساء والرجال يؤدون الرقصات متعانقين، بخلاف ماجرت عليه العادة عند الشعوب الشرقية من مسيحيين ويهود ومسلمين.

(٨) قارن لايارد وبيترمان، إلا أن بادجر يخالف ذلك، ويذكر في المرجع المذكور، ص ١٣١ الطبقات الأربع التالية: البير والشيوخ وهم كتبة الطائفة، والقوّال الذين هم الموسيقيّون في الوقت نفسه، ثم الفقير .

(٩) المرجع المذكور، ص ٣٠٨.

العادات والتقاليد الدينية، العلاقة بالعقائد الأخرى

يعتقد اليزيديون أنهم شعب الله المختار(١) الذي هو من ذرية الشيخ عدي وأتباعه الذين عاشوا في عهده، أما قصة الخلق عندهم فهي نسيج من روائع الخيال(٢)، إذ يعتقدون أن اليزيديين أبناء آدم، ولكنهم ليسوا أبناء لحواء التي هي أم المسيحيين واليهود والمسلمين، وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى فقط.

وليس للصلاة والصوم عند اليزيديين إلا أهمّية قليلة، أما الختان والتعميد في الأسبوع الأول من الولادة فهي من العادات الرائجة، غير أنها ليست واجبة عليهم، كما أن الزواج والطلاق لا تزيد عن كونها قضايا بسيطة عندهم، إذ يجوز لكل رجل أن يتزوّج من ست نساء، أما الأمير فيستطيع نكاح ما شاء له دون تحديد بعدد، وينبغي على الزوج الشاب أن يرمي قرينته بحجر للدلالة على أنه أصبح سيّدها، أما إذا سافر أحد اليزيديين وغاب عن منزله مدة تزيد على سنة فإنه لا يجوز له الرجوع إلى الحياة مع زوجته عند عودته، ولا يجوز لأي رجل آخر أن يعطيه زوجته(٣)، ومن عادات اليزيديين وضع شيء من التراب المحيط بقبر الشيخ عدي في فم الموتى اعتقاداً منهم أن الله يستطيع - إذا شاء - أن يبعث روح الميت في شخص آخر، كتاب "الجلوة، المادة ٢ "، أو في حيوان إذا أراد أن يعاقب هذا الشخص .

وقد أخذ اليزيديون عن الإسلام التعاليم الخاصة بالبعث والصراط الذي هو أدق من الشعرة، ولكنه أعرض بقليل من شفرة الحلاقة المصقولة صقلاً جيداً، وينبغي على كل من يريد بلوغ الجنة أن يعبر فوق الصراط ، أما المسيح فهو عندهم تجسيم لملاك خير سيبعث من جديد مع الإمام المهدي(٤)، هنا يتجلى التداخل بين المعتقدات الإسلامية والمسيحية عند اليزيديين(٥)، ولا يعترف اليزيديون بالكتب الدينية الأخرى إلا إذا كانت تعاليمها لا تتضارب مع مبادئهم .

(١) كتاب الجلوة، المادة ٢، قارن باري في المرجع المذكور، ص ٣٧٥.
(٢) يذكر باري في المرجع المذكور، ص ٣٧٧ و ص ٣٨٠ رأيين مختلفين عند سرد النسب.
(٣) قارن باري، الفقرة ٨ ، ص ٣٧٣ من المرجع المذكور، ويذكر ليدزبارسكي فيما يتعلق بكتاب التعاليم أن هذه العقوبة تهدّد الرجل الذي يقضي في الغربة مدة تقل عن سنة، المرجع المذكور ص ٦٠١.
(٤) قارن باري في المرجع المذكور، ص ٣٦٤.
(٥) يمكن اعتبار ما يلي بعض مخلفات ديانة تقدس الشمس: ينبغي على كل يزيدي أن يتوجه كل يوم عند طلوع الشمس إلى مكان يستطيع منه أن يرى بزوغها، ولا ينبغي أن يتواجد في ذلك المكان أي مسلم أو مسيحي أو يهودي أو معتنق ديانة أخرى ، ليدزبارسكي في المرجع المذكور، ص ٥٩٩، نلاحظ أن هذه الفقرة التي تذكّر بوضوح بالمعتقدات الوثنية هي ذاتها الفقرة التي لم يذكرها مرافق الرحالة باري لهذا الأخير. قارن – بيترمان في المرجع المذكور المجلد الثاني، ص ٣٣٣ و خفولزون في المرجع المذكور المجلد الأول، ص ٢٩٦ وباري في المرجع المذكور، ص ٣٥٩.

إحصاءات، صراع اليزيديين مع الحكومة

لا يعتبر المسلمون اليزيديين من أهل الكتاب رغم أن لديهم كتاب "الجلوة" (١)، وأهل الكتاب هم أهل الديانات التي تملك كتباً سماوية يعترف بها القرآن (٢).

هناك تقديرات مختلفة جداً لعدد اليزيديين تتراوح بين خمسين ألفاً ومائة ألف، ويقيم اليزيديون خاصة في أواسط كردستان شمال الموصل، وفي مرتفعات سنجار، وتوجد كذلك بعض القرى اليزيدية في كردستان الروسية وفي جبل سمعان غرب حلب، ويبدو أن اليزيديين المقيمين في سنجار تربطهم علاقات صداقة وتجارة متميزة مع مسيحيي الموصل وماردين أيضاً ومع مدن شمالية أخرى، وفيما عدا ذلك فهم يعيشون في عزلة وفي صراع دائم مع قبائل البدو المجاورة، ونجدهم في مقابل ذلك يوفرون الملجأ والدعم لآل عنيزة الذين لا ينقطعون أبداً عن غزو الشمر عدوّهم اللدود في بلاد ما بين النهرين .

يعدّ اليزيديون شعباً جبلياً خشناً وشجاعاً، لكنه محتال ووحشي وتعوّد السرقة واللصوصية، وقد حملت غزواتهم الحكومة التركية عديداً من المرات على ردود فعل صارمة، فقد شنّ الباي الكردي في رواندوز سنة ١٨٣٢ م حملة على اليزيديين الشماليين عند جبل الطور سال فيها كثير من الدماء(٣)، وقاد الباشا حافظ في ديار بكر سنة ١٨٣٨م (٤) معركة عليهم ذهبت بالعديد من الأرواح أيضاً؛ لأن اليزيديين تحصّنوا في جبالهم وظلوا يحاولون الدفاع عن أنفسهم محاولة يائسة، وفي النهاية رضوا بدفع الجزية، وقبول موظف تركي في ديارهم، وبعد ذلك بقليل استوجب الوضع من جديد القيام بعمليات حربية على " سنجارلي"، وقد أعلن بدرخان الباشا الكردي في جبل الطور سنة ١٨٤٤م(٥) حرباً عقيدية على اليزيديين والنسطوريين على حد سواء، إلا أن الحكومة التركية ما لبثت أن لينت معاملتها لهم، ولكن بعد ذلك بسنتين فقط - أي في شهر أكتوبر من سنة ١٨٤٦- شنّ طيار باشا حاكم الموصل في ذلك العهد حملة على

(١) يذكر باري في المرجع المذكور، ص ٣٥٧ كتاباً مقدساً آخر هو " الكتاب الأسود ".

(٢) قد أثار هذا الرأي أثناء إقامتي في بلاد ما بين النهرين السؤال الآتي: هل يعتبر المسلمون اليزيديين الذين يقعون في الأسر أثناء الحرب عبيداً؟ قارن فيما يلي، ص ١٧٠؛ يبدو أن علي باشا المعروف والذي كان يحكم بغداد في ذلك العهد قد أقرّ ذلك، قارن كورانسي – وصف لباشاوية بغداد، ص ٩٩.

(٣) يقول باري في المرجع المذكور: إن الهضبة الأثرية الآشورية قويونجيك الواقعة قبالة الموصل قد أطلق عليها هذا الاسم بسبب مذبحة اليزيديين في ذلك المكان، ويستدل على ذلك بأن كلمة " قويون " التركية تعني " الخروف " ومن هنا يأتي مفهوم " مذبحة الخرفان ".

(٤) قارن ريتر في المرجع المذكور، ص ٧٥١.

(٥) قارن بادجر في المرجع المذكور، ص ١٣٣.

سنجار[1] كانت في البداية تهدف إلى بحث وضع اليزيديين فحسب، لكن الحملة انتهت بإخضاع كامل اليزيديين الذين وجب عليهم منذ ذلك العهد أداء الخدمة العسكرية أيضاً، غير أنهم حصلوا في سنة ١٨٤٩م - بفضل تدخل السفير الإنجليزي في القسطنطينية في ذلك العهد السير ستراتفورد - على وعد من السلطان يضمن لهم الحرية الدينية التامة، ويضعهم على قدم المساواة مع بقية الطوائف الدينية في الإمبراطورية العثمانية[2]، ووعدهم السلطان بإعفائهم من الخدمة العسكرية التي تتضارب مع التزامهم الصارم بشعائرهم الدينية.

و لم تحدث محاولة جديدة لإعادة اليزيديين إلى الخدمة العسكرية إلا عند حلول سنة ١٨٧٢م [١٢٨٩ هـ]، وقد قدم اليزيديون لمحمد طاهر باي مبعوث القسطنطينية إلى الموصل بهذه المناسبة مذكرة يشرحون فيها بدقة الأسباب التي تجعل الخدمة العسكرية تتضارب مع تعاليم دينهم بحيث يستحيل عليهم أداؤها، وقد تضمنت المذكرة[3] إضافة إلى ذلك طلب اليزيديين السماح لهم بدفع ضريبة معينة عوضاً عن أداء الخدمة العسكرية على غرار السوريين واليهود، وقد استجابت الحكومة مرة أخرى إلى طلب اليزيديين، وعدلت عن تنفيذ نواياها السابقة.

حملة عمر وهبي باشا

وقبل رحلتي بمدة وجيزة أوفد الباب العالي مبعوثاً خاصاً إلى بلاد ما بين النهرين هو الفريق عمر وهبي باشا، وكلفه بتنفيذ إصلاحات مختلفة وجمع الضرائب المتخلفة من ولايات الموصل وبغداد والبصرة، ويبدو أن هذه المهمة قد أربكت الباشا، إذ بعث رسلاً إلى اليزيديين يعلمهم أن الإمبراطورية العثمانية لا تحتمل وجود غير أهل الكتاب؛ ولذلك ينبغي عليهم أن يختاروا إما الدخول في إحدى الديانات الثلاث: المسيحية أو اليهودية أو الاسلام، أو إنه سوف يقضى عليهم قضاء مبرماً باستعمال الحديد والنار، وقد كان هذا يعني بطبيعة الحال الدخول في الإسلام بكل ما يترتّب عليه من واجبات مثل الخدمة العسكرية في الجيش النظامي وفقاً لما سبق أن طالبت به الحكومة عدة مرات من قبل، وقد ترك عمر باشا لشيوخ اليزيديين مهلة وجيزة لتدبر الأمر، ولما انقضى الأجل أمر بإحضار مجموعة من أعيان اليزيديين من أهل سنجار وجبل

---

(١) يقدّم لايارد الذي رافق الباشا أثناء حملته شرحاً مفصلاً عن هذه الأحداث في كتابه- نينوى وبقاياها ، المجلد الأول، ص ٣١٠ وما يليها .

(٢) قارن لايارد - نينوى وبابل ، ص ٣.

(٣) قارن باري في المرجع المذكور، ص ٣٧٢- ٣٧٣. وليدزبارسكي في المرجع المذكور، ص ٥٩٢ وما يليها.

الطور إلى قصره في الموصل، لأنهم أعلنوا أن الموت أحب إليهم من التخلي عن ديانة آبائهم فقد أمر بإعدامهم رمياً بالرصاص ودفنهم في قبر جماعي.

موقع اليزيديين في تاريخ الشعوب

أعلن ابن عمر باشا بعد ذلك مباشرة حرباً حقيقية على اليزيديين، كما أثار" الفريق" في الوقت نفسه الأكراد المسلمين والشمر وبقية القبائل البدوية المجاورة على هذه الطائفة المسكينة التي تعرضت إلى هجوم وحشي سواء في جبل الطور أو في سنجار، من طرف أعدائهم الذين كانوا يعلمون أن الحكومة تساندهم في ذلك، وقد لجأ اليزيديون إلى القناصل الأوروبيين ورجال الدين المسيحيين في الموصل يطلبون منهم الحماية، فوجّه هؤلاء بدورهم إلى القسطنطينية شكوى ضد عمر باشا وساندهم في ذلك عدد من كبارالموظفين الأتراك، وبناء على ذلك تمّت إقالة عمر باشا[1] بعد مدة قصيرة في ربيع سنة ١٨٩٣، و يبدو أن هذا الأخير أصدر أمراً غريباً يتمثل في ذكر اسمه إلى جانب اسم السلطان أثناء الخطبة في مساجد الموصل، وقد هدأ العداء تجاه اليزيديين قليلاً ليعود من جديد إلى الاشتعال، خاصة أن هؤلاء امتنعوا عن دفع الجزية المتخلفة، وقد حدث ذلك تماماً في الوقت الذي كنت في بلاد ما بين النهرين، وبدأت الحامية الموجودة في الموصل حملة جديدة على سنجار، وأيقن اليزيديون الشماليون أن حرب إبادة تامّة تهدّدهم هذه المرة؛ ففرّوا تحت ضغط الأكراد المسلمين الجديد عبر دجلة وبراري بلاد ما بين النهرين إلى سنجار، لينضمّوا إلى إخوانهم في الدين ويشكلوا معهم خطوط دفاع مشتركة، وفي الطريق حدثت لهم بطبيعة الحال اشتباكات متواصلة مع البدو، كان الحظ فيها يحالفهم تارة ويتولى عنهم طوراً.

كان من السهل التنبؤ بنتيجة الصراع الذي تواصَل عدة أسابيع بعد مغادرتي لبلاد ما بين النهرين، فقد دافع اليزيديون عن أنفسهم دفاعاً مستميتاً، إلا أنهم انهزموا أمام القوة السّاحقة التي تواجههم، وعندئذ عاد الباب العالي من جديد إلى الترفّق بهم، وقنع بجزء من الجزية المتخلفة، وقد أصبح الوضع اليوم مستقراً وهادئاً في سنجار وفي مناطق اليزيديين الأخرى، ويبدو أن اليزيديين استطاعوا المحافظة على حرياتهم السابقة.

(١) يقدم باري في المرجع المذكور، ص ٢٥٢ وما يليها، بناء على أقوال رجل مسيحي من الموصل اسمه شماس، يقول عنه هو نفسه: إنه مصدر غير موثوق، يقدم صورة فيها كثير من المبالغة عن المواقع الدامية التي تسبب فيها " الفريق" ويرتكب خطأ مستمراً بتسميته "عصمان باشا".

إن تحديد أصول جنس اليزيديين غير معروف إلى الآن، ومن المحتمل أن يكونوا على قرابة مع الأكراد، إذ يبدو أن قبيلة كردية تحمل اسم دوزان تعيش بالقرب من سليمانية[١].

ديار اليزيديين في سنجار

يتكلم اليزيديون في شمال الموصل و" سنجارلي" اللغة الكردية، وليس غريباً أن نجد بين اليزيديين بعض بقايا الشعب الآرامي الذي كان يعيش في بلاد ما بين النهرين والجبال الكردية المحيطة بها، والذي نجد بقايا غير مختلطة منه خاصة بين النسطوريين، ومن الأدلة على هذا القول قرب الديانة اليزيدية من تعاليم الحرّانيين القدامى. إننا نجهل تماماً متى استوطن اليزيديون جبالَ سنجار، أو أن سكانها الأصليين لم يتغيروا أبداً، وعلى كل حال فإنه يبدو أن سنجار يساعدهم بالمحافظة على الهوية المميزة للعائلة، ونمط حياتها طوال قرون من الزمن تماماً كما هي الحال بالنسبة لجبال كردستان، ونجد في القرن الثاني عشر والثالث عشر للميلاد سلالة الأتاباي في سنجار[٢] [١١٧٠ – ١٢٢٠] وقد خلفتها في الحكم سلالة الأيوبيين إلى أن جاء التتار ودمّروا آسيا الصغرى أيّما تدمير، أما بعد ذلك فيبدو أن سنجار اشترك في المصير مع الموصل ونصيبين وماردين ومناطق بلاد ما بين النهرين المجاورة التي أصبحت سهولاً مقفرة، وأن اليزيديين أرغموا على أن يصبحوا أكراداً فانتقل الجزء الذي يقيم في جبل الطور منهم هرباً من الاضطهاد إلى سنجار المقفر الذي يسهل الدفاع عنه، مثلما حدث لجزء من الدروز في لبنان في القرن الماضي ومؤخراً في حوران، حيث اضطروا إلى تأسيس موطن جديد لهم.

يبدو أن مجموع قرى اليزيديين في جبال سنجار يبلغ خمساً وعشرين قرية، وقد أخبرني صديقي القنصل الألماني في بغداد السيد ريشارتس أن هذه القرى تحتوي بيوتاً من الطين مغطاة بنسيج من الأغصان، ويبدو أن هذه البيوت تضم غرفة كبيرة واحدة ، نصفها غائر في الأرض، تستعمل لجميع الأغراض، كما أنها تمثل المطبخ وموضع النوم في الوقت نفسه، وتحمل السقف جذوع أشجار معوجّة في كثير من الأحيان وغير معالجة، وتقوم أحواض من الطين مقام الصناديق والحقائب، فتوضع فيها جميع أدوات المنزل، وإذا غادر جميع السكان أو بعضهم قرية يزيدية لفترة معينة بحثاً عن المراعي لمواشيهم، فإنهم يغطون الباب الوحيد للبيت بالطين

(١) قارن لايارد – نينوى وبقاياها ، ص ١٦٣، لكن السيد دي غويه لفت نظري إلى أن الاسم يعود إلى جبل " دازن" . قارن هوفمان – مختارات، ص ٢٠٦ ولذلك ينبغي أن نكتب "دازيني".

(٢) قارن ستانلي لاين، بول – السلالات المسلمة، لندن ١٨٩٤، ص ١٦٣.

فيصبح على هيئة الجدار، ونجد في العادة أن قرى اليزيديين في سنجار معلقة على جانب الجبل وكأنها أوكار طيور جارحة، ويصعب التعرف عليها من بعيد؛ لأن لونها لا يختلف في شيء عن لون الصخور المحيطة بها.

وصلنا إلى خط الفصل بين دجلة والفرات عندما بلغنا الأرض المرتفعة التي التقينا فيها برجال من قبيلة جحش.

مفترق مجاري دجلة والفرات، خان الصوفية

غادرت القافلة الموقع الذي كنا قد نزلنا فيه عند الساعة السابعة من صباح اليوم التالي تحت حماية رجال قبيلة جحش، أما نحن فقد غادرنا الساعة الثامنة وأربعين دقيقة وتوجّهنا إلى الجنوب الشرقي متبعين سيل السويدية، ووصلنا الساعة العاشرة والنصف إلى مصب مجرى مياه صغير في الجدول، وبالقرب من هذا المكان تل يسمى الخان، يشير اسمه إلى أن هضبة الركام هذه تواري بين أنقاضها خاناً يرجع عهده إلى أزمنة ماضية، كان قد اختفى من وجه الأرض دون أن يترك أي أثر، ومررنا الساعة الحادية عشرة والربع على يميننا بهضبة أخرى يوجد عندها سيل آخر يحتوي مياهاً، ويحمل هذا المكان اسم الصفية، وعبرنا الحادية عشرة والنصف والحادية عشرة وأربعين دقيقة والحادية عشرة وخمسين دقيقة مجاري جافة، وعبرنا الساعة الثانية عشرة وعشرين دقيقة نهر السويدية في موضع عميق دون أن يكون عريضاً، وتسلّقنا هضبة حادة على الضفة اليمنى ولكنها قليلة الارتفاع، أبصرنا فوقها على يمين الطريق الواضحة من هذا المكان بقايا جدران أثرية يطلق عليها الأكراد اسم خان التختك، ويسمّيها العرب خان الصفية، وتسلقت الجبل لأفاجأ بوجود بقايا مبنى كبير فوقه يتكوّن من أربعة جدران تكتنف ساحة مستطيلة قياسها ١٩ في ٢٣ خطوة، وعند أحد الجوانب الأقل طولاً خمسة تجويفات يبلغ عرض الأوسط منها قرابة أربعة أمتار وعرض التجويفين على جانبيه نهاز متر واحد وعرض تجويفي الطرفين مترين ونصفاً تقريباً، وكان عمق جميع التجويفات قرابة مترين ونصف، ويقع عند الجدار الخلفي المتداعي ممرّ ذو سقف مقبّب عرضه قرابة متر ونصف، عند نهايته آثار واضحة لدرج يقود إلى التجويف الأخير، ويدلّ على أن جزءاً من المبنى على الأقل كان في السابق يتكوّن من طابقين، ويستطيع المرء النظرَ من الممر إلى داخل أجزاء قباب التجويفات، أما جزء المبنى الذي يقع خلف الممر فلم تكن معالمه واضحة بناء على ما تبقّى من أكوام الآجرّ والأنقاض، إلا أن عدداً كبيراً من بقايا جدران أخرى كان يشير إلى أن قرية كانت

قائمة في هذا المكان فيما سبق من العهود، وواصلنا طريقنا في اتجاه الشرق وما لبثنا أن مررنا بآبار لا شك أنها تابعة للقرية التي سبق ذكرها، و لم أستطع أن أحصل من رفاقي ولا من الأبحاث التي أجريتها لاحقاً على معلومات عن هذه المدينة القديمة، والمبنى الكبير الذي لا يزال قائماً فيها، وربما كانت قلعة لأمير عربي أو كردي كان يسيطر في هذا المكان على الطريق من قلعته المنيعة، أو ربما كانت بقايا لمبنى من عهد الساسانيين .

في قرية حاوي زمّار

واصلنا الساعة الواحدة والنصف طريقنا، ومررنا بعد ذلك بخمس دقائق بمجرى جافّ، وعبرنا الساعة الواحدة وخمسين دقيقة مجرى جافاً آخر، وعند الساعة الثانية وخمس عشرة دقيقة عبرنا مجرى يحتوي المياه، ووجدنا أنفسنا في الثانية وعشرين دقيقة فوق مرتفع استطعنا منه أن نشاهد الجبال الأمامية على الجانب الأيمن لنهر دجلة، والتي هي امتداد لسلسلة جبال قره جوك التي تمتد على جانب النهر حتى الموصل في شكل سلسلة جبال منخفضة جانبية، حيث انقطعت الطريق، فقد كان علينا أن نواصل النزول من المرتفعات معتمدين على الحظ، ووصلنا الثالثة وخمساً وأربعين دقيقة إلى سيل السويدية الذي أصبح الآن على جانبنا الأيسر، وكانت المناظر الطبيعية خلابة في هذا الموقع؛ فقد كان الجدول المنحدر من سلسلة الجبال يشكل وادياً واسعاً تحفّ به من الجانبين سلاسل من الجبال الشامخة، ويتكوّن الجدار الجنوبي من صخور حمراء تتراكم عليها قوالب كبيرة من الترسّبات. عبرنا من جديد النهر الذي بدأ يزداد عرضاً وتبعناه حتى مصبّه في نهر دجلة، حيث يكوّن ما يشبه الدلتا، وانتهت فجأة سلاسل الجبال التي تحتضن النهر ودخلنا في سهل دجلة عند الساعة الرابعة، ووصلنا بعد ذلك بربع ساعة إلى قرية كردية تقع عند بداية دلتا السويدية على هضبة صناعية تغطي بلا ريب أنقاض مدينة قديمة، كانت القرية تتكوّن من مجموعة من الأكواخ الطينية، وكنّا نرى مرتفعات أخرى ضمن منطقة مصب النهر، وتحمل هذه القرية اسم حاوي زمّار، وقد كانت في هذا المكان في العصور العربية الوسطى قرية ذات أهمية معتبرة تسمى كفر زمار(١)، ولما وصلنا إلى قرية كردية كبيرة أخرى في اتجاه الشمال، وتقع مباشرة عند نهر دجلة، وتتكوّن من مجموعة من الخيام والأكواخ المصنوعة من الحصائر، حططنا رحالنا كي نأخذ قسطاً من الراحة.

(١) قارن هوامش دي غويه في نهاية هذا الفصل.

كان سكان القرية يتميزون ببنية قوية ضخمة، وكان بعض النساء على جانب كبير من الجمال، وكان منزل رئيس القرية " الآغا " الذي يدعى عمر المصطي يشمل مبنى يتركّب من عدة بيوت مصنوعة من الطين، وتقع غرفة نوم الشيخ وعائلته في الطابق العلوي فوق هيكل مصنوع من القضبان والطين. أقيمت على شرفنا مأدبة وضعت على خِوان يتكون من زرابيّ طويلة قليلة العرض، على هيئة " المشّاية "، مدت أمام منزل الشيخ بعدما بسطت لها الأرض، وجثم الحاضرون على هذه الزرابيّ وراحوا يتناولون الطعام من صحاف وضعت وفقاً لترتيب يتكرر بانتظام، حيث تحتوي الأولى على اللحم الذي يحبّه الأكراد حباً جماً، وتحتوي الثانية على الأرز، والثالثة على الخضروات، والأخيرة على الحلوى، وكانت الأصناف كلّها دسمة وشهية، وعند الغروب أدى الأكراد الصلاة بإمامة الشيخ، وكان ذلك دليلاً على ورع تندر ملاحظته عند البدو، وقد بدا لي أن منخفض دجلة شديد الخصوبة في هذا المكان المناسب لموقع قرية أو تجمع سكني كبير.

وبالقرب من القرية موضع يكثر استعماله لعبور نهر دجلة، ويقول الأكراد: إن عند جبال قره جوك على مقربة من هذا المكان موضعَي آثارٍ متشابهين، أحدهما على مسافة ساعتين من القرية وساعة ونصف من نهر دجلة، ويسمى الجزرونية ويقع على قمة جبل، ويحتوي على بقايا مدينة قديمة، ويبدو أن بعض القباب وخاناً وحمّاماً ما يزال في حالة جيدة، والموضع الآخر يسمى سحيل ويقع على مسافة أربع ساعات من حاوي زمار وساعتين من النهر. وقد وصف لي الأكراد طريقاً من جزيرة ابن عمر إلى الموصل تشتمل على أربع مراحل، الأولى عند جدول صافان، وهو رافد لنهر دجلة، على مسافة نصف ساعة شمال بيش خابور " فيشابور"، يبدو أن بعض الآثار الصغيرة تقع بالقرب منه، والثانية هي حاوي زمار، والثالثة أسكي موصل، والرابعة الموصل .

غادرت القافلة حاوي زمار الساعة الخامسة والنصف صباح اليوم التالي، أما نحن فتبعناها عند الساعة السادسة والنصف في اتجاه الجنوب مع شيء من الانعراج إلى الشرق، وبينما نحن نقطع السهل مررنا الساعة السابعة بمخيم للجبور يضمّ ثلاثين كوخاً، وتولّينا الساعة السابعة والربع عن النهر وبدأنا في الصعود، و عبرنا الساعة الثامنة رافداً من روافد دجلة كان خالياً من الماء واسمه شعيب الكهاف، وعدنا الآن إلى السير في اتجاه الجنوب والجنوب الغربي ودخلنا شيئاً فشيئاً في الصحراء، وهنا مررنا على يميننا بالأولى من هضبتين قيل لنا: إنهما تسميان تلول

الكهاف[١]، وعبرنا بعد ربع ساعة الجدول نفسه ثانية ومررنا بالهضبة الثانية، ووصلنا الساعة الثامنة وخمساً وعشرين دقيقة إلى مفترق طرق، أخذنا الطريق اليسرى في اتجاه الشرق مع انحراف بسيط إلى الجنوب، أما الطريق التي تركناها إلى اليمين فكانت تتّجه إلى الجنوب الغربي صوب عوينات " الينابيع الصغيرة ".

جبل عين زالة، لقاء في الصحراء

كانت الأرض طينية إلى هذا الحين، أما الآن فقد أصبحت تحتوي على الجبس والمعادن الثقيلة، ودخلنا الساعة الثامنة والنصف منطقة هضاب جبل عين زالة الذي يكتنف الضفة الجنوبية لنهر دجلة قبل أن يضطر النهر إلى تحويل مجراه إلى اتجاه الشرق والشمال الشرقي في مجرى متعرّج بسبب الكتلة الضخمة لجبل البطمة، وظللنا نشاهد سلسلة جبال عين زالة مدة تقارب ساعة ونصفاً، وهي سلسلة تبدو خلفها آثار لقرى مندثرة، وبدأنا الساعة الثامنة وأربعين دقيقة في النزول حتى بلغنا الساعة التاسعة نبع عين زالة التي تقع في منخفض عميق وتحتوي على ماء صافٍ صالح للشراب، ويتّحد سيل هذه العين مع جداول تل موس، وأبو مريا، والمرير، والحقنة، وطشته، ليصبّ تحت اسم أبو مريا في نهر دجلة عند شمال إسكي موصل، وأبصرنا الساعة التاسعة والنصف بعيداً في اتجاه الجنوب الغربي جبل عفر الذي يشكل الامتداد الشرقي لسنجار.

التقينا بعد ذلك بقليل برجال يرتدون ملابس خفيفة ولا يحملون سلاحاً، ويبدو من ملامحهم أنهم أكراد كانوا قد أشرفوا على الهلاك من شدة العطش، وتوسّل الرجال إلينا في طلب الماء، وأخبرونا أنهم قدموا من الموصل، وضلّوا الطريق بعدما سلبهم بعض البدو جميع أمتعتهم وركابهم ومائهم، فأرشدناهم إلى الطريق المؤدية إلى عين زالة، ولكنهم ما كادوا يغادروننا حتى ساور رفاقي خاطر أنهم قد يكونون يزيديين فشلوا في الهجوم على قرية بدوية، وفرّوا طالبين النجاة من الموت، وفجأة انطلق الشمر والضابطية التابعون لمدير شدّادة وبقية العرب خلف أولئك المساكين والبنادق في أيديهم، وهم عازمون على قتلهم دون شفقة إذا ثبت ظنهم، فاندفعت وراءهم لمنع سفك الدماء إذا استطعت، وأوشك الفزع أن يودي بحياة الرجال العزّل حينما أدركناهم، فوقفوا يرتجفون وأيديهم فوق رؤوسهم أمام مطارديهم الذين راحوا

(١) لم أتمكن من معرفة سبب تسمية شعيب الكهاف، وتلول الكهاف، لم نعثر على كهوف في أي مكان .

يستجوبونهم بحدّة حول ديانتهم وحول محمد ﷺ وعلي والحسن والحسين، ولم يوافق المطاردون على إخلاء سبيلهم إلا بعدما نطق كل واحد منهم بالشهادة، وأقسم على القرآن أنه مسلم حقاً.

غادرنا الساعة العاشرة طريقنا التي كانت إلى هنا واضحة المعالم بسبب العديد من آثار الأقدام، وتوجّهنا لزيارة مدينة أثرية تسمى أبو وجنة، تقع إلى اليسار في اتجاه الشرق والشمال الشرقي عند سفح جبل البطمة، وكان رفاقي قد تحدثوا كثيراً عن هذه المدينة الأثرية، غير أنه لم يزرها أو يذكرها أي أوروبي إلى اليوم . عبرنا الساعة العاشرة وعشرين دقيقة جدولاً جافاً.

اكتشاف آثار أبو وجنة

وصلنا الساعة العاشرة وخمس وأربعين دقيقة إلى القرية الحديثة أبو وجنة التي كانت تتكوّن من أكواخ من الطين يقيم فيها السادة، وينسب هؤلاء السادة أنفسهم إلى الحسين ابن الإمام علي، غير أنهم رغم نسبهم الشريف كانوا فلاحين بسطاء يعملون في صناعة النواعير، وكانت مهمتهم الأساسية تتمثل في العمل في مزرعة تابعة للسلطان وتقع على مقربة من النهر. وتكثر هذه الممتلكات التابعة للسلطان، والتي تسمى الأراضي السنية[١] عند نهر دجلة، ويعمل فيها خاصة بدو من رجال الجبور الذين لا يدفعون إلى خزينة المزارع إلا ١٥٪ من قيمة المحاصيل.

تقع قرية أبو وجنة على المنحدر الجنوبي لجبل الجوري وهو امتداد لجبل عين زالة ويأتي قبل جبل البطمة، وقد ظهرت لنا آثار خلف جبل الجوري، وأبصرنا على قمة جبل البطمة بقايا الدير التي تبدو في حالة جيدة، ويرجح أن يكون هذا الدير هو نفسه القلعة التي رسمها مولتكه على خريطته[٢]، ويقع جبل تل موس جنوب شرقي أبو وجنة، وجنوب جبل البطمة الذي يمتد من هنا في اتجاه الجنوب الشرقي، وينبغي أن يكون موقع آثار الجصّة وراء ذلك في اتجاه الجنوب الشرقي من موقعنا، ويمتدّ جبل قصير الشريّج جنوب غربي جبل تل موس من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وقد ذكر لي رفاقي وجود آثار أخرى في هذا المكان غير التي سبق ذكرها كما يلي: تقع بين حفنة وتل عفر آثار قصير الشريّج[٣] التي تعطي اسمها إلى الجبل الذي تقع

(١) قارن فيما يلي الفصل ٦، ص ٢٢٢ .

(٢) قارن مولتكه في المرجع المذكور ص ٥٠٦.

(٣) يعتقد نيبور أنه رأى ديراً قديماً، المرجع المذكور، ص ٣٠٧.

عليه، ثم تأتي العوينات، ويقع بينها وبين قلعة رميلان تل الهوة في موضع أقرب إلى الأولى، وعلى مسافة ثلاث ساعات من الأخيرة.

وتقوم الأكواخ الحديثة لقرية أبو وجنة فوق ميدان واسع من الأنقاض ترتفع منه عدة هضاب ركامية متفاوتة الارتفاع، و تكتنف ذلك كله مرتفعات جبل البطمة من الغرب والشمال والشرق على هيئة نصف دائرة، لتشكل مشهداً رائع الجمال.

في المدينة الأثرية أبو وجنة

توجد آبار عديدة على مقربة من القرية الحالية يبدو أنها ضاربة في القِدَم، ولا يزال بعضها إلى اليوم في حالة جيدة، وعلى مسافة قليلة في اتجاه الشرق تشرف هضبة ركامية كبيرة شاهقة على ميدان الأنقاض هذا، وعلى قمّة الهضبة - إلى جانب عدد كبير من قبور البدو- قبر تغطيه قبة ويثوي فيه رفات شيخ يدعى موسى ويعرف عادة باسم الشيخ أبووجنة، وقد عثرت في ميدان الأنقاض على بقايا جدران مختلفة الأنواع، وعثرت في بعض الأماكن على أقواس وغرف، وأجزاء كاملة من المنازل التي كانت بارزة على وجه الأرض، وقد كانت الغرف في الغالب مقسّمة إلى شقّين بواسطة أقواس، ومغطاة بسقف فيه شيء من الانحناء، وتتمثّل بقايا مواد البناء في معظمها في أحجار قائمة من نوع الجبس، تشبه تلك التي لاتزال تستعمل في المَوْصِل إلى اليوم، وقد فوجئت بالعثور على بقايا مسجد رائع، تشهد بالماضي المجيد لهذه المدينة التي توارت اليوم تحت الأنقاض، على الجانب الجنوبي الغربي للهضبة التي يكللها قبر الشيخ أبو وجنة.


Zengiden-Münze, gefunden in der Ruinenstadt Abū Waǧne.

عملة من العهد الزنكي تم العثور عليها في أنقاض أبو وجنة

لايزال المنبر الجميل وعدد من أعمدة الرخام الأبيض في حالة جيدة، ويبدو أن استعمال المسجد استمرّ حتى بعد تداعي المدينة، وقد وجدت آثاراً واضحة لترميمات متأخرة، غير أنني لم أعثر على كتابات في المسجد ولا بقية الآثار، وكانت التحفة الوحيدة التي عثرت عليها قطعة نقدية نحاسية وجدتها بين الأنقاض، وقد صكّت في الموصل في القرن الثالث عشر على يد السلطان الزنكي لولو.

وترجع آثار أبو وجنة إلى القرون الوسطى العربية بلا ريب، وهي بقايا مدينة كان يعيش فيها عدد من السكان يتراوح بين ٢٠٠٠٠ و ٣٠٠٠٠ نسمة[١]، إلا أن هذه المدينة قد اندثرت، وطوى النسيان اسمها، وأحسب أنها قد تكون المدينة العربية القديمة باعيناطه[٢]؛ وبعدما استضافنا الأعيان من فلاحي أبو وجنة، وقدّموا لنا حليب الماعز والخبز، غادرنا أكواخهم المضيافة الساعة الثانية بعد الظهر في اتجاه الجنوب والجنوب الشرقي.

تل موس

وصلنا في الساعة الثالثة إلى تل موس[٣] عبر مرتفعات صغيرة، وهو هضبة ركامية منعزلة على شكل كروي مفلطح تقع عند طرف براري سنجار والمرتفعات التي تفصلها عن دجلة، وينحدر التل بشدة نحو الشمال وكأنه يتداعى في ذلك الاتجاه، وفوق هذا التل حصن شيّده حاكم يدعى أموراد " مراد " باشا حسب قول أينزوورث[٤] لحماية الطريق ضد بدو أسكي موصل، وقد قيل لنا: إن والي الموصل شيّد قلاع تل موس وجبل الشريّج والحقنة أو أعاد بناءها بأمر من السلطان في بداية الثمانينيات، وقد تم إيواء شيوخ القبائل الخاضعة للحكومة في هذه القلاع لاستعمال رجالهم في المحافظة على أمن الطريق الرابطة بين الموصل وطور عابدين، والتي كانت سمعتها سيئة جداً، ويبدو أن القلعتين الأُخرَيين قد أصابهما الانهيار اليوم على غرار قلعة تل موس، إلا أن بقايا مهمة لا تزال قائمة إلى اليوم من قلعة تل موس. ويتكون الطابق الأرضي للمبنى الرئيس من أربع حجرات مقببة وقليلة الارتفاع - وفوق ذلك - في الطابق

(١) لاشك أنه لم يبق إلا آثار المنازل الجيدة في حين أن جزءاً من السكان كان يعيش في أكواخ من الطين، كما هي الحال اليوم في الموصل وفي قرية أبو وجنة الحديثة، وقد اندثرت هذه الأكواخ و لم يبق من آثارها إلا الأكوام البارزة فوق أديم الأرض.
(٢) قارن هوامش دي غويه في نهاية هذا الفصل.
(٣) يسجل أينزوورث على خارطته " تل موش "، قارن المرجع المذكور، ص ١٢١. ويذكر ريتر نقلاً عن دوبري في المرجع المذكور المجلد ١١، ص ٤٢٧ وما يليها " تل ماش".
(٤) في المرجع المذكور، ص ١٢٢.

الأول، غرف مقسمة بالطريقة نفسها يبلغ ارتفاعها مترين ونصفاً وطول أضلاعها بين ثمانية وخمسة أمتار، ويستند إلى المبنى الرئيس بناء آخر يقع في الجانب الشمالي للقلعة، ولا يزال في حالة جيدة يكاد يكون تاماً، وكذلك الحال بالنسبة للجدار القائم في الطرف الغربي والمكوّن من أقواس، وقد صنعت الجدران من حجارة رُصّت إلى بعضها بعضاً بواسطة مادة رمادية اللون تشبه خليط الإسمنت، وعلى بُعد بضع دقائق من القلعة يجري جدول صغير ينقسم إلى عدة فروع، ويحرك ماؤه طاحونة كانت لا تزال في حال جيدة عند مروري بهذا المكان، ويبدو أن هذه الطاحونة قد استحوذ عليها سكان تل عفر في الفترة الأخيرة مستعملين في ذلك القوة والحيلة، وكان الأكراد قد نصبوا حول التل حيّا كبيراً من الخيام وأكواخ الحصائر، وكانوا قد أخذوا عن العرب طريقتهم في اللباس بحكم التعايش معهم على مدى سنين طويلة، واستقبلنا الابن الأكبر لشيخ القرية، أما الشيخ سعدون الجرجري نفسه الذي يدعي أنه بلغ من العمر مائة سنة، فقد كان طريح الفراش في كوخ جانبي مستسلماً في عجز تام إلى عناية ابنته، ولأنه أحد الأحماء العديدين للشيخ فارس فإنه لا يدفع الخوة للشمر، قد سبى فتاة يزيدية متميزة من بنات الأعيان أثناء الهجوم على قرية سنجار منذ مدة وجيزة، وتجهل عائلة الفتاة ما إذا كان المختطِف قد تزوج السبية أم أنه قد ضمها إلى خدمه، وتعيش الفتاة حالياً مع جملة نساء والدة المختطِف في حقنة، حيث تجري المحاولات لإدخالها في دين الإسلام.

واصلنا سيرنا الساعة الرابعة وخمساً وأربعين دقيقة بعد استراحة قصيرة، وعبرنا الساعة الخامسة وعشر دقائق الجدول الصغير الذي يسمّى عين الحلوة، وعند الساعة الخامسة وخمس عشرة دقيقة كان تل الحقنة البارز وسط البراري على الجانب الجنوبي الغربي[1] من موقعنا، وقد أصبح اتجاهنا الآن إلى الجنوب مع ميل بسيط إلى الشرق، وبعد مدة وجيزة زاد انعطافنا إلى اليسار في اتجاه الشرق، وبلغنا هضبة منبسطة وتسلقنا المرتفع الذي تنتهي به الهضبة إلى دجلة، ولا تستطيع الجداول النابعة من الجانب الغربي للهضبة أن تشق طريقها إلى دجلة، بل إنها تجري جميعاً حذو سفح الهضبة، وتتوحّد مع أبو مريا القادم من جبل المهلبية الذي تشتد بذلك غزارة مياهه؛ فيتمكن من النفوذ إلى نهر دجلة، و تبعنا هذا المعبر عبر الجبال حتى بلغنا الساعة السابعة على الجانب الأيمن من طريقنا، وعلى بُعد بضع دقائق من دجلة وجدنا جسراً عظيماً يتركب من قوس واحد يزيد طول قطره على عشرين متراً لكن عرض الجسر الصخري لا يزيد على متر

(١) يبدو أنه توجد بقايا جدران متداعية في هذا الموضع أيضاً. قارن نيبور في المرجع المذكور، ص ٣٠٧.

ونصف، ويعتبر بداية للمنطقة الأثرية إسكي موصل، ويقوم - على مقربة من الجسر على الضفة الشمالية لجدول أبو مريا - حصن صغير قوي، و يتفرع الجدول مباشرة قبل أن يصب في نهر دجلة إلى مجاري عديدة عبرناها جميعاً، ووصلنا إلى مخيمنا الساعة الثامنة وعشر دقائق، وكان المخيم عند طرف الجنوب لمنطقة الآثار على مصطبة رملية عند مجرى نهر دجلة الذي أصبحت مياهه قليلة جداً، وكانت الدواب التي تحمل متاعنا قد استغنت عن الزيارة التي قمنا بها إلى أبو وجنة، وتوجّهت مباشرة إلى تل أبو موس؛ وتمتعنا في الليل - كما سبق لنا في عديد المرات - بالمشهد الرائع لحريق في البراري كان قد شبّ فوق المرتفعات القائمة على الضفة المقابلة من نهر دجلة(١).

آثار إسكي موصل

أرسلنا قافلتنا في اليوم التالي إلى الموصل مباشرة في حين ذهبنا نحن للاطلاع على آثار إسكي موصل، وهنا أيضا تركت حقبتان من الزمن أثراً واضحاً في هذه الربوع، فأما الأرض التي أصبحت فجأة متموّجة وسط سهل دجلة والهضبة الركامية المرتفعة شمال ذلك فتشيران إلى مدينة مندثرة ترجع إلى عهود غابرة، ويوجد فوق ذلك جزئياً حقل آخر من الأنقاض يمتد على مسافة نصف ساعة، وتبرز في عدة أماكن منه أقواس وبقايا جدران، وبيوت تشبه تلك التي رأيناها في أبو وجنة، وتشير المساجد المتعددة الكبيرة الحجم التي لا تزال جدرانها الأساسية قائمة - كما هي حال مبانٍ أخرى- إلى أن مدينة إسلامية كانت تقوم في هذا الموضع، ويرجّح أن تكون مدينة البلد الشهيرة(٢)، وقد كشف لايارد(٣) أثناء جولة الحفريات الثانية التي قام بها من الموصل عن قبور وأنفاق في إحدى الهضاب الأثرية الكبرى في إسكي موصل دون أن يعثر على شيء يلقي أضواء على تاريخ المنطقة(٤)؛ وتعني التسمية التركية " إسكي موصل" الموصل القديمة، ويبدو أن هذه المدينة ظهرت بعد اندثار المدينة التي كانت قديماً ذات أهمية كبرى وذهب اسمها الأصلي طيّ النسيان، تماماً كما هي حال مدينة أبو وجنة، وبعض المدن الأخرى التي عرفت ذات يوم ازدهاراً منقطع النظير في بلاد ما بين النهرين، وفوق أعلى هضبة من حقل

---

(١) لاحظت في المغرب أيضاً أن جذور القش تحرق لتسميد الأرض، أما في البلاد العربية فإن القرى الفقيرة تحرق الحقول المجاورة لها حتى لا يجد اللصوص البدو فيها مرعى لأنعامهم.
(٢) قارن ريتر في المرجع المذكور المجلد ١١، ص ١٦١ وما يليها.
(٣) في المرجع المذكور، ص ٢٥.
(٤) قارن نيبور في المرجع المذكور أيضاً، ص ٣٠٦ وهوامش دي غويه في نهاية هذا الفصل.

الآثار الواقع في شمال المدينة على مقربة من دجلة، والذي يتكون جزئياً من صخور طبيعية، يقوم مبنى كبير حديث ومربع الشكل تحفّ بجوانبه البروج، ويؤدي المدخل الوحيد للمبنى عبر بوابة كبيرة إلى فِناء كبير تنفذ إليه مساكن طابقين اثنين كانت تقيم فيهما في زمن زيارتي - إلى جانب بعض الضابطية- عائلات من الفلاحين الذين يعملون في الحقول المجاورة التي يملكها أصحاب المبنى الذين هم أغنياء مسلمون من الموصل، وتقيم بعض العائلات القليلة في أكواخ قريبة من دجلة، وكانت هذه العائلات بصدد جني محاصيل البطيخ وتحميلها للنقل بحراً، وتنمو هذه الثمار في حقول تبدو شديدة الخصوبة، وتقع عند المصب الذي يرويه نهر أبو مريا، وتقوم إلى جانب الحصن بعض البيوت الأخرى التي يبدو أنها غير مسكونة، كانت قد شيدت باستعمال بقايا مواد بناء المدينة القديمة، وفي الطرف الجنوبي لحقل الآثار مقبرة إسلامية قديمة، وكان إلى جانب عدد من القبور الكبيرة المندثرة قبر ذو قبة يجلب الأنظار، ويبدو أنه تمّ ترميمه في وقت لاحق، إلا أنني لم أعثر للأسف على أية كتابة في هذا المكان .

غادرنا الجدران الخارجية لإسكي موصل الساعة الثامنة وخمسين دقيقة، وتسلقنا طرقاً صخرية متبعين الضفة اليمنى لجدول صغير جافّ لكنه يحتوي على مياه غزيرة في الشتاء، واتجهنا إلى الجنوب صوب المرتفع الجبلي، وأبصرنا الساعة التاسعة وخمس عشرة دقيقة قرية من الخيام تسمى تومين - التوأم - تسكنها مجموعة من الجبور الذين وجدوا قليلاً من المراعي لحيواناتهم في حقول لا تزال فيها بعض جذور النباتات في هذه الجبال المتصدعة.

على سلسلة الجبال المتاخمة لدجلة

وبلغنا الساعة التاسعة وخمساً وعشرين دقيقة قمة السلسلة الجبلية التي بدأت في الانحدار شيئاً فشيئاً نحو الغرب في اتجاه الهضبة، وعند الساعة التاسعة وخمساً وأربعين دقيقة وجدنا أمامنا عند سفح الجبل، وطرف براري بلاد ما بين النهرين بقايا حصن كبير مربّع الشكل ذي جدران متينة؛ فأخبرني رفاقي أنه الخان دون ذكر أي تفاصيل أخرى عن ذلك، ومن هنا بدأت البراري تنحدر إلى الجنوب في هيئة مدرج، بحيث تبلغ الهضبة الأولى جبل المهيلبية، وتوجهنا إلى الجنوب الشرقي لنلاحظ عند الساعة التاسعة وخمس وخمسين دقيقة من جديد بقايا جدران على طريقنا، وبعد ذلك بخمس دقائق عبرنا وادياً خالياً من المياه، وبلغنا الساعة العاشرة وعشرين دقيقة آثار قرية حديثة قد تكون الحقول الزراعية المجاورة تابعة لها. عبرنا الساعة العاشرة وخمس وأربعين دقيقة من جديد جدولاً جافاً في الوقت الحالي يصبّ في دجلة عند

حميدات(١)، وغادرنا الساعة الحادية عشرة الطريق وقصدنا قرية الأبيثر الواقعة على بعد قرابة نصف ساعة شرقاً، بغية الحصول على الماء لنا ولدوابّنا في هذه الحرارة الرهيبة، وقد كان ماء آبار الأبيثر غير صالح للاستعمال تقريباً، وكان ينبغي على نساء القرية جلب الماء الصالح للشراب من نهر دجلة الواقع على بُعد أكثر من ساعة من القرية، وهنا سمعنا الكثير عن أعمال اللصوصية التي يمارسها الشمر والتي حملت كثيراً من الفلاحين على هجرة ديارهم.

غادرنا الساعة الواحدة والنصف الأبيثر لنعود بعد نصف ساعة إلى طريقنا الأولى، التي انعرجت إلى الشرق عند الساعة الثانية وعشر دقائق، وأبصرنا الساعة الثانية والنصف قرية باديشاه على الضفة اليسرى للجدول الأخير، ووجدنا الساعة الثالثة قرية حميدات التي ذكرناها سابقاً، على الضفة اليمنى للجدول وعلى مقربة من الطريق ودائماً على يسارنا نحن، وتبعنا مجرى الجدول، ونزلنا في زاوية حادة إلى دجلة لنشرب من جديد من المياه العذبة حقّاً هذه المرة. التقينا في حميدات ببعض الأكراد الذين كانوا يرغبون في الذهاب من الموصل إلى الجزيرة متّبعين مجرى النهر كلما سمحت لهم الظروف بذلك، وغادرنا الساعة الثالثة والنصف نهر دجلة من جديد لنتسلق الهضبة مرة أخرى، وعبرنا بعد خمس وأربعين دقيقة من السير الرتيب جدولاً صغيراً خالياً من المياه، ثم شاهدنا قرية وراء نهر دجلة يقيم فيها الأرمن، وبلغنا الساعة الرابعة والنصف مرتفعاً أشرفنا منه لأول مرة من مسافة قريبة على مدينة الموصل التي تربّعت أمامنا على السهل في منظر خلاب، بجدرانها المتينة ومآذنها العديدة والقباب الكثيرة القائمة خارج المدينة. عبرنا جدولاً جافاً ثم صعدنا مرتفعاً صغيراً، ومنه نزلنا الساعة الخامسة إلى نهر دجلة الذي تمر منه الطريق بعدد من الجسور الحجرية نحو الموصل عبر بوابة سنجار التي بلغناها الساعة الخامسة والنصف.

الدخول إلى الموصل

كنا قد أرسلنا القافلة قبلنا إلى المكان المتفق عليه عند الطرف الجنوبي للمدينة، بينما لم نستطع نحن حرمان أنفسنا من دخول المدينة ومشاهدة الشوارع والمباني الثابتة بعد هذه المسيرة الطويلة الشاقة عبر الصحراء، وتقود طريق وعرة من باب سنجار الذي هو برج شامخ مستقل، عبر ميدان أنقاض واقع هنا داخل المدينة، ويتناوب فيه الارتفاع والانخفاض على مسافة

(١) حميدات: هي المكان نفسه المشار إليه على الخريطة بكلمة "أحميدات".

طويلة، ثم مررنا في منعرجات متعددة بأزقة الموصل، وخرجنا من المدينة أخيراً من باب الطوب " المدفع"(١) لنلتحق بقافلتنا وراء مقبرة تقع على ميدان واسع، وهنا حططنا رحالنا وضربنا خيامنا.

رفض رفاقنا من بدو الشمر وطيء رفضاً باتاً الإقامة داخل المدينة، وأصرّوا على نصب الخيام خارج المدينة في الهواء الطلق، وقد كانت هناك أسباب خاصة جعلتهم يتجنّبون الاحتكاك بأهل الموصل في عقر دارهم؛ ذلك أن أحد رفاقي من الشمر كان قبل مدة وجيزة قد أوقف قافلة موصلية كبيرة على مسافة قريبة جداً من المدينة وكان يصحبه رفيق واحد، وعندما رفضت القافلة دفع الضريبة استعمل الرجلان فوراً أسلحتهما فجرحا عدداً من الرجال، فاستسلمت القافلة إلى النهب التام دون أي محاولة للمقاومة، وهذا بطبيعة الحال دليل قاطع على الخوف الشديد الذي يعتري سكان المدينة أمام قسوة البدو، وكان يبدو أن لكل واحد من رجال البدو الذين يرافقونني شأناً وقضية مع أهل الموصل.

كتابات الأستاذ دي غويه
حول الطريق من نصيبين إلى الموصل

أذكر فيما يلي بعض المعلومات التي تفضل بها عليّ الأستاذ دي غويه بخصوص عدة مواقع أثرية بين نصيبين والموصل يرجع عهدها إلى العصور العربية الوسطى.

" يصف ابن خُرداذبه و قدامة الطريق من نصيبين إلى الموصل كما يأتي:

من نصيبين إلى تل فراشه	٤ فراسخ	ست محطات بريد
من تل فراشه إلى أضرمه	٥ فراسخ (حسب قدامة ٣ فراسخ)	ست محطات بريد
من أضرمه إلى برقعيد	٦ فراسخ	تسع محطات بريد
من برقعيد إلى باعيناطه	٦ فراسخ	تسع محطات بريد
من باعيناطه إلى بلد	٦ فراسخ (حسب قدامة ٧)	تسع محطات بريد
من بلد إلى الموصل	٧ فراسخ	ثلاث محطات بريد (ابن خرداذبه ٤)

"عوضاً عن تل فراشه يذكر المقدسي المونسة التي يذكرها أيضاً ياقوت الحموي في الجزء الرابع، ص ٦٩٠، ويسجل أن المسافة بين كل محطتين تبلغ يوماً من السفر، وقد يكون تل فراشه هو تل بريش المذكور على خريطتك، ويقول هوفمان في كتابه - مقتطفات من ملفات سورية

(١) كلمة "طوب" العربية تختلف عن كلمة طوب Top التركية التي تعني " المدفع" .

لشهداء فرس، ص ٢١١، هامش ١٦٧٧، ص ٩٧، هامش ٨٦٥: إن إسكي موصل هي مدينة البلد القديمة، وتقول الأسطورة: إن النبي يونس قد ألقي إلى الشاطئ في هذا المكان.

"بالنسبة لأبو وجنة نجد أن باعيناطه ترادف تماماً بيت عيناطه، وقد كانت هذه المدينة في القرن العاشر مزدهرة، وتشتمل على خمسة وعشرين حيّاً تتخللها حدائق وأنهار - المقدّسي. وقد كانت تقارن بدمشق - ياقوت، وقد توقف الخليفة المعتصم هنا سنة ٢٢٣هـجرية، لما كان عائداً من آسيا الصغرى إلى مقر إقامته في سامراء، وذهب من نصيبين إلى باعيناطه شمال البلد ثم إلى الموصل - الطبري الجزء ٣، ص ١٢٦٥ وما يليها، ويذكر أبو تمام في إحدى قصائده " برقعيد وباعيناطه " كمحطات على الطريق، الديوان، ص ٣١ البيت ٥، يذكره " البكري وياقوت".

ربما ينبغي البحث عن برقعيد في تل رميلان، فهي تقع على بعد١٢ فرسخاً من البلد -أبو الفداء، ص ٢٧٤ الجزء الثاني- و ١٧ فرسخاً عن الموصل، و يعزز هذا القول أن ما ذكره ياقوت- الجزء ٤، ص ٢٨٨ من أن كفر زمار يقع عند ٤ أو ٥ فراسخ شرق برقعيد، وهذا المكان ما يزال موجوداً إلى اليوم، ونجد على خريطتك حاوي زمار شرق رميلان تقريباً على هذه المسافة - كفر = قرية، حاوي = منطقة إدارية، وكانت هذه المدينة مزدهرة غير أن أهلها كانوا من اللصوص - راجع ابن خرداذبه ، ترجمة فرنسية في الفهرس الجغرافي ٥، ص ١٦٤ ولذلك تحولت الطريق تدريجياً عبر باشزا التي تقع حسب ياقوت- الجزء الأول ص ٤٦٨ و ٥٧١ قبالة برقعيد أو قريباً منها، بجوار هضبة وتملك مياهاً جارية، وقد تكون هذه القرية قرية جلاغا التي توجد عندها الهضبة والمياه الجارية على حد سواء .

وقد كانت برقعيد عاصمة ضاحية بقعا التابعة للموصل، وهي مقاطعة ذات قرى عديدة تحتوي جميعها على قباب- بناؤها كلها قباب: ياقوت الجزء الأول، ص ٧٠٢ -[1]، وتقع بين هذه المقاطعة التي توجد برقعيد عند حدودها الغربية ونصيبين، تقع مقاطعة بين النهرين وعاصمتها أضرمة، وكانت هذه المقاطعة تتبع أحياناً دائرة نصيبين وغالباً دائرة الموصل - ياقوت الجزء الأول، ص ١٧٨ و ٨٠٠ وما يليها- وعند برقعيد ألحق ابن أبي الساج هزيمة بإسحاق بن كنداج سنة ٢٧٣هـ، عندما كان هذا الأخير ذاهباً من ماردين إلى الموصل، فاضطر إلى التراجع إلى ماردين - فرايتاغ، مختارات من التاريخ الحلبي، ص ١٠٢. وقد اندثرت برقعيد

(١) [المترجم: هكذا وردت الكتابة باللغة العربية في الكتاب الألماني].

قبل عهد ياقوت، ويقدر ياقوت المسافة من برقعيد إلى الموصل بأربعة أيام -جهان نامه ١٧ فرسخاً- وإلى نصيبين بعشرة فراسخ، فإذا صح هذا فإنني أميل إلى الاعتقاد أن ليلان هي أضرمه القديمة، ويذكر ابن حوقل، ص ١٤٩- الذي يقدر هو الآخر المسافة بين برقعيد وأضرمه بستة فراسخ - ياقوت الجزء الأول، ص ١٧٧يذكر ٥ فراسخ - أن جيشاً بيزنطياً دمّر المدينة قبل ذلك بفترة وجيزة فلم يبق إلا قليل من السكان الفقراء، ويوصف المكان بأنه غير كبير، ويقع في السهل عند أحد الأنهار، ويذكر ياقوت أنه يبعد عشرة فراسخ عن سنجار، وكل هذا يتماشى مع الموقع الذي تسميه على خريطتك ليلان، وإنه من المؤسف أن معظم الأسماء القديمة قد اختفت".

الفصل الخامس
الموصل ونينوى

زيارة إلى والي الموصل، السرايا (١) - فظاظة تاجر مسيحي - الطرقات والمباني في الموصل - سكان الموصل - التمثيل الفرنسي والتمثيل الإنجليزي في الموصل البعثات المسيحية في الموصل - مساجد الموصل - في بازار الموصل - تسوق في بازار الموصل - المقاهي وجسر دجلة - المناطق المحيطة بالموصل ونينوى حفريات في حقول آثار نينوى - سدود نينوى - النبي يونس - هضبة الأنقاض قيونجق - مصنوعات فنية من العهد الآشوري - الحضارة الآشورية - من تاريخ المملكة الآشورية - تاريخ الموصل - أهمّية المدينة الحالية وآفاقها .

بعد وصولي إلى مدينة الموصل مباشرة حضر عدة جنود يقودهم ضابط صف، وكانت مهمتهم تتمثل في حراسة مخيمي، ومرافقتي أثناء إقامتي في المدينة، وقد كانت حراسة المخيم ضرورية؛ لأن كثيراً من الرعاع العاطلين عن العمل يتسكعون خارج المدينة، وينبغي الاحتياط من فضولهم وجشعهم، إضافة إلى ذلك تفرّغ ملازم شرطة لخدمتي ومكّنني لاحقاً من زيارة المساجد في المدينة، وفي اليوم التالي زرت الوالي في مقر الحكومة، وتقع السرايا قرابة كيلومتر جنوب المدينة على ضفة دجلة، وتشكل مع المباني الحكومية الأخرى والثكنة الكبيرة مجمعاً ضخماً من البنايات، ومن بوابة المدافع تقود طريق تحفّها الأشجار إلى القصر، ويمتد على يمين الطريق سهل تستعمله الحامية ميداناً للتدريب، وتقوم على الجانب الأيسر ضاحية تتكون من أكواخ طينية منخفضة يقيم فيها الصيادون وأصحاب مراكب العبور، وتستحق الضاحية سمعتها السيئة، على الأقل بسبب الرائحة الكريهة الصادرة عن دبغ جلود الماعز لاستعمالها في صنع عبّارات نهر دجلة، وقد مررت في طريقي إلى القصر بالمبنى الكبير للبريد والبرق، وكان سروري كبيراً؛ لأنني سأتمكن من استعمال البرق لإرسال أخباري إلى موطني.

---

(١) [المترجم: سراي كلمة تركية تعني القصر أو مقرّ الحكومة].

زيارة إلى والي الموصل والسرايا

ينبغي الاعتراف بأن خط التلغراف يعمل بطريقة جيدة، رغم أن هذه المنطقة لا تتمتع بالاستقرار، إذ تستغرق الرسالة البرقية إلى ألمانيا يوماً أو يومين على الأكثر، ويمرّ خط التلغراف بالجزيرة وماردين وديار بكر(١).

دخلنا بادئ الأمر إلى فناء السراي الفسيح جداً، وتقع مكاتب ومقرّ إقامة الوالي في الطابق العلوي للجناح المتجه إلى النهر، وقد استقبلني الوالي عثمان باشا أحسن استقبال في غرفة كبيرة مؤثثة تأثيثا شبه أوروبي وجدرانها مصبوغة باللون الأبيض، وكان عثمان باشا رجلاً متقدماً في العمر، منحني القامة ذا لحية كاملة ناصعة البياض، إلا أن ملامحه كانت لا تزال توحي بالقوة والصلابة، وينحدر عثمان باشا من عائلة شركسية من القوقاز، وقد أطلعني لاحقاً بكل اعتزاز على شجرة نسبه المكتوبة كتابة جميلة والتي ترجع إلى عدة قرون.

وقد رأينا عند الوالي أحد أبناء الشيخ فرحان الذي كان قد رشح نفسه لمنصب باشا الشمّر الشرقيين بعد وفاة والده وشغور ذلك المنصب، وكان يسانده في سعيه رجل يدعى يونس باي، كان يملك نفوذاً كبيراً وينتمي إلى عائلة عبد الجليل العريقة، وكان يونس باي الذي زرته هو الآخر، يذكر تماماً الزيارة إليه والتي قام بها الإنجليزي كاميرون ومرافقه آمر الشرطة المصرية السابق شيفر باي، قبل ما يناهز العشرين سنة، وكان يونس باي الذي ثقلت حركته وغزا الشيب مفرقه حالياً، كان آنذاك رجلاً قوياً نشيطاً، وقد نظم في ذلك العهد بمناسبة الاحتفاء بالضيوف رحلة صيد جميلة استعملت فيها الصقور وكلاب السلوقي .

دعاني عثمان باشا لتناول طعام الغداء عنده في اليوم التالي، وكان الطعام يتركب من سلسلة طويلة من الأصناف التركية الشهية، إلا أن النبيذ الموصلي الذي قدّم لنا مع الأكل كان أقل جودة من الخمور الأوروبية، وتناولنا الطعام على الطريقة الإفرنجية باستعمال الصّحون والشوكات والملاعق، وقد كان بعض الضباط الكبار من بين الضيوف، وتناولنا القهوة ودخّنّا النارجيلة على شرفة خشبية تتقدم واجهة المنزل الفخم "كوناك"(٢) كانت تطل على منظر رائع للنهر، وعلى حقل آثار نينوى الواقع وراء دجلة .

(١) قارن سالنامه " السجل الرسمي للدولة التركية " لسنة ١٣٠٣ .

(٢) [المترجم: قوناق مفردة تركية تعني منزلاً فخماً أو مبنى حكومياً مهيباً].

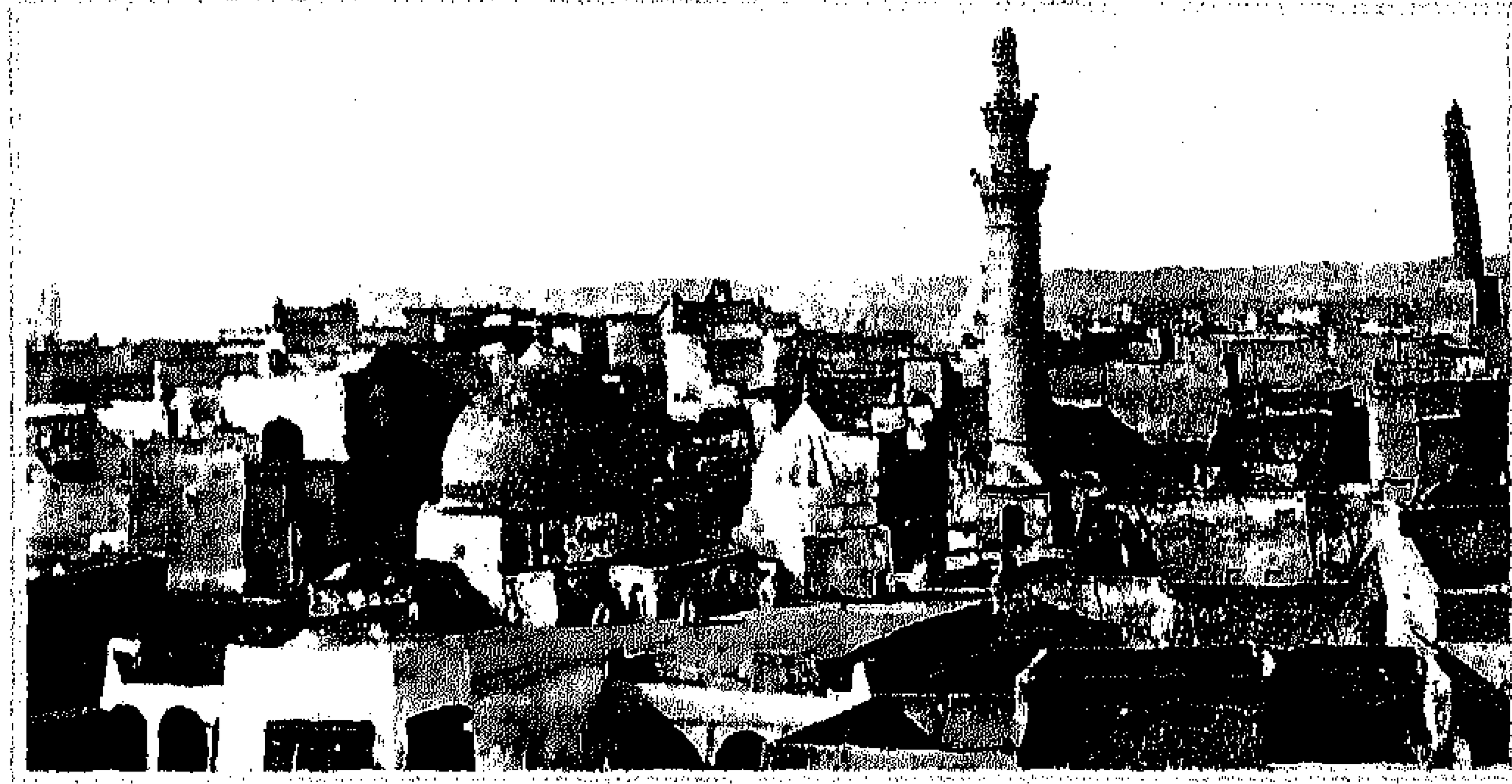
فظاظة تاجر مسيحيّ

كان لقائي مع أحد التجار المسيحيين الأغنياء على عكس الاستقبال اللطيف الذي خصّنا به الموظفون الأتراك، رغم أنني كنت أحمل وصية خاصة موجهة إليه، كنت أريد منه أن يصرف لي مبلغَ رسالةِ اعتماد صادرة في دمشق، غير أنني لقيت عنده صعوبات لا مبرر لها بعدما قضيت مدة طويلة في قاعة الانتظار، وقد كنت أرغب في استئجار مركب لمواصلة السفر إلى بغداد، إلا أن الأجر الذي طلبه التاجر كان باهظاً إلى درجة جعلتني أعتبر أن مساعدته لي لا تستحق ذلك الثمن، فعدلت عن الاستعانة بخدماته، ثم إنني رجوته أن يسمح لي بزيارة منزله الخاص، غير أن التاجر لم يرَ داعياً لاستقبالي، وقد حاول التاجر لاحقاً دون جدوى أن يرافقني في زيارة أخرى للوالي، حيث إنه علم أن استقبال الموظف السامي لي كان على غاية من الحفاوة بناء على الوصية التي جئت بها من القسطنطينية، وبصرف النظر عن ذلك، استطعت دون مساعدة هذا التاجر الفظّ زيارة عدد من المنازل المسيحية في الموصل، كما سمح لي عدد من الأعيان المسلمين في حفاوة بالغة بالاطلاع على منازلهم من الداخل، وفي كثير من المناسبات دعيت إلى تناول الطعام معهم، وقدّموا لي القهوة والسجائر في كل مكان.

الطرقات والمباني في الموصل

الطرقات في الموصل ضيقة وملتوية وغير معبدة إلا في جزء قليل منها، أما النوافذ الأوروبية والأشياش الخشبية التي نجدها في المدن التركية عوضاً عن المشربية فلا توجد إلا نادراً، وأما الواجهات المتجانسة فإنها تشتمل على أبواب من الخشب الصلد المحفور بطريقة فنية جميلة ، إلا أنها لا تحتوي إلا منافذ قليلة للنور باتجاه الشوارع، وخلافاً لما نجده في مدن كثيرة أخرى في الشرق التي تبنى بيوتها من الحجر المعالج بالملاط أو الآجر قليل الجودة، نجد أن المنازل في الموصل مبنية في معظمها من حجر جبسي لونه بين الرمادي والأبيض يشبه الرخام الذي فقد شيئاً فشيئاً بريقه ولونه الفاتح ليصبح رمادياً قاتماً بفعل الهواء، الأمر الذي يضفي على الشارع مسحة مُدلهمّة لكنها على قدر كبير من الهيبة، أما الحجر الذي يسمى " المرمر الموصلي " والذي يكسر على مقربة من المدينة في منطقة جبل المقلوب فإنه سهل المعالجة، غير أنه سرعان ما يجفّ كما هي حال الحجر الرملي المستعمل في مباني باريس أو الحجر الكلسي السوري، ويتكون العديد من الواجهات من مربعات جبسية منحوتة بطريقة جميلة، وكثيراً ما تحمل الواجهة الخارجية والجدران الداخلية على حد سواء كثيراً من الزخرف الجميل، وتشتمل أفنية المنازل

الكبيرة في كثير من الأحيان على الليوان[1]، وهو ركن كبير مفتوح يستعمل كالغرفة، وأروقة ذات أقواس وواجهات تحملها الأعمدة.



مدينة الموصل

وتستعمل كميات كبيرة من الأحجار في البناء الداخلي للمنزل، ذلك أن أسعار الخشب باهظة رغم قرب الجبال الكردية الغنية بالغابات، وأسقف الغرف مقببة في معظمها، ويقود درج ضيق خارجي إلى الطوابق العليا وإلى السطح، وفي فصل الحرّ- بداية من منتصف شهر يونيه تقريباً - يقضي سكان الموصل النهار في السراديب: جَمْعُ سرداب: وهو مأوى محفور في الأرض على هيئة الدهليز، تكون درجة الحرارة فيه على الأقل عشر درجات مئوية أدنى مما هي عليه في الغرف الأخرى من المبنى، وتوجد هذه السراديب بصفة عامة في منازل الأعيان في المدن الواقعة جنوب وشرق الموصل وفي بلاد فارس أيضاً، وفي فصل الصيف تفرش المراتب المخصّصة للنوم على سطوح المنازل على غرار العادة في سوريا، ولا تختلف طريقة بناء المنازل المسيحية في شيء عن طريقة بناء المنازل الإسلامية، أما تأثيث الغرف فهو في الموصل أقل تأثراً بالطريقة الأوروبية منه في دمشق، رغم أن الكرسي والطاولة بدآ يحلان محل الديوان العربي والكرسي المنخفض.

سكان الموصل

يمكن القول بصفة عامة: إن الموصل تتميز بطابع شرقي أصيل، فلن تجد مثلاً أي شخص يحمل القبعة الأوروبية، في حين أن " الكفية " لا تزال كثيرة الاستعمال، وكذلك ينتشر استعمال العمامة أكثر من انتشارها في القاهرة ودمشق، الأمر الذي يعيد إلى الذاكرة مشهداً من مشاهد العهود البائدة، وحتى القبعة الإستانبولية فهي نادرة الوجود، وقليلاً ما نجد البدلة حتى عند

(١) قارن المجلد الأول، من هذا الكتاب، ص ٥٨.

السكان المسيحيين من أهل البلاد الذين عادة ما يبدأون في جميع ربوع المشرق بتقليد العادات الأوروبية في المظهر الخارجي، ولا يزال القفطان الملوّن التقليدي متداولاً في كل مكان، ولا يزال التشيبوك* الذي لا يوجد إلا نادراً في المناطق الغربية مستعملاً بكثرة في الموصل إلى جانب النارجيلة.

ويبلغ عدد سكان الموصل بين أربعين وخمسين ألف نسمة، يشكلون مزيجاً مختلف الألوان من الأجناس، فقرابة جزء من سبعة أجزاء منهم مسيحي، وتوجد كذلك فئة يهودية، أما بين المسلمين فيمثل الأكراد فئة كبيرة إلى جانب العرب، والمسيحيون من سوريين وكلدانيين وأرمن، ويسجل الأب موللر- سيمونيس سنة ١٨٨٨م ألفي كاثوليكي، وألفي يعقوبي من السوريين، كما يسجل العدد نفسه للكلدانيين الكاثوليك، ومائتين وخمسين من أصحاب الديانات الأخرى(١)، أما رجل الدين الإنجليزي باري(٢) فيسجل أرقاماً تختلف اختلافاً تاماً عن ذلك، وكان على غرار الأب موللر- سيمونيس، قد زار الموصل سنة ١٨٩٢م في مهمّة تبشيرية، وبناء على معلوماته يقيم اليعقوبيون في ألف بيت، والكلدانيون الكاثوليك - ويسميهم " النسطوريين البابويين " في ألف وخمسمائة بيت، ويقيم السوريون الكاثوليك في أربعمائة بيت، ويقيم أتباع البعثة البرسبيترية الأمريكية في ثلاثين بيتاً، وهكذا يكون في الموصل حسب تقديرات باري قرابة ١٥٠٠٠ مسيحي إذا حسبنا خمسة أفراد في كل بيت، وتقيم الفئات المختلفة من مسلمين ومسيحيين ويهود في أحياء خاصة بها حسب ما جرت عليه العادة منذ القِدَم، فنجد الحي المسيحي في الجزء الجنوبي من المدينة في حين أن اليهود يقيمون في شمال المدينة خاصة.

ويشكل الكلدانيون بصفة عامة الطبقة الدنيا من الشعب، وهم العمال الحرفيون والخدم، ويتكلمون فيما بينهم لغتهم الخاصة بهم وهي الفليشي " لغة الفلاحين " وهي لهجة تمثل بقايا اللغة السورية القديمة (٣).

* [المترجم: تشيبوك كلمة تركية تعني الغليون التركي الطويل ذا الرأس الصغير المصنوع من الطين]

(١) قارن موللر- سيمونيس ، وكذلك هيفرنات - من القوقاز إلى الخليج الفارسي .

(٢) في المرجع المذكور، ص ٢٤٠.

(٣) هذه اللهجة ليست معروفة في أوروبا إلا قليلاً، وقد قدّم زاخاو بحثاً عنها بعنوان " هيكل لهجة الفليشي في الموصل "، بحوث أكاديمية العلوم، برلين ١٨٩٥م .


الكلدان المسيحيون من تلكاف قرب الموصل

ويأتون غالباً من القرى الجبلية شمال شرق الموصل وهم رهط أقوياء البنية، ذَوو أخلاق حسنة، يتميزون تميزاً واضحاً عن العرب، والكلدانيون يعملون على العبّارات الإنجليزية والتركية في نهر دجلة .

اللغة العربية هي اللغة السائدة في الموصل، أما الأتراك فلا يمثلون إلا الموظفين والضباط، وأما الأوروبيون فلم أجد منهم غير الذين ينتمون إلى البعثات التبشيرية المختلفة.

التمثيل الفرنسي والإنجليزي في الموصل

يملك الفرنسيون والإنجليز قنصليات في الموصل منذ أمد بعيد، وقد كان القنصل الإنجليزي نمرود رسّام مسافراً عند زيارتي إلى الموصل، وهو مواطن من أصل كلداني، كان والده مساعداً للايارد أثناء قيامه بحفرياته، ثم واصل ذلك العمل بصفة مستقلة بعد مغادرة لايارد للبلاد، وقد عمل بعد ذلك في الحبشة[١] لمصلحة الحكومة الإنجليزية في عهد الملك تيودور، أما القنصل الفرنسي فقد تم استبداله أثناء زيارتي، وكان القنصل الذي شغل المنصب حتى الآن يدعى سيوفي، وهو سوري مسيحي من دمشق، وكان منذ عدّة سنين قنصلاً محترفاً وله أعمال أدبية حول اليزيديين والصابئة[٢] وغيرهم، وكان عند زيارتي يستعد للعودة إلى مسقط رأسه لإخلاء المنصب لقنصل فرنسي كان على وشك الوصول. ولأن ترتيبات الانتقال كانت جارية في القنصلية فإنني لم أتمكن لسوء الحظ من زيارة المبنى، إلا أنه يبدو مبنى رائعاً يقع قريباً جداً من مركز البعثة التبشيرية الدومينيكية الكبير، وقد افتتحت البعثة التبشيرية الكاثوليكية نشاطاتها في

(١) قارن رولفس – غلوبوس، طبعة سنة ١٨٦٨م الجزء ١٤، ص ١٥٠.
(٢) قارن كتابه – بحوث حول ديانة الصابئة، باريس ١٨٨٠م.

بلاد ما بين النهرين منذ نشأتها، أي منذ منتصف القرن السادس عشر تقريباً، فقد ظهر سنة ١٥٤٠م في بلاد ما بين النهرين عدد من الرهبان اليسوعيين، وبدأوا نشاطهم التبشيري مع النسطوريين، وكوّنوا فيهم مجموعة مستقلة اعترف بها البابا بيوس الحادي عشر رسمياً سنة ١٦٨٠م[١]، ويبدو أن إدارة البعثة التبشيرية انتقلت في وقت لاحق إلى أيدي الرهبان الكرمليين، ذلك أن الرحالة الإنجليزي آيفز نزل سنة ١٧٥٨م عند راهب من هذه الطائفة في الموصل[٢]، ويذكر موللر سيمونيس[٣] خلافاً لذلك أن البابا بينيديكت الرابع عشر أسند منذ سنة ١٧٥٠م إدارة الدعاية الرومانية إلى الرهبان الدومينيكان، وقد وجد نيبور[٤] مبشرين دومينيكان في الموصل، كانوا في البداية إيطاليين واستبدل بهم سنة ١٨٥٩م نهائياً دومينيكان فرنسيين، وقد جعل هؤلاء من الموصل مركزاً للدعاية الكاثوليكية الرومانية في بلاد ما بين النهرين مثلما جعل المبشرون اليسوعيون بيروت مركزاً للدعاية الرومانية في سوريا.

البعثات المسيحية في الموصل

يتجلى مدى اهتمام روما بنشاط التبشير منذ سنة ١٨٤٠م في أن البابا عيّن مبعوثاً باباوياً خاصاً يسمى في العربية "قاصد" في الموصل، ويشغل هذا المنصب حالياً الأسقف ألتماير وهو من منطقة الألزاس على غرار عدد كبير من رجال الدين الكاثوليك في الشرق، وقد زرته في مقر إقامته في البعثة التبشيرية الدومينيكانية الذي يتمثل في مبنى كبير يشبه القصر ويحتوي على أفنية فسيحة جداً.

إضافة إلى مطبعة أنشئت في الستينيات وأُثِّثت بطريقة رائعة، تملك البعثة التبشيرية مدارس يرتادها المسلمون أيضاً، وكذلك مدارس للفتيات تديرها راهبات كاثوليكيات وبيتاً لليتامى وغير ذلك من هذا القبيل[٥]، ومقارنة بالبعثة التبشيرية الكاثوليكية، لا تتمتع نظيرتها الأمريكية بأي حضور، تماماً كما هي حالها في سوريا، وقد أنشأها القسيس ساوثجيت سنة ١٨٤٠م، والذي قام سنة ١٨٣٨ م مع بعض رجال الدين الآخرين برحلة استطلاعية في تركيا وبلاد

---

(١) قارن باري في المرجع المذكور، ص ٣٠٢.
(٢) قارن ريتر في المرجع المذكور الجزء، ص ٢١٠.
(٣) قارن مولر– سيمونيس وهيفرنات في المرجع المذكور، ص ٤٠٦.
(٤) قارن المرجع المذكور، ص ٢٨٨.
(٥) قارن تقرير رئيس البعثة الحالي السيد دوفال– البعثة الدومينيكانية في الموصل، إضافة إلى موللر سيمونيس، وهيفرنات في المرجع المذكور، ص ٤٠٨.

فارس بهدف إدخال النسطوريين في الكنيسة البروتستنتية[١]، وقد سلّت مجموعة الكنيسة الحرة - الكنيسة الأسقفية - البعثة للبرسبيتيريين [٢] سنة ١٨٩٠م بعدما لقي ما لا يقل عن سبعة من رجالهم حتفهم في هذه الربوع، وكان البرسبيتيريون قد بدأوا عملهم التبشيري مع النسطوريين في شمال بلاد فارس في أورمية منذ الثلاثينيات [٣]، لكن نجاحهم كان ضئيلاً جداً، إذ إن عدد الأتباع الذين كسبتهم البعثة لا يزيد على ٣٠ شخصاً مثلما سبق أن ذكرنا[٤].

مدينة الموصل اليوم - أي المساحة التي تضمّها جدران المدينة والتي أصبح جزء منها مقفراً اليوم خاصة في الغرب والشمال - لها شكل على هيئة البيضة يتجه طرفها الحاد إلى الشمال[٥]، ويشكل نهر دجلة الطرف الشرقي منها، وفي الشمال يمتد حقل واسع من الأنقاض تختفي تحته بقايا قلعة قديمة إضافة إلى بقايا بعض القصور، وهي مبانٍ شيدها بدر الدين لؤلؤ[٦] في بداية القرن الثالث عشر.

مساجد الموصل

تقوم عند نهر دجلة قلعة مازالت على أفضل حال، فيها أحد أقدم مساجد الموصل، عند منتصف جانب المدينة تقريباً، ويفصلها عن هذا الجانب أخدود، هنا يمكن مشاهدة بعض المباني القديمة الأخرى التي تستعمل كمستودعات، إلا أنها تكاد تتداعى .

ويقع جامع الآغاوات في شمال المدينة على مقربة من الجسر الذي يمتد فوق نهر دجلة، كما يقع مسجد حمّو قدّو، الوليّ الكردي وراء سوق الخضراوات الواقعة على الجانب الأيسر، وقد تم صبغ داخل هذا المسجد باللون الأبيض وزخرفته بعدد من الكتابات، وتنتصب المئذنة على قبة زيّنت بالخزف الأخضر والأزرق، أما جامع النبي جرجس الذي يوجد فيه ضريحه، فهو من المساجد التي تحظى باحترام متميز، ويبدو أنه كان فيما مضى كنيسة مسيحية.

وأما أكبر مسجد في الموصل فهو الجامع الكبير، وتمتد الأروقة المحفوفة بالأعمدة والتي تشكل المبنى الفعلي للمسجد عند فِناء واسع جداً في طرف الجنوب وفي اتجاه مكة المكرمة،

---

(١) قارن أينزوورث - رحلات في آسيا الصغرى، لندن ١٨٤٢ م الجزء الثاني، ص ١٢٨.
(٢) قارن باري في المرجع المذكور ص ٣٠٦.
(٣) قارن ساندرزكي - رحلة إلى الموصل، الجزء الثالث، ص ٨ وما يليها.
(٤) قارن باري في المرجع المذكور، ص ٢٤٠.
(٥) قارن مخططات المدينة عند نيبور في المرجع المذكور، اللوحة ٤٦، ومولتكه - طبعة شروب - برلين .
(٦) قارن ستانلي لاين بول - السلالات المحمّدية ص ١٦٣.

وما تزال بعض الأركان تحمل بقايا زخرف رائع قديم يتمثل في كتابات بالخط الكوفي، ونقوش من أبدع الأعمال الفنية، لكن التصرفات الهمجيّة التي تعرّضت لها المدينة عبر العصور، إضافة إلى ذوق أهل الموصل المتدهور، قد تسبب في تغطية هذه الكنوز بطبقة من الجير، وقد تناثرت هنا وهناك خطوط ملونة قبيحة المنظر تتبع مسار الحواشي البديعة للأقواس التي ما تزال في حالة جيدة، وتتكون الأعمدة من أسطوانات مصنوعة من مرمر الموصل ضمّ بعضه إلى بعض، وهي تشبه أعمدة المسجد الذي وجدته في أبو وجنة، وقد اتصلت أربعة من هذه الأعمدة بوساطة جدران منخفضة فكوّنت في المسجد شبه غرفة وضعت فيها الدواوين المنخفضة على طول الجدران، وهنا يقضي الإمام المسلم السيد محمد علي أفندي النوري الحسيني جُلّ نهاره مستعداً لمناقشة شتى المواضيع الدينية مع أي شخص، وقد جعل هذا الرجل من هذا المكان الواقع بين أربعة أعمدة كلها في الفناء المفتوح الذي يدعى رواقاً، جعل منه مدرسة على غرار ما يفعله الشيوخ في جامع الأزهر في القاهرة، ويبدو أنه يحظى بإقبال كبير، إلا أنني لم أجد عنده إلا عدداً قليلاً من الطلبة عندما زرته، وقد حمّلني هذا الشيخ السّلام إلى والي بغداد الذي تربطه به أواصر الصداقة، وهو رجل ورع وعالم جليل أيضاً، ويذكر المؤرخ ابن الأثير الذي هو من مواليد الموصل أن هذا المسجد شيده نورالدين أخو عماد الدين سنة ٥٤٦ للهجرة- ١١٥١م على أنقاض كنيسة مسيحية قديمة، إلا أن المبنى يبدو قد تعرض إلى عدة تغييرات وترميمات على مر العصور، أما المئذنة فما تزال إلى اليوم أعلى مبنى في المدينة.

من المعالم الجديرة بالمشاهدة في الموصل مئذنة مائلة يذكر مولباخ أن ارتفاعها يبلغ ثمانين قدماً وقطرها ست عشرة قدماً(١) عند قاعدتها، وفي أفنية الكنائس في الغرب والجنوب على مقربة من المدينة عدة قباب رشيقة، بعضها حديث العهد شيد فوق أضرحة أفراد عائلة عبد الجليل .

في بازار الموصل

لا يوجد في أسواق الموصل ما يلفت النظر، ولا يتوافر فيها إلا ما يتماشى مع حاجات البدو وسكان الأرياف، وتكثر فيها البضائع الأوروبية الرديئة المستوردة، أما فيما يتعلق بالصناعة فإن الموصل لا تنتج إلا المتعارف عليه محلياً ولا شيء يجدر ذكره فيما عدا ذلك. وأما أقمشة الشاش

(١) فارن فاجنر بمولتكه ومولباخ – تحت الهلال ١٨٣٧ – ١٨٣٩م برلين ١٨٩٣م، ص ٨.

" الموسلين " التي تنتمي إلى صنف الباتيستا، وهو نوع من أقمشة القطن الخفيفة التي اكتسبت اسمها من اسم المدينة حسب ما يذكر ماركو بولو، فقد انتهى إنتاجها في هذه الربوع منذ زمن بعيد، ورغم ذلك استطعت الحصول على عدد من الأشياء الثمينة في الموصل، من بينها صحفة وإبريق يوجدان حالياً في المتحف الملكي للمصنوعات الفنية في برلين، إضافة إلى مسدس ذي أربع فوهات أودعته في البيت الملكي للأدوات في برلين، أما الصحفة النحاسية المطعمة بالقصدير والفضة والتي تحمل نقوشاً عربية جميلة فإنها تحمل النص التالي(١):

مما عمل برسم الجناب العالي المولوي

الأمير الكبير المالكي المخدومي

.... محمد .... الحلب .... عزّ نصره (؟)



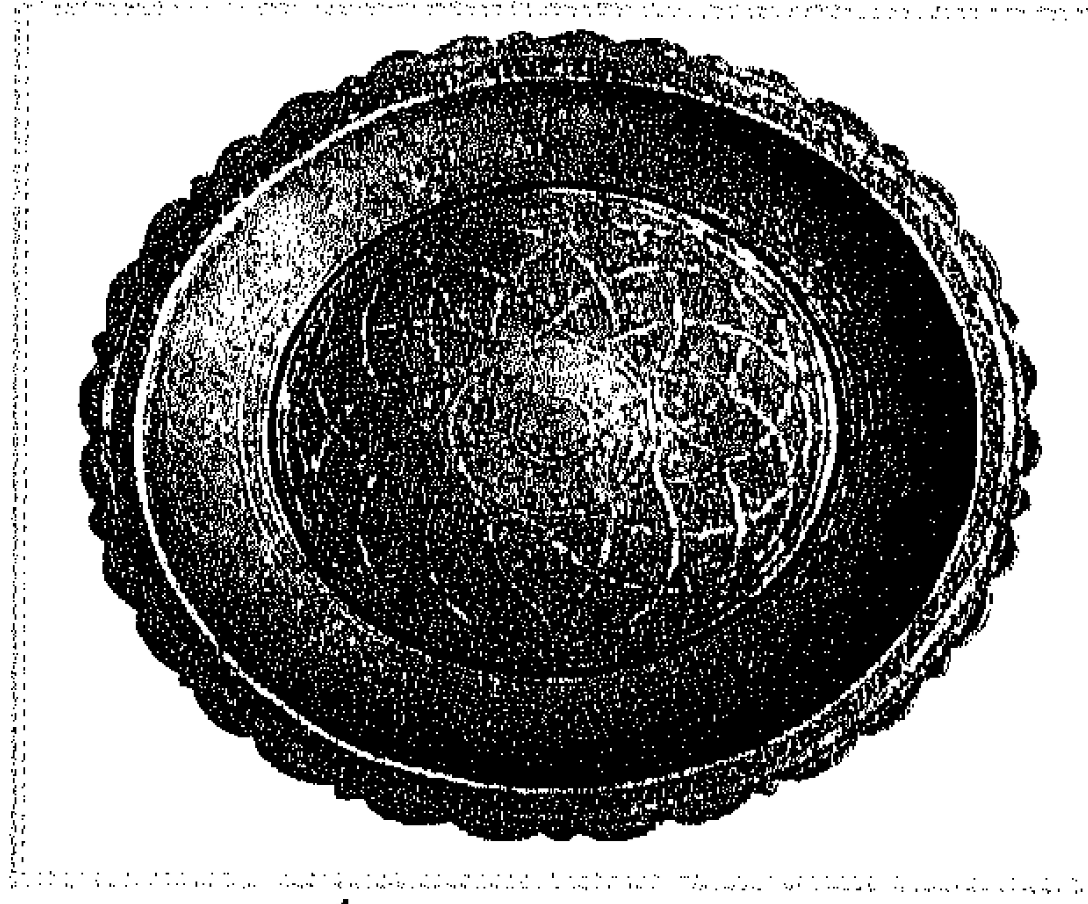
صورة لأوعية من الطين موجودة حالياً في المتحف الملكي للفنون – برلين

تسوق في بازار الموصل

يفصل بين الصحن الفعلي للصحفة والحافة البديعة أخدود عمقه عدة مليّمترات، ويحمل وسط الصحن نقشاً على هيئة الشعار(٢) يمثل صورة كأس مزخرفة، وتحمل هذه الكأس المصنوعة من الطين، والتي تشبه في لونها وشكلها الأباريق المستعملة عند الحجيج في بلاد الراين في القرنين السادس عشر والسابع عشر، تحمل عروتين، وقد نقش نقشاً نافراً على جانبيها طائر يشبه الطاووس تحيط به شُرُط عليها زخرف من الكتابة.

(١) [المترجم: هكذا ورد النص مكتوباً بالعربية في المرجع الألماني].

(٢) قارن إي. ث. روجرز باي– الشعار عند الأمراء المسلمين في مصر وسوريا، في نشرة المعهد المصري السلسلة الثانية رقم ١ سنة ١٨٨٠م القاهرة ١٨٨٢م ص ٨٣ وما يليها خاصة ص ١١١ وما يليها.



صحن معدني من الموصل عليه شعار يوجد حالياً في متحف الفنون – برلين

أما الكتابة التي تذكّر لأول وهلة بالكتابة البهلوية فقد تكون مزيجاً من الحروف العربية التي أفسدت عن قصد، ويبدو أنها توحي بمضمون كبالي(١) أو متعلق بفنون السحر على غرار رموز الكتابة اليهودية البابلية .

المقاهي و جسر الدجلة

تحتوي مدينة الموصل على العديد من المقاهي، ويقع المقهى الأكثر شعبية على دجلة عند أسفل النهر قرب القلعة التي سبق ذكرها ، ويستند هذا المقهى إلى جدار المدينة على غرار المباني المجاورة له، وتطل نوافذه على النهر، أما الشرفة الكبيرة التي تشغل كامل واجهة المقهى فهي تعجّ بالناس على الدوام، وتؤدي إحدى بوابات المدينة عند أسفل المقهى مباشرة إلى الجسر الكبير الذي يبلغ طوله قرابة أربعمائة خطوة، ويوجد عند طرفه في الشرق جسر حجري له تاريخ متميز يتمثل في القصة التالية: بعد أن بدأ العمل لبناء جسر ثابت عدة مرات في عهود سابقة- وقد ذكر رحالة قدماء مختلفون أجزاء هذا البناء(٢)- عاد من جديد في منتصف هذا القرن تقريباً بعثُ مشروع لتعويض هذا الجسر بجسر آخر من الحجر، ونظراً لارتفاع مستوى المياه فقد تم نقل بداية الجسر إلى مكان بعيد على الضفة الشرقية حيث بلغ طول الجسر على اليابسة ثمانية وعشرين باعاً، وعند الوصول إلى مجرى النهر توقف العمل، ولا أحد يدري هل كان السبب في ذلك صعوبات فنية أو مشاكل مادية، ولوصل الجسر القديم(٣) الذي كان قائماً منذ

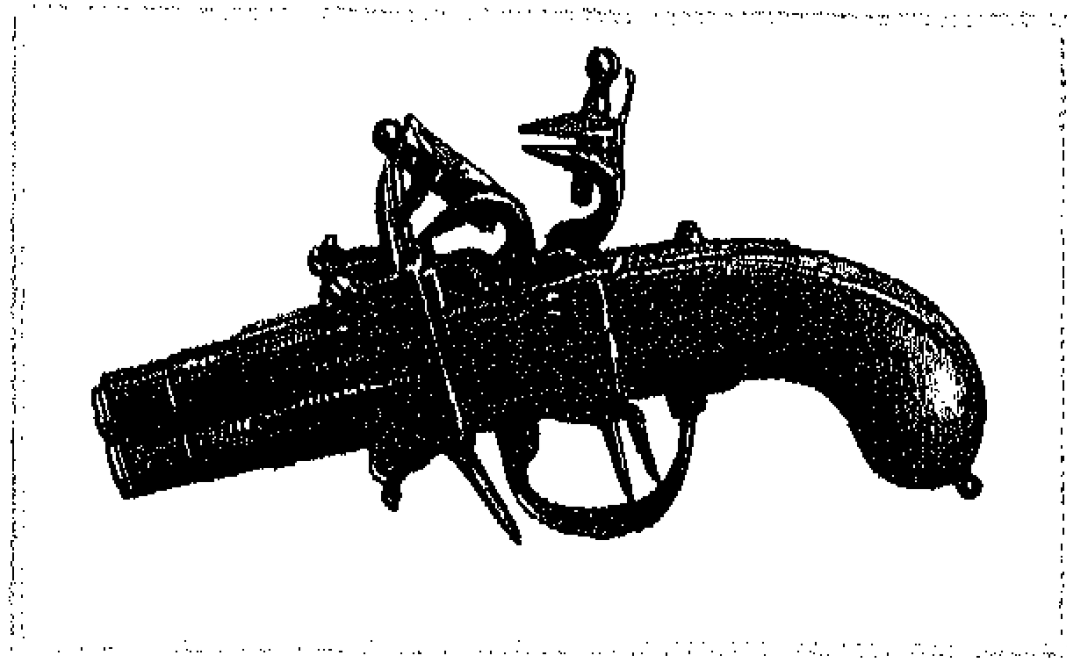
(١) [المترجم: " كبال " كلمة عبرية تعني: تعاليم سرية، ويشار بها إلى جمعية دينية يهودية سرية تعمل برموز الحروف والأرقام وتعتمد على الإنجيل].

(٢) هكذا يقول نيبور في المرجع المذكور، ص ٢٨٧. ودوبري ، باريس ١٨١٩ الجزء الأول، ص ١١٤، وعند ريتر في المرجع المذكور الجزء السادس، ص ١٩٣. وريتش في المرجع المذكور الجزء الثاني، ص ٤٧. وساندرزكي في المرجع المذكور الجزء الأول، ص ١٦٦.

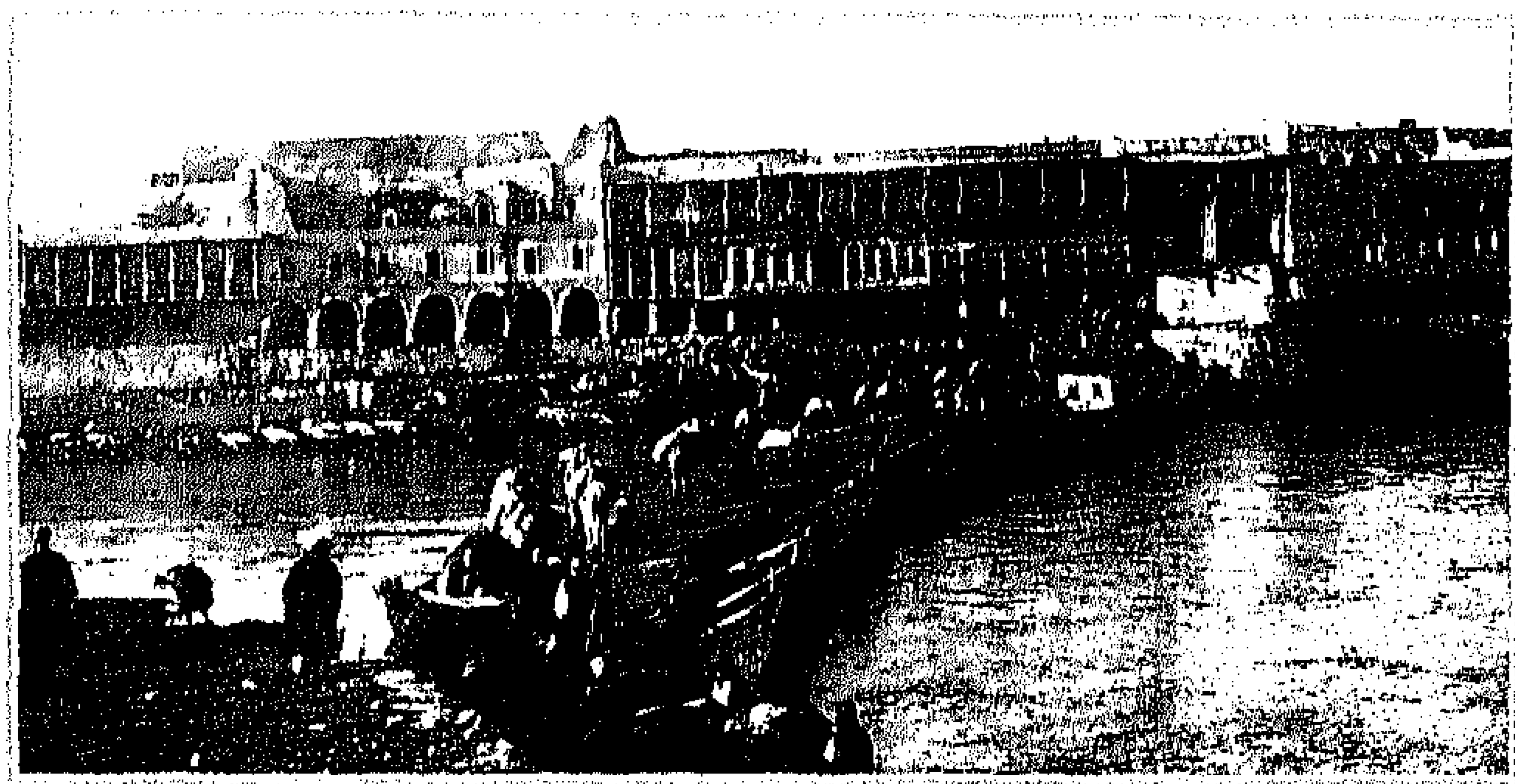
(٣) قارن ريتر في المرجع المذكور ، الجزء ١١ والجزء ٧، الفصل الثاني، ص ١٨٥.

عهد تيمور لنك بالمبنى الحجري الذي يتجاوزه في الارتفاع تم تزويد المبنى الحجري الجديد بجزء منحدر من ستة أقواس، وتحت أقواس هذا الجسر الحجري متاجر ومَقاهٍ متنقلة.

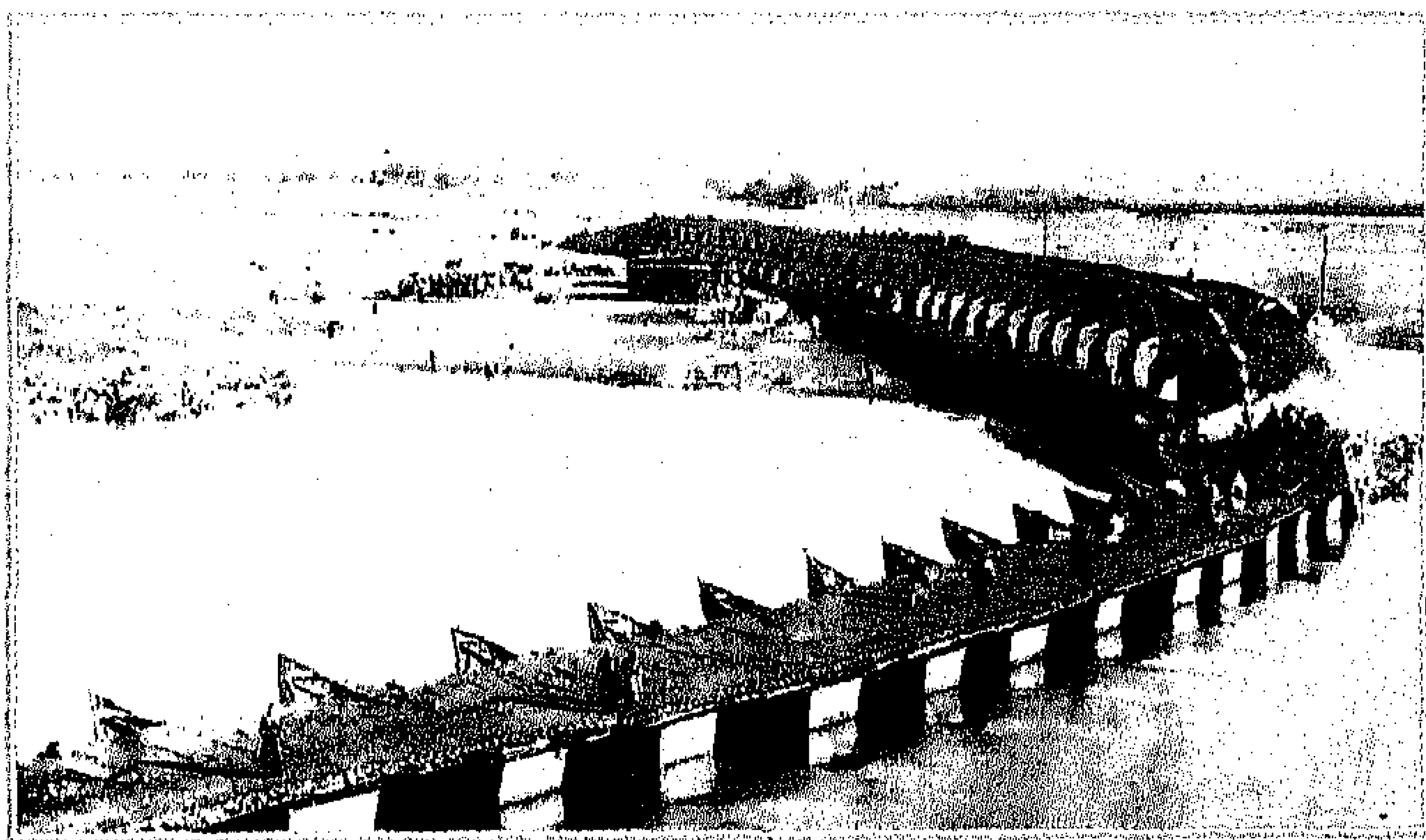
وقد شيدت جدران مدينة الموصل التي تعطي انطباعاً مهيباً للناظر إليها من بعيد، من مواد حجرية جيدة، ولها قلاع قوية تتوّجها أسوار مسنّنة ولا تزال بعض أجزائها على حال جيدة.



مسدس تركي قديم ذو أربع فوهات يوجد حالياً في المتحف الملكي للأدوات في برلين



الموصل، مقهى كبير ومحطة كلك



جسر الموصل وهضبة آثار نينوى

في حين ظهرت ثغرات متعددة في مواضع أخرى، ويمتد على طول الجدار من الناحية الغربية خندق عريض إلا أن حافته تداعت في مواضع متعدّدة، ويكفي هذا الجدار وهذا الخندق لحماية المدينة من حملات الغزو والنهب التي يشنّها البدوعليها، لكن العدو المزوّد بأجهزة التخريب الحديثة لن يجد أي صعوبة في اقتحام هذه الحواجز، أما بوابات المدينة فهي بديعة الصنع، إذ تشكّل بوابة سنجار - على سبيل المثال - في ذاتها مبنى على هيئة القاعة يحتوي غرفاً للرجال المكلفين بالحراسة .

كامل المنطقة الواقعة خلف الدجلة خالية تماماً من الأشجار، إلا أنها شديدة الخصوبة ومزروعة في كل شبر، وكان موسم الحصاد قد انتهى عند زيارتي، وبقايا النباتات في الحقول قد أحرقها وهج الشمس، والأرض ذات اللون الأصفر البنّي سهلاً لا تتخلله إلا مرتفعات متفاوتة في الامتداد والارتفاع، وعدد قليل من القرى الصغيرة، وفي الشرق والشمال الشرقي كانت أطراف سلسلة الجبال الكردية تحدّ السهل الآشوري القديم، والأرض الكريمة التي كانت تقوم عليها مدينة نينوى الأسطورية.

يذكر الكتاب المقدس، يونس، الفصل ٣ ، ٣ : أن محيط مدينة نينوى كان يبلغ مسافة ثلاثة أيام من السفر، ورغم ذلك فقد ظلت آثارها مغمورة طوال قرون من الزمن؛ فبعد سقوط نينوى سنة ٦٠٦ ق. م في يد الجيوش المتحدة لبابل ومَدَين أصبحت المدينة مهجورة وبقيت مغمورة حتى اليوم، و لم يتمكن أحد من مجرد التحديد الدقيق لموقع المدينة القديمة الشهيرة حتى مطلع القرن الحالي، وقد ظن عالم الجغرافيا مانيرت في بداية هذا القرن أن السدود المنيعة للمدينة العتيقة هي بقايا معسكر روماني، و لم يتبين - إلا بعد الحفريات التي قام بها القنصل الفرنسي بوتا سنة ١٨٤٣م وبعده الإنجليزي لايارد في السنوات من ١٨٤٦م إلى ١٨٤٧م ومن ١٨٤٩م إلى ١٨٥١م والتي واصلها بعد ذهابه رسّام وسميث - أنه ينبغي البحث عن مدينة نينوى الحقيقية القديمة - وهي" المدينة الشمالية" لكامل المنطقة المأهولة - في ميدان الأنقاض مقابل مدينة الموصل مباشرة، وقد أجرى بوتا حفريات أخرى قرابة ثمانية عشر كيلومتراً في الشمال الشرقي لهذا المكان في خورساباد "خسروآباد"، وتعني مدينة كسرى، خاصة في السنوات بين

١٨٥١م و ١٨٥٥م (١)، وكذلك لايارد في مدينة نمرود(٢) قرابة ثلاثين كيلومتراً جنوب دجلة، وقد تم العثور في المواقع الثلاثة على أسس قصور عظيمة، وتماثيل جبارة لثيران تحمل رؤوساً بشرية، كانت تقوم مقام الحرس عند البوابات، حيث يكوّن الجانب الداخلي جداراً للغرف التي تستند إليها.

حفريات في حقول آثار نينوى

تم الكشف خاصة على كتابات عديدة بحروف تشبه الكتابة المسمارية، وتشهد على روعة وعظمة حضارة تلك العهود البائدة، وتشكل أساساً لفرع مستقل جديد من العلوم هو علم التاريخ الآشوري (٣).

إذا اعتبرنا أن الأماكن والآثار المذكورة وربما الحقول الأثرية المرسومة أيضاً على خريطة بلايس على مسافة عشرين كيلومتراً شمال غرب دجلة والتي تسمى دجيغان تنتمي إلى نينوى القديمة، فعندئذ يمكن القول حقاً: إن محيط المدينة يبلغ مسافة ثلاثة أيام من السفر، إلا أنه من المحتمل جداً أن المساحة كلها لم تشكل في أي عهد من العهود مدينة واحدة، وإنما كانت تشكل امتداداً من الحدائق الفسيحة والقصور المتناثرة والمنازل الريفية والقرى؛ وعلى كل حال ليس هناك آثار لجدار مشترك، والقصور العظيمة التي تم كشفها إلى اليوم في الأماكن المذكورة،

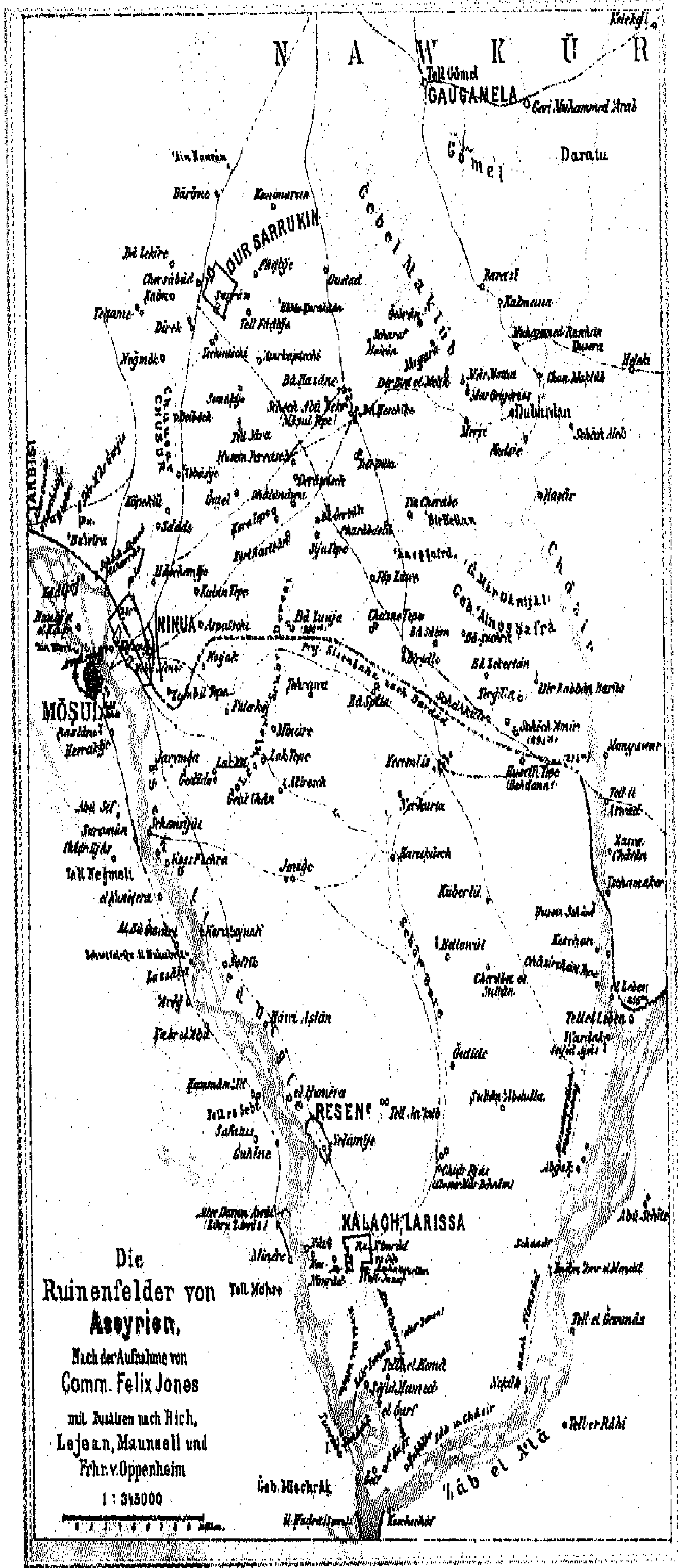
....

(١) قارن بلايس– نينوى والبلاد الآشورية الجزء الأول ص ٧.

(٢) قارن فيما يلي الفصل ٦ ص ٢١٢ وما يليها.

(٣) تم في بابل وفي بلاد الآشوريين إلى اليوم إنجاز الحفريات التالية: خورساباد على يد بوتا وبلايس، قوجونجيك على يد لايارد، نمرود وبالاوات وقلعة شرقات على يد لايارد ورسّام، بابل على يد أوبرت والمهندس المعماري توماس والمستشرق فريسنل، أبوهبّة و بابل على يد رسّام، نفر على يد جامعة بنسيلفانيا: بيترز وهاينس، تل لو على يد سارزيك، أبو هبة على يد رسام وشيل، مغيجير: مدينة أور القديمة و وركه "أرك" وسنكرا" لارسا" على يد لوفتوس حفريات سطحيّة فحسب، سرغول والهبه على يد كولداواي وموريتز. وإنه لمن دواعي السرور أن يكون قد ظهر في ألمانيا منذ بضع سنوات اهتمام جدي بالحفريات في بلاد ما بين النهرين. ويحتل العلماء الألمان مرتبة الصدارة عند ذكر الباحثين الذين قاموا بالتحليلات العلمية لنتائج الحفريات التي أجراها الفرنسيون والإنجليز، وأرجو أن تتمكن بعثة الحفريات التي يشكلها كولداواي ومايسنر وأندري وماير، والتي تقوم حالياً بحفريات في هذه المدينة الملكية، من ضمان قسط جيد من كنوز بابل لفائدة ألمانيا، وأرجو أن تتحقق أمنية ديليتش التي عبر عنها في نشرية – كنوز من الشرق، لايبتزيغ ١٨٩٨م بقوله: "أتمنى أن تشارك ألمانيا بالقدر نفسه من الحماس العلمي المتميز والاستعداد للتضحية الذي بر هنت عنه الأمم العظيمة الأخرى للكشف عن الكنوز الآشورية والبابلية؛ وذلك مساهمة في إثراء المتاحف ودعم العلوم الألمانية مما يزيد الأمة الألمانية فخراً والوطن تمجيداً".
فيما يتعلق بحقول آثار نينوى بالذات، تتكدّس كثير من الأشياء الثمينة على وجه الأرض فوق هضاب قوجونجيك ونمرود، وكأني بها تنتظر مجيءَ العبّارة لتنزل بها نهر دجلة إلى بغداد، ولتشحن من هناك إلى المتاحف الألمانية، وعلى غرار ما نجده في بابل يمكن هنا أن تؤدي الحفريات إلى نتائج قيّمة حول التاريخ والحضارة الآشورية (قارن ملاحظتي في تقارير بيترمان ١٨٩٦، المجلة ٣ و ٤، ص ١٥) .

كانت قد شيدت في عهود مختلفة ومن قِبَل حكام مختلفين، ولا شك في أنها لم تسكن أبداً في وقت واحد، وقد كان الملوك الآشوريون على ما يبدو على غرار ما نراه اليوم من الملوك الشرقيين المحبّين للفخامة، والذين لا يقيمون إلا على مضض في القصور التي أقام فيها سلفهم، بل يشيدون غيرها في مكان قريب منها، وتحذو الحاشية حذو سيدها وتشيد بجوار قصره المساكن، وهكذا تتكون حول منازلهم شيئاً فشيئاً مدينة جديدة مستقلة، تهجر بدورها وتتداعى حالما ينقل حاكم جديد مقر إقامته إلى موضع آخر (١).

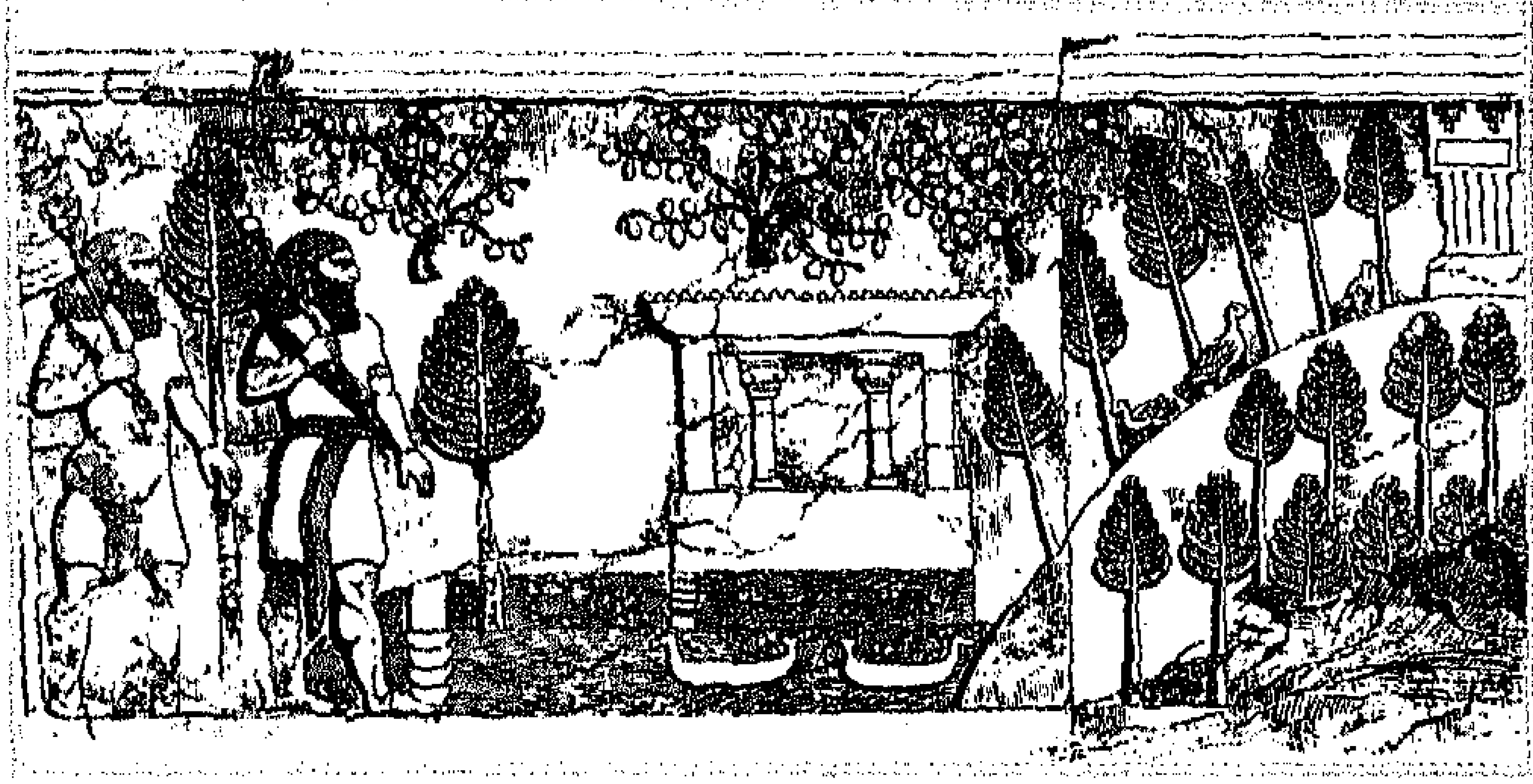


مخطط لحقول الآثار الآشورية

سدود نينوى

لا يرى الزائر العادي اليوم إلا الشيء القليل من الفخامة القديمة والقصور الملكية الشامخة والحدائق الغنّاء التي كانت تحتويها العاصمة الآشورية، ولم يبق اليوم برج واحد منها؛ لأن المواد المستعملة في الأجزاء العليا من المباني القديمة لم تكن على قدر من الصلابة يسمح لها بتحدي الزمن، فقد تداعى الجبس وغطّى ركام القوالب الطينية القصور التي هوت على عروشها، والبقايا الوحيدة التي لا تزال واضحة إلى اليوم من مدينة نينوى هي السدود الطويلة التي تشير إلى جدران المدينة والهضاب الركامية في قيونجق في الشمال، ونبي يونس في الجنوب. وتحيط السدود بشكل مستطيل منحرف طول ضلعه الأصغر في الجنوب نحو كيلومتر واحد وطول ضلعه في الشمال كيلومترين تقريباً، في حين يبلغ ضلعا الطول أربعة كيلومترات ونصف الكيلومتر.

(١) نجد مثالاً بليغاً على هذا التصرف في المدينة الأثرية القريبة من تونس، والتي شيّدت منذ قرابة ثلاثين عاماً لتصبح اليوم مهجورة متداعية.


معبد لتقديم القرابين في نينوى بوتا وفلاندان – أنصاب نينوى، الجزء الثاني، ص١١٤

وقد أصبح سمك السد الذي يبدو أنه كان في الأصل جداراً متجانس البنية، إلا أن جزأه الأعلى قد تصدع شيئاً فشيئاً بفعل الأمطار والحرارة - أصبح عند قاعدته أكبر منه عند القمّة. ويبلغ ارتفاعه بين ٢٤ و ٣٠ قدماً، ورغم أن السد ينحدر انحداراً حاداً فإنه يمكن تسلقه على ظهر الخيول العربية المرنة عند معظم نقاطه حتى بلوغ القمة التي يصل عرضها إلى قرابة العشرين قدماً (١).


ثور آشوري بوتا وفلاندان، المجلد الأول، اللوحة ٤٥

يتميز منظر نهر الدجلة والأراضي المحيطة به والجبال الكردية من هذا المكان بجمال خلاب يعوّض عن عناء ومشقة الوصول إلى مشاهدته. وتتجلى وراء السد آثار لخندق، إضافة إلى عدد كبير من المباني الدفاعية القوية والبوابات العريضة على الجانب الشرقي.

---

(١) أخذت هذه القياسات عن مولباخ في ريتر، المرجع المذكور الجزء ١١، ص ٢٢٤ .

ويخترق الأرض التي يحيط بها السد عند وسطها تقريباً باتجاه الشرق إلى الغرب جدول صغير يدير طاحونة ويسمى خوسر- وكان الآشوريون يسمونه خوسور- تتناثر على ضفتيه عدة مساكن صغيرة تابعة للفلاحين، والقرية الكبيرة الوحيدة التي تقوم على أنقاض المدينة القديمة هي قرية نبي يونس التي تقع في الجزء الجنوبي، وقد سمّيت هكذا نسبة إلى النبي يونس الذي يقع ضريحه على قمّة هضبة ركامية هناك، والذي يتمتع بتقدير واحترام المسلمين أيضاً(١) وتحيط بمبنى الضريح منازل القرية المبنيّة من الأحجار، والتي تبدو على قدر من القوة والصلابة، ونظراً للاحترام الشديد الذي يكنّه المسلمون لهذا الضريح فإنني لم أتمكن من فحص الهضبة الركامية فحصاً دقيقاً، إلا أن حفريات سطحية أجريتها وتوقفت عنها عندما منعت عني لاحقاً تشير إلى أنه يوجد في هذا المكان ودون أدنى شك عدد من القصور الضخمة.

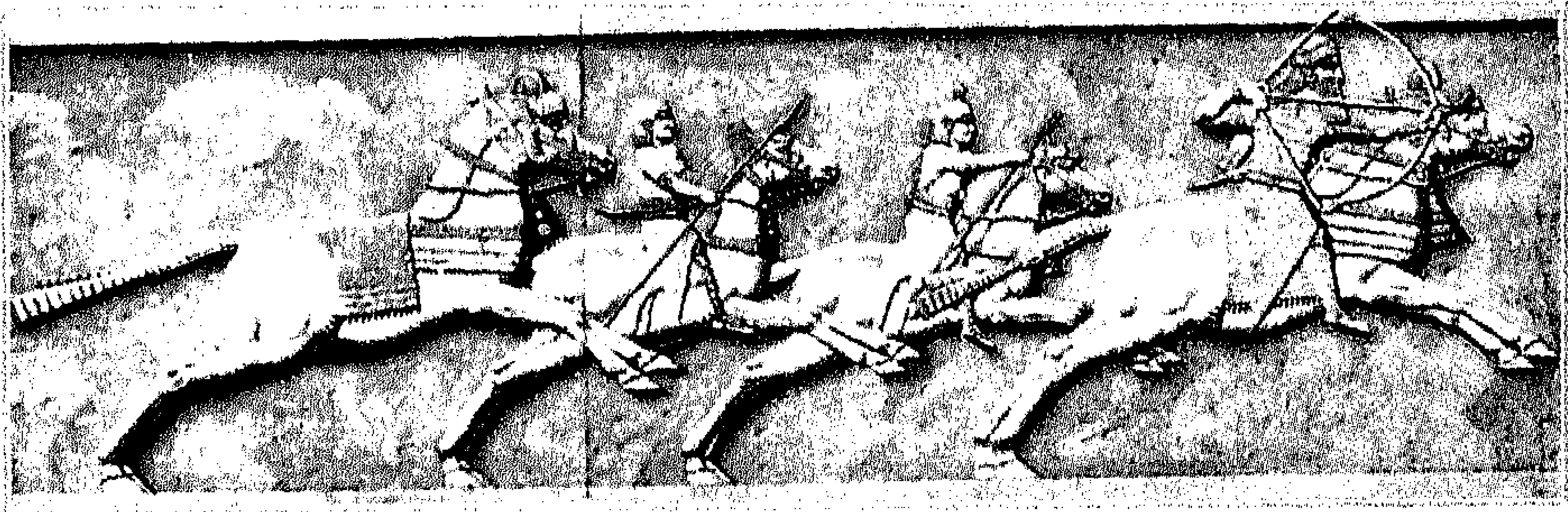
هضبة الأنقاض قيونجق

تستند الهضبة الركامية التي تدعى " قيونجق " هضبة إسطبل الخرفان،(٢) والتي يحدها السد الغربي، تستند في اتجاه الشمال مباشرة إلى جدول خوسر، وتشكل مربعاً يبلغ طول ضلعه قرابة ثلاثة أرباع الكيلومتر، وهي أكثر اتساعاً من هضبة النبي يونس رغم أنها لا تبلغ الارتفاع نفسه، وتنحدر جوانبها انحداراً حاداً، ويتميز سطحها بأنه غير منبسط، وقد أجرى لايارد ومن جاء بعده في هذا المكان خاصة الحفريات التي جلبت إلى المتحف البريطاني كنوزاً ثمينة، وفوق هذا الكوم من الركام مبنى صغير مربع الشكل ليس له باب يحمل الاسم الرنّان "متحف"، مع أنه من المستبعد أن يحتوي على عدد كبير من الأشياء، و لم تجرِ أثناء إقامتي أي حفريات، إلا أن آثار أعمال سابقة كانت واضحة للعِيان في كل مكان. وإن كمية الأشياء التي تم العثور عليها كانت كبيرة جداً فقد كان من المستحيل نقلها بكاملها إلى مكان آخر.

كانت جدران الغرف التي تم الكشف عنها مغطاة بنقوش على امتداد أمتار عديدة، ولقد وجدت في حفرة عريضة عميقة ثوراً مجنّحاً مكشوفاً تماماً يبلغ ارتفاعه ثلاثة أمتار تقريباً،

(١) يرجّح أن هذا الموضع الحضاري يعود إلى عهد ما قبل الإسلام، قارن فايل – حياة محمد [ﷺ]، عن ابن إسحاق ، الجزء الأول، ص ٢٠٩ – نينوى، مدينة يونس بن متّى.
(٢) قارن الفصل ٤ المتقدم، ص ١٥٩ الهامش ٣ .

وتتجلى على صدره وبين أرجله كتابات مسمارية طويلة، وقد كان أحد جانبي الطول لهذا الثور غير مكتمل الإنجاز، وكان على شكل مساحة مستوية مستعملة كجدار للغرفة المعنية، وقد تم الكشف عن الجدران سواء في هذه الغرفة أو في الغرف والأروقة الأخرى، حيث كانت مغطاة في جزئها الأسفل بألواح حجرية تحمل مشاهد قتال وكتابات طويلة، وفي العادة توجد ثلاثة صفوف من هذه الرسوم بعضها فوق بعض، وقد كان متوسط ارتفاع الأشكال البشرية على النقوش عشرين سنتيمتراً، وتتمثل خلفية الغرفة في جدار حجري ارتفاعه متران وطوله خمسة أمتار نقش عليه منظر لعربة حربية ذات عجلات مرتفعة يجرّها زوج من الخيل يشدهما إلى بعضهما نير عليه كثير من الزخرف، ويوجد في العربة ثلاثة أشخاص إضافة إلى قائدها، في حين أنه لا يظهر في العادة إلا شخص واحد، ويكتظ حول العربة جمع من المقاتلين، وتتجلّى في المشهد أشجار من النخيل، و يبلغ ارتفاع صور الخيول بما فيها الرأس قرابة أربعين سنتيمتراً، وجزء من هذا النقش الكبير مكشوف حالياً في حين أن باقي الجدار الحجري تغطيه قبة متداعية.

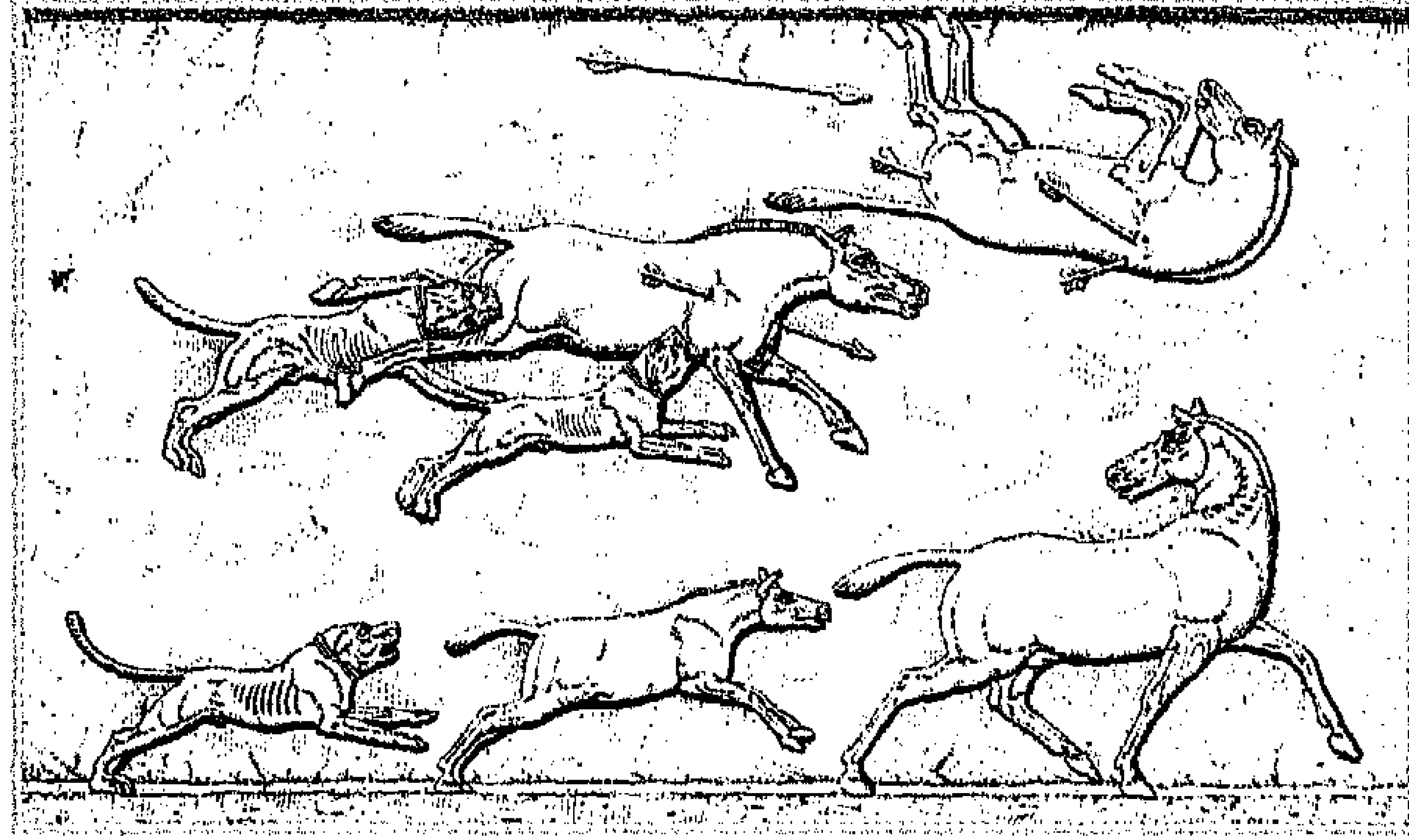


فرسان آشوريون – بلايس، اللوحة ٥٣

وفي المتحف البريطاني في لندن الأشياء الرائعة التي عثر عليها في قيونجق وفي نمرود ، في حين أن الآثار التي كشفها الفرنسيون في خورساباد قد التهمها متحف اللوفر، ولأن الفرنسيين قد أجروا حفرياتهم في خورساباد بطريقة أكثر نظاماً، وأكثر علمية من الإنجليز في نمرود وقيونجق، فإن الأعمال الفرنسية الرائعة التي أنجزها بوتا وبلايس وغيرهما، والغنية بالمادة الغزيرة التي تحتويها، تعطي صورة أوضح وأشمل على الروعة الآشورية القديمة من لوحات لايارد الذي يستحق مع ذلك كل الاحترام والتقدير.

وبناء على الآثار التي تم الكشف عنها حتى اليوم نستطيع أن نستخلص فكرة تامة عن حياة الآشوريين في الحرب والسلم.

مصنوعات فنية من العهد الآشوري

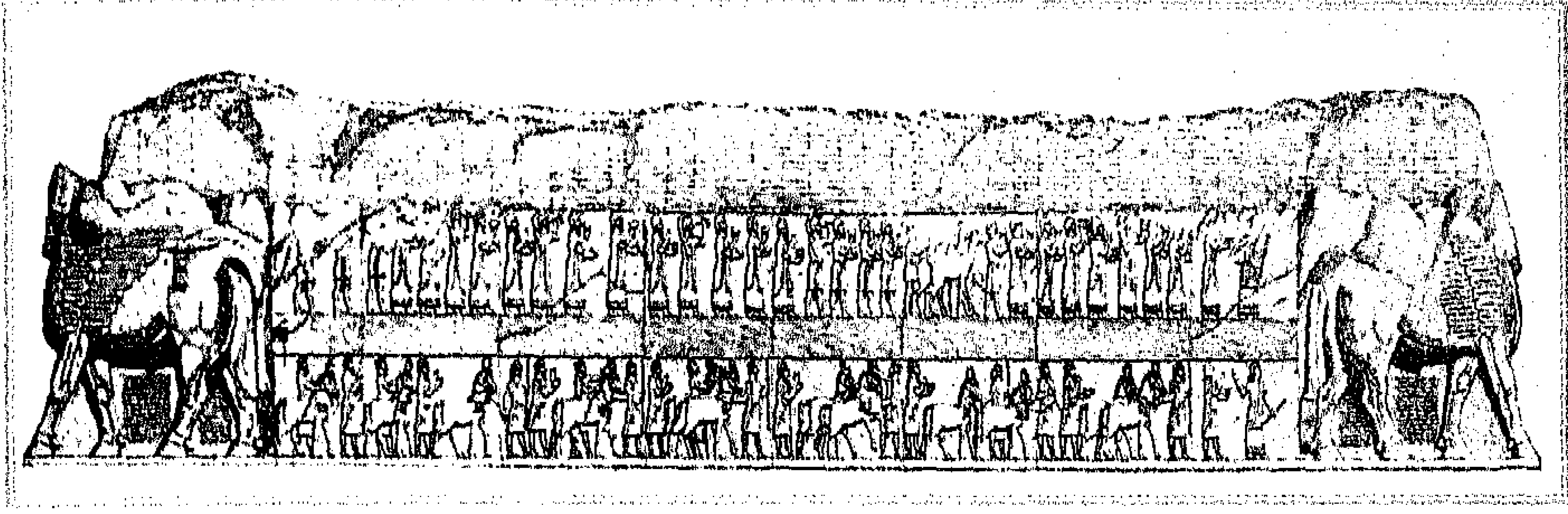


صيد الحمر الوحشية في العهد الآشوري بلايس
اللوحة ٥٤ – قيونجق

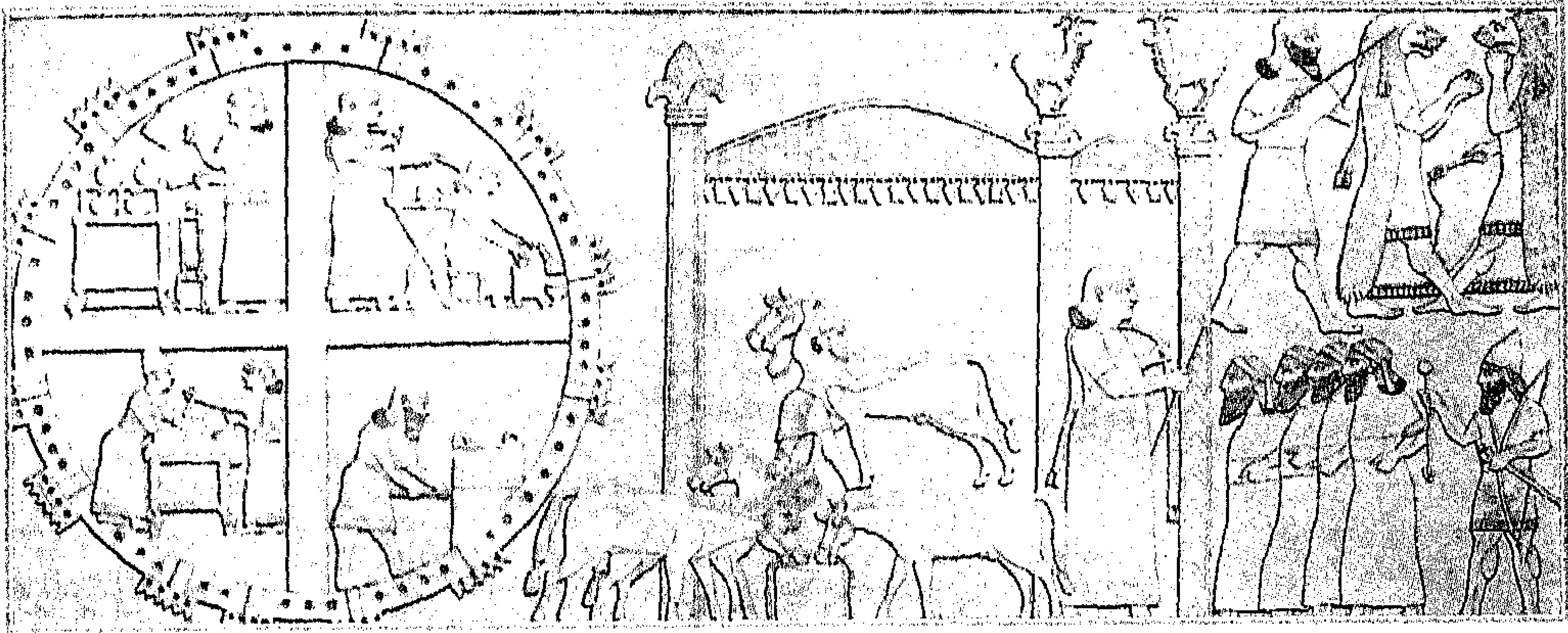
والمواضيع المفضلة التي تصورها اللوحات هي مشاهد القتال، ومحاصرة القلاع، والمعارك البحرية في محاربة البشر والحيوانات، وأرتال الأسرى، والعديد من مشاهد التعذيب والإعدام، وصيد الأسود والحمر الوحشية والغزلان باستعمال الصقور في بعض الحالات، وهناك مشاهد لمبان وأعمال نقل تماثيل صخرية جبارة يتم إنجازها بمشاركة عدد غفير من حشود العمال، ونقوش معمارية ومناظر للمدن والقلاع والمعسكرات والقرى، ومشاهد من الحياة العامة والمنزلية من شتى الأنواع، وولائم وأفراح ومواكب احتفالات وغيرها.



عرب يركبون الإبل "المردوف" في العصور
الآشورية بلايس، اللوحة ٥٥، ٤ قيونجق



لوحة من آثار نينوى – بوتا وفلاندان، المجلد ٢، اللوحة ١٢٢



رسوم آشورية – لايارد، اللوحة ٣٠

الحضارة الآشورية

إن الحضارة الآشورية ليست فريدة من نوعها، وإنما أخذت عن الحضارة البابلية التي سبقتها بآلاف السنين؛ إذ لا يبدأ ذكر الآشوريين إلا في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، و لم تكن نينوى في ذلك العهد قد أصبحت بعد مركزاً للمملكة رغم أنه من المحتمل أنها كانت موجودة في ذلك العهد، وأول مدينة أعطت للمملكة اسمها هي " آشور " التي تسمى اليوم قلعة شرقاط[1] وتقع على الضفة اليمنى لنهر دجلة قرابة خمسة وثمانين كيلومتراً من الموصل باتجاه مصبّ النهر، وقد ورد أول ذكر لنينوى في القرن الثالث عشر قبل الميلاد عندما شيّد فيها الملك

(١) [المترجم: هكذا وردت الكتابة باللغة العربية في المصدر الألماني.]

سامسيرامان الأول معبداً وقام أحد خلفائه الذي يدعى سلماناصار بترميمه من بعده قرابة ستمائة سنة، وقد أسس سلمانصار الأول الذي عاش زهاء سنة ١٣٠٠ ق.م مدينة كلخ المذكورة في الإنجيل، والتي هي اليوم مدينة نمرود، وجعل منها مقر إقامته، وعاد خلفاؤه في الحكم إلى الإقامة في آشور عدة قرون من الزمن، و لم يعُد مقر الحكومة إلى كلخ إلا في منتصف القرن التاسع عشر ق. م[1] في عهد الملك آشور ناصربال، الأمر الذي سارع في اندثار العاصمة القديمة على ما يرجح.

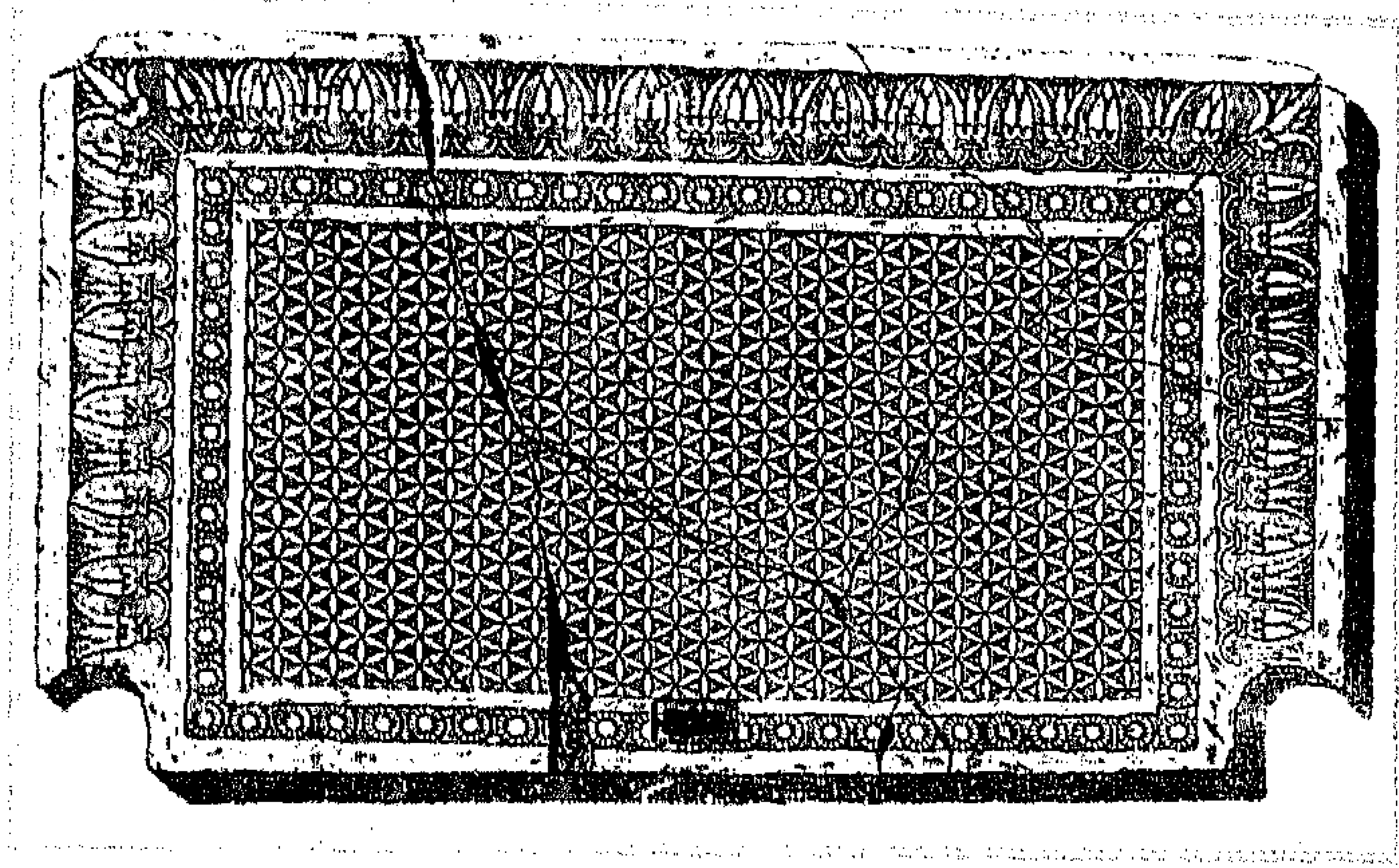


مأدبة من العهد الآشوري بلايس اللوحة ٦٤ – ١ قيونجق

من تاريخ المملكة الآشورية

المؤسس الحقيقي للقوة العظمى التي تمثلت في المملكة الآشورية هو سلامانصار الثاني ابن آشور ناصربال وولي عهده، فقد وسع مملكته في الغرب بالاستيلاء على سيليسيا وسوريا حتى بلغ البحر الأبيض المتوسط، ووصل إلى الشمال وراء منبع دجلة حتى بحيرة " وان "، كما توسع في اتجاه أورميا، واستحوذ على جنوب بلاد ما بين النهرين كاملاً، وبذلك قضى على قوة بابل التي كانت الدولة المهيمنة إلى ذلك العهد، رغم أن عدة حكام بابليين قد عرفوا كيف يحافظون على استقلالهم لفترات متفاوتة في الزمن خلال العصور التي تلت ذلك.

(١) [المترجم: ورد في النص الألماني خطأ ما يلي: " النصف الأول من القرن التاسع عشر" في حين أن آشور ناصربال الأول حكم من ٨٨٣ إلى ٨٥٩ ق. م، ولذلك ينبغي أن يكون النص الصحيح: " النصف الأول من القرن التاسع"، نضيف أن آشور ناصربال الثاني حكم على ما يرجح من ٦٦٨ إلى ٦٢٧ ق. م.]



قطعة من البلاط من العهد الآشوري بلايس اللوحة ٤٩ قيونجق

أصبحت كلخ " نمرود " من هنا فصاعداً تمثّل ضاحية لنينوى الأصلية، التي تفوقها بكثير في القِدم، ويبدو أن كلاً من الملوك الذين توالوا على الحكم بعد ذلك قد شيد لنفسه قصراً خاصاً جديداً، بعضها في نمرود وبعضها في نينوى نفسها، وقد ثبت حتى اليوم وجود آثار لأربعة قصور في نمرود، واثنين في نينوى الأصلية، ويتوارى القصران الأخيران تحت هضبة ركام قيونجق، ويعود الأول إلى الملك سنحريب الذي ورد ذكره في الإنجيل، والذي حاصر القدس، أما الثاني فيعود إلى آشور بانيبال الشهير الذي يعرف عند الإغريق باسم " صردانابال " و توفي زهاء سنة ٦٢٥ ق. م، وقد بلغت المملكة أقصى اتساع لها في عهد حكمه الذي دام ما يزيد على خمسين عاماً، وقد استطاع الاستيلاء على مصر أيضاً، غير أن الإمبراطورية فقدتها قبل نهاية عهد آشوربانيبال .

واتسعت الحدود في اتجاه الشمال حتى بلغت شوطاً بعيداً داخل آسيا الصغرى، وفي اتجاه الشرق حتى بلغت مَدْيَن، وقد بلغت الحضارة الآشورية أوج ازدهارها في ذلك العهد، ووصلت النحوت التي يرجع عهدها إلى زمن آشور بانيبال إلى درجة الكمال من الناحية الفنية والتقنية، وتشهد المكتبة التي تم العثور عليها في قيونجق بالعناية الفائقة التي أولاها هذا الملك للمعارف والعلوم، وتحتوي لوحات كثيرة تحمل نصوصاً مكتوبة بلغتين في عمودين متقابلين أو في سطور متناوبة (١)، وتمثل هذه مؤلفات أصلية من الأدب البابلي مع الترجمة الآشورية، ولا تنتمي لغة النص البابلي إلى مجموعة اللغات السامية، بل هي وسيلة تفاهم كانت مستعملة في بابل قبل مجيء القبائل السامية، وتتمثل في لهجتين تسمّيان عادة السومرية والأكادية.

(١) قارن شرادر– الكتابات المسمارية والعهد القديم، ص ٩٩، هوامش .

بدأت قوة المملكة تتداعى بعد وفاة آشوربانيبال، فأصبحت الشعوب الخاضعة لها قادرة على الاستقلال من جديد، وبلغت بابل ومدين - حالياً شمال ووسط بلاد فارس - بالخصوص قدراً كبيراً من القوة، وقد أدى تحالف ملكيهما إلى سقوط نينوى المفاجئ سنة ٦٠٦ ق. م، وقد كان الاستيلاء على العاصمة سبباً في اندثار الهيكل الصناعي للدولة العسكرية البابلية دفعة واحدة، وقد اختفت المدينة العظيمة من وجه الأرض اختفاء تاماً، فلم يكن الإغريق يعرفون اسمها حين مروا بجدرانها تحت قيادة كسينوفون بعد مدة لا تكاد تصل إلى المائتي سنة من اندثار تلك المدينة، ويذكر كسينوفون في كتابه " أنا بازيس" *، الكتاب الثالث، الفصل الرابع، مدينتين قديمتين مدمرتين شمال الزاب، تبعدان عن بعضهما مسافة يوم واحد، وقد سمّى المدينة الجنوبية Aagiooa **، ويبدو من وصفه لها أنها بلا ريب مدينة كلخ القديمة ونمرود اليوم، أما المدينة الشمالية فلا يمكن أن تكون بناء على ذلك إلا مدينة نينوى الأصلية. غير أنه يسميها مسبيلا Mespila، وهو اسم تستشفّ منه كلمة آشورية، إلا أنه يبدو أن مدينة جديدة قامت على أنقاض نينوى وعرفت باسم نينوس أو نينوى، وذكرها عدّة مرات كتّاب من الإغريق والرومان، وعاشت أكثر من خمسة قرون(١)، وقد ظل اسم نينوى حتى أدرك العهد العربي على غرار خورساباد اسم مدينة سارجون الذي كان يعرفه عالم الجغرافيا العربي ياقوت، الذي يذكر في هذه المنطقة موضعاً باسم " صرغون " عوضاً عن صرعون على ما يبدو(٢).

تاريخ الموصل

مع صعود نجم مدينة الموصل على الضفة الغربية لنهر دجلة اختفت المدينة التي كانت قائمة على الضفة الشرقية، رغم أن اسم المدينة القديمة نينوى استمر ذكره حتى العصور الوسطى(٣)، لا شك أن مدينة الموصل الحالية كانت موجودة منذ العهد الآشوري كضاحية لمدينة نينوى، ومن المرجّح أنه كان يوجد عند نينوى جسر على نهر الدجلة على غرار ما كان موجوداً في

---

* [المترجم: أنا بازيس: كلمة يونانية تعني " الصعود " خاصة في المسيرة العسكرية من البحر إلى المرتفعات الآسيوية وقد استعملت فيما بعد عنوانا لكتاب كسينوفون .]

** [المترجم: هكذا وردت الكتابة في النص الألماني دون شرح.]

(١) قارن ريتر في المرجع المذكور الجزء ١١ ، ص١٧١ وما يليها والشروح المستفيضة لمانرت – جغرافيا الإغريق والرومان، نورنبيرغ ١٧٩٧م الجزء ٥ القسم الثاني، ص ٤٤١ وما يليها، ويصف بلينيوس في المرجع المذكور ٤–١٦ موقعها كما يلي :
Fuit et Ninus imposita Tigri adpolis occasum spectans quondam clarissima.

(٢) في المرجع المذكور– الجزء الثالث، ص ٣٨٢.

(٣) يعرفها المؤرخ الموصلي ابن الأثير المتوفّى سنة ١٢٣٢ م باسم "مدينة نينوى" وذلك سنة ٤٤٤ هـ – ١٠٥٢ م.

بابل، وأن الموصل كانت تمثل بداية هذا الجسر[1]، وعلى كل حال لا بد من وجود قلاع أو تجهيزات مشابهة أخرى في مثل هذه النقطة الاستراتيجية الهامة التي تلتقي فيها الطرقات التي تقود إلى الأقاليم الغربية من المملكة الآشورية، و يشير الاسم العربي إلى هذا المعنى أيضاً، حيث إن كلمة الموصل تحمل معنى " الرّبط "[2].

أما في التاريخ فلا تظهر مدينة الموصل إلا بمجيء السلالة الحمدانية العربية[3] في وقت متأخر من عهد الخلافة العباسية، حيث أعلنت هذه السلالة استقلالها، وجعلت من الموصل مقراً لدويلتها بعد أن كانت تشغل منصب الولاية عليها، وقد أبعدت هذه السلالة عن الحكم سنة ٩٩١م على يد سلالة العقيليين العربية[4] التي لا يزال فريق منها إلى اليوم مقيماً في بابل وهو قبيلة المنتفك وفي الواقع "المنتفق".

عندما انتزعت سلالة السلاجقة التركية النفوذ العسكري والمدني سنة ١٠٩٦م من الخلافة المتداعية، عادت الموصل - على ما يبدو - إلى التبعية المباشرة لبغداد، وعندما وهنت قوى هذه السلالة، أعلن حاكم الموصل - وكان سلجوقياً - استقلاله وأسس سلالة حاكمة جديدة هي سلالة الزنكيين أو الأتابك التي فرضت نفسها منذ سنة ١١٢٧م حتى هجوم المغول الذي قضى نهائياً على الخلافة، ويمثّل العهد الزنكي فترة ازدهار الموصل، ويبدو أن المدينة بلغت أوج رقيّها خاصة تحت حكم بدر الدين لؤلؤ، غير أنها تدهورت فجأة بعد ذلك بسنوات قليلة، فقد استولى عليها ودمّرها هولاكو خان سنة ١٢٦١م بعد ما أقام المسلمون قبل ذلك مذبحة كبيرة للمسيحيين، ولذلك انضم هؤلاء إلى صفوف المغول فظفروا بالعفو والنجاة يوم سقوط المدينة.

لم تلعب الموصل منذ ذلك العهد دوراً متميزاً في التاريخ، ويبدو أنها وقعت في يد حكام صغار مختلفين بعد سقوط الدولة المغولية، فنحن نعلم مثلاً أن حاكماً من سلالة إلخانة الفارسية يدعى عويص استولى على الموصل سنة ١٣٦٥م، أما تيمور الذي أتمّ التدمير الذي بدأه المغول في الشرق فقد أبقى على الموصل، وجعل منها معسكراً له لبعض الوقت في العقد الأخير من القرن الرابع عشر للميلاد.

---

(١) عبر الإمبراطور هيراقليوس نهر دجلة في هذا الموضع على جسر مبني، لكن هذا الجسر لم يكن موجوداً بعدُ في عهد الإسكندر الأكبر - بيلربيك في البحوث حول علم التاريخ الآشوري، الجزء الثالث، ص ١١٧ الهامش ٤.

(٢) الاسم الفارسي القديم للمدينة هو " بود أرداشير"، ابن خرداذبه، نشرة دي غويه، ص ١٧. وأخبار غي لو ستراتنج في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية ١٨٩٥، ص ٧٤٢.

(٣) قارن لاين- بوله في المرجع المذكور، ص ١١٢.

(٤) قارن لاين - بوله في المرجع المذكور، ص ١١٦.

وبعد وفاته تداعت مملكته التي لم تعمّر طويلاً، أما في شمال بلاد ما بين النهرين وكردستان وشمال بلاد فارس فقد انتزع رؤساء قبائل قارا قويونلو(1) التركمانية الحكم، لكنهم أبعدوا عنه حوالي سنة ١٤٦٩م على يد مجموعة تابعة لقبائلهم تسمى آق قويونلو، ولقد وصل الشاه إسماعيل مؤسس الدولة الصفوية والمملكة الفارسية الحديثة أثناء غزواته إلى أعالي دجلة حيث يبدو أن الموصل سقطت في يده سنة ١٥٠٣م في معركة شرور الكبيرة، إلا أن الفرس لم يستطيعوا البقاء في هذا المكان أكثر من عقد من الزمن، فقد انتزع منهم الأتراك مدينة الموصل مع كامل الجزء الشرقي لبلاد ما بين النهرين سنة ١٥١٦م تحت السلطان سليم، وبقيت الموصل بعد ذلك ولمدة طويلة تابعة سياسياً لبغداد التي كانت مركز النفوذ التركي في بلاد ما بين النهرين، حتى أصبحت منذ نهاية القرن السابع عشر وحتى بداية هذا القرن نوعاً من الولاية الصغيرة المستقلة التي يحكمها أفراد عائلة عبد الجليل(2)، وهي اليوم عاصمة لولاية من الدرجة الثالثة.

من الناحية الصناعية، ليس للمدينة أية أهمية كما ذكرنا، لكنها مهمة كمركز تجاري (3)، فهي تمثل من جانب أول مستودعاً للمواد الخام من شمال بلاد ما بين النهرين وكردستان، التي غالباً ما تشحن من هنا عن طريق البحر عبر بغداد إلى أوروبا.

أهمية المدينة الحالية وآفاقها

تمثّل الموصل السوق المركزية لسكان المناطق المذكورة، إضافة إلى ذلك تمثل الموصل نقطة التقاء أهم طريقين في الشرق الأدنى: الطريق العسكرية الكبرى من القسطنطينية إلى الخليج الفارسي، وهي أقصر طريق من أوروبا إلى الهند، والطريق التي تربط بين شمال بلاد فارس

(1) يذكّر اسم قرية قارا قويونلو التي تقع عند بضع كيلومترات في اتجاه أسفل الموصل على الضفة اليسرى للنهر – وربما اسم قيونجق أيضاً – بعهد هذه السلالة ويشير إليه .

(2) قارن فيما يتعلق بهذه العائلة نيبور في المرجع المذكور، ص ٢٩٣ و ٢٩٤. وساندرزكي في المرجع المذكور، الجزء الثاني، ص ١٨٢.

(3) إذا كان رأي ألريك في كتابه – الحالة الاقتصادية والتجارية للموصل سنة ١٨٩٤م مصيباً، فإن تجارة مدينة الموصل لا تزال دون أهمية كبيرة فهي تحتل بالنسبة لفرنسا المرتبة الثانية فيما يتعلق بالاستيراد، والمرتبة الثالثة فيما يتعلق بالتصدير بمبلغ إجمالي قدره ٧٥٤٦٣٠ فرنكاً.

يذكر شايل في المجلة نفسها الأرقام التالية فيما يتعلق بدرجات الحرارة في الموصل بناء على مراقبته الشخصية: بلغت أعلى درجة للحرارة ٤٦ درجة مئوية يوم ٢٨ يوليو، وأدنى درجة للحرارة خمس درجات مئوية تحت الصفر يوم ٤ فبراير، متوسط درجة الحرارة في الشتاء سبع درجات مئوية وخمسون دقيقة، ومتوسط درجة الحرارة في الصيف اثنتان وثلاثون درجة مئوية وثلاثون دقيقة، والمتوسط السنوي عشرون درجة مئوية .

وسوريا والتي تقطع نهر دجلة في هذا الموضع، وتقود إلى دمشق عبر صحراء بلاد ما بين النهرين وسوريا، رغم أنها قليلة الاستعمال نظراً للاضطرابات السائدة في بلاد ما بين النهرين وعند سنجار .

ينبغي لبقية خط سكك الحديد في آسيا الصغرى، من القسطنطينية - أي من سكوتاري- إلى بغداد أن تمر بمدينة الموصل وتوفّر بذلك ما لا يقل عن عشرة أيام من السفر مقارنة بالطريق البحرية من أوروبا إلى الهند، وهذا سوف يزيد في أهمية الموصل من حيث التصدير، فضلاً عما يمثّله ذلك من زيادة في حجم حركة المرور [1].

(١) قارن فيما يلي الفصل ٧ ص ٢٦٩ وما يليها.

الفصل السادس
رحلة على نهر دجلة إلى بغداد

طرق السفر من الموصل إلى بغداد - مراكب دجلة - أخطار السفر على النهر مغادرة الموصل إلى بغداد - منطقة السباحة "حمام علي" آثار مدينة نمرود القصور الملكية في مدينة نمرود - العمران الجديد فوق حقول الآثار - شلالات وسدود - الزاب الأعلى أو الكبير - ينبوع الإسفلت الجيّارة - زيارة للشمر الجنوبيين - فيصل ومطلق ابنا فرحان باشا - حقول آثار قلعة شرقاط - قلعة الأمير - جبل خانوقة، وجبل المكحول، قصر البنت - الزاب الأسفل أو الصغير، لقاء مع الشمر - جبل حمرين، الفتحة، قناة نهر هافو - خان الخرنينة - تكريت قناة الإسحاقي، إمام دور - قناة نهروان أو قتول الكسروي - آثار إسكي بغداد آثار العاشق - المعشوقة، سامراء - آثار قصر الخليفة، البرج اللولبي"الملوية" من تاريخ سامراء - سامراء اليوم، مقدسات شيعية في سامراء - المنطقة الإدارية سامراء - آثار القائم وإسطبلات والصنم - القادسية، المجرى القديم لدجلة، الدجيل - خان الصعيوية، تل حسين- عضيم، مدينة أوبيس القديمة - مزارع النخيل على نهر دجلة - قناة الخالص، منطقة اليهودية - مغادرتي للكلك في الداودية، طنّوس يواصل إلى بغداد - من داودية إلى بغداد برّاً.

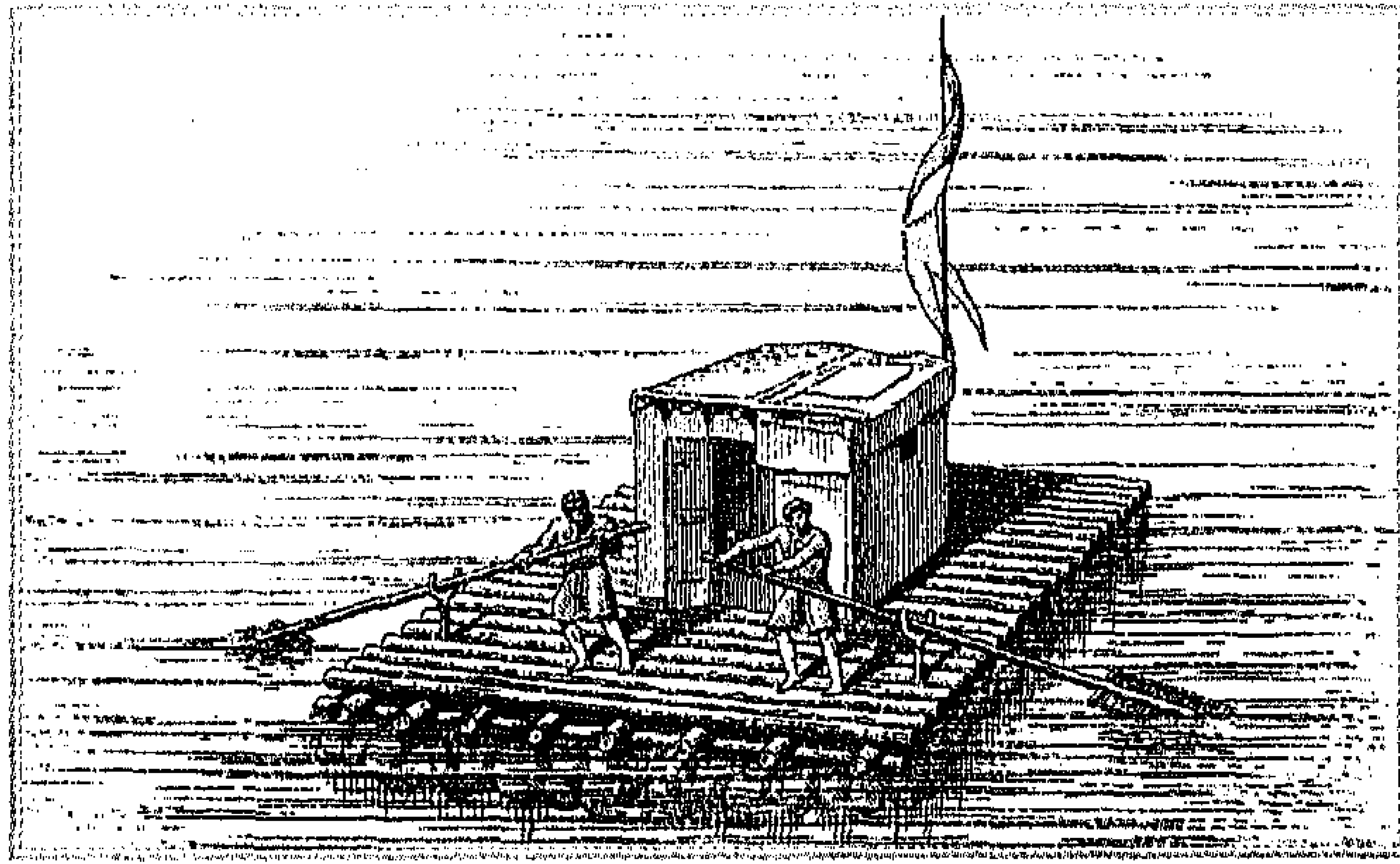
في الموصل سمحت بالانصراف لأصدقائي البدو من رجال فارس باشا الذين رافقوني من ديار الشمر إلى هنا، وكذلك فعلت مع رجال قبيلة طيء المكلّفين بالإبل، وأعطيت رجال الشمر الدواء الذي يحتاج إليه الباشا الذي يشكو من مرض في عيونه، ثم سرّحت مجموعة من الدواب المخصصة لي، وأرسلت الشيخ منصور مع أشبان الذي هو من رجال الضابطية الذين يعرفون الطريق جيداً، ومعهما أفضل خمسة جياد كانت في حوزتي، أرسلتهم عن طريق البر عبر كركوك إلى بغداد، أما أنا فقد فضّلت الرحلة البحرية على دجلة في اتجاه مصب النهر؛ لأن ذلك يسمح لي بزيارة الأماكن الواقعة على الضفتين دون عناء، ولا يوجد جسر على دجلة

جنوب الموصل إلا عند سامراء، ولا شك أن تكرار عبور قافلتنا وأثقالنا للنهر كان سيسبب لنا مشقة كبيرة، فضلاً عن أن العبور قد لا يتسنى لنا بالذات عند المواضع التي تستحق الزيارة إذا تعذر وجود مركب أو أي وسيلة نقل أخرى لعبور النهر(١).

طرق السفر من الموصل إلى بغداد

إلى جانب الرحلة على نهر دجلة، توجد طريقان للذهاب براً من الموصل إلى بغداد، إحداهما تمتد على الضفة الغربية للنهر، وتتميز بأنها أقصر بكثير من الأخرى، غير أنها قليلة الاستعمال بسبب الخوف من الشمر، أما الأخرى فهي الطريق العسكرية الكبيرة التي تمتد شرق دجلة، وتعبر مدن أربيل والتون كوبرى وكركوك وطاوق وكفرى(٢)، وتمر هذه الطرق بجانب السفوح الخصبة للجبال الكردية ثم عبر منطقة قنوات نهر الخالص، وتنقطع هذه الطريق في الشتاء والربيع أياما، وأحياناً أسابيع كاملة بسبب السيول العارمة التي تشكّلها الروافد القادمة إلى دجلة من سلاسل الجبال الشرقية، ولا يوجد جسر حجري إلا على نهر الزاب الصغير عند مدينة التون كوبرى، وأسوأ ما قد يتعرض إليه المسافر على هذه الطريق هو لقاء قبيلة هماوند الكردية المشهورة بالسرقة، والتي تضطر الحكومة بين الحين والآخر إلى شن حرب صغيرة عليها.

إن طريق الربط الطبيعية المتمثلة في نهر دجلة كثيرة الاستعمال، لكن في اتجاه مصب النهر فحسب.

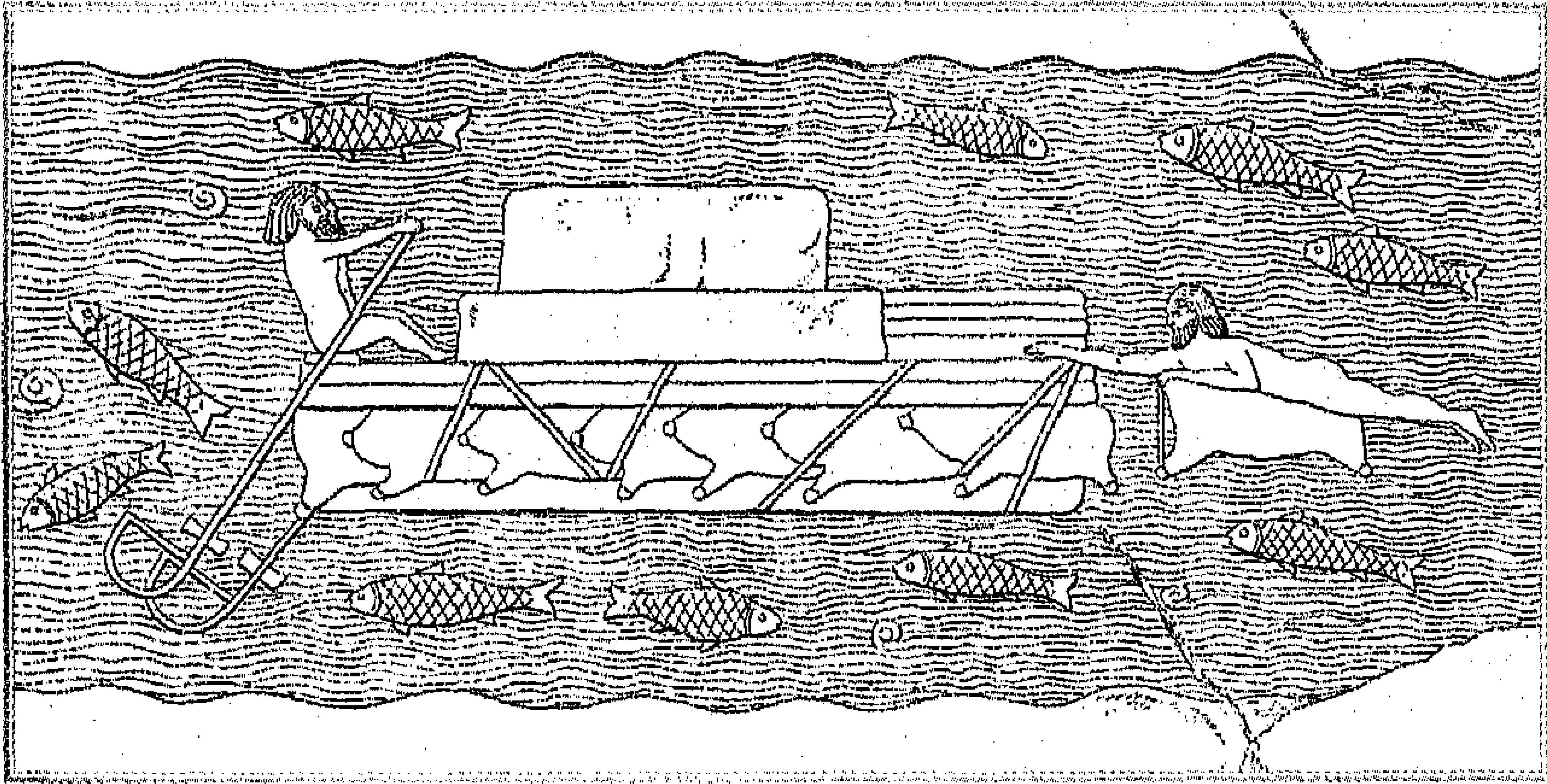


الكلك على نهر الدجلة – نقلاً عن بلايس، اللوحة ٤٣

(١) يعبر البدو النهر أثناء حملات الغزو بحملهم الخفيف عند عدة نقاط من نهر دجلة .
(٢) [المترجم : هكذا وردت الكتابة باللغة العربية في المرجع الألماني].

مراكب دجلة

لا تستعمل البواخر العادية للقيام بهذه الرحلات، وإنما تستعمل مراكب غريبة الصنع تسمى الكلك، ثبت أنها كانت تستعمل منذ آلاف السنين على دجلة والفرات، ويتكوّن الكلك عادة في الأساس من عدة صفوف من جلود الماعز المنفوخة، تثبّت فوقها قضبان باتجاه الطول والعرض، ثم تثبّت على القضبان ألواح خشبية توزّع فوقها الحمولة توزيعاً منتظماً، وتكون أفواه القرب متجهة إلى الأعلى، بحيث يستطيع المرء إعادة نفخها أثناء الطريق إذا تسرّب منها الهواء، أما حركة الكلك فيتحكم فيها التيار؛ ذلك أن المجدافين المثبتين عند المؤخرة لا يصلحان في الواقع إلا للتوجيه، خاصة أن جزء التجديف منها هو مجرّد قطعة خشبية قليلة العرض مثبتة عند طرف العصا، ولكي تستطيع مثل هذه المجاديف أن تأتي بنتيجة مفيدة ينبغي أن تضاف إليها أربعة أو ستة أخرى، إلى جانب ذلك يتميز عمال المركب "كلكجي" بقدر كبير من الكسل رغم أنهم يتقدمون للقيام بهذا العمل بطريقة منتظمة، ولذلك يجب استعمال الطرق المتعارف عليها في الشرق لتذكيرهم بالتزامهم.



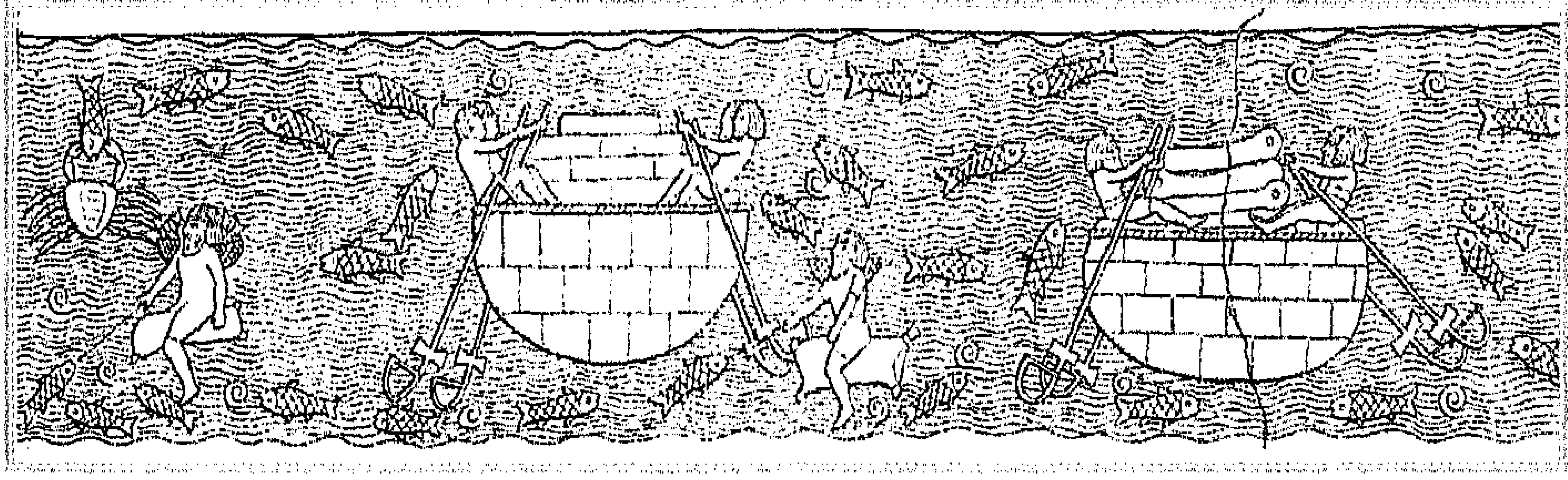
الكلك في العصر الآشوري - بلايس اللوحة ٤٣

وينتهي صنع المركب في ذاته بتثبيت صفوف الأعمدة، إلا أنه يُشيّد فوق ذلك كوخ أو خيمة للمسافرين، وكان المركب الذي استعملته مربع الشكل يتركب من مائتي قربة، وكان الكوخ يحتوي على ثلاث غرف مربعة الشكل يبلغ طول ضلعها قرابة ست أقدام، ويحيط بالكوخ مستودع عرضه نهاز خمس أقدام، تتكدس فيه الأمتعة والمُوَن، ويتم فيه طبخ الأكل، ويقيم فيه فريق الخدم.

الكلك الذي استعملته

لأنّ المُؤَن لم تكن متوفرة أثناء الطريق إلا في بعض المواضع القليلة، فقد وجب علينا أن نتزوّد من الموصل بما يكفي لعدة أيام .

كانت إقامتنا على متن الكلك طويلة جداً عمّا يمكن اعتباره إقامة مريحة، ولذلك فإنني أؤكّد نصيحة جميع المسافرين على دجلة بعدم استعمال هذه الوسيلة، ولم تكن أرضية العبّارة مسطحة، ما جعل المشي فوق الأديم المحدودب المبلل مستحيلاً، ولذلك أنصح بالإسراع في فرْش طبقة من الخشب المصقول فوق الأرضية دون استعمال المسامير؛ لأنه ينبغي إزالتها كل مرة عند إصلاح القرب، وهو عمل يتكرّر القيام به كثيراً، و يشعر أهل الشرق – على عكس ذلك – بمتعة متميزة عند استعمال الكلك ؛ لأن ذلك يوفّر لهم الحركة وبذل الجهد، إضافة إلى أن الشرقي لا يحتاج إلى مساحات كبيرة فيما يتعلق بالمكان، وقد كانت المتعة "كيف" واضحة على وجوه رفاقي بسبب استلقائهم طوال اليوم على أرضية المركب دون حركة وتمتّعهم بأشعة الشمس ومنظر المياه، ولذلك فقد كانوا في منتهى السعادة والمرح أثناء الرحلة كلها.



وسائل النقل على نهر الدجلة في العهد الآشوري – بلاس اللوحة ٤٤

في العادة يستأجر المسافرون في الموصل الكلك استئجاراً، ويتم تحديد الثمن حسب عدد القِرَب فيه، إذ يدفعون نحو خمسة قروش على كل قربة، كما يدفعون مبلغاً آخر للكوخ الذي يشيد على المركب ، إضافة إلى إكرامية – بقشيش – للعاملين عليه، ويباع خشب الكلك الذي يقطع من غابات الجبال الكردية بأسعار عالية في بغداد التي تفتقر إلى الخشب، في حين تتم معالجة القِرَب لضمان حسن المحافظة عليها وتضمّ في حزمة لتعاد إلى الموصل.

وتختلف المدة التي تستغرقها الرحلة من الموصل إلى بغداد باختلاف الفصل ومستوى المياه والرياح، خاصة فيما يتعلق بالمراكب المزوّدة بأكواخ، وعندما يضعف التيار، أي عند الدخول في منطقة بابل الحقيقية.

أخطار السفر على النهر

تُجبِر الرياح المعاكسة المراكب في كثير من الأحيان على التوقف لعدة أيام، في العادة تدوم الرحلة في فصل الربيع - عندما يبلغ مستوى المياه أقصاه - أربعة أو خمسة أيام، وتدوم في الخريف من تسعة إلى اثني عشر يوماً، أما رحلتي أنا فقد استغرقت سبعة أيام .

وتمارس مهنة العمل على المراكب شمال الموصل أيضا من منطقة ديار بكر، إلا أن هذه المسافة أكثر خطراً من السفر من الموصل إلى بغداد بسبب كثرة الدّوّامات المائية والمضيقات(١)، وإذا جاء المسافر من ديار بكر فإنه ينبغي عليه في العادة تغيير المركب في الموصل حيث تكون المراكب قد نهكها الاستعمال أثناء الطريق، ولذلك تعجز عن مواصلة الرحلة، من هذا المكان يقل عدد المواقع التي يشتد فيها التيار، فلا يهدد الخطر المركب إلا نادراً حتى عند انخفاض مستوى المياه، وتقع أهم منطقة يشتد فيها التيار بين الموصل ومصبّ الزاب الأعلى، كما توجد مناطق صغيرة أخرى في المجرى الأسفل عندما يضيق نهر دجلة بسبب تقدم سلسلة الجبال، ويبلغ فارق الارتفاع بين الموصل وبغداد مائتين وعشرة أمتار على مسافة تبلغ نحو أربعمائة وخمسين كيلومتراً .

كانت أخطار كبرى تهدد المراكب في السابق من قِبَل سكان الضفاف، فكثيراً ما هاجم الشمر وقبائل أخرى تتنقل على قرب من دجلة المراكب ونهبوها أو فرضوا عليها ضرائب ثقيلة، وكانت إلى جانب العصابات المتنقلة قلاع كثيرة لقطاع الطرق الذين يهاجمون المسافرين فيحرقونهم ويعرقلون عملية التنقل، ولا تزال إلى اليوم على صخور الضفة الداخلة في النهر آثار تشبه إلى حد بعيد قلاع الفرسان على نهر الراين، أما في العصر الحديث فقد تحسنت ظروف الأمن على النهر بقدر كبير، إذ نجح الباب العالي نجاحاً ملحوظاً في ترويض مصادر الشغب، فقد التزم الشمر بالكفّ عن التعرض للمراكب بل تعهّدوا حتى بحمايتها من اللصوص الآخرين، ومع ذلك لا نستطيع القول إن التنقل أصبح آمناً تماماً في الوقت الحالي.

(١) يوجد وصف لمثل هذه الرحلات عند مولتكه وموللر- سيمونيس، أما الأكثر تفصيلاً فهو عند ساندرزكي في المرجع المذكور الجزء الأول، ص ٢٥٨ - ٣١٦.

ما كان الرحالة الفرنسي الكونت دو شولي سنة ١٨٩١م لينجو من قبيلة هاماوند قبل تكريت بقليل إلا بفضل محالفة الحظ له، فقد شهد بعينيه كيف استولت عصابة من الفرسان من خمسة وسبعين رجلاً على عدة مراكب وقتلت العاملين عليها، أما هو نفسه فقد استطاع اللجوء بمركبه إلى الضفة الغربية وعبور المنطقة الضيقة التي تمركز فيها اللصوص وجعلوا عليها حراسة[1] عند منتصف الليل بمساعدة الرياح العاصفة والأمطار، ولقد خصص والي الموصل رجلين من " الضابطية " لمرافقتي خاصة أثناء الرحلات القصيرة على الضفاف.

مغادرة الموصل إلى بغداد

تتميز المناظر الطبيعية بين الموصل وبغداد بأنها متشابهة وغير جذابة، إضافة إلى ذلك كان . مستوى المياه أثناء رحلتي منخفضاً إلى درجة لا يمكن معها رؤية ما وراء الضفاف إلا نادراً، ولا يوجد بعض التغيير لهذه الرتابة إلا عند مواضع قليلة، مثلاً عندما يخترق النهر جبل حمرين، إذ تشكّل الصخور المشرفة على النهر مشهداً لا يخلو من الجمال، و لم نعثر في طريقنا خلال هذه الرحلة إلا على عدد قليل من القرى، وتقيم على الضفاف قبائل متفاوتة في الاستقرار تعيش في خيام أو في أكواخ فقيرة، وتشتغل في الزراعة بين الفينة والأخرى، ولا يتغير منظر الضفاف إلا في منتصف سامرّاء عند دخول أراضي بابل الحقيقية، ثم تتكاثر القرى شيئاً فشيئاً وتظهر أشجار النخيل التي تخلو منها الأراضي الآشورية خلوّاً تامّاً، وتتمثل الأهمية الكبرى أثناء الرحلة على نهر دجلة في الآثار الكثيرة التي بقيت من القرون الخوالي، وهي هضاب ركاميّة كأنها الجبال وأنقاض قصور وقلاع على جانبي النهر.

كنت أسعى قدر المستطاع إلى تجنب السفر ليلاً، ولكنني توقفت عند جميع الأماكن المهمة رغم الوقت الكثير الذي يستغرقه ذلك، وسوف أذكر أسماء المواضع وفقاً لما أخبرني به " الكلكجية "[2]، أمّا المعطيات الزمنية فلا يمكن أن نعتمد عليها كتحديد موثوق به للمسافات، ذلك أن سرعة الرحلة كانت تتغير كثيرا حسب تغير اتجاه الرياح وشدة التيار .

بعد التمهيد المعقد والتأخير الذي لا يمكن تجنّبه في بلاد الشرق، استطعنا الإقلاع من موضع انطلاق المركب عند أسفل الجسر الكبير يوم الأربعاء الثالث والعشرين من شهر أغسطس

(١) قارن شولي– أرمينيا وكردستان وبلاد ما بين النهرين، باريس ١٨٩٢م، ص ٣٠٣ وما يليها.
(٢) الكلكجية: العمال الذين يعملون على مراكب " الكلك ".

الساعة الواحدة وخمسين دقيقة بعد الظهر، وسار المركب بسرعة متوسطة ماراً بقصر الوالي وحدائق المدينة التي تمتد على الجانب الأيمن مسافة تقارب ساعة من الزمن وتسمّى "صف التوت"، في حين بقي ميدان أنقاض مدينة نينوى على الجانب الأيسر، وأبصرنا الساعة الثانية وخمسين دقيقة قرية يارمجة التي تقع فوق هضبة على الجانب الأيسر وتحتوي على قرابة مائتي بيت من الحجر يقيم فيها التركمان، ومررنا الساعة الثالثة وسبع عشرة دقيقة على يميننا باستراحة ريفية فسيحة تزين الأبراج مبناها، وتقوم على مرتفع جبلي يمتد من ناحية الشمال، ويملكها صاحبنا يونس باي ويطلق عليها اسم " سرمون"، وكانت سرمون - التي سماها قصر السّرمون خاوية على عروشها حين زارها أينزوورث، ويبدو أنها لم تشيد من جديد إلا في وقت لاحق، وتملك هذه الاستراحة مجرى مائياً خاصاً قادماً من النهر، وعلى مقربة من المبنى في اتجاه الغرب، تقع قرية أبو سيف الكبيرة التي تعد مائة بيت المصنوعة من الحجر والملاط ويملكها قوم "أبو علي" العابد، ووجدنا الساعة الرابعة وثماني عشرة دقيقة على شمالنا قريتين، إحداهما أقرب إلى الضفة وتسمى الشمسيات، والأخرى تقع على مسافة قليلة باتجاه البر وتسمى قص فاخرة، وتشتمل كل منهما قرابة سبعين بيتاً من الطين يقيم فيها التركمان، وأبصرنا الرابعة وخمساً وعشرين دقيقة قرية القنيطرة الصغيرة التي تحتوي على نحو عشرين بيتاً من الطين يقيم فيها الجبور، وتقوم على الطرف الجنوبي من السلسلة الجبلية التي تقع سرمون على طرفها الشمالي ، ومررنا الساعة الرابعة وخمساً وثلاثين دقيقة بقرية الجبور التي تسمّى البوجواري على يميننا وتشمل قرابة خمسة وثلاثين بيتاً من الطين - يسميها تشيسني قرية البوجواري ويسميها جونز البوجيارا - ومررنا الساعة الخامسة على شمالنا بقرية أم قصير والمقصود بذلك " القرية ذات القصر"، وتشمل تسعين بيتاً بعضها من الحجر وبعضها من الطين يقيم فيها التركمان، و يملك هذه القرية رجل غني في الموصل " أفندي " و تعود تسمية هذه القرية إلى مبنى شامخ يقوم في وسطها، ويصبّ على الجانب الأيمن مقابل القرية جدول صغير تحتوي مياهه على الكبريت ويسمى " المكبرت "، ومررنا الساعة الخامسة وعشر دقائق على يميننا بقرية صغيرة تدعى لزّاقة وتشمل ثلاثين بيتاً من الحجر والطين يقيم فيها بدو أصبحوا اليوم مستقرين، ويبدو أنهم فرع من قبيلة أبو حسين يسمى فريقهم أبو سلمان - أو البو سلمان - ووجدنا الساعة الخامسة وأربعين دقيقة على شمالنا قرية للجبور تدعى صفق وتشتمل على عشرة بيوت من الآجر، ومررنا الساعة السادسة وخمساً وعشرين دقيقة على يميننا بقرية العريج التي تضم ثمانين بيتاً

من الآجر يقيم فيها البوسلمان أيضاً، ومررنا الساعة السادسة وخمساً وثلاثين دقيقة على شمالنا بتل الشياطين الذي تبدو على قمته كتل من الحجارة والصخور، وتقع قرية حاوي أصلان التي يسكنها البوحسين أيضاً على الجانب الأيسر وتشمل خمسة وعشرين بيتاً من الطين، ويقع حمام علي(١) قبالة ذلك تماماً على الجانب الأيمن.

منطقة السباحة " حمّام علي "

يقع الحمام الحقيقي داخل اليابسة بالقرب من هضاب ركاميّة مختلفة يبدو أنها تواري بقايا مدينة قديمة مهمة، ويقال: إن إحدى هذه الهضاب - وتدعى تل السبت - تشير إلى مكان كان يقيم فيه الأسرى اليهود، و لم تسفر الحفريات الوحيدة حتى الآن ، والتي قام بها لايارد(٢) دون أن يتعمق في جوف الأرض عن أية نتيجة، وقد شيدت قرية حديثة عند سفح التل، غير أنها تداعت جزئياً بسبب حريق نشب فيها، ويشمل الحمام نبعين كبريتيين تبلغ درجة الحرارة فيهما ٤٧ أو ٤٨ درجة مئوية، وتقوم عليهما قبتان متوسطتا الحجم، وتوجد ينابيع أخرى يخرج منها ماء يحتوي على النفط والإسفلت، ويحتوي مركب المسبح على غرف لتغيير الملابس تنظف يومياً، وتفتح في ساعات معينة بالتداول مرة للرجال ومرة للنساء، أما المياه المستعملة فإنها تصرف إلى نهر دجلة، وتحيط بالنبع مجموعة من البيوت المصنوعة من الطين، وأخرى من الخشب تحتوي متاجر ومقاه يعمل فيها تجار نشيطون يأتون إلى هذه الربوع في الفصل المناسب، ويوجد حي كامل تتخلله طرقات واسعة يضمّ بيوتاً تؤجر إلى الضيوف الذين يؤمون الحمّام، وجميع هذه البيوت متجانسة، فهي مبنية من الآجر المصنوع من الطين ومغطاة بالحَلْفاء المجففة، وتتكون من طابق واحد منخفض عادة ما يكون مفتوحاً على بهو صغير، وتؤجر هذه البيوت بطبيعة الحال دون أثاث، ويجلب الضيوف الفرش والوسائد ومعدات الطبخ وما شابه ذلك من منازلهم، إضافة إلى ذلك ينصب الزوار في حمّام علي خلال الموسم خياما عديدة وبيوتاً من القش والحَلْفاء، ويأتي إلى هذا المكان زوّار من جميع الطبقات منهم الغني ومنهم الفقير، والمسيحيون واليهود، وأعيان مسلمون من الموصل وبغداد، ويسبح الناس منذ الصباح حتى ساعة متأخرة من الليل، وتستغرق مدة الاستشفاء من ثلاثة إلى أربعة أسابيع، أما الموسم الحقيقي

---

(١) قارن أينزوورث – رحلات وبحوث، لندن ١٨٩٢م الجزء الثاني، ص ١٤٩. ولايارد –نينوى وبابل، الطبعة الألمانية، ص ٣٥٣ وفي – نينوى وبقاياها، الطبعة الإنجليزية، الجزء الأول، ص ٤ وما يليها، وكاميرون في المرجع المذكور، الجزء الثاني، ص ٢٤٥ وما يليها.

(٢) نينوى وبابل ص ٣٥٣.

فيكون في فصل الصيف، ولقد وجدت الحركة في أوج نشاطها والمقاهي تعجّ بالضيوف، وتضجّ بالموسيقى، ويشرف على المنطقة رجال من ضابطية الموصل.

في اليوم التالي الموافق للرابع والعشرين من شهر أغسطس، غادر المركب مرساه في الصباح الباكر، ومررنا الساعة الرابعة والنصف صباحاً على يميننا بقرية الجبور التي تسمى جهينة، وهي قرية تشمل مائة بيت من الطين، تقابلها على الجانب الأيسر السلمية، وهي قرية أكبر، تشمل مائة وخمسين بيتاً من الحجر والملاط يقيم فيها التركمان، وانزلق المركب عند الساعة السادسة فوق حاجز (١) في مجرى التيار دون أن يلحقه أي ضرر، وقد لاحظ كينير الذي عبر هذا الشلال في شهر أغسطس، حين كان مستوى المياه منخفضاً جداً لاحظ وجود كتل صخرية كبيرة في هذا الموضع من النهر، وذكر أنها في رأيه بقايا سدّ قديم (٢)، وقد حاول لايارد اقتفاء أثره فتتبّع طريقه على الضفة الشرقية، لكنه ما لبث أن أقلع عن العمل بعد أيام قليلة من الحفريات(٣)، ومن المرجّح أن هذه الشلالات تكوّنت بسبب جدار صناعي يعود إلى بقايا مدينة نمرود التي تقع مباشرة عند أسفل هذا الموضع، في حين يعتقد بيترمان(٤) بناء على أقوال العرب أن هذا الجدار من بقايا جسر حجري بني فوق كتل صخرية طبيعية توجد في هذا الموضع من النهر.

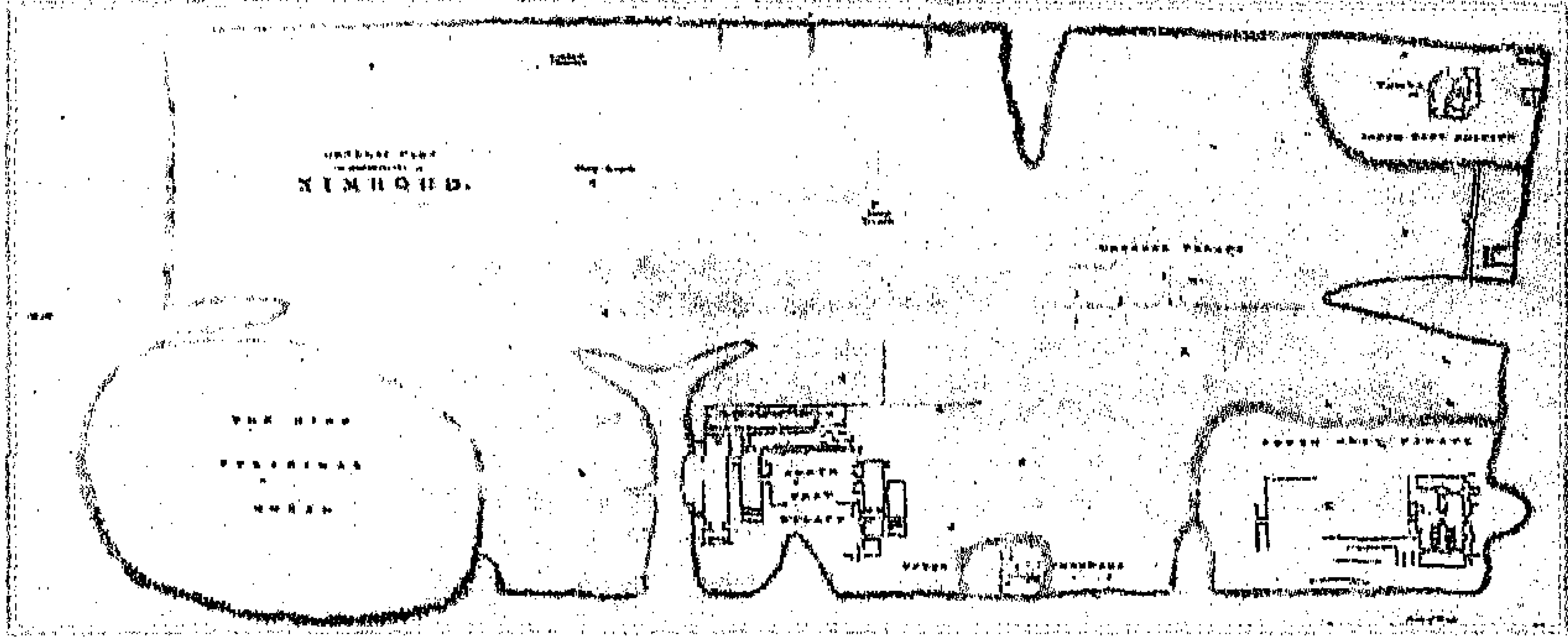


مدينة نمرود نقلاً عن لايارد

(١) قارن ريتش – إقامة في كردستان ، الجزء الثاني، ص ١٢٩.
(٢) قارن كينير في – رحلة عبر آسيا الصغرى ، ص ٤٦٥.
(٣) قارن لايارد في المرجع المذكور، ص ٣٥٤.
(٤) قارن المرجع المذكور، الجزء الثاني، ص ٥٤.

آثار مدينة نمرود

أرسى المركب الساعة السادسة وعشرين دقيقة على الضفة اليسرى للنهر فنزلنا إلى اليابسة لزيارة آثار نمرود، ويقع حقل الآثار الحقيقي على مسافة نصف ساعة داخل البر، بعيداً عن النهر الذي يرسم اليوم قوساً واسعة عند أسفل قرية السلمية، في حين أنه كان في السابق يجري عند جدران المدينة القديمة مباشرة، ولا تزال آثار المجرى القديم للنهر واضحة للعيان إلى اليوم .



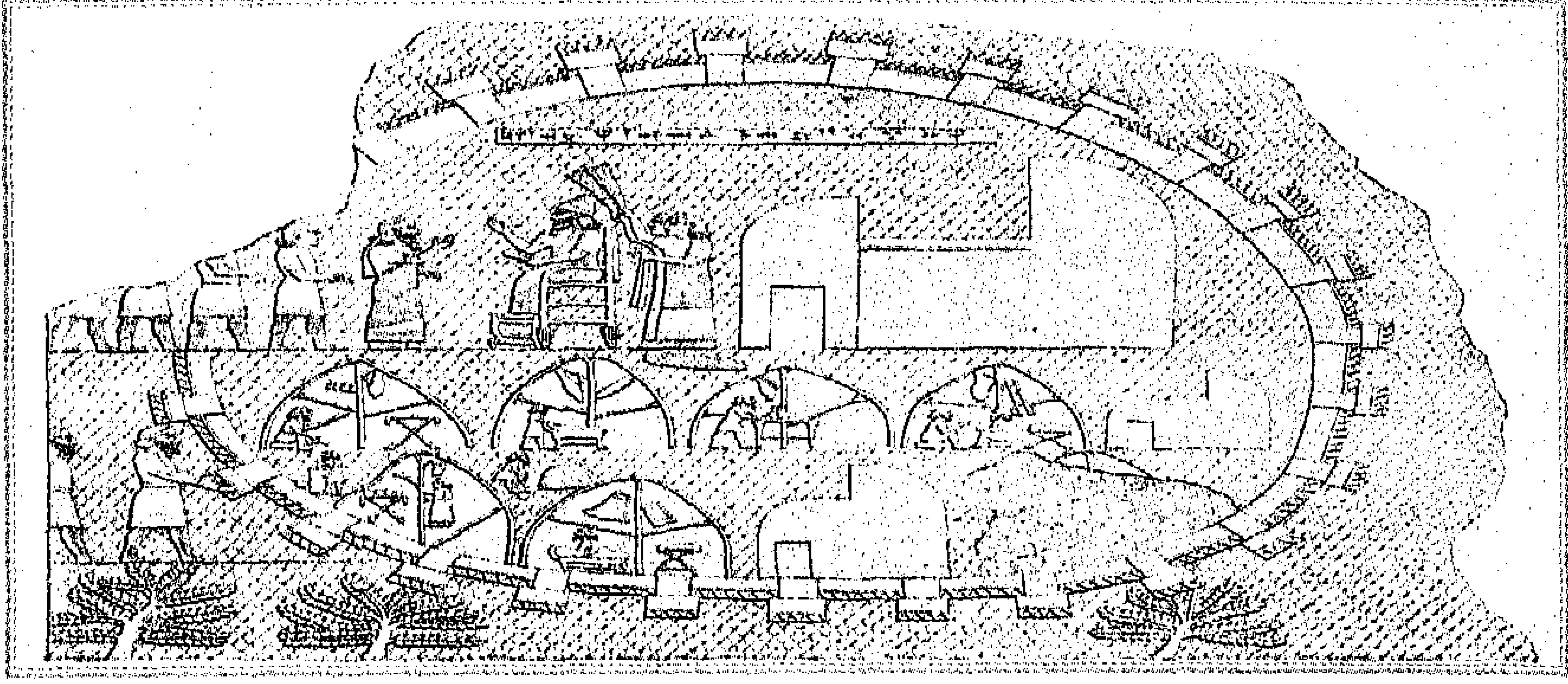
مخطط للهضاب الأثرية لمدينة نمرود نقلاً عن لارياد

ويتركب حقل آثار مدينة نمرود في الأساس من هضبة مستطيلة الشكل تمتد من الجنوب إلى الشمال على هيئة السهل المرتفع، يبلغ عرضها ثلاثمائة متر في حين يبلغ طولها ضعف ذلك، ولقد سبق أن كشفت حفريات لايارد ورسّام عن بقايا أربعة قصور(١).

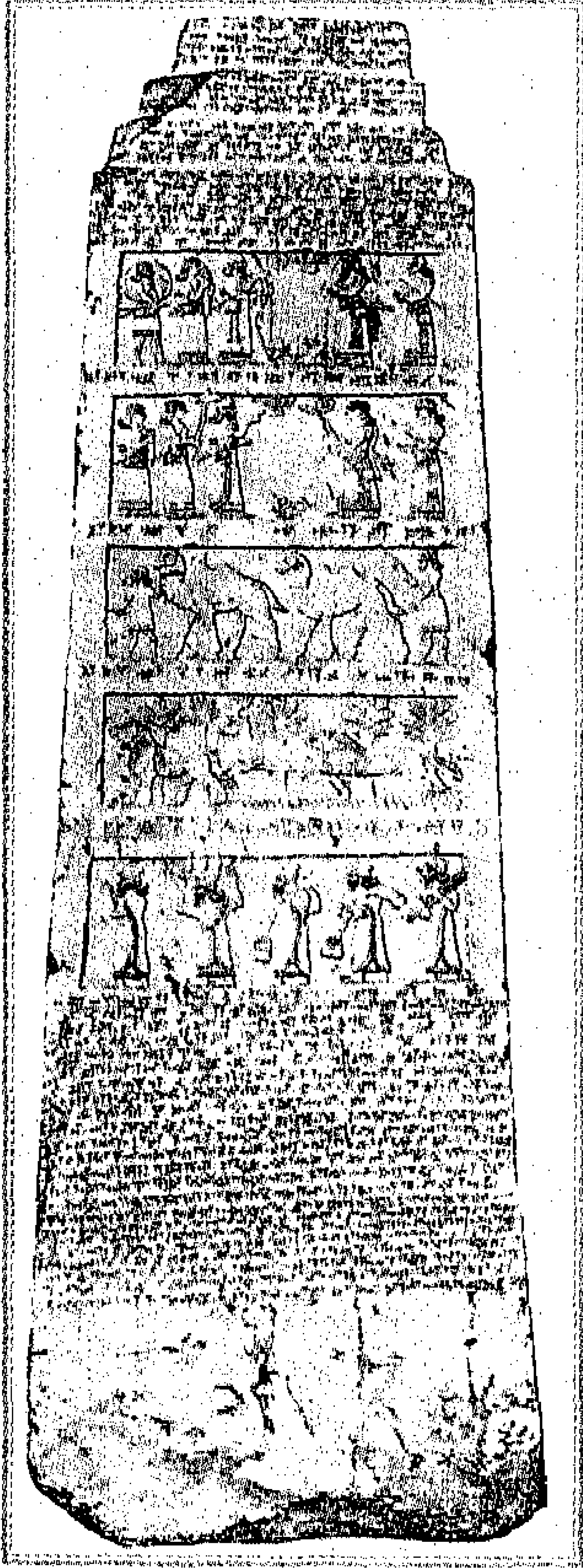
يتكون الركن الشمالي الغربي للهضبة من كتلة بارزة كروية الشكل ترتفع مسافة ١١٠ أقدام عن مستوى السفح وقرابة سبعين قدماً عن الهضبة نفسها، وقد تشكلت هذه الكتلة بسبب تداعي أحد الطوابق العليا لأحد الأبراج الذي يذكر لايارد أنه كان يتكوّن من خمسة طوابق، تصغر تدريجياً كلما ازداد ارتفاع البرج، ويبلغ الارتفاع الأصلي عن مستوى السطح أكثر من مائة وخمسين قدماً، حيث كان الطابق الأسفل الذي يمثل الشرفة يبلغ ارتفاعاً يزيد بقليل على خمسة وعشرين متراً، وفي الكتلة الركاميّة ثقب عميق يكشف بوضوح عن هيكل المبنى المشيد من الآجر غير المعالج بالنار والمكسو بغلاف من الحجارة، أما القرميد المنهار فقد أثرت فيه الأمطار فأصبح سطحه كتلة صمّاء .

---

(١) قارن لايارد – نينوى وبقاياها ، الجزء الأول، المخطط رقم واحد، الصفحة ٣٣٢ ثم لايارد أيضا في – نينوى وبابل، المخطط رقم ٢ و ٣.


رسم آشوري لبيوت وخيام، لارياد – اللوحة ٧٧

يقول لايارد : إن هذا المبنى يمثل ضريح آشوربانيبال[1]، في حين يذكر باحثون آخرون أن هذا الملك شيد بنفسه هذا الهرم، وقد تم كشف مبنيين يبدو أنهما كانا معبدين في موضع يقع فوق المصطبة الكبيرة شرق هذه الهضبة، ينتهي إلى المكان الذي يقع بين المبنيين درج عريض أو سلّم مائل يقود إلى شرفة لا تزال آثاره واضحة إلى اليوم على هيئة أخدود عميق، ويبدو أن القصور الأربعة التي كشف عنها لايارد ورسّام تحتوي جميعها على درج أو سلّم مشابه ينتهي إلى طريق معبدة، وقد تكوّن الأديم المحدودب لهذه المصطبة بسبب تداعي المباني المختلفة.


مسلة نمرود، لارياد – اللوحة ٥٣

القصور الملكية في مدينة نمرود

تقوم المباني التي يرجع عهدها إلى الملك آشور بانيبال والتي أطلق عليها مكتشفها اسم القصر الشمالي الغربي جنوب هضبة الهرم، أي على الجانب الغربي للسهل المرتفع، يفصلها الأخدود الأكبر الذي يشير إلى مكان السلم أو الدرج الذي سبق ذكره، إلا أنني أعتقد أن التسمية الأنسب لهذه المباني ينبغي أن تكون القصر الغربي، حيث إن القصر يقوم عند وسط الواجهة الغربية للمصطبة.

(١) قارن فيما سبق من الفصل ٥ ص ١٩٨ وما يليها.



زخرف على ثياب من العصور الآشورية، لارياد – اللوحة ٤٤: نمرود

ويقع المدخل الرئيسي لهذا القصر في الجانب الشمالي ويقود إليه الدرج المذكور، وتمّ الكشف عن قصر الملك آشور حادون ويسمى عادة القصر الجنوبي الغربي عند الركن الجنوبي الغربي لهذه الهضبة، وبين القصرين درجان يدل عليهما الأخدود الواضح للعيان، كما يمكن تبين آثار لمباني أخرى بين السلالم، أما القصر الذي يقوم على الجانب الجنوبي الشرقي من الهضبة فمقاساته أقل بكثير من مقاسات القصور الأخرى، وقد شيده الملك آشور إيديل إيلي، وهو حفيد من أحفاد الملك الذي شيد القصر الجنوبي الغربي على أنقاض مبنى قديم آخر على ما يبدو(١)، وتتميز الآثار المنحوتة التي تم العثور عليها في هذا الموضع بأنها ذات طابع أكثر بدائية من التي في القصور الأخرى، ويتجلى هذا القصر والقصر الذي سبق ذكره على هيئة مرتفعين كبيرين على المصطبة الضخمة التي يبدو أنه كان يغطيها الإسمنت خاصة في هذا الموضع، أما القصر الرابع الذي يدعى القصر المركزي فيقوم عند وسط الهضبة تماماً ولكنه أقرب إلى الطرف الجنوبي، وقد شيده الملك تغلات بيليسار الثاني.

العمران الجديد فوق حقول الآثار

وقد بقي من هذا القصر أقل مما بقي من القصور الأخرى، إذ يبدو أن الملك آشور حادون الذي ينتمي إلى سلالة مختلفة، قد هدم مقر إقامة الملك الذي سبقه، ولقد ثبت أنه أخذ المنحوتات التي كانت تغطي الجدران، واستعملها في بناء القصر الجنوبي الغربي(٢).

أما في الناحية الشرقية والشمالية الشرقية فإنه لم يكشف إلى الآن عن أي قصور أخرى، رغم أن لايارد أجرى هناك بعض الحفريات المتفرقة، ولكن لا ريب في أن هذا الجزء من الهضبة

(١) قارن لايارد – نينوى وبابل، ص ٤٩٩.
(٢) قارن شرادر – الكتابات المسمارية والعهد القديم، ص ٢٤٣.

يواري بقايا قصور ملكية أخرى أيضاً، ويصعد درج آخر من النوع الذي سبق وصفه في الناحية الشرقية من المصطبة.

رغم أنه تم نقل الكنوز الفنية التي كشفت إلى لندن والقسطنطينية، لا يزال في الموضع نفسه كثير من اللوحات الكبيرة المزخرفة بالنقوش المحفورة والكتابات، وكذلك تماثيل لثيران مجنّحة تحمل رؤوساً بشرية، وفي القصر الشمالي الغربي على وجه التخصيص، ما يزال ترتيب الغرف المختلفة والردهات واضحاً للعيان إلى اليوم، وقد لحق هذه الكنوز الفنية- التي استطاعت بفضل الغطاء الركامي المتداعي فوقها أن تصمد أمام نائبات الدهر آلاف السنين - قد لحقها اليوم كثير من الدمار خلال السنين القليلة التي انقضت منذ الكشف عنها، ذلك أنه لم يغطَّ إلا القليل منها من جديد بطبقة من التراب بعد إجراء الحفريات.

أما شرفة القصر ففي الركن الجنوبي الغربي من المدينة القديمة التي كانت سابقاً الجزء الجنوبي من مدينة نينوى أو كلخ القديمة، ولم يبق في هذه الأخيرة شيء عدا بعض الهضاب الركاميّة المتفاوتة في الحجم والمتناثرة هنا وهناك، والتي يكتنفها جدار تتوجه أبراج متعددة، لا يزال أثره واضحاً في الشمال والشرق، ويعتقد لايارد أنه تأكّد وجود خمسة وثمانين برجاً من هذه الأبراج سابقاً، ويبدو أن الجدار كان يحتوي على خمسين برجاً في اتجاه الشرق، ويبدو أيضاً أن المدينة كانت على شكل مضلّع يبرز منه رأس في اتجاه الجنوب، وأنه تم في عهود سابقة توجيه فرع من نهر دجلة ليخترق المدينة، أما في الركن الجنوبي الشرقي فيبدو أن قصراً كان يقوم مقام الحصن(١).

واليوم تقوم قريتان كبيرتان فوق منطقة المدينة القديمة إحداهما تسمى نايفة وتشمل مائة بيت تقريباً يقيم فيها فريق من قبيلة جحش، وعلى مسافة ثلاثة أرباع الساعة في اتجاه الجنوب، توجد قرية نمرود الكبيرة، التي تضم نحو مائة وثلاثين كوخاً من الطين يقيم فيها اليوم الجبور الذين لهم علاقة سيئة مع قبيلة جحش، ويبدو أن سكان نمرود كانوا في عهد حفريات لايارد(٢) من قبيلة شموطي.

أخبرنا رجال قبيلة الجبور أنهم يعتبرون أنفسهم الوصي الشرعي على حقول الآثار، واندفعوا في وجهنا بمجرد أن وصلنا إلى شرفة القصر، وسألونا ما إذا كنا نحمل ترخيصاً بزيارة الآثار،

(١) قارن لايارد – نينوى وبابل، ص ٥٠٠ وأيضاً ص ١٢٦.
(٢) قارن لايارد وساندريزكي في المرجع المذكور الجزء الأول، ص ٦١.

غير أننا استطعنا حتى دون هذا الترخيص أن نربط أواصر الصداقة معهم بسرعة، وقمنا بزيارة إلى شيخ الجبور في قريته بعد الاطلاع على الآثار، وحاول الجبور أثناء الطريق أن يقدّموا لنا عرضاً للعبة " الجريد"، إلا أن هؤلاء البدو الذين أصبحوا فلاحين منذ أجيال عديدة قد نسوا هذا الفن على ما يبدو، وأصبحت خيولهم هرمة حزينة، ولقد تذمروا كثيراً من الأكراد المقيمين في المنطقة الشرقية، والتقيت من جديد في منزل الشيخ برفاق سفرنا من الدير إلى الموصل، وهم التجار البدو الثلاثة الذين جاءوا إلى هذا المكان لشراء الأغنام.

شلالات وسدود نهر دجلة

على مسافة بضع دقائق من قرية نمرود باتجاه الجنوب الغربي صعدنا من جديد على متن المركب، الذي كان في هذه الأثناء قد واصل طريقه في اتجاه أسفل التيار، واجتاز حاجزاً وشلالاً آخرين، وكانت الرحلة على النهر ذي المياه الضحلة الذي تتخلله وتقسمه الجزر بطيئة جداً بسبب الرياح التي كانت تهب في عكس اتجاه سيرنا، ومررنا على شمالنا بفرع ميت من نهر الدجلة قد يكون يمثل بقية المجرى السابق للنهر، ووجدنا الساعة الواحدة على يميننا قرية تضم عشرين كوخاً من القصب، سكانها من الجبور الذين يستبدلون أكواخهم في الشتاء بالخيام، وعلى مقربة من هذا الموضع مكسر للأحجار، وعلى الشمال تقوم قريتان للجبور، تسمّى إحداهما السيد أحمد وتتكون من قرابة مائة وعشرين بيتاً من الطين، والثانية تسمى الجرفة وتشمل قرابة مائة وأربعين كوخاً، وبعد ذلك بقليل وعلى الجانب الأيمن وجدنا قرية الجبور التي تسمى صنيديق وتشمل نهاز ثمانين بيتاً من القصب.

عبرنا الساعة الثانية وخمس دقائق شلالاً ثالثاً يدعى سِكر* أو جسر(١)، كان ينبئ بوجوده ارتفاع خرير المياه من مسافة بعيدة، وقد فقد المركب توازنه قليلاً ودار حول نفسه نصف دائرة، الأمر الذي تسبب في ارتخاء عدة قرب وفقدانها لبعض الهواء، لكن العاملين في المركب قفزوا بسرعة إلى الماء، واستطاعوا بسهولة إصلاح العطب الذي لحق به، ونفخوا القرب من جديد بواسطة أنبوب من القصب، أما الصعوبات الكبيرة التي تحدث عنها " بَنْدر " فإنني لم ألاحظ منها شيئاً البتة، وربما كان السبب في وجود الشلال في هذا المكان هو أن سداً كان قائماً في هذا الموضع، وفي موضع قريب إلى يمين سكر تقع قرية للجبور تشتمل على قرابة مائة كوخ من القصب.

*[المترجم : سكر بكسر الكاف ، ويذكر المؤلف أنها تعني : سداً]

(١) قارن ريتش، إقامة في كردستان، الجزء الثاني ص ١٢٩، و فون تيلمان، رحلة في القوقاز، ص ٣٥٠، و بندر – كردستان وبلاد ما بين النهرين وبلاد فارس ص ٢٧٨.

الزاب الأعلى أو الكبير

بدأنا عند الساعة الثانية وخمس وأربعين دقيقة نَشمُّ بقوة رائحة كبريتية آتية من عين على الضفة اليمنى للنهر، وبدأت الضفة اليمنى الساعة الثالثة وعشر دقائق في الارتفاع الذي يمتد من هنا حتى مصبّ الزاب الكبير في نهر دجلة، ويسمى جبل المشراق.

بلغنا الساعة الثالثة وعشرين دقيقة مصب الزاب الأعلى أو الكبير الذي هو واحد من أكبر روافد نهر دجلة، إذ يصب فيه كميات كبيرة من المياه حتى في فصل الصيف، وينبع هذا الرافد من مكان بعيد في أعالي كردستان الوسطى عند موضع يدعى " باش قلعة "، وعلى عكس مياه دجلة العكرة الصفراء فإن مياه الزاب صافية جداً، وتبدو وكأنها خضراء فاتحة اللون، ويشتدّ انحداره إلى دجلة حتى إنه يكاد يفرض عليه اتجاهه طوال مسافة بعيدة، وينقسم النهر عند المصب بسبب الجزر إلى فروع متعددة.

تقوم الهضبة العالية التي تسمى تل كشاف[1] على الضفة اليسرى للزاب، بنحو كيلومترين قبل اتحاده مع دجلة، وعلى مسافة أكبر من النهر ظهرت سلسلة جبال قاره جوق المنعزلة التي تمتد جنوب الزاب الكبير حتى كركوك، وأبصرنا الساعة الثالثة وعشرين دقيقة على اليمين قرية الحضرة التي تحتوي على قرابة مائة وعشرين بيتاً من الطين يقيم فيها الجبور، وظهرت على يميننا الساعة الرابعة تلول الناصر، ووجدنا على شمالنا الساعة الخامسة وعشر دقائق قرية الجبور التي تدعى مصطفى المنصور، وهي قرية تعدّ قرابة ثمانين خيمة، ويرتفع قبالة القرية على الجانب الأيمن تل الشوك الذي يحتوي على قرابة أربعين خيمة للجبور، ومررنا الساعة الخامسة والنصف على شمالنا بتل الشعير، وعلى الجانب الشرقي والجانب الغربي للهضبة قريتان صغيرتان تحتوي كل منهما على بيوت من الطين.

أبصرنا الساعة السادسة وعشرين دقيقة على يميننا تل منقوبة، ويحمل هذا الموضع هذا الاسم لأن هورمزد رسّام أجرى فيه حفريات على ما يبدو، وهنا قرية صغيرة للجبور تعدّ قرابة خمسين خيمة.

(١) يذكر كينير اسم " شاف "، وفيما عدا ذلك نجد أن كتابة أسماء المواضع الموجودة على نهر الدجلة غير صحيحة في معظمها، ليس عند كينير فحسب، وإنما في معظم المراجع الإنجليزية وخرائط الرحالة السابقين أيضاً ، فنجد مثلاً أن كينير يكتب " ماكوه " عوضاً عن " مكحول" و"جلول آكر" عوضاً عن " تلول عاقر"، وقد أخذها عنه ريتر في الجزء الحادي عشر، ص ٦٧١ وكتب "جلال عاكر". أما ريتش الذي أخذ عن كينير خريطته فيكتب " نورشيك" عوضاً عن " مشراق" .

ينبوع الإسفلت الجيارة

في الساعة السادسة وخمس وثلاثين دقيقة كانت على شمالنا قرية، وعلى مسافة قليلة مزار بعض الأولياء الصالحين يحمل كل منهما اسم السلطان عبد الله، ويقيم قوم لهيب في المائة وخمسين بيتاً التي تحتوي عليها القرية، وهؤلاء القوم فرع من قبيلة الجبور الكبيرة، وهنا تقع أقصى نقطة باتجاه الشمال وصلت إليها الباخرة الإنجليزية التي تسمى الفرات في رحلتها الاستطلاعية سنة ١٨٣٩م قادمة من بغداد(١)، وعند الساعة التاسعة وعشر دقائق كانت على شمالنا قرية لقبيلة الجبور تدعى مكوك وتحتوي على مائة وثمانين خيمة، وعند الساعة التاسعة وخمس عشرة دقيقة كانت على يميننا القيارة (٢) التي يلوث لونها الأخضر المسودّ منظر نهر دجلة طوال مسافة كبيرة في اتجاه المصب(٣).

واصلنا السير هذه المرة طوال الليل، وقد أخبرنا الكلكجي في اليوم التالي عن أسماء المواضع التي مررنا بها وحدد لنا التوقيت كما يلي :

في الحادية عشرة على اليمين تل الرقبة وفيه قرابة ثمانين خيمة، في الواحدة والنصف على الشمال مخيم لقبيلة الجبور في حجم القرية السابقة تقريباً ويدعى العوسجة، في الثانية وعشر دقائق إلى الشمال مزار الحاج علي، وهو ضريح صغير عليه قبّة فوق مرتفع تحيط به قرابة ثمانين خيمة لقبيلة الجبور، في الثانية وأربعين دقيقة إلى اليمين مخيم لقبيلة الجبور يحتوي على أربعين خيمة ويدعى الشحلة، في الثالثة وعشر دقائق وعلى اليمين مخيم يدعى قنعوص(٤) وبه قرابة ستين بيتاً، في الثالثة وعشرين دقيقة إلى اليمين قرية تدعى الأبيّض(٥) وفيها قرابة أربعين بيتاً لقبيلة الجبور، وعلى الشمال قرية صغيرة سكانها لصوص من قبيلة الجبور تقع في موضع يسمى رأس قنعوص.

....

(١) قارن ريتر في المرجع المذكور الجزء الحادي عشر، ص ٦٦٨.

(٢) قارن أينزوورث – رحلات ... الجزء الثاني، ص ١٥٢، [المترجم: يقول المؤلف إن كلمة – القيارة – تعني نبع الإسفلت ويكتبها " الجيارة " بالحروف اللاتينية].

(٣) يقول ياقوت في الجزء الثاني ص ٦٨٩ إنه كان يوجد دير في هذا الموضع، و لم يتفحّص الأوروبيون إلى اليوم تلك الكنوز التي لا تزال مواراة تحت أديم الأرض في هذه المنطقة، وأعتقد أنه ليس من المستبعد العثور على النفط عند نهر دجلة، وقد تمّ العثور على ينابيع نفط على درجة عالية من الصفاء والجودة عند شوشتر في بلاد فارس، وهي منطقة تعتبر امتداداً لسلاسل الجبال الهندية التي تمتد من هنا إلى أعماق بلاد فارس.

(٤) قد يكون هو نفسه تل جلوص الذي يسجله ريتش في المرجع المذكور الجزء الثاني ص ١٣٧، ولا يذكر ريتش أية أسماء على طول المسافة الممتدة على النهر من هنا حتى قلعة شرقاط. قارن تل كنوس عند أينزوورث في – تقارير، ص ٣٩١.

(٥) الأبيّض – تصغير لكلمة أبيض – هو الاسم نفسه الذي يطلق على عاصمة كردوفان ويكتب عادة بالحروف اللاتينية على شكل كلمة " عبيد " .

في الساعة الرابعة وعلى الجانب الأيمن مخيم الجبور الذي يدعى الخضران وفيه قرابة خمسين خيمة، وخلفه مخيم الجبور الذي يدعى شكيوية وفيه قرابة تسعين خيمة، وأعتقد أن ترتيب المواضع بهذه الطريقة صحيح، لكنني لا أستطيع تأكيد المعطيات الزمنية والمسافات المذكورة المبنية عليها.

كانت الهضبة المرتفعة التي تدعى قبر القاضي على يميننا يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر أغسطس الساعة الخامسة وخمس وأربعين دقيقة من الصباح الباكر وبلغنا الساعة السادسة والنصف موضعاً يسمح بعبور النهر، توقّفنا الساعة السابعة وعشرين دقيقة على الضفة اليمنى قرب قرية للشمر حتى نتمكن من زيارة أبناء فرحان باشا شيوخ الشمر الجنوبيين، وقد كان موضع نزولنا من المركب على مسافة ساعة أو يزيد شمال آثار قلعة شرقاط التي وصلنا إليها لاحقاً عن طريق البر لنواصل رحلتنا المائية انطلاقاً من جنوب المدينة الأثرية (١).

زيارة للشمر الجنوبيين

وجدنا عدداً كبيراً من خيام الشمر منصوبة عند النهر وداخل اليابسة، وكان المخيم تحت إمرة ابني فرحان فيصل ومطلق، وكان بعض أبناء فرحان قد نصبوا خيامهم في ذلك العهد قرب المدينة الأثرية حترا - الحضر- التي تقع على مسافة يوم أو يزيد في اتجاه الغرب(٢)، وقد رحّب بنا أهل القبيلة ورافقونا إلى خيمة فيصل - أكبر الأخوين - التي كانت قائمة عند الطرف الشمالي للمخيم، وكان خبر زيارتي التي استغرقت عدة أيام في مخيم الشيخ فارس قد بلغ أهل القبيلة، ولذلك فإن فيصلاً الذي كان رجلاً في متوسط العمر، وسيماً يبدو على ملامحه الذكاء، طلب مني بمنتهى اللطف قضاء عدة أيام عنده هو الآخر، ولكن لأسفي الشديد لم يكن باستطاعتي قبول هذه الدعوة الكريمة، ولا قبول دعوة لزيارة حترا؛ لأن أخباراً مزعجة بلغت الموصل تفيد أن وباء الكوليرا ظهر في بغداد، وقد كنت في عجلة من أمري للوصول إلى هناك في أقرب وقت حتى أتمكن من زيارة الحلّة و كربلاء، قبل البداية في تنفيذ القوانين المنتظر إعلانها بخصوص عزل المنطقة (٣).

(١) يذكر ريتش تلول عقير على الضفة اليسرى للنهر على مسافة قليلة شمال قلعة شرقاط. وحسب ريتش وكينير فإن قوم البوحسين وقوم أبو دولة كانوا يقيمون بالقرب من تلول عقير . يذكر كينير، ص ٤٦٦ في هذا الموضع هضاباً صخرية تدعى جبل حسين، ويذكر ريتش في – تقارير إقامة في كردستان، لندن ١٨٣٦ م الجزء الثاني، ص ١٣٧ وجود شلالات في النهر بين تلول عقير وقلعة شرقاط يرجع السبب فيه إلى بقايا جدران قديمة.

(٢) قارن فيما سبق الفصل ١، ص ٩.

(٣) اضطررت للأسف إلى العدول عن زيارة بابل التي بدأ فيها تنفيذ قوانين الحَجْر الصحي.

فيصل ومطلق ابنا فرحان باشا

لقد لبّيت دعوة فيصل لتناول فطور الصباح، وأقبلت بِنَهم على الأكل من طبق الرز المملوء ببقايا لحم الخرفان من اليوم السابق بعد أن سكبت عليها كمية كبيرة من السمن، وكانت خيمة فيصل أصغر بكثير من خيمة فارس، وقد أعربنا للشيخ فيصل عن رغبتنا في الاطلاع على قسم الحريم من الخيمة أيضاً، وقد كان تصرّف الشيخ فيصل على عكس الخجل المتعارف عليه عند المسلمين في المدن فيما يتعلق بلقاء نسائهم مع رجال ليسوا من أقاربهم، خاصة إذا كانوا من غير المسلمين، فقد بلغ به الأمر أن ألح علينا في زيارة الأقسام المختلفة التي تقيم فيها كل من زوجاته الثلاث، حتى إنه اعتذر؛ لأن الوقت لم يسمح لهن بالاستعداد لاستقبالنا ووضع حليهن وزينتهن للقائنا، وتعيش في قسم النساء من خيمة الشيخ فيصل ذاتها زوجته الكبرى التي أنجبت له عدة أطفال، كما يوجد في هذه الخيمة المطبخ المخصص له، والصندوق الخاص لملابسه الشخصية والهودج الجميل، أما زوجتاه الأُخْريان فقد كان لكل منهما خيمة أصغر من خيمة الشيخ فيصل تقومان على مسافة قريبة جداً منها، وتبلغ الزوجة الصغرى أربع عشرة سنة من العمر ولم يمض على زواجها من الشيخ فيصل إلا مدة وجيزة، وقد كانت ذات جمال باهر، هيفاء متوسطة القامة لكنها مكتملة النمو مرنة الجسم، وكانت عيناها السوداوان المتوقدتان وأسنانها البيضاء الناصعة تلمع في وجه أسمر تكتنفه خصلات متمردة من الشعر الأسود، وكان حليها أجمل بكثير من حلي ضرّتيها اللتين تكبرانها سنّاً، وكانت عندها خادمة زنجية حاضرة دائما بين يديها لتلبية رغباتها وتنفيذ أوامرها، وقد استقبلتني النساء بحرارة وحفاوة، وكان سرورهن عظيماً بالمرايا المعدنية الصغيرة البسيطة التي أهديتها إليهن.

انطلقنا من مخيمنا لزيارة حقول الآثار في قلعة شرقاط، وأرسل فيصل معنا بعض المرافقين من رجاله ووضع تحت تصرفنا عدداً من الخيول، وبعد مسيرة ساعة من الزمن عبرنا خلالها جدولاً جافاً وصلنا بعده مباشرة إلى المركّب العظيم من الهضاب الركامية التي تمثل قلعة شرقاط، وكان حقل الآثار على شكل قريب من المثلث يصدم أحد أضلاعه الطويلة دجلة وينحدر بحدة إلى النهر، وقد انحرف التيار منذ مدة باتجاه الغرب بحيث أصبح يجرف شيئاً فشيئاً من سفح الهضبة الركامية، وكان مستوى المياه في ذلك العهد منخفضا بحيث يكشف

في بعض المواضع من جدار الهضبة حافة من الأرض قليلة العرض تغطيها المياه عند ارتفاع المستوى، أما الجانب الشمالي فقد كان أقل أضلاع المثلث طولاً، في حين كان الجانب الغربي يرسم قوساً في اتجاه اليابسة، ويختلف ارتفاع مركّب الهضاب هذا من موضع إلى آخر، ففي الناحية الشمالية يبلغ قرابة مائة قدم، في حين يتدرّج في الانخفاض في الناحية الجنوبية ليبلغ مستوى ارتفاع السهل، وعند منتصف الجانب الشمالي تقريباً تبرز من السطح الذي يأخذ شكل المصطبة كتلة مفلطحة على هيئة الكرة يبلغ ارتفاعها قرابة أربعين قدماً، توحي زواياها المستديرة بأنه كان لها شكل الهرم فيما سبق من العهود، وكانت هذه الكتلة تشبه هضبة الهرم في نمرود وربما كانت سابقاً برجاً ذا طوابق أو مدرجات لولبية الشكل مثلها، ويحيط بهذه الكتلة الكروية الشكل جدار من قوالب الجص لا تزال بقاياه واضحة تماماً، أما الركن الشمالي الشرقي من مركّب الهضاب فتحتله هضبة متميزة تبرز فوق كامل المرتفع، وتفصلها عن الكتلة الكروية المذكورة وعن مرتفعات أخرى، وتمتد على مسافة طويلة في اتجاه الجنوب، وتفصلها أخاديد عميقة يبدو أنها كانت تمثل سلّماً أو درجاً للصعود كما هي الحال في نمرود.

حقول آثار قلعة شرقاط

الدليل على أن ميدان آثار قلعة شرقاط كان يمثل وحدة متجانسة - رغم اختلاف بنية سطحه- هو السد الذي لا يزال واضحاً في معظمه والذي يحيط به بدوره خندق واسع، أما محيط مركّب الهضاب فهو كبير جداً، ذكر أينزوورث أنه يبلغ ٤٦٨٥ ياردة[1] ويكون بذلك أكبر وأهم ميدان للآثار في بلاد ما بين النهرين قاطبة[2].

يمتدّ - جنوب الهضبة الركامية من قلعة شرقاط- حقل آثار واسع على امتداد النهر على مسافة ساعة من الزمن يبدو أنه يواري المدينة القديمة، في حين يرجّح أن يكون موقع القصور والمعبد في الهضبة ذاتها، ولم تجر أي حفريات واسعة النطاق تستطيع أن تكشف النقاب عن تاريخ المملكة الآشورية القديم الذي يكاد يكون مجهولاً، ولم يستطع لايارد أن يخصص لفحص الهضبة واستكشافها إلا أياماً قليلة، ومن ضمن ما عثر عليه أسطوانة خزفية ذات ثمانية جوانب

---

(١) قارن أينزوورث في المرجع المذكور، الجزء الثاني، ص ١٥٦.

(٢) حسب تقديرات أينزوورث لا يبلغ محيط قويونجق إلا ٢٥٦٣ ياردة ، وهضاب بابل هي على التوالي: قصر ٢١٠٠ ياردة، المقلبة ٧٣٧ ياردة، بيرس نمرود ٧٦٢ ياردة، وبناء على المخطط الثالث عند لايارد - نينوى وبابل، الطبعة الألمانية، قد يبلغ المحيط الحالي لهضبة الآثار في نمرود ما يزيد على ٢٠٠ ياردة بقليل.

(٣) نينوى وبابل، ص ٤٤٥ .

يبلغ ارتفاعها خمسة وأربعين سنتمتراً تابعة للملك تيغلات بيليزار الأول نحو ١١٠٠ ق م، وقد كان النتاج فيما عدا ذلك قليلاً.

ولا يتكوّن مركّب الهضاب في قلعة شرقاط من الركام والأنقاض فحسب، وإنما تظهر في مواضع متناثرة من السطح أرضية صخرية طبيعية، ويظهر كذلك العديد من المربعات الجصّية والقرميد والأحجار المعالجة بالنار في أماكن كثيرة، وعند قمة الهضبة الشمالية الشرقية يبرز من بعيد للمسافر على النهر مبنى حديث هو قلعة الأمير التي شيدها فرحان باشا، وأراد بها مجاملة الأتراك بضرب مَثَل للشمر في حياة الاستقرار، غير أن هذا المثال لم يجد من يحتذي به، بل لقد جلب إلى الشيخ فرحان احتقار واستنكار أفراد قبيلته، وقد اختفت الأكواخ الصغيرة التابعة لحاشيته اختفاء تاماً عن وجه الأرض، وأصبحت القلعة خاوية على عروشها، ولا يرغب أحد من أبناء شيخ الشمر في الإقامة في هذا المنزل، غير أنه ليس مستبعداً أن يأتي في يوم ما من يتظاهر بالاستقرار لمجاملة الباب العالي على غرار فرحان، للحصول على لقب الباشا وعلى المعاش السنوي الذي يقال إنه مرتفع جداً، ثم يعود بعدما ينال أربه إلى حياة البداوة الحرة الطليقة وإلى العيش في الخيام(١)، وقد شيدت القلعة باستعمال مواد قديمة، وتضم الجدران -- التي تستطيع التصدي لأسلحة الهجوم التي تستعملها قبائل الصحراء - ساحة فسيحة تقوم عند جانبيها الشمالي والشرقي مبان ذات طابق واحد تتداخل في خط بناء الجدار، وفي الجانب الشمالي خاصة ردهات فسيحة تستند إلى أعمدة خشبية وتنفتح نصف انفتاح الفناء، وأرضية هذه الساحة مستوية نسبياً، ولاريب في أنها كانت تستعمل لإيواء الحيوانات ونصب الخيام.

قلعة الأمير

تمثل قلعة الأمير في الوقت الحالي مركزاً عسكرياً تقيم فيه حامية تتركب من خمسة وعشرين جندياً تحت قيادة يوزباشي، وقد أخذت هذه المعلومات عن القنصل الألماني السيد ريشارتس، الذي زار قلعة شرقاط صحبة زاخاو وكولداواي سنة ١٨٩٨م، وتتمثل مهمة الحامية في حماية المزارع الملكية التي استحدثت في مكان قريب ضد الشمر، ويبدو أنه كان لهذا الإجراء تأثير إيجابي جيد نتجت منه زيادة كبيرة في عدد الذين يمارسون مهنة الزراعة في المنطقة المجاورة.

(١) يبدو أن بعض أبناء فرحان قد شيّدوا بيوتاً جديدة عند سامرّاء كما سبق أن ذكرنا.

وقد بقي مدلول كلمة قلعة شرقاط مجهولاً إلى اليوم، إلا أنه قد يذكّر بالعصور الآشورية القديمة، أما الأتراك فإنهم يطلقون عليها اسماً لا معنى له هو " طوبراق قلعة " ويعني قلعة الأرض.

دخلنا في حقل الآثار من المرتفع الشمالي بين قلعة فرحان وهضبة الهرم وغادرناه عند الركن الجنوبي، وانحدرنا بحدّة في اتجاه نهر دجلة، حيث وجدنا مركبنا في الانتظار، واصلنا رحلتنا الساعة الواحدة وخمساً وعشرين دقيقة بعد الظهر بعدما أهديت " زبوناً " للشيخ فيصل، وأرسلت إلى رجاله شيئاً من البطيخ الذي تزوّدنا به في الموصل، وعند الساعة الواحدة وثلاثين دقيقة كانت على الضفة اليسرى قرية للجبور تدعى السديرات تحتوي على نحو مائة بيت مصنوعة من القصب.

جبل خانوقة ، وجبل المكحول ، قصر البنت

عند الساعة الثانية وثلاثين دقيقة أصبح جبل خانوقة الذي يمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي قريباً من النهر الذي ينعطف قبل ذلك بقليل في اتجاه الشرق، ويصارع النهر في هذا الموضع الجبل الذي غسل منه الجوانب فتعرت لتظهر على شكل جدار صخري يبرز بحدّة من الأمواج، إلا أن دجلة اضطر إلى اتباع امتداد الجبل، وأخذ يتّجه بداية من هذا الموضع إلى الجنوب الشرقي، ثم إلى اتجاه بين الجنوب والجنوب الشرقي بعد أن كان يجري من الموصل في اتجاه يكاد يكون مباشرة إلى الجنوب مع شيء من الانعطاف إلى الشرق.

سرنا قرابة ربع ساعة بحذاء الجدار الصخري الذي كانت تظهر فيه كهوف عديدة تسكنها الصقور وطيور مالك الحزين، ثم زاد انعطاف النهر في اتجاه الشرق، وتراجعت الصخور على الضفة الغربية شيئاً فشيئاً، وظهرت بينها وبين النهر مساطب راحت تتسع تدريجياً، وعلى كل حال تواصلت سلسلة الجبال إلى جانب النهر مسافة ساعات عديدة. وبحلول الساعة الثالثة وخمس دقائق ظهر في النصف الأيمن من النهر مرتفع صخري بارز منفرد يدعى أبو شارب، وفي الرابعة وخمس وخمسين دقيقة بدأت الضفة اليسرى بدورها في الارتفاع، ويطلق اسم النمل على سلسلة الهضاب التي رافقتنا مسافة بين ثمانية وعشرة كيلومترات، وكانت الضفة في هذا الموضع تحمل الاسم نفسه، وتناثرت على الجانب الأيسر قرابة خمسين خيمة للجبور، ومررنا في الخامسة والربع على الضفة اليسرى بقرية تحتوي على أكواخ مصنوعة من القصب، وفي الساعة السادسة بقرية الجبور التي تدعى صباح أو قبة الحديدية وتحتوي على أربعين كوخاً

من النوع نفسه، وأتينا الساعة السادسة وعشرين دقيقة إلى موضع من أجمل ما رأينا على نهر دجلة خلال كامل رحلتنا، ومرة أخرى اقتربت سلسلة الجبال التي تمثل امتداداً لجبل خانوقة وتدعى الآن جبل مكحول من النهر الذي يرسم في هذا الموضع منعرجاً حاداً في اتجاه الغرب تبرز عند زاويته كتل من الصخور في شكل مسنن.

على كتلة صخرية منعزلة عن السلسة الجبلية بواسطة شعاب عميقة تقوم قلعة تذكّر بقصور قطاع الطرق في منخفضات نهر الراين، ويذكّر المشهد كله بما نعرفه عن النهر الألماني، وتسمى القلعة قصر البنت وقلعة المكحول(١) أيضاً، أما الجدار الشرقي المتولّي عن النهر فيستند إلى عمودين عظيمين على هيئة الأبراج، بينهما سبع عشرة فتحة في الجدار، لاشك أنها كانت تستعمل كمنافذ لإطلاق النار والرماية، وتوجد جدران غليظة على الجانب الجنوبي أيضاً، ولا ريب أن القصر كان سابقاً قلعة للصوص أو قطاع طرق يسيطرون على النهر، ويفرضون الجزية على المراكب التي تمر بهذا الموضع، وتقول الأسطورة العربية إن ابنة شرسة لأحد الجبابرة كانت تقيم في هذا القصر، وتشكل مصدر رعب للمسافرين على النهر، وبعد ذلك بمسافة قليلة وراء مصب نهر الزاب الصغير وعلى الضفة اليمنى تقوم قلعة ثانية تدعى قلعة الجبار، يقال إنها كانت مقر إقامة والد الفتاة.

الزاب الأسفل أو الصغير، لقاء مع الشمر

ينعطف النهر بحدّة وراء قصر البنت في اتجاه الشرق والجنوب الشرقي لفترة وجيزة، وتتراجع سلسلة الجبال ولا تعود إلى الاقتراب من النهر إلا بعد مصب الزاب الصغير أو الأسفل الذي وصلنا إليه الساعة الثامنة والنصف، ووجدنا قبل ذلك على يميننا مخيماً للجبور يضم قرابة مائة خيمة ويدعى الحمير، وعلى الجانب الأيسر قرية للجبور تضم نهاز تسعين كوخاً وتدعى الشق، والزاب الأسفل هو على غرار الزاب الأعلى نهر جبلي ذو مياه فاتحة اللون صافية إلا أنه أقل منه بكثير في الأهمية. ينقل تشيسني(٢) موضع القرى التي يسكنها شعب باريزاتيس أم سايروس الأصغر التي مرت بها الجيوش الإغريقية تحت قيادة كسينوفون(٣) عند عودته من بابل - ينقلها إلى الزاوية التي يشكلها التقاء الزاب الصغير مع دجلة.

(١) قارن ريتر في المرجع المذكور، الجزء ١١ ص ٦٧٦. وبيترمان في المرجع المذكور، الجزء الثاني، ص ٥٧.
(٢) الخريطة رقم ٦ في – البعثة الخ .....
(٣) [المترجم : كسينوفون ، نحو ٤٢٧ – ٣٥٥ ق. م، مؤرخ وفيلسوف وقائد إغريقي من تلاميذ سقراط ، حارب مع أثينا، ثم مع أسبارطة والفرس، اشتهر بكتابه "أنابازيس" أو " الرحلة "، وفيه وصف رحلته في عشرة آلاف جندي من الفرات إلى البحر الأسود.]

عندما تجاوزنا معبراً يدعى الشجرة يقع مباشرة بعد مصب الزاب الصغير استوقفنا جمع كبير من البدو أعلنوا أنهم من الشمر، وقد سبق أن أبصرنا قبل ذلك بقليل على الضفة الشرقية اليسرى في ظلام الليل عدداً من الفرسان يبدو أنهم كانوا يراقبوننا، وعندما أخبرناهم أننا كنا منذ بضعة أيام في مخيم الشيخ فيصل كان ذلك كافياً لحمايتنا من أية مضايقات، إضافة إلى أن وجود الضابطية معنا كان له وقع في نفوس رجال الشمر، وقد كان هؤلاء الشمر عائدين من غزوة، وكانوا بصدد عبور دجلة إلى بلاد ما بين النهرين مع غنائمهم من البقر والإبل والأغنام.

واصلنا الرحلة طوال الليلة التالية، ومررنا في الظلام أولاً قرابة الساعة التاسعة والربع على الضفة اليمنى بقرية للجبور تتكون من خيام وتدعى المسحّق، ربما بسبب مظهر الجبل المتكون،

جبل حمرين، الفتحة، قناة نهرهافو

من صخور رملية متصدّعة تصدّعاً عنيفاً، وبعد ذلك بثلاثة أرباع الساعة تقريباً مررنا بقلعة الجبار[1] التي سبق ذكرها، وفي أسفل القلعة نبع كبريتي يدعى المكبرت، ويقوم أمامه على الضفة الشرقية مخيم للجبور يدعى الحويج، وبعد ذلك بقليل وجدنا على شمالنا مرتفعاً يسمى تل الذهب [2] .

بعد قليل من المرور بالتل بلغنا موضعا يدعى الفتحة، حيث يخترق النهر الذي تضاءل عرضه إلى النصف جبل حمرين[3] الذي يمثل امتداداً لجبل المكحول ويستمر على الضفة الشرقية لدجلة على شكل سلسلة ضيقة ليتحد أخيراً مع مرتفعات جبل لورستان .

عند موضع اختراق النهر للجبل تشكل الصخور المعترضة داخل المياه شلالاً صغيراً لا يمثل عرقلة في طريق المركب، وهنا تقع الحدود الطبيعية بين بلاد آشور وبلاد بابل، وتنفصل ولاية الموصل عن ولاية بغداد في هذا الموضع إلى اليوم، وقد تفرّعت مباشرة بعد الفتحة من قديم الزمان قناة نهر هافو على الضفة الشرقية للنهر، وهي القناة التي تقع عند أقصى شمال نظام

....

(١) يسميه كينير على ص ٤٦٧ : جبل كلوصه أو " جبل المرتفعات ".

(٢) قد يكون الحويج مطابقاً لتل الهملية على خريطة تشيسني وهو الاسم المكتوب باللغة العربية في المرجع الأصل وربما قرئ لاحقاً بطريقة غير صحيحة. ويكتب ريتش أيضا في المرجع نفسه، الجزء الثاني، ص ١٤١ تل الهملية: يسمّى تل الذهب على خريطة تشيسني " تل ديقاب "، أما بيترمان فيذكر الاسم الصحيح في المرجع المذكور الجزء الثاني، ص ٥٧.

(٣) لا يكاد كينير يذكر موضع الاختراق، وربما يقصد بقوله "سلسلة صغيرة من الهضاب" في المرجع المذكور، ص ٤٦٧ امتداد السلسلة على الضفة اليسرى .

القنوات الرائع الذي انهار اليوم معظمه، والذي كان مرتبطاً بدجلة والفرات ويحمي المنطقة من فيضانات الربيع ، وفي الوقت نفسه يروي الأراضي الخصبة على الضفة .

عند الفجر بلغنا أراضي بابل، وعند الساعة السابعة وعشر دقائق كانت مرتفعات صخرية صغيرة على شمالنا يطلق عليها اسم اللقلق، ويبدو أن في هذا الموضع كهفاً يعرفه جميع الناس، وكان بجوار الموضع مخيم للبوعلي يحتوي على مائة وعشرين خيمة تقريباً، وسكان هذا الموضع في عهد ريتش من عرب البوحمد(١)، وبعد ذلك بفترة وجيزة أبصرنا على جزيرة كبيرة من الجزر الكثيرة التي تقع قريباً من ضفة النهر قرية تحتوي على قرابة مائة خيمة للجبور، وتدعى هذه الجزيرة الصفّارية، وعند الساعة السابعة والنصف ظهر على مسافة قليلة من النهر مبنى يبدو أنه يعود إلى القرون الوسطى، ويدعى خان الخرنينة الذي ذكر روس أنه أثر جميل يعود إلى عهد الخلفاء(٢)، وبالقرب من هذا الموضع قرابة أربعين خيمة للجبور.

خان الخرنينة

وبلغنا الساعة السابعة وخمساً وأربعين دقيقة موضعاً من الضفة اليمنى يدعى الجريش يستعمله الجبور في الزراعة، وفي الساعة التاسعة وخمس دقائق بلغنا مخيماً آخر للبوعلي، ووجدنا على يميننا الساعة التاسعة واثنتي عشرة دقيقة آثار قلعة قديمة تدعى قلعة أبورياش(٣) بالقرب منها بعض الخيام للجبور، ومررنا الحادية عشرة والنصف على شمالنا بتل الخدامية، ووجدنا الساعة الثانية عشرة وأربعين دقيقة على سلسلة الهضاب المنخفضة التي تمتد على يميننا من خان الخرنينة وترافقنا حتى أمام دور، وجدنا قبة على ضريح يثوي فيه وليّ من الأولياء الصالحين يدعى أبوخلخال(٤)، وفي اتجاه مائل أمام هذا الضريح مخيم للبومحمد يحتوي على قرابة مائة وخمسين خيمة ويدعى العيادي، وعند الساعة الثانية وعشرين دقيقة كان على يميننا مخيم صغير يدعى مطاردة، وقبيل الساعة الرابعة كانت على يميننا سلسلة ازداد ارتفاعها قليلاً وتدعى السعلوّة ، ويحتوي السفح المواجه للنهر على كهف أطلقنا عيارات نارية لتحيته تبعاً لعادة قديمة على غرار جميع المسافرين في اتجاه أسفل النهر، وأبصرنا الآن على شمالنا عدداً كبيراً من منشآت الري تسمّى "الجرد" والتي تروي الحقول الخصبة على الضفة اليسرى للنهر،

(١) قارن ريتش في المرجع المذكور، الجزء الثاني، ص ١٤٣.
(٢) قارن ريتر في المرجع المذكور، الجزء الحادي عشر، ص ٦٧٩ وريتش في المرجع المذكور، الجزء الثاني، ص ١٤٣.
(٣) يذكر بيترمان في المرجع المذكور، الجزء الثاني، ص ٥٨ خطأ اسم " بيعاش" التي يسميها تشيسني " أبوريش" .
(٤) يسمّيه ريتش في المرجع المذكور، الجزء الثاني، ص ١٤٤ " البوخلهلان"، وهو اسم ابن الإمام موسى الشهير .

وأبصرنا عدداً من الفلاحين عند اقتراب مركبنا من الضفة، وكانت زوارق صغيرة بدائية تجوب النهر جيئةً وذهاباً، وكان كل شيء ينبئ بقرب مدينة كبيرة، وأخذت السلسلة التي تمتد على يميننا في الصعود بحدة، وظهرت آثار منخفضة على جانب القمة قرب الجدار الصخري الذي يسقط فجأة في اتجاه النهر(١).

تكريـــــت

وبعد مسافة قليلة ظهرت مدينة تكريت، وكانت تفصلها عن ظهر الجبل فجوة واسعة، وبرزت منها بعض قمم أشجار النخيل، وكانت في ذلك العهد تقوم في موضع من الصخور الرملية المتصدعة يفصله عن دجلة شاطئ منبسط عريض، أرسينا الساعة الرابعة والنصف على مسافة قليلة جنوب المدينة، وما لبث أن التفّ حولنا عدد كبير من السكان الذين رافقونا إلى تكريت في جو يتميز بكثير من اللطف والمودة، وكان شيخ المكان على رأس المجموعة، وتتكون تكريت اليوم من بيوت الطين تمتد في اتجاه النهر ويلتصق بعضها ببعض بطريقة تجعل من واجهاتها جداراً للمدينة، وأرضية المدينة غير مستوية، وشوارعها ضيقة وذات زوايا، ويصعب تحديد عدد السكان بسبب وضع البيوت غير الواضح، لكنني لا أظنه يزيد على أربعة أو خمسة آلاف نسمة، وما ذكره موللر- سيمونيس(٢) من أن العدد يبلغ بين ثمانية وعشرة آلاف، فأظن أنه تقدير فيه كثير من المبالغة.

لقد شيدت المدينة الحديثة فوق حقل أنقاض مدينة قديمة تحيط بقاياها اليوم بالمدينة الحالية، وبمرتفع الأحجار الرملية الذي يمتد على شكل قوس واسعة باتجاه الغرب، ويتركب حقل الأنقاض الذي تبلغ مساحته مساحة مدينة بغداد الحالية من أكوام ركامية ليس لها شكل محدد، تبرز منها بين الحين والآخر آثار بعض الجدران، ويستطيع المرء أن يشاهد من فوق مرتفع يقع على بعد دقائق قليلة من تكريت الحالية جدار المدينة ونهر دجلة ذي المنعرجات الكثيرة، ويبرز في الناحية الجنوبية الشرقية مبنى على هيئة المئذنة ينسبونه إلى إمام دور(٣)، وتقوم في الشمال سلسلة جبال حمرين، وفي الغرب يشاهد الناظر حقل الأنقاض في اتجاه البراري الشاسعة لبلاد ما بين النهرين، وفي الجانب الغربي من هذا المرتفع، داخل المنطقة القديمة للمدينة، تقوم قبتان

---

(١) يذكر جونز أن طول هذه المنطقة الأثرية يبلغ ٨٦ قدماً، قارن كيبرت بالنص المصاحب لخريطة آثار بابل.
(٢) في المرجع المذكور، ص ٤٣٦.
(٣) تافيرنيي، الطبعة الألمانية، الجزء الأول، ص ٨٩ يذكر "آمر الطور".

على ضريحين ينسب الضريح الأول منهما إلى أحد قادة جيوش الخليفة عمر بن الخطاب ويدعى عمر هو الآخر، وهو الذي فتح المدينة سنة ٦٣٨م، أما الضريح الثاني فيثوي فيه أحد أبناء الإمام موسى الكاظم(١).

بناء على امتداد حقل الآثار يبدو أن مدينة تكريت أو تجريد القديمة كانت مدينة كبيرة في العهد المسيحي قبل دخول الإسلام، ولا نجد في التاريخ أي ذكر للمدينة قبل ذلك العهد، وقد ذكر لي مرافقي أن هذه المدينة كانت قديماً تسمى بورصة، وإذا كان هذا الاسم ينطبق على مدينة بيرثة القديمة - مدينة بطليموس(٢) - فينبغي عندئذ أن يكون تاريخ المدينة أطول مما هو معروف لدينا، وكثيراً ما يذكر أساقفة المدينة، وتحدث الأخبار أيضاً عن اضطهاد كبير تعرّض له المسيحيون

في هذا الموضع في عهد الملك سابور الثاني(٣)، ولقد بقيت ذكرى هذه الحقبة من تاريخ المسيحيين وذكرى هذا الاضطهاد حيّةً في أذهان السكان رغم أنه لم يبق اليوم في هذا الموضع أحد من المسيحيين(٤)، ويوجد حقل من الآثار يطلق عليه اسم كنيسة، ويطلق اسم الأربعين على المسجد الذي لا يحتوي على مئذنة، ويبدو أن هذه التسمية تذكّر بأربعين شهيداً من عهد الاضطهاد المذكور، ويعتقد ريتش أن آثاراً أخرى توجد عند الطرف الشمالي من حقل الأنقاض وتدعى دار البنات، تذكّر بأن ديراً للراهبات كان قائما في هذا الموضع(٥) .

لم تكن تكريت تحظى بأي أهمّية سياسية في أي عهد من العهود، ولذلك فإن ذكرها نادر في التاريخ، غير أن هذه المدينة معروفة لأنها مسقط رأس صلاح الدين الأيوبي القائد العسكري الإسلامي الشهير أثناء الحملة الصليبية الثانية الذي ولد سنة ١١٣٨م، وقد كان أبوه أيوب بن شادي كردياً يحمل لقب بيك وقائداً لحامية تكريت تحت إمرة الأتابيك السلجوقي زنكي حاكم الموصل، وقد أصبح صلاح الدين المؤسس الحقيقي للسلالة الأيوبية التي تنسب إلى أبيه والتي حكمت مصر وسورية وبلاد ما بين النهرين طوال قرون من الزمن، وقد توفي صلاح الدين في فبراير سنة ١١٩٣ في دمشق حيث لا يزال ضريحه إلى اليوم (٦)، وقد دمّرت المدينة شرّ تدمير في عهد تيمور لنك. وقتل عدد كبير من سكانها.

(١) قارن الجزء الأول، من هذا الكتاب ص ١٢٢.
(٢) بطليموس، الكتاب الخامس الفصل ١٨ الفقرة ٩، قارن أيضاً ريتر في المرجع المذكور، الجزء العاشر، ص ٢٢٢.
(٣) قارن ريتر في المرجع المذكور، الجزء العاشر، ص ١٦٨ وما يليها.
(٤) وجد تافيرنيي، الطبعة الألمانية، الجزء الأول، ص ٨٩ ، بعض المسيحيين ووجد كنيسة متداعية على مسافة ربع ساعة من المدينة.
(٥) قارن ريتش في المرجع المذكور، الجزء الثاني، ص ١٤٧ .
(٦) قارن الجزء الأول من هذا الكتاب، ص ٥٦ وما يليها.

يمثل الحكومة التركية اليوم في تكريت مدير يخضع لقائم مقام السامراء، وكانت المدينة إلى عهد قريب تدفع الجزية للشمر، أما اليوم فهي لا تدفع لهم الخوّة وإنما تسدد ضريبة صغيرة على كل "جرد" وعلى الحيوانات أيضاً، وليس لتكريت اليوم أية أهمية تجارية أو صناعية، ويعيش السكان أساساً على زراعة الحقول والعمل في المراكب، أما التنقل في اتجاه البر فيقتصر على العبور مرات قليلة في بلاد ما بين النهرين إلى هيت وعانة على نهر الفرات، ويبدو أن طريق القوافل إلى هذين الموضعين تستعمل حتى في فصل الصيف، وتقع هيت على مسافة يومين من السير فقط(١)، أما عانة فتقع على مسافة أكبر من ذلك بقليل .

قناة الإسحاقي، إمام دور

في قديم الزمان كانت قناة – ورد ذكرها بكثرة – تتفرع من دجلة عند تكريت تدعى قناة الإسحاقي، وكانت هذه القناة ترافق الضفة الغربية للنهر حتى المعيبر وتقطع منعرجاته بعد ذلك إلى داخل اليابسة(٢)، ويبدو أن حفر قناة الإسحاقي يرجع إلى عهد الخليفة المتوكل، وقد قام مرتضى باشا بتنظيفها واستصلاحها(٣) سنة ١٦٥٤م، أي بعد فترة وجيزة من استقرار الأتراك النهائي في بلاد ما بين النهرين .

واصلنا رحلتنا الساعة الثامنة وعشرين دقيقة، وكان الليل قد أرخى سدوله، وهنا أذكر خط سيرنا من تكريت إلى عاشق حسب المعلومات التي أخذتها عن أصحاب المركب؛ أبصرنا الساعة التاسعة على شمالنا مخيماً صغيراً للبوحمد يدعى العميشية، وبعد ذلك بنصف ساعة وجدنا مخيماً صغيراً آخر يدعى هطرة يسكنه قوم من إمام دور، ومن المرجح أن تعود هذه التسمية إلى اسم هاطرة الذي كان يطلق على قرية يهودية من العصور الوسطى(٤). وقد شيد سكان من تكريت قبالة هذا الموضع مخيماً يحتوي على خمس وعشرين خيمة ويسمى العوجا، ومررنا الساعة العاشرة بمخيم على الضفة اليسرى للنهر يشتمل على ثلاثين خيمة ويسمى الزوزاني يقيم فيه سكان من إمام دور(٥).

(١) قارن تويدي – الخيول العربية، ص ٧٣ .
(٢) قارن ريتر في المرجع المذكور الجزء العاشر ص ٢١٢.
(٣) ملاحظة روس في – ملاحظات الخ ... في مجلة الجمعية الملكية للجغرافيا الجزء ٩ (١٨٣٩) ص ٤٤٦، قارن ريتر في المرجع المذكور الجزء العاشر ص ٢١٣ التي يقول فيها إن سليم باي حاول إعادة بناء الدجيل القديم ، تتعلق بالمجرى القديم لنهر دجلة الذي يتفرع عن دجلة اليوم عند الجالسية – القادسية – وليس بالإسحاقي الذي كان هو الآخر يحمل اسم دجيل ، قارن – كتاب البلدان للشيخ أبي إسحاق الفارسي الأصطخري الذي نقله موردمان من العربية مع مقدمة للأستاذ ريتر ص ٤٨ .
(٤) قارن هوفمان – مقتطفات من ملفات سورية لشهداء الفرس ص ١٨٧.
(٥) تذكر خريطة كيبرت لحقول آثار بابل وفقاً لصور إنجليزية من سنة ١٨٨٣ م أن خان الجوزاني يوجد هنا على الجانب الأيمن .

مررنا قرابة الساعة الحادية عشرة بإمام دور دون أن نتوقف فيها، ووجدنا على هضبة تقع على مسافة بضع مئات من الأمتار من الضفة ضريح ولي دور، وفي العادة يطلق اسم "إمام" على الأولياء في بلاد ما بين النهرين(١)، ويتمثل الضريح في مبنى كبير مربّع الشكل له قمة مقببة على هيئة الكرة، وكنا قد أبصرناه من تكريت، وتذكّر كلمة " دور" كما سبق أن أشرنا بالاسم القديم " دورا "، الذي اشتهر بسبب معاهدة السلام المشينة التي وقعها الإمبراطور جوفيان مع ملك الفرس سابور سنة ٣٦٤ م .

وبعد وفاة الإمبراطور جوليان توقف الجيش الروماني في طريق عودته عند دور، وعندما تولى جوفيان القيادة في هذا المكان ولبس الرداء الأحمر بدأ هذا القائد الذي كان معروفاً بالخوف والجبن مفاوضات السلام مع الملك الفارسي التي انتهت بعد أربعة أيام بالتنازل عن إقليم بلاد ما بين النهرين. وقد عبر الجيش إلى الضفة الغربية وبدأ رغم حرارة شهر يوليو التراجع بطريقة تشبه الفرار عبر براري بلاد ما بين النهرين إلى الحدود الرومانية عند نصيبين(٢)، ويبقى السؤال قائما فيما يتعلق بعلاقة " إمام دور" بالمكان المذكور في الإنجيل (دانيال ٣، ١) تحت اسم " دور"، اللذين يزعم الباحثون الإنجليز أنهما الموضع نفسه، وقد كان يطلق على هذا الموضع في العهد العربي اسم الدور الخارب(٣) ويعني ذلك الدور المقفر، أما قرية اليوم فتحتوي على خمسمائة بيت يعيش سكانها -وكلهم مسلمون- من العمل في مهنة الكلكجي ودلالة القوافل.

قناة نهروان أو قتول الكسروي

مررنا الساعة الحادية عشرة والنصف على الضفة اليسرى بخمس وعشرين خيمة لقبيلة أبو هيازع، وبعد ساعة من ذلك مررنا على الجانب الأيمن بمخيم صغير يدعى المحيجير يضم خمس عشرة خيمة لقبيلة أبو عيسى(٤)، وكانت القناة الكبيرة نهروان أو قتول الكسروي في السابق تخرج من هذا الموضع من الضفة الشرقية، وتتحد مع نهر هافو بعد بضعة كيلومترات في اتجاه الجنوب الشرقي من موضع التفرع عند مبنى كبير على شكل البرج يدعى قنطرة الرصاص، وتمتد القناة موازية للمجرى القديم لنهر دجلة - الدجيل - قبل أن ينعطف النهر إلى الشرق في

....

(١) قارن ريتش في المرجع المذكور، الجزء الثاني، ص ١٤٨ و ١٤٩.

(٢) قارن أميانوس مارسيلينوس – الكتاب ٢٥ الفصل السادس. لا يذكر سوزيموس الثالث ٣٠ اسم المدينة.

(٣) قارن هوفمان في المرجع المذكور ص ١٨٧.

(٤) يسجل ريتش في المرجع المذكور، الجزء الثاني، ص ١٤٩ في هذا الموضع تل المحيجي .

منعرج كبير بعد الجالسية، ويبدو أنه لا يعود إلى دجلة إلا عند المكان الذي يدعى اليوم كوت قبالة نهر شط الحي، وتوجد مجارٍ موازية لنهروان في بعض المواضع مثل المكان الذي يستقبل فيه مياه الروافد القادمة من جبال لورستان وتصب في نهر دجلة، ويبدو أنه يبلغ أقصى عرضه في الموضع الذي يتقاطع فيه مع دياله، وقد قاس جونز الذي يرجع له الفضل في أدق البحوث حول هذه الأنظمة والتجهيزات الرائعة للمياه، قاس القناة الأساسية التي تدعى في هذا الموضع قاتول فوجد أن عرضها يبلغ أربعمائة وخمسين قدماً وعمقها ثلاثين قدماً، وتسمح هذه المقاسات بالملاحة لأكبر بواخر العصر الحديث، وقد استنتج جونز أن هذه القنوات لا ترجع إلى عهد الساسانيين، وهو الشيء الذي توحي به تسمية كسروي، بل إلى عهد أقدم من ذلك بكثير[1]، إضافة إلى ذلك تملك الروافد الكبيرة لنهر دجلة مثل شط العظيم ودياله سدوداً عظيمة وقنوات لتنظيم المياه المتكاثرة بشدة بسبب أمطار الشتاء وذوبان الثلوج .

مررنا الساعة الثانية على يميننا بمخيم يسمى المكيشيفة يشتمل على خمسين خيمة يقيم فيها سكان من سامرّاء، وعند الساعة الثالثة كان على شمالنا موضع يسمى الزنقور يضم ثلاث عشرة خيمة لقبيلة عزّة، وعلى اليمين قرية تدعى حويصلات تشمل مائة خيمة لقبيلة أبو عباس.

آثار إسكي بغداد

أثناء رحلة الليل مررنا أيضاً بآثار إسكي بغداد على الضفة اليسرى، ويذكر ريتش أن طول حقل الأنقاض يزيد على ساعة من الزمن[2]، وأن أقصى نقطة في اتجاه الجنوب هي آثار ثينارس " شناص " شناص التي أدرجها تشيسني في خريطته بناء على المعلومات التي أخذها عن ريتش – ، ويعود اسم شناص إلى عبد تركي يدعى إشناص[3] أعتقه الخليفة العباسي المعتصم الذي شيد لنفسه في هذا الموضع قصراً كبيراً، ونعلم أن هذا القصر كان يقوم في مدينة تدعى كرخ فيروز[4]، وكان إشناص قد أصبح قائداً لوحدات الحرس التي كانت من الأتراك، وحصل من الخليفة الواثق على لقب سلطان، وقد بقي هذا اللقب متداولاً عند قادة الحرس بعد ذلك التاريخ حتى استبدلوا به في بداية القرن العاشر بلقب أمير الأمراء.

ليس هناك من سبيل لتحديد هويّة المدينة القديمة المسمّاة بإسكي بغداد، إذ تندرج حتى آثار سامراء تحت هذا الاسم هي الأخرى، ويطلق هذا الاسم أيضاً على موضع ثالث يقع شمال

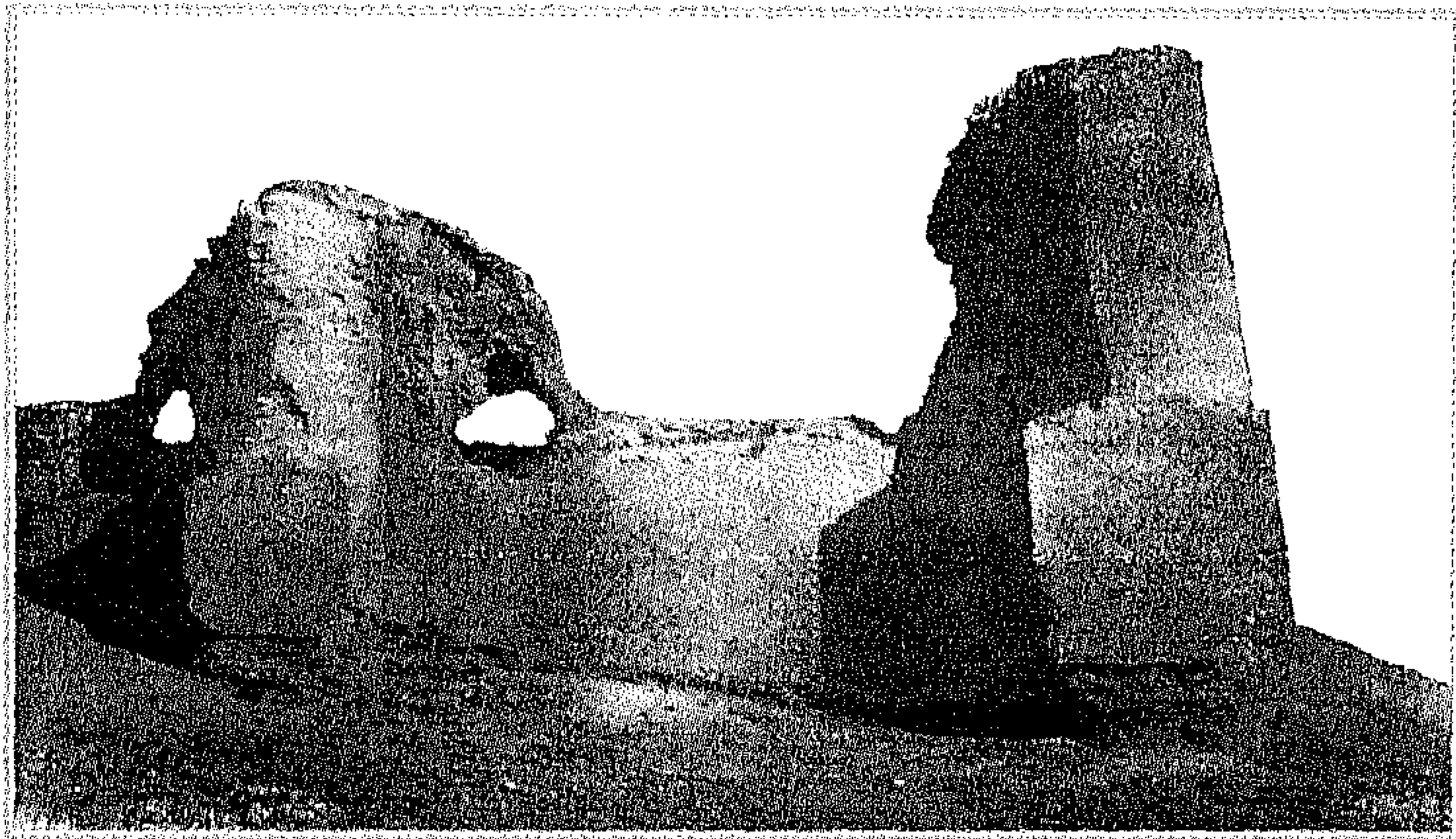
(١) قارن كيبرت في المرجع المذكور، ص ١٩، جونز في مختارات من مذكرات الحكومة في بومباي، ص ٣٤ وما يليها و ص ٢٧٣.
(٢) قارن ريتش في المرجع المذكور، الجزء الثاني، ص ١٥٠٧، ويذكر بيترمان قياسات أقل من ذلك بكثير .
(٣) اليعقوبي، ص ٢٦٠ يكتب " إشناص ".
(٤) قارن هوفمان في المرجع المذكور، ص ١٨٨.

شرقي بغداد عند آثار داستاجارد القديمة - مقر الإقامة المفضل لكسرى الثاني ملك الساسانيين- ويطلق مؤرخو الحقبة العربية على هذا الموضع اسم داسكارات الملك[1]، ويرجع السبب في تعدّد هذه الأسماء إلى عادة شائعة في تسمية الآثار التي يعثر عليها بالقرب من مدينة مزدهرة باسم هذه المدينة الحديثة.

أريد أن أعيد إلى الذاكرة إسكي الشام" بصرى" وإسكي حلب وإسكي موصل، وعلى كل حال فإن تسمية إسكي بغداد لا علاقة لها البتة بمدينة بغداد القديمة. مررنا بعد شناص بمسافة قليلة على الضفة اليسرى بقرية أخرى تدعى البساط، وفيها مخيم كبير للبوعباس كما هي الحال في شناص.

آثار العاشق

وعند الساعة السادسة وعشرين دقيقة من الصباح الباكر أرسى الكلك على الضفة اليمنى، لكي نزور قصر العاشق[2] الذي تحيط به الأساطير، والذي كنا نرى آثاره العظيمة من مسافة بعيدة.



جزء من الجدران الخارجية للعاشق

يقوم هذا المبنى العظيم عند طرف الهضبة المرتفعة على بعد عدة مئات من الخطوات من مجرى النهر الحالي ووراء قناة الإسحاقي التي تمر من هنا، وترسم الآثار الأساسية شكلاً مستطيلاً يبلغ طول أضلاعه الداخلية مائة وثمانين خطوة على مائة وثمان وستين خطوة، وقد بقي من القصر الأصلي جزء من جدران السور المتينة، تحفها من كل جانب ستة أعمدة عظيمة على هيئة

(١) قارن نولدكه – ترجمة الطبري، ص ٢٩٥، كيبل – يوميات شخصية ، المجلد الأول، ص ٢٧٠– ٢٧٣.

(٢) يرجع الفضل في الصورة المدرجة أعلاه إلى الدكتور كولداواي.

الأبراج، ومبنى الجدار مشيد من الآجر الجيد، والحجرة الداخلية مرتفعة على هيئة شرفة، تواري تحتها بلا شك المبنى الأصلي الذي تداعى، ومن هنا تبرز بوضوح بقايا مجموعة من الجدران المختلفة .

وتطل الواجهة الأساسية على الجانب الشرقي قبالة النهر، وما تزال في هذا الموضع بوابة عظيمة ذات مدخل كبير تحيط به أركان وأقواس صغيرة، ويمتد أمام المدخل خندق يقوم وراءه مبنى ربما كان يستعمل سنداً ودعامة للجسر المتحرك، وتوجد كذلك آثار أخرى بالقرب من هذا الموضع، وتشير جميع المظاهر الخارجية لهذا المكان إلى أننا أمام قصر للهو والاستمتاع، وينسب بناء قصر العاشق إلى جعفر البرمكي وزير هارون الرشيد. ولا ريب في أن إجراء حفريات في هذا المكان قد يكشف عن معلومات ثمينة .

المعشوقة، سامراء

على الضفة اليسرى المقابلة آثار قصر آخر يحمل اسم المعشوقة، وينتمي هو الآخر إلى مركّب الأنقاض الذي شيدت فوقه مدينة سامراء، وترتبط بهذين القصرين أسطورة مثل التي تتحدث عن هيرو و ليياندر عندنا؛ فقد زعموا أن ابنة جميلة لأحد السلاطين كانت تقيم في قصر المعشوقة، وكان عاشقها الذي يملك القصر الآخر يسبح عبر دجلة ليزورها كلما أرخى الليل سدوله(١). ويبدو أنّ في هذا الموضع آثاراً داخل نهر دجلة ربما تشير إلى وجود جسر في عهود ماضية(٢)، ويطلق بيترمان - الذي لم يزر قصر العاشق - على آثار صغيرة مجاورة تقع جنوب العاشق اسم دلعة ماء الدليم(٣)، ويشير هذا الاسم الذي أخذه عن الكلكجية إلى قبيلة الدليم البدوية التي أصبحت شبه مستقرة وتقيم على مسافة باتجاه الغرب وراء الفرات، ولا يوجد أي أثر لقصر بنت الخليفة وقبر السيد وتل حاوي لوبسات على الضفة اليسرى المقابلة من نهر دجلة التي رسمها تشيسني على خريطته نقلا عن ريتش، ويبدو أن ذلك يرجع إلى خطأ في التقدير(٤)، كذلك لا يوجد لهذه المواضع أثر على خريطة كيبرت أيضاً(٥).

---

(١) من المرجّح أنه تم استنباط اسم " العاشق" في وقت لاحق ليتجانس مع الاسم التاريخي "المعشوقة"، قارن فيما يلي، ص ٢٣٧.
(٢) قارن ريتش في المرجع المذكور الجزء الثاني، ص ١٥٠ وريتر في المرجع المذكور أيضاً، الجزء العاشر، ص ٢٢٦.
(٣) قارن بيترمان في المرجع المذكور، الجزء الثاني، ص ٦١.
(٤) يكمن في الاسم الأخير على ما يبدو اسم البساط المذكور أعلاه، وربما ينبغي إصلاحه لكي يصبح تل حاوي البساط .
(٥) قارن ريتش في المرجع المذكور، الجزء الثاني، ص ١٥٠.

واصلنا رحلتنا على متن المركب الساعة الثامنة والربع، وأرسينا في التاسعة وعشرين دقيقة على الضفة الشرقية لزيارة حقل الأنقاض ومدينة سامراء، وكانت المنطقة مزروعة بشكل جيد، وكان عدد وافر من " الجرد" يؤمن الري، وقد استأجرنا عدداً من الحمر من فلاحين ينتمون إلى قوم أبو العباس، وتوجهنا أولاً إلى آثار قصر الخليفة التي بلغناها بعد أكثر من ربع ساعة.

آثار قصر الخليفة، البرج اللولبي " الملوية "

وتقع الآثار على مقربة من النهر وتتكون في الأساس من ثلاث قاعات عظيمة ذات قباب، ويبلغ عرض القاعة الوسطى إحدى عشرة خطوة وطولها اثنتين وعشرين، أما القاعتان الجانبيتان فأبعادهما أصغر وارتفاعهما أقل، ووراء ذلك في اتجاه الشرق متاهة بكاملها من بقايا الجدران، والآجر المستعمل في البناء أصغر من الآجر المستعمل في قصر العاشق الكبير، ويتراءى في اتجاه الشمال الغربي على مسافة قرابة كيلومترين تل العليق الذي سبق ذكره، ويرى المرء على المسافة نفسها في اتجاه الجنوب الشرقي مدينة سامراء الحديثة، وبجوارها مباشرة بقايا كثيرة من المباني التي تعود إلى عصور خوال، وتقوم على الضفة اليمنى الغربية قبالة قصر الخليفة قرية العابد وتحتوي على مائة وعشرين بيتاً من الطين يقيم فيها جماعة من قبيلة أبو عباس، واجتزنا في طريقنا إلى سامراء حقلاً متواصلاً من الأنقاض تتميز فيه آثار على هيئة السور قد تكون أنقاض جدار عظيم، وتقع مباشرة بجوار آثار القصر المهجورة، وبعد أربعين دقيقة من السير وصلنا أولاً إلى برج ما تزال معالمه واضحة يقوم على بعد بضع خطوات من الجانب الشمالي لمسجد عظيم، وقد شيد هذان المبنيان من حجارة محروقة صفراء، ويقوم البرج الحقيقي فوق قاعدة مربعة الشكل يبلغ محيطها بضع خطوات في شكل دوائر لولبية تتضاءل تدريجياً في اتجاه القمة التي تصبح على هيئة الكرة، ويبلغ عدد الدوائر اللولبية ستة، أما ارتفاع البرج فقد ذكر دجونز أنه يبلغ مائة وستين قدماً، وقد أخبرني رفاقي أن البرج والآثار التي تجاوره تحمل اسم المولوية - وتعني: الملكية - وقالوا إنها تمثل منارة المسجد، وقد ذكر رحالة سابقون مثل دجونز أن البرج يدعى الملويّة، وهي تسمية تتطابق مع شكله اللولبي الملتوي(١)، أما المنارة فيبدو أنها كانت مربعة الشكل، وأن الخليفة المستنصر هو الذي شيدها، ولم يبق منها اليوم إلا الجدران التي تمتد على مسافة ثلاثمائة وعشرين خطوة، ويسندها عدد كبير من الأعمدة نصف المستديرة

(١) راجع الصور عند فوريست - مختارات، ص ١٢ و ٢١٦، ثم ريتش في المرجع المذكور، الجزء الثاني، ص ١٥١ ثم فون تيلمان في المرجع المذكور، ص ٣٥٦.

على هيئة شرفات حصن يبلغ ارتفاع الجدران نفسه، وتشبه هذه الأعمدة أعمدة آثار قصر العاشق إلا أن قطرها أصغر من ذلك، وما تزال في داخل القاعة أعمدة أخرى وأجزاء من الغرف في حالة جيدة، وبالقرب من هذه الآثار بقايا جدران أخرى تغطي مساحة أكبر، وتحدّها من الطرف الجنوبي مدينة سامراء الحالية، ويبدو أن هذا الحقل الذي تتبعناه حتى الآن يمتد مسافة ساعة أخرى باتجاه الجنوب حتى يبلغ القايم على مسافة قصيرة شمال القادسية.

من تاريخ سامراء

يتمتّع الميدان الذي تقوم عليه سامراء اليوم بتاريخ حافل بالتغييرات، فقد كانت في هذا الموضع مدينة قروية صغيرة في العصور القديمة تحت نفوذ مختلف الحكام من بابليين وآشوريين وفرس وإغريق وساسانيين، وقد توقف الإمبراطور جوليان في طريق عودته عند هذا المكان الذي كان يدعى سومره.

ويبدو أن هذا الموضع لم يكن موجوداً في بداية العهد الإسلامي و لم يكن في مكانه غير دير مسيحي، وقد آذن قدوم الخليفة المعتصم ببداية عهد جديد لمدينة سومره القديمة؛ ذلك أن شكوك هذا الحاكم في السكان العرب داخل عاصمته بغداد كانت قد ازدادت بسبب اكتشاف مؤامرة عليه بين صفوف القوات العربية[2]، وقد حملته هذه الشكوك على إنشاء مقر إقامة جديد، ثم إن الخلافات المتواصلة بين المدنيين في العاصمة من جهة وبين العسكريين الذين يضمون أعداداً من المرتزقة البرابرة، وهم خاصة أتراك قادمون من منطقة ما وراء أوكسانيا اقترب عددهم شيئاً فشيئاً من سبعين ألف رجل، هذه الخلافات تسببت في عدم ارتياح الخليفة المعتصم لإقامته في بغداد.

استقر رأي الخليفة بعد فترة من البحث على اختيار منطقة سومره القديمة فاستحوذ على أملاك الرهبان المقيمين في ذلك الدير، وأعطاهم مبلغ أربعة آلاف دينار ثمناً للمباني والأرض، ثم وجّه عنايته إلى إعداد مخطط رائع للمدينة الجديدة، وقد راعى هذا المخطط خاصة توفير المكان اللائق لإقامة الجنود الذين يلعبون عند العباسيين الدور نفسه الذي كان يلعبه الحرس

(١) قارن أميانوس مارسيلينوس ٢٥، ٦، ٤: كان الناس يعتقدون إلى عهد قريب أن هذه التسمية تعود إلى اسم جزء من بابل وهو منطقة سومره، قارن شرادر– الكتابات المسمارية والعهد القديم، الطبعة الثانية، ص ١١٩، إلا أنه يبدو أن الموضوع لا يتعدى أن يكون تشابهاً لفظياً من قبيل المصادفة، ذلك أن المعلومات الحديثة تقول إن سومره تعني جنوب بابل، في حين أن أكاد تعني شمال بابل، قارن ديليتش في – أين كانت الجنة ؟ ص ١٩٩، وتقع مدينة سامراء الحالية في منطقة أكاد .

(٢) قارن موللر – الإسلام، الجزء الأول، ص ٥٢١

الإمبراطوري في عهد قياصرة الروم، وقد تم تشييد قصور خاصة للجنرالات واتخاذ الإجراءات الدقيقة الشاملة لإبقاء الجنود بعيدين عن المدنيين لمنع اختلاطهم بالنساء المواطنات خاصة، ولذلك شيدت أحياء خاصة للثكنات والجنود ونسائهم، وتم شراء الجواري الأتراك وتزويجهن بالجنود وسنّ قوانين صارمة ضد الطلاق .

يذكر اليعقوبي(١) الذي يرجع إليه الفضل في تقديم أحسن تقرير عن تأسيس سامراء، - القصور الثلاثة الرائعة خاصة - وهي جوسق الذي اتخذه المعتصم نفسه مقراً له، وعمري ووزيري، أما ابن المعتصم وخليفته هارون الواثق فقد شيد لنفسه قصراً جديداً سماه الهارونية في شمال المدينة التي توسّعت في عهده توسعاً عظيماً عن طريق تكاثر الأسواق ومباني الميناء، وأصبحت بسرعة أكثر المدن كثافة سكانية، و بعد فترة لا تزيد على خمس سنوات من الحكم اغتيل الخليفة هارون الواثق فصعد على العرش أخوه الأصغر جعفر المتوكل الذي واصل أعمال البناء والتشييد على نطاق أوسع.

في فترة لا تتجاوز سنة واحدة نشأت مدينة جديدة في شمال سامراء تحتوي على ما لا يقل عن أحد عشر قصراً كبيراً وعلى هضبة صناعية وعلى حلبة للسباق ومسجد كبير ومبان أخرى رائعة الجمال، وامتدت المدينة التي يقيم فيها جعفرعلى مسافة سبعة فراسخ، وذلك قرابة خمسة وثلاثين كيلومتراً حتى بلغ امتدادها "دور" باتجاه أعالي النهر، وقد نسبت إليه هذه المدينة فسميت الجعفرية، وهكذا فإن ما تم تشييده في نينوى بفضل جهود عدد كبير من الملوك وعبر قرون من الزمن، قد تم إنجازه هنا في أشهر قليلة وكأنه نتج من لمسة عصا سحرية، وذلك بسبب ولع مفرط لحاكم واحد بمظاهر البذخ والثراء، وبطبيعة الحال حدث ذلك على حساب البلد الذي امتصت دماؤه إلى آخر قطرة منها، ويذكر كريمر(٢) بعض أسماء المباني التي شيدها جعفر، فمنها: قصر العروس، والمختار، والوحيد، والغريب، وحديقة العطاشية ومقر الإقامة الجديد الجعفري، وبعد مدة لا تكاد تبلغ تسعة أشهر اغتيل جعفر المتوكل هو الآخر فسارع ابنه وخليفته على العرش المنتصر بمغادرة المدينة التي تم تشييدها مقابل هذا الثمن الباهظ ورجع إلى سامراء، وبذلك خلت قصور الجعفرية وهوت على عروشها، وأرغم سكان المدينة على مغادرة بيوتهم، وحتى على أخذ الأثاث وأعمدة وأبواب منازلهم معهم.

(١) طبعة دي غويه، ص ٢٢٥ وما يليها .
(٢) تاريخ حضارة الشرق في عهد الخلفاء – الجزء الثاني، ص ٥٨ – ٥٩.

انشغل الخلفاء الثلاثة الذين توالوا بعد ذلك على العرش، وهم المستعين والمعتز والمهتدي بالاضطرابات الداخلية الكثيرة وبدسائس الجنرالات، بحيث لم يتفرغوا للتفكير في تشييد بنايات فخمة جديدة، إلى أن جاء المعتمد خليفة المهتدي فشيد لنفسه قصراً جديداً بعدما أقام في البداية في قصر جوسق، وسمى قصره الجديد " المعشوق" .

غير أن إقامة الخليفة لم تطل في هذا المكان أيضاً، فقد أجبرته الأحداث على مغادرة سامراء نهائياً والانسحاب إلى بغداد وحتى إلى المدائن - كتيسيفون القديمة - في وقت لاحق، ولا أحد يعرف على وجه التحديد في أي سنة تم الاستغناء عن سامراء كمقر إقامة للخليفة، وربما يكون ذلك قد حدث قريباً من سنة ٨٧٢ م، وهكذا فإن عهد الازدهار العابر لهذه الإقامة لم يتجاوز سبعاً وثلاثين سنة، ومنذ ذلك العهد أصبح الخلفاء دائما يتجنّبون هذه المدينة، ولا شك أنها اندثرت في مدة وجيزة، وعلى كل حال فإن اليعقوبي الذي زار سامراء بعد مغادرة الحكام لها بسنوات قليلة - إذ يذكر بنفسه أن ذلك حدث بعد خمس وخمسين سنة من تأسيس المدينة - لم يجد في سامراء غير الآثار .

لا يذكر الرحالة المغربي ابن بطوطة(٢) الذي مر بسامراء بعد زهاء ثلاثمائة وخمسين سنة أثناء رحلته من بغداد إلى الموصل في اتجاه أعالي دجلة - من أسماء آثار القصور غير المعشوقة، أما اليوم فلا يرتبط أي اسم من أسماء الحكام الذين شيدوا تلك القصور بأي آثار معينة منها، ولكننا على يقين في جميع الأحوال أن المعتمد هو الذي شيد قصر المعشوقة .

أما قصر الخليفة الذي يسميه رحالة آخرون الجعفرية فقد يكون هو القصر القديم للخليفة أبوجعفر المنصور، ومن المرجّح أن يكون تل العليق تلك الهضبة الصناعية التي أمر المتوكل بإنشائها، لكنه ربما يواري أيضا بقايا أحد تلك القصور الكبيرة الأخرى التي شيدها الخلفاء أو ربما حتى بعض القرى التي تعود إلى ما قبل العهد الإسلامي، وعلى كل حال فإن الاسم الحالي هو تل العليق ويعني تل مخلاة العلف(٣)، وتذكر القصص الشعبية أنه تم جلب التراب الذي صنعت منه هذه الهضبة في مخالي علف الخيول التي لا تحصى ولا تعد، التابعة للمنشئ الأول لهذا المكان، وليس بعيداً أن تكون في هذه القصة إشارة إلى جلب التراب إلى هذا الموضع في الأكياس.

---

(١) قارن المكتبة الجغرافية العربية، طبعة دي غويه، الجزء السابع، ص ٢٦٨.

(٢) قارن ابن بطوطة طبعة دوفريموري وسانجنيت، الجزء الثاني، ص ١٣٢.

(٣) قارن لايارد - نينوى وبابل ص ٣٥٨، يلفظ حرف - ق - في أماكن عديدة من بلاد ما بين النهرين على شكل - ج - الأمر الذي أهمله كاتبي السوري الموطن، بحيث كتب خطأ - تل العليج - معتمداً في ذلك على طريقة اللفظ .

(٤) قارن كيبرت بملاحظات تابعة لخريطة حقول الآثار لبابل، ص ٢٦.

ولا شك أن الشلالات الصغيرة التي توجد في عدة مواضع من نهر دجلة طوال حقول سامراء تمثل بقايا جسور قديمة، فنحن نعلم مثلا أن المعتصم أمر ببناء جسر حجري ثابت على دجلة، ويدلّ قصر العاشق وآثار أخرى على الضفة الغربية على أن مدينة الخليفة قد امتدت في هذا الاتجاه أيضاً.

سامراء اليوم، مقدسات شيعية في سامراء

تقع مدينة سامراء الحديثة على مسافة دقائق قليلة جنوب البرج اللولبي الذي سبق ذكره، وعلى بعد ربع ساعة تقريباً من النهر، ويعود بناء الجدران المشيدة بطريقة جيدة إلى سنة ١٨٤٣م فقط[١] وتحتوي هذه الجدران على أربع بوابات هي: باب العجم في الشمال، و باب الناصرية في الغرب، وباب القيطوم في الجنوب، وباب بغداد في الشرق. وسامراء مدينة مقدسة جداً عند الشيعة، وقد تحمّل الحجاج الشيعة تكاليف بناء جدران المدينة؛ لأنهم كانوا معرّضين بكثرة لهجوم البدو والأكراد في المدينة التي كانت مفتوحة حتى ذلك العهد، ويرجع السبب في المكانة التي تحظى بها سامراء كموضع يؤمّه الحجيج إلى وجود ضريح الإمام العاشر وضريح الإمام الثاني عشر، وهو الإمام الأخير والأكثر قداسة عند الشيعة، وهما علي العسكري ومحمد المنتظر المهدي[٢]، وتطلق كلمة " العسكري " على الإمام العاشر وخاصة على الإمام الحادي عشر المدفون في كاظمين، وربما يعود السبب في ذلك إلى أنهما ولدا في معسكر الجنود في سامراء، ويعتبر الشيعة الحج إلى أضرحة الأئمة واجباً مقدّساً بدرجة وجوب وقداسة الحج إلى مكة، ويبدو أن الخليفة العباسي الرابع قبل الأخير، وهو أبو العباس الناصر لدين الله الذي حكم من سنة ١١٨٠م إلى ١٢٢٥م هو الذي شيد مسجد ضريح الإمام علي العسكري، أما مسجد الحضرة، وهو مسجد ضريح الإمام المهدي، فإنه لم يشيد إلا مؤخراً بفضل أموال تبرع بها بعض الشيعة الأغنياء، و يبدو أن ناصر الدين شاه الفرس ساهم في ذلك أيضاً بمبالغ كبيرة، ويرجع الفضل في بناء القبة الذهبية وزخرفها الفارسي الجميل إلى جود هذا الملك وسخائه، وقد شيد المبنى الحقيقي للمسجد على أرض مفتوحة في فناء فسيح، وتوجد بوابة وحيدة كبيرة تحمل صفائح برونزية قديمة ومدقّاً ثقيلاً، وتقود من الشرفة إلى الفناء الذي تحيط به أروقة مقببة على هيئة التكيّة، والذي شيد فيه مؤخراً برج ساعة عظيم يثير منظره شيئاً من الغرابة، وفي هذا المكان بين البوابة والفناء حوض كبير جميل من المرمر.

(١) قارن دجونز في المرجع المذكور، ص ١٢.
(٢) قارن الجزء الأول من هذا الكتاب، ص ١٢٢.

يصعد المرء إلى شرفة المسجد على درج واسع، وتشتمل الواجهة الأمامية على منارتين رشيقتين تغطيهما قبتان مطليتان بالذهب أيضاً تقومان عند الركنين، وتتجلى الواجهة الأمامية في شكل معماري مستقل عن هذين البرجين، وتتركب من خمس أقواس تشكل الوسطى منها والأكثر عرضاً البوابة الفعلية، وفي هذا المكان خاصة زخارف تمثل زهوراً وقطعاً من الخزف تحمل كتابات، ويتم أداء الشعائر الدينية لتقديس المهدي في المبنى الكبير الوحيد المقبب من المسجد، والذي يستند مباشرة إلى الجانب الخلفي من واجهة المدخل، وتقوم بيوت كثيرة حول الجدران الخارجية للفناء.

خلف مسجد ضريح المهدي مباشرة مسجد ضريح الإمام العسكري، إلا أنه ينبغي على المرء - بسبب البيوت التي سبق ذكرها - أن يقطع مسافة كبيرة عبر شوارع صغيرة معترضة حتى يبلغ المسجد، ولم تبذل جهود كبيرة لترميم مسجد العسكري الذي شيد في معظمه من قوالب الآجر، غير أنه يحتوي أيضا على قطع جميلة من الخزف القديم، ويزيّن القبة زخرف جميل من الخزف، وعلى مقربة من هذا المكان مسجد ثالث صغير يتم ترميمه حالياً بإيعاز من والي بغداد، وقد فشل سعيي لزيارة المساجد المقدسة لهؤلاء الأئمة رغم تدخل القائم مقام.

لم تبلغ مساحة مدينة سامراء الحديثة بعد الحجم الذي تخصصه لها جدران المدينة الجديدة، إلا أن المدينة تتقدم بخطى ثابتة نحو مستقبل مزدهر، ويبدو أن أعداداً كبيرة من الخيام تنصب في موسم الحج في الميادين التي تبقى مقفرة في غير هذا الفصل، ويشير مظهر المنازل إلى مستوى جيد من النظافة، ويذكر كويناي أن عدد السكان يبلغ ألفين من الشيعة وأربعمائة وخمسة وسبعين من السُنّة، ويذكر هذا الكاتب أيضاً أن المدينة تحتوي على إحدى عشرة مدرسة شيعية يبلغ عدد تلاميذها الإجمالي ستمائة طالب، وهو عدد لا يتناسب مع عدد السكان أبداً، ويأتي معظم التلاميذ من مناطق خارجية، ثم إن عدداً من الفرس يأتون بموتاهم إلى سامراء لدفنهم بالقرب من الأماكن المقدسة لأئمتهم .

المنطقة الإدارية سامراء

تمثل المدينة قضاء تابعاً لولاية بغداد ولا تخضع لها إلا " ناحية " واحدة هي تكريت. ويذكر كويناي أن الخواص يستعملون في الزراعة مساحة لا تتجاوز ١٤٠٠٠ هكتار في هذا القضاء،

(١) قارن كويناي – تركيا الآسيوية، الجزء الثاني، الحلقة السابع، ص ١٣٢.

في حين تستثمر ٥٥٠٠٠ هكتار كأملاك تابعة للإمبراطورية، ويبلغ عدد الأبقار في القضاء رقماً معتبراً يصل إلى ٥١٠٠٠ رأس، في مقابل ذلك لا يتجاوز عدد السكان ١٥٠٠٠ نسمة، وتقيم في سامراء حامية من الجنود النظاميين بسبب قدوم عدد كبير من الشيعة في مواسم الحج، إضافة إلى ذلك تخصص مساحات كبيرة للمستودعات العسكرية .

غادرنا المدينة الساعة الواحدة وخمساً وثلاثين دقيقة ووجدنا الكلك عند أسفل الجسر الذي هو الجسر الأول من مدينة الموصل، وتقع قرية القلعة على الضفة المقابلة وتحتوي على مائة وعشرين بيتاً من الطين يقيم فيها فلاحون .

آثار القائم وإسطبلات والصنم

ما لبثنا أن واصلنا الرحلة ومررنا الساعة الثانية وأربعين دقيقة على يميننا بقرية معيجل التي تحتوي على أربعين بيتاً يقيم فيها فلاحون من سامراء ، ومررنا الساعة الثالثة وخمسين دقيقة على شمالنا بمخيم صغير للفلاحين يسمى مزيرعة عنده بقايا جدران غير ذات أهمية، ووجدنا بعد ذلك مباشرة أنقاض قلعة القائم، وتتركب هذه الآثار من جانب من برج مرتفع يذكر بيترمان أنه شيد من قوالب حجرية[1]، وهنا تتفرع قناة صغيرة تدعى نهر الرصاص، قد تكون القلعة على اتصال بها.

مررنا الساعة الرابعة وثلاثين دقيقة على يميننا بآثار إسطبلات التي فحصها روس عند قدومه عن طريق البر، وتمتد هذه الآثار على مسافة طويلة ولا تزال تظهر فيها آثار الطرقات بكل وضوح، وتحيط بالموضع كله بقايا جدار مدينة توجد خارجه أكوام مختلفة منعزلة من الركام، وقد يكون اسم إسطبلات يعود إلى مباني ثكنات سابقة من عهد الخلفاء، ويوجد قبالة ذلك على الضفة الشرقية موضع أثري يدعى الصنم؛ لأنه عثر فيه على صنم اطلع ريتش على بعض بقاياه[2]، وبناء على وصفه فإنه لم يجد غير الجزء الأسفل الذي يشمل القدمين وطولهما ثلاث عشرة بوصة، وتقفان متوازيتين فوق منصة، أما فوق مستوى الكعب فلم يبق من الصنم إلا جزء لا يتجاوز طوله بضع أقدام، ويتبين من هذه البقايا أن الملابس كانت على هيئة سراويل تبلغ مستوى الكعب، وبناء على هذه الملابس لا يمكن أن يكون هذا الصنم من العهد البابلي، أما

....

(١) قارن بيترمان في المرجع المذكور، الجزء الثاني، ص ٦٢.
(٢) المرجع المذكور، ص ١٥٢

المادة التي صنع منها فهي من الجرانيت الداكن أو البازلت[1]، وقد ظن ريتش أنه إزاء آثار ساسانية عندما فحص بقايا الجدران المجاورة، أما اسم " نبى زنام " المسجل على خريطة كيبرت فيبدو أنه ليس له تفسير .

القادسية، المجرى القديم لدجلة، الدجيل

مررنا الساعة السادسة والنصف على يميننا بمخيم لمجموعة من قوم مجمع[2] يدعى القبّان، وتمتد على الضفة اليسرى عند منعرج للنهر على مسافة طويلة آثار القادسية[3] التي عرفت بهذا الاسم منذ العصور الوسطى العربية، والتي اشتهرت بسبب مصانع الزجاج الملوّن الموجودة فيها[4]، وقد سجل كاتبي السوري اسم القادسية بناء على معلومات الكلكجية بالطريقة التالية " الجالسية"، ويجوز توقّع خطأ بهذا الصدد لو لم يسجل المستشرق بيترمان[5] أيضاً هذا الاسم كما يلي: جلسية، لذلك أقول إنه يبدو أن الاسم القديم تعرّض إلى التحريف والتغيير في العصور الحديثة[6].

يأخذ النهر أسفل القادسية اتجاه الشرق لمدة طويلة، ويتشعب إلى فروع كثيرة منها الصغير ومنها الكبير، ونظرا لقلة انحدار النهر وللرياح المعاكسة فقد تواصلت رحلتنا من هنا إلى بغداد في بطء شديد، وظهرت لنا مواضع كثيرة على الضفتين تغطيهما الطرفاء ونباتات أخرى، هذا المجرى الشرقي لدجلة ليس هو المجرى الأصلي بل إن النهر كان في السابق يجري في اتجاه الجنوب الشرقي، ولا يزال المجرى القديم الذي يدعى - شطيط - ويمتد إلى ما قبل بغداد بقليل، لا يزال إلى اليوم واضحاً للعيان تمام الوضوح، ولسنا نملك إلى اليوم أي معلومات عن تاريخ اختراق النهر في هذا الاتجاه، ولا ريب في أن طبيعة الضفتين شمال القادسية هي التي ساعدت على حدوث هذا التحول، إذ نجد أن الجانب الشرقي من مجرى النهر تحده حافة مرتفعة عند أعالي القادسية، في حين يتميز الجانب الغربي بأنه سهل منبسط، وتتفرّع عن دجلة قبالة القادسية القناة العريضة التي سبق ذكرها وتدعى دجيل (دجلة الصغير)، وتجري على مسافة قليلة من المجرى

(١) يقول ريتش : الجرانيت الرمادي أو البازلت.

(٢) يكتب بيترمان هذا الاسم كما يلي: جماعة .

(٣) راجع موقع القادسية عند دجونز في المرجع المذكور ص ٩

(٤) راجع ياقوت الجزء الرابع، ص ٩.

(٥) في المرجع المذكور، الجزء الثاني، ص ٦٢.

(٦) يذكر ريتش وكتّاب إنجليز آخرون اعتماداً على جيبّون الفصل ٥١ - الذي يتبعون أقواله دون إعمال الرأي فيها - أن المعركة الفاصلة التي دارت بين العرب والفرس والتي سقطت فيها بلاد ما بين النهرين في يد العرب وقعت عند القادسية، في حين أنها دارت في الواقع عند مدينة تحمل الاسم نفسه وتقع على الحدود بين بابل والصحراء العربية بالقرب من " الحيرة" غربي أسفل الفرات، قارن موللر - الإسلام، الجزء الأول، ص ٢٣٧.

القديم للنهر، وتسمّى نقطة انطلاقها "صدر الدجيل"، وعند الموقع الأثري الذي يسمّى حربة (في الواقع حربى، أو حربا عند ياقوت، الجزء الرابع ٩)، على مسافة قرابة عشرة كيلومترات جنوب شرقي صدر، يقوم على دجيل جسر طوله مائة وتسعون قدماً، ويرجع إلى عهد الخليفة العباسي الأخير(١) و يتخلّل عدد كبير من القنوات الفرعية كامل هذه المنطقة حتى بغداد.

خان الصعيوية، تل حسين

مررنا الساعة السابعة وأربعين دقيقة على الضفة اليمنى بقرية تدعى المعيبر تنتمي إلى قوم مجمع وتقابلها قرية فلاحين تدعى الحويّ، هنا يوجد حقّاً معبر للنهر يدل عليه اسم "المعيبر" الذي سبق ذكره. كان مركبنا يسير أثناء رحلتنا الليلية على الجانب الأيسر للنهر في أغلب الأحيان، وفي صباح اليوم التالي بلغتني مواقيت المرور بالأماكن التي سبق ذكرها، غير أنه يتعذر عليّ تسجيل تحديد دقيق للمواضع بسبب التفرّعات الكثيرة التي تتشعب من نهر دجلة في هذه المنطقة.

مررنا الساعة التاسعة وخمسين دقيقة على الجانب الأيسر بخان يدعى الصعيوية يقال إن رجلاً من بلاد فارس شيده قبل تسعين عاماً، ويرجّح أنه نفس الخان الموجود على الخرائط تحت اسم خان مزرقدية، وقبالة هذا الموضع تقريباً عند آثار جبارة، كان سد قديم يقود إلى داخل الصحراء في اتجاه الجنوب والجنوب الشرقي، ويعتقد الإنجليزيان روس ولينتش أن هذا السد هو الجدار الذي ذكره كسينوفون، والذي يحدّ بابل من الشمال ويربط بين دجلة والفرات، في حين يقول دجونز(٢): إن هذا السد ليس إلا حاجزاً لحماية الأراضي الزراعية، ويعتمد في هذا الرأي على وضع الجدار العام، وعلى أية حال يبقى السؤال قائماً فيما يتعلق بأبعاد المبنى والغرض منه(٣)، ويبدو أنه يوجد عند جبارة مخيم لقبيلة مجمع يدعى برقة. ومررنا الساعة الحادية عشرة على ما يبدو بتل حسين الذي قيل لي: إنه يقع على الضفة اليمنى، في حين أن خريطة كيبرت تذكر موضعاً على الضفة اليسرى يسمى الشيخ حسين، هنا أيضاً على ما يبدو مخيم لقبيلة مجمع. في الساعة الواحدة كانت على يميننا على مسافة كيلومترين من النهر قرية تدعى بلد تتبع الأملاك الإمبراطورية، وتحتوي على مائتي بيت من الطين تقريباً، وتسمى إحدى

(١) قارن دجونز في المرجع المذكور، ص ٢٥٢.

(٢) في المرجع المذكور، ص ٢١٦ وما تبعها .

(٣) قارن روس ولينتش في مجلة الجمعية الملكية للجغرافيا، الجزء التاسع، ص ٤٧٣، وكيبرت في ملاحظات مرافقة لخريطة حقول الآثار البابلية، ص ٢٣.

جزر النهر الكبيرة " التونة "، تقوم فيها مائة خيمة لمجموعة من قوم أبو فرّاج، ومررنا بعد ذلك بربع ساعة بقرية يقيم فيها فلاحون وتدعى أم عفيشة، وعلى كل حال فهي القرية نفسها التي يسميها بيترمان أم فيشة، وهي موضع اعتقد بيترمان أنه لاحظ فيه بيوتاً منحوتة في الجبال، وقد مرّ هو الآخر بهذا المكان في الليل أيضاً، ومررنا بعد ساعة من الزمن بقرية صغيرة من الخيام تسمى بعرورة أو باعرورا وتقع على الضفة اليسرى.

عضيم، مدينة أوبيس القديمة

عند الساعة الثالثة وخمس عشرة دقيقة وعلى الجانب نفسه وجدنا قرية خيام أخرى تدعى البحيرية، ويقع قبالة هذه القرية مخيم للجبور يعدّ ثلاثمائة خيمة ويسمى ضلوعية، وتبع ذلك عند الساعة الرابعة وعلى الجانب الأيمن مخيم لقوم مجمع يدعى السيد محمد(١)، ووجدنا الساعة الرابعة والنصف مخيماً يدعى السفينة وفيه قرابة عشرين خيمة لقبيلة سعود، ومررنا الساعة الرابعة وخمساً وأربعين دقيقة بقرية تحتوي على خمسين كوخاً وتدعى الحباب، ووجدنا الساعة الرابعة وخمساً وخمسين دقيقة مخيماً لقبيلة مجمع يحتوي على ما يبدو على اثنتي عشرة خيمة ويسمى العوسجة، ومررنا بعد ذلك عند الساعة الخامسة وعشر دقائق بمخيم قبّ الشوالي على الضفة اليسرى، ويحتوي على قرابة ثلاثين خيمة لبني تميم، وتمتد ديار هذه القبيلة من هنا حتى ديالى في اتجاه الجنوب الشرقي، ثم مررنا الساعة الخامسة وخمس عشرة دقيقة على شمالنا بمصب - صدر- نهر عضيم الذي ينبع من الجبال الكردية، والذي تنعش مياهه على مسافة طويلة تيار النهر الذي يقل انحداره منذ الدخول في أراضي بابل، والآن بدأت على الضفة اليمنى مرتفعات جبل العقاب الذي رافقنا على مدى أربع ساعات(٢)، ويوجد في الركن الغربي الذي يكونه نهر عضيم القادم من الشمال مع مجرى دجلة الحالي حقل آثار واسع هو تل محصل .

هناك، حيث كان نهر عضيم سابقاً يتحد مع مجرى دجلة، على بعد بضع كيلومترات جنوب المصب الحالي، تقع مدينة أوبيس التي تم العثور على آثارها في حقل الأنقاض الذي يسمى منجور، في حين أن ريتش و بعض الرحالة القدماء حددوا موقعها عند أعالي القائم، وزعم البعض الآخر أنه في حقل آثار تل محصّل، ولابدّ أن هذه المدينة الضاربة في القدم، والتي سبق

(١) يوجد على خريطة كيبرت على مسافة داخل اليابسة موضع إسلامي مقدس يحمل الاسم نفسه.
(٢) يطلق هذا الاسم في خريطة كيبرت على قناة قديمة تسمى " عقاب " وتقع قبالة مصب عضيم .

ذكرها قبل استيلاء تيغلات بيليزار[1] على بابل قرابة ١١٠٠ ق. م، لابد أنها كانت مترامية الأطراف وكانت محطة عبور ذات أهمية كبيرة للتنقل بين البلاد الآشورية والخليج الفارسي.

هنا تبدأ الملاحة البحرية الحقيقية عوضاً عن التنقل بمراكب العبور، وقد أخبرنا سترابو أن أوبيس كانت مدينة مفتوحة .

عند الساعة السادسة من الصباح الباكر كان على يميننا مخيم يحتوي على مائتي خيمة وتقيم فيه مجموعة من بني تميم ويدعى أحمد الفياض، وبعد ذلك بمدة وجيزة غيّر نهر دجلة مجراه في اتجاه يميل أكثر إلى الجنوب يحافظ عيه حتى يبلغ بغداد، ومررنا الساعة السابعة والربع على الجانب الأيسر بالدوجمة، وهي مخيم يتكون من مائتين وأربعين خيمة لقبيلة الجبور وقبيلة أبو حجازي، وعند الساعة السابعة وخمس وعشرين دقيقة وجدنا على يميننا خمساً وعشرين خيمة لبني تميم تدعى الزنبور، ويطلق كيبرت[2] هذا الاسم على المكان الذي ذكر زوسيموس أنه يدعى سيمبري، والذي مر به جيش جوليان في طريق عودته، إلا أن المدينة القديمة ينبغي أن تكون على الضفة اليسرى؛ لأن الجيش لم يعبر نهر دجلة إلا عند دور، وهذا يعني أن دجلة كان في ذلك الوقت قد غادر المجرى القديم الذي يدعى الشطيط .

وجدنا الساعة الثامنة والنصف على يميننا مخيماً آخر لبني تميم يحتوي على سبعين خيمة ويدعى الحصى، وتقابله قرية مراح التي تحتوي على مائة بيت من الطين يقيم فيها بنو تميم هي الأخرى، وعند الساعة التاسعة وأربعين دقيقة انتهت مرتفعات عقاب على الجانب الأيمن،

مزارع النخيل على نهر دجلة

ولما بلغنا الساعة العاشرة وخمسين دقيقة أشاعَ البهجة في أنفسنا منظر غابة من النخيل على الجانب الأيسر، وهي الأولى التي عثرنا عليها أثناء رحلتنا المائية، رغم أننا رأينا - كما سبق أن ذكرنا - بعض أشجار النخيل المتناثرة عند تكريت، كانت الغابة تضم قرية صغيرة تدعى سندية، وقد بعث منظر الأشجار في نفسي الأمل المعسول بقرب نهاية رحلة المركب التي بدأت أضيق بها ذرعاً، ولا شك أن مدينة بغداد أصبحت قريبة الآن، و لم يكن علينا إلا أن نتحلى بقليل من الصبر، ذلك أن التيار كان قد ضعف والرياح المعاكسة اشتدت حتى أصبح معها المركب لا

(١) قارن ديليتش في المرجع المذكور، ص ٢٠٥.
(٢) راجع المصدر المذكور، ص ٢٥.

يكاد يقوى على شق طريقه في اتجاه أعالي النهر؛ ولذلك أرسينا عند سندية لمدة طويلة على الضفة، و لم نبلغ إلا بعد أربع ساعات ونصف من السير البطيء واحة سعدية التي ظللنا نرى غابات نخيلها مدة ساعة ونصف على جانبنا الأيسر، وعند الساعة السادسة وجدنا على شمالنا أيضاً واحة من النخيل تدعى المنصورية، وتحتوي على عدد بين مائتين وستين وثلاثمائة بيت من الطين وعلى مسجد، وجميع هذه القرى يقيم فيها سكان من الشيعة. بعد ذلك مررنا الساعة السابعة على شمالنا بمخيم لقوم أبو منعة يدعى الرقّة، وفي الثامنة وجدنا على الجانب نفسه واحة نخيل إلى جانب قرية القصيريين التي تحتوي على قرابة ثلاثين كوخاً من الطين ، ووجدنا الساعة الثامنة وخمساً وعشرين دقيقة على الجانب الأيسر أيضاً قرية الحويش التي تحتوي على نهاز ثلاثين كوخا من الطين.

مرت هذه الرحلة الليلية ببطء شديد بحيث أصبح مقياس الزمن أقل ملاءمة لتحديد المسافات مما كان عليه خلال رحلاتنا الليلية السابقة، وبعد مدة وجيزة وجدنا على يميننا على مسافة قليلة ثكنة الطارمية، ومررنا الساعة الثامنة وخمساً وأربعين دقيقة على الضفة اليمنى بمخيم يحتوي على قرابة ثلاثين خيمة للمشاهدة ويدعى قراعات، ووجدنا الساعة الثامنة وخمساً وخمسين دقيقة على الضفة نفسها أربعين خيمة للمشاهدة تشكل مخيماً يدعى الكسرة، ثم أبصرنا عند الساعة العاشرة والنصف على شمالنا قرية الجديدة الكبيرة التي تحتوي على ثلاثمائة بيت من الطين، وهي المحطة الأولى على طريق القوافل من بغداد إلى الموصل، وتحتوي القرية على خان كبير ويقيم فيها عدد من السكان الذين ينتمون إلى المذهب السني إضافة إلى أصحاب المذهب الشيعي، وتنتهي عند جديدة غابات النخيل التي تحف الضفة ولكنها تستمر في اتجاه اليابسة إلى الشرق في مجموعات صغيرة وكبيرة من الأشجار، ولا تعود غابات النخيل إلى الظهور إلا بعد بضع ساعات عند أعالي بغداد لتزين منظر الضفاف حتى مسافة بضع ساعات في اتجاه أسفل المدينة .

قناة الخالص، منطقة اليهودية

رغم وجود عدد كبير من الجرد الصالحة عند النهر فإن السكان يجلبون المياه في الأساس من الفروع الكثيرة لقناة الخالص التي تنفصل عن ديالى على بعد بضعة أميال جنوب موضع خروجه من سلسلة جبال حمرين ليتوجه إلى نهر دجلة، هذه القناة حديثة العهد وتعتبر المنطقة التي تسقيها إحدى أكثر المناطق استغلالاً في الزراعة في ولاية بغداد، ويرسم النهر مباشرة بعد

قرية جديدة منعرجاً واسعاً في اتجاه الغرب، وداخل هذه القوس موضعان يطلق عليهما اسم الحور، و يتمثلان في مساحات مستنقعية لمنطقة الخالص تستوعب فائض المياه من القنوات.

بعد ذلك بمدة وجيزة بلغنا قرية الملوح على الضفة اليمنى وتحتوي على ثلاثين بيتاً لقوم السادة، وتدعى المنطقة التي تبدأ الآن وتمتد غرب الحور المذكورة آنفاً اليهودية، وعلى الضفة اليمنى قرى أخرى للمشاهدة بلغني أن إحداها تسمّى الغرب .

مغادرتي للكلك في الداودية، طنّوس يواصل إلى بغداد

اشتدت الرياح المعاكسة في هذه الأثناء وأصبح من المحتمل أن تستغرق الرحلة إلى بغداد عدة أيام عوضاً عن عدة ساعات، و لم تكن المجاديف لتقوى على شيء أمام تلك الرياح العاتية، لذلك أرسينا عند مكان يدعى اليهودية الشرقي، ينعطف عنده النهر في زاوية حادة، ولما فقدنا الأمل في رحلة أسرع في اليوم التالي أيضاً، قررت يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من شهر غسطس قبول عرض سكان القرية المجاورة التي تسمى داودية، الذين وضعوا تحت تصرفنا مجموعة من الحمير لمواصلة الرحلة إلى بغداد وكلفت خادمي طنّوس بمواصلة رحلة الكلك مع أمتعتنا، في حين سافرت أنا مع نجيب سلوم عن طريق البر إلى بغداد، وسوف أدرج فيما يلي أسماء المواضع التي مر بها المركب على نهر دجلة حين واصل رحلته الساعة الثالثة، وذلك بناء على المعلومات التي حصلت عليها من طنّوس.

في الساعة الخامسة والنصف كانت قرية توتة حبيب على الجانب الأيمن، وهي قرية تشتمل على أربعين بيتاً يقيم فيها المشاهدة، ومررنا الساعة السادسة بمخيم السواكن(١) على الجانب الأيسر ويحتوي على أربعين بيتا لقبيلة القصايرية وقبيلة المشاهدة، ووجدنا السادسة والنصف وعلى الجانب الأيمن أيضاً مخيماً للمشاهدة يحتوي على أربعين بيتاً ويدعى العويجة، وعند الساعة السابعة كانت قرية على يسار النهر تدعى حويجة الغرب، وتحتوي على ثلاثين بيتاً من الطين يقيم فيها قوم من قبيلة أبو فرّاج وقبيلة المشاهدة، ثم وجدنا الساعة السابعة وأربعين دقيقة مخيماً صغيراً للمشاهدة على اليسار، ويدعى هذا المخيم نهر الباشا بسبب قناة أمر بحفرها الباشا غير أنها قد اختفت الآن، ومر المركب الساعة الثامنة بقرية الدّبّاغيات التي تحتوي على خمسين بيتاً من الطين يقيم فيها الجبور، ومر عند الساعة التاسعة والربع بقرية أبودالي التي

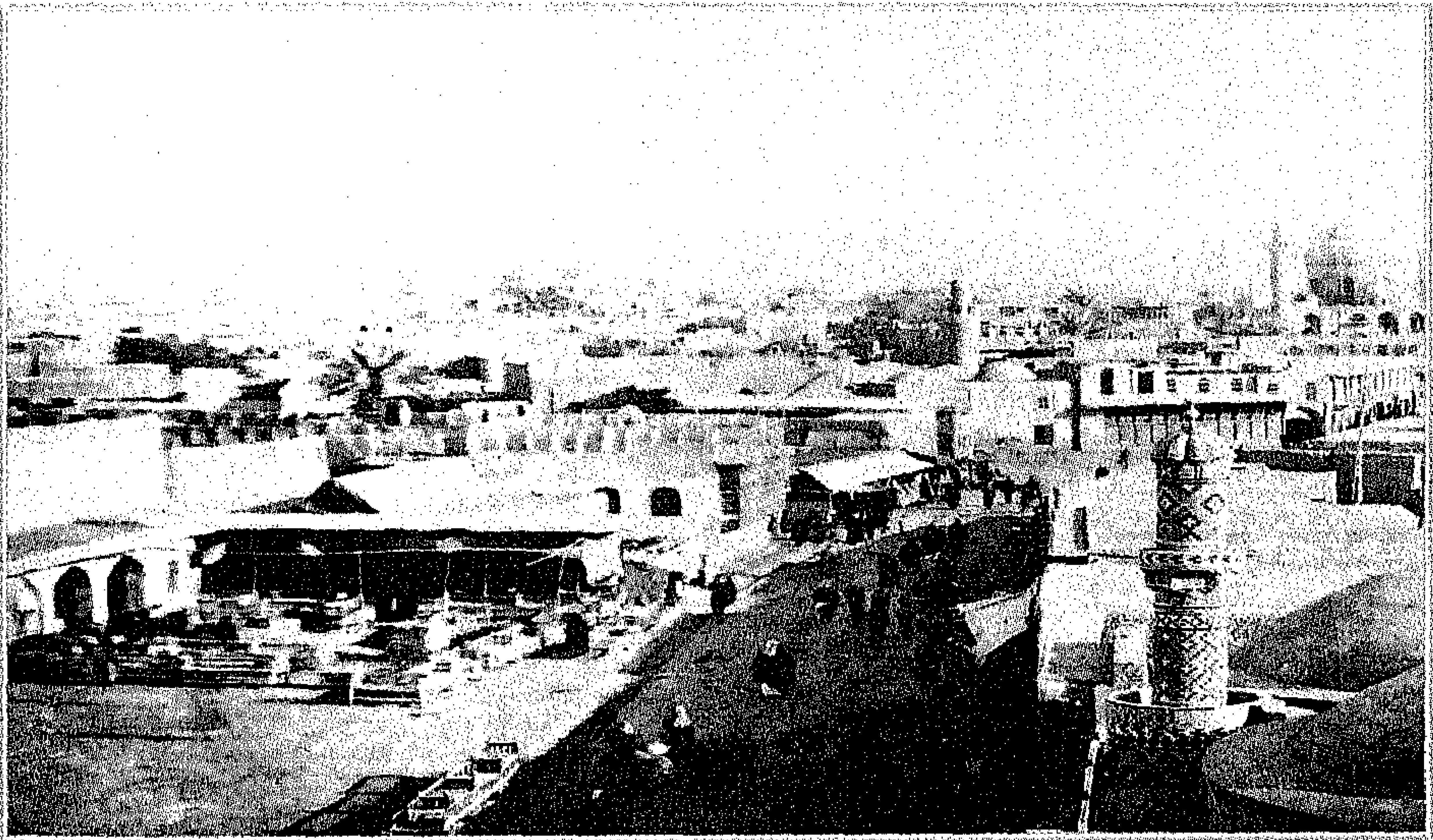
(١) الاسم نفسه الذي يطلق على المدينة الواقعة على البحر الأحمر والذي يكتب عادة بطريقة غير صحيحة كما يلي: سواكم .

تشمل قرابة عشرين بيتاً من الطين يقيم فيها المشاهدة، وتقع كلتا القريتين في ظلال غابات النخيل، وظهرت الساعة العاشرة والنصف على الجانب الأيسر قرية تابعة لممتلكات اللواء كاظم باشا وهو صهر للسلطان، ويقيم في هذه القرية خليط من الجبور وجحش، وتحتوي على قرابة مائة بيت من بيوت الفلاحين المصنوعة من الآجر، وعلى يمين هذا الموضع تقع الشريعة البيضاء، وهي مخيم للمشاهدة يحتوي على خمسة عشر بيتاً، ومررنا الساعة الحادية عشرة والنصف على اليسار بمخيم طارمبة وفيه حدائق من النخيل وثلاثون بيتاً للمشاهدة، وعند الساعة الثانية عشرة ليلاً تقريباً وجدنا مخيم التاجي على اليمين ويحتوي على خمسين خيمة للمشاهدة، وعلى اليسار القميرة وفيه ثلاثون خيمة للمشاهدة، ومررنا الساعة الواحدة وأربعين دقيقة على اليمين بموضع يؤمه الحجيج ويسمى الكاظمين، وعلى الشمال بقرية صالح وفيها ثمانون بيتاً، وبلغ المركب الساعة الثالثة جسر المعظم الذي لم نتمكن من اجتيازه إلا بعد ساعتين من الانتظار، أما قرية المعظم فتقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة، وكانت قرية كوخنار كلجي على يميننا الخامسة والنصف وهي قرية تحتوي على قرابة أربعين بيتاً من الطين، وعند الساعة السادسة من الصباح الباكر من يوم الأربعاء، الثلاثين من أغسطس أرسى المركب عند جسر بغداد.

من داودية إلى بغداد براً

أما نحن فقد كانت تغمرنا سعادة كبيرة لإفلاتنا من سجننا الضيق فوق المركب، فواصلنا طريقنا في جذل وحبور على الحمير الصغيرة الحجم ولكنها القوية البنية في اتجاه الجنوب الشرقي داخل اليابسة، وعبرنا خلال رحلتنا مناطق جميعها مزروعة، وكانت الزراعة في الأول من فئة الزراعات الكبرى وبعد ذلك أصبحت غابات نخيل وبعد انطلاقنا ببضع دقائق، قرابة الساعة الثانية عشرة مررنا بقرية للجبور تحتوي على عشرين بيتاً من الطين، وقد كانت هذه المنطقة تتمتّع بأمن تام، ولما استفسرت عن قصد عن موضوع الأمن قيل لي إن غارات البدو توقفت منذ أمد بعيد لا يكاد أحد يذكره، وبلغنا الساعة الثانية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة الطريق الكبيرة التي تربط بين كركوك وبغداد، ووجدنا الساعة الواحدة وخمساً وعشرين دقيقة على يميننا قرية كاظم باشا التي سبق ذكرها، وما لبثت غابات النخيل أن ظهرت من جديد وهي في هذا الموضع تابعة للأملاك الحكومية، وعند الساعة الواحدة وخمسين دقيقة تغير الاتجاه

قليلاً إلى الشرق، وبلغنا الساعة الثانية وخمساً وثلاثين دقيقة قرية صليخ وبذلك نهر دجلة، وأبصرنا عند الساعة الثانية وأربعين دقيقة جسر المعظم، وبعد ذلك مباشرة وصلنا إلى ميدان المسجد الكبير في قرية الأعظم، وقد اكتسب الموضع اسمه من الإمام الحنفي الذي يسمى عادة الإمام الأعظم، وبعد استراحة دامت ربع ساعة واصلنا رحلتنا، وكانت الطريق الواسعة محفوفة من جانبيها بالجدران الطينية لحدائق النخيل، وقد قادتنا هذه الطريق بعد ربع ساعة إلى ميدان فسيح تغطيه خيام مخيم عسكري، وعند الساعة الثالثة وأربعين دقيقة كان المستشفى البلدي الكبير على يميننا، وبعد ذلك بقليل بلغنا باب المعظم وبذلك البوابة الشمالية لمدينة بغداد.



مدينة بغداد

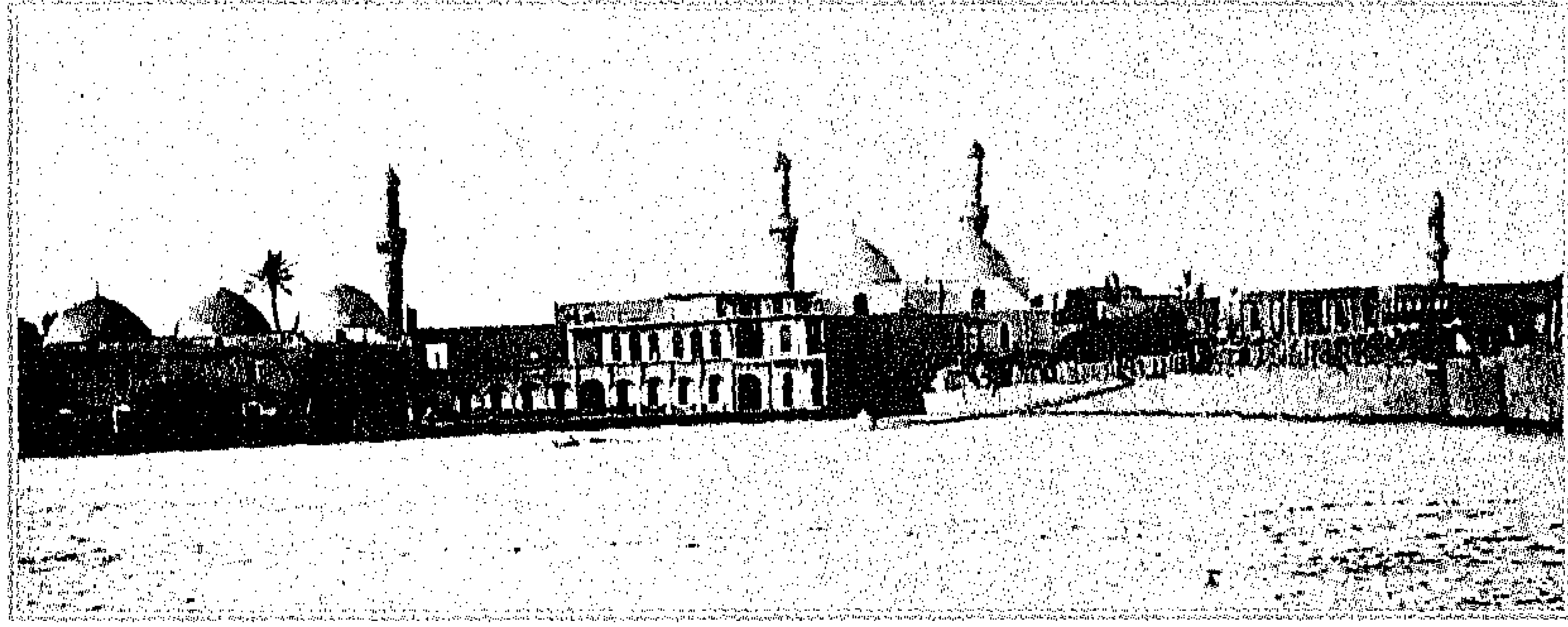
الفصل السابع

بغداد

الكوليرا - بغداد اليوم - الجسور، إحصاءات السكان - معالم أثرية من العهد البابلي ومن عهد الخلفاء - أضرحة أبي حنيفة وأحمد بن حنبل - أضرحة الإمام موسى الكاظم، ومحمد الجواد، والشيخ عبد القادر الجيلاني - ضريح الست زبيدة - مساجد من العهد الحديث وأماكن مقدسة - كنائس مسيحية، مبان مدنية، السرايا- البازار- القلعة- الخانات، طريقة بناء المنازل - داخل المنازل، الأثاث - المنتجات الفنية المحلية، المصانع الآلية - بغداد المركز التجاري - ملاحة السفن البخارية على دجلة - بغداد ملتقى الطرق قديماً - خط سكك حديدية عبر بلاد ما بين النهرين - خط دجلة أم خط الفرات، مزايا خط دجلة- أولويات ألمانيا - مهام ومصالح الحكومة التركية في مد خط سكك الحديد، البريد والبرق الأوروبيون في بغداد، القنصليات الأوروبية - القنصل الألماني ريشارتس - أثر وباء الكوليرا - الحياة في الشوارع العامة - الأعيان في بغداد - بغداد ما قبل الإسلام - أبو جعفر المنصور يشيد دار السلام - دار الخلد، بغداد عاصمة الخلفاء دولة السلاجقة، الخليفة المسترشد - المغول يدمرون بغداد - بغداد مقرّ الإقامة الشتوي للأُمراء المغول- قره قويونلو وآق قويونلو، جيهان شاه - العثمانيون إسماعيل الصفوي يصبح شاه الفرس - الشاه عباس الأكبر يضم بغداد إلى بلاد فارس - الجيوش العثمانية تحاصر بغداد - السلطان مراد الرابع يستولي على بغداد - بغداد تحت نفوذ الحكام الأتراك - حسن باشا، وأحمد باشا، نادر شاه يحاصر بغداد - معركة سامراء، عمر باشا، سليمان باشا - الوهابيون، سعيد باشا داود باشا، الطاعون والفيضانات - نهاية داود باشا، علي باشا والبدو - مدحت باشا وإصلاحاته.

الكوليرا

لم يكن توقيت زيارتي لمدينة الخلفاء العتيقة مناسباً، فقد كان وباء الكوليرا قد انتشر، وإن لم يكن ذلك بالدرجة نفسها التي عرفتها سنة ١٨٨٩م، ولكنه كان على الأقل بدرجة شلّت الحركة، وحملت جزءاً كبيراً من السكان على مغادرة منازلهم واللجوء إلى خيام وبيوت احتياطية صنعت على عجل خارج أبواب المدينة، ورغم ذلك فقد قضيت في بغداد[١] ساعات سعيدة ضيفاً على السيد كارل ريشارتس الذي هو أصيل إقليم الراين في ألمانيا، مثلي أنا تماماً، رغم أن الوباء عرقل نشاطاتي الاستطلاعية في المدينة، و لم أسلم أنا أيضاً من مرض الجلد المعروف باسم حبة حلب، والذي ينتشر في بغداد كما ينتشر في مدن كثيرة أخرى في المشرق، ويعاني منه معظم الأوروبيين الذين يعيشون في هذه الربوع[٢].



بغداد

بغداد اليـــوم

لا تملأ مدينة بغداد اليوم[٣] المساحة التي يضمها جدار المدينة القديم الذي أنشأه[٤] مدحت باشا رغم أن المدينة تنمو نمواً مطّرداً، ففي الجانب الشرقي الذي يمثّل شكلاً رباعياً منحرفاً طوله ثلاثة كيلومترات ونصف، وعرضه كيلومتران وثلاثمائة متر، ظل مكان فسيح دون بناء تكسوه

(١) من ضمن المراجع الكثيرة حول بغداد نخص بالذكر البارون فون تيلمان – جولة في ربوع القوقاز وبلاد فارس وتركيا الآسيوية، لايبتسيج ١٨٧٥م، نيبور– رحلة في البلاد العربية، مترجم من الألمانية إلى الفرنسية، أمستردام وأوترخت ١٧٧٦م، شولي– أرمينيا وكردستان وبلاد ما بين النهرين، باريس ١٨٩٢م، القائد جيمس فيليكس دجونز– مذكرات حول إقليم بغداد في – مختارات من سجلات الحكومة في بومباي رقم ٤٣ (XLIII) السلسلة الجديدة بومباي ١٨٧٥ ص ٣٠٤ وما يليها، أنطوني غروفز– يوميات إقامة في بغداد، لندن ١٨٣٢م. هنري مينيو – بغداد ، باريس ١٨٩٣م.

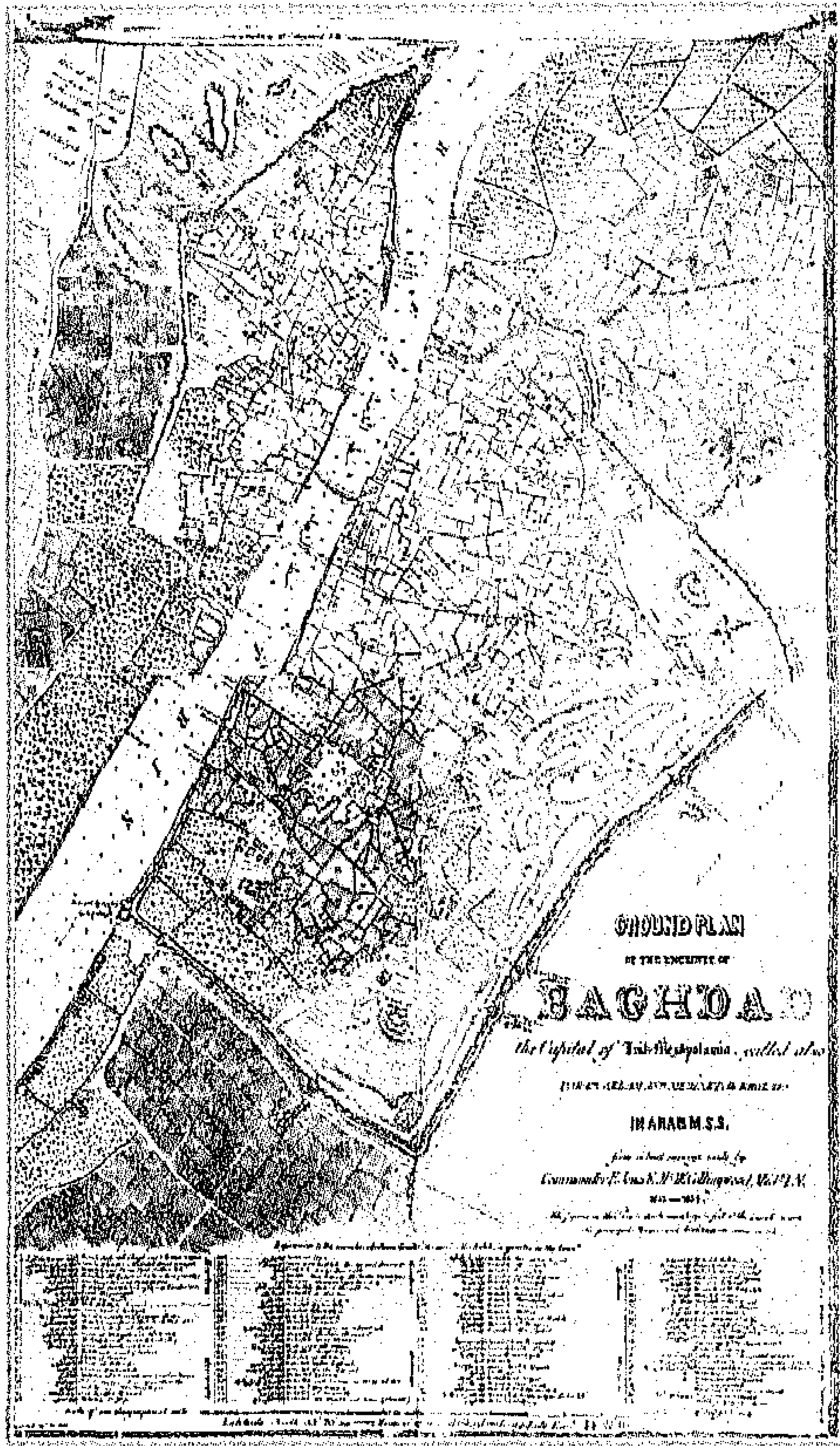
(٢) وباء طاعون الورم الذي نسف بلاد المشرق قبل ستين عاماً، لم يصب مدينة بغداد منذ ذلك الحين على شكل وباء كبير، لكنه ذهب بعدد من الضحايا منذ قرابة عشرين عاماً، وقد انتقل الطاعون إلى بغداد من أسفل الفرات حيث كان على ما يبدو وباء مستوطناً، إلا أنه اندلع فجأة وانتشر على نطاق واسع.

(٣) قارن الخريطة على الصفحة الموالية والتي هي مأخوذة من مذكرات دجونز حول بغداد .

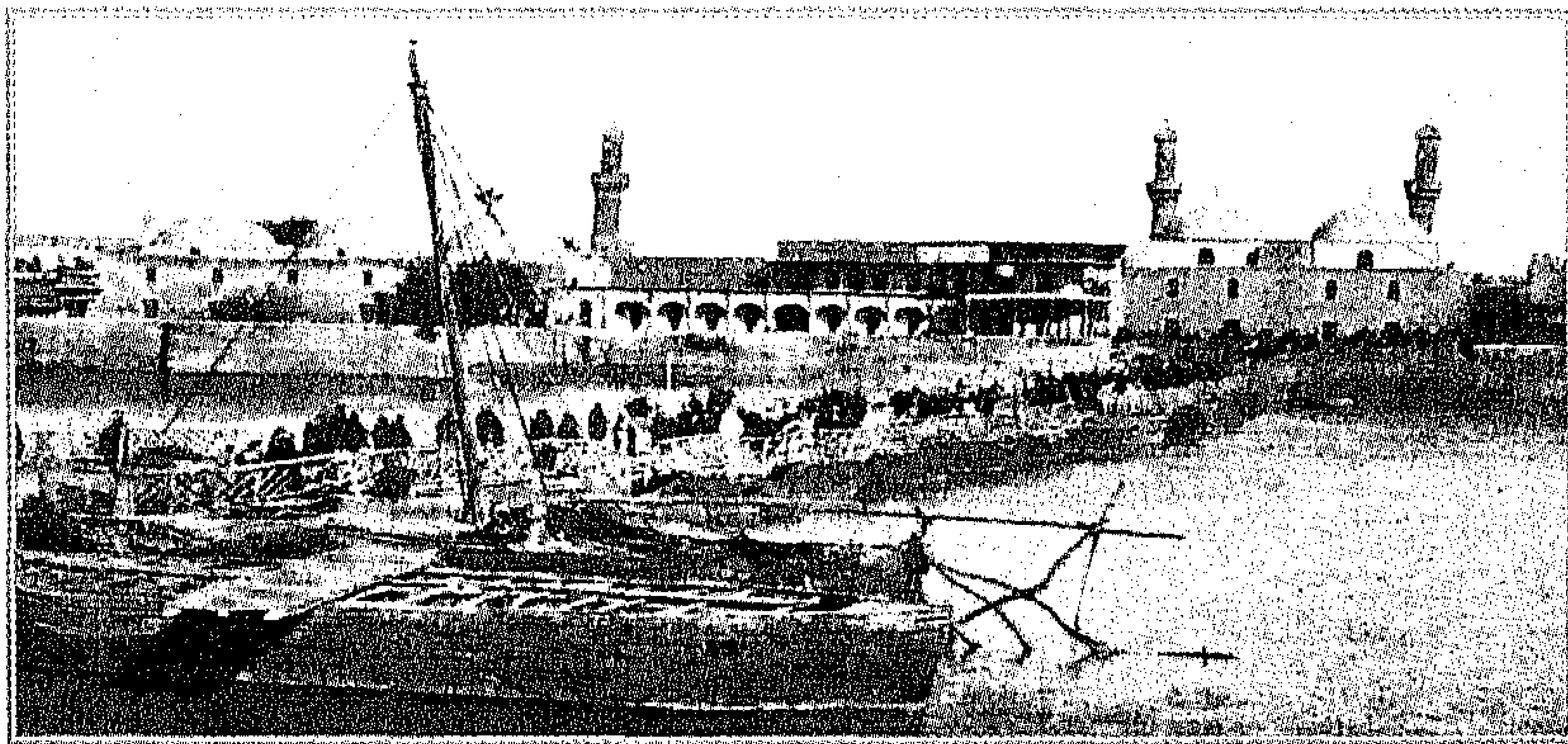
(٤) ظلت البقايا الأخيرة للجدران القديمة والأبراج الأساسية للبوابات قائمة إلى اليوم .

الأنقاض وهضاب الركام، وتمتد في الجنوب الشرقي حدائق غنّاء تلامس السدّ، ويقع الجزء الأساسي على الضفة اليسرى لنهر دجلة، هنا مقر الحكومة وهنا تتمركز جميع النشاطات التجارية. أما الجزء الغربي من المدينة(١) الذي يقع وراء نهر دجلة فلا يكاد يبلغ ثلث حجم ما سبق ذكره، ويضم هذا الجزء حيّاً ذا أهمية معتبرة لا يكاد يقيم فيه غير قوم عقيل(٢) إضافة إلى بعض أصحاب القوافل الآخرين .

ويربط بين جزأي المدينة جسر متحرك ينبغي رفعه عندما يرتفع مستوى المياه، ولقد سبق أن ذكرنا جسراً مشابهاً يوجد بين ضاحيتي المعظم وكاظمين، ويوجد أيضاً جسر ثالث على النهر عند أسفل المدينة قرب قرية جرارة.



مخطط لمدينة بغداد عن دجونز


جسر بغداد المتحرك

(١) يطلق سكان الجزء الشرقي من المدينة على الجزء الغربي منها عامة تسمية "هذاك الجانب" .
(٢) شكّل قوم عقيل في نهاية القرن الماضي جالية في بغداد عندما أسند إليهم سليمان باشا حق احتكار مهنة مرافقة القوافل على طريق بغداد – حلب، وبغداد– دمشق (قارن ريتر في المرجع المذكور الجزء الحادي عشر، ص ٨٣٩ نقلا عن فرايزر)، أما في داخل البلاد العربية فإن أهل هذه القبيلة يشكلون حالياً السكان المستقرين لعدة واحات تقع في منطقة قاسم .

الجسور، إحصاءات السكان

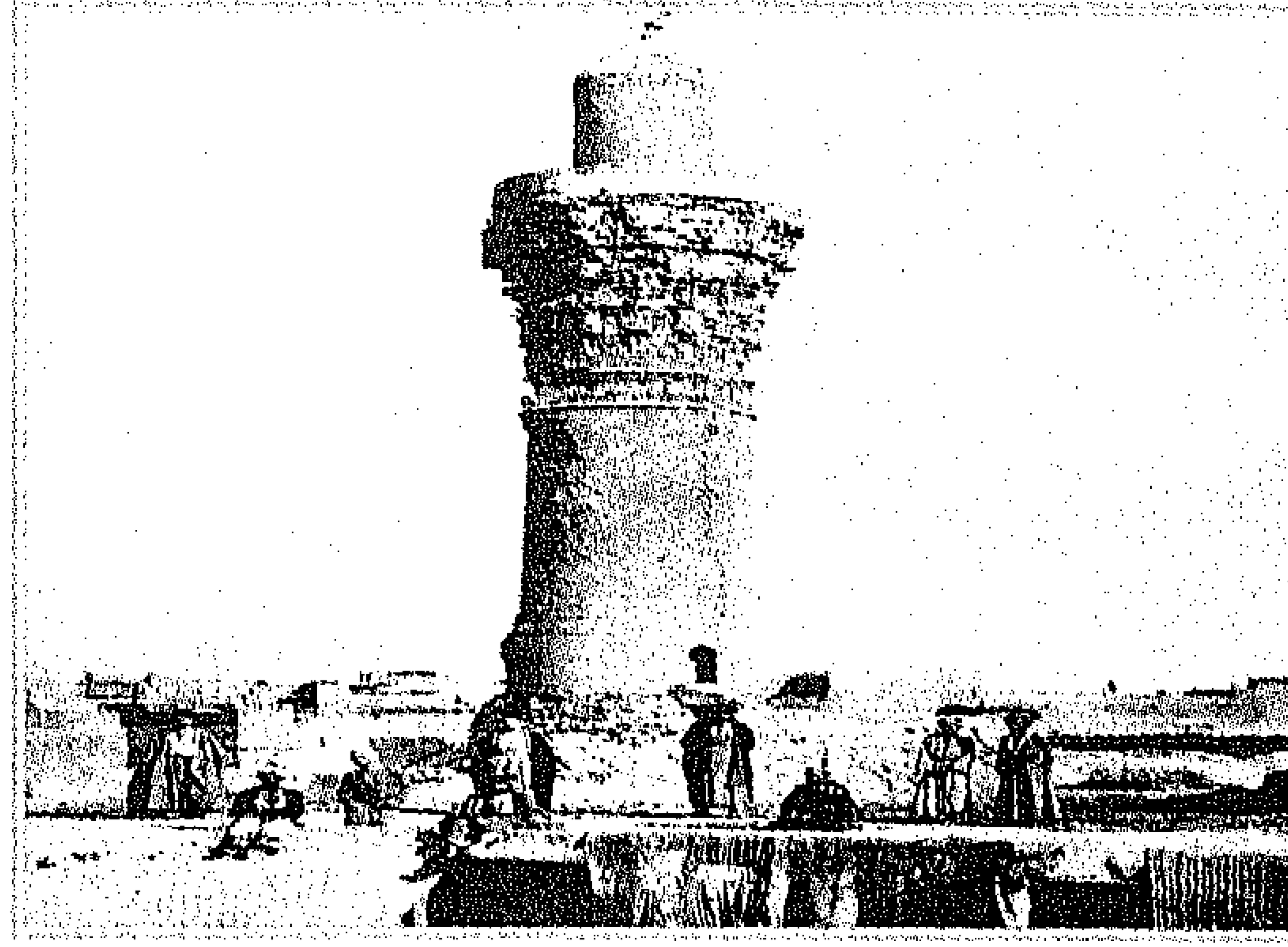
تم في سنة ١٨٩٨م فتح جسر حديدي لحركة المرور العمومي فوق قناة الحر على بعد قرابة ساعة ونصف جنوب بغداد على الضفة اليمنى لنهر دجلة، وعلى مسافة بضع دقائق من النهر، وقد تم تخصيص هذا الجسر لتنقل القوافل بين بغداد وكربلاء، وأشرف على بنائه المهندس الفرنسي جاكيري بتكليف من الحكومة التركية، وترتبط ضاحية كاظمين بغرب المدينة عن طريق قطار تجره الخيول، وقد شيد مدحت باشا هذا الخط الحديدي ، غير أنه لم تجرِ أيّ تحسينات منذ ذلك العهد لا على السكك الحديدية ولا على العربات، ويمكن قطع هذه المسافة في مدة تقارب ثلاثة أرباع الساعة، وتقوم المحطة في بغداد في ميدان رحْب بجانب مقهى يؤمّه كثير من الزبائن.

يصعب تحديد عدد السكان بسبب عدم وجود أي إحصائيات رسمية، إلا أنني أعتقد أنه لا مبالغة في القول: إن بغداد وضواحيها كافة تعد في مجموعها قرابة مائتي ألف نسمة، منها نهاز مائة وخمسين ألف مسلم، يزيد عدد الشيعة منهم على عدد السُنّة(١)، غير أن العائلات الكبيرة العريقة تنتمي غالبا إلى المذهب السني، ويفوق عدد اليهود عدد المسيحيين، وهي ظاهرة لا تتكرر في أي مدينة كبرى من مدن تركيا الآسيوية، وقد ارتفع عدد المسيحيين الذي كان يقدّر إلى عهد قريب بما لا يزيد على ستة آلاف في السنوات الأخيرة إلى ما بين ثمانية وعشرة آلاف(٢) شخص بسبب هجرة الكلدانيين الكثيفة من المناطق المجاورة لمدينة الموصل، وينقسم المسيحيون إلى أرمن يتّبعون المذهب الكاثوليكي، وأرمن يتّبعون المذهب الغريغوري، ومن بينهم أيضا عدد قليل من المسيحيين اللاتينيين الذين يحملون الجنسية السورية، واليعقوبيين، والكلدانيين المرتبطين بروما، أما اليهود الذين يبلغ عددهم قرابة أربعين ألفاً فإنهم يعيشون حياة تطغى عليها الفاقة والقذارة، وقد اشتهر من بينهم رجل المال الإنجليزي السير ديفيد ساسون، ويقع الحي اليهودي في الشرق والشمال الشرقي، وأما المسيحيون فيعيشون في مركز المدينة، والمسلمون يقيمون في النصف الشمالي والجزء الجنوبي منها، وقد ظهرت جالية كردية كبيرة من العمال في الجنوب الشرقي للمدينة.

---

(١) يتكون السكان الشيعة في مدينة بغداد من الرعايا الفرس الذين يبلغ عددهم ما لا يقل عن عشرة آلاف بمن فيهم سكان كاظمين، كما يوجد من بينهم عرب وبعض الجنسيات الأخرى الذين هم رعايا أتراك على غرار السكان التابعين للمذهب السني، ويمكن تقدير العدد الإجمالي للشيعة في بغداد بتسعين ألفاً، وقد تزايد عدد الشيعة في الفترة الأخيرة تزايداً ملحوظاً خاصة في المناطق الريفية، قارن ما سبق في الفصل الحادي عشر، ص ٧٤.

(٢) كان السبب الأساسي في بداية الهجرة الكبيرة هو انتشار المجاعة بسبب ظهور نوع من الجراد، ولقد تم توطين سكان مختلف القرى الإسلامية الذين كانوا يرغبون في مغادرة أوطانهم في الأراضي التابعة لممتلكات السلطان عند نهر دجلة.


مئذنة مسجد سوق الغزل

معالم أثرية من العهد البابلي و من عهد الخلفاء

لا تزال بغداد تحتوي على بعض المعالم الأثرية القليلة من العصر البابلي، فهناك مثلا رصيف يسمى خضر إلياس[1] يعود إلى عهد نبوخذ نصر، وبقايا بناء آخر يشبه مبنى الرصيف[2] في منطقة تقع جنوب المدينة بالقرب من قناة الحر.

وبقايا آثار عهد الخلفاء قليلة هي الأخرى، ويعود السبب في ذلك إلى النوعية السيئة من المواد المستعملة في إنشاء مباني المدينة قديماً وحديثاً إضافة إلى النكبات الثقيلة التي تعرضت لها بغداد على مدى تاريخها، ولا توجد مواقع لكسر الأحجار في المناطق القريبة، ولذلك يكاد الآجر[3] يكون المادة الوحيدة المستعملة قديماً وحديثاً حتى في إنشاء المباني الحكومية والقصور، أما أحجار البلاط المستعملة في إنشاء الأفنية والشرفات والأعمدة وغيرها من أجزاء البناء في البيوت الضخمة في بغداد، فإنها تجلب من مصانع الرخام في منطقة الموصل، وأهم أثر لا يزال في حالة جيدة من عهد الخلفاء هو المبنى الذي كان سابقاً مدرسة المستنصرية، وتحول اليوم إلى مقر الجمارك، والبوابة الكبيرة التي تسمى باب النصر، ومن المؤسف أن هذه البوابة قد اختفت

(١) الخَضِر و إلياس يعتبران شخصين مقدسين في سوريا، وبلاد ما بين النهرين، وفي الشرق بصفة عامة سواء لدى المسيحيين أو لدى المسلمين، وهما يوحّدان في بغداد في شخص واحد يحمل اسم خضر إلياس ويوصف بالشباب الدائم، وقد جرت العادة في بغداد أن تأخذ الأم فانوساً أو عدة فوانيس منيرة عندما يبدأ الطفل في تعلم السباحة، وتضعها على قطعة من الخشب يحملها الطفل، ويسبح في النهر، لكي لا يأخذ خضر إلياس روح الطفل، وتقول المعتقدات الشعبية: إن خضر إلياس نفسه يقيم في النهر ولا يستبعد أن يكون هذا عائداً إلى إله للماء من العصر البابلي، وقد رأيت في زمن الكوليرا مرات عديدة فوانيس تسبح في النهر.

(٢) بالقرب من المدينة في الشمال الغربي يقوم برج عقر قوف الذي يعود أيضاً إلى العصر البابلي، ويمكن مشاهدته من مسافة بعيدة داخل أراضي بلاد ما بين النهرين.

(٣) في العادة يستعمل الآجر المشوي بالنار في إنشاء المنازل، والحطب المستعمل بكثرة هو النبات الصحراوي الذي يسمى عقول، أما في إنشاء جدران الحدائق وما شابه ذلك فيستعمل الآجر المجفف تحت أشعة الشمس، ثم إن الجدران القوية تشيد من صفين من الآجر، ويملأ الفضاء الذي بينهما.

تماماً، بحيث أصبح من الصعب جداً الاطلاع عليها، إلا أن ضخامة المبنى والكتابات العربية الفنية الجميلة لا تزال رغم ذلك مثار إعجاب، وعلى الجانب الملتفت إلى النهر من مقر الجمارك كتابة عربية عريضة تنص على أن الذي شيد المدرسة هو الخليفة المستنصر، ويعود عهدها إلى سنة ٦٣٠هـ (١٢٣٢م)، وقد سبق ذكرها عند نيبور[١]، وهناك أثر آخر من العهد نفسه، يتمثل في مئذنة سوق الغزل التي تقوم في الجنوب الشرقي من المدينة، وما تزال تمثل أعلى مبنى فيها، هذه المئذنة أيضاً شيدها الخليفة المستنصر، وكان ذلك بعد ثلاث سنوات من الانتهاء من بناء المدرسة، أما المسجد التابع لها فقد اختفى اليوم تماماً، ثم إن المئذنة نفسها التي تتركب من سلّمين حلزونيين منفصلين عن بعضهما يلتفان حول بعضهما بعضاً، فهي على وشك التداعي. ولا شك أن الخان الذي يدعى خان الأرطمان، ويقع بالقرب من باب النصر في حي الأسواق هو الآخر قد شيد في عهد الخلفاء، وعلى الضفة الغربية خارج أحياء المدينة المسكونة حاليا آثار تنسب إلى قصر من قصور الخلفاء، وهي عبارة عن مركّب عظيم من الجدران غاص في النهر، وأصبح اليوم يدعى السّنّ.

أضرحة أبي حنيفة وأحمد بن حنبل

وتذكر بعهد الخلفاء عدة أضرحة يقع اثنان منها خارج المدينة الحقيقية، وفي المعظّم ضريح الإمام أبي حنيفة الذي توفي سنة ٧٦٧م ويلقب بالمعظّم أو الأعظم، وهو مؤسس المذهب الحنفي الذي هو أكبر المذاهب الإسلامية الأربعة[٢]، وحيث إن العالم التركي بكامله يتبع هذا المذهب فإن ضريح أبي حنيفة يعتبر نوعاً من المقدسات القومية للأتراك، وقد شن السلطان التركي مراد - ١٦٣٨ م - حملة شهيرة على بغداد كانت تهدف بالدرجة الأولى إلى تحرير الضريح المقدس وانتزاعه من أيدي الفرس الكافرين.

ويتميز مسجد أبي حنيفة بالخزف الجيد الذي يرجع إلى عهد حديث بلا ريب، وهو لا يشمل غير مئذنة واحدة رشيقة مزخرفة بالخزف تتميز بقدر كبير من الجمال، وتقوم فوق القبر قبة مزينة بالفسيفساء الملونة بالأزرق والأخضر والأبيض، ويحيط ممر واسع فسيح بالقبر من الجانبين الشمالي والشرقي، ولهذا الممر أعمدة ذات أقواس مرصّعة بالحديد، أما الجزء الأسفل من جدران الممر فتغطيه قطع من الخزف الأخضر والأبيض صنعت في بغداد نفسها.

---

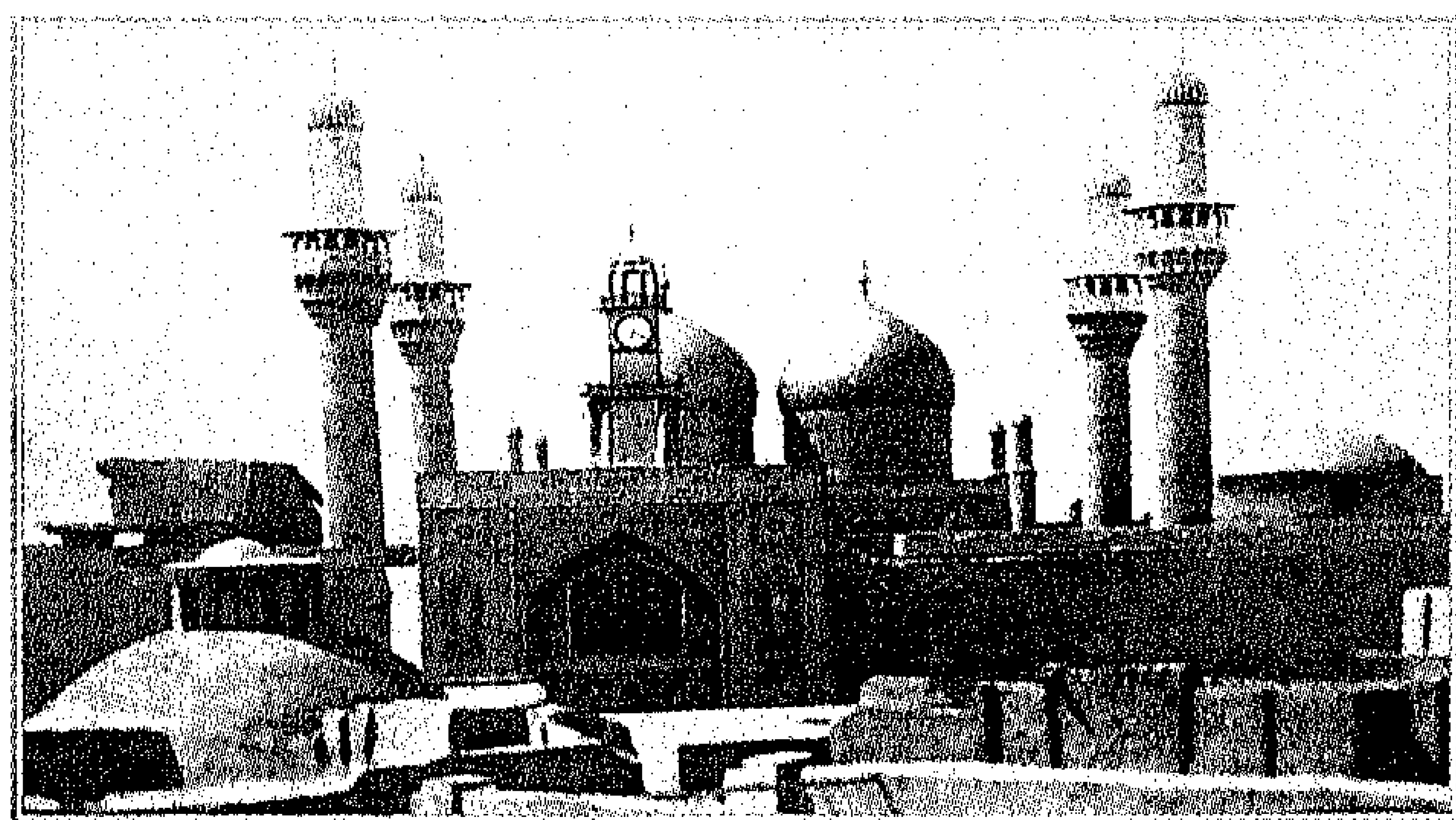
(١) رحلة في البلاد العربية، نيبور، ص ٢٤١.

(٢) لا تتطابق الكلمة الألمانية التي تعني "معتقداً دينياً" مع معنى "مذهب" تماماً، ولا تزيد عليها في الدقة عبارة "مدرسة تشريعية" التي تستعمل بكثرة في هذا السياق.

ولا بد أن يكون قبر أحمد بن حنبل، الذي توفي سنة ٢٤١هـ - ٨٥٥ م - على مقربة من هذا المكان ولكن على الجانب الغربي لدجلة، وقد كان أحمد بن حنبل رجلاً يتمتع بسمعة عظيمة حتى إنه يقال: إن ثمانمائة ألف شخص شيعوا جنازته، غير أنه لم يبق اليوم من قبره أي أثر، ثم إن المذهب الحنبلي الذي أسسه هذا الرجل يحظى بعدد أقل من التابعين مقارنة بالمذاهب الأخرى .

أضرحة الإمام موسى الكاظم، ومحمد الجواد، والشيخ عبد القادر

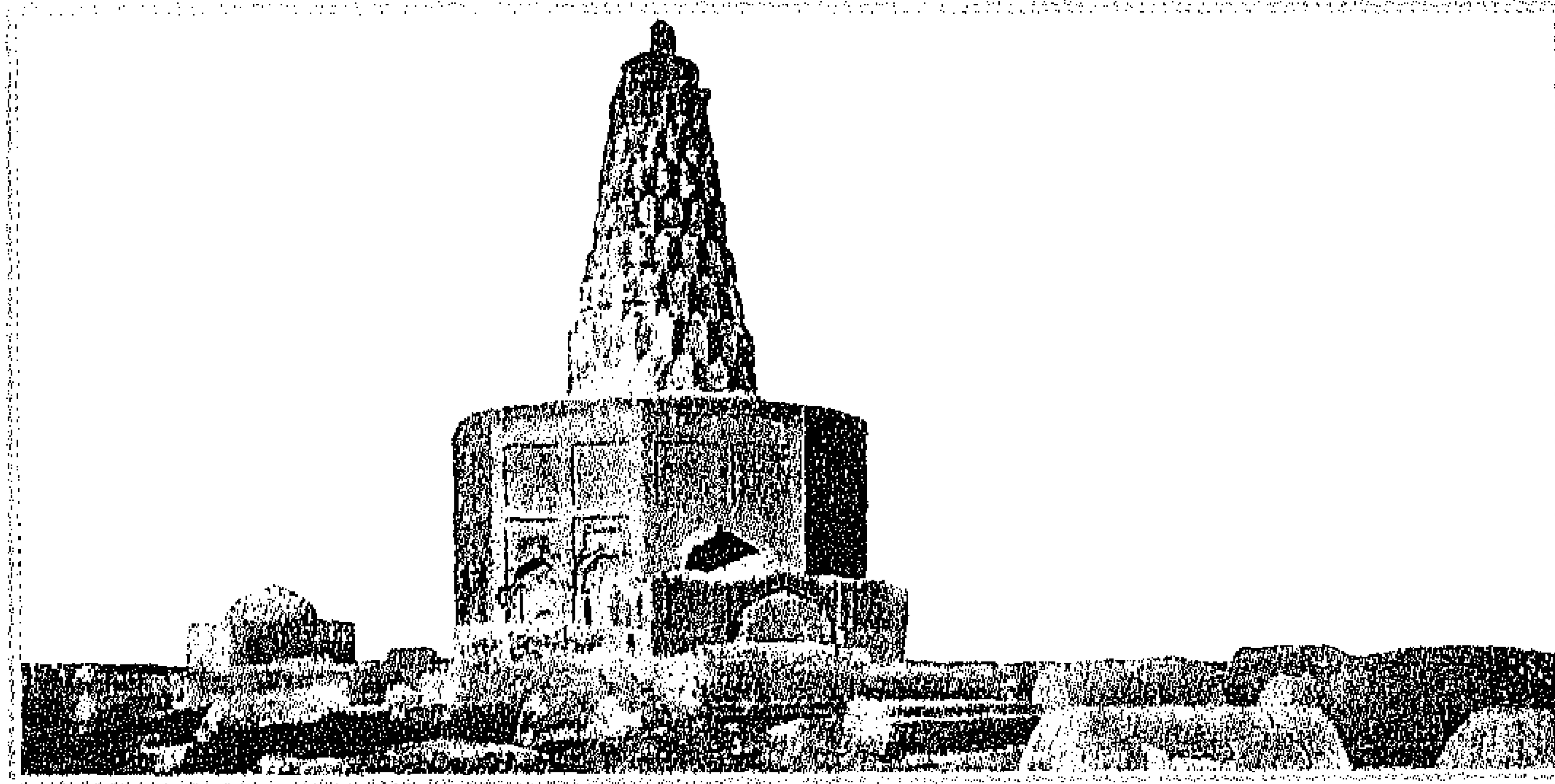
قبالة قبر أبي حنيفة على الضفة الغربية لنهر دجلة أيضاً يقع المكان الذي يحظى بتقديس كبير من طرف الشيعة، وهو المسجد المشيد على ضريحي الإمام موسى الكاظم(١) - الذي نفّذ فيه الإعدام سنة ١٨٥هـ الموافق لسنة ٨٠١ م - وحفيده محمد الجواد، وقد اكتسب الموضع اسمه بسبب وجود هذين الضريحين فيه - ضريحي الكاظمين - والمسجد الذي يرجع عهده في شكله الحالي إلى النصف الأول من هذا القرن مشيد بطريقة غاية في الإبداع، فالقبة والأقسام العليا من المآذن الأربع مغلفة بصفائح من الذهب بحيث يستطيع الغريب القادم من الصحراء رؤيتها من بُعْدِ أميال عديدة، والبوابة العالية مزخرفة بأجمل قطع الخزف، إلا أن ساعة حديثة تفسد للأسف هذا المنظر الرائع للمبنى، ولم يسمح التطرف الشيعي إلى اليوم لأي أوروبي بالدخول إلى هذا المسجد، ويوجد ضريح ثالث في موضع قريب من البوابة الجنوبية لمدينة بغداد لا تقل أهميته عن الضريحين السابقين، وهو ضريح الشيخ عبد القادر الجيلاني مؤسس الطريقة القادرية التي يوجد أتباعها حالياً بمئات الآلاف في الهند، وسوريا، وفي كامل الساحل الشمالي للقارة الإفريقية و في بعض أجزاء إفريقية الوسطى.



كاظمين بالقرب من بغداد، مسجد الإمام موسى الكاظم

(١) قارن الجزء الأول من هذا الكتاب، ص ١٢٢.

ويرى جميع أتباع هذه الطريقة أن الشخص المسؤول عن هذا المكان المقدس، والذي يجب أن يكون من سلالة الشيخ عبد القادر الجيلاني هو كالقائد الروحي لهم في الحياة الدنيا، ويحج كثير من أتباع هذه الطريقة - خاصة من الهند- بغداد لأداء الصلاة عند ضريح الولي الصالح، وللتبرك بحامي هذا المكان المقدس، ويبدو أن دَخْل المُوكّل بهذه الطريقة مرتفع جداً سواء من هذا المصدر مباشرة، أو من الوَقْف الذي خصصه السلطان سليمان في القرن السادس عشر لمسجد الشيخ الجيلاني، هذا الموكل على الضريح هو في الوقت نفسه نقيب بغداد، وبذلك فهو المسؤول عن جميع التبرعات التي تقدم إلى فقراء المدينة. وقد كان "سيد سليمان أفندي" يتولى هذا المنصب أثناء زيارتي لبغداد، ولقد وجدت فيه رجلاً عربياً طيباً ومحترماً من أولئك الذين ينتمون إلى الصنف القديم، وقد توفي السيد سليمان في هذه الأثناء، وتولى أخوه السيد عبدالرحمن خلافته في المنصب بتزكية من السلطان.

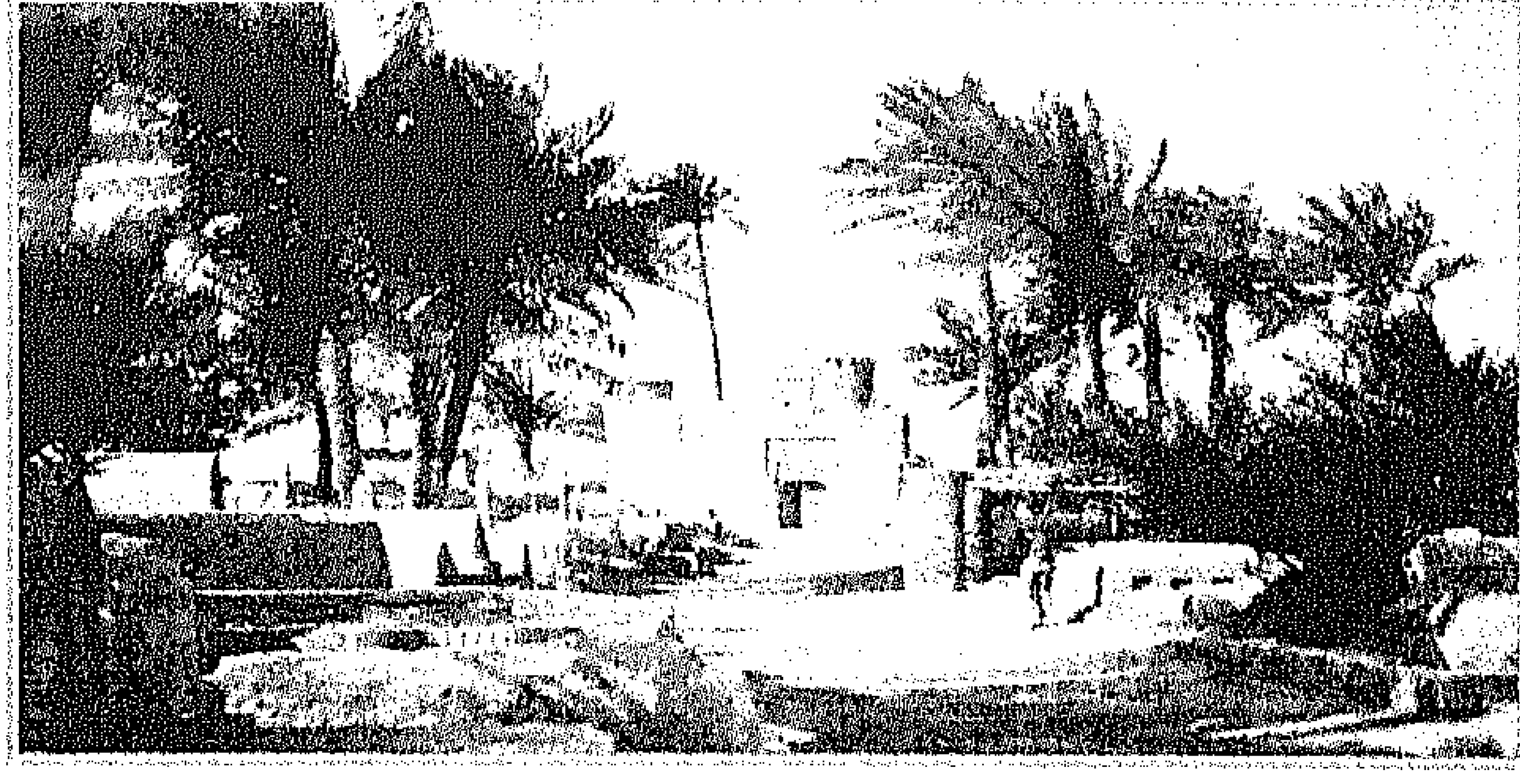


الضريح المزعوم للسيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد

ضريح الست زبيدة

والأثر الآخر الذي ينسب إلى عهد الخلافة أيضاً هو الأثر الذي يتميز بشهرة كبيرة في أوروبا وتُروَّج صوره فيها، وهو الضريح المزعوم للست زبيدة الزوجة المفضلة للخليفة هارون الرشيد، إلا أن هذا الاعتقاد غير صحيح؛ لأن المبنى يرجع في شكله الحالي إلى القرن الماضي، أما الضريح الحقيقي فقد اندثر أثناء أحد النزاعات الدامية بين السّنّة والشيعة سنة ٤٤٣ هجرية - ١٠٥١ م -[١]، ويقع الضريح خارج إحدى الضواحي الغربية بالقرب من قناة صقلوية، ويقوم بينه وبين بوابة المدينة المسجد الجميل القائم على ضريح الشيخ معروف الكرخي، وتحيط به غابة صغيرة من شجر النخيل، وتشير الكتابة الموجودة على الباب إلى أن المسجد يعود إلى سنة ٦١٢ هجرية - ١٢١٥م -.

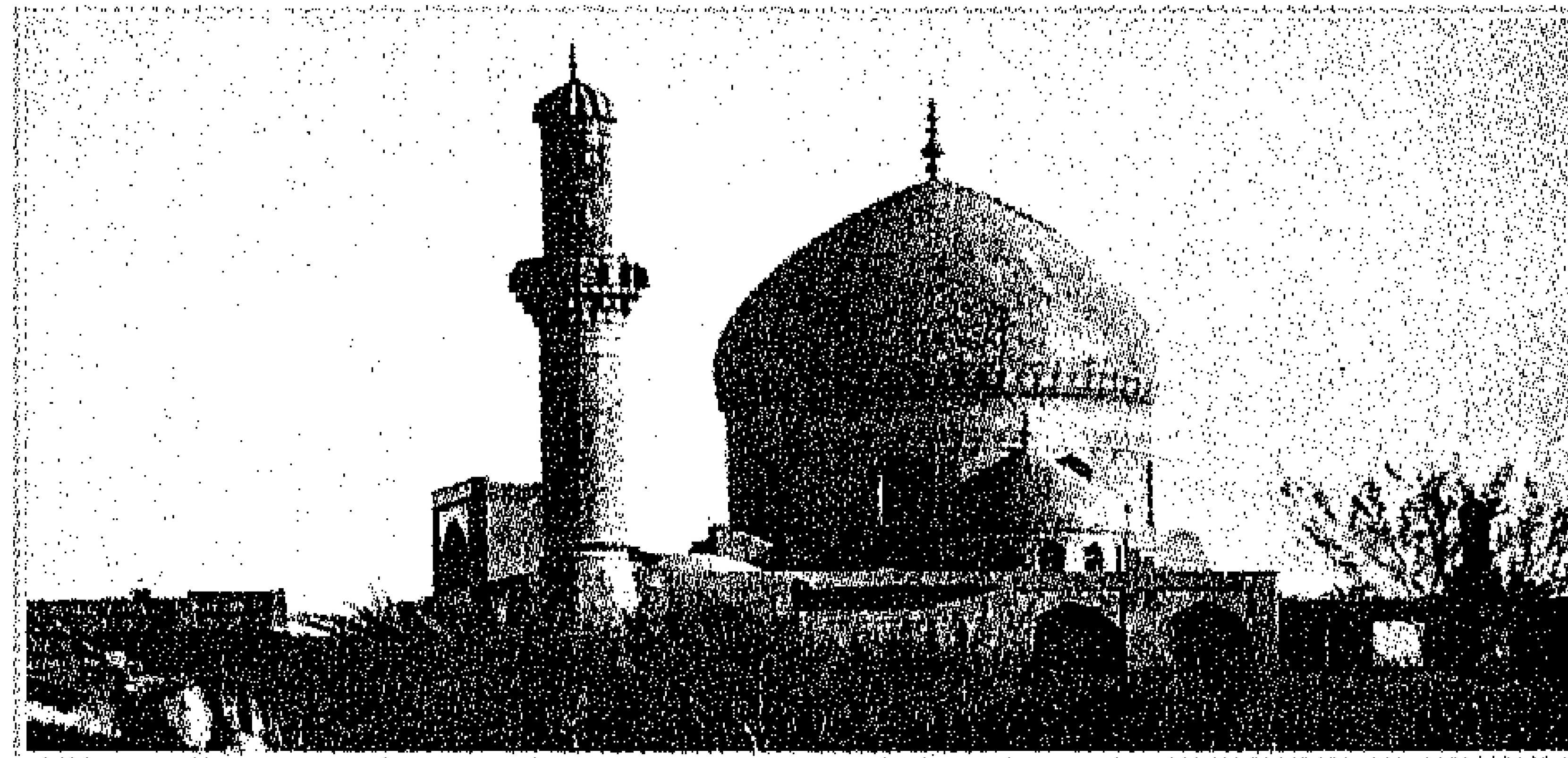
(١) قارن ابن الأثير وأبي الفداء في سردهم لوقائع هذه السنة، وقد هدم ضريح الخليفة المأمون بن هارون الرشيد بهذه المناسبة أيضاً.



ضريح الشيخ معروف الكرخي

مساجد من العهد الحديث

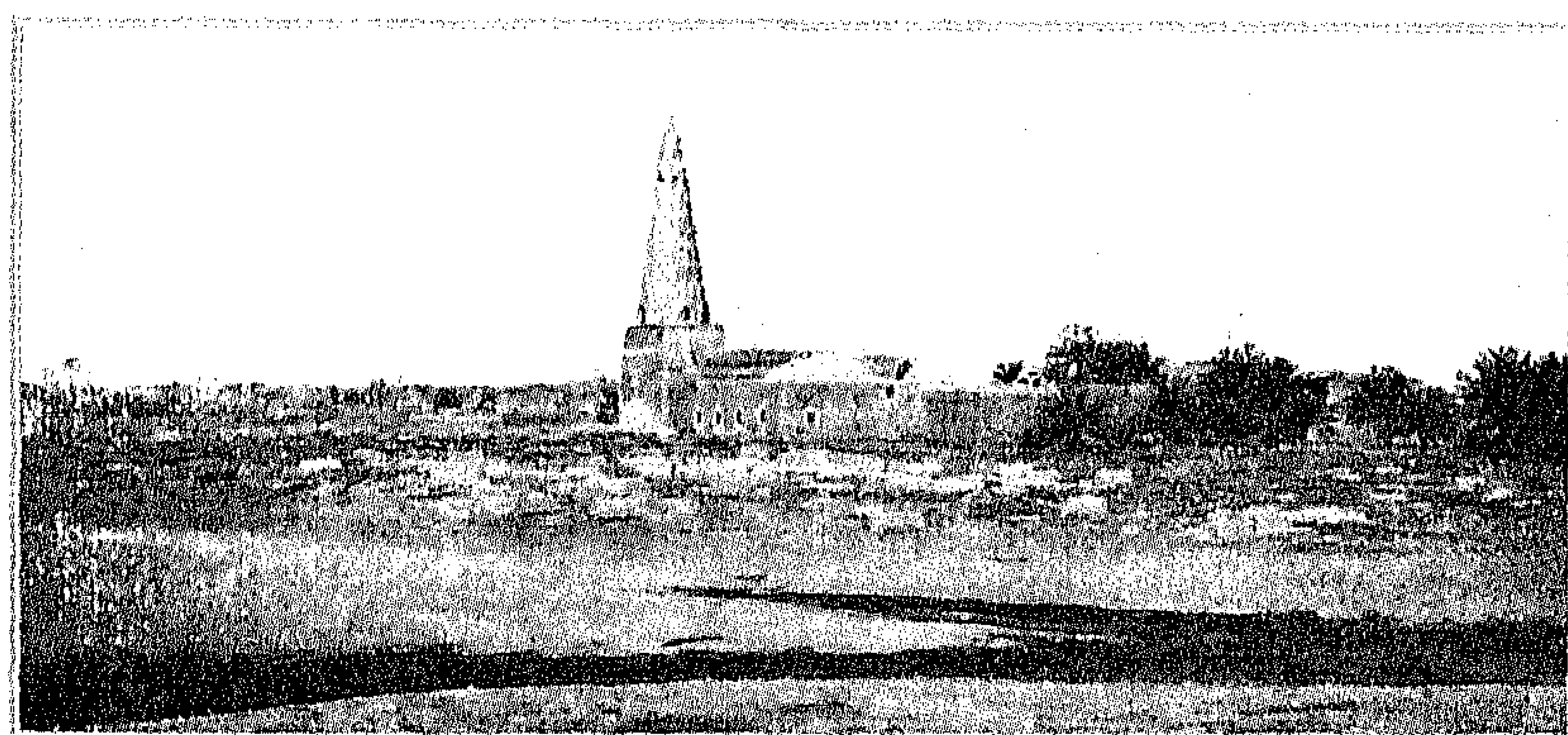
تعج بغداد بالمساجد الحديثة العهد، لأن الولاة الأتراك خاصة قد عملوا على ترميم المساجد القديمة وتشييد أخرى حديثة، و نذكر من هذه الأخيرة أهمها حسب التسلسل من شمال المدينة إلى جنوبها: في الشمال قريباً من القلعة يقوم المسجد الجميل الذي يسمى جامع الميدان في مكان فسيح - ميدان - سمي المسجد نسبة إليه، وفي الطرف الجنوبي للميدان يقع المسجد الذي شيده أحمد كحيا الشهير والذي يسمى جامع أحمد كحيا، و في اتجاه مركز المدينة يقع جامع حسن باشا، ويقع شرق ذلك جامع الفضل، وبالقرب من الجسر المتحرك يقع مسجد كبير يدعى جامع الوزير، ويقوم شرق ذلك جامع داوود باشا، و في الجانب الشرقي منه و في مركز المدينة تقريباً جامع الأكلية، وبين هذا الأخير وبين الفضل جامع خضر بيك. ولا يوجد إلا مسجدان اثنان في مركز المدينة وفي الجزء الجنوبي منها وهما جامع خاصكي، وجامع السلطان علي الذي يقوم جنوب مقر الإقامة الإنجليزية عند النهر مباشرة، وفي الركن الشرقي لجدار المدينة بالقرب من الباب الوسطاني يقوم مسجد جميل على ضريح يدعى جامع الشيخ عمر، الذي يشبه في مظهره إلى حد كبير ضريح الست زبيدة. وفي الجزء الغربي من المدينة أيضاً عدد أقل من المساجد يتوسطها جامع الشيخ صندل، وعند النهر قبالة القلعة، جامع خضر إلياس، وعند أطراف البراري جامع الشيخ موسى .



مسجد أحمد كحيا

تحتوي معظم هذه المساجد على قباب مزخرفة بقطع من الخزف الملون، وكذلك شأن المآذن، أما داخل المبنى فهو على عكس ذلك، حيث إنه يكون غالبا في منتهى البساطة، إلا أن زخرف الخزف لا يخلو منه إلا قليل من المساجد، ويحمل جزء من صفائح الخزف رسوماً للزهور في حين أن الجزء الآخر يشكل عند ضمّ بعضه إلى بعض نصوصاً من الكتابة، وتغطّى الجدران بالمرمر الموصلي أحياناً، أما ضريح الشيخ عمر وضريح الست زبيدة فيحتويان عوضاً عن القبة على بناء مستدير على هيئة السلم يتضاءل كلما ارتفع ويشبه في شكله البرج، ويذكّر - بطريقة عفوية - بشكل بناء الأبراج عند الآشوريين القدامى .

وفي جامع المرجاني غير بعيد عن سوق العطارين مكتبة مهمّة، يشرف عليها وعلى المدرسة واحد من أكبر علماء بغداد هو الشيخ سيد نعمان أفندي العلوسي، الذي قادني بكثير من اللطف والأدب عبر مختلف الغرف، ويرجع بناء المسجد إلى سنة ٧٥٨ هجرية - ١٣٥٦م - وقد شيده أحد ولاة بغداد وسمّاه باسمه، ثم جاء سليمان باشا فقام بترميمه سنة ١٢٠٠هـ - ١٧٨٥م - وجدّد زخرف بعض أجزائه بالفسيفساء.



ضريح الشيخ عمر عند باب الوسطاني

كنائس مسيحية، مبان مدنية، السرايا

ومن الأماكن المقدّسة التي تستحق الذكر ضريح نواب عوده إقبال الدولة، وهو أمير شيعي غادر عاصمته لوكنوف بأمر من الحكومة الإنجليزية ليعيش في بغداد متمتعاً بمعاش تقاعد مرتفع إلى أن توفي سنة ١٨٩١م، وضريحه في مكان شبيه بالكهف، ويتميز ببساطة شديدة، ويقوم عدد من الشيوخ بحراسة الضريح في ضوء المصابيح، ويتلون عليه القرآن تلاوة متواصلة.

وفي بغداد ست كنائس مسيحية هي: كنيسة لاتينية للرهبان الكرميليتيين، وكنيسة كلدانية، وكنيسة يعقوبية، وكنيسة كاثوليكية أرمنية، وكنيستان غريغوريتان، أما القُدّاس البروتستنتي فينعقد في قاعات البعثة التبشيرية الإنجليزية(١).

القلعة

ونذكر من المباني المدنية حديثة العهد القلعة التي تقوم في الركن الشمالي للقسم الشرقي من المدينة الذي يمتد أحد جوانبه على النهر، وهي خليط من المباني المختلفة، يحيط بها جدار شاهق، وتضم برج ساعة منفرداً يستطيع المرء منه أن يتمتع بمنظر خلاب للمدينة مترامية الأطراف، بقبابها ومآذنها الخزفية ذات الألوان الزاهية الوهّاجة تحت أشعة الشمس، وفي إطار هذه اللوحة الرائعة يبدو نهر دجلة الواسع مهيباً وهو يخترق أرجاء المدينة، وعلى مسافات بعيدة تحف به أشجار النخيل التي وترسم مجراه بكل وضوح للناظر إليه، وتظهر حدود المدينة والغابات جليّة متميزة عن اللون الأصفر للبراري في فصل الصيف، وتنتهي القلعة في الجنوب بالسراية الواسعة التي تقع عند النهر هي الأخرى، وتأتي بعد ذلك ثكنة فسيحة مخصصة للجزء من الحامية التي لا تقيم داخل القلعة.

البازار

وتستطيع أسواق بغداد أن تنافس أسواق القسطنطينية، وسميرنة، ودمشق، من حيث جمال وإبداع المبنى خاصة، ويتميز قسم كبير منها باتساعه الكبير، وهو مشيد من الآجر ومقبب بحيث يشكل ملجأً يتقي المرء فيه شدة الحر في الصيف، والمطر والبرد القارس في الشتاء. وتوجد جميع جنسيات آسيا الغربية - خاصة الفرس - ضمن التجار الذين يمارسون نشاطاتهم في أسواق بغداد.

....

(١) أكبر طائفة تعتنق المسيحية حالياً في بغداد هي الاتحاد الكلداني، ويأتي بعدهم الانفصاليون الأرمن، ثم السوريون، ثم الكاثوليك الأرمن واللاتينيون إلى غير ذلك، قارن جدول كويناي الذي يعطي أرقاما تختلف أحياناً عما هو مسجل هنا، المرجع المذكور الجزء الثالث، ص ٩٠ و ١٠٠ وما يليها، أما هيئة الكارميليتيين في بغداد فقد تأسست سنة ١٧٢٠ م، وقد عين لويس الخامس عشر في بداية الأربعينيات من القرن الماضي رئيس الكارمليتيين قنصلاً لفرنسا، وكان في الوقت نفسه أسقف بابل، وقد حصل عدد من الذين خلفوه على لقب قنصل فرنسا، وتشمل البعثة التبشيرية للكارمليتيين اليوم خمسة رهبان، كما نجد ضعف هذا العدد من الراهبات العاملات في بغداد، وتملك كل من هاتين المؤسستين مدرسة، أما البعثة الإنجليزية البروتستنتية في بغداد فقد أنشأت هي الأخرى مدرسة منذ عهد قريب.

الخانات، طريقة بناء المنازل

أما الخانات المخصصة للتجارة بالجملة والتي هي عبارة عن مبانٍ فسيحة تحتوي على فِناء عليه سقف مُقبّب، فهي تقع غالبا في الجزء الشرقي من المدينة حيث توجد الأربعة الكبار منها وهي: خان أرطمان، وخان التمر، وخان الدفتردار، وخان المصبغة، وذلك على الضفة اليسرى لنهر دجلة.

كانت بيوت بغداد إلى ما قبل ثلاثين سنة تشيد على النمط القديم، وهذا يعني أنها كانت ذات نوافذ صغيرة أو دون نوافذ على الجدران الخارجية، وكانت الأبواب صغيرة والغرف منخفضة، لكنها في كثير من الأحيان فسيحة، أما منذ فتح خط النقل البحري المنتظم في الخليج الفارسي، والاتصال الذي نتج عنه مع الهند البريطانية فإن طريقة بناء المنازل الجديدة تأثرت كثيراً بالطابع الأوروبي، حيث اتسعت النوافذ، وكثر عددها، وزاد ارتفاع الأبواب والغرف، ويتمثل التصميم المفضل للبيوت في بغداد وفي البصرة أيضا في فناء معبد يحتوي أحياناً على حديقة صغيرة، وتحيط الغرف بهذا الفناء من الجوانب الأربعة، وفي الطابق الأول شرفات " طارمة " مواجهة للفناء تحملها أعمدة تصبغ بألوان مختلفة، وتزخرف برؤوس تعالج بطريقة فنية متميزة، وقد احتفظ البيت الحديث في بغداد من البيت القديم خاصة بما يسمى " سرداب"، وهي كلمة فارسية تعني " الماء البارد"[1]، وفي جدران الطابق تحت الأرضي منافذ للهواء على هيئة فتحات المداخن، تطلق عليها هي الأخرى كلمة فارسية هي " بادجير" وتعني": المكان الذي يجلب الريح "، لأنها تجلب الهواء النقي من شرفة المنزل إلى السرداب، ويقضي السكان ساعات الظهيرة عندما يشتد الحر في هذه السراديب .



منزل في بغداد

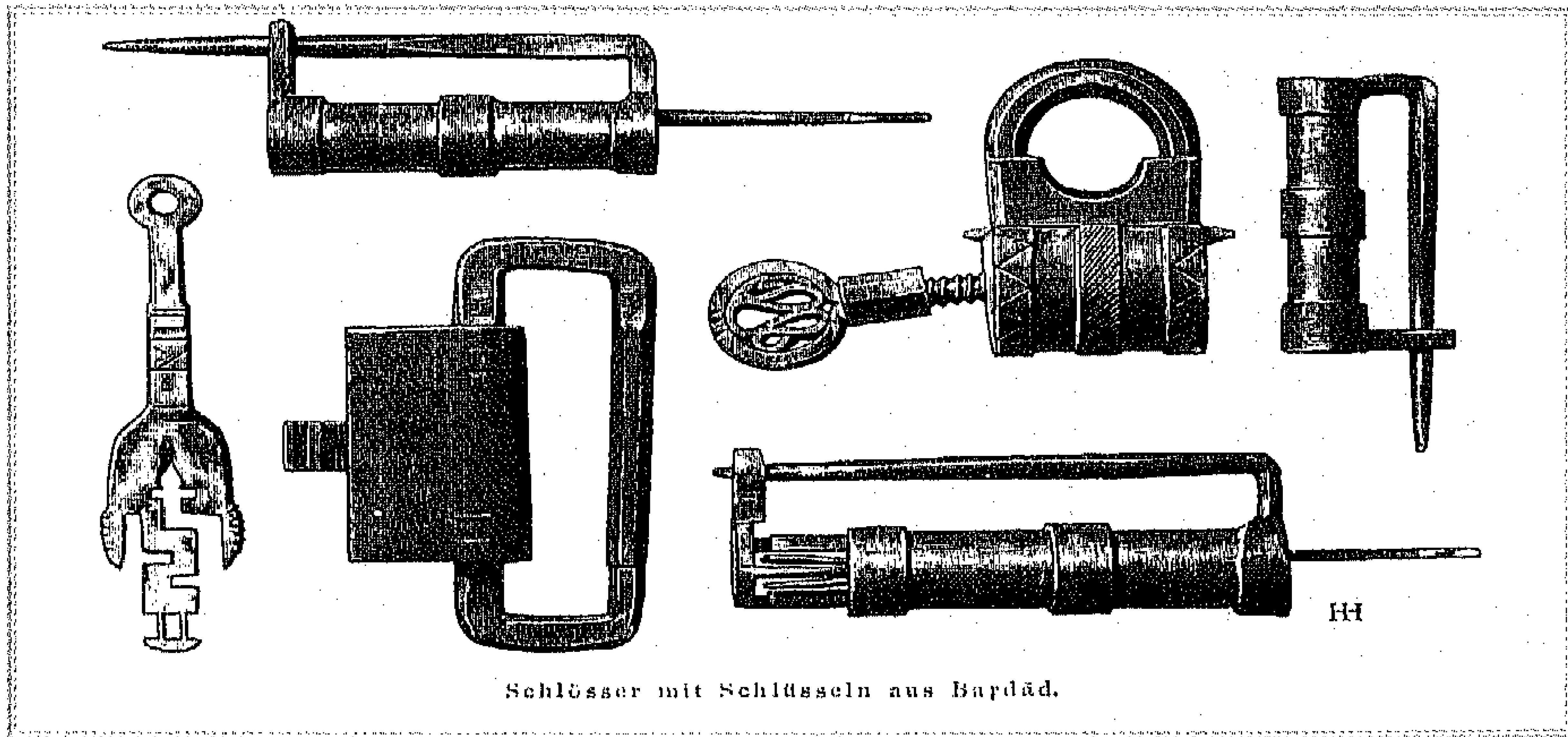
(١) قارن ما سبق في فصل ٥، ص ١٨٠.

داخل المنازل، الأثاث

أما بعد الغروب فيلجأ الناس إلى شرفات المنازل حيث يتناولون طعام العشاء، وحيث ينامون، ونجد في بغداد أيضاً بكثرة " البونكا " المنتشرة في الهند وجنوب بلاد فارس، والبونكا هي جهاز على هيئة اللوح الخشبي يعلّق بعدة خيوط في سقف الغرفة ويحركه خادم يبقى خارج المنزل تحريكاً متواصلاً لتلطيف الجو في الداخل، ويستعمل الخادم في ذلك حبلاً يمرّره عبر الجدار.

ويتمثل الزخرف المتميز للمنزل في النتوء الخشبي الخارج من واجهته صوب الشارع، والذي يكون غالباً محفوراً بطريقة فنية جميلة ويسمى " شناشيل "، وهو تحريف للكلمة الفارسية "شاه نيشين" التي تعني - مجلس الملك أو مقر إقامته- إضافة إلى ذلك يتمثل الزخرف في الغرف الصغيرة التي تدعى كاباشكان، وهي كلمة فارسية الأصل أيضاً: كفشكند، وتعني خزانة الملابس.

يتكون الأثاث في بيوت الأغنياء غالباً من قطع أوروبية من ذوق رديء عوّضت شيئاً فشيئاً من الأثاث المحلي الشرقي، وقد أصبح نادراً أن تجد الصناديق الجميلة العتيقة، أو الأثاث الهندي البديع الصنع، أما السجاد فهو عادة من المصنوعات الرائعة التي تنتجها همذان، وكرمان شهر، وسلطان أباد، وشيراز، ولا يعتقد إلا قليل من " المتحضرين " المسيحيين واليهود العاملين في التجارة أنهم يضفون على بيوتهم طابعاً من الفخامة عن طريق فرش الأرض ببساط أوروبي من أردأ وأسوأ الأنواع، يحمل عادة رسوم أزهار من اللون الأحمر القاني أو الأخضر اليانع، أما المصابيح الأوروبية فهي اليوم كثيرة الاستعمال، ويحبها البغداديون حباً كبيراً .



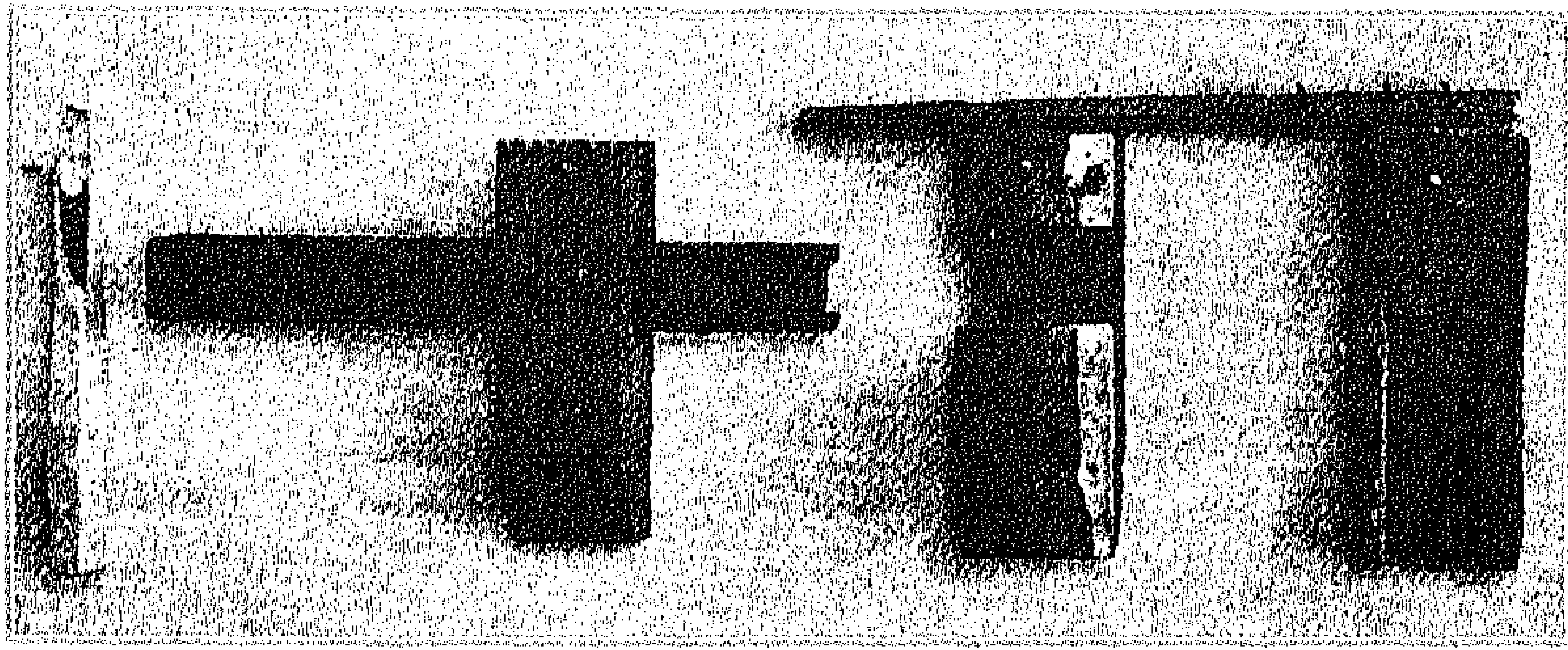
Schlösser mit Schlüsseln aus Baġdād.

أقفال ومفاتيح من بغداد

المنتجات الفنية المحلية، المصانع الآلية

وعلى عكس مدن القسم الغربي من بلاد المشرق التي تكثر فيها المصنوعات الأوروبية فإننا لا نزال نجد في بغداد المنتجات المحلية للصناعات الفنية، التي لا شك أنها ظلت إلى اليوم على ما كانت عليه قبل قرون كثيرة من الزمن، ربما في عهد هارون الرشيد أيضاً، ولا نريد أن نذكر من هذه المنتجات إلا الأقفال الحديدية الثقيلة التي تستعمل لغلق الصناديق وأبواب المتاجر في الأسواق، وهي لا تزال تحتفظ احتفاظاً تاماً بطابعها التقليدي القديم، وإضافة إلى ذلك يجدر بالذكر أن الأقفال القديمة التي تستعمل فيها مفاتيح من الخشب ذات أسنان من الحديد يتم إدخالها في القفل لفتحه، لا تزال هي الأخرى مستعملة إلى اليوم في معظم العالم الإسلامي رغم رواج صناعة الأقفال الأوروبية، أما فيما عدا ذلك فإن الصناعة في بغداد موجّهة على غرار الصناعة في دمشق إلى الاستهلاك المحلي والمدن القريبة المجاورة، و إلى تغطية حاجة البدو خاصة، وهكذا تنتشر المنتجات البغدادية المخصصة للبدو حتى داخل بلاد نجد، وتتمثل البضاعة المحّببة في العباية، والإزار، والكفية المصنوعة من الحرير والصوف البني اللون، وتصدّر هذه البضاعة إلى الغرب أيضاً(١). ولا تخلو بغداد من المؤسسات الصناعية الكبيرة التي يعمل جزء منها لتغطية حاجات جنود الحامية. وهكذا نجد أن المصنع العسكري للنسيج يزود كامل الجيش السادس العثماني، ويزود فرن يعمل بالبخار الجنود بالخبز، ويعمل مصنع للجلود على تغطية حاجاتهم منها، ويكتمل عدد المؤسسات الصناعية الحديثة في بغداد بمصنعين للثلج، أحدهما يتبع بلدية بغداد، والآخر يملكه بعض الخواص، ومصنع للجبس والحديد وبعض الطواحين العاملة بالبخار .

إن ثروة سكان بغداد غير قليلة، إذ يعتبر بعض الشيعة مثلاً من ذوي الثراء الكبير، أما المهارات التجارية فيبدو أن النصارى واليهود لا يتفوّقون فيها على زملائهم المسلمين في مجال التجارة المحلية.



القفل الخشبي العربي مع المفتاح

....

(١) تقدر المستوردات الإنجليزية بمليونين ونصف مليون جنيه تركي سنوياً.



بغداد

بغداد المركز التجاري

وتعتمد أهمية بغداد اليوم في الأساس على موقعها المتميز بالنسبة لخطوط النقل العالمي، ونتيجة لذلك تتمتّع تجارة المدينة برواج واسع النطاق، وتختص إنجلترا ومستعمرتها الكبرى - الهند - بحصة الأسد من البضاعة المستوردة، وبذلك تندرج جميع المنتجات القطنية، والمعادن الخام، وأقمشة الكتان، ومنسوجات الملابس وغيرها ضمن المستوردات الإنجليزية، وتأتي في المرتبة الثانية النمسا والمجر وألمانيا، تليهم في ذلك فرنسا، وتجلب بغداد معظم البضائع الكمالية، والأثاث، والمصابيح، ولوازم الأعمال الحرفية من فيينا، وتوجد اليوم ثلاثة مصانع إنجليزية في بغداد .

ومنذ ١٨٩٤م استقرت في بغداد مؤسسة ألمانية أيضاً هي شركة بيرك وبوتمان وشركاؤهم(١)، ويزداد الاستيراد من المملكة الألمانية(٢) سنة بعد أخرى، كما تتزايد مساهمة التجارة الألمانية تدريجياً في التصدير، إلا أن عدم وجود وسيلة نقل بخارية مباشرة لألمانيا مع الخليج الفارسي والبصرة - ميناء مدينة الخلفاء - يشكل عقبة في طريق انتعاش التجارة الألمانية.

تتمثل أهم صادرات(٣) بغداد في الصوف والقمح والتمر، إضافة إلى صمغ المطاط، والعفص، والجلود، والأمعاء، والسمسم، وبذور الخشخاش، والسوس، وشمع النحل،

(١) التقيت بالسيد بوتمان سنة ١٨٩٣م في دمشق، وكان يعمل موظفاً في مؤسسة لوتيكه، وقد ساهم السيد لوتيكه الذي يملك، أو يشترك في مؤسسات في دمشق، وبيروت، وحلب، ساهم كذلك في تأسيس المنشأة الألمانية الجديدة في بغداد.

(٢) بناء على الأرشيف التجاري الألماني لسنة ١٨٩٦م، الجزء الثاني، ص ٥٥٥ يمكن تقييم الاستيراد من ألمانيا والمناطق المجاورة لها من النمسا إلى بغداد في سنة ١٨٩٥م تقريباً كما يلي:

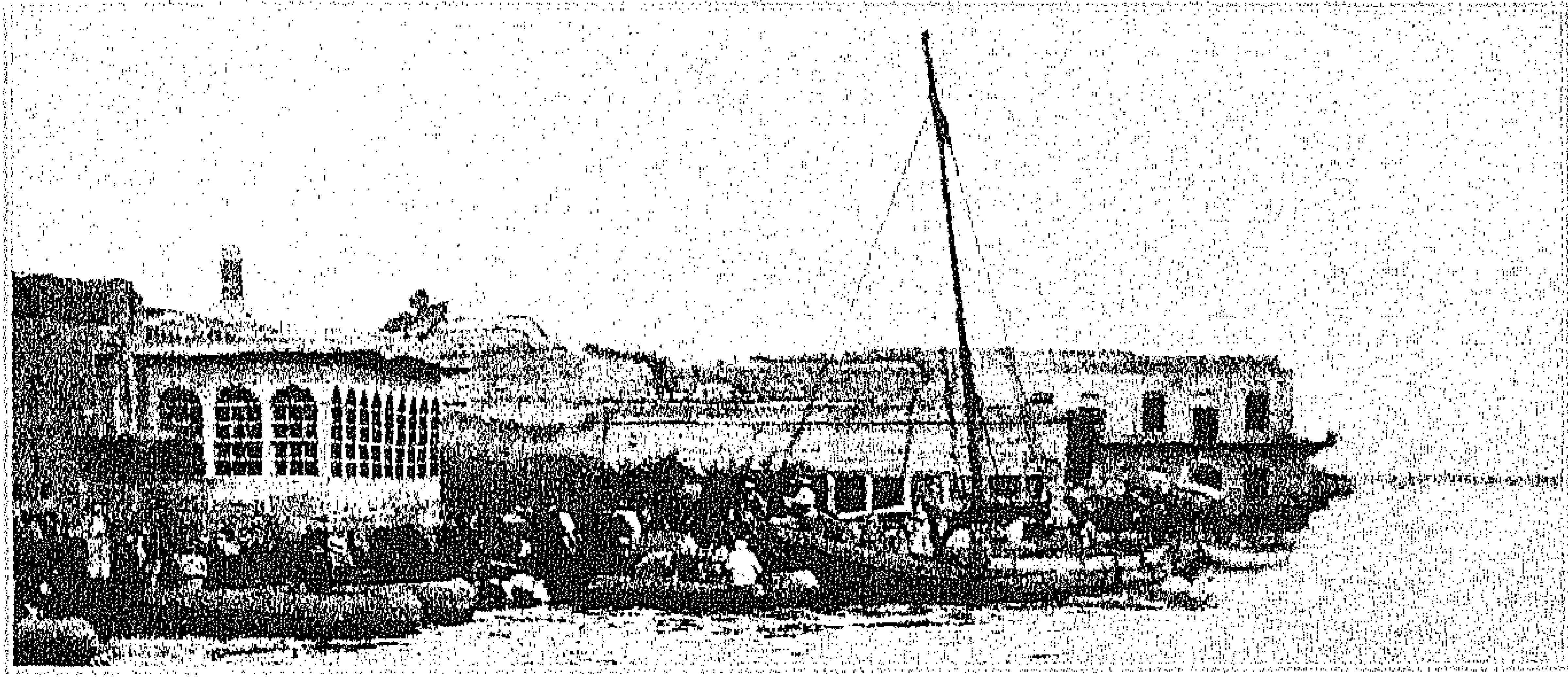
المادة	جنيه ذهبي تركي	المادة	جنيه ذهبي تركي
أقمشة	٢٥٠٠٠	كهرمان أصلي وغير أصلي	١٠٠٠
طرابيش	٥٠٠٠	فولاذ	٥٠٠
أعواد ثقاب	٥٠٠٠	أثاث	١٥٠٠
ورق	٤٠٠٠	جوارب	١٥٠٠
لوازم خياطة	١٥٠٠	بضائع مختلفة	١٠٠٠٠
زجاج	١٠٠٠		
المجموع :	٥٦٠٠٠		

(٣) بناء على سجل الأرشيف الألماني ١٨٩٦ الجزء الثاني ص ٥٥٦ تم تصدير ما يلي من بغداد إلى ألمانيا سنة ١٨٩٥ :

المادة	القيمة بالجنيه التركي
صوف، جلود	١٥٠٠٠
أمعاء	٤٠٠٠
صمغ مطاط	١٠٠٠٠
بضاعة متنوعة	١٠٠٠
المجموع :	٣٠٠٠٠

والسجاد، ويعرض الصوف والقمح[1] في السوق في شهر مايو، والتمر في آخر سبتمبر[2].

وبغداد هي محور ومركز عبور التجارة في كامل المنطقة على اتساعها، وتمثل بلاد فارس سوقاً مهمة لبغداد، ثم إن جزءاً كبيراً من التجارة الفارسية خاصة القادمة من المنطقة الشمالية الثرية يفضّل اليوم المرور بهذه المدينة الواقعة على نهر دجلة، فتمر عبر بغداد مثلاً المواد المخصصة لإنشاء خط سكك حديد في بعض ضواحي طهران، ويتولى فرع من فروع المصرف العثماني المعاملات المصرفية المتعلقة بهذه النشاطات، وقد ضمّ المصرف العثماني وكالة المصرف الإمبراطوري الفارسي السابقة في بغداد سنة ١٨٩٣م واستولى عليها .



بغداد

ملاحة السفن البخارية على دجلة

ساهم إنشاء خط للنقل البحري بواسطة سفن بخارية منتظمة الرحلات على نهر دجلة وفي الخليج الفارسي مساهمة كبيرة في دعم التطور الاقتصادي للمدينة، وقد سبق أن بدأت دراسة الإنجليز لمجرى الفرات ومجرى دجلة منذ بداية هذا القرن، على أمل إنشاء خط يربط بين البحر الأبيض المتوسط والخليج الفارسي حتى يبلغ الهند عبر هذين النهرين، غير أن الأعمال التي قامت بها بعثة تشيسني طوال سنوات عديدة - والتي لا شك أنها ذات أهمية كبرى لمعرفة بلاد ما بين النهرين - لم تسفر عن نتيجة إيجابية بهذا الصدد[3]، لأن الدراسات التي أجريت حول

(١) كان القمح البغدادي قبل بضع سنوات يصدر إلى مرسيليا ولندن، ويمكن مضاعفة إنتاج القمح الحالي عشر مرات بمجرد تنظيم بسيط لظروف الأنهار والقنوات في بلاد ما بين النهرين .

(٢) فيما يتعلق بالتجارة البغدادية، قارن أيضا الأرشيف التجاري الألماني ١٨٩٥ الجزء الثاني، ص ٥٨٠ وما يليها ، ١٨٩٦م، الجزء الثاني، ص ٥٥١ وما يليها وص ٦٥٢ وما يليها ، ١٨٩٨ الجزء الثاني ص ٤٢٣، ويقدر كويناي في المرجع المذكور، الجزء الثالث، ص ١٠٩ إجمالي الإنتاج الصناعي لبغداد وضواحيها المباشرة سنويا بقيمة ٤٤٧.٢٠٠ جنيه تركي .

(٣) فيما يتعلق بالملاحة على نهر الفرات، قارن فيما سبق الفصل ١ ، ص ١١ وما يليها .

صلاحية دجلة للنقل البحري لم تصل إلى مدينة الموصل بل إلى شيخ سلطان عبد الله، و ذلك لا يمثل إلا ثلثي المسافة فحسب، وقد أسندت رخصة الاستثمار لخط البصرة - بغداد أولاً إلى شركة إنجليزية هي لينتش للملاحة البخارية التي كانت تعمل بسفينتين هما الخليفة والمجيدية[1]، ونظراً لاحتكارها السوق فقد كانت تفرض أسعاراً باهظة على نقل الأشخاص والبضاعة على حد سواء، وحيث إن مدحت باشا أنشأ خطاً تركياً منافساً كان في بداية أمره يملك اثنتي عشرة سفينة، فإن الأسعار انخفضت كثيراً بالنسبة لذوي الإمكانيات المحدودة، كما انتعشت حركة النقل انتعاشاً كبيراً أيضاً، أما اليوم فقد انخفض عدد السفن التركية إلى أربع، وهي الموصل وبغدادي، والرصافة، والفرات، وليست مواقيت رحلاتها منتظمة إلا نادراً، وتصحب هذه السفن في العادة زوارق سحب، الأمر الذي لا يسمح به للسفن الإنجليزية، وما يزال موضوع توصيل النقل البحري حتى مدينة الموصل يمثل إحدى أولويّات الحكومة التركية، وأثناء إقامتي في بغداد كانت لجنة تعمل في إعداد دراسة جديدة لنهر دجلة، ووضع مخطط للتخلص من الحواجز الطبيعية تحت إشراف مهندس فرنسي[1]، غير أنه يبدو أن استصلاح النهر وتهيئته لملاحة السفن الكبيرة سوف يكون مشروعا يقترن بصعوبات جمة .

أرجو أننا سوف نرى في مستقبل قريب خط سكك الحديد الذي أنشأته إرادة الشعب الألماني ليربط بين القسطنطينية وكونيا يتواصل حتى يبلغ بغداد، عندئذ سوف تعود التجارة ويعود النقل إلى المسار الذي كانت قد سلكته منذ عهود غابرة .

بغداد مركزاً تجارياً في العهود الماضية

كانت تجارة أوروبا مع الهند والشرق الأقصى منذ ذلك العهد تمر عبر بلاد ما بين النهرين، وفي العصر الإغريقي الروماني كان الميناء على الخليج الفارسي يدعى خرك سباسينو[3]، وفي عصر الخلفاء كان ميناء أوبولا وسيراف، ويذكر عالما الجغرافيا العربيان ابن خرداذبه والإدريسي بدقة طريق تنقل البواخر من أوبولا إلى الهند، ومن هناك إلى الصين، ولما تداعت

(١) بناء على ترخيص حديث العهد يعود إلى سنة ١٨٨٨م تتنقل باخرة إنجليزية من المحمّرة عبر الجزء الأسفل من نهر كارون حتى شلالات الأهواز، حيث تتولى سفينة أخرى إنجليزية أيضاً أصغر منها حجماً مهمة النقل إلى شوشتر، من هنا بدأت الشركة الإنجليزية نفسها – شركة لينتش– مدّ طريق للقوافل حتى أصفهان .

(٢) تفضل الحكومة التركية تكليف المهندسين الفرنسيين بالمهام الفنية، ولا شك أننا نرجو أن يبحث الفنيون الألمان أيضاً عن فرصة للتعريف بالعلوم والخبرات الألمانية في المناطق الواقعة على نهر دجلة البعيد .

(٣) قارن فوغي – كتابات سامية، ص ١٠ وما يليها، وشبرنجر– طريق البريد والتنقل في الشرق، الصفحة ٧٩.

الإمبراطورية العربية اندثرت هذه الطريق أيضاً، وشيئاً فشيئاً توجه النقل إلى طرق أخرى، إذ يبدو أنه سلك حيناً من الدهر الطريق عبر بلاد فارس وخاصة طريق البحر الأحمر إلى قلزم - السويس - ومنها عبر الأراضي المصرية إلى الإسكندرية، ثم إلى البحر الأبيض المتوسط، وباكتشاف الطريق البحرية عبر رأس الرجاء الصالح أهملت هذه الطريق أيضاً لفائدة الوجهة الجديدة التي تمثل تمديداً كبيراً للمسافة حول القارة الإفريقية، وبقيت الحالة كذلك إلى أن فتحت قناة السويس فعاد التنقل إلى الأراضي الآسيوية إلى الطريق القديمة الأقصر عبر البحر الأحمر، وقد يعود التنقل بإنشاء خط سكك الحديد إلى أقصر وأقدم طريق عبر بلاد ما بين النهرين .

أعتقد أنه لدينا دلالات تبرر شرعية توقع أرباح مستقبلية جيدة سوف يدرّها خط سكك الحديد عبر بلاد ما بين النهرين من القسطنطينية على البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج الفارسي، وهذه الأرباح سوف تعفي الحكومة العثمانية بمرور الزمن من الضمانات التي قد تكون في البداية ضرورية، ولا شك أن البريد العالمي سوف يسلك فيما بعد الطريق الأقصر، إضافة إلى ذلك يأتي التنقل بين القسطنطينية والبحر المتوسط من جهة، وبلاد ما بين النهرين من جهة أخرى ، وأخيراً، لا شك أن حركة النقل الداخلية سوف تنشط، وسوف يكتسب نقل الأشخاص خاصة أهمية لا تقل عن حركة نقل البضائع .

خط دجلة أم خط الفرات، مزايا خط دجلة

لقد أثبتت التجربة أن السكان في كامل بلاد الشرق يرغبون في استعمال وسائل النقل إذا لم تكن الأسعار مرتفعة؛ ففي مصر نجد أن القطارات المخصصة للسكان المحليين شديدة الاكتظاظ، ونجد أن شركة سكك حديد الأناضول تجني دخلاً معتبراً من نشاطاتها في نقل الأشخاص .

إذا نظرنا إلى جميع الاعتبارات التي تلعب دوراً مؤثراً في مردود التنقل الداخلي بين سوريا وبلاد ما بين النهرين - بين البحر الأبيض المتوسط والخليج الفارسي - فإنه لا يبقى أدنى شك في أن مشروع خط سكك حديد على نهر دجلة يستحق التفضيل على مشروع خط سكك حديد على نهر الفرات، وأهم شيء يحسب لفائدة خط الفرات هو قصر مسافة خط السكك الحديدية مقارنة بالمشروع الأول، في مقابل ذلك يحظى خط دجلة بجميع عوامل التفضيل المتمثلة في كثافة السكان، وقابلية الأرض للاستثمار الزراعي، واستقرار الوضع استقراراً كافياً ومشجعاً. أما نهر الفرات فإنه يخترق مناطق مقفرة في معظم المسافة التي يمكن اعتبارها خطأ

لسكك الحديد، ورغم أنه يمر بعدد من الواحات الواسعة فإن الأراضي التي تمتد على ضفافه قليلة التطور، وليس هناك شك في أن الجزء الأسفل من الفرات - عند مستوى بغداد تقريباً - يبدأ في اختراق أراضي بابل القديمة التي كانت تعتبر من أخصب بلاد العالم، كما أن الجزء الأعلى من الفرات هو الآخر يخترق مناطق زراعية جيدة، إلا أن المنطقة التابعة لبلاد بابل القديمة والتي يرويها نهر الفرات يمكن بسهولة ربطها بفرع من سكك الحديد من بغداد إلى الحلّة وكربلاء، التي ستحظى عندئذ بإقبال كبير من قِبَل عدد وافر من زوّار الأماكن المقدسة من بين الحجاج الفرس - إلى كربلاء والنجف- يضمن لها أرباحاً طائلة(١)، وعلى كل حال، ينبغي الانتباه عند المفاضلة بين الخطين إلى أن منطقة الفرات بين مسكنة و بغداد أقل بكثير من منطقة دجلة في الخصوبة وكثافة السكان، أما خط سكك حديد دجلة الذي سوف يمر عندئذ من قونية عبر بيراجيك إلى ماردين، ثم يمر بمنحدر طور عابدين عبر نصيبين وبعدها في وادي دجلة إلى الموصل، ومن هناك عند سفح جبال كردستان إلى بغداد - هذا الخط يقع بكل وضوح في منطقة أثبتت ثراءها وخصوبتها عبر آلاف السنين من التاريخ، فهنا قامت عواصم ممالك تتفاوت في الاستقلالية - يرجع الفضل في ثراء شعوبها إلى زراعة الأراضي الخصبة وليس إلى التجارة، وينطبق هذا الرأي ليس على الوضع في القرون الغابرة فحسب، وإنما أيضاً على الوضع في العصور العربية الوسطى التي نجد فيها أمراء مسلمين في حلب، وديار بكر، وماردين، ونصيبين، والموصل، والسنجار، نستنتج مما خلفوه من آثار تتمثل في قصور غاية في الفخامة، دليلاً قوياً على رغد كبير في العيش وحضارة في أوج التطور، و لم تندثر هذه الحضارة إلا عندما هجمت جيوش تيمور لنك من الشرق، وتعرّض السكان المستقرون إلى غارات البدو المتواصلة، وتداعت القصور التي كانت شامخة فيما مضى من العهود، وهوت تلك الحضارة إلى الحضيض، ورغم ذلك فإن هذه المنطقة بالذات، التي ينبغي أن تمر بها سكك حديد دجلة التي سبق رسم طريقها، لم يمسّها المزيد من الدمار بفضل الظروف الطبيعية الملائمة، وبفضل ازدهار النفوذ التركي في الفترة الأخيرة أيضاً، وقبل كل شيء فإن المنطقة كلها غنية بالمياه، فالمجاري المائية القادمة من منحدرات طور عابدين وكردستان تمتلئ بسبب الأمطار الغزيرة في كثير من الأحيان لتصبح تيارات جارفة تمثل حاجزاً صعباً للقوافل التي تمر بهذه المنطقة(٢)، ونهر دجلة

(١) لا ينبغي أن ننسى أن بغداد أقرب إلى مراكز التجارة في شمال بلاد فارس من موانئ الخليج الفارسي ، وأن أكثر من مائة ألف من الحجيج يمرون سنوياً ببغداد.

(٢) الحجة الدامغة لتفضيل خط سكك حديد دجلة على خط الفرات هي أن القوافل تسلك اليوم الطريق المرسوم لخط دجلة تماماً.

نفسه يفيض في كثير من الأحيان فيغطي مناطق واسعة من ضفافه، وكما هي الحال بالنسبة للنيل في مصر فإن نهر دجلة - ومعه بطبيعة الحال نهر الفرات في بلاد بابل الحقيقية - يمثل العامل الأساسي لخصوبة الأرض، وقد كانت المهمة الأساسية لسكان المنطقة في العصور القديمة والوسطى تتمثل في توجيه الكميات الكبيرة من مياه دجلة، - التي تهدد بغداد إلى اليوم في كثير من الأحيان- عبر نظام رائع من قنوات الري، وتحويل الأراضي التي تبقى اليوم بوراً إلى أراض زراعية غاية في الخصوبة بفضل الحياة التي تبثها فيها المياه، وحيثما يتسنى اليوم ريّ الأراضي ينبت زرع مختلف ألوانه، ويؤتي العدد العديد من أنواع الثمار والمحاصيل الزراعية(١).

منذ أن اتخذت الحكومة التركية موقفاً حازماً تجاه غارات القبائل البدوية أصبحنا نلاحظ اتساعاً واضحاً في المساحة المستثمرة في الزراعة، وقد قدم السلطان نفسه مثالاً يحتذى به كما سبق أن ذكرنا باستثماره لأراض تابعة للتاج ثبت أنها تقدّم محصولاً معتبراً، وما من شك في أن استتباب الأمن بين القبائل البدوية يتزامن عادة مع تزايد عدد السكان المستقرين وتوسّع العمل في مجال الزراعة، ثم إنه سوف يكون للرفاهية التي سيحظى بها الفلاحون تأثير في القبائل البدوية، وسوف يزداد هذا التأثير لأن قوة السكان المستقرين تتعاظم بمساعدة الحكومة، بحيث يستطيعون الوقوف في وجه الغزو الذي يهددهم من قِبَل أبناء الصحراء معتادي النهب والسلب، ولا بد أن نلاحظ أن هذه العملية سجلت تقدماً عند نهر دجلة أكبر منه عند نهر الفرات، ثم إنه من المؤكد أن إخضاع القبائل البدوية التي تعيش عند الفرات، وتستطيع بسهولة الانسحاب إلى الحمد يمثل مهمة أصعب من طرد بدو دجلة الذين لا يرغبون في الاستقرار إلى المناطق الواقعة في الجنوب، فضلاً عن أن القبائل البدوية التي تعيش عند الفرات أقرب إلى العقلية العربية السائدة في موطنها الأصلي، والحكومة التركية تستطيع توجيه هجرة(٢) عدد كبير من السكان إلى المناطق التي تم ضمها إلى الأراضي المستثمرة، وبذلك لن يكون هناك نقص

(١) لا شك أن زراعة واسعة للقطن في بلاد بابل سوف تكلل بنجاح كبير، فقد بلغت محاصيل القطن في سنجق بغداد، أي في جوار العاصمة الإقليمية سنة ١٨٨٣ قرابة ٣٨٤٥٠٠ كيلوجراماً، قارن كويناي في المرجع المذكور الجزء الثالث، ص ٢١، وقد وجدت في حوران بعض أشجار القطن المتناثرة، قارن الجزء الأول من هذا الكتاب، ص ١٩٤، ويزرع القطن أيضاً في مناطق أخرى من سوريا، خاصة في سهول عدنة الخصبة، وقد ذكر لنا علماء الجغرافيا العرب من القرون الوسطى أن القطن كان يصدر من منخفضات الخابور قبل هجوم المغول، قارن فيما سبق الفصل ١، ص ١٠، و ص ٢٦، ثم إن زراعة القطن مشهورة في الهند وبلاد فارس، وقد سبق أن ذكرنا زراعة الأرز عند نصيبين، ص ٣٦- وتزدهر زراعة الأرز في جنوب بلاد ما بين النهرين، وكذلك في كامل منخفضات ديالي، ويعطي كويناي إحصاءات مهمة لمجموع إنتاج الزراعة في ولاية بغداد في المرجع المذكور، الجزء الثالث، ص ٢١.

(٢) قارن الجزء الأول من هذا الكتاب، ص ٦٦ .

في القوى البشرية اللازمة للعمل في الأراضي الزراعية، بصرف النظر عن أن التجارب أثبتت أن الشعوب النامية - وخاصة العاملة منها في ميدان الزراعة - تتزايد بسرعة عندما تنتج الأرض كمية كافية من الغذاء، ولا تلبث هذه الشعوب النامية أن تصبح في حاجة غير قليلة للمنتجات الصناعية الأوروبية، وسوف يجني ثمر ذلك - بطبيعة الحال وبالدرجة الأولى - البلد الذي يملك خط سكك الحديد، ويتحكم فيه.

أولويات ألمانيا

إذا تولّت ألمانيا إنشاء خط سكك الحديد حتى بغداد فإن ذلك يفتح أمام الصناعة الألمانية وبصفة عامة أمام النشاطات الألمانية في بلاد ما بين النهرين مجالاً واسعاً للعمل، يضاف إلى ذلك أن الأحداث الأخيرة تشير إلى أن الألمان مؤهّلون للقيام بنشاطات مربحة في الشرق، ففي الشرق العثماني ينبغي على من يريد أن يكون عمله ناجحاً مربحاً أن ينتمي إلى شعب يتمتع بسمعة جيدة، ويحظى بتقدير لدى سكان البلاد. أما النفوذ السياسي فإنه لا يستطيع تعزيز موقف رجل الأعمال الأوروبي، بل يجوز أن نقول: إن العكس هو الصحيح؛ ذلك أن الطموح السياسي يثير الشك والريبة في نفس الأجنبي، في حين تلعب الهيبة والمكانة الدولية دوراً كبيراً بلا ريب، ولا شك أن ألمانيا تعتبر ضيفاً مبجّلاً في الإمبراطورية العثمانية؛ ذلك أن الاعتقاد السائد هناك، حتى عند الطبقات الدنيا، يشير إلى أن ألمانيا لا تحدد مواقفها وتصرفاتها بناء على مصالحها ومنافعها الخاصة، لأن زيارة جلالة الإمبراطور الألماني جسّمت مؤخرا بكل وضوح العلاقات الطيبة التي تربط بين عاهلي البلدين(١).

مهام ومصالح الحكومة التركية في مد خط سكك الحديد، البريد والبرق

إنّ مد خط سكك الحديد من القسطنطينية عبر قونيه إلى بغداد سوف يعود بمنافع كثيرة على تركيا، فإلى جانب الأهمية الاقتصادية الكبرى لخط سكك الحديد الذي يعود دون شك بالفائدة على العاصمة التركية ويجعل بيزنطة - القسطنطينية تحصل على جزء كبير من حركة التنقل بين الشرق والغرب - إلى جانب ذلك تقدّر الحكومة التركية أيضاً الأهمية الاستراتيجية

(١) أثناء طباعة هذا الكتاب، صدر في أواخر شهر نوفمبر عام ١٨٩٩م مرسوم سلطاني يسند ترخيص مد خط سكك حديد قونيه-بغداد إلى شركة سكك حديد الأناضول، هذا الإجراء هو نتيجة لإقدام صاحب الجلالة إمبراطور ألمانيا، وهو أيضا نجاح باهر للدبلوماسية الألمانية ولنشاط رجال الأعمال الألمان، وقد اعترفت جميع الأوساط المعنية بذلك في جميع أنحاء العالم.

السياسية لطريق سريعة بين العاصمة والحدود الشرقية البعيدة للإمبراطورية، والسبب الأول في ذلك هو أنها تسمح للحكومة بترسيخ نفوذها لفرض السلم ونشر الرقابة على شعب مختلف الأجناس وبعض فئاته ثائرة، ولذلك لن تتهرّب الحكومة التركية من مسؤولياتها في الاهتمام بنظام مدّ القنوات والريّ لمنطقة أسفل دجلة والفرات، هذا النظام الذي كان الأساس في ازدهار هذه الأرض عبر مئات وآلاف السنين الماضية، وسوف تتولى ترميمه، والإنفاق عليه، والدفاع عنه ضد القبائل البدوية الميّالة إلى النهب والسلب، فإذا عادت محطات المياه في بلاد ما بين النهرين إلى العمل فقد تحقق بذلك الشرط الأول لكي يعود هذا البلد إلى ما كان عليه في السابق، وأعني بذلك مخزن الحبوب طوال العهود الماضية، وسوف يمثل خط سكك الحديد الذي يربط هذه المنطقة الشريان الأول للتنقل في العالم، وسوف تصبح بغداد نفسها ذات مرتبة متميزة أيّما تميّز، أما الملاحة البحرية في الجزء الأسفل من نهر دجلة وشط العرب حتى الخليج الفارسي فلا تمثل إلا خطوة تمهيدية للتطور المستقبلي للبلاد، ومن المحتمل أن يكون إتمام خط سكك حديد القسطنطينية- بغداد إلى البصرة والخليج الفارسي لايتعدى أن يكون مسألة وقت.

لطريق البريد بين بغداد وأوروبا اليوم ثلاثة اتجاهات، فهي تمر بكركوك، والموصل وديار بكر عبر آسيا الصغرى إلى سمسون والقسطنطينية، أو تشق الصحراء إلى دمشق وبيروت، أو تستقل دجلة على السفن الإنجليزية إلى البصرة والهند، أما البرقيات فترسل عن طريق الموصل أو البصرة.

الأوروبيون في بغداد، القنصليات الأوروبية

يبلغ مجموع عدد الأوروبيين الذين يعيشون حالياً في بغداد قرابة خمسين شخصاً، يضاف إلى ذلك عدد مشابه من أولئك الذين ولدوا من تزاوج الأوروبيين مع بنات المسيحيين من أهل البلد، وتقيم بعض هذه العائلات " الأوروبية " في بغداد منذ عدة أجيال(١).

في الفترة التي زرت فيها بغداد كان القنصل العام الإنجليزي يلعب الدور الأول بلا منازع من بين جميع ممثلي القوى الأوروبية في المدينة، وكان يشغل هذا المنصب في ذلك الوقت العقيد إدوارد موكلر، ويخضع القنصل العام الإنجليزي في بغداد للسفارة البريطانية في

(١) نتيجة لتجارة وتواصل أوروبا مع بغداد ظهرت أيضا نشاطات اجتماعية أوروبية في بغداد تتجلى في تكوين النوادي، إذ يوجد في بغداد ناديان إنجليزيان أحدهما للعبة البيلياردو، والآخر لكرة المضرب وكرة الصولجان، ويبدو أن نادياً ألمانياً بصدد التكوين.

القسطنطينية، غير أنه يتولّى في الوقت نفسه مهمّة الممثل السياسي والمقيم العام للحكومة الهندية، ويحصل من كلا الطرفين على راتب معتبر، ويعيش في أحد أفخم المنازل على مقربة من النهر، ويتولى حراسة القنصل خمسة عشر ملاحاً هندياً وسفينة مقيمة تنتمي إلى البحرية الهندية يبلغ عدد بحارتها نحو ستين جندياً.

وقد كان العقيد تايلر أول قنصل عام تم تعيينه في هذا المنصب بوصفه المقيم العام لشركة الهند الشرقية في عهد داوود باشا(١)، وعلى غرار خليفته في المنصب السيد ريتش، كان العقيد(٢) تايلر رجلاً محنكاً في مسائل وقضايا الشرق، ولا يزال هذا المنصب إلى اليوم يسند إلى ضباط وموظفين يحيطون بمعرفة واسعة عن البلد وأهله بفضل إقامتهم على مدى سنين طويلة في الشرق، وقد تميز معظمهم بما قدموه للعلم من خدمات سواء عن طريق بحوث شخصية، أو بتشجيع بحوث أبناء بلدهم، وساهموا بذلك في بلوغ إنجلترا المكانة التي تحظى بها اليوم، ليس في شرق تركيا الآسيوية فحسب بل تجاوزوا ذلك إلى تقديم خدمات جليلة إلى التجارة الإنجليزية، وقد ساعدتهم في ذلك الهيبة والفخامة التي تشمل بها الحكومة الإنجليزية هذا المنصب، وكان ذلك خير ما فعلت هذه الحكومة التي لم تدّخر جهداً في البذل الذي عاد عليها بمئات أضعافه ربحاً.

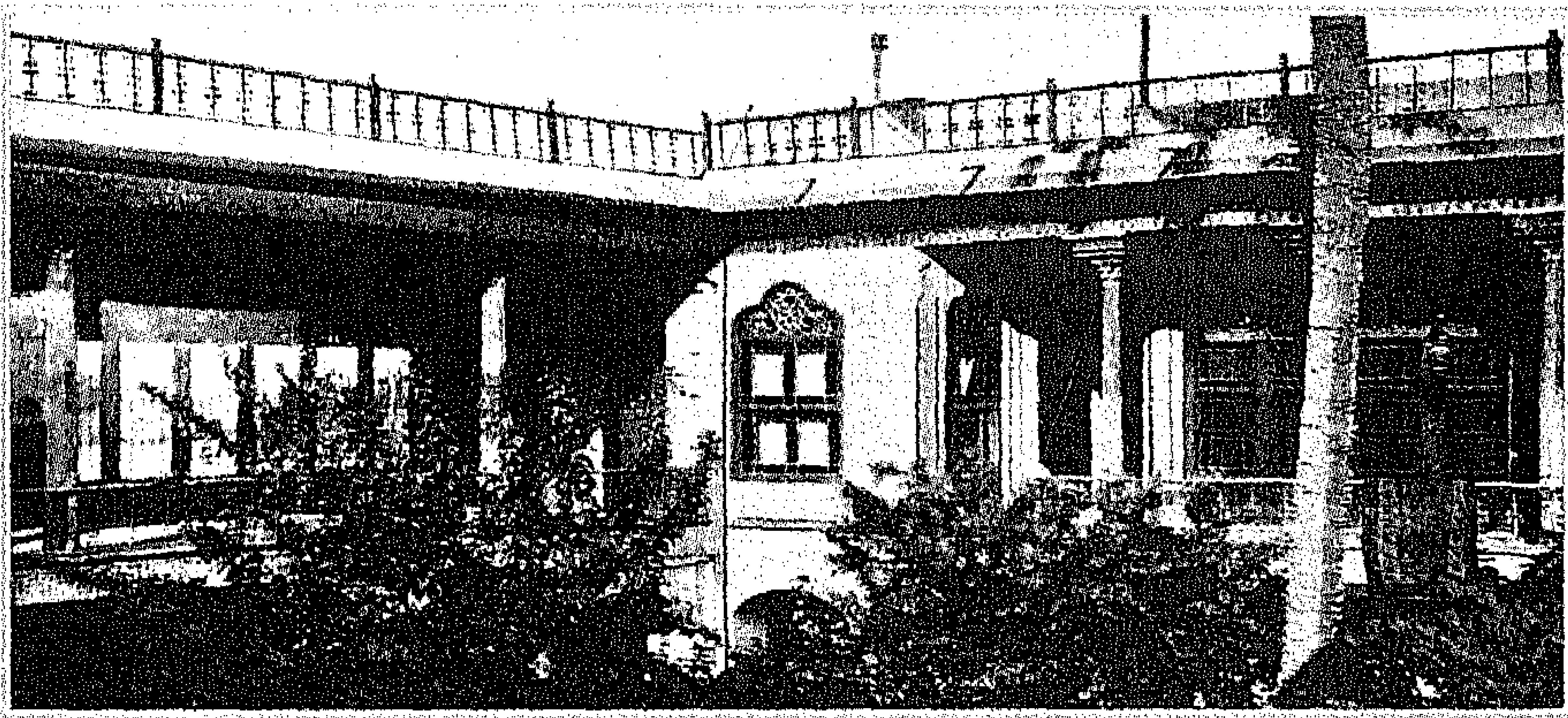
أما القنصل الفرنسي الذي لقيته فهو باحث في الحضارة الآسيوية يدعى السيد هانري بونيون، وفي بغداد قنصلية روسية أيضاً، غير أن فتحها لم يكن لأسباب اقتصادية بل لأسباب سياسية بحتة، ورعايا هذه القنصلية هم المسلمون من القوقاز وآسيا الوسطى - بخارى- فقط.

وقد فتحت الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً منذ بضع سنوات قنصلية في بغداد، ولا شك أن حفرياتها في بابل تمثل أحد الأسباب في فتح القنصلية، أما العدد الكبير من الرعايا الفرس فيسهر على حمايتهم قنصل عام، يعتبر منصبه من أكثر المناصب التي تسندها الحكومة في طهران ريعاً على من يحظى بالحصول عليه، ونذكر من بين المهام التي يتولاها هذا القنصل رعاية جموع الحجيج المتوجهين إلى الأماكن المقدسة للشيعة قرب ببغداد، ودفن العدد الكبير من رفات المسلمين الشيعة الذين يرغبون في أن يكون مثواهم الأخير قريباً من أضرحة

(١) نشأت الإقامة الإنجليزية– الهندية نتيجة لتدخل نابليون في مصر وسوريا، حيث إن الإنجليز كانوا يخشون من توسع النفوذ الفرنسي إلى بلاد ما بين النهرين أو من حملة فرنسية على الهند، وكان من شأن الإقامة الإنجليزية – الهندية بدورها أن جعلت القنصلية الفرنسية ذات الصبغة الدينية تتحول نهائياً إلى جهاز مدني .

(٢) قارن باكينغهام في المرجع المذكور، الجزء الثاني، ص ٢٠٩.

الشخصيات المقدسة في مذهبهم، وهم الإمام علي رضي الله عنه وأبناؤه، وقد كان القنصل الفرنسي أثناء زيارتي إلى بغداد يمثل الرعايا النمساويين والإيطاليين والسويسريين، وكان الألمان سابقاً تحت رعاية الإنجليز مثلما هي الحال اليوم بالنسبة للبلجيكيين، و لم تفتح القنصلية الألمانية أبوابها إلا بحلول سنة ١٨٩٤م، حيث أسندت إدارتها إلى السيد كارل ريشارتس الذي يشمل نطاق عمله ولايات بغداد، والموصل، والبصرة، وتشمل رعايته حالياً المواطنين النمساويين والمجريين، وقد قام السيد ريشارتس بأعمال عظيمة في بغداد في سبيل رفعة قدر وسمعة ألمانيا، ولاشك أن الفضل يرجع بنسبة كبيرة إلى جهوده التي جعلت التجار الإنجليز يوافقون على تقديم تنازلات للنشاط التجاري الألماني الطموح بعد أن كانوا يتمتّعون بالسيادة المطلقة في ذلك(١).

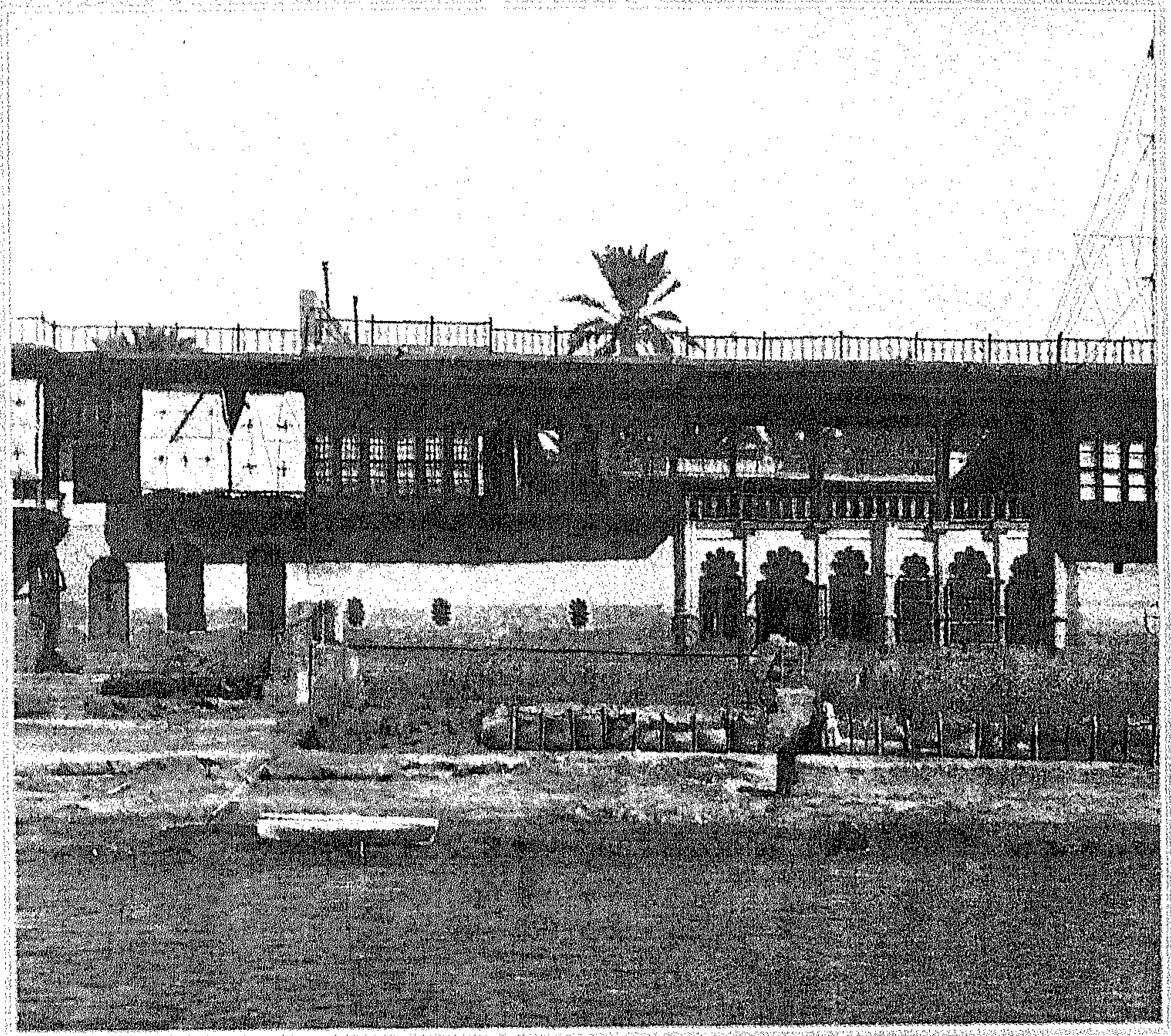


منزل القنصل الألماني ريشارتس في بغداد

القنصل الألماني ريشارتس

أرسل إليّ السيد ريشارتس دعوة - قبل أن يتعرف عليّ - سلمني إياها القنصل الإنجليزي العقيد موكلر الذي التقيت به إثر وصولي إلى المدينة مباشرة، وكان العقيد موكلر قد علم بقدومي الوشيك قبل وصولي بمدة بناء على التوصيات التي بلغته بخصوصي، وقد كان السيد ريشارتس في مقر إقامته الصيفي خارج بغداد، غير أنه سارع بالعودة عندما بلغه خبر وصولي إلى المدينة رغم تفشّي الوباء فيها، وقضيت ليلتي الأولى في بغداد في نزل يوناني، هو المكان الوحيد الذي يشبه فنادقنا إلى حد ما ويحمل الاسم الرنان " نزل أوروبا "(٢)، وقد اعتاد المسلمون الغرباء في بغداد - كما هي الحال في كل مكان من العالم الإسلامي - الاستفادة دون

(١) تعزّزت القنصلية سنة ١٨٩٧م بقدوم الدكتور هسّه الذي تولى منصب المترجم .
(٢) يبدو أنه تم توسيع الفندق حالياً، وقد انتقلت ملكيته إلى أيد أرمنية .



منزل القنصل الألماني ريشارتس في بغداد

تحرّج من كرم ضيافة الأصدقاء والمعارف، ذلك أنهم لا يسعون إلى استئجار منزل خال -يؤثّثونه بسجاد السّفر والمراتب وبعض الأثاث الذي يستعيرونه من أصدقائهم أو يشترونه - إلا إذا استغرقت الزيارة أشهراً أو سنوات، وانضم إليهم في ذلك أفراد أسرهم، ويتصرّف المسيحيون واليهود من المواطنين بالطريقة نفسها ، غير أنهم يقتصرون على ممارسة هذه العادة مع إخوانهم في الدين فحسب، شأنهم في ذلك شأن المسلمين، وقد اكتسب الأوروبيون في الشرق هذه العادة الطيبة أيضاً(١).

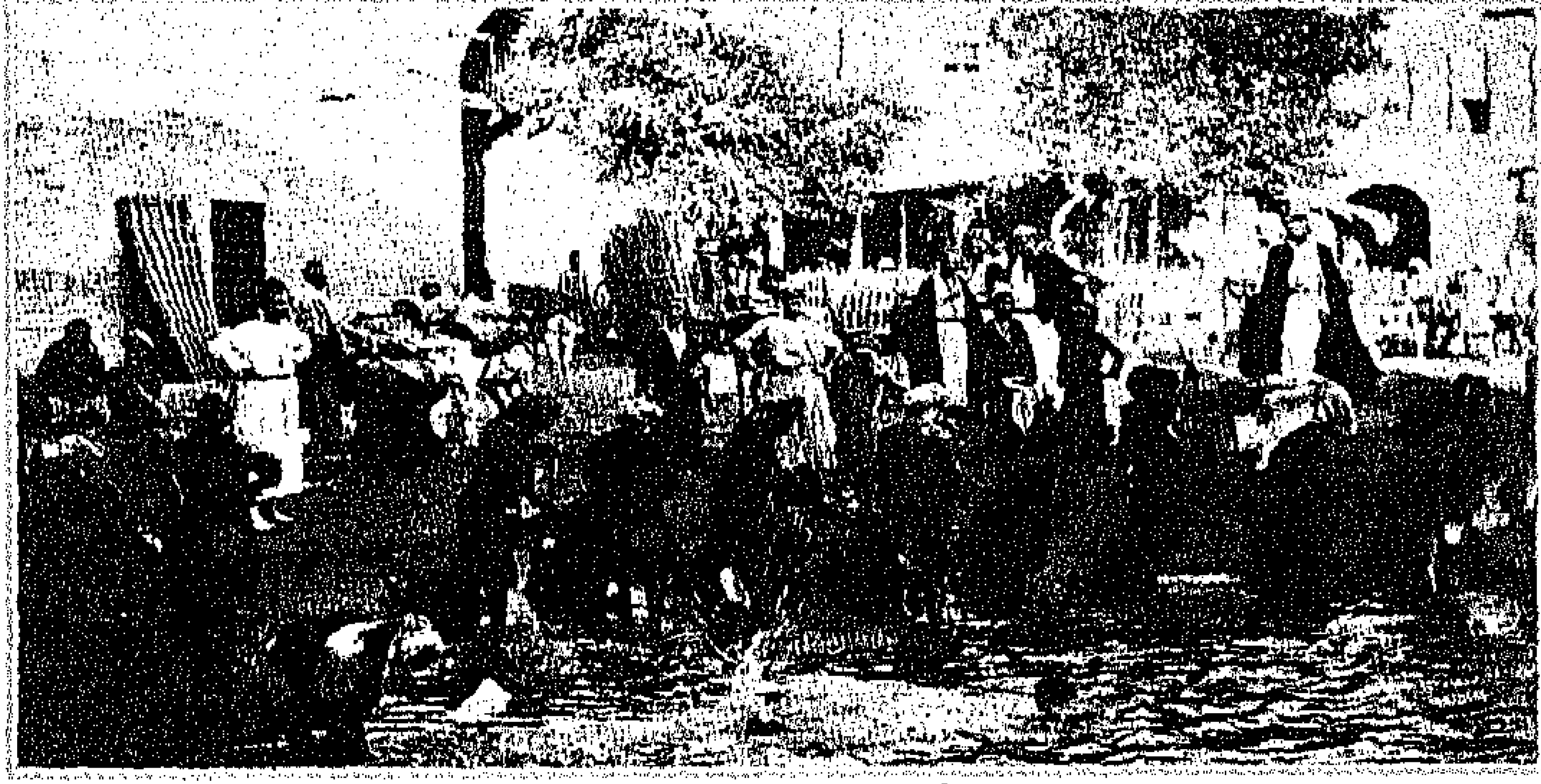
انتقلت منذ اليوم التالي لوصولي إلى المنزل الرائع الذي يملكه السيد ريشارتس، وكان المنزل من طابقين من الغرف يحفّهما فِناء تزيّنه أروع النباتات الاستوائية وشبه الاستوائية، وتبرز فيه شجرة نخيل عظيمة وحيدة، وتوجد قبالة نهر دجلة الذي يحدّ المنزل شرفة كبيرة في الطابق الأول مفتوحة باتجاه النهر وباتجاه الفناء تزيّنها أقواس جميلة، وقد كان المنظر رائعاً من الشرفة المنبسطة التي كنا نتناول فيها طعام العشاء بانتظام بعد غروب الشمس، وكانت الغرف مزخرفة بالرسوم والألواح الخشبية والمرايا المثبتة في السقف بطريقة فنية رائعة، والجو العام يوحي بالرفاهية الأوروبية والفخامة الشرقية، وكانت بعض الغزلان ترتع في الفناء، كما كان فهد قوي البنية نصف مدجّن موثقاً إلى سلسلة حسب ما تقتضيه العادة البغدادية في منازل الباشوات الأشراف، وكان مركب بخاري يملكه ربّ البيت راسياً على النهر(٢)، وتوجد قبالة المنزل حديقة كبيرة من النخيل يفصلها عنه الشارع العام، ويوجد فيها خان أقام فيه رفاقي.

أثر وباء الكوليرا

تسبب لي وباء الكوليرا -كما ذكرت- في مصاعب جمّة فيما يتعلق بزيارتي للمدينة، إذ لم تكن لتنقضي أية ليلة دون أن نسمع الأصوات الحادة لنواح النساء تتعالى من المنازل المجاورة، وكان ذلك إيذاناً بأن الوباء المروّع قد ذهب بضحية جديدة، و لم يكن الموظف(٣) الذي كلّفه القنصل الإنجليزي بمرافقتي ليقوم بهذه المهمة إلا على مضض أثناء الزيارات التي كنت أقوم بها صباحَ مساءَ عبر الأحياء الشعبية التي أصابتها الكوليرا بشدة، وكنا أثناء جولاتنا نلاقي بانتظام

(١) كرم ضيافة الإنجليز في الهند معروف، فالشخص الذي يملك التوصيات اللازمة لا يحتاج أبداً إلى الإقامة في فندق.
(٢) [المترجم: يستعمل الكاتب لفظة " كافاس " التركية التي تعني موظفاً بسيطاً في قنصلية أو سفارة].
(٣) كان في بغداد في ذلك العهد مركبان آخران عدا هذا المركب، كما كان في بغداد إلى جانب السيد ريشارتس ثلاث شخصيات أخرى فحسب تتمتع بالامتياز الكبير الذي يتمثل في ملكية عربة مزينة بالريش، ومزودة بمقاعد منجّدة تنجيداً حقيقياً، أما عربات النقل العمومي فهي صناديق عذاب حقيقية.

مآتم ترافق الموتى إلى مثواهم الأخير حسب العادة الإسلامية على نعش مفتوح لا يسترهم إلا غطاء بسيط، وكان من الصعب في كثير من الأحيان تجنّب ملامسة ثياب أولئك المساكين، وقد كانت الشوارع فيما عدا ذلك قليلة الحركة، والأسواق مقفرة ومعظم المحلات التجارية مغلقة، والبيع والشراء يقتصر على الحاجات الأساسية، وكانت بعض شوارع الحي اليهودي والحي المسيحي خالية تماماً من الحياة؛ ذلك أن سكان هذه الأحياء بالذات كانوا قد هربوا في أعداد تبلغ الآلاف، في حين أن المسلمين كانوا يواجهون الخطر بقدر أكبر من اللامبالاة انطلاقاً من إيمانهم بالقضاء والقدر، وقد فتح لي شيوخ الحارة عدداً من المنازل التي غادرها أهلها في عجلة كبيرة على ما يبدو، وكانت الخزائن والصناديق مفتوحة وقطع الملابس والأدوات المنزلية منشورة في فوضى كبيرة، وكأنّ حرباً قد اندلعت فجأة في المدينة، فخطف السكان اللوازم الأساسية، ولاذوا بالفرار في فزع شديد، ويبدو أن شوارع بغداد تتميز بنشاط كبير في الظروف العادية،


باعة الماء أثناء ملء قِرَبهم من نهر دجلة


ملالي الشيعة في كاظمين

الحياة في الشوارع العامة

تبلغ الحركة أشدها في يوم الجمعة(١)؛ ففي هذا اليوم تتوافد جموع البدو من المناطق البعيدة المحيطة بالمدينة إلى الأسواق لشراء لوازمها، ويقع البدو في هذه المناسبات بطبيعة الحال ضحية نصب واحتيال تجار المدينة المحنكين سواء كانوا مسلمين أو يهوداً أو مسيحيين، وينتشر في الشوارع في هذه المناسبات خليط من الأزياء المختلفة تتجلى فيها الطبقات الاجتماعية والمذاهب العقائدية، ويلبس الحضري المسلم في العادة قفطاناً (زبون) ذا حزام وعباءة (عباية أو عبا)، وعمامة تختلف تسميتها كلما صغر حجمها تدريجياً من عمامة إلى كشيدة إلى يشمك، فأما العمامة فهي خاصة بالموالي، وأما الكشيدة فيختص بها التجار (خاصة الفرس)، واليشمك لبقية السكان خاصة الطبقة الدنيا منهم، ويحب بعض الحضر المسلمين -وبخاصة أولئك الذين يتعاملون منهم مع البدو والخيل- لبس الزي البدوي الحقيقي بما فيه الكفيّة والعقال، ويتميز السكان اليهود بتفضيلهم للملابس ذات الألوان الزاهية وخاصة غطاء الرأس المتميز، وهو عبارة عن قبعه تلف حولها خرقة كثيرة الألوان تحمل في كثير من الأحيان رسوماً للزهور، وهي في العادة من المنتجات السويسرية، ويرتدي السكان المسيحيون خليطاً مما سبق ذكره من الأزياء، ويلبس المسيحيون القادمون من المناطق المحيطة بالموصل، والذين يتكلمون اللهجة السورية اليشمك الأحمر دائماً، ويطلق عليهم اسم " تلكافي" نسبة إلى قرية تل كاف الكبيرة موطن الأغلبية منهم، وقد بدأ الزي الأوروبي يتفشى شيئاً فشيئاً في البلاد وبخاصة بين المسيحيين (في بغداد: السترة والبنطلون)، مع المحافظة على القبعة لتغطية الرأس.



عتال يهودي في بغداد

(١) بناء على العدد الكبير من التجار اليهود المستقرين والعاملين في بغداد فإن يوم السبت هو يوم العطلة الحقيقي لجميع تجار بغداد بمن فيهم التجار الأوروبيون .

الأعيان في بغداد

صادف عيد ميلاد السلطان عبد الحميد أثناء إقامتي في بغداد، فتمّ الاحتفال بهذه المناسبة رغم الكوليرا بتنظيم استعراض حضره جمع غفير من المسلمين، وظهرت فيه القوات العسكرية في مظهر مشرف جداً، وأذكر من بين الأعيان الأتراك الذين التقيت بهم والي بغداد السابق حاجي حسن رفيق باشا، الذي وجدته في المنصب نفسه في دمشق سنة ١٨٩٧م، ورجب باشا مشير الجيش السادس التركي، ونصرت باشا الذي توفي في هذه الأثناء عن ثمانين سنة، وكان مشيراً ولواء لدى السلطان ومفتشاً للجيش السادس التركي، وكان نصرت باشا يقيم في القصر الذي شيد لشاه الفرس ناصر الدين عند زيارته لبغداد قبل عشرين سنة أثناء حجّه كربلاء، وقد تحول المبنى حالياً إلى مستشفى عسكري . إضافة إلى الأعيان الذين ذكرتهم، يتمتع لواء الفرسان كاظم باشا صهر السلطان بمكانة متميزة، وقد كان أحد أقارب الشيخ شامل المشهور - بطل موقعة جنيب في القوقاز، ويدعى محمد باشا داغستاني - يشغل منصب لواء في بغداد.



محمد باشا داغستاني لواء الفرسان وهو ابن أخ الشيخ شامل

اللغة العربية هي اللغة المتداولة في بغداد، وتقترب اللهجة - وبالذات لهجة السكان المسلمين- من اللهجة البدوية أكثر من اللهجتين السورية والمصرية، في مقابل ذلك نجد أن اللهجة البغدادية مشوبة أكثر بالمفردات الفارسية والتركية، أما اللغة الرسمية للحكومة فهي التركية التي تتم بها أيضاً المراسلات مع القناصل الأوروبيين.

بغداد ما قبل الإسلام

لم يكن لبغداد التي ثبت وجودها في التاريخ البابلي القديم قبل الإسلام أية أهمية سياسية أو تجارية، وفي ذلك العهد الذي كانت فيه بابل عاصمة مملكة بلاد ما بين النهرين الكبرى، كانت مدينة أوبيس المذكورة آنفاً، وبالتالي مدينة بابل، تلعب دور بغداد اليوم، ذلك الدور الذي خلفتها فيه حاضرة المدائن - سلوقيا - ولما أراد العباسيون تشييد عاصمتهم في هذا الموضع، كانت المدينة القديمة قد اختفت، و لم يبق منها إلا دير يدعى سوق البقر، وقرية صغيرة تدعى عتيقة تقع غير بعيد عن الدير في اتجاه الشرق(١)، ويقال: إن حديقة تدعى بغداد شيدها أحد الساسانيين كانت تمتد على الضفة الشرقية لنهر دجلة، وهذه رواية ربما تستند إلى الاسم الذي يعني جزوءه الأول في اللغة الفارسية " حديقة "، ثم إننا نعلم من كسينوفون ومن تاريخ حملة جوليان أن الفرس كانوا يملكون حدائق فسيحة في هذه المنطقة.

أبو جعفر المنصور يشيد دار السلام

ومؤسس المدينة هو الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور، الذي نقل مقر خلافته سنة ٧٦٢ م إلى هذا الموضع في وسط إحدى أغنى وأخصب المناطق، ومركز تلك الإمبراطورية العالمية التي امتدت من إسبانيا إلى الهند وإلى الصين الحالية، وقد سمى أبو جعفر المنصور المدينة دار السلام، كما سماها على غرار اسمه " المنصورية "، غير أن الاسم القديم ظل هو الاسم الرائج، وقد اعتمد الخليفة على المنجمين وعلومهم ليتأكد من أن هذا المكان سوف يجلب له الحظ بصفة متميزة أكثر من مقر إقامته السابق في الكوفة أو الهاشمية.

في البداية شيد الخليفة القصر والمسجد المركزي، والثكنة على الضفة الغربية، وأشرف على بنائها بنفسه(٢)، وتجمعت المدينة الحقيقية حول هذه المباني، وفصلت أحياؤها بجدران، وقد جيء ببوابات غاية في الجمال ومواد أخرى للبناء لتزيين بغداد من المدائن، ودمشق، وواسط - التي لم يعرف موضعها إلى اليوم - ومن قرى أخرى أيضاً؛ ذلك أن هذا الخليفة المعروف بالتقشف الشديد لم تثنه أي تكاليف عن تأثيث مقر الإقامة الجديد بطريقة في منتهى الفخامة.

(١) قارن فايل – تاريخ الخلفاء، الجزء الثاني، ص ٧٧ ، ثم ريتر في المرجع المذكور الجزء العاشر، ص ١٩٦.
(٢) قارن فايل في المرجع المذكور الجزء الثاني، ص ٧٧ و٧٨

بعد مدة وجيزة تلاشى وانقضى إعجاب الخليفة بهذا المقر، وبدأ يشعر بالخوف من سكان المدينة التي بدأت تنمو نمواً هائلاً، ولذلك فقد شيد لنفسه قصراً جديداً على دجلة يسمى دار الخلد[١]، ازدهرت المدينة التي نشأت بين هذين القصرين، وراحت تتسع في كل يوم دون هوادة، غير أن ذلك أيضاً لم يحظ برضى الخليفة فأمر ببناء مجموعة من القصور على الضفة النهر المقابلة لوليّ عهده وخليفته في الحكم محمد المهدي، من بينها قصر الرصافة، وشيد كذلك ثلاثة جسور للتنقل بين جزئي المدينة، وقد نشأت ضواح أخرى للمدينة هي: ضاحية حادث شمال الرصافة، وضاحية كرخ في جنوبها[٢].

اتسعت المدينة شرقاً أثناء خلافة المهدي الذي خلف المنصور في الحكم حتى بلغت كلواضه على بعد فرسخين - أي نحو عشرة كيلومترات - جنوب الرصافة [٣]، وهذا يعني أنها تجاوزت المكان الذي يدعى اليوم جرارة، وتصب في هذا الموضع قناة عريضة صالحة للملاحة تدعى نهر عيسى تتفرع عن الفرات[٤]، وتروي قنوات - لا تزال قائمة منذ العصور القديمة وتم ترميمها حديثاً- المناطق المجاورة التي تغطيها الحدائق الغناء.

واصلت المدينة نموّها في عهد الخلفاء الذين تولوا مقاليد الحكم بعد ذلك، وقد روى السفراء الألمان الذين زاروا بغداد مرتين في عهد الخلفاء العباسيين الأوائل قصصاً عجيبة حول المباني الرائعة والعيش الرغيد الذي لاحظوه فيها[٥]، ويبدو أن نقل البلاط إلى المدينة الجديدة سامراء[٦] لم يؤثر مطلقاً في تطور مدينة بغداد، خاصة أن هذا الانتقال لم يدم فترة طويلة، وظلت بغداد في هذه الحقبة المركز التجاري الأساسي للعراق.

(١) قارن موللر في المصدر المذكور الجزء الأول، ص ٢٧٤، فون كريمر في المرجع المذكور الجزء الثاني، ص ٥٢

(٢) يطلق اسم كرخ اليوم على ضاحية على الضفة اليمنى لدجلة مقابل الرصافة.

(٣) قارن فون كريمر، المرجع المذكور الجزء الثاني، ص ٤٨ وما يليها.

(٤) حتى دجونز استطاع سنة ١٨٣٨م الترحل على متن باخرة فوق هذه القناة التي تدعى اليوم نهر الصقلوية، منذ بدايتها حتى نهايتها، إلا أن أطراف الباخرة كانت تلامس الضفاف عند بعض المواضع من النهر، ورغم جهود مدحت باشا لإعادة القناة إلى صلاحيتها للملاحة فإنها اليوم لا تصلح لذلك، و لم تعد القناة تصب في دجلة وإنما في سبختين كبيرتين غرب المدينة تدعيان حور الصقلوية وحور العصي.

(٥) قارن فايل ، تاريخ الخلفاء ، الجزء الثاني، ص ١٦٢ – وقد ترك ابن سيرابيون وصفا مفصلاً للمدينة في عهد متأخر قليلاً (حوالي ٩٠٠ م) – مجلة الجمعية الملكية الآسيوية ١٨٩٥ م.

(٦) قارن ما سبق في الفصل ٦، ص ٢٣٣ وما يليها.

منذ أن تولى المعتضد الحكم عاد مقر الخلافة إلى بغداد التي ظلّت من ذلك الوقت عاصمة الخلافة إلى سقوط الدولة العباسية.

دولة السلاجقة ، خلافة المسترشد

وقد بدأ تدهور الخلافة منذ النصف الثاني من القرن التاسع، حيث أعلنت عدة مناطق تقع على الحدود الشرقية والغربية استقلالها، وقد استطاع التركي ابن رائق سنة ٩٣٥م، وهو أحد قادة جيوش الخليفة الراضي، وكان في ذلك العهد والياً على واسط - استطاع أن يستولي على كامل النفوذ السياسي، وأن يجعل من منصب الخلافة مجرد سلطة دينية، وقد بقي الخلفاء - عدا بعض الحالات الاستثنائية - على هذه الحال حتى سقوط الدولة العباسية.

وقد حدث انقلاب على ابن رائق ، إلا أن النفوذ تولاه القائد العسكري أحمد، وهو رجل من منطقة الديلم في بلاد فارس، ومؤسس الدولة البويهية التي أصبحت فيها السلطة المدنية للخليفة وراثية، وأصبح أفراد آخرون من السلالة البويهية في بلاد ما بين النهرين وبلاد فارس أمراء مستقلين استقلالاً يكاد يكون تاماً، ويحكمون دويلات صغيرة تشن على بعضها غارات متواصلة، وتخوض حروبا أهلية بسبب النزاعات العائلية الدائمة، بحيث استطاع السلاجقة - وهم قبائل تركية نازحة من بلاد ما وراء النهر- استطاعوا في منتصف القرن التاسع انتزاع النفوذ من البويهيين وإبعادهم عن الحكم، وقد تمكن أحد أشهر القادة العسكريين لهذه القبائل وهو طغرل بيك، الإطاحة بآخر سلطان بويهي في بغداد، وإرغام الخليفة القائم بتعيينه خلفا للسلطان سنة ١٠٥٥ م .

ولقد تحسن وضع بغداد، ووضع الخليفة عندما تولى السلاطين الأتراك من القبائل السلجوقية مقاليد الحكم، فقد انتهت بذلك الاضطرابات الدائمة في العاصمة بين الجنود الشيعة التابعين للسلاطين البويهيين من جهة والخليفة السني والشعب السني من جهة أخرى؛ ذلك أن الحكام الأتراك الجدد يدينون هم أنفسهم بالمذهب السني، إضافة إلى ذلك يبدو أنهم عاملوا الخليفة باحترام وتقدير أكبر من السلاطين البويهيين. وقد نجح بعض السلاطين السلاجقة في إعادة أجزاء كبيرة من الإمبراطورية تحت السيطرة المباشرة، وإرجاع كامل بلاد ما بين النهرين وسوريا وجزءاً من بلاد فارس إلى الخلافة، التي كانت قد فقدت كثيراً من قوتها وأراضيها(١).

---

(١) قارن موللر في المرجع المذكور الجزء الأول، ص ٦٢٨ وما يليها.

بعد وفاة ملك شاه آخر وأعظم السلاطين السلاجقة، ظهرت بعض الخلافات التي دفعت السلطان مسعود - الذي تولى الحكم بعد ملك شاه - إلى الاقتناع بأنه ينبغي عليه أن يترك للخليفة المسترشد مدينة بغداد ومعظم أراضي العراق ليحكمها كإمارة مستقلة بداية من سنة ١١٣٢م(١).

بداية من ذلك العهد تمكن الخلفاء من جديد من ممارسة النفوذ المدني باستقلالية، ولكن في نطاق ضيق جداً مقارنة بالاتساع الهائل للدولة العباسية الأولى، أما محاولتهم توسيع نفوذهم وخاصة استعادة السيطرة على بلاد فارس، فقد كانت السبب في وقوعهم في خلاف مع أمير خوارزم، الذي كان يحكم بلاد ما وراء النهر وجزءاً من بلاد فارس.

المغول يدمرون بغداد

ومن سوء حظ الخليفة أنه استنجد بالقائد المنغولي جنكيز خان، الذي سارع بالقضاء على نفوذ أمير خوارزم، غير أنه أصبح بذلك الجار المباشر للخليفة .

لم يتأخر الصدام بين الطرفين، وقد توافر السبب الظاهري أو بالأحرى الذريعة في ذلك عندما رفض الخليفة مساندة هولاكو شقيق ملك المغول في حرب الإبادة التي خاضها ضد الإسماعيليين(٢).

فقد تحركت جحافل جيوش المغول قاصدة بغداد سنة ١٢٥٧، وأخذ جزء من القوات طريقه عبر الضفة الغربية لنهر دجلة في حين عسكر هولاكو نفسه أمام الجانب الشرقي للمدينة، وبعد ثلاثة أسابيع استسلم الخليفة، وسلم جميع كنوزه على أمل النجاة بحياته على الأقل، إلا أنه أعدم مع أبنائه وعدد كبير من أهله وذويه، وعاث المغول فساداً في المدينة على مدى أربعين يوماً وأحرقوا جزءاً منها، غير أن هولاكو تصدى لأعمال التخريب وبلغ به الأمر أن أمر حتى بإعادة بناء ما دمّر من أحياء المدينة؛ ذلك أنه اختار بغداد لتكون مركزاً لواليه(٣) عليها، ولكنه في مقابل ذلك دمّر أضرحة ومقابر الخلفاء العباسيين تدميراً تاماً.

هكذا انتهت سيادة الخلفاء التي امتدت على مدى خمسة قرون، وبذلك اندثرت قيمة بغداد، وتراجعت إلى مستوى مدينة آفاقية، وبقيت على هذه الحال حتى العصر الحديث.

....

(١) قارن موللر في المرجع المذكور الجزء الأول، ص ٦٣٩

(٢) قارن فايل في المرجع المذكور الجزء الثاني، ص ٤٧٢ وما يليها.

(٣) قارن فايل في المرجع المذكور الجزء الثالث، ص ٤٧٨.

لا شك أن الأحداث الكثيرة في بغداد، والمتمثلة في محاصرة المدينة مرات عديدة، واضطرابات الجنود، وصراعات المعتقدات المختلفة وحتى المذاهب المختلفة داخل الفرع السني من الديانة الإسلامية - وهما الحنفي والحنبلي - كل هذا كان من شأنه أن يتسبب في خلوّ أجزاء كبيرة من المدينة من السكان وتداعيها تداعياً تاماً قبل نزول الكارثة بقدوم المغول(١)، ورغم ذلك فإن الرحالة ابن بطوطة(٢) الذي قدم إلى بغداد بعد سبعين سنة تقريباً، أي في سنة ١٣٢٧م، قد وجد مدينة كبيرة كثيرة السكان، ولاحظ بوضوح أن الجزء الغربي من المدينة كان متداعياً تماماً رغم وجود ثلاثة عشر حيّاً مستقلاً يربطها جسران بالجزء الشرقي من المدينة. وقد ترك هولاكو عند انسحابه من بغداد والياً، وواصل حملات الغزو في اتجاه الغرب.

وكان قد توغل في سوريا لما بلغه نبأ وفاة الخان الأكبر مانجو، فارتد لتوّه على أعقابه، لأنه كان يطمح في تولي الحكم من بعده، ولكنه ما إن بلغ تبريز في شمال بلاد فارس حتى بلغه أن أحد أقاربه الذي يدعى قوبلاي قد عين لمنصب الخان الأكبر، وأنه قد عينه والياً على الجزء الغربي من منغوليا ومنحه لقب خان - يعني أمير القبيلة - الذي سيحمله جميع خَلَفه من بعده.

وقد أعلن أحد هؤلاء الخانات، ويدعى غازان - ١٢٩٥ - ١٣٠٤م- استقلاله اسمياً عن الخان الأكبر، ودخل هو وجيوشه كافة في دين الإسلام وأطلق على نفسه اسم محمود(٣) وأوجد بذلك توازناً بين المنتصر والمهزوم.

بغداد مقر الإقامة الشتوي للأمراء المغول

كانت بغداد في هذه الأثناء قد أصبحت مقر الإقامة الشتوي للخان الذي ينتقل في فصل الصيف إلى مناطق تتمتع بطقس أكثر لطفاً في شمال بلاد فارس مثل تبريز، أو مراغة، أو سلطانية(٤) في فترة لاحقة . ولم تتلاش قوة هذه السلالة إلا في نهاية القرن الرابع عشر، ومثلما تداعى آخر الخلفاء أمام هجوم المغول، كذلك قضت على الخانات موجة عارمة ثانية قادمة من الشرق تتمثل في هجوم شعب التتار .

منذ النصف الثاني من القرن الرابع عشر، تولى تيمور لنك، الذي ينحدر من أصل تركي الحكم على بلاد ما وراء النهر، وأخذ في توسيع حملاته في اتجاه الغرب، وكان قد سبق له أن

(١) قارن فون كريمر في المرجع المذكور الجزء الثاني، ص ٩٤ وما يليها.
(٢) دوفريموري وسانجيناتي الجزء الثاني، ص ١٠٠ وما يليها.
(٣) قارن موللر في المرجع المذكور الجزء الثاني، ص ٢٥٢
(٤) قارن موللر في المرجع المذكور الجزء الثاني، ص ٢٤١.

استولى على بلاد فارس والجزء الشرقي من آسيا الصغرى وسوريا عندما وجه حملاته إلى بلاد مابين النهرين، وفي سنة ١٤٠١م كانت جيوشه الجبارة قد وصلت إلى مشارف بغداد التي ظل أحمد بن عويص القائد العسكري للخان الأخير يدافع عنها دفاعاً مستميتاً، واستطاع تيمور لنك أن يستولي على المدينة أثناء هجوم شنّه في ساعات الظهيرة بينما كانت حامية المدينة في فترة استراحة، وراح كعادته يعيث فيها فساداً، فقتّل عشرات الآلاف من السكان، حتى قيل إنه بنى أهراماً من جماجم تسعين ألف ضحية، وهوت المدينة على عروشها، ولم تنج من التخريب إلا المساجد والمدارس والمستشفيات، ويبدو أن همجية التتار المنقطعة النظير(١) هي التي كانت السبب في الاندثار النهائي لروعة وعظمة هذه المدينة القديمة.

وقد نجا أحمد بن عويص من بطش تيمور لنك واختفى من على وجه الأرض، وعندما توفي تيمور لنك فجأة سنة ١٤٠٥م تداعت المملكة العظيمة وكان يعوزه الوقت أو الموهبة لتنظيمها، وإرساء دعائمها بشكل محكم.

قرهْ قويونلو و آق قويونلو ، جيهان شاه

من بين أبناء تيمور لنك كان شاه روخ الوحيد الذي استطاع أن يجمع بلاد ما بين النهرين، وأرمينيا، وشمال بلاد فارس في مملكة موحدة بعد صراعات استغرقت سنين طويلة ضد سلاطين قبائل قره قويو نلو التركية، التي هاجرت من بلاد ما وراء النهر - ترانزوكسانيا - في النصف الأول من القرن الخامس عشر، واتجهت إلى الغرب، وأسّست ثلاث دويلات مستقلة في كلٍّ من بلاد ما بين النهرين، وأرمينيا، و شمال بلاد فارس، واستقرت في هذه البلدان(٢)، ثم خلفه على العرش ابنه أولوغ بيك، غير أنه ما لبث أن توفي سنة ١٤٤٩م ، وقد استعان جيهان شاه الذي ولاّه شاه روخ على شمال بلاد فارس - أذربيجان - بقبائل قرهْ قويونلو واستطاع بعد وفاة أولوغ بيك أن يصبح ملكاً على كامل بلاد فارس وبلاد ما بين النهرين، كما أن أحد أبنائه أقام في بغداد وشغل منصب الوالي عليها(٣).

يبدو أن نفوذ جيهان شاه لم يكن على قدر كبير؛ ذلك أنه على الأقل لم يستطع منع قبائل قره قويونلو وقبائل آق قويونلو من شنّ الغزوات وغارات النهب والسلب على بلاد ما بين

(١) قارن فايل في المرجع المذكور الجزء الثالث، ص ٢١ و٩٢ وقارن موللر في المرجع المذكور الجزء الثاني، ص ٢٨٦ .
(٢) قارن موللر في المرجع المذكور الجزء الثاني، ص ٣٢٠.
(٣) قارن موللر في المرجع المذكور الجزء الثاني، ص ٣٢٥.

النهرين، والتطاحن فيما بين بعضها بعضاً، وشيئاً فشيئاً مالت الكفة لفائدة قبائل آق قويونلو، واتخذت موقفاً معادياً من جيهان شاه الذي وجه جميع جهوده ضدها بعدما قضى على ثورة قام بها ابنه في بغداد سنة ١٤٦٤م، إلا أن قبائل آق قويونلو كانت في هذه الأثناء قد وجدت في شخص أوزون حسن قائداً جيداً، عرف كيف يجمع شمل هذه القبائل كافة، ويكوّن لنفسه مملكة في كردستان و أرمينيا، ويتخذ ديار بكر عاصمة ومقر إقامة له .

وقع الاصطدام بين جيهان شاه وأوزون حسن سنة ١٤٦٧م، وانتصر هذا الأخير، واستولى في السنة التالية على كامل بلاد ما بين النهرين، إلا أنّ خصماً جديداً ظهر له استطاع في مدة وجيزة بسط نفوذه على كامل آسيا الدنيا، إذ كانت قبيلة تركية صغيرة قد تنقلت في خضم أحداث العهد السلجوقي حتى بلغت الطرف الغربي من آسيا الصغرى.

العثمانيون

كان علاء الدين الثالث سلطان السلاجقة، الذي كان المغول يضايقونه مضايقة شديدة، قد كلف أحد رؤساء هذه القبيلة التركية ويدعى إرطغرل بالإشراف على إدارة منطقة قراجهْ دار نحو سنة ١٣٠٠م، ويمكن اعتبار هذا الرجل المؤسس الحقيقي للإمبراطورية العثمانية، رغم أنها نسبت إلى ابنه الذي يدعى عثمان(١). وتواصل توسّع رقعة هذه المملكة خلال القرن الرابع عشر حتى شملت في نهاية القرن كامل منطقة آسيا الصغرى، وكانت قد بدأت تهدد القسطنطينية وأوروبا عندما اقتربت العاصفة التتارية بقيادة تيمور لنك الذي قضى قضاء مبرماً على خصمه الجبار في الواقعة التي حدثت بينهما، إلا أن موت تيمور لنك المفاجئ كان السبب في نجاة العثمانيين، وبعد ذلك عرف ورثة السلطان بايازيد المهزوم كيف يستفيدون من الأوضاع بكل حذق .

وما كادت تنقضي خمسون سنة على الهزيمة النكراء التي تعرض لها العثمانيون حتى استعادوا قوتهم، وأصبحوا يشكلون خطراً أكثر من ذي قبل، وبعد مدة طويلة من الاستعداد للحرب من الطرفين، نشبت المعركة سنة ١٤٧٣م قرب ترجان عند أعالي دجلة، وانهزمت فيها جحافل فرسان التركمان التابعة لأوزون حسن أمام كتائب المشاة من جنود اليانيت المنظمين تنظيماً محكماً، غير أن السلطان محمد لم يكن يرغب في متابعة انتصاره ولذلك فقد تخلى

(١) قارن فامبيري، الشعب التركي، ص ٥٩٥.

لأوزون حسن عن الجزء الشرقي من مملكته خاصة شمال بلاد فارس، و يبدو أن أوزون فشل في ترسيخ نفوذه في بلاد ما بين النهرين أيضاً، و لم يكتب له عمر طويل بعد الهزيمة إذ توفي سنة ١٤٧٨م(١)، وقد بذل ابنه يعقوب بيك - ١٤٧٩ - ١٤٩١م - جهوداً كبيرة للمحافظة قدر المستطاع على وحدة المملكة(٢)، لكن الصراع على الإرث نشب بين إخوانه وأبنائه بعد وفاته، وأدى إلى نزاعات مستمرة دائمة، وإلى تصدّع كامل للمملكة، وقد استطاع مراد أحد أبناء يعقوب بيك سنة ١٤٩٧م أن يستولي على الجزء الأكبر من البلاد، ورغم أنه أبعد عن الحكم بعد ذلك بسنتين إلا أنه عاد سنة ١٥٠١م ليعتلي العرش من جديد(٣). وبعد بداية متواضعة نشأت في شمال ما يسمى اليوم بلاد فارس وكردستان مملكة أصبحت في القرن السادس عشر الدولة الإسلامية العظمى الجديدة في الشرق.

إسماعيل الصفوي يصبح شاه الفرس

كان إسماعيل شيخ مذهب الدراويش الصفوي الشيعي، والذي يقال إنه من سلالة الإمام السابع موسى الكاظم، وهو حسيني من أردبيل، قد استعان بالجيوش التركية في نهاية القرن السادس عشر، واستولى على شمال بلاد فارس وجعل من تبريز مقراً لإقامته، واتخذ لنفسه لقب الشاه - ملك - وقد تمكن هو ومن خلفه في الحكم من سلالته من ضم المقاطعات المختلفة إلى بلاد فارس الحالية، وتوحيدها في مملكة متجانسة، وبذلك أعاد لهذه البلاد شخصيتها القومية بعد أن ظلت خاضعة للنفوذ الأجنبي على مدى تسعمائة سنة، وكان عمله السياسي الأساسي يتمثل في حسن استعمال عامل الدين، فقد كانت القبائل التركية في أذربيجان ومعظم الشعب الفارسي تدين بالمذهب الشيعي، وكان التركيز على الاختلاف المذهبي بين هؤلاء وبين الشعوب الإسلامية الأخرى من الذين ينتمون إلى المذهب السني قد مكّنه هو ومن جاء بعده من الحكام من الاستقلال بالمملكة الجديدة، والحفاظ عليها على مدى عقدين من الزمن، وقد عرفت هذه المملكة بانتسابها إلى الجد الأول للمؤسسين وهو إسحاق الصفوي . وقد أخضع الشاه إسماعيل أثناء العقد الأول من القرن السادس عشر مختلف الأمراء الصغار من قبائل آق قويونلو الواحد تلو الآخر، واتجه سنة ١٥٠٨م أخيراً إلى بغداد التي كان السلطان مراد المذكور آنفا قد أرسخ قدمه فيها.

(١) قارن تسينكآيزن، تاريخ الدولة العثمانية، الجزء الثاني، ص ٣٥٣ وما يليها.

(٢) قارن موللر في المرجع المذكور، الجزء الثاني، ص ٣٤٨.

(٣) قارن ستانلي لاين– بوله في المرجع المذكور، ص ٢٥٤ وفايل في المرجع المذكور، الجزء الخامس، ص ٤٠٣.

الشاه عباس الأكبر يضم بغداد إلى بلاد فاس

ليس لدينا أي تفاصيل فيما يتعلق بالاستيلاء على المدينة، غير أننا نعلم أن الشاه عباس ضمها إليه، وبذلك أصبح الجار المباشر للدولة العثمانية بعد القضاء التام على قبائل آق قويونلو، وقد كانت العلاقة بين الدولتين الجديدتين منذ البداية على أسوأ حال، فقد كان كلاهما بصدد التوسع، وكانت الحدود غير مستقرة، وزاد في حدة الخلاف السياسي التباين الديني، خاصة أن السلطان العثماني اعتبر نفسه من بداية سنة ١٥١٧م القائد الشرعي لجميع المسلمين بعدما انتزع من وريث الخليفة العباسي المتوكل الحق في الخلافة بطريقة شرعية[١] بعد سقوط مصر سنة ١٥١٥م، فأصبح بذلك قائد المذهب السني في العالم الإسلامي .

في هذه الظروف فضل الوالي التركي لمقاطعة بدليس الانضمام تحت لواء الفرس، في حين خضع الحاكم الفارسي على أذربيجان ووالي بغداد - ذو الفقار خان - للسلطان وسلما إليه مفاتيح مدينة بغداد، إلا أن الشاه طهماسب الذي خلف الشاه إسماعيل في الحكم سبق إلى الهجوم على المدينة، واستولى عليها وأعدم ذو الفقار، وبناء على ذلك توجه السلطان سليمان بعد حروبه مع ملك المجر إلى الشرق، وبدأ مسيرته إلى بغداد عبر بلاد ما بين النهرين في خريف عام ١٥٣٤م، وعند اقترابه غادرت الحامية الفارسية المدينة التي استسلمت دون أن يفارق سيف غمده[٢].

لم يبذل الفرس أثناء ذلك القرن أي جهود لاستعادة بغداد، رغم أن الأتراك كانوا دائماً يتخوفون من ذلك، وقد لفت انتباهَ الرحّالة الألماني راوفولف الذي زار بغداد سنة ١٥٧٤م والرحالة الإيطالي ديللا فاللي الذي كان هناك سنة ١٦١٦م[٣] الحذرُ الشديد وإجراءات الأمن التي لاحظوها على السلطات التركية تجاه العدد الكبير من المواطنين الفرس في بغداد .

و لم يستطع الشاه عباس الأكبر الذي أعاد تنظيم بلاد فارس أن يضم المدينة من جديد إلى البلاد الفارسية إلا في القرن التالي، غير أنه لم يستعمل في ذلك القوة، وإنما حققه نتيجة لتعقيدات كبيرة تتميز بها بلاد المشرق؛ فقد كان الوالي التركي الأمير بكر يرغب في الانفصال عن الدولة العثمانية في ذلك العهد من بداية التدهور، فطلب مساعدة الفرس لبلوغ غايته، إلا أنه تعرض إلى الخيانة من طرف ابنه الذي فتح أبواب المدينة للفرس في ليلة ٢٨ نوفمبر من سنة ١٦٢٣م[٤].

---

(١) قارن أيضاً الجزء الأول من هذا الكتاب، ص ١٣٦

(٢) قارن تسينكآيزن في المرجع المذكور، الجزء الثاني، ص ٧٤٩ وما يليها.

(٣) ليونارتي راوفولفن، التقرير الحقيقي عن الرحلة الخ، آوجسبورج ١٥٨٢، ص ٢٠٩ وما يليها، قارن بيتري ديللا فاللي الذي يدعى " الحاج " - تقرير عن رحلة في بلدان الشرق، جنيف ١٦٧٤ المجلد الخامس، ص ١٩٥ .

(٤) قارن تسنكآيزن في المرجع المذكور، الجزء الرابع، ص ٦٣.

كان تطرف للفرس الديني يتأجج بشكل فظيع ضد أتباع المذهب السني من السكان، وقد استولى الفرس على النجف وكربلاء المدينتين المقدستين لدى الشيعة إضافة إلى بغداد، وحتى كركوك سقطت في أيديهم واستولوا أيضا على مدينة الموصل لفترة وجيزة بحيث سيطروا سيطرة كاملة على نصف بلاد ما بين النهرين.

الجيوش العثمانية تحاصر بغداد

أثار نبأ سقوط بغداد اضطراباً بالغاً في القسطنطينية فقررت السلطة استعادتها فوراً، إلا أن الجيوش التركية لم تدخل بلاد ما بين النهرين إلا سنة ١٦٢٥م، وعلى عكس ما كان منتظراً، فقد دافع الفرس عن أنفسهم دفاعاً مستميتاً، فاستغرق الحصار طوال فصل الشتاء وفصل الربيع، ولما جاء الشاه عباس بنفسه في جيش عظيم في شهر مايو، اضطر الأتراك إلى فك الحصار والتراجع بسرعة إلى شمال البلاد، و لم يبلغ ديار بكر إلا عدد قليل من الأربعين ألف جندي تركي، وهناك شعروا براحة الاطمئنان من ملاحقة الفرس.

تواصلت الاشتباكات العسكرية مع الفرس طوال السنين التالية دون أن يتمكن الأتراك من القيام بمحاولة جديدة للاستيلاء على بغداد (١)، وبعد وفاة الشاه عباس الأكبر سنة ١٦٢٨م، اعتلى العرش حفيده الطاغية سام ميرزا، واتخذ لنفسه اسم الشاه سيفي، وقد غادر الوزير الأكبر التركي كسرى في منتصف سنة ١٦٢٩م سكوتاري قاصداً بغداد، إلا أنه اضطر إلى قضاء فصل الشتاء في الموصل حيث تعرضت جيوشه إلى معاناة كبيرة، وعوضاً عن التوجه مباشرة إلى بغداد، اخترق الجبال الكردية نحو شمال بلاد فارس، واستولى على بعض المدن ودمّر أخرى، منها المدينة الملكية القديمة همذان، و لم يعسكر أمام بغداد إلا في نهاية سبتمبر بعد انقضاء فترة الحر الشديد، وبعد قصف شديد للمدينة، شنّ هجوماً عاصفاً يوم ٩ نوفمبر، لكن الفرس الذين كانوا يدافعون دفاعاً مستميتاً استطاعوا دحر جحافل اليانيت رغم إصرارها الشديد، وكبدوها خسائر فادحة جعلتها ترفع الحصار في اليوم الخامس، وتأخذ طريق العودة. وبعد فترة وجيزة من مغادرة الجيوش التركية وصلت قوات فارسية تعد ثلاثين ألف رجل، تمكنت من إخراج الجيوش العثمانية من المناطق التي استولت عليها، واستطاعت حتى استعادة مدينة الحلّة الواقعة على نهر الفرات(٢).

---

(١) قارن مولر في المرجع المذكو، الجزء الثاني، ص ٣٧٦

(٢) قارن تسنكآيزن في المرجع المذكور، الجزء الرابع، ص ١٣٦ وما يليها.

انشغل السلطان مراد في السنوات الموالية بالاضطرابات الداخلية من ناحية، ومن ناحية أخرى بمحاربة الفرس في شمال البلاد، ولكنه ما إن تمكن من تأمين الحدود الشمالية نسبياً حتى قرر سنة ١٦٣٦م الاستيلاء من جديد على مدينة بغداد، وكان السلطان مراد قد اكتسب من تجارب الحملة الأخيرة كثيراً من الخبرة والحنكة ، فراح يتدبّر أمره، ويهيئ ترتيباته بدقّة وشمول تام .

السلطان مراد الرابع يستولي على بغداد

بلغ عدد القوات التي تم حشدها بين ١٥٠,٠٠٠ و ٥٠٠,٠٠٠ رجل[١]، وقد تم في هذه المرة توجيه عناية متميزة للمدافع والذخيرة المستعملة أثناء الحصار، وتوجّهت المسيرة التي انطلقت في الثامن من مايو ١٦٣٨م من الميدان التاريخي لحشد الجيوش التركية قرب مدينة سكوتاري عبر آسيا الصغرى، وبلاد ما بين النهرين، وديار بكر، والموصل وكركوك ، واستغرقت ستة أشهر ونصفاً، وسارت مباشرة إلى بغداد التي وصلت إليها يوم ١٥ نوفمبر، و لم يحاول شاه الفرس عرقلة مسيرة الجيوش التركية، بل اكتفى بتعزيز الحامية الفارسية بثلاثين ألف رجل فبلغ مجموعها ثمانين ألفاً، وكان معسكر الأتراك يقوم على أرض صلبة ثابتة، وكانوا قد تزودوا بكمية كافية من المؤونة، وبدأ الاستعداد لهجوم عاصف عن طريق قصف مستمر لمدة طويلة من الزمن، ويقال: إنه جيء بثلاثمائة ألف كيس من الطين، وآلاف من جذوع النخل لردم الخنادق المحيطة بالمدينة. وفي يوم ٢٤ ديسمبر شن الأتراك أخيراً هجومهم، غير أن الفرس استطاعوا التصدي له وردّه، وكان الوزير الأكبر التركي محمد باشا من بين الضحايا التي سقطت في تلك المعركة، وفي اليوم التالي حاول الأتراك شن هجوم جديد أسفر عن استسلام المدينة، أو على الأقل عن إعلان القائد الفارسي بكطاش خان عن موافقته على الاستسلام، وقد ترك الأتراك للحامية الفارسية حرية الانسحاب، إلا أنه من المحتمل جداً أن يكون القائد الفارسي بكطاش خان قد تصرف في ذلك تصرفاً فردياً دون إعلام ضباطه باتفاقه مع الأتراك ؛ ذلك أن الأتراك تعرضوا إلى مهاجمة من طرف الوحدات الفارسية لما دخلوا المدينة في اليوم التالي ما لبث أن تطورت إلى اشتباكات عنيفة انتصر فيها السلطان وأبيد فيها الجنود الفرس عن بكرة أبيهم ، وسارع السلطان مراد بعد استيلائه على المدينة بالرجوع إلى بلده بعد أن ترك خلفه حامية تعد ثمانية آلاف رجل، ويبدو أن خسائر الأتراك أثناء الحصار

(١) قارن تسينكآيزن في المرجع المذكور الجزء الرابع ١٠٧ وما يليها.

كانت فادحة، فقد بلغت مائة ألف رجل من جنود ينتمون إلى أفضل الوحدات، وقبل مغادرة المدينة أمر السلطان بسدّ البوابة التي دخل منها منتصراً حتى لا تدنّسها أي قدم بعده، وحتى لا يجتازها أحد بعده للاستيلاء على المدينة.

بغداد تحت نفوذ الحكام الأتراك

ويبدو أن المدينة لقيت معاناة شديدة من جراء الحصار والاحتلال، ويذكر الرحالة الفرنسي تافيرنيي الذي زار بغداد سنة ١٦٥٢م أنه لم يجد فيها غير خمس عشرة ساكناً(١)، أما نيبور(٢) فيقدم قائمة الباشوات الذين حكموا بغداد منذ غزو السلطان مراد حتى سنة ١٧٦٤م، وهي السنة التي زار فيها هو نفسه هذه المدينة، ويبلغ عدد هؤلاء ٤٨ حاكماً، و كان عددهم قد بلغ ٣٦ والياً في سنة ١٧٠٢م - ١١١٤ هـ، وكانوا غالباً يحكمون المدينة لمدة سنة أو سنتين، ولا تزيد فترة ولايتهم أبداً على أربع سنوات، ومن بين الجديرين بالذكر منهم مرتضى باشا الذي حكم مدة ثلاث سنوات من ١٠٦٥ هجرية، وإليه يرجع الفضل كما ذكرنا في مد شبكة من القنوات عبر البلاد، وهو أيضاً الذي أعاد بناء قناة الإسحاقي(٣).

ولا شك أن الولاة كانوا يهتمون بمصالحهم الشخصية أكثر من اهتمامهم بمصلحة المدينة، إذ يقول نيبور- الذي كانت ذكريات ذلك العهد لا تزال حيّة في زمنه- : إن التجارة في بغداد كانت قليلة في تلك الفترة، في حين كان عدم الاستقرار كبيراً جداً بسبب القبائل البدوية التي تعيش في المناطق المجاورة .

حسن باشا و أحمد باشا، نادر شاه يحاصر بغداد

لم يبدأ لبغداد عهد جديد إلا بقدوم حسن باشا الذي تولى الحكم عليها للمرة الثانية سنة ١٧٠٢م ، وقد حكم حسن باشا مقاطعته مدة ٢٢ عاماً، وانتصر في الحروب التي خاضها ضد الفرس والتي كانت بداية انهيار الدولة الصفوية، فعمد السلطان إلى توسيع نطاق نفوذه بإضافة منطقة ماردين إلى المقاطعة التي يحكمها حتى تتاح له فرصة محاربة الشيعة بنجاح أكبر، وقد أفلح حسن باشا في الحصول على منطقة البصرة لابنه أحمد، الذي عُيّن هو الآخر باشا على بغداد بعد وفاة والده .

(١) قارن تافيرنيي — وصف رحلة إلى تركيا، الطبعة الألمانية جنيف ١٦٨١ الجزء الأول ص ٩٩ .
(٢) رحلة في البلاد العربية أمستردام ١٧٧٩ الجزء الثاني ص ٢٥٢ وما يليها.
(٣) قارن ما سبق في الفصل ٦، ص ٢٢٩ .

أثناء فترة حكمه الأولى التي استغرقت إحدى عشرة سنة قمرية ضرب ملك الفرس نادر شاه الحصار دون جدوى على بغداد سنة ١٧٣٢م، وكان نادر شاه قد توّج نفسه ملكاً على بلاد فارس وقائداً أعلى لقواتها المسلحة سنة ١٧٢٩ م، بعد طرد حشود الأفغان التي عاثت فساداً في البلاد على مدى ثمانية أعوام، وراح بعد ذلك يسعى إلى توسيع المملكة الفارسية إلى الرقعة التي كانت عليها سابقاً، وقد استطاع أن يتوجّه دون قلق إلى الحرب ضد الأتراك خاصة بعدما عقد اتفاقية سلم مع الروس، وافق فيها هؤلاء على التنازل عن المناطق التي استولوا عليها عند بحر قزوين.

وفي خريف سنة ١٧٣٢م جاء نادر شاه في جيش عظيم إلى بغداد، غير أن أحمد باشا دافع عنها بقوّة ودهاء، بحيث اضطر نادر شاه إلى محاصرتها دون جدوى على مدى ثمانية أشهر حتى صيف السنة التالية.

معركة سامراء، عمر باشا، سليمان باشا

عندما قدم جيش تركي كبير بقيادة الأوروبي المرتدّ طوبال عثمان سنة ١٧٣٣م، توجّه نادر شاه إلى لقائه تاركاً خلفه حامية صغيرة للمراقبة عند مدينة بغداد، وفي يوم ١٧ يوليو التقى الجمعان عند سامراء، فخسر نادر شاه المعركة وفقد الجزء الأكبر من جيشه، فتراجع بسرعة حتى بلغ منطقة همذان، وجمع جيشاً جديداً أكبر من الأول، ووصل بعد مدة لا تزيد على ثلاثة أشهر من ذلك أمام بغداد، وانهزم طوبال عثمان هذه المرة ولقي حتفه، وكانت بغداد مهددة بالسقوط لو لم تندلع ثورة في مقاطعة فرس، اضطر نادر شاه بسببها إلى أخذ طريق العودة على جناح السرعة(١).

بدا للباب العالي بعد هذه الأحداث أن نفوذ أحمد باشا أصبح يمثل خطراً كبيراً، وداخلت السلطان شكوك في أنه قد يعلن استقلاله بالحكم على المقاطعات الخاضعة له، ولذلك فإنه استبدل به باشا آخر أرسله من القسطنطينية، وخضع أحمد باشا لأوامر السلطان، إلا أن الحاكمين اللذين توليا بعده النفوذ على هذه المقاطعات لم يكونا قادرين على إدارتها التي كانت تكلف الخزينة نفقات باهظة عوضاً عن جلب المكاسب إليها، وقد تسبب ذلك في عودة أحمد باشا من جديد حاكماً على بغداد بعد إقالته بمدة لا تتجاوز سنتين، وبقي أحمد باشا في هذا

---

(١) قارن مالكوم – تاريخ بلاد فارس، الجزء الثاني، ص ٥٤ وما يليها.

المنصب مدة اثنتي عشرة سنة، وعادت الأمور بعد وفاته إلى ما كانت عليه إثر إقالته الأولى، فقد تولى الحكم أربعة باشوات خلال مدة سنتين وحاولوا دون جدوى السيطرة على الشعب الذي كان قد تعوّد إدارة عائلة حسن باشا، ولهذا السبب تم تعيين سلطان باشا في هذا المنصب بناءعلى توصية من الديوان في بغداد، وهو صهر أحمد باشا وزوج ابنته الكبرى الطموح عادلة خاتون، واستغرقت مدة ولايته ثلاث عشرة سنة، عيّن بعدها عمر زوج البنت الثانية لأحمد باشا حاكماً على بغداد بعدما تولى علي باشا العجمي الحكم مدة سنتين، وقد وجد نيبور أثناء زياراته لبغداد عمر باشا حاكماً عليها(١).

انتهت مع عمر باشا سلسلة الحكام الذين خلفوا حسن باشا في السلطة من أفراد عائلته، وقد نجح أعداء عمر باشا في إقالته من الحكم، ولما كان في طريقه إلى أورفه التي كان سيتولى الحكم عليها قتل، وقطع رأسه وأرسل إلى القسطنطينية.

هذه هي الفترة التي بدأت فيها بغداد تنهض من أنقاضها وتكتسب من جديد بعض الأهمية، فقد تمت السيطرة على البدو والأكراد في هذه المقاطعة الكبيرة، وبلغ الأمن في الطرقات درجة لم يسبق لها مثيل، وجعلت التجارة من الهند بغداد مخزناً لبضائعها، وسادت في المدينة وضواحيها أوضاع نظامية، ولم يستطع حتى الوباء الذي انتشر سنة ١٧٧٣م أن يوقف النمو السريع لعدد السكان، وازدادت رفاهية بغداد وازدهارها تحت ولاية سليمان باشا الذي حكم من سنة ١٧٧٧م حسب قول ريتر- و١٧٨٠م حسب أوليفيي - إلى سنة ١٨٠٢م. وكان سليمان باشا قد تولى منصب نائب حاكم على البصرة أثناء ولاية عمر باشا صهر أحمد باشا،ودافع على هذه المدينة دفاع الأبطال ضد الفرس الذين هاجموها بقيادة كريم خان، ويذكر أوليفيي(٢) أن عدد سكان المدينة ازداد في عهد سليمان باشا وحده بما يتراوح بين ثلاثين وأربعين ألف نسمة.

الوهابيون، سعيد باشا

لقد تسبب ظهور الحركة الوهابية المتزمتة في العقد الأول من هذا القرن في بعض القلق لمدينة بغداد، ولا شك أن الخطر المباشر لم يهدد المدينة في أي فترة من الزمن، إلا أن الوهابيين استطاعوا عدة مرات الاقتراب من المدينة إلى مسافة لا تزيد على مسيرة

---

(١) رحلة في البلاد العربية، نيبور، الجزء الثاني، ص ٢٦٢.
(٢) رحلة في البلاد العربية، نيبور، الجزء الرابع، ص ٣٢٤.

بضعة أيام(١)، وقد أرسل سليمان باشا منذ سنة ١٧٩٩م بالاتفاق مع قبائل المنتفك " المنتفق " حملة كبيرة ضد الوهابيين، ولكن سعيه للاستيلاء على المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية - الأحساء - باء بالفشل(٢)، وفي سنة ١٨٠٤م أراد علي باشا غزوهم في عقر دارهم بجيش عظيم ولكنه توقف عند الحلّة لخوفه من المسيرة الخطرة عبر الصحراء .

وفي سنة ١٨٠١م هجم الوهابيون على كربلاء المدينة المقدسة لدى الشيعة، ونهبوها شر نُهْبة(٣)، وعندما أراد شاه الفرس إثر ذلك شن حملة انتقام ضد المعتدين، لم تسمح له تركيا بعبور بغداد، فاكتفى الشاه عقب ذلك باغتيال عبد العزيز أمير الوهابيين عن طريق مؤامرة دنيئة حبكها ضده، وفي سنة ١٨٠٧م تجرأ الوهابيون على الهجوم على النجف، وعادوا في سنة ١٨١٠م إلى محاولة الاستيلاء على كربلاء ولكن المحاولتين باءتا بالفشل(٤).

وفي سنة ١٨١٠م توغلت لآخر مرة إحدى الكتائب الوهابية داخل العراق واقتربت من بغداد إلى مسافة مسيرة يومين(٥)، غير أن هذا الخطر الذي حدق بالمدينة ما لبث أن انقضى هذه المرة أيضاً؛ ذلك أن هجوم المصريين على غرب الجزيرة العربية منع الوهابيين من القيام بأي عملية هجومية في الشرق، ولما سقطت عاصمتهم سنة ١٨١٩م زالت مصادر أي قلق آخر زوالاً نهائياً .

بعد وفاة سليمان باشا سنة ١٨٠٢م تولى الحكم بعده علي باشا، أحد كبار موظفيه في بداية الأمر ثم تولى سعيد باشا ابن سليمان باشا، وقد كان يتمتع باحترام كبير لأنه ولد في بغداد نفسها وكان مسلماً من أصل حرّ(٦)، في حين أن معظم الحكام الآخرين كانوا أبناء لمستعبدين، و كان الديوان قد اقترح سعيداً لتولي الحكم فوافق السلطان، وأثبت سعيد باشا أيّما إثبات جدارته بهذه الثقة؛ ذلك أنه خفض الضرائب الجمركية بدرجة كبيرة، وفعل كل ما في وسعه لإنعاش التجارة في بغداد(٧).

---

(١) قارن كورانسي – تاريخ الوهابيين منذ أصولهم حتى النهاية، ١٨٠٩م ص ٦١ وما يليها.
(٢) قارن مانجان – تاريخ مصر، الجزء الثاني، ص ٥١٨، بوركهارد – ملاحظات الخ ...، ص ٤٥٠ وما يليها.
(٣) قارن مانجان في المرجع المذكور، الجزء الثاني، ص ٥٢٢ وما يليها.
(٤) قارن مانجان في المرجع المذكور، الجزء الثاني، ص ٥٣٨.
(٥) قارن مانجان في المرجع المذكور، الجزء الثاني، ص ٥٣٤.
(٦) قارن باكينجهام – رحلات في بلاد ما بين النهرين الجزء الثاني، ص ١٩٧.
(٧) قارن فلشتيت – رحلات إلى مدينة الخلفاء، الجزء الأول، ص ٢٤٩.

داود باشا، الطاعون والفيضانات

وقد خلفه في الحكم داود باشا من ١٨١٧م إلى ١٨٣٢م، وكان هو الآخر قبل ذلك عبداً مسيحياً من جورجيا، وكانت مدة ولايته من أهم فترات الحكم التي عرفتها بغداد، وذلك لعدد من الأسباب، فقد كان داود باشا رجلاً عنيفاً يتميز بطاقة كبيرة، وكان في الوقت نفسه يتمتع بموهبة نادرة وتفتّح عجيب، فعمل على الاستفادة من تقدم الحضارة الأوروبية لخدمة دائرة نفوذه، وكان المقيم الإنجليزي العقيد تايلر صديقه ومستشاره، وقد استخدم ضباطاً أوروبيين في تدريب جيوشه التي تزايد عددها تزايداً كبيراً، واستطاع بفضلها أن يفرض سيطرته على البدو والأكراد.

وكان إقليم بغداد في عهده أكبر من الرقعة التي تحمل اليوم أسماء ولاية بغداد، والبصرة، والموصل، والمنطقة الإدارية دير الزور، منطقة نفوذ المتصرف كلّها مجتمعة، وكانت تحده الصحراء العربية، وإقليم ديار بكر، وسلاسل الجبال التركية الفارسية، ولسان البحر الفارسي، وقد ساد النظام والانضباط في هذه المناطق الشاسعة وعمّت الرفاهية كل مكان، واتسعت رقعة مدينة بغداد إلى درجة أن شهود عيانٍ قدروا عدد سكانها بمائة وخمسين ألف نسمة، إلا أن طموح داوود باشا تجاوز ذلك كله، فقد شجعه مثال محمد علي الذي حالفه الحظ في مصر، فسعى علانية إلى الاستقلال بمنطقة نفوذه كإمارة قائمة بذاتها، وأمر بصكّ العملة، ورفض خلال الحرب الروسية التركية وضع جيوشه تحت تصرف الأتراك وإرسال مبالغ مالية إضافية إلى الباب العالي، ومن يدري إذا كانت خططه الطموحة ستكلل بالنجاح لو لم تنزل بمقاطعته وخاصة ببغداد كارثة من أعظم الكوارث التي عرفها الشرق؟

ففي سنة ١٨٣١م أصيبت بغداد بوباء الطاعون الذي يبدو أنه ذهب في مدة وجيزة من الزمن بخمسين ألف ضحية، وقد قضى الوباء على معظم جنود الباشا، وتداعت بذلك جميع أنظمته، وفي الوقت نفسه فاض نهر دجلة حتى طغى على ضفتيه، وكان الفيضان هائلاً حتى إنه حطم جدران المدينة في كثير من مواضعها، وإذا صدقت المعلومات التي أدلى بها الرحالة فإن الفيضان هدم ثلثي المنازل في بغداد. ويقال: إنه لم يبق إلا عشرون ألف نسمة من مجموع السكان الذي كان قد بلغ مائة وخمسين ألفاً قبل الكارثة(١).

(١) قارن فلشتيت في المرجع المذكور، الجزء الأول، ص ٢٩٥



عملة نحاسية صكها سعيد باشا – بغداد ١٢٣١ هـ – ١٨١٦م

نهاية داود باشا، علي باشا والبدو

وعندما هدأت سَوْرة الطاعون تحرك علي باشا من حلب - وكان قد عين منذ مدة لخلافة داوود باشا- في جيش عظيم لمحاربة هذا الأخير، وقد اضطر داود باشا الذي كان جبروته قد جلب إليه الكراهية رغم الإصلاحات التي قام بها، و لم يبق له من الأنصار إلا القليل - إلى تسليم المدينة بعد فترة وجيزة من الحصار بعد أن دافع عنها أتباعه القلائل دفاع الأبطال، وقد تمكن من النجاة بحياته مقابل التضحية بكنوزه، وعفا عنه السلطان محمود مخالفاً بذلك العادة القديمة التي تقضي بإعدام الباشوات المتمردين فوراً، وهكذا استطاع داوود باشا أن يقضي بقية حياته على البسفور في أمن وسلام .

لقد كان أثر الفيضانات أشد فظاعة على بغداد من حملات الغزو السابقة، ولا شك أن أجزاء كبيرة من مدينة الخلفاء القديمة كانت قد اندثرت من قبل، إلا أنه لم يبق من المعالم الكبيرة التي شيدت في عهد حسن باشا وخلفائه في الحكم إلا الشيء القليل .

و لم يتحسن وضع المدينة في عهد علي باشا إلا تحسناً بطيئاً؛ ذلك أن الضرائب الثقيلة والرسوم الجمركية شلت الحركة التجارية، واستغل الموظفون ذوو الدرجات الدنيا الفلاحين استغلالاً شنيعاً، وإضافة إلى ذلك عادت الخلافات مع البدو بعد أن سبق القضاء عليها[١].

(١) قارن فيما سبق الفصل ٢، ص ٧١ وما يليها، ثم جروفس في – يوميات إقامة في بغداد في السنوات بين ١٨٣١م و١٨٣٢م .

كان علي باشا قد تحالف مع الشيخ صفوق شيخ الشمر لمحاربة داود باشا، وقد توجّه علي باشا إلى قبائل آل عنيزة للتخلص من الشمر ولاقى عناءً كبيراً في التخلص منهم أيضاً، وفي الوقت نفسه أعلنت قبيلة عقيل تمردها، وكانت قد استقرت في غرب المدينة في عهد سليمان باشا، واحتكرت لنفسها حق نقل القوافل إلى سوريا، فاستعان الباشا عليهم بقبيلة زبيد، وقد تسبب الطاعون، والفيضانات وتمرد البدو، وسوء تصرف الحكام في مجاعة كبيرة اجتاحت البلاد، ويذكر ساوثجيت(١) أن عدد السكان تراجع من جديد في سنة ١٨٣٧م إلى أربعين ألف نسمة، غير أن الإصلاحات الذكية التي نفذها الباب العالي، وإلغاء الضرائب الثقيلة، وحركة النقل البحري التي نشأت بسرعة إثر ذلك على الجزء الأسفل من نهر دجلة كان من شأنها أن ساعدت على التغلب بسرعة عجيبة على العواقب الوخيمة لما سبق ذكره، واليوم تضم بغداد كما رأينا عدداً من السكان يبلغ مائتي ألف نسمة، وتعتبر من أغنى عواصم الأقاليم في الدولة العثمانية.

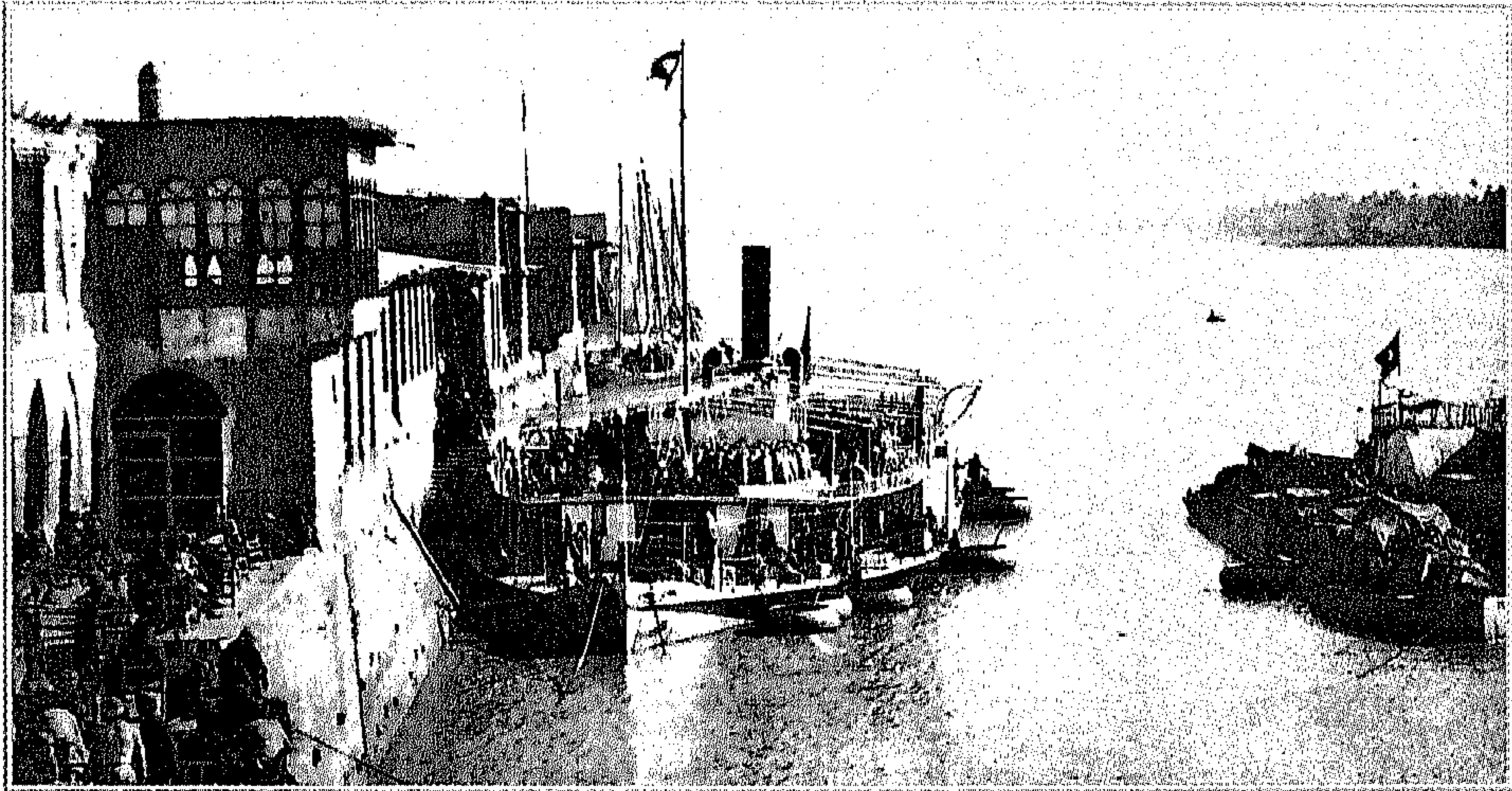
مدحت باشا وإصلاحاته

وقد كانت فترة ولاية مدحت باشا الذي كان حاكماً عامّاً في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات من أهم الفترات بالنسبة لتطور بغداد في العصر الحديث، وإلى هذه الفترة بالذات يعود خط التلغراف من بغداد إلى الفرات عبر الصقلوية إلى الرمادي جنوب هيت، هذا الخط الذي أنشئ خصّيصاً لمراقبة تحركات قبائل عنيزة، أما وقد سبق أن ذكرنا الطريق التي أنشأها لاستعمال الخيول إلى كاظمين، فإنّ مدحت باشا أسّس إضافة إلى ذلك عدة مدارس من بينها مدرسة مهنية، ولكنها أغلقت أبوابها منذ فترة، وحاول أيضاً تخليص المستنقعات الكبيرة شمال غربي بغداد من المياه، وكانت هذه المستنقعات قد نشأت بسبب إهمال قناة الصقلوية، وبدأ في ذلك بمدّ قناة للمجاري والصرف الصحي، إلا أن الأعمال لم تكتمل، وفاضت القناة في وقت لاحق على ضفافها، وغمرت جميع المناطق المحيطة بها.

ومن بين أفكار مدحت باشا غير الموفّقة أمره بهدم حائط مدينة بغداد الذي يرجع عهد بنائه إلى أزمنة غابرة، ثم قام الأتراك بترميمه، ولا شك أنه عانى معاناة كبيرة من كثرة ما ضرب عليه من الحصار، وكذلك من الفيضانات الدائمة ، غير أنه كان قادراً على الصمود أمام أي هجوم يشنّه عدو غير أوروبي، لكن مدحت باشا كان يرى غير ذلك كان يعتقد أن الجدار يعرقل حركة

(١) رحلات في أرمينيا وكردستان الخ ...، الجزء الثاني، ص ١٧٨.

الهواء داخل المدينة، وأنه ينبغي عليه أن يجعل من بغداد مدينة مفتوحة على غرار المدن الكبرى في بلاد الغرب وخاصة مدينة فيينا التي زارها مرات عديدة، وتم هدم الجدران، ولم يبق في مكانها اليوم إلا نتوء منخفض مع بقايا من السور القديم، وقد استعملت حجارة الجدار في إنشاء بنايات جديدة في المدينة، وإلى جانب الإصلاحات الداخلية أخذ مدحت باشا على عاتقه مهمة الاستيلاء على مناطق أخرى تسكنها قبائل عربية مستقلة، وضمها إلى مناطق النفوذ التركي، وقد عرف كيف يستعمل في ذلك الخلافات القائمة بين أميرين عربيين من العائلة الملكية الوهابية ليضم سنة ١٨٧٠م منطقة الأحساء - الهفوف - المطلة على الخليج الفارسي، والتي أدمجت في ولاية بغداد تحت اسم سنجق نجد. وفي سنة ١٨٧٨م تم فصل الموصل عن بغداد فأصبحت ولاية جديدة، وتكرر ذلك بفصل ولاية البصرة سنة ١٨٨٤م[١]، ورغم أن بغداد لم تتعرض منذ عهد نادر شاه إلى أي خطر كبير من قِبَل أعداء خارجيين، فإن الفرس لم يتخلوا عن مطالبتهم بالمدينة وبالأماكن المقدسة لدى المذهب الشيعي وهي كربلاء، مشهد حسين، النجف، ومشهد علي. وفي كل مرة يتورط الأتراك في حرب يعود الفرس إلى الإعلان عن سعيهم في استعادة بغداد، مثلما حدث سنة ١٨٢٧م أثناء حرب الكريم[٢]، وأثناء الحرب التركية الروسية الأخيرة.



مركب إنجليزي على نهر دجلة

(١) قارن كويناي في - تركيا الأسيوية، الجزء الثالث، ص ٢١٥
(٢) قارن بيترمان في المرجع المذكور، الجزء الثاني، ص ٢٨٣

الفصل الثامن
من بغداد إلى البصرة

مغادرة بغداد- على متن باخرة الخليفة على نهر دجلة- طاقي كسرى- المدائن من تاريخ المدائن- عزيزية، وكوت- عمارة - الصبّه، شطرة، العزير، ضريح عزرا قرنة، التقاء دجلة والفرات- النزول في البصرة- الشوارع والمباني - السكان موسم جني التمور- التجارة والملاحة- البصرة مقر الحكومة- من تاريخ البصرة البصرة مركز طموحات علمية ودينية- عصر ازدهار البصرة- الأفراسياب البصرة في العصر الحديث- آخر تطورات المدينة .

مغادرة بغداد

في بغداد فارقت سكرتيري السيد نجيب سلوم والخادم اللطيف طنوس اللذين أخذا طريق العودة إلى موطنهما، وسلكا درب القوافل عبر فلوجة في اتجاه أعالي نهر الفرات، وقد كنت راضياً عنهما كل الرضى في كل شيء دون استثناء، أما الشيخ منصور فلم يصل إلى بغداد إلا في اليوم التالي لمغادرتي، وكان في صحبته أشبان* والخيول، وقد استغرقت رحلته من الموصل إلى بغداد عبر إربيل وكركوك ما يقارب أربعة أسابيع، مع أنه من السهل قطع هذه المسافة في عشرة أيام أو اثني عشر يوماً، ورغم ذلك فإن عنايته بالخيول كانت سيئة حتى إن الحصانين اللذين اتخذتهما للركوب انهارت قواهما عند الوصول، وقد تكفل السيد ريشارتس في وقت لاحق ببيع هذين الحصانين نيابة عني، في حين أنني تركت لنجيب وطنوس الحصانين اللذين كانا يركبانهما إضافة إلى المعدات اللازمة للركوب.

على متن الباخرة الخليفة على نهر دجلة

في ساعة متأخرة من مساء يوم الجمعة العاشر من شهر سبتمبر صعدت إلى متن الباخرة الإنجليزية " الخليفة "، وبعد عدة أيام انطلقت الباخرة ذات يوم في ساعة مبكرة، وظللت أنظر بشيء كثير من الحنين إلى المآذن الجميلة والقباب التي تزين سماء بغداد وهي تختفي شيئاً فشيئاً وراء غابات النخيل، التي ظلت مدة ساعة أخرى من الزمن تحفُّ ضفاف دجلة من الجانبين، وبعد ذلك بمدة وجيزة مررنا بالمخيمات العظيمة التي هرب إليها ثلث سكان بغداد بسبب الوباء

* [المترجم: أشبأ القرم: خلط بعضهم ببعضٍ، تأشّبَ وائتَشَبَ القومُ: اختلطوا. انظر مادة أَشَبَ، وقد يكون اللفظ " الشُبّان " وكتب تصحيفاً: أشبان].

الشنيع الذي حلّ بهم، وأَوَى آلاف من الناس إلى خيام ومبان مؤقتة مصنوعة من الخشب والحصائر والأغطية وغير ذلك، وكانوا محشورين في أماكن ضيقة جداً تجعل منها مهداً أكثرَ خصوبة وملاءمة لتفشي الكوليرا من المدينة ذاتها!

استغرقت رحلة الباخرة إلى البصرة أربعة أيام، وكانت رحلة مريحة جدّاً، فقد كانت غرفتي جيدة ووثيرة، أما الأكل فكان رديئاً رغم أنني لم أكن مدللاً بهذا الخصوص أثناء رحلتي الطويلة عبر الصحراء، وقد كانت الباخرة تسمح بمجال واسع للحركة، وكان العدد الكبير من أهل البلاد المسافرين يتيح فرصة لملاحظات غاية في الأهمية، وكان جل أجناس وديانات غرب آسيا ممثلة بين المسافرين، وقد صنعت كل عائلة من المسافرين من صناديقها وسلال مؤنها على هيئة المخادع، التي تفرش فيها المراتب عندما يرخي الليل سدوله .

كانت باخرة " الخليفة " قد وضعت مؤقتاً تحت إمرة رجل يدعى السيد هانزلو، وكان فريق الخدمات من الملاحين من مسيحيين كلدانيين على غرار ما عليه الحال على البواخر الإنجليزية والتركية الأخرى، وهم رجال ذوو بنية ضخمة يتسمون بالقوة والطيبة، وموطنهم الأصلي سلسلة الجبال الواقعة شمال الموصل، أما الملاحون المكلفون بقيادة وتوجيه الباخرة فكانوا من العرب المسلمين، وكان المحاسب يدعى السيد سووبودا، وهو من أصل كرواتي ولد في بغداد، وبقية الضباط من الإنجليز، وأما المسافرون فلم يكن منهم في القمرة غير امرأة تدعى السيدة بادوان مع ابنتيها اللطيفتين الجميلتين اللتين كانتا من أب أوروبي وأم مسيحية من أهل البلد على غرار السيد سووبودا، وكانت السيدات متوجهات إلى بعض ذويهنّ في البصرة في محاولة متأخرة للهرب من وباء الكوليرا .

بعدما مدّة وجيزة من اختفاء غابات النخيل أصبحت ضفاف دجلة سهلاً متجانساً، و لم تكن تحتوي إلا على بعض نباتات الطرفاء القصيرة الكثيفة التي تسمى الزور، والتي تتناثر هنا وهناك على جانبي النهر، وفي بعض الأحيان كانت تظهر مصبات لقنوات جافة في الغالب أو أخاديد للري، وكانت الضفاف في السابق موطناً لكثير من الوحوش، منها الأسود التي ليس لها لبدة، والتي شاهد ريتش بعضها سنة ١٨١٤م أثناء رحلته عبر هذه المنطقة، أما اليوم وقد تم القضاء على الغابات، فقد نفرت هذه الحيوانات بسبب الضجّة التي تحدثها البواخر العديدة المتنقلة على النهر، وقد أصبح وجود الأسد في بلاد بابل نادراً بصفة عامّة(١).

(١) يوجد حالياً في حديقة الحيوانات التابعة لمحمد باشا داغستاني – قارن فيما سبق، ص ٢٦٥– زوج من الأسود البابلية تم جلبه من المنطقة المجاورة لسماوة، وتشبه هذه الأسود إلى حد كبير الحيوانات المرسومة على اللوحات الأثرية الآشورية البابلية.



مسافرون على متن باخرة على دجلة



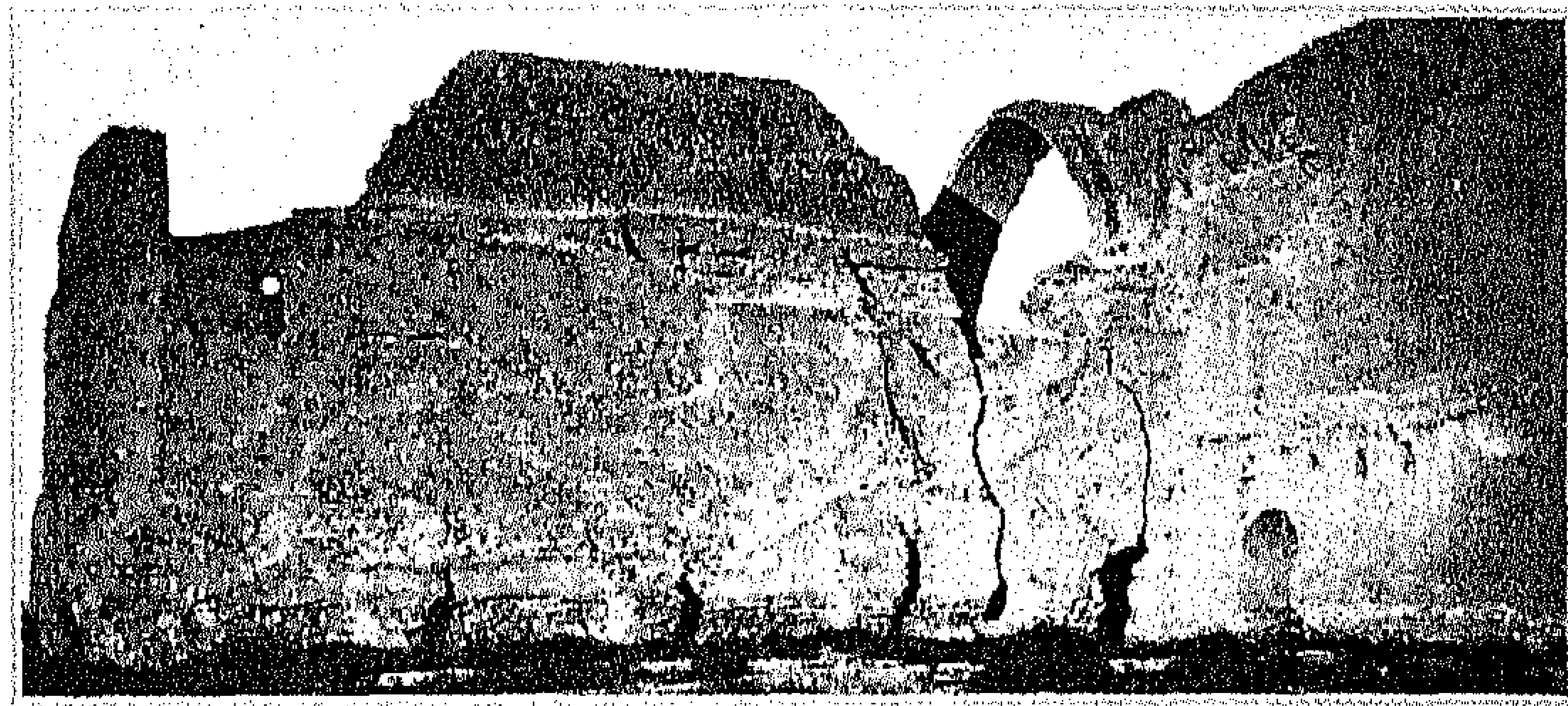
رجل يشغّل مقود باخرة على دجلة

آثار طاقي كسرى

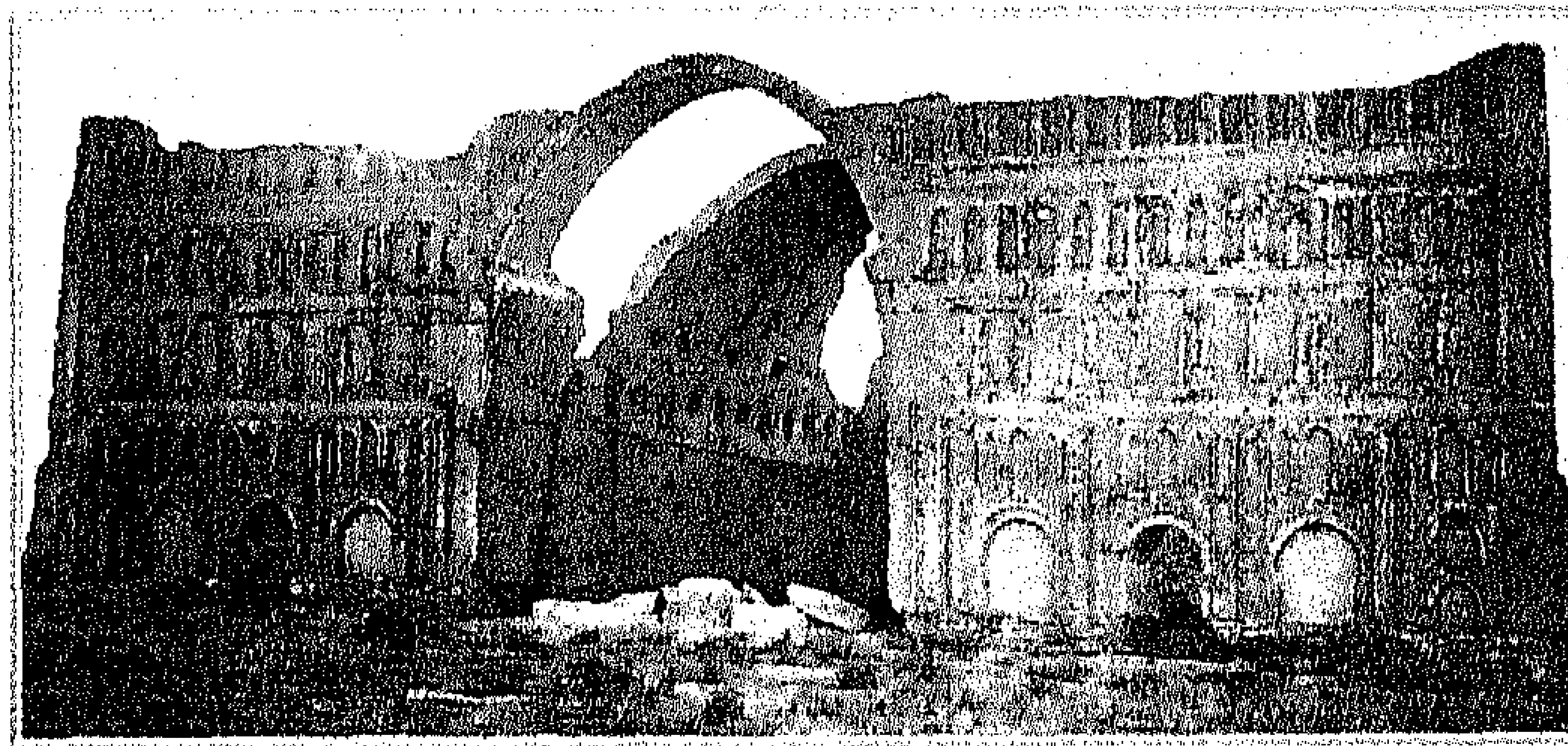
وبعد ساعات قليلة من السفر مررنا على شمالنا بمصب نهر ديالي، وبعد مدة وجيزة من ذلك ظهرت آثار طاقي كسرى العظيمة، وهي البقايا الوحيدة للمدينة الملكية الفارسية القديمة التي تدعى المدائن، ويرسم نهر دجلة في هذا الموضع منعطفاً كبيراً في اتجاه الجنوب يقع عند فتحته العليا طاقي كسرى، في حين تقوم بقايا مدينة سلوقيا على الضفة اليمنى للنهر.

ويبلغ طول المنعطف الذي يرسمه النهر مسافة ساعة من الزمن، وتطل واجهة المبنى على الجانب الشرقي، أما في الوسط فترتفع قبة البهو العظيم الذي يشكل الجزء الأساسي من المبنى ويدعى بالفارسية " طاق " ويعني قوساً ويبلغ ستّاً وسبعين قدماً عرضاً وخمساً وثمانين قدماً

ارتفاعاً ومئةً وثماني وأربعين قدماً عمقاً[1]، ويبلغ طول الواجهة كاملة مئتين وسبعين قدماً وارتفاعها ستّاً وثمانين قدماً، ويبلغ سمك جدران الواجهة ثماني عشرة قدماً وسمك جدران البهو ثلاثاً وعشرين قدماً، ويقارن أحد النبلاء الذي يدعى فون تيلمان[2] هذا المبنى العظيم بمبنى أوتو هاينريش في قصر هايدلبيرج، ويصفه بأنه أروع أثر مفرد في العالم، أما فيما عدا الجدران الأمامية والبهو فإنه لم يبق من المبنى الجبار الذي كان قائماً في هذا الموضع إلا بقايا قليلة، وتحتوي الواجهة الأمامية على عدة بوابات مفتوحة ومعتمة، ومن فوقها أربعة صفوف من النوافذ المعتمة، وتتمثل مواد البناء في آجر معالج بالنار يبلغ درجة من الصلابة لا يمكن العثور عليها اليوم في بلاد ما بين النهرين.



الجانب الخلفي من قصر الساسانيين في المدائن



طاقي كسرى – المدائن

(١) قارن أوليفيي – رحلة في الإمبراطورية العثمانية، الجزء الثاني، ص ٤٣٤، وتختلف الأبعاد عند كينير قليلاً في – مذكرات جغرافية عن الإمبراطورية الفارسية، ص ٢٥٤، ثم عند فرايزر في – رحلات في كردستان الخ ..، الجزء الثاني، ص ٥، وعند ريتش في– يوميات إقامة في كردستان، الجزء الثاني، ص ٤٠٤، توجد صور ولوحات لدى تشسني مثلاً في رحلة استكشاف إلى الفرات ودجلة، الجزء الأول، ص ٣٥ وعند كيبل في– يوميات شخصية لرحلة في بابل وآشور الخ .. اللوحة ١ الصفحة ١٣٣ وعند ديولافوا في كتابه– بلاد فارس ألخ وفي – رحلة حول العالم، إصدار سنة ١٨٨٥م الجزء الأول، ص ١٢٦، قارن أيضا شنايدافيرت في – سلوقيا على نهر دجلة، هايلجنشتات ١٨٧٩ م، وفابيان في كتابه – حول سلوقيا بابل، لايبتزج ١٨٦٩ م.

(٢) رحلات في القوقاز وبلاد فارس وتركيا الآسيوية، ص ٣٨٠ .

أما الأجزاء الخشبية من المبنى فبعضها من أعمدة مصنوعة من خشب الساج الهندي الثمين ومن خشب الصندل، ولا شك أن بناء قبة السقف في البهو، التي يبلغ قطرها ستّاً وسبعين قدماً بكاملها من الآجر يعتبر إنجازاً رائعاً من إنجازات الفن المعماري، وقد تداعى جزء من أجنحة الواجهة سنة ١٨٨٨م، ولا أحد يعرف ما إذا كان السبب في ذلك هو انهيار المبنى ذاته، أو انكسار الأعمدة والأجزاء الحاملة .

فيما عدا ذلك لم يبق من المدينة الملكية القديمة غير بعض بقايا الجدران المنخفضة ، ولم يبق من مدينة سلوقيا الواقعة على الجانب المواجه لها إلا عدد كبير من أكوام الركام المنخفضة التي لم يستكشفها أحد إلى اليوم، وسلوقيا هي أقدم المدينتين، وقد نسبت إلى بانيها الذي يدعى سلويكوس، وهو أحد قادة جيوش إسكندر الأكبر، وقد حصل على إقليم بابل عند تقسيم الإمبراطورية المقدونية بعد موت ملكها، واستطاع في غضون عقد من السنوات الاستيلاء على سوزيانا وبلاد فارس والهند حتى بلغ نهر الغانج، وأعلن نفسه ملكاً سنة ٣٠٦ق. م، وأنشأ مملكة عظيمة في آسيا الدنيا بعد استيلائه على سوريا وبلاد ما بين النهرين، وأرمينيا، والقسم الشرقي من آسيا الصغرى، وقد جعل من المدينة التي شيدها عاصمة لهذه المملكة، فازدهرت على حساب مدينة بابل التي تم استعمال مبانيها المتداعية مصدراً لمواد البناء والكثير من الكنوز الفنية لتشييد مقر الإقامة الجديد، كذلك ورثت سلوقيا بابل من حيث النشاط التجاري، وساعدها في ذلك موقعها الجغرافي المتميز(١)، فهنا تصب القناة الملكية وهي إحدى القنوات القديمة الأربع التي كانت تربط بين دجلة والفرات، وقد بقيت القناة حتى أدركت أواخر عهد الخلفاء، أما اليوم فقد اختفت ولكن آثارها لا تزال باقية، ويبدو أن حاضرة المدائن قد أنشئت منذ عهد السلوقيين كضاحية على الجانب المقابل(٢).

وقد جاء الأرزاسيون - وهم قبيلة من أشراف الفرس أصبحت مستقلة - بعد السلوسيين وبعدما توفي أنطيوكيوس سيديتس في معركة متريداتيس سنة ١٣٠ق.م، وقد حافظت المدينتان على أهميتهما أثناء حكم السلالة الجديدة أيضاً، ويقول سترابو(٣) بكل وضوح إن حاضرة المدائن كانت مقر الإقامة الشتوي لملوك البارتر، حتى لا يتعرض السكان الذين لا يزالون من

(١) قارن درويزن – تاريخ اليونان، الجزء الثالث، ص ٧٣
(٢) قارن نقد المصادر عند درويزن في المرجع المذكور، الجزء الثالث ٢ ، ص ٣١٤
(٣) الكتاب ١٦ ، الفصل ١ .

الإغريق إلى مضايقة من طرف السكان السكيتيين والعدد الكبير من الجنود، ويلاحظ سترابو أن حاضرة المدائن أصبح يطغى عليها الطابع البارتي بناء على هذه المعاملة المتميزة، وقد ازدهرت العلوم والفنون في المدينتين، وولد في سلوقيا ديوجينيس فيلسوف الصبر والجَلَد.

من تاريخ المدائن

بدأت سلوقيا تتدهور في القرن الثاني الميلادي، فبعد أن استولى الإمبراطور ترايان سنة ١١٦م على المدينة أثناء حملته ضد البارتيين دون أن يخوض أية معركة، وواصل بعد ذلك مسيرته تجاه مصب الفرات، ثار السكان عليه فعاد القيصر مسرعاً على أعقابه وهاجم المدينة فتركها هباء منثورا[١].

وتعرضت سلوقيا والمدائن سنة ١٦٥م إلى تدمير أكثر فظاعة على يد القائد العسكري الروماني أفيديوس كاسيوس، ويقال: إن عدد سكان سلوقيا كان قد بلغ في ذلك العهد نصف مليون نسمة[٢]، وتعرضت المدينتان إلى غزو ثالث سنة ١٩٨م على يد القيصر سبتيموس سيفيروس[٣]، ويبدو أن حاضرة المدائن التي يدل اسمها كتيسيفون على أصلها الإغريقي بدأت تزدهر باطراد منذ ذلك العهد، في حين أن سلوقيا تدهورت بسرعة حتى بلغت الحضيض وفقدت تماما أية أهمية[٤].

وقد أطاحت السلالة الساسانية بالسلالة الأرزاسية زهاء منتصف القرن الثالث، وادعى الساسانيون أنهم الوريث الشرعي للعائلة الحاكمة الفارسية الأخمينية، وحافظ الساسانيون على المدائن أيضاً كمقر إقامة شتوي إلى جانب سوزا، وجعلوها تزدهر من جديد، ولا شك أن مدينة سلوقيا القديمة كانت في ذلك العهد قد هوت على عروشها؛ ذلك أن أردشير الساساني الذي حكم في عهد القيصر يوليان يذكر بكل وضوح أنه أعاد تأسيس سلوقيا[٥]، أما المدائن فقد زينها الساسانيون بمبان رائعة، فنحن نعلم مثلاً أن الملك سابور الأول[٦] شيد لنفسه فيها قصراً عظيماً من المرجّح أن تكون بقاياه تحت آثار طاقي كسرى، وقد حاول الخليفة المنصور دون جدوى هدم هذا القصر بهدف استعمال مواد بنائه في تشييد مبانيه في مدينة بغداد.

(١) قارن مومسن في المرجع المذكور، الجزء الخامس، ص ٤٠٠

(٢) قارن مومسن في المرجع المذكور، الجزء الخامس، ص ٤٠٨

(٣) قارن مومسن في المرجع المذكور، الجزء الخامس، ص ٤١٠

(٤) قارن درويزن في المرجع المذكور، الجزء الثالث ٢، ص ١٣٥ .

(٥) قارن نولدكه في ترجمة الطبري – تاريخ الفرس والعرب في عهد الساسانيين، ص١٦ الملاحظة ١ ، وص٦٢ .

(٦) قارن نولدكه في المرجع المذكور، ص ٤٢، الملاحظات.

تقيم حالياً في المنطقة المحيطة كسرى شرق نهر دجلة قبيلتان بدويتان صغيرتان هما قبيلة بطّ، وعلى اليمين في اتجاه أسفل النهر قبيلة بني عقيل، في حين تقيم قبيلة داور ذات الأهمية الكبيرة على الضفة اليسرى للنهر من بغداد حتى القرية الأولى في طريق الرحلة والتي تسمى عزيزية، وتقيم قبيلة زبيد على الضفة اليمنى.

عزيزية ، وكوت

قرية عزيزية التي بلغناها الساعة الرابعة بعد الظهر هي مقر إقامة قائم مقام، وهذه القرية في معظمها من قصر هذا الموظف الذي يشبه القلعة، إضافة إلى بعض البيوت القليلة التي يعيش فيها أتباعه والعدد القليل من الضابطية الذين يشكلون الحامية .

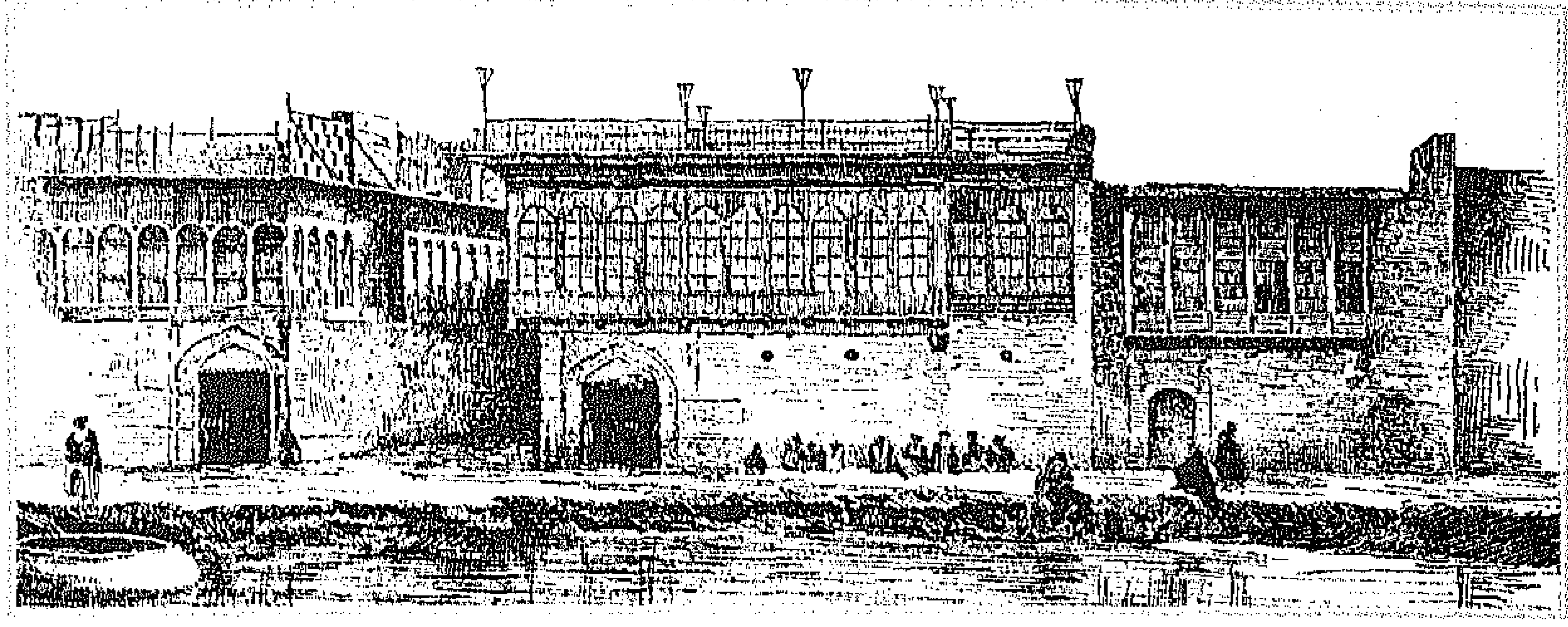
وقد أنشئت جميع المباني باستعمال آجرّ مصنوع من الطين المجفف، وتقوم قبالة ذلك على الضفة اليمنى الممتلكات الضخمة الخاصة بالسلطان، والتي تمتد باتجاه أسفل النهر حتى تبلغ شط الحي قبالة كوت، ويوجد المقر الأساسي للإدارة في بغيلة، وهي مدينة صغيرة على الضفة اليمنى للنهر قبل امتداد شط الحي الذي بلغناه في الساعة الحادية عشرة مساء، ويرسم نهر دجلة عند أسفل عزيزية عقدة كبيرة في اتجاه الغرب تسمى الهمنية، وهو اسم يعود إلى مدينة كانت في السابق تقوم عند هذا الموضع.

في صباح يوم ١٢ سبتمبر توقفنا عند كوت(١)، وهي مدينة صغيرة تشتمل على نحو خمسمائة بيت، وهي الأخرى مقر لقائم مقام لا يزال تابعاً لبغداد، وتجري هنا حالياً أعمال بناء مسجد ومئذنة، ولا يعيش في كوت إلا قليل من المسيحيين، في مقابل ذلك نجد عدداً كبيراً من اليهود وكثيراً من الأكراد من جبال لورستان يحكمهم حسين قولي الشهير ببيك لورستان الذي يتبع تبعية غير وثيقة شاه الفرس، و تتجلى التبعية في دفع جزية يتحدد مبلغها حسب مشيئة البيك، وينبغي القول: إن حملاته وغزواته على مناطق السيادة التركية أصبحت نادرة في الفترة الأخيرة، وتروج إشاعة في بغداد مفادها أن البيك أوعز قبل عشر سنوات بقتل رجل سويسري يدعى السيد فارتمان(٢) يقال: إنه كان أغنى تاجر أوروبي في بغداد، واستحوذ على الأموال التي سبق أن دفعها إليه.

---

(١) كلمة كوت هي كلمة هندوستانية، وتعني قلعة صغيرة .

(٢) كان السيد فارتمان قد استضاف الشريف السيد فون تيلمان في ذلك العهد.

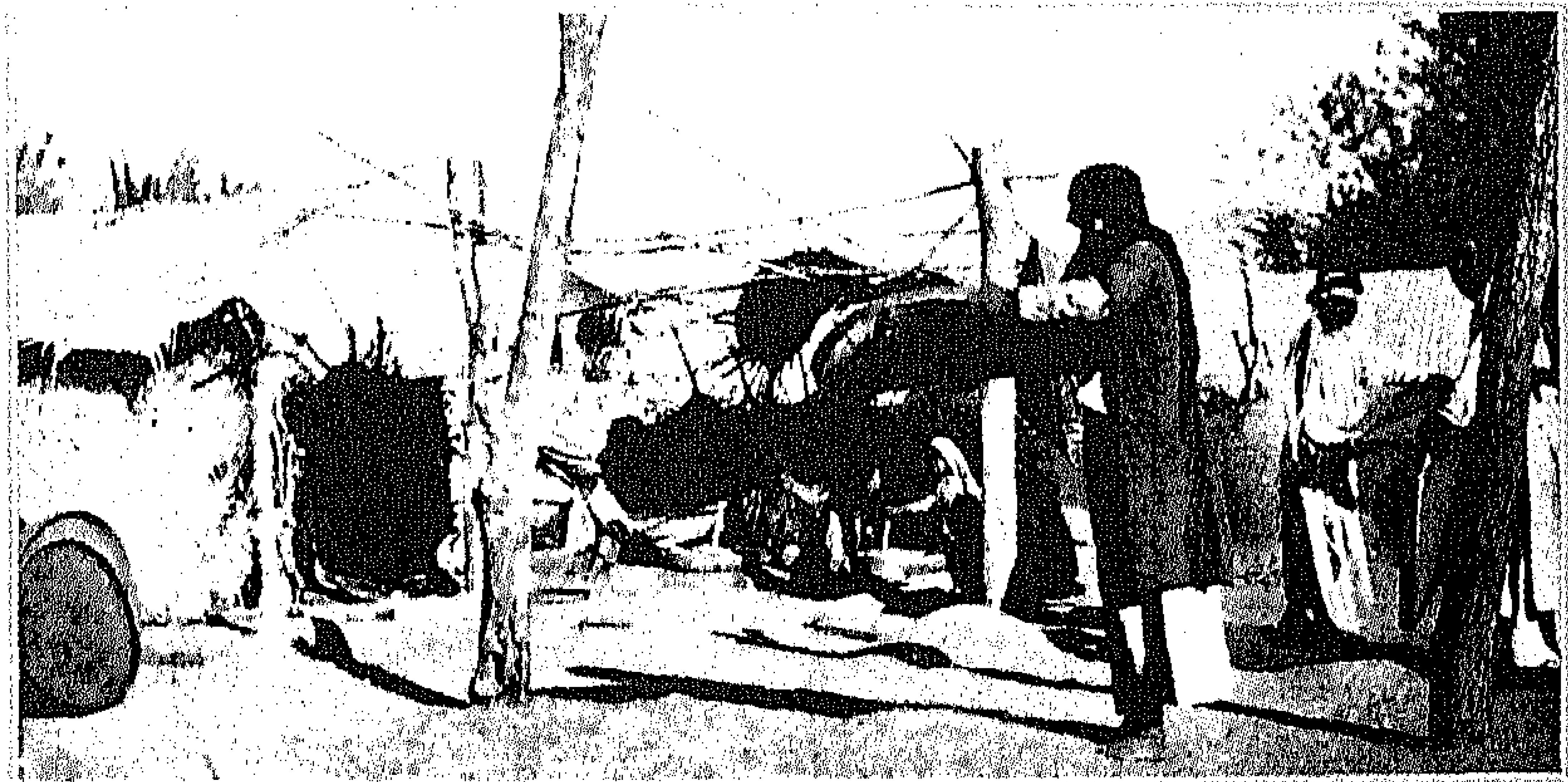


مدينة كوت على دجلة

غير أن الجهة المعنية بالأمر تنكر هذه الإشاعة، وتفيد الصيغة الرسمية أن السيد فارتمان وقع من فوق حصانه فأودى به.

تتفرع قناة شط الحي الكبير عن دجلة عند كوت، وتجري في اتجاه الجنوب تماماً صوب نهر الفرات، غير أنها تتشعب عند أسفل مدينة شطرة الصغيرة إلى عديد من القنوات، ولا يبلغ منها نهر الفرات إلا فرع ضيق عند الناصرية، إلا أن هذا الفرع ينضب أيضاً نضوباً تاماً في فصل انخفاض منسوب المياه .

أصبحت الرحلة ذات طابع موحد عند أسفل كوت؛ ذلك أن الضفاف التي أخذت تزداد انخفاضاً كانت مقفرة تماماً وليس فيها أي قرى أو منازل، وكانت العلامة الوحيدة للعمران تتمثل في خط التلغراف الذي يمتد على الضفة اليسرى، ويقطع في خط مستقيم المنعطفات التي يرسمها النهر، وكانت قرية الإمام علي الغربي القرية الثابتة الأولى التي مررنا بها، و فيها ضريح علي الغربي إضافة إلى مسجد جميل.



قرية عربية في جنوب بلاد ما بين النهرين

عمارة

وصلنا إلى مدينة عمارة الواقعة على الضفة الشرقية، والتي تنتمي إلى ولاية البصرة يوم الثالث عشر من شهر سبتمبر، وهذه المدينة هي مقر متصرف، ولها حامية تضم كتيبتين من المشاة، وهي قرية حديثة العهد(١)، ولذلك فإنها ليست مسجلة إلى الآن على الخرائط الإنجليزية لنهر دجلة، وقبل ثلاثين عاماً كان يقوم في هذا الموضع منزل واحد يملكه شيخ أهل عمارة الذين أصبحوا الآن يقيمون في كامل المنطقة المحيطة بالمدينة، أما سكان المباني الحديثة فهم خليط متنوع، فالمسلمون معظمهم من الشيعة الذين يتميزون هنا أيضا بتطرّف حاد كما هو شأنهم في كل مكان، ولهم ثلاثة مساجد، ويمثل المسيحيون عشرين بيتا واليهود خمسين فحسب.

الصّبه ، شطرة

ويعتقد الصّبه - الصابئة- أن مؤسس مذهبهم هو القديس يوحنا الذي يرفعون قدره فوق قدر المسيح ، ولذلك يطلق عليهم اسم مسيحيي يوحنا، ولغة الكتب المقدسة لهؤلاء القوم هي اللغة المندائية التي تمثل بقايا اللغة المحلية التي لم تعوضها اللغة العربية إلا في القرون الوسطى(٢)، وأهم كتبهم المقدسة هو كتاب سيدرا ربا ويعني ذلك الكتاب الأكبر، ويبدو أن هؤلاء القوم ينحدرون من البابليين القدماء، ولا تزال ديانتهم إلى اليوم مخلوطة بمعتقدات وثنية، وتشتهر نساء هذه الفئة بالجمال ويبدو أن عدد الصّبه - الصابئة - في انخفاض مستمر، ولا يوجد معظمهم اليوم إلا في قرى متفرقة عند أسفل الفرات، مثلا في سوق الشيوخ، وكذلك في الأهواز على نهر قارون(٣)، ويعمل جزء من الذين يقيمون منهم في العمارة في الفلاحة وصيد السمك وفي الحرف اليدوية، أما ملابسهم فهي مثل ملابس بقية السكان، غير أنها تتميز بنظافة أكثر.

في الصباح الباكر من يوم الرابع عشر من شهر سبتمبر مررنا بقلعة صالح، وهي قلعة الشيخ صالح الذي توفي قبل عشرين عاماً، ويطلق اليوم اسم شطرة على هذه المدينة الصغيرة المزدهرة

(١) قارن أيضاً شليفلي- رحلات في الشرق، ص ١٣٦

(٢) قام نولدكه بدراسات حول النحو المندائي - دراسات صغيرة- كوولسن في كتابه عن الصابئة، نجد أفضل شرح عن النظام الديني المعقد للصّبه في رحلة بيترمان، الجزء الثاني، ص ٩٨ وما يليها، وكذلك في كتب بونيون القنصل الفرنسي السابق في بغداد عن الصابئة، أما بحث السيوفي فيستند إلى المعلومات التي حصل عليها شفوياً من المندائيين أكثر من استناده إلى المصادر المكتوبة.

(٣) نجد في كتاب تيفينو- يوميات رحلات غربية، باريس ١٦٦٣م خريطة دون ذكر لمصدرها للأسف، وهي خريطة عربية لجنوب بلاد ما بين النهرين تعطي تفاصيل عن مدى انتشار طائفة الصبة، بحيث يسجل هذا المصدر نحو ٣٠ قرية للمندائيين في منتصف القرن السابع عشر.

التي هي أيضا مقر لقائم مقام، ومنذ قرية شيخ سعد حتى عمارة تقيم على يمين وعلى شمال النهر قبيلة بني لام الكبيرة تحت إمرة شيخها الكبير بنيه بن مزبان، ومن عمارة إلى قرنة تتنقل قبيلة البو حمد التي اشتهرت سابقا باللصوصية مثل بني لام، وقد كان أهلها يقتربون بقواربهم الصغيرة من البواخر فينهبونها، ويختفون بعد ذلك في المستنقعات الصغيرة العديدة التي لا تستطيع البواخر الكبيرة دخولها، فلا يتمكن أحد من العثور عليهم .

ويقيمون في أكواخ مستطيلة الشكل مصنوعة من الحصائر، شكلها على هيئة البهو، تدعى شريفة[1]، يصنعونها من الحلْفاء والقصب فتوفر لهم حماية ممتازة من لفح الشمس ومن البرد والأمطار بفضل سقوفها المقببة.

مررنا بعد ذلك بضريح العزير الذي يقع على الضفة اليمنى وسط غابة صغيرة من النخيل، ويقال: إنه مثوى النبي عزرا[2] المذكور في الإنجيل، وقد سبق أن ذكر ابن بطوطة هذا الضريح كمكان يؤمه الحجيج، ولا يزال عدد كبير من الحجيج اليهود يقصدون إلى اليوم مبنى هذا الضريح الذي تعلوه قبة من الخزف ذات لون أزرق فاتح، وينزلون في المباني المشيدة حوله على هيئة ثكنات عسكرية، وفي العزير أيضا حامية تركية صغيرة مهمتها المحافظة على النظام عند تجمع هذه الأعداد الكبيرة من الناس .

ويرسم النهر منعطفاً على مسافة ساعة قبل ضريح عزرا يطلق عليه اسم عكس الشيطان، اضطرت الباخرة إلى تخفيف السرعة والتزام الحذر الشديد لاجتيازه، بهذه المناسبة أتيحت الفرصة للفتيات العربيات الجميلات لبيع بضاعتهنّ من المواد الغذائية لنا، و بداية من العزير في اتجاه المصب بدأ مجرى النهر يتخذ شكل المستنقع، وفي فصل الربيع تطغى الفيضانات على الأراضي المجاورة ويصبح البعوض كارثة لا تطاق، من هذا المكان تزداد نسبة الملوحة في المياه؛ لأن تأثير المد يبلغ حتى هذه النقطة.

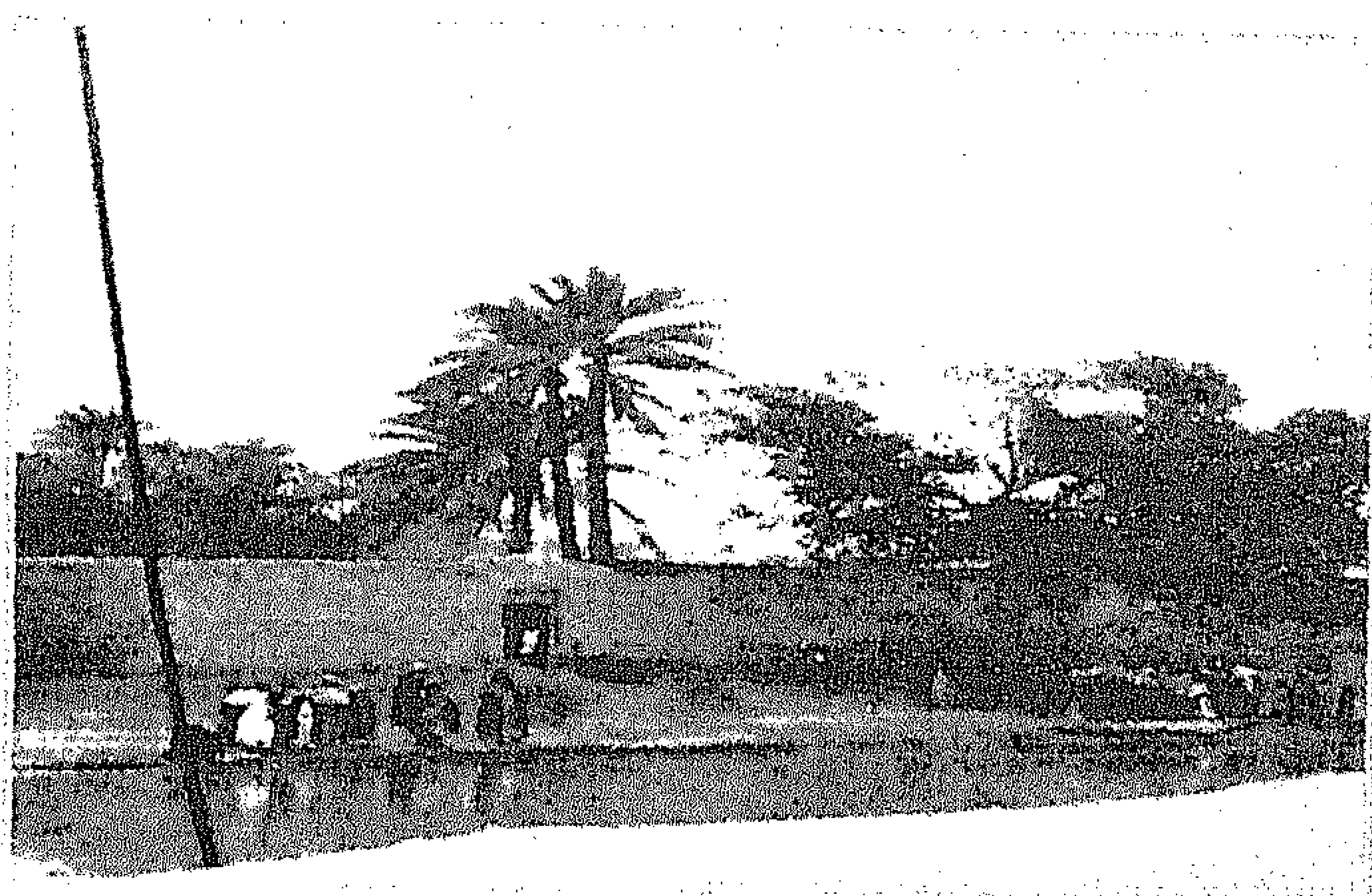
قرنة ، التقاء الفرات مع دجلة

بعد بضع ساعات بلغنا قرنة حيث يلتقي نهر دجلة مع نهر الفرات في زاوية حادة - وذلك هو معنى كلمة قرنة - ، وتقوم المنازل القليلة التي تحتوي عليها القرية التي تظللها أشجار النخيل التي تتراءى من بعيد، - على اللسان الضيق الذي يشكله النهران، وتحدد الأساطير المحلية أن موقع الجنة - مسكن الإنسان الأول - يوجد في هذا المكان الرائع إلا أنه خطير للأسف بسبب

(١) قارن موريتز- مداولات جمعية الجغرافيا في برلين ١٨٨٨م، ص ١٩٦

(٢) قارن صورة ديولافوا في-رحلة حول العالم، طبعة ١٨٨٥م الجزء الأول، ص ١٢٤ وكذلك في كتاب- بلاد فارس،، ص ٥٥٩.

الحمّى، ولا يزال الناس في القرية إلى الآن يشيرون إلى شجرة طلح ويزعمون أنها شجرة الخطيئة، إلا أن هذه الشجرة تم تعويضها مرات عديدة، وقرية قرنة هي مقر لقائم مقام، وتراقب السلطات الجمركية التركية البواخر التي تبحر في دجلة والفرات من هذا المكان مراقبة شديدة، وبين قرنة وعمارة حالياً مراكز مراقبة شيدت لها الحكومة عشرة مبان صغيرة متميزة - قلاعاً- من الطين على طول النهر بهدف مراقبة حركة النقل البحري ولحمايتها أيضاً، وقد كان السبب في اتخاذ هذه الإجراءات هو الهجوم الذي شنه الشيخ صيهود شيخ قبيلة البو محمد قبل نحو اثنتي عشرة سنة. كان هذا الشيخ قد اختلف مع الحكومة التركية بخصوص قضية الضرائب، وأراد أن يورط الأتراك في خلاف مع الإنجليز، وحيث أنه لم يفلح في ذلك، فقد عمد إلى قصف الباخرة الإنجليزية "الخليفة" فقتل ملاحها المكلف بالقيادة، كما أصاب الربان وعدداً من المسافرين بجراح. وقد عاد الشيخ صيهود منذ سنتين إلى القيام في وجه الحكومة، فأرسل السلطان صهره الشركسي كاظم باشا الذي يقيم في بغداد في جيش لإخماد نيران هذا التمرد. وقد استطاع كاظم باشا الاستيلاء على القلعة التي تقع قرب العماره ويستقر فيها صيهود. واليوم يعيش الشيخ لاجئاً في منطقة حويزه في بلاد فارس.



قرية قرنة

النزول في البصرة

تبقى مياه النهرين منفصلة عن بعضها لمدة طويلة من الزمن حتى بعد بلوغها المجرى المشترك في شط العرب. ويزعم سكان المنطقة أن مياه دجلة القاتمة اللون، الصافية والأشد برودة، تجري جنباً إلى جنب مع مياه الفرات الصفراء العكرة حتى مدينة البصرة. ويبدو أن سكان البصرة التي تقع على الضفة الغربية يفضلون العبور إلى الجانب الآخر لجلب المياه. بدأت الآن غابات كثيفة

من النخيل ترافق رحلتنا، ووجدنا أن ضفاف شط العرب التي تغطيها نباتات كثيرة، تتميز بمناظر طبيعية خلابة. قبل البصرة بقليل نزل إلى اليابسة ابن فهد باشا، أحد شيوخ المنتفك من عائلة سعدون، وقد كان على متن باخرة تركية .

توقفت باخرتنا عند سلطات جمارك البصرة صباح اليوم الخامس عشر من شهر سبتمبر، على بعد قُرابة مائة متر من الضفة الغربية. كان النهر عند هذا الموضع مغطى بقوارب شراعية عربية ذات صارية واحدة ومن أحجام مختلفة، وقد كانت تجوب كامل الخليج الفارسي وتقطع دجلة حتى بغداد، والفرات حتى سماوة، وذلك رغم بنيتها الهشة. وفي الآونة الأخيرة، بعدما تم ترميم قناة الهندية، أصبحت هذه القوارب قادرة على الوصول حتى مدينة المسيب غربي بغداد. بالإضافة إلى ذلك، كانت عدة بواخر أوروبية وبعض الزوارق الحربية التركية راسية في ميناء البصرة. ويكفي عرض شط العرب في هذه المنطقة لملاحة البواخر الكبرى. كذلك نجد أن ظروف الإرساء طيبة حيث أن التيار يتميز بالخفة . ويكفي عمق الشط لأكبر البواخر منذ مصبه حتى مدينة البصرة(١).

وتقوم بعملية النقل من البواخر الكبيرة إلى اليابسة قوارب من مختلف الأنواع، يسترعي منها الانتباه بصفة خاصة النوع الذي يسمى " بلم"، وهي قوارب طويلة نحيفة، ولكنها صلبة ومصنوعة من خشب هندي .

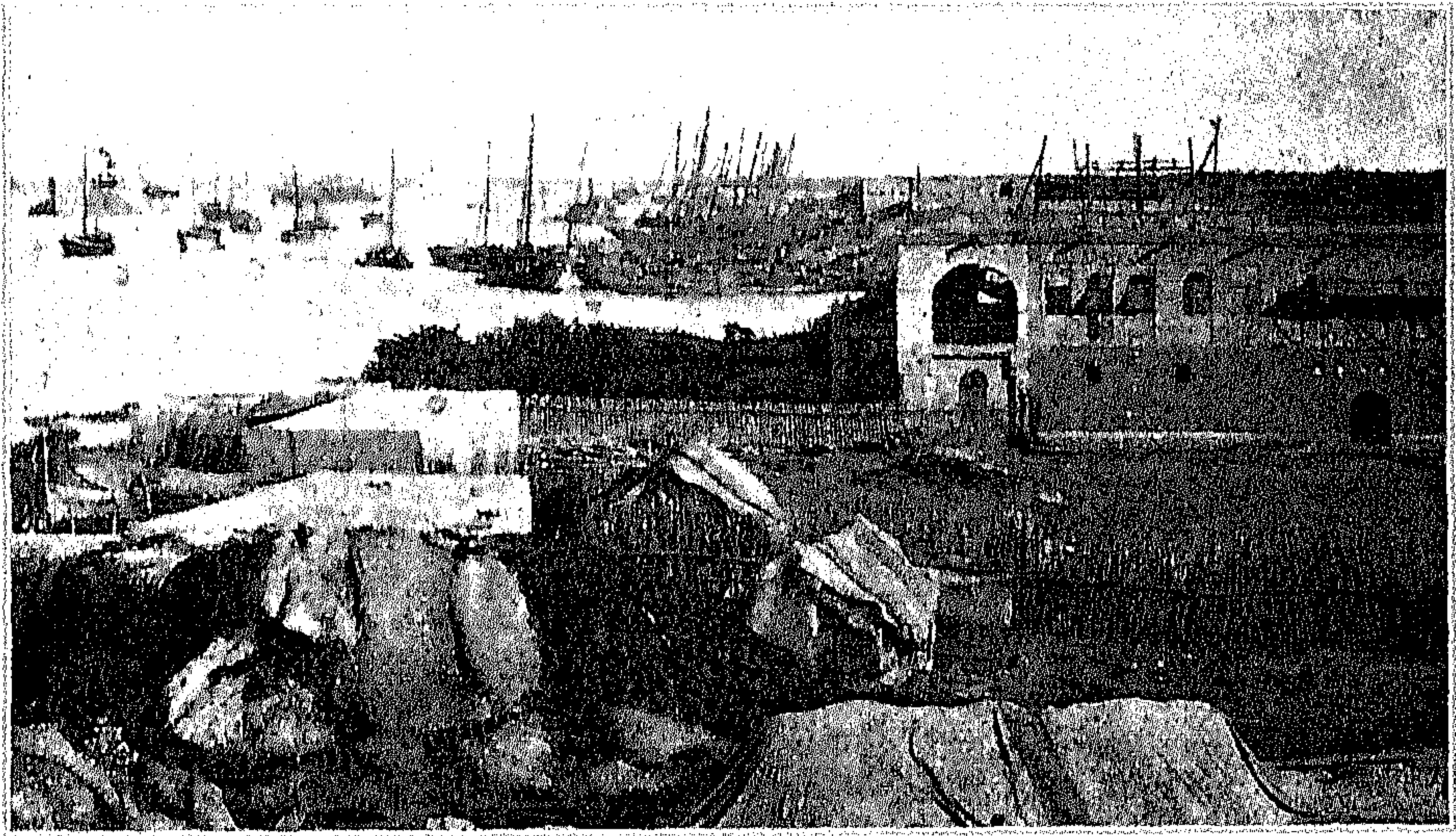


شط العرب

(١) قارن فيما يلي الفصل ٩، ص ٣٢٥ بخصوص حاجز الوحل عند المصب.

لا تقع مدينة البصرة مباشرة عند النهر، وإنما على مسافة حوالي نصف ساعة منه عند قناة تتفرع قرب مبنى الجمارك، وتتشعب إلى فروع عديدة داخل المدينة. الرحلة التي ما لبثت أن قمت بها فوق القناة بغرض زيارة مدينة البصرة، كانت رحلة جميلة، فقد كانت قوارب بخارية، من تلك التي اعتاد كل تاجر من التجار الكبار أن يملكها، تنساب على المياه جيئة وذهاباً، وكان من بينها قارب متميز الجمال يملكه القنصل الفارسي، وكذلك عدد كبير من الزوارق (من نوع الجندول) التي تستعمل في رحلات النزهة التي يجد فيها العرب لذة كبيرة. كانت هذه القوارب تبعث الحياة في الطريق المائية التي تحفها غابات كثيفة من النخيل تتمايل أغصانها في حركة حالمة، فذكرتني زوارق الجندول والقناة التي تخترق المدينة من أقصاها إلى أدناها بمدينة البندقية .

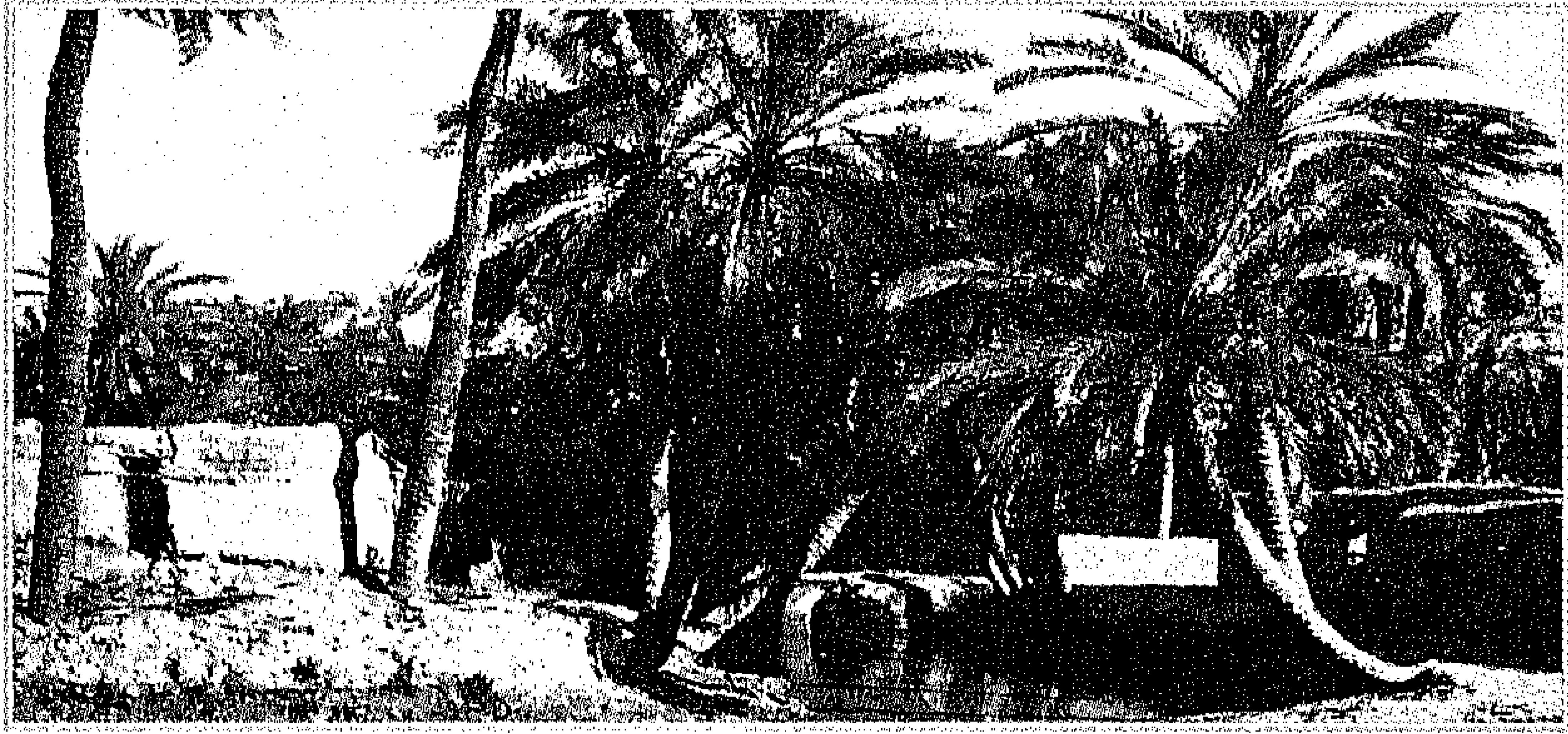
كانت المدينة في حد ذاتها أقل جمالاً، وكانت المباني مصنوعة كلها من الآجر، ويبدو عليها الوهن ما عدا بعضها الذي كان جيد البناء . وقبل الوصول إلى المدينة، على يمين الشط، يقوم المبنى الرائع الذي لم يكتمل بناؤه بعد، والذي يملكه التاجر المسلم حاجي أحمد نعمه، وبلغت تكاليف ما أنجز منه عند زيارتي ٢٠,٠٠٠ جنيه تركي على ما يقال .



نقطة رسوّ بواخر المحيط عند البصرة

الشوارع والمباني

كانت الشوارع ضيقة وملتوية، وتؤدي بين الحين والآخر إلى ميادين كبيرة. وتفتقر البصرة إلى المساجد والكنائس بطريقة ملفتة للنظر. أما المباني الرائعة التي كانت تقوم في المدينة في عهد ازدهارها فإنه لم يبق منها اليوم أي أثر. أما الأسواق التي يملكها الفرس في غالب الأحيان فهي ذات حجم معتبر مقارنة بمساحة رقعة المدينة، رغم أنها أصغر بكثير وأقل جمالاً من أسواق بغداد. ويقع السوق المركزي في الطرف الغربي من المدينة، تحيط به غابة كثيفة من أشجار النخيل، يسقيها عدد كبير من القنوات الصغيرة والغدران. مباشرة وراء ذلك، تبدأ البراري المنبسطة المملة التي تمتد حتى تلامس الأفق، ولا يبرز منها إلا نقطتان هما الضاحية الصغيرة التي تسمى الزبير على مسافة ساعتين من الزمن، وبعدها بقليل في اتجاه الجنوب يقوم جبل سنام، وهو هضبة منعزلة عزلة تامة يبدو أنها ذات ارتفاع معتبر. ويغلب على الظن أنها هضبة اصطناعية في الأصل، ربما تشير إلى موضع مدينة قديمة، غير أنني لم أستطع الحصول على معلومات أدق في البصرة حول هذا الموضوع.

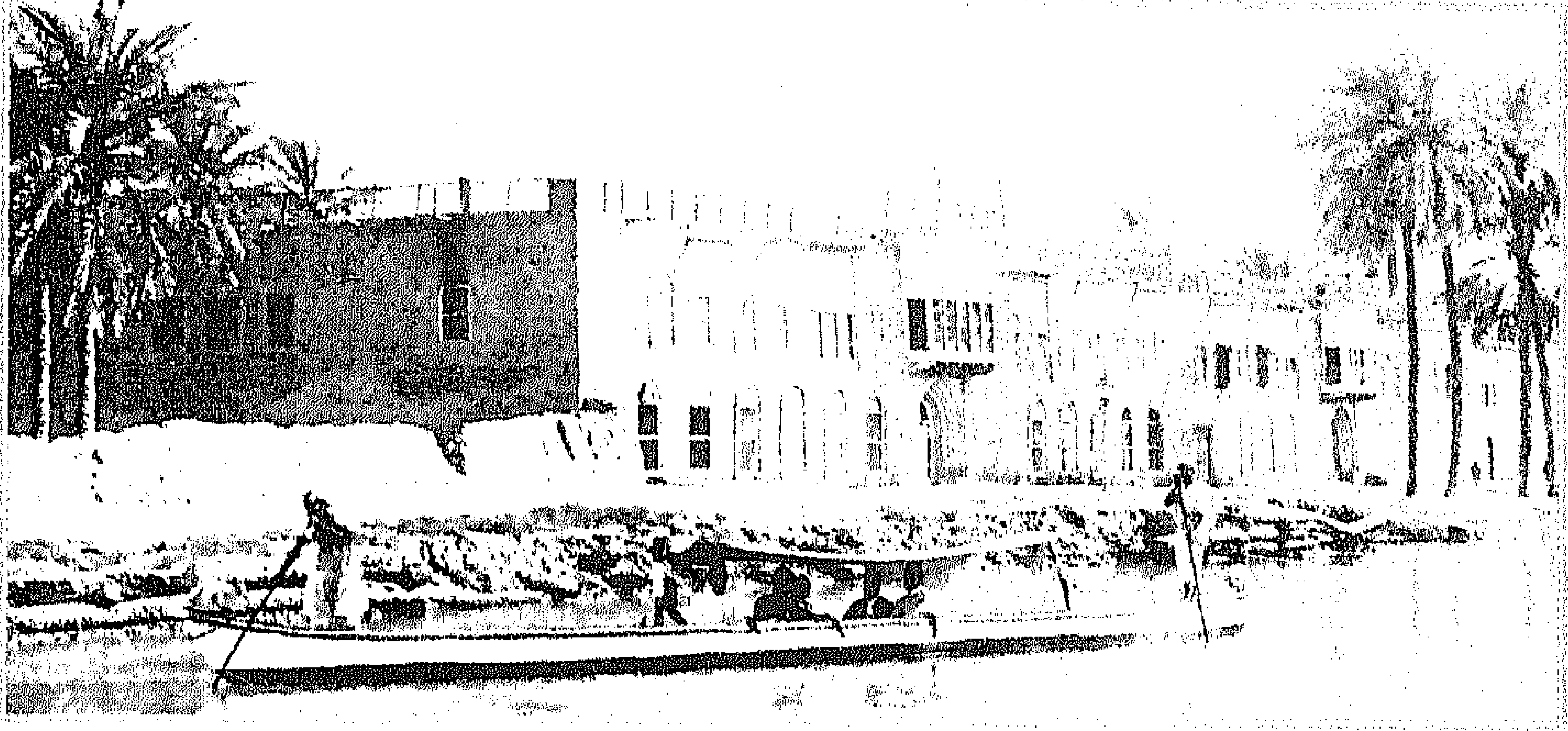


حدائق النخيل في البصرة

السكان

بلغني أن عدد السكان المستقرين في المدينة يبلغ بين ٥٠,٠٠٠ و ٦٠,٠٠٠ نسمة. إلا أنني أعتقد أن هذا من قبيل المبالغة حتى ولو أضفنا العدد الكبير من السكان المقيمين في القرى الكثيرة الواقعة شمال وجنوب البصرة. ومعظم السكان من أصل عربي، غير أنه يوجد أيضاً عدداً كبيراً من الفرس والهنود والزنوج. ويبلغ المسيحيون في البصرة عدداً كبيراً، وكذلك اليهود الذين يشكلون في المدن الواقعة على دجلة بصفة عامة عدداً كبيراً من السكان. أما

المسلمون فمنهم السنيون ومنهم الشيعة، وتضم هذه الفئة الأخيرة إلى جانب الفرس أغلبية السكان العرب. وقد جاء أكثر السنيين من بلاد نجد، ومن بينهم عدد كبير من الوهابيين[1]. وقد جمع كثير من هؤلاء النجديين ثروة كبيرة بفضل فطانتهم ونشاطهم ومثابرتهم، وأصبحوا يلعبون دوراً هاماً في عالم التجارة في مدينة البصرة.

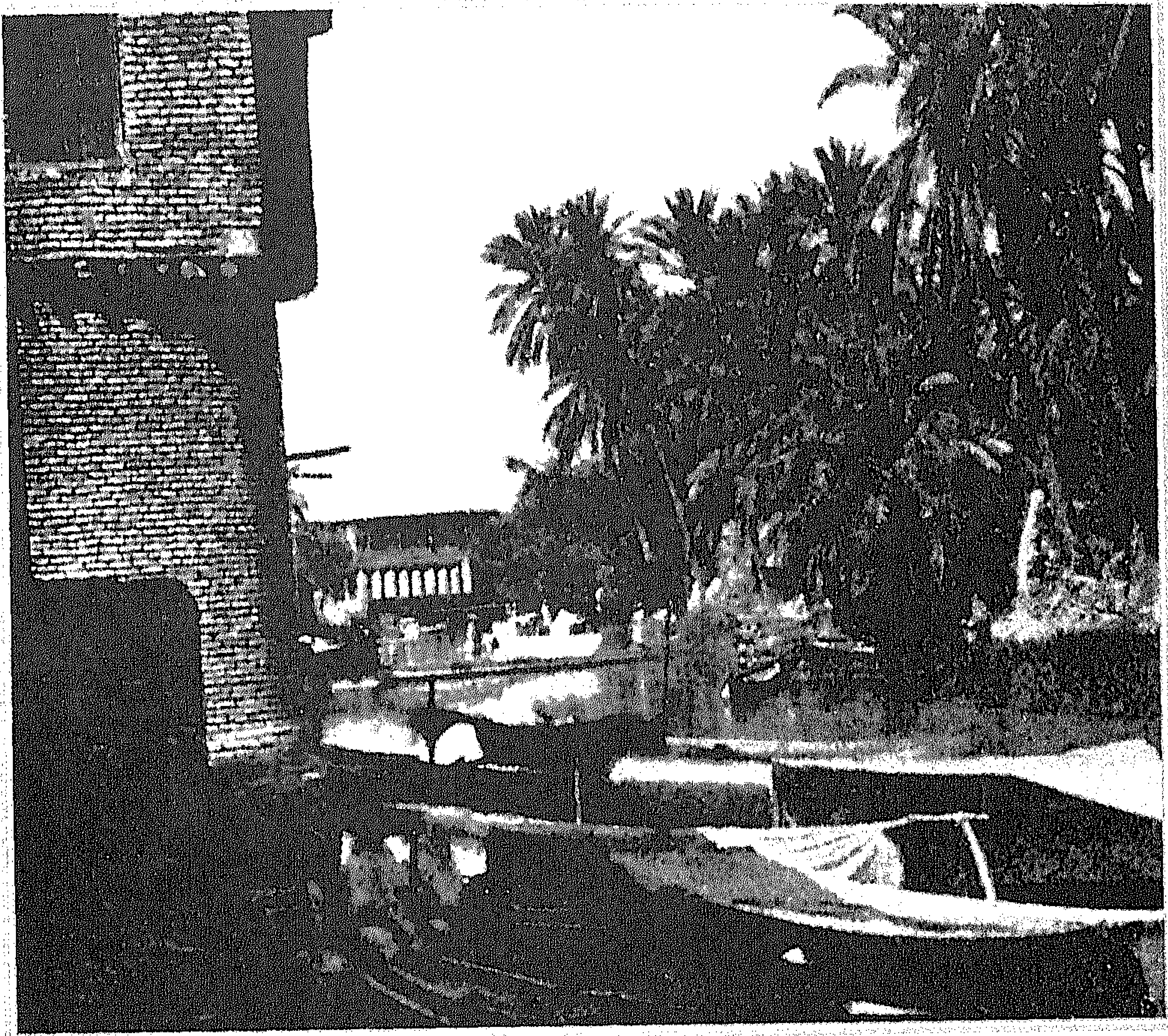


القناة الكبيرة في مدينة البصرة



مقر الحكومة في البصرة

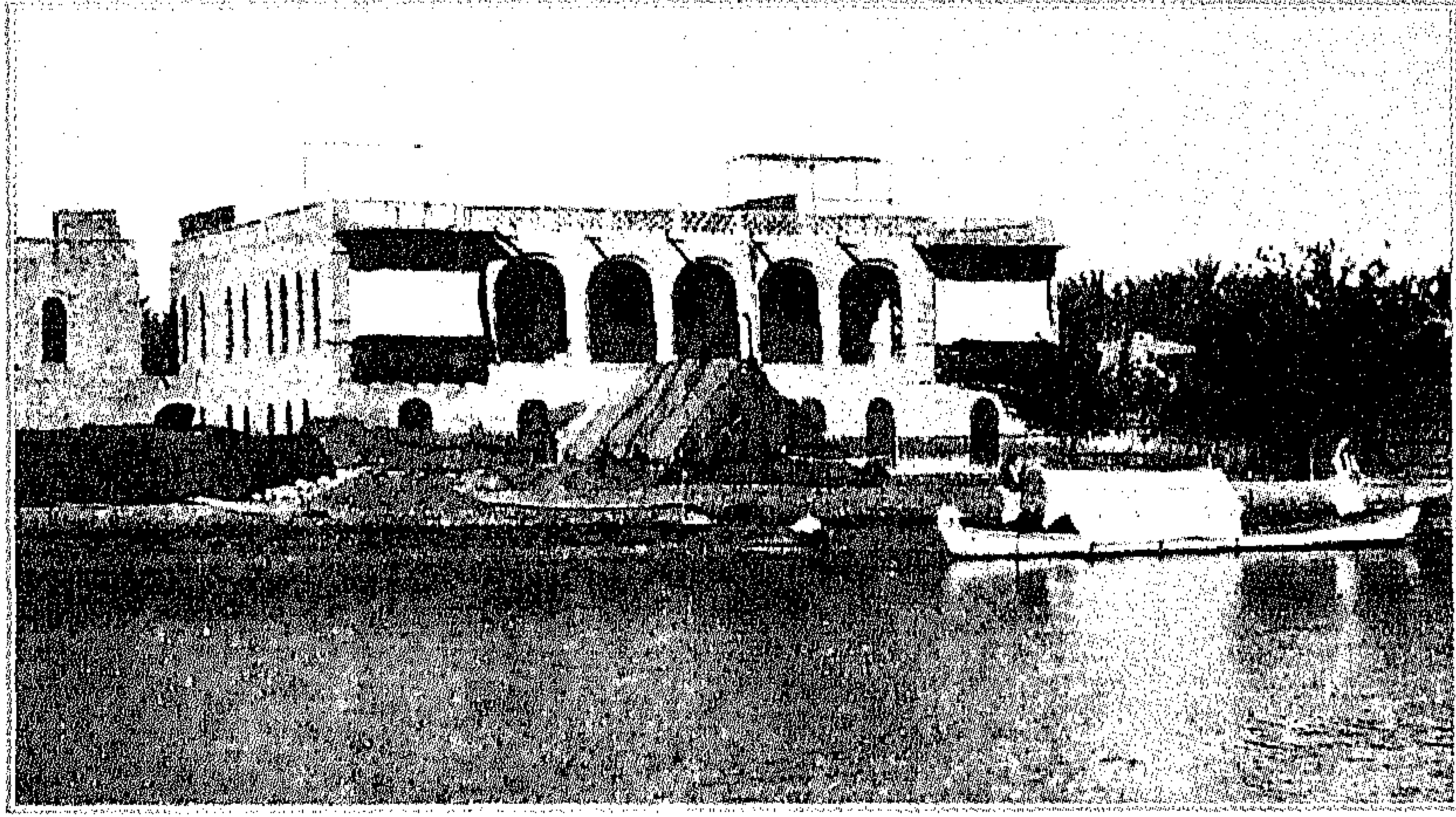
(١) يذكر كويناي في المرجع المذكور، الجزء الثالث، ص ٢٢١ أنه كان في البصرة ١٤٦٥٠ مسلماً، (منهم ٢٦٥٠ فقط من الشيعة). كما يذكر أن عدد المسحيين بلغ ٢٢٥٠ (منهم ١٥٠٠ جريجورياني و٧٠٠ كاثوليكي و٢٥ بروتستنتياً و٢٥ أرثوذوكسياً إغريقياً)، كما بلغ عدد اليهود ٧٠٠ شخص. أما بالنسبة لضواحي البصرة التي لم يحددها بالتفصيل فإنه يسجل ٤١١٠٠ شيعي (لا يذكر مسلمين سنيين) و٩٠٠ يهودي.



قناة في البصرة

موسم جني التمور

كانت الحركة التجارية نشيطة في أثناء إقامتي في البصرة بسبب موسم جني التمور فكنت ترى في كل مكان أكواخاً مصنوعة من الحصائر جمعت فيها كميات كبيرة من هذه الثمار. وإلى جانب منازل الأغنياء من كبار الملاكين، تنشأ عادة في هذا الفصل أحياء كاملة من الأكواخ التي تسمى " شريفة " يسكنها العمال الذين يشتغلون في جني الثمار، والذين يسارعون إلى المغادرة فور انتهاء الموسم. وتختلف نوعية تعليب التمور حسب جودة الثمار، فتوضع التمور متوسطة الجودة في أكياس من الجلد (قِربة) تخاط خياطة محكمة، وتوضع الجيدة منها في صناديق من الورق المقوّى. ولا تذهب الأنواع الجيدة إلى القارة الأوروبية التي تكتفي بالأنواع الأقل جودة القادمة من تونس والجزائر(١)، وإنما ترسل إلى إنجلترا وخاصة إلى أمريكا الشمالية(٢).



الجسر الذي يمتد فوق القناة الكبيرة في مدينة البصرة

(١) وجدت في مدينة طرابلس في شمال إفريقية التي زرتها مباشرة بعد موسم جني التمور في سنة ١٨٩٢م أكبر عدد من أنواع التمور، إلى جانب العدد الذي وجدته في البصرة، وتمر هذه التمور التي ترسل إلى أوروبا في علب جميلة بعملية تخمر تزيد في كمية السكر فيها. ومن التمور أنواع كثيرة غير حلوة، خاصة تلك التي تستعمل علفاً للحيوانات، أو يصنع منها طحين التمور، إذ يميل طعمها أكثر إلى المرارة والحموضة. ومثلما يستعمل الموز في غرب إفريقية الألماني وفي مناطق أخرى في إحضار عدة أنواع من الغذاء لأهل البلاد (وتستعمل كذلك من طرف السكان الأوروبيين) فإن سكان بعض المناطق الصحراوية والبلاد العربية يقومون بالعمل نفسه. أما في سوريا وبلاد ما بين النهرين فإن التمور قليلة، ويمر خط الحدود الشمالية لوجودها عند الفرات ودجلة تقريباً عبر خط عانه – تكريت.

(٢) يبدو أن التجار في البصرة يستعملون خمسين اسماً مختلفاً للتمور ويسجل كويناي في المرجع المذكور، الجزء الثالث، ص ٢٣٣ عدداً كبيراً منها. قارن أيضا مذكرة إدواردس بخصوص التمور التي تنتج عند بوشهر في التقرير الإداري للمقيم السياسي في الخليج الفارسي والوكالة السياسية في مسقط لسنة ١٨٧٧/١٨٧٨م مختارات من وثائق الحكومة الهندية، وزارة الخارجية كلكوتا، ص ٤٣ وما يليها، ثم قارن مقال حكيم في التقرير نفسه ١٨٨٣/١٨٨٤م ص ٣٩ وما يليها.

التجارة والملاحة

وتتمتع مدينة البصرة اليوم بأهمية تجارية قبل كل شيء. وتكاد تكون كل التجارة الخارجية بين أيدي الإنجليز. ويكاد الأوروبيون الذين يعيشون في البصرة يكونون بريطانيين كافة، ويبلغ عددهم عشرين رجلاً. وأهم شركات التجارة هي لينتش، وجروي ماكنزي، وأصفر. وأصفرهذا عربي مسيحي من بغداد يمثل الشركة الإنجليزية العربية للملاحة البخارية. وتتمثل الصادرات في التمور والصوف والخيول والقمح خاصة(١).

تمثل البصرة بوصفها ميناء لكامل بلاد ما بين النهرين المحطة الأخيرة لجميع خطوط الملاحة في الخليج الفارسي. وشركات الملاحة الموجودة حاليا هي الآتية: ١- الشركة البريطانية الهندية للملاحة البخارية التي تملك التعاقد على خدمات البريد مع الحكومة الإنجليزية الهندية. ٢- شركة بومباي والخليج الفارسي للملاحة البخارية ويسميها العرب والهنود شركة المغول. ٣- شركة بلوكي وهوتس وشركاؤهما، وكانت سابقاً شركة هولندية ثم أصبحت إنجليزية. ٤- الشركة الإنجليزية العربية للملاحة البخارية التي نشأت عن شركة أصفر وشركائه التي كانت سابقاً لا تعمل إلا بموارد فرنسية، وذلك بعدما أفلست الشركة الفرنسية مونيي التي كانت مساهمة فيها. ٥- بعض البواخر الفرنسية التابعة مثلاً لشركة ميساجوري البحرية(٢). وتتميز المواصلات بين البصرة وألمانيا بأنها معقدة جداً، إذ تنقل البضاعة إلى بومباي أو كوراشي على متن البواخر، ومن هناك تشحن إلى مدينة تريياست غالباً على متن بواخر نمساوية

(١) بناء على ما ورد في التقارير الإنجليزية ، نجد في السجل التجاري الألماني لسنة ١٨٩٥م الجزء الثاني، ص ٥٨٠ وما يليها أن المعاملات التجارية بلغت الأرقام التالية:

١٨٩٣م	جنيهاً إسترلينياً	١٨٩٤م
الواردات	٦٨٤٤٢٧	١١٥٥٦٩٧
الصادرات	٧٦٥٢٨٢	١٧٢٦١٥٦
منها :		
تمور	٢٩٧٢٥٧	١١٠٣٩٢٤
صوف	١٢٠٠٠٠	٢٥٦٩٢٠
خيول	٥٠٤٨٠	٤٨٢٧٠
شعير	٧٨٠٢٥	٥١١٩٨
أرز	١٣٠٥٠	١٦٧٢٦

قارن أيضا الأرشيف التجاري الألماني ١٨٩٦م، الجزء الثاني، ص ٦٥٢ وما يليها.

(٢) لقد أوقفت شركة ميساجوري رحلاتها إلى الخليج الفارسي مؤقتاً بسبب وباء الطاعون في الهند. وقد أفلست في السنوات الأخيرة شركتا ملاحة إنجليزيتان صغيرتان لا يزال اسماهما (موير وداربي وأندروز) مذكورين في الأرشيف التجاري الألماني لسنة ١٨٩٦م الجزء الثاني، ص ٦٥٤ و٦٥٧ .

تابعة لشركة لويد، إذا لم يفضل أصحابها شحنها مباشرة على البواخر المتوجهة إلى إنجلترا. ويستغرق كلا الطريقين شهرين من الزمن في المعدل، كما أنه من السهل الوقوع في أخطاء فادحة أثناء عمليات النقل المختلفة. ومن المرغوب فيه أن تفتح ألمانيا أيضاً خط ملاحة بخارياً إلى الخليج الفارسي والبصرة. ويمكن أن يكون ذلك في البداية بمعدل رحلة واحدة في الشهر. ولا شك أن ذلك سوف يعود بفائدة كبيرة على ألمانيا عن طريق مشاركتها في الحركة التجارية المتزايدة سنوياً في الخليج الفارسي(١).

رغم الأهمية التجارية للمدينة فإنه لا يوجد فيها حالياً غير قنصلين بوظيفة ثابتة، أحدهما إنجليزي والآخر فارسي، بالإضافة إلى ذلك يوجد وكيل قنصلي فرنسي هو السيد أصفر الذي سبق ذكره .

البصرة مقر الحكومة

زرت في البصرة شيخ جمعية الرفاعيين الكبيرة وهو سيد رجب الذي يشغل هنا منصب النقيب، وهي أعلى سلطة دينية في المدينة، وقد أصبح قائماً على إدارة جميع أموال التبرعات، بعدما تنازل أبوه عن هذا المنصب لفائدته قبل أربع سنوات. وينتمي إلى عائلته الشيخ أبو الهدى صاحب النفوذ الكبير، الذي يعيش في القسطنطينية في المحيط المباشر للسلطان.

كان سيد رجب رجلاً ذكياً سبق له أن مارس التجارة وعاش زمناً طويلاً في بومباي. وقد التقيت في منزله بالأميرالاي التركي أمين باي. ويغطي منزل سيد رجب مساحة حي صغير في المدينة، وقد صنعت بعض أجزائه من الخشب الثمين.

(١) كانت حركة النقل البحري في البصرة سنة ١٨٩٤م تتركب من البواخر التالية:

المركب	العدد	الحمولة
بواخر إنجليزية	٢٠٩	١٣٨١٢٩ طناً
بواخر تركية	٢٤٦	١٤٤٠٢ طناً
بواخر فارسية	٢٤٦	١٠٠٨٦ طناً
بواخر نرويجية	٦	٧١١٧ طناً
بواخر فرنسية (شراعية)	١١	١١٥٩ طناً

قارن فيما عدا ذلك الأرشيف التجاري الألماني عام ١٨٩٦م، الجزء الثاني، ص ٦٥٢ وما يليها ثم قارن مويتز في منشورات الجمعية الجغرافية في هامبورج عام ١٨٩٠م، ص ١٥٤.

من تاريخ البصرة

مدينة البصرة هي مركز ولاية من الدرجة الثالثة منذ عهد مدحت باشا(١). وتمتد المنطقة الإدارية لهذه الولاية في الشمال عند نهر دجلة حتى أسفل مدينة الكوت، وعلى الفرات حتى ما وراء الناصرية. أما المنطقة الجنوبية للولاية فتمتد حتى الأحساء(٢) (ومركزها الحسا أو الهفوف) وشبه جزيرة قطر على الخليج الفارسي التي يسميها الأتراك سنجق نجد. وأما دائرة الكويت فيطلق عليها الأتراك تسمية قضاء تابع لسنجق البصرة(٣). وتنتمي الحامية العسكرية للمقاطعة إلى الجيش السادس الذي تقيم قيادته العامة في بغداد .

لا يعود تاريخ مدينة البصرة إلا إلى القرن السابع الميلادي . ففي سنة ٦٣٥م أسس العرب المنتصرون البصرة كقاعدة لغزو جنوب بلاد ما بين النهرين، وخاصة لحماية الجيوش العربية العاملة في الشمال ضد هجوم الفرس من الناحية الجنوبية. وقد حصلت القلعة على حامية قوية مقارنة بما هو معروف في ذلك العهد، إذ كانت من ٨٠٠ رجل. وما إن حلت السنة التالية حتى كان العرب قد أمنوا سيادتهم على بلاد ما بين النهرين بانتصارهم في معركة القادسية. وبفضل موقعها المتميز نمت المدينة بسرعة. ويبدو أنه ما أن انقضت خمس عشرة سنة منذ تاريخ تأسيسها حتى بلغ عدد السكان بين مائة وخمسين ألفاً ومائتي ألف نسمة(٤)، وقد شمل عدد السكان مختلف العناصر البشرية التي ما لبثت أن تسببت للحكومة في متاعب جمّة من جراء ميولها إلى الاضطرابات ، ولا ننسى أن البصرة وكذلك الكوفة التي تأسست للغرض نفسه وفي الوقت نفسه، كانتا في عهد الخلفاء الأمويين تمثلان مصدراً للاضطرابات والثورات الدائمة .

(١) قارن فيما سبق الفصل ٧، ص ٢٩٤ .

(٢) قارن فيما يلي الفصل ٩، ص ٣٨٦ الهامش ١ .

(٣) ليست الكويت إلا منطقة صغيرة تشمل المدينة الواقعة على البحر وضواحيها القريبة . ويبدو أن المنطقة تضم ٢٠٠٠٠ ساكن جميعهم من المسلمين السُنيين باستثناء عدد قليل من اليهود والفرس القادمين من بوشهر (قارن كويناي في المرجع المذكور، الجزء الثالث، ص ٢٧٣). وينبغي على البواخر الكبيرة أن ترسي على مسافة من الشاطئ. ويعتبر أسطول الكويت من أفضل الأساطيل في الخليج الفارسي. ظل أفراد عائلة آل صباح أصحاب النفوذ في الكويت منذ أمد بعيد وحافظوا إلى اليوم على استقلالهم التام في جميع شؤونهم. ويعتمدون على بعض القبائل البدوية من المنطقة. وقد لجأ إليهم أفراد عائلة ابن سعود بعدما قضى محمد بن رشيد على ما تبقى من نفوذهم. وفي سنة ١٨٩٧م قتل مبارك آل صباح أخاه محمداً، الذي كان حاكماً في ذلك العهد. وأثناء الاضطرابات التي ظهرت إثر هذه الأحداث بدا وكأن إنجلترا تريد أن تتدخل عملياً في الكويت، في ذلك الوقت قبل الباب العالي الأوضاع الجديدة وعيّن "مباركاً" قائم مقاماً. ومنذ حكم مدحت باشا أي منذ بداية السبعينيات عندما ارتبطت منطقة الأحساء ارتباطاً أوثق بالولاية، وقدم شيوخ آل صباح خدمات جيدة للحكومة التركية، منح الباب العالي لقب قائم مقام كل من تولى الحكم في الكويت، فحافظ هؤلاء على استقلالهم، وظلوا يستلمون من الحكومة التركية مساعدات سنوية .

(٤) قارن موللر– الإسلام، الجزء الأول، ص ٢٩٤ الهامش ١.

البصرة مركز طموحات علمية ودينية

في أثناء الحروب الأهلية اللاحقة - عندما أدى الحقد الدفين بين الأمويين في سوريا وأتباع الرسول القدماء في المدينة أخيرا إلى الهجوم على مدينة الرسول ﷺ وإبادة أهلها - كان قد نشأ في بلاد ما بين النهرين مركز جديد للمسلمين المتدينين الذين مهّدوا لبداية تطلعات الإسلام في علوم الدين، وكذلك في العلوم بصفة عامة عن طريق جمع ونقل أحاديث وسيرة الرسول ﷺ، وقد أتاح ذلك الفرصة لنشوء تطور فكري وجد في سكان البصرة والكوفة المعروفين بالذكاء والفطنة أرضية متميزة الخصوبة، وكان من شأنه أن تفتّق في العصور الوسطى عن الازدهار الفكري الحقيقي في المشرق قاطبة(١).

كان هذا الطموح العلمي بطبيعته يمس الدين بالدرجة الأولى؛ ذلك أن التركيب المتطور للإمبراطورية الإسلامية العالمية كان يتطلب معرفة دقيقة بالأحكام التي تكيف حياة المؤمن، وحيث إن القرآن لا يعطي إجابة عن كثير من التساؤلات، أو إن الإجابة عنها غير كافية، فقد أصبح جمع أحاديث الرسول المهمة الأساسية لعلماء الرعيل الأول، وهكذا تم جمع تفاصيل حياة الرسول بناء على النقل الشفوي للأخبار، وكان ذلك بداية لنشأة نوع من الأدب التاريخي الجديد، أما فيما يتعلق بتحديد التعاليم الدينية، فما لبث أن ظهر رأيان يمثلان وجهتي نظر مختلفتين، إحداهما أكثر تشدداً والأخرى أكثر مرونة وتحرراً، ووجد هذان المذهبان في البصرة بالذات أهم أنصارهما، وقد استغرق الصراع بين الاتجاهين، المتشدد والمتحرر" المعتزلة " أكثر من قرن من الزمن، وما كان لهذا الصراع في كثير من الأحيان أن يحسم فوق أرضية علمية، بل بحدّ السيف وعن طريق القتال .

وقد أصدر الخليفة المأمون سنة ٨٢٧ م مرسوماً يرفع بمقتضاه المذهب التحرري* إلى مرتبة المذهب الرسمي للدولة، ويحكم بمقتضاه على المذهب الآخر بالزندقة، غير أن الخليفة المتوكل اتخذ بدوره سنة ٨٥٢ م قراراً عكسياً، فحكم على مذهب المعتزلة بالزندقة وأعلن أن المذهب المتشدد هو المذهب الوحيد الصحيح، الأمر الذي تسبب في حملة اضطهاد عامة على المعتزلة

(١) قارن موللر– الإسلام، الجزء الأول، ص ٣٤٢

* [المترجم: وصف مذهب الاعتزال بـ" التحرريّ" إشارة إلى اعتقاد المعتزلة بمسؤولية الإنسان عن أفعاله بالنظر لحريته واختياره لها، و " المذهب الآخر " إشارة إلى الأشعريين الذين خالفوا مبادئ المعتزلة في مسألة خَلْق القرآن التي تبنّاها المأمون، وعُرِفت بِالمحنة لتعرُّض الإمام أحمد بن حنبل وأستاذه الإمام الشافعي للأذى، والوصف بالزندقة في كلامه غير دقيق].

أصحاب المذهب التحرري، وبعد ذلك بربع قرن - سنة ٢٦٠ هجرية، الموافقة لسنة ٨٧٤ م- ولد في البصرة الرجل الذي أثبت عملياً جدارة وأحقية المذهب المتشدد وهو أبو الحسن الأشعري المشهور.

عصر ازدهار البصرة

وقد عرفت العلوم الدنيوية في البصرة فترة طويلة من الازدهار، ويبدو أنها لم تتدهور إلا بتدهور المدينة نفسها، فقد ظلت المكتبات والمؤسسات والجمعيات العلمية موجودة حتى القرن الثاني عشر، والبصرة هي موطن واحد من أشهر أدباء المشرق وهو الحريري - ١٠٥٤- ١١٢٢م - الذي يعطي أكبر مؤلفاته - المقامات - فكرة دقيقة عن الحياة العلمية في ذلك العهد، وليس ذلك فحسب، وإنما يعتبر أيضا تحفة من تحف فنون الآداب العربية كافة، ولذلك فإن هذا الكتاب لا يزال إلى اليوم يحظى بتقدير كبير لدى المثقفين في جميع البلدان الناطقة باللغة العربية، على غرار ما تتمتع به أشعار جوته وشيلر من إعجاب وتقدير في بلادنا الألمانية.

بعد التغلب على المشاكل التي صاحبت سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، تمتع العراق بفترة من السلم استفادت منها البصرة بصفة متميزة ، غير أن هذه المدينة اضطرت إلى التنازل عن قسط من أهميتها السياسية - وعلى قسط من أهميتها العلمية في وقت لاحق أيضاً- لفائدة المدينة الجديدة بغداد، وفي مقابل ذلك تزايد ازدهار البصرة كميناء للإقليم ونقطة انطلاق التجارة البحرية مع الشرق والغرب، سواء مع الهند والصين، أو مع البلاد العربية ومصر، ويتجلى الدليل الواضح على مدى اتساع نطاق رحلات هذه السفن التجارية في أن أسطولاً عربياً فارسياً صغيراً هاجم سنة ٧٥٨م منطقة كانتون [في الصين](١)، وقد كانت السفن الصينية هي السفن الوحيدة التي بلغت مياه الخليج الفارسي حتى ذلك العهد، غير أنه كلما توسع نطاق رحلات السفن العربية إلى الصين تزايد اختفاء الصينيين من الساحة، ومن ناحية أخرى كانت البصرة نقطة بداية الطريق التجارية الكبرى إلى البلاد العربية وسوريا.

لقد ترك تدهور الخلافة العباسية الذي بدأ في النصف الأول من القرن التاسع أثراً سلبياً أيضاً على الازدهار المادي لمدينة البصرة، ويبدو أن المدينة عانت معاناة شديدة من جرّاء حرب الزنوج [ثورة الزّنْج، أو الزّطّ]، التي اندلعت فيها سنة ٨٦٩ م(٢) وظلت على مدى أربع عشرة

(١) كريمر- تاريخ الحضارة، الجزء الثاني، ص ٢٧٦
(٢) قارن موللر- الإسلام، الجزء الأول، ص ٥٨١

سنة تدمر العراق أيما تدمير، ونحو سنة ٩٠٠م بدأت الاضطرابات التي تسبب فيها أنصار بعض الفئات الشيعية - الإسماعيليون، والقرامطة -[١] والتي عانت منها البلاد على مدى قرن كامل من الزمن، وعلى أعقاب الحروب المستمرة اجتاحت البلاد موجة من الأوبئة الفظيعة[٢]، تسببت في مواصلة تقلص عدد السكان الذي كان قد انخفض من قبل ذلك أيّما انخفاض .

وقد تفشى أشد الأوبئة خطراً ودماراً في مدينة البصرة سنة ١٠١٥م، ولا يذكر أدباء القرون التالية من البصرة غير الأثمان الزهيدة للفواكه خاصة منها التمور، لكنهم يشيرون أيضاً -الإدريسي وابن بطوطة - إلى أن حجم المدينة تقلص تقلصاً شديداً، أما الملاحة البحرية والتجارة فلا ذكر لهما عندهم البتة، فيما عدا ذلك اشتركت البصرة مع بلاد ما بين النهرين في المصير الذي سبق ذكره عند سرد تاريخ بغداد، فقد سقطت المدينة سنة ١٥٣٥م في أيدي الأتراك العثمانيين الذين وضعوا فيها حاميتهم للسيطرة على النهر، في حين يبدو أن الأراضي المنبسطة الأخرى ظلت تتمتع باستقلال تام، وظلت الأساطيل الحربية التركية حتى منتصف القرن السادس عشر تبحر من البصرة لمنع البرتغاليين من الاستقرار في الخليج الفارسي .

الأفراسياب

وكانت الثورات الدائمة للقبائل العربية في المنطقة، التي كان يؤازرها السكان العرب في المدينة قد حملت الحاكم التركي في بداية القرن السابع عشر على بيع البصرة لأحد المواطنين الذي يدعى سياب أو أفرا سياب، فأصبح بذلك مؤسس سلالة كاملة من الأمراء والباشوات[٣]، وقد وسّع هؤلاء الحكام نطاق نفوذهم باتجاه أعالي النهر حتى بلغوا قرنة، ولما توجّه السلطان مراد الرابع إلى بغداد، عرفوا أيضاً كيف يكسبون ودّه عن طريق تقديم الهدايا الثمينة، أما في مواجهة هجوم الشاه عباس الأكبر فقد تمكنوا من حماية أنفسهم عن طريق كسر السدود وإغراق كامل منطقة الدلتا، الأمر الذي تسبب في تحوّل مسافات شاسعة من هذه الأرض إلى مستنقعات دائمة، وقد ربطوا كذلك علاقة ودّية مع البرتغاليين الذين كانوا يسيطرون على الخليج، وحملوهم على تأسيس مكتب تجاري في البصرة، وسمحوا لهم حتى ببناء كنيسة[٤].

---

(١) قارن الجزء الأول من هذا الكتاب، ص ١٢٥ وما يليها

(٢) قارن كريمر في المرجع المذكور، ص ٤٩٣

(٣) كان ابن أفرا سياب يدعى علي باشا، وكان له بدوره ابن يدعى حسين باشا، قارن نيبور في المرجع المذكور، الجزء الثاني، ص ١٧٣ وما يليها .

(٤) على الخريطة العربية المذكورة أعلاه ص ٣٠٤، الملاحظة ٢ صورة كنيسة غرب البصرة تذكر الكتابة المصاحبة لها أنها دير لفئة الكرميليتيين، ومن المرجّح جدا أن تكون هذه هي الكنيسة البرتغالية، قارن - يوميات رحلات غريبة مختلفة، باريس عام ١٦٦٣م، الجزء الأول .

وبعد سقوط البرتغاليين جاء الهولنديون والإنجليز الذين كانوا في البداية يأتون ببواخرهم إلى البصرة مرة واحدة في السنة، ولكنهم ما لبثوا أن أسّسوا هم أيضا مكاتب تجارية في المدينة، وقد دخل الحاكم الأخير من سلالة أفرا سياب - بسبب طموحه إلى توسيع رقعة نفوذه في بلاد ما بين النهرين - في صراع مع الأتراك الذين أخرجوه من البلاد سنة ١٧٦٠م، وعادت البصرة من جديد مقر إقامة لحاكم تركي يطلق عليه لقب متسلّم، ويخضع لبغداد، ولكن الأتراك خسروا المدينة من جديد بعد بضع سنين، وقد أمر شاه الفرس كريم خان جيشه إثر خلافات مع الحاكم العام بالاستيلاء على المدينة التي سقطت في يده سنة ١٧٧٦م بعد حصار دام ثلاثة عشر شهراً، غير أن الفرس غادروا المدينة عن طواعية[١] بعد وفاة الشاه سنة ١٧٧٩م، وعادوا إلى تهديد البصرة مرة أخرى سنة ١٨٠٢م عندما هاجم الوهابيون كربلاء، ونهبوها دون أن تصدر عن الأتراك أي علامة تدل على عزمهم على الثأر لذلك[٢]، أما الوهابيون فقد بلغوا مشارف المدينة عدة مرات، غير أنهم لم يستطيعوا الاستيلاء حتى على قرية الزبير الصغيرة .

آخر تطورات المدينة

وقد ظلت البصرة منذ ذلك العهد بعيدة عن الأحداث الكبرى وسجلت بعض التقدم البطيء خاصة منذ افتتاح خط الملاحة البخارية، وقد تم في الآونة الأخيرة تشييد سوق كبيرة في غرب المدينة، كما تم إنشاء مبان ضخمة عند الشط نفسه وعند القناة الكبيرة، ولكن المناخ غير الصحي يمثل - للأسف - عقبة كبيرة في طريق الازدهار السريع لهذه المدينة .

---

(١) قارن مالكوم - تاريخ بلاد فارس، الجزء الثاني، ص ١٤٣.
(٢) قارن كورانسي - تاريخ الوهابيين، ص ١٨٦.

الفصل التاسع
الخليج الفارسي

مغادرة البصرة، على متن البمبا - فيلية - المحمّرة، القارون - زيارة إلى البارجة الحربية بيرزيبوليس- محطة التلغراف، الفاو - مصبّ شطّ العرب، الخليج الفارسي بوشهر، الطرقات والمساكن - المركز التجاري في بوشهر - تاريخ بوشهر سكّان بوشهر - لنجة، صيد اللؤلؤ، الملاحة والتجارة - سكّان لنجة - استقبال لدى نائب حاكم لنجة - بندر عباس، وكشم، وهرمز - التجارة والمواصلات في بندر عباس - بندر عباس: الانطباع العام، المناخ، يشك - مسقط، ميناء مسقط قصر السلطان ومبنى الجمارك - استقبال لدى السلطان السيد فيصل بن تركي المندوب السياسي الإنجليزي العقيد جاياكار -مساكن مسقط وأسواقها وسكانها مطرح، التجارة والملاحة في مسقط - ضواحي مدينة مسقط - رحّالة أوروبيون في أعماق بلاد عمان، مراجع وخرائط - التاريخ القديم لمسقط: اليعاربة - الأزد، الغافري، سلالة الجلندى، الإسلام - عمان تخضع للخلافة، الإباضيّة - أئمة الإباضية في عمان، البرتغاليون في مسقط - هجمات الأتراك، المعركة البحرية قرب مسقط - الهولنديون والإنجليز في الخليج، ناصر بن مرشد، سلطان بن سيف - الحروب الأهلية في عمان، محمد بن ناصر الغافري - الفرس والبلوش في عمان - أحمد بن سعيد يصبح إماماً على مسقط - حروب أحمد بن سعيد ونهايته - سعيد، وقيس، وسلطان، وحمد، حملات ناجحة على الفرس - تأثير الحركة الوهابية ونتائجها في بلاد عمان - العلاقات السياسية بين عمان وإنجلترا سالم وسعيد ابنا سلطان - الأمير سعود إماماً على الوهابيين، الحملات الوهابية سعيد يبسط سيادته المطلقة على عمان - الوهابيون والعمانيون - حملات السيد سعيد في شرق إفريقية وزنجبار - سعيد يستولي على قلعة ممباسا - الاتفاقية التجارية بين عمان والولايات المتحدة وإنجلترا - اضطرابات في عمان، وتدخل الإنجليز - سعيد وفرنسا - حروب أهلية جديدة في عمان - صراع مع الفرس، وفاة سعيد - ثويني وماجد ابنا سعيد، والاحتكام إلى نائب الملك في الهند

نزاعات داخلية، ونهاية القوة العمانية - إلزام عمان بالهدنة الدائمة في البحر تصرّف إنجلترا في الخليج الفارسي - صراعات في صحار - أحداث ظفار واضطرابات أخرى في عمان - وفاة السيد تركي، وابنه فيصل يخلفه - مخططات الوهابيين ضد عمان - دور الشيخ قاسم - اضطرابات وهابية أخرى - حكومة فيصل - ثورة الشيخ صالح بن علي - فيصل يخضع للإنجليز - من مسقط إلى جوادر - في زنجبار وشرق إفريقية الألماني.

مغادرة البصرة، على متن البمبا

غادرت البصرة الساعة الخامسة بعد الظهر يوم الخامس عشر من سبتمبر على متن البمبا، وهي باخرة تابعة للشركة البريطانية الهندية للملاحة البخارية، وتنقل هذه البواخر - كما سبق أن ذكرت - البريد من الهند وتقوم برحلة إلى البصرة كل أسبوع، وترسي هذه البواخر في ذهابها وإيابها بالتناوب في مسقط أو في جزر البحرين، وتستغرق رحلة اجتياز شط العرب على متن المركب قُرابة يوم كامل، وتمثّل بومباي نقطة نهاية هذا الخط في بلاد الهند، وفي الأراضي الهندية تقصد البواخر أولاً كراتشي، ولا تستطيع السير إلا ببطء، بحيث تحتاج إلى مدة أربعة عشر يوماً لقطع المسافة من البصرة إلى بومباي، ويستغرق المرور بالمحطات المختلفة على الخليج الفارسي في العادة يوماً كاملاً، ويبقى الخليج الفارسي عامة في مأمن من الأعاصير الشديدة، غير أنه لا يوجد فيه أي ميناء جيد، ولذلك ينبغي على البواخر أن ترسي على مسافة من المدن الساحلية في ميناء مفتوح، ويقع الميناء الطبيعي الوحيد للساحل الشرقي العربي والسواحل الجنوبية الفارسية في مسقط التي تقع بدورها خارج الخليج الحقيقي وتعدّ السيطرة عليها مفتاح الدخول إلى لسان البحر، ولا تهبّ الرياح الموسمية في الخليج الفارسي، ولذلك فإن الحر في فصل الصيف يكاد يتجاوز طاقة التحمّل، ومما يزيد الطين بِلّة أن التبخر الشديد للمياه يتسبب في ارتفاع نسبة رطوبة الهواء إلى درجة عالية جداً .

تستعمل الشركة البريطانية الهندية للملاحة البخارية أقدم سفنها للتنقل في الخليج الفارسي، وقد كان من المفترض مثلاً الاستغناء منذ بضع سنوات عن البمبا التي سافرت على متنها، ورغم طيبة الضباط العاملين على متنها فإن إقامتي على الباخرة لم تترك لي ذكريات جميلة ، فقد كانت السفينة تعجُّ بالحشرات المعروفة على البواخر، وهي الصراصير السوداء التي نمت حتى أصبح

طولها يبلغ بين ٦ و ٨ سنتيمترات بسبب الحرارة الشديدة، والسيطرة المطلقة التي تتمتع بها على متن الباخرة، وكنت كل ليلة أستيقظ من النوم بسبب هجوم هذه الضيوف المتطفّلة عليّ في " القُمْرة "، وكان سطح الباخرة محجوزاً بكامله لنقل حمولة عظيمة من الخيول، و لم يبق إلا جزء صغير من السطح الأول استقر فيه المشرفون على الخيول وبعض المسافرين من أهل البلد، بحيث لا يكاد يبقى متسع لنصب المائدة في المساء للضباط ولي أنا الذي كنت المسافر الوحيد في الدرجة الأولى، ورغم أن البمبا وجميع البواخر التابعة للشركة البريطانية الهندية المتنقلة في الخليج الفارسي كانت مخصصة بصفة رسمية لنقل المسافرين، فإن الربان رفض في البداية قبولي على ظهر السفينة بسبب الخيول المحملة عليها وبسبب ضيق المكان .

فيلية

يعتبر نقل الخيول العربية إلى الهند(١) من الصفقات المربحة لشركة الملاحة؛ ولذلك فإنها لا تهتم بنقل المسافرين الأوروبيين الذين لا يأتون إلا نادراً إلى الخليج الفارسي، وتُبرم الشركة صفقات كبيرة في مجالات أخرى أيضاً، وقد اندلعت ثورة قُبيل رحلتي على إحدى بواخر الشركة البريطانية الهندية للملاحة، التي كانت قد أخذت حمولة كبيرة من الخيول العربية، وكان المتمرّدون من تجار الخيول العرب الكثيرين، والخدم البدو وغيرهم الذين لم يتعودوا النظام، فاضطر الضباط والبحارة الذين أصيب عدد منهم بجراح بالغة، إلى الهرب إلى " القُمْرة "، حيث تحصّنوا أمام الخطر الداهم؛ لذلك ظلت الباخرة مدة من الزمن تجوب البحر على غير هدى، إلى أن نجح الضباط في جلب انتباه زورق حربي تابع للبحرية البريطانية كان يقوم بجولة تفقدية في الخليج الفارسي، فما كان من الزورق الحربي إلا أن هاجم الباخرة، واستولى عليها استيلاء حقيقياً وقادها إلى بومباي، وحيث إن شركة الملاحة كانت تخشى أن تتيح هذه الحادثة فرصة للشركات المنافسة، فإنها عمدت إلى نقل ضباط هذه الباخرة إلى مكان آخر دون أن يتحمل المتسبّبون في الحادثة تبعات وعواقب أعمالهم .

كانت الرحلة عبر شط العرب مثيرة في ساعاتها الأولى، فقد كانت الحركة نشيطة في غابات النخيل التي تحف النهر العريض بسبب موسم جني التمور، وكانت عدة قوارب صغيرة تتنقل فوق مياه الشط، وكان ارتفاع الباخرة يسمح بالإطلال على السهل الخصب الذي يحيط بالشط من جانبيه عبر المساحات الفارغة بين غابات النخيل .

(١) قارن فيما سبق الفصل ٣، ص ١٢١، تتم أهم عمليات نقل الخيول من البصرة إلى الهند في فصل الخريف.

قرابة الساعة الثامنة مساء من أول يوم من رحلتنا على متن البمبا توقفنا أمام فلية(1)، وهي قصر الشيخ مِزْعل الذي يطلق عليه لقب أمير المُحمّرة، قبل مصب القارون في الشط بمسافة قليلة، ويشكل النهر من هذه النقطة الحدود بين تركيا وبلاد فارس، وتربط الشيخ مزعل بشاه الفرس علاقة تبعيّة، ثم إنه شيعي على غرار أغلبية السكان العرب في جنوب بلاد ما بين النهرين، ويحظى الشيخ مزعل لدى الإنجليز بتقدير كبير لأسباب سياسية، ولذلك فإن كل باخرة حاملة للبريد تابعة للشركة البريطانية الهندية تحيّي القصر بطلقة مدفعية، وفي كثير من الأحيان يصعد الشيخ بنفسه على ظهر الباخرة لزيارة الربّان والملاحين، وقد استعمل مزعل إنجلترا وبلاد فارس ضد بعضهما حتى يؤمن لنفسه بعض الاستقلال الذي لم يكن أبداً استقلالاً حقيقياً، في مقابل ذلك كان والده الشيخ جَعْبر مستقلاً استقلالاً غير تام رغم أنه اعترف هو الآخر بسيادة الشاه، وأرسل ابنه الأكبر محمداً رهينة إلى طهران .

المحمّرة، القارون

وبعد وفاة الشيخ جعبر سنة ١٨٨٢م حصل ابنه الثاني مزعل على تزكية الشاه لتولي منصب الحاكم، وأرسلت حامية صغيرة من الجنود النظاميين إلى المحمّرة(2)، وتقرر دفع مبلغ أربعمائة وخمسين ألف قران سنوياً إليه، وفي سنة ١٨٨٩م اضطر الشيخ إلى الموافقة على استقرار ممثل للشاه في المحمّرة(3) ورضي بأن تعتبره الحكومة الفارسية مجرد حاكم بسيط، وأن تسند إليه لقب خان ومعزّ السلطنة، وهو منصب يتم تعيين صاحبه كل سنة من جديد، وينبغي على من يتولاه أن يقدم هدايا ويدفع مبالغ مالية لا يستهان بها، ومنذ ذلك العهد أصبحت الحكومة الإنجليزية الهندية هي الأخرى تطلق عليه رسمياً لقب حاكم المحمّرة(4)، وقد اغتيل مزعل سنة ١٨٩٧م، فتولى المنصب منذ ذلك العهد أخوه الشيخ خَزْعل .

تقع مدينة المحمّرة على مسافة قليلة داخل اليابسة على الضفة اليمنى لنهر قارون، وقد ارتفع عدد سكانها الذي كان قبل بضع سنوات لا يتجاوز أربعة آلاف نسمة فأصبح اليوم سبعة آلاف(5)، وتم فتح خط تلغراف فارسي إلى بو شهر، والأهواز، وديزفول، وشوشتر سنة

(1) يرتبط هذا الاسم باسم فيلي الذي يطلق على قبيلة كبيرة من قوم لور.

(2) قارن التقرير الإداري للمقيم السياسي في الخليج الفارسي، والوكالة السياسية في مسقط لسنة ١٨٨٣/١٨٨٤ م، ثم قارن – مختارات من سجل الحكومة الهندية، وزارة الخارجية، كالكوتا ص ٩ .

(3) قارن التقرير الإداري ١٨٨٨/ ١٨٨٩ م، ص ١٣.

(4) قارن التقرير الإداري ١٨٩٣/١٨٩٤ م، ص ٥٦.

(5) قارن التقرير الإداري ١٨٩٧/١٨٩٨ م، ص ٩٧.

١٨٩١م، وتم كذلك فتح خدمات بريد إلى شوشتر، ويملك البريد الإنجليزي الهندي هو الآخر مكتبا في هذه المدينة، وقد شيد نائب القنصل الإنجليزي – الذي هو الأوروبي الوحيد في المنطقة – لنفسه منزلاً ريفياً جميلاً على ضفة نهر قارون المقابلة، ويرجع الفضل في أهمية المحمّرة إلى كونها ميناء لدخول إقليم خوزستان الفارسي(١).

سمحت الحكومة الفارسية للبواخر منذ شهر أكتوبر ١٨٨٨م باستعمال نهر قارون الذي يصل إلى قلب خوزستان في المرحلة الأولى حتى مدينة الأهواز، ورغم أن الملاحة تلاقي صعوبات كبيرة بسبب المنعرجات العديدة وبسبب تغير مستوى المياه، فإن عدداً كبيراً من البواخر متوسطة الحجم يتنقل إلى الشمال حتى مدينة الأهواز التي تمنع المصاطب الصخرية عندها مواصلة الملاحة، وللتغلب على هذا الوضع أنشأت شركة محلية اسمها شركة ناصر منذ سنة ١٨٩١م خط سكك حديد صغيراً؛ لأن النهر لا يسمح بالتنقل شمال أهواز حتى مدينة شوشتر إلا للسفن الصغيرة(٢).

زيارة إلى البارجة الحربية بيرزيبوليس

بعد تناول طعام العشاء صعد على متن باخرتنا الضابط الأول للبارجة الحربية الفارسية برزيبوليس الراسية عند مصب القارون يصحبه نائب القنصل الإنجليزي، إضافة إلى ضابطين آخرين من رجاله، وقد كان قائد البارجة برزيبوليس السيد هاينكه - الذي كان في ذلك العهد في إجازة- وجميع الضباط الذين معه من الجنسية الألمانية، وكانت الباخرة التي تم صنعها في مدينة بريمن لنقل الركاب في الأصل، ثم تمّ ترتيبها لنقل الحجيج إلى مكة، وبعد ذلك تم رفع مقامها إلى بارجة حربية، وكانت تمثل في موقعها(٣) القوات البحرية الفارسية؛ ذلك أن اتفاقية سلام توركمانشاي التي تم إبرامها بين بلاد فارس وروسيا بعد حرب سنة ١٨٣٢م تقضي بأنه لا يجوز للبوارج الحربية الفارسية الملاحة والتنقل في بحر قزوين. غير أن هذه البارجة الحربية

(١) لم تبلغ المعاملات التجارية حجماً كبيراً بعد، غير أنها تزداد بسرعة، وتذكر التقارير الإنجليزية أن الصادرات بلغت ٤٥٧١٧ جنيهاً سنة ١٨٩١م و ٦٧٥٣٨ جنيهاً سنة ١٨٩٢م و ٨٩٠٣٩ جنيها سنة ١٨٩٣ م، وظل حجم الصادرات عند هذا المستوى، ثم ارتفع سنة ١٨٩٦م إلى أكثر من ١٢٦٠٠٠ جنيه، أما حجم الواردات فكان يزيد بنسبة ٢٥٪ على هذه الأرقام بصفة منتظمة.

(٢) تقوم شركة الفرات ودجلة الإنجليزية بحركة الملاحة على نهر قارون إضافة إلى شركة فارسية محلية، أما في شمال أهواز فإن حركة الملاحة لا تزال إلى اليوم مقتصرة على أهل البلاد.

(٣) تبقى الباخرة برزيبوليس جزءاً من السنة في بوشهر، حيث استأجر الضباط منزلاً خلال الفترة التي قضيتها في المدينة .

بالذات كانت لها أهمية كبيرة بالنسبة لخزينة البلاد الفارسية، ذلك أن دَخْل الحكومة من الضرائب التي تحصل عليها بلغ ثلاثة أضعاف ما كان عليه سابقاً منذ أن أصبحت البارجة تجوب الخليج الفارسي وفقاً لما تقتضيه مهمتها الأساسية، وتظهر بين الحين والآخر أمام المدن الساحلية الغنية في موسم دفع الضرائب. وفي صباح اليوم التالي ركبت زورقاً أرسل إليّ لأبلغ به الباخرة برزيبوليس، وكان الطاقم على ظهر السفينة والملاحون من الفرس والأكراد، والقائمون على توليد الطاقة من الكلدانيين، والعاملون على الأجهزة ثلاثة مسيحيين من بغداد، وكانت البارجة تبدو على درجة عالية من النظافة بسبب لونها الأبيض، وكان الطابق التحتي يحتوي على مجلس جميل ومكتب مريح، وكانت الأسلحة مدافع ألمانية من صنع كروب وغرفة كاملة مليئة بالبندقيات ذات التموين الخلفي .

بعد المحمّرة بمسافة قليلة تبدأ غابات النخيل في التضاؤل تدريجياً، في البداية على الجانب الفارسي وبعد ذلك بقليل على الجانب التركي، وقد كانت الضفاف منبسطة ولا تتميز عن النهر في شيء بسبب لونها الأصفر الضارب إلى الخضرة، أما شط العرب ذاته فإنه يزداد عرضاً وتظهر فيه مواضع مياه ضحلة، وأخرى تشكل مساطب من الوحل، الأمر الذي يستوجب حذقاً وحذراً في توجيه المراكب.

محطة التلغراف، الفاو

تقع على الضفة اليمنى القريبة من المصب محطة التلغراف الإنجليزية " الفاو "، التي لا تضم إلا بعض المباني التي شيد الأتراك لأنفسهم مواقع محصنة بالقرب منها، ومن الفاو يبدأ خط تلغراف البحر الفارسي الذي يتوجّه إلى كراتشي عبر بو شهر ولنجة ويشك وجوادور في بلوشستان، وكان يدير خط التلغراف في كراتشي في ذلك العهد رجل ألماني دمث الأخلاق يدعى بوسمان، نزلت ضيفاً عليه في وقت لاحق، ويشرف هذا الموظف - الذي كان في الوقت نفسه المندوب السياسي والمقيم البريطاني لجنوب بلوشستان - على خط التلغراف البري من بوشهر إلى أعماق بلاد فارس أيضاً، وكانت باخرة حربية تابعة للقوات البحرية الهندية تدعى لورنس قد أرست قلاعها أمام الفاو، وتحمل في مؤخرتها وعلى صناديق الدواليب عدة مدافع من نوع هوتشكس .

مصب شط العرب، الخليج الفارسي

يبدأ الحاجز الكبير لشط العرب الذي يمنع الدخول إلى النهر على مسافة تقارب نصف ساعة وراء الفاو، وبينما يبلغ عمق النهر من هنا حتى البصرة بين خمسين وستين قدماً، فإنه لا يمكن عبور الحاجز دون مخاطرة إلا لسفن ذات عمق أقل من سبع وعشرين قدماً، ثم إن هذا الحاجز يتركب من طمي لين؛ ولذلك فإن قاع البواخر الكبيرة - التي لا تعبره إلا في فصل المدّ - يقطع الطبقة العليا من الحاجز، ونظراً للترسب الشديد للطمي في النهر فإن الحاجز يتغير شكله باستمرار، وتضطر السفن الكبيرة في كثير من الأحيان إلى نقل جزء من حمولتها على سفن أصغر حجماً ثم تستعيدها منها بعد عبور الحاجز، وبمجرد تجاوز الحاجز الذي لامس قاع سفينتنا فيه الوحل، أصبحنا على وشك الدخول في عُرْض بحر الخليج الفارسي.

وصلنا صباح يوم السابع عشر من سبتمبر إلى بوشهر - في الواقع: أبو شهر- وهنا اضطررنا إلى البقاء في عزلة تحفظية مدة أربع وعشرين ساعة، و لم أتمكن من مغادرة السفينة مع دليل إلا عند الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، وحيث إن الساحل قليل العمق عند بو شهر- وبصفة عامة لا يحتوي الخليج الفارسي في حد ذاته مطلقاً على أي مياه عميقة- فإنه كان على الباخرة أن تبقى بعيداً جداً عن الميناء في عرض البحر، الذي كان مكشوفاً تماماً في وجه الرياح السائدة في المنطقة - الشرقي يعني جنوب شرقي، والشمالي يعني شمال غربي - .

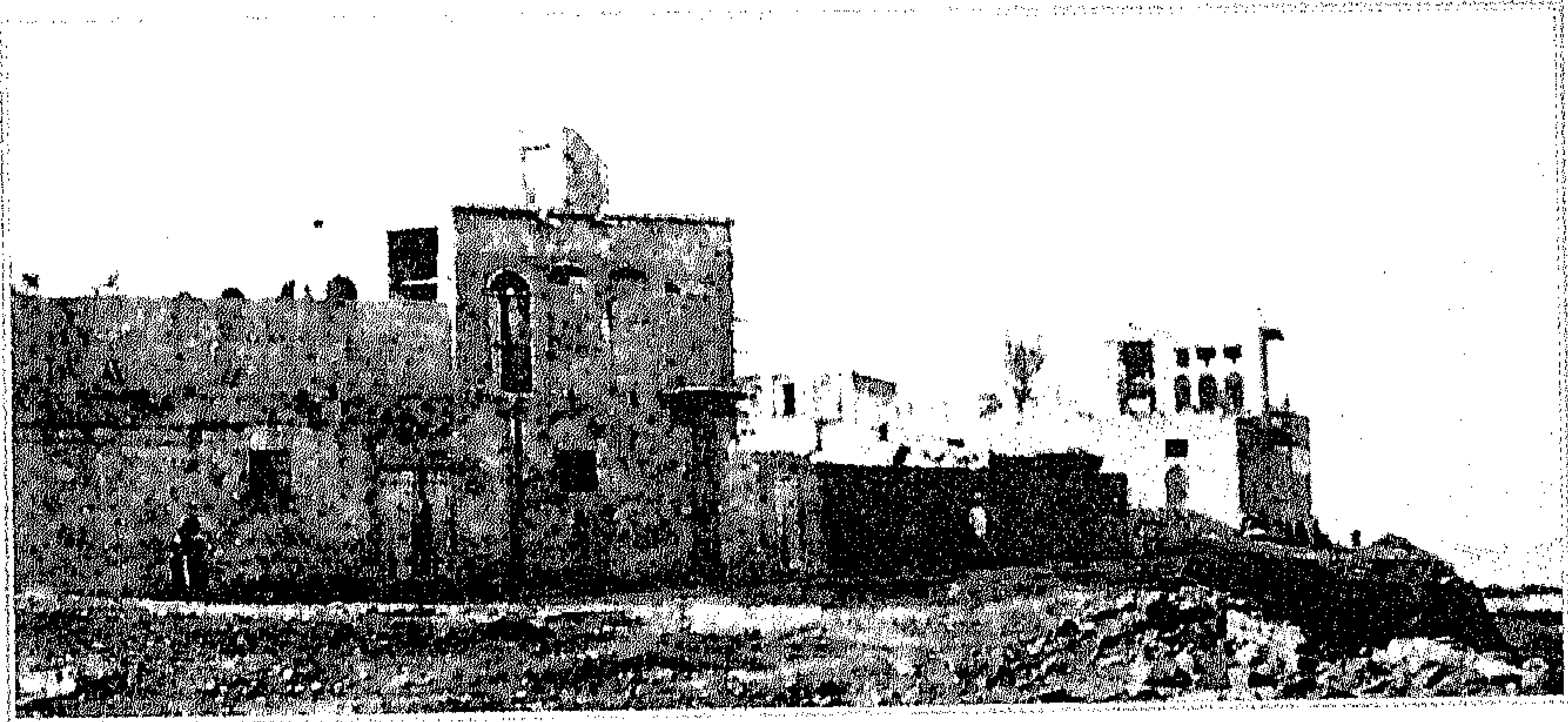


الفيضانات في جنوب بلاد ما بين النهرين

استغرقت الرحلة من موضع رسوّ الباخرة قرابة نصف ساعة، وعند وصولنا إلى رصيف الجمارك كان علينا أن ننتظر ثلاث ساعات كاملة مجيء طبيب أسمر اللون كان يشرف على عزل المسافرين، وكان أصيل منطقة جووا، ويعني ذلك أنه كان خِلاسيّاً من خليط برتغالي وجنوب هندي، عند ذلك استطعت الذهاب إلى مقر وكالة الشركة البريطانية الهندية، حيث تولى السيد جاردنر مهمة قيادتي عبر المدينة بكثير من اللطف والتودد.

بوشهر، الطرقات والمساكن

تقع بو شهر على الطرف الشمالي لجزيرة قليلة العرض تمتد من الشمال إلى الجنوب، ولا يربطها باليابسة إلا لسان بري ذو طابع مستنقعي، ولا ترتفع أرض المدينة إلا مقدار أقدام قليلة عن مستوى البحر، وبناء على ذلك فإن الظروف الصحية كانت غاية في السوء، إضافة إلى الحمى الثقيلة يتمثل أكبر مصدر للخطر في "دودة غينيا" في المياه الراكدة داخل الصهاريج. شوارع بوشهر ضيقة وملتوية وفي وسطها أخاديد عميقة تبلغ في كثير من الأحيان نصف متر، وتمتد المنازل الثابتة امتداداً متواصلاً على مساحة ضيقة، كما تقوم على الأراضي غير المبنية أكواخ من قصب الحلفاء، ومما يسترعي الانتباه على السطوح البناء الجميل للأعمدة المزخرفة تعلوها أحياناً عدة أقواس مستديرة تتراكم فوق بعضها على هيئة الطوابق، في هذا الجزء توجد البراجيل "ساحبة الرياح" التي تجلب التيار اللطيف من الطبقات العليا للهواء إلى الغرف السفلية، وهي ظاهرة لاحظتها بشكل مصغر في بعض المنازل في بغداد (١).



مدينة بوشهر في الخليج

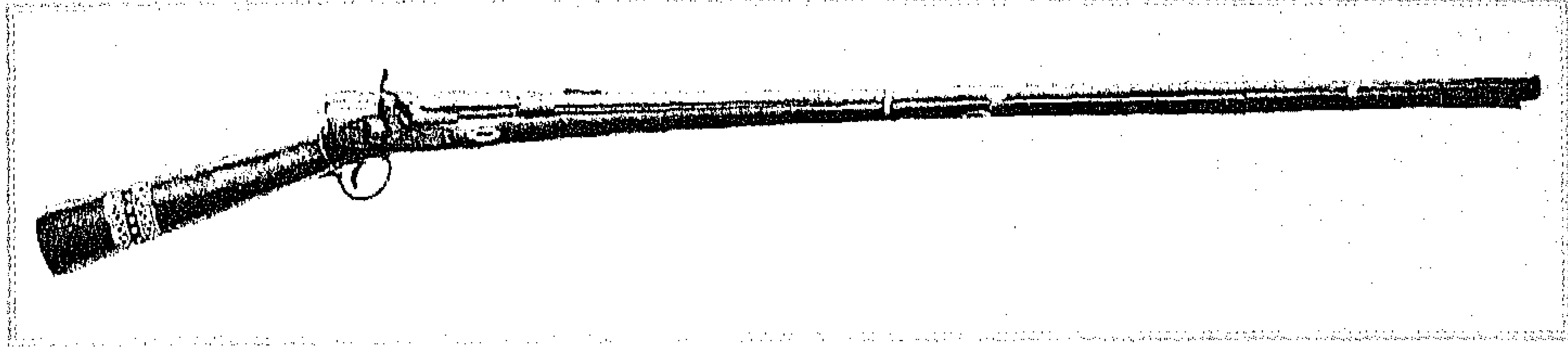
ومما يجلب الانتباه أيضاً النوافذ الكثيرة المصنوعة بشكل جميل جداً، حيث تغطيها زخارف فارسية مصنوعة من الجبس والخشب، وأحيانا يرصّع الخشب المحفور بقطع ملونة من الزجاج، وكان رجل أرمني يدير مطعماً فيه لعبة البلياردو، ويمكن شراء المواد الغذائية المعلبة والجِعَة والويسكي وماء الصودا التي تستهلك فوراً من المكان نفسه، ويمكن كذلك تناول وجبات ساخنة في هذا المطعم.

---

(١) قارن فيما سبق الفصل ٦، ص ٢٣٠.

المركز التجاري في بوشهر

في الأسواق مختلف أنواع البضاعة، غير أنها أصغر بكثير من أسواق البصرة وليس فيها بضاعة تسترعي الانتباه، لكن يوجد عدد كبير من تجار الحلويات وصنّاع الأسلحة، الذين لا يزالون يصنعون البندقيات الفارسية الطويلة ذات الزناد الحجري والقاعدة الكبيرة المدورة، كما يصنعون أيضا الخناجر ذات النصال العريضة، وتطغى تجارة الجملة على السوق، في حين أن تجارة التجزئة قليلة لصغر المدينة، وقلة عدد السكان في المناطق المجاورة. تعتبر حركة البواخر في بو شهر نشيطة نسبياً(١)، والسفن الشراعية التي تدخل الميناء وتجوب الخليج الفارسي بصفة عامة عددها غير قليل، وهي تحمل في العادة الجنسية الفارسية، أو التركية، أو العربية، أو تكون تابعة لمسقط، ويملك أغلبيتها العرب المقيمون على الساحل الفارسي والعربي من الخليج على حد سواء.



بندقية فارسية

(١) حركة الملاحة في بو شهر.
قارن التقارير الإدارية ١٨٩٣/١٨٩٤م، ص ٢٩ ، ١٨٩٤/١٨٩٥م، ص ٣٠ ، ١٨٩٧/١٨٩٨م، ص ٣٦

الجنسية	السنة	سفن شراعية		بواخر		المجموع	
		العدد	الوزن	العدد	الوزن	العدد	الوزن
بريطانية	١٨٩٣	٣٠	٢٤٠٠ طن	١٠٧	١١٤٥٣٣	١٣٧	١١٦٩٣٣
	١٨٩٤	٣٥	٦٨٠٠	١١١	١٢٩٦٣٨	١٤٦	١٣٦٤٣٨
	١٨٩٥	٣٠	٢٤٠٠	١٣٢	١٧٠٤٣٤	١٦٢	١٧٢٨٣٤
	١٨٩٦	٢٢	١٧٦٠	١١٢	١٣٣٢٧٧	١٣٤	١٣٥٠٣٧
	١٨٩٧	١٨	١٤٢٠	٩٠	٩٨٤٩٤	١٠٨	٩٩٩١٤
تركية	١٨٩٣	٣٥	٢١٠٠ طن	٢	٢٧٦٩	٣٧	٤٨٦٩
	١٨٩٤	٤٠	٦٤٠٠	٢	٢٦٦٨	٤٢	٩٠٦٨
	١٨٩٥	٣٥	١٧٥٠	١	١٣٨٩	٣٦	٣١٣٩
	١٨٩٦	٤٥	٢٢٥٠	٢	٢٢٠٠	٤٧	٤٤٥٠
	١٨٩٧	٥٠	٢٥٠٠	١	١٢١٥	٥١	٣٧١٥
فارسية	١٨٩٣	١١٥	٧٤٧٥ طن	–	–	١١٥	٧٤٧٥
	١٨٩٤	١٥٠	٦٠٠٠	–	–	١٥٠٤٢	٦٠٠٠
	١٨٩٥	١٣٥	٥٤٠٠	–	–	١٣٥	٥٤٠٠
	١٨٩٦	١١٠	٤٠٠٠	–	–	١١٠	٤٠٠٠
	١٨٩٧	١٥٠	٤٥٠٠	–	–	١٥٠	٤٥٠٠

أما السفن التابعة لمسقط فإنها تحمل في أغلب الأحيان الراية الفرنسية بناء على ما ورد في سجلات الإقامة الإنجليزية في بو شهر سنة ١٨٩٦ و١٨٩٧م[1]، وتبلغ حمولة السفن الشراعية في كثير من الأحيان ثلاث مائة طن، وفي العادة يكون الجزء الخلفي من السفينة مرتفعاً، وغالباً ما يكون لها صاريتان تحملان أشرعة عظيمة تذكّر بالسفن الشراعية في القرون الوسطى،

=	١٨٩٣	١٥	٢٢٥٠ طن	–	–	١٥	٢٢٥٠
	١٨٩٤	٦٠	٦٠٠٠	–	–	٦٠	٦٠٠٠
تابعة لمسقط	١٨٩٥	١٧	١٧٠٠ *	–	–	١٧	١٧٠٠
	١٨٩٦	٢٥	٢٢٥٠ #	–	–	٢٥	٢٢٥٠
	١٨٩٧	٢٠	٢٠٠٠	–	–	٢٠	٢٠٠٠
	١٨٩٣	٢٥	١٢٥٠ طن	–	–	٢٥	١٢٥٠
	١٨٩٤	٣٠	١٦٠٠	–	–	٣٠	١٦٠٠
عربية	١٨٩٥	٣٥	١٤٠٠	–	–	٣٥	١٤٠٠
	١٨٩٦	٤٠	١٦٠٠	–	–	٤٠	١٦٠٠
	١٨٩٧	٣٥	١١٢٥	–	–	٣٥	١١٢٥
	١٨٩٣	–	–	–	–	–	–
	١٨٩٤	–	–	٦	٧٢٠٣	٦	٧٢٠٣
نرويجية	١٨٩٥	–	–	١	٩٩٤	١٣٥	٩٩٤
	١٨٩٦	–	–	–	–	–	–
	١٨٩٧	–	–	–	–	–	–
	١٨٩٣	–	–	–	–	–	–
	١٨٩٤	–	–	٢	١٠٠٠	٢	١٠٠٠
فرنسية	١٨٩٥	–	–	–	–	–	–
	١٨٩٦	–	–	١٢	١٦٧٠٧	١٢	١٦٧٠٧
	١٨٩٧	–	–	١	٨٥٠	١	٨٥٠
	١٨٩٣	–	–	–	–	–	–
	١٨٩٤	–	–	–	–	–	–
ألمانية	١٨٩٥	–	–	٣	٣١٩٣	٣	٣١٩٣
	١٨٩٦	–	–	١	١٩٢٦	١	١٩٢٦
	١٨٩٧	–	–	–	–	–	–

*) جميعها تحت الراية الفرنسية

#) أغلبها تحت الراية الفرنسية

	١٨٩٣	–	–	–	–	–	–
	١٨٩٤	–	–	–	–	–	–
هولندية	١٨٩٥	–	–	١	٦٩٦	١	٦٩٦
	١٨٩٦	–	–	–	–	–	–
	١٨٩٧	–	–	–	–	–	–
	١٨٩٣	–	–	–	–	–	–
	١٨٩٤	–	–	–	–	–	–
نمساوية	١٨٩٥	–	–	–	–	–	–
	١٨٩٦	–	–	–	–	–	–
	١٨٩٧	–	–	١	٨٣٥	١	٨٣٥

(١) قارن التقارير الإدارية ١٨٩٦/١٨٩٧م، ص ٢١ و٢٢ و١٨٩٧/١٨٩٨م، ص ٣٦ و٣٧. يسعى كثير من سكان مسقط وحضرموت، وكذلك سكان الساحل الصومالي إلى الحصول على حق استعمال الراية الفرنسية للإفلات من تفتيش السفن عن العبيد، ويمكن الحصول على هذا الحق مثلاً بشراء البضاعة من المستعمرة الفرنسية جيبوتي وعبك، والاستقرار هناك مدة من الزمن.

وتسافر هذه السفن حتى الهند وزنجبار[١]، وهي السفن نفسها التي كان يستعملها قراصنة الخليج الفارسي حتى منتصف القرن الجاري .

أهم صادرات بوشهر هي: الأفيون ومنتجات الصوف والقمح والأسلحة والذخيرة والقطع النقدية والتبغ واللوز والجلود والفرو واللآلئ والمنتجات القطنية والصوف والمطاط، أما أهم الواردات فهي المنتجات القطنية والأسلحة والذخيرة والقطع النقدية والشاي والأصباغ الهندية والمنتجات المعدنية والسكر وأقماع السكر ومنتجات الصوف والخيوط والحبال والأدوية والنحاس والمنتجات السكرية والخزف[٢].

تاريخ بوشهر

لقد جعل نادر شاه من بو شهر - التي ظلت حتى منتصف القرن الماضي قرية غير ذات بال، تعيش فيها مجموعة من صيادي السمك - مدينة معتبرة، وقرر أن تكون ميناء للأسطول الحربي الفارسي الذي أسسه، غير أن وفاته المبكرة حالت دون تحقيق مخططاته البحرية ؛ ولذلك ما لبث

=		سفن شراعية		بواخر		المجموع	
الجنسية	السنة	العدد	الوزن	العدد	الوزن	العدد	الوزن
	١٨٩٣	—	—	—	—	—	—
	١٨٩٤	—	—	—	—	—	—
أمريكية	١٨٩٥	—	—	—	—	—	—
	١٨٩٦	—	—	—	—	—	—
	١٨٩٧	—	—	١	٩١٨	١	٩١٨
	١٨٩٣	—	—	٢	٢٢٦٤	٢	٢٢٦٤
	١٨٩٤	—	—	—	—	—	—
بلدان أخرى	١٨٩٥	—	—	—	—	—	—
	١٨٩٦	—	—	—	—	—	—
	١٨٩٧	—	—	١	٩١٨	١	٩١٨
	١٨٩٣	٢٢٠	١٠٤٧٥	١١١	١١٩٥٦٦	٣٣١	١٣٥٠٤١
	١٨٩٤	٣١٥	٢٦٨٠٠	١٢١	١٤٠٥٠٩	٤٣٦	١٦٧٣٠٩
المجموع	١٨٩٥	٢٥٢	١٢٦٥٠	١٣٨	١٧٦٧٠٦	٣٩٠	١٨٩٣٥٦
	١٨٩٦	٢٤٢	١١٨٦٠	١٢٧	١٥٤١١٠	٣٦٩	١٦٥٩٧٠
	١٨٩٧	٢٧٤	١٢٤٦٣	٩٣	١٠١٣٩٤	٣٦٧	١١٣٨٥٧*

*) يعود انخفاض أرقام النشاطات التجارية في الخليج الفارسي خلال السنوات الأخيرة إلى انتشار وباء الطاعون في الهند الذي قطعت بسببه شركة ميساجوري ماريتيم رحلاتها في الخليج، قارن أيضاً فيما يلي الهامش ٣، والهامش ٣ على ص ٣٣٤، والهامش ١ على ص ٣٣٨.

(١) قارن فيما سبق الفصل ٨ ص ٣٠٦

(٢) يعطي الجدول التالي – الصفحة التالية – تفصيلاً للصادرات والواردات إلى بو شهر بالروبية، مفصلة حسب البلدان المختلفة – قارن التقارير الإدارية ١٨٩٤/١٨٩٥م، ص ٣٠ و١٨٩٧/١٨٩٨م، ص ٢٧ و٣٥. قارن أيضا السجل التجاري الألماني بخصوص المعاملات التجارية لبو شهر والخليج الفارسي سنة ١٨٩٦م، الجزء الثاني، ص ٦٥٢ وما يليها، تعادل الوبية ١.٤٠ ماركاً ألمانياً.

الأسطول الذي تكون بشقّ الأنفس أن فسد، وأثار حطامه سخرية جميع الرحالة الأوروبيين، غير أن تجارة الخليج الفارسي انتقلت إلى هذا المكان، وبذلك أصبحت بوشهر المركز التجاري لجنوب بلاد فارس عوضاً عن الميناء الحربي، وقد نقل الإنجليز مكتب وكالتهم منذ عهد نادر شاه من بندر عباس إلى بو شهر، ومنذ ذلك العهد سيطرت التجارة الإنجليزية الهندية في هذه البقاع.

منذ القرن السابع عشر حاول الهولنديون - كما حاول الفرنسيون في العصر الحديث - منافسة الإنجليز على الميدان، غير أن مساعيهم لم تكلل بالنجاح، رغم أن كلتا القوتين قد فتحت لنفسها في بوشهر مركز تمثيل لهذا الغرض بالذات .

....

= التصدير بالروبية

البلد	١٨٩٣	١٨٩٤	١٨٩٥	١٨٩٦	١٨٩٧
بريطانيا العظمى	١٧١٩٧٧٠	١٧٥٤٣٧٠	٢٨٢٢٢٩٠	١٨١٤٠١٨	١٥٤٩٧٢٣
الهند	—	—	١٢٣٩١٩٠	١٢٩٩٩٢٨	١٢١٢٧٦٨
الهند الشرقية والمستعمرات	٢٥٥٣١٥٠	١٨٧٦٦٦٠	—	—	—
فرنسا	—	—	—	٢٠٤١٧	٤٠٧٢٣
ألمانيا	—	—	—	٣٢٨٠	١٢٤٨٥
النمسا	—	—	—	٥٧٦٣	٢٥٠
بلجيكا	—	—	—	٧٢٤٢	—
روسيا	—	—	—	—	١٥
روسيا الآسيوية	—	—	—	—	—
سويسرا	—	—	—	٢٥٥	—
اليونان	—	—	—	—	٤٩٢٨
مالطا	—	—	—	٢٩١٣٥	٦٣٠٢
بقية أوروبا	٥٢٢٨٠	٥٢٢٧٠	٢٨٦٤٠	—	—
تركيا	٣١٢٧٢٠	١١٣٢٦٢٠	٧٣٥٢٠٠	٣٨٥٧٤٢	١١٧٨٠١
مصر	٥٢٨٤٠٠	٤٢٤٥٠٠	٧٧٢٢٩٠	٤٦٩٦٦١	٢٤٤٩٣٥
لارناكا	—	—	—	٧٩٥٦	٢٥٤٨
الجزائر	—	٤٢٠	—	٥٤٤	—
عمان– مسقط	١٣٠٢٠	٢٥٨٧٠	٦٢٣١٠	٢١٠٣٢١	١٩٢١١٨
مسقط	—	—	—	—	—
البحرين والساحل العربي	١١٤٨٨٠	١٤٥١٦٠	١٠٢٦٩٠	—	—
البحرين	—	—	—	١٤١٩٥٦	٦٣١٨٨
الساحل العربي	—	—	—	٢٧٢	—
الموانئ الفارسية	—	—	٥٧٧٥٢٠	٣٥٦١٦٥	٢٣٨١٩٥
موريشيوس	—	—	—	—	—
زنجبار	—	٧٢٢٠	١٠٢٧٠	٦٥١١	١٠٠٨٢
هولندا ومستعمراتها	—	—	—	—	١٠٠٠
الصين	٢٩١٩٠٠٠	٤١١٦٤٩٠	٣١٦٨٤٨٠	٢٧٢٦٦٤٤	٢٥٨٣٣٦٠
أمريكا	—	—	—	٤٥٩	١١٠
المجموع	٨٢١٣٢٢٠	٩٥٣٥٥٨٠	٩٥١٨٨٨٠	٧٤٨٥٢٨٩	=٦٢٨٠٥٢٦

وقد استطاعت التجارة الألمانية في هذه الأثناء أن تُرْسخ أقدامها في المنطقة، فقد تمّ فتح خط للملاحة البخارية من بريمن إلى بو شهر سنة ١٨٩٥ م، وما لبث أن أهمل من جديد بسبب تفشّي وباء الطاعون في الهند، وفي الوقت الحاضر استقرت إحدى الشركات التجارية في بو شهر، وهي هاينكه وشركاؤه التي أسسها القائد السابق للباخرة برزيبوليس، وتملك الدولة الألمانية منذ سنة ١٨٩٧م في بوشهر مكتب نائب القنصل .

....

=

التوريد بالروبية

البلد	١٨٩٣	١٨٩٤	١٨٩٥	١٨٩٦	١٨٩٧
بريطانيا العظمى	٧٧٣٩٣٨٠	٩٦١٣٩٦٠	١٢٢٣٥٠٠٠	٦٦٩٩٦٤٧	١٢٣٨٢٠٨٠
الهند	—	—	٤٤٦٤١٤٠	٣٩٠٣١٣٨	٣٣٣٦١١٠
الهند الشرقية والمستعمرات	٦٢٤٤٢٦٠	٦٩٩١٠٠٠	—	—	—
فرنسا	—	—	—	١٦٨٢٢١٧	٨٩٩٢٣٠
ألمانيا	—	—	—	٥٠٠	٣١٦٩٠
النمسا	—	—	—	٦١٤٩٥	٣٤١٤٠
بلجيكا	—	—	—	٥٥٥٤٠	١٢٢٢٠
روسيا	—	—	٥٠٠٠٠	٣٥٩٨٠	١٢٠٠٠
روسيا الآسيوية	—	٤٨٠٠٠	—	—	—
سويسرا	—	—	—	—	—
اليونان	—	—	—	—	—
مالطا	—	—	—	—	—
بقية أوروبا	١٢٣٢٧٥٠	٩٢١٨٣٠	—	—	—
تركيا	١٣٠٠٥٠	١٧٥٩٩٠	٤١٤٥٠٠	٤٤٢٨٦٧	٤١٣١١٠
مصر	٢١٠٤٠	٢٨٨٠٠	٢٥٠٢٠	—	١٦٩٦٩٠
لارناكا	—	—	—	—	—
الجزائر	—	—	—	—	—
عمان– مسقط	١٩١٧٠	٢٣٩٨٠	—	—	—
مسقط	—	—	١٦٠٠٠	١٥٤٢٣٥	١٧٩٥٠٠
البحرين والساحل العربي	٢٩١٦٠	١٢٦٧٠	٥٧٣٠	—	—
البحرين	—	—	—	٢٤٢٩٥	٢١٥٠٣٠
الساحل العربي	—	—	—	—	—
الموانئ الفارسية	—	—	٣٢٥٨٢٠	٢٥٢٤٢٩	٤٣٩٣٢٠
موريشيوس	—	—	—	٢٩٨٢	—
زنجبار	١٦٥٠٠	١٩٦٥٠	١٤٨٥٠	٢٠٤٠٠	٢٥٤٥٠
هولندا ومستعمراتها	—	—	—	—	—
الصين	٩٩٦٧٠	٢٢٨٥٥٠	١٤٤٨٧٠	٦٥٣٥٥	١٧٥٢٠٠
أمريكا	—	—	—	—	—
المجموع	١٥٥٣١٩٧٠	١٨٠٦٤٤٨٠	١٨٣٠٤٤٩٠	١٣٤٠١٠٨٠	١٨٣٢٥٢٧٠

سكان بوشهر

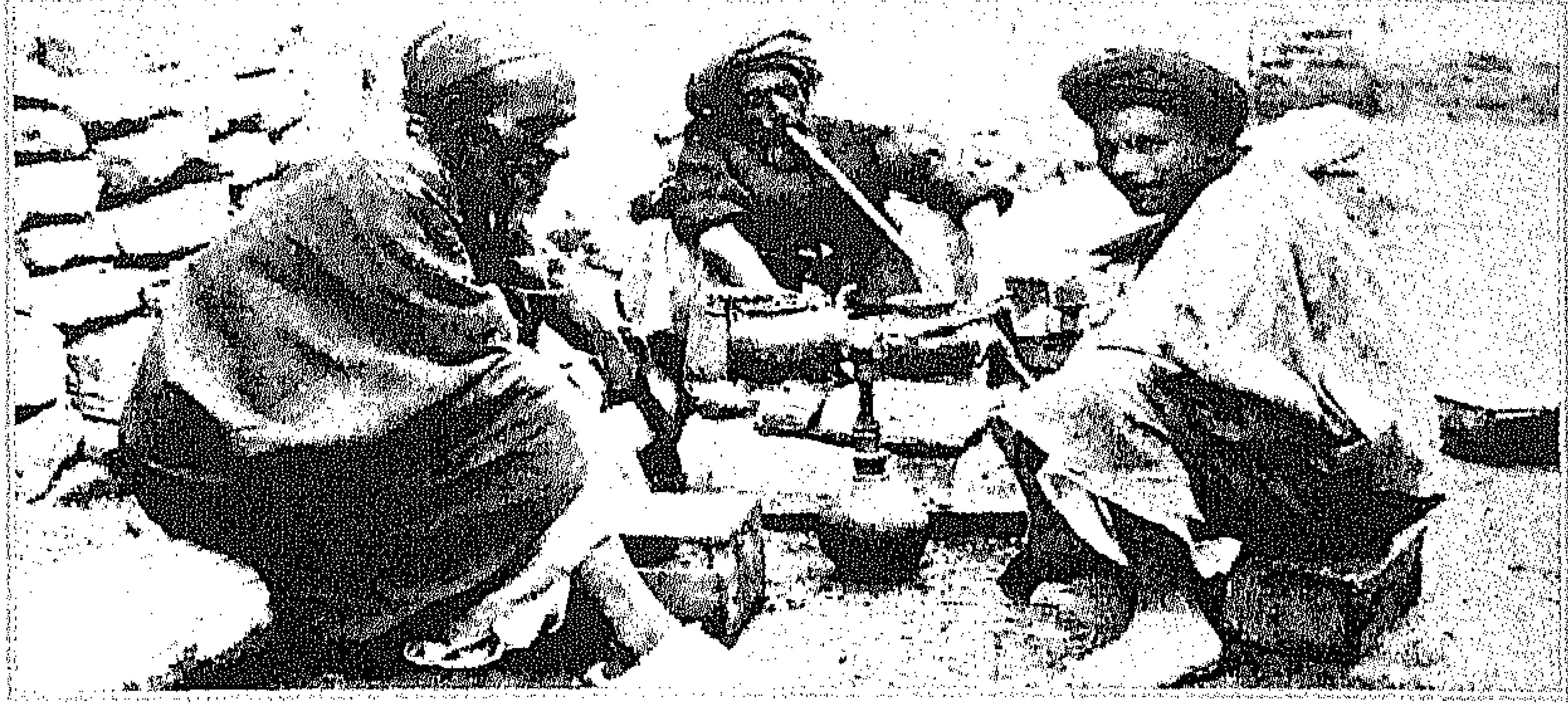
يبلغ عدد سكان بو شهر اليوم بين عشرين وثلاثين ألف نسمة، من بينهم عدة مئات من الأرمن واليهود، أما الأوروبيون الذين يبلغ عددهم بين عشرين وخمسة وعشرين شخصاً فمعظمهم من الإنجليز، وغالبية السكان من أصل عربي.

يقع مقر الإقامة العامة على بعد مسافة قليلة خارج المدينة الفارسية الحقيقية على مقربة من البحر، وهو القصر العظيم المحصن للقنصل العام الإنجليزي، ومحطة التلغراف الإنجليزية، وقد أسست الشركة الهندية في ذلك الوقت مركز تمثيل رسمي في الخليج الفارسي، كما فعلت ذلك في بغداد، ويخضع هذا المركز إلى نائب الملك في الهند، وإلى وزارة الخارجية على حد سواء، ويشرف المقيم السياسي في الخليج الفارسي على المندوب السياسي في مسقط، الذي هو في الوقت نفسه قنصل إنجليزي، كما يشرف أيضاً على نائب القنصل في المحمّرة وعدة مندوبين في الخليج من أهل البلاد، وتكافئ الحكومة منصب المقيم مكافأة جيدة، ثم إنها جعلت بوارج حربية وجنوداً تحت تصرفه الدائم(١)، وفي جنوب المدينة قصر صيفي للمقيم الإنجليزي، إضافة إلى مساكن صيفية للجالية الإنجليزية، عند ريشهر القديمة وهي المدينة التي كانت قائمة في العصور الوسطى في الموضع الحالي لمدينة بوشهر، وقد اختفت آثار المدينة القديمة تماماً باستثناء بقايا قلعة، وهذه القلعة ربما تعود إلى عهد البرتغاليين، ورغم ذلك فقد كشفت الحفريات القليلة التي تم إجراؤها عن عدة بقايا قديمة تعود إلى العهد البابلي(٢).

(١) هؤلاء الجنود هم الذين ينتمون إلى الجيش الهندي، ويطلق عليهم اسم سيبويز، والبوارج الحربية المتمركزة في الخليج الفارسي هي من نوع البواخر ذات الدواليب، وهي تنتمي إلى البحرية الهندية المستقلة، وتماثل مناصب المقيمين السياسيين في بغداد وبو شهر مناصب المقيمين في إمارات شبه جزيرة الهند الشرقية الكبرى التي لا تزال مستقلة في إدارتها، وعند زيارتي للمنطقة كان العقيد تالبوت هو المقيم السياسي في الخليج، وهو الذي خلف السير إدوارد روس المعروف ببحوثه العلمية، والذي شغل مدة طويلة منصب المقيم السياسي، وهو أيضاً حمو القنصل العام في بغداد السيد موكلر.

يقدم المقيمون السياسيون في بو شهر سنوياً تقريراً إدارياً تطبعه الحكومة في كلكوتا ويشمل إلى جانب الأخبار السياسية والتجارية تقارير جيدة يحررها الموظفون الإنجليز حول جميع القضايا التي تدور في نطاق إدارتهم، وقد ظهرت هذه التقارير منذ سنة ١٨٧٦م في نشرات سميكة مستقلة بعنوان – مختارات من سجل الحكومة الهندية، وزارة الخارجية – وتحتوي الجداول الكثيرة على تفاصيل دقيقة حول المحمّرة، وبو شهر، ولنجة، وجزر البحرين، وساحل القراصنة، وبندرعباس، ومسقط، وتتعلق هذه المعلومات بالاستيراد والتصدير وحركة الملاحة البحرية، غير أنه يمكن بين الحين والآخر ملاحظة أخطاء ونواقص يصعب تبريرها في هذه التقارير، أما المعلومات السياسية التي لا تستحق الاهتمام في بعض الأحيان، وتؤكد بطبيعة الحال على إبراز وجهة النظر الإنجليزية، فهي تمثل مصدراً مهماً للتاريخ الحديث للخليج الفارسي ومناطقه الساحلية.

(٢) قارن توماشيك – شروح طوبوغرافية لرحلة نيرتش الساحلية، تقارير اجتماعات الأكاديمية العلمية في فيينا، الجزء ١٢١ لسنة ١٨٩٠م ص ٦٢– ، وقد عثر الدكتور أندرياس سنة ١٨٧٣م عند هضبة بالقرب من بو شهر على عدد من قطع الآجر الكبيرة التي تحمل كتابات على هيئة الكتابة المسمارية ذهب البعض منها إلى المتحف الملكي في برلين، وفي سنة ١٨٧٧م ذهبت عدة قطع من الآجر التي تحمل اسم ملك عِلاميّ [المترجم : قد تكون النسبة إلى مدينة علائيا في جنوب غرب تركيا التي ازدهرت في عهد السلاجقة] إلى المتحف البريطاني، قارن التقارير الإدارية ١٨٧٧/١٨٨٨م، ص ١٢ .



أشخاص من بوشهر

تقوم في وسط مدينة بو شهر كنيسة أرمنية، بجانبها فناء فيه عدد من قبور الإنجليز الذين وافتهم المنية في هذه الربوع، من بينها قبران لضابطين سقطا في معارك سنة ١٨٥٧م أثناء استيلاء الإنجليز على بو شهر.

انطلاقاً من بوشهر توجهت الرحلة محاذية للساحل الفارسي من الخليج، في البداية باتجاه الجنوب الشرقي ثم باتجاه الشرق، وتنتهي السهول المرتفعة في جنوب بلاد فارس إلى الساحل في انحدار حادّ، وتسجل الخرائط البحرية الإنجليزية أن بعض قمم الجبال المجاورة تبلغ ارتفاعاً يتجاوز عشرة آلاف قدم، ويبدو أن الثلوج تغطيها في فصل الشتاء، أما الشاطئ الضيق فإنه يبدو مقفراً إلا من بعض مجموعات النخيل التي تظهر بين الفينة والأخرى، وتشير إلى وجود قرية ثابتة، وأكبر هذه القرى هي محطة البواخر التي تدعى لنجة وتقع على الساحل عند النقطة التي ينعطف فيها الساحل في اتجاه الشمال الشرقي، وقد أرسينا في مكان بعيد خارج المدينة التي تكتسي طابعاً أكثر جمالاً وأقرب إلى الطابع الريفي من مدينة بوشهر، ولها شوارع أكثر اتساعاً لكن منازلها أقل ارتفاعاً، وكان المشهد المطل من البحر على حدائق النخيل المختبئة في القرية آية في الروعة والجمال.

لنجة ، صيد اللؤلؤ ، الملاحة والتجارة

المهنة المميزة للنجة هي صيد اللؤلؤ الذي ظل أهل هذه الربوع يمارسونه منذ أقدم العصور(١)، ويشتري تجار الجملة القلائل من بومباي هذه اللآلئ من الصيادين، ويدفعون

(١) قارن موبيوس – اللآلئ الأصلية، هامبورج ١٨٥٧م، ص ٢٧ وما يليها.

أثمانها بناء على الوزن والحجم، أما المنطقة الحقيقية لصيد اللؤلؤ فهي الساحل العربي، خاصة شمال غرب شبه جزيرة قطر، ويمثل تجار الجملة العرب الذين يسيطرون على صيد اللؤلؤ قوة سياسية هناك(١)، وتحظى لنجة بأهمية أيضاً بوصفها ميناء(٢) تشحن منه على وجه التخصيص تلك الكميات الكبيرة من السجاد المصنوع في بلاد فارس خاصة في كرمان ويزْد، وبفضل ازدياد الطلب على هذه البضاعة في أوروبا ارتفع مستوى صناعة السجاد الشهيرة منذ قديم الزمان بشكل عجيب في جنوب بلاد فارس بالذات، رغم أن فائض الإنتاج يتسبب لا محالة في بعض المشاكل، ويقدر عدد السكان نحو اثني عشر ألف نسمة إذا صحّت المعلومات التي مدّني بها المدير الهندي للبريد الإنجليزي، وهو مسلم يدعى الشيخ أحمد هندي، ويبدو أن المذهب السني هو المذهب السائد بين المسلمين، وبناء على ذلك ينبغي أن يكون الجزء الأكبر من السكان عربي الجنسية، أما السادة أصحاب النفوذ، وهم الشيعة الفرس، فإنهم يمثلون الأقلية، وعدد الهنود البراهمة لا يتجاوز العشرين .

(١) قارن بخصوص صيد اللؤلؤ في الخليج الفارسي مذكرة الشروح المستفيضة لدوران في التقرير الإداري ١٨٧٧/١٨٧٨م، ص ٢٧ وما يليها، وقارن بالنسبة للأوزان والمقاييس المستعملة في تجارة اللؤلؤ مذكرة موكلر في التقرير الإداري ١٨٨٥/١٨٨٦م، ص ١١٠ وما يليها.

(٢) يعطي الجدول التالي بناء على مصادر إنجليزية فكرة شاملة حول التصدير والاستيراد للنجة بالروبية، مفصلة حسب البلدان المختلفة، قارن التقرير الإداري ١٨٩٤/١٨٩٥م، ص ٣٥ و ١٨٩٧/١٨٩٨م، ص ٤٢ و٤٨ :

التصدير بالروبية

البلد	١٨٩٣	١٨٩٤	١٨٩٥	١٨٩٦	١٨٩٧
بريطانيا العظمى	٩٧٠٠٠	٣٧٠٠٠	٤٨٠٠٠	٤٠٢٠٠	٤٨٩٠٠
الهند	—	—	٤٦٨١٦٠٠	٤٦٢٤٧٠٠	٤٢٧٠٣٤٠
الهند الشرقية والمستعمرات	٤٩٥٥٠٠٠	٤٤٨٤٧٠٠	—	—	—
تركيا	٥٣٥١٠٠	٥٥٨٢٠٠	٤٧٠٠٠٠	٣٢٧٤٠٠	٣٤١٩٠٠
عمان– مسقط	١٣٥٨٥٠	١٥٣٧٥٠	—	—	—
مسقط	—	—	١٠٨٣٠٠	٢٢٣٦٠٠	٢١٥٨٩٠
البحرين والساحل العربي	٣٥٥٢٤٠٠	٣٨١٩١٠٠	—	—	—
البحرين	—	—	—	—	٩٢٦٠٠
الساحل العربي	—	—	٢٩٠٧٦٠٠	٢٥٤٤١٠٠	٢٨٥٢٨٠٠
الموانئ الفارسية	—	—	٩٨٣٥٠٠	٩٠٧٧٠٠	٩٤٧٥٢٠
زنجبار	٩٧٠٠	٨٤٠٠	٥٣٠٠	٢٥٠٠	٥٥٠٠
المجموع	٩٢٨٥٥٥٠	٩٠٦١١٥٠	٩٢٠٤٣٠٠	٨٤٧٢٢٠٠	=٨٧٧٥٤٥٠

سكان لنجة

في لنجة على غرار مدن الموانئ الأخرى على الساحل الجنوبي لبلاد فارس جاليات كبيرة من الزنوج العبيد والعتقاء، وتوجد منذ العصور القديمة حركة نشيطة لتجارة العبيد من الساحل الشرقي للقارة الإفريقية باتجاه موانئ الخليج الفارسي بالذات، غير أنه لا يمكن القول: إن جميع السكان ذوي البشرة السمراء في لنجة ومسقط وغيرها هم من الزنوج، وللكثير منهم ملامح عربية تماماً، ويعود أصلهم إلى جنوب شرق أو جنوب السواحل العربية، وتضع النساء بداية من هذه المنطقة البرقع على النحو الذي جرت عليه العادة في مسقط، ويشبه البرقع الأقنعة التي تعودنا أن نراها في الحفلات التنكرية في بلادنا، وهو مزود بقضيب في وسطه وفتحات رباعية للعيون، ويصنع عامة من نسيج الكليكو، وأحياناً يكون مطرزاً بالذهب على أرضية من المخمل أو الحرير بطريقة متميزة في الجمال، وكثيراً ما تتدلى سلسلة صغيرة أو خاتم من جزء البرقع الذي يغطي الأنف، وتحمله المرأة في كثير من الأحيان داخل المنزل أيضاً، وتلبس النساء عامة داخل المنازل قميصاً طويلاً من الحرير له أكمام واسعة، ويطغى اللون الأزرق على الثياب، وكثيراً ما يعمد الناس إلى تثبيت أربعة قضبان داخل أفنية منازلهم ثم يعلقون فيها فراشاً يصعد إليه المرء بواسطة سلم أو درج، ويستطيع أن ينام فيه نوماً هنيئاً حسب ما يقال، وفي لنجة مئذنتان مبنيتان على الأسلوب الفارسي تشبهان المآذن الموجودة في بغداد، وفي شمال المدينة عدد كبير من أضرحة الأولياء الصالحين داخل مبان مقببة قليلة الارتفاع تقوم تحت أشجار النخيل، وعند المياه مباشرة رصيف صغير يعود إلى عهد البرتغاليين، تبدأ عنده السوق التي تمتد موازية

....

= التوريد بالروبية

البلد	١٨٩٣	١٨٩٤	١٨٩٥	١٨٩٦	١٨٩٧
بريطانيا العظمى	—	٦٣٠٠٠	١٥٠٠٠٠	٣٦٠٠٠	٩٣٥٠
الهند	—	—	٤٠٥٤٨٧٠	٢٦٥٩٥٥٠	٤٦٠٠٢٥٠
الهند الشرقية والمستعمرات	٤٩٧٧١٧٠	٥٥٠٨٥٠٠	—	—	—
تركيا	٥٥٣٨٠٠	٣٦٦٦٥٠	٢٨٤٩٥٠	٢٥٩٠٥٠	٤٠٥٤٠٠
عمان– مسقط	١٥٤٥٠٠	١٧٧٥٥٠	—	—	—
مسقط	—	—	١٧٤٩٠٠	٢٠٨١٠٠	٢٢٧٤٥٠
البحرين والساحل العربي	٣٨٨٧٦٠٠	٣٦٣٢٨٦٠	٣٨٠٠١٠٠	—	—
البحرين	—	—	—	١٨١٠٠٠	١٤٨٧٥٠
الساحل العربي	—	—	—	٣٣٥٢١٠٠	٣٢٨٣٧٥٠
الموانئ الفارسية	—	—	٢٢٨٠٦٠	٥٥٣٠٦٠	٦٣٣٥٢٠
زنجبار	١٣٩٠٠	١٧٧٠٠	١٠٩٥٠	٨٩٠٠	١١٥٠٠
المجموع	٩٥٨٦٩٧٠	٩٧٠٩٠٧٠	١٠٥٦٨٨٣٠	٧٢٢٥٣٦٠	٩٣١٩٩٧٠

للشاطئ، ويقوم في داخل السوق نفسها مبنى الجمارك الحديث الأنيق، وبالقرب منه المنزل الواسع الذي يقيم فيه الحاكم الفارسي، والذي كان سابقاً القلعة البرتغالية ذات البوابة الضخمة، وبهو الاستقبال الكبير الذي يحتوي على عدد كبير من النوافذ.

استقبال لدى نائب حاكم لنجة

استقبلني ميرزا إسماعيل خان نائب حاكم لنجة - الذي يخضع لحاكم بو شهر آغا سعد الملك[1]، - في غرفة في الطابق الأول التي لا تحتوي على أي قطعة من الأثاث الصلب، ولا يوجد فيها غير الفرش والسجاد والوسائد المستديرة الضخمة، ووضعت لنا نحن خصيصاً بعض الكراسي، ووفقاً لقواعد الضيافة في البلاد قدم لنا الشاي الذي يعوض هنا القهوة على غرار ما نعرفه في بلاد المغرب، وكان الحاكم لا يزال في مقتبل العمر، وقد خضب شعره وشاربه بلون أحمر متوهج، وكانت أمام مدخل السرايا خمسة مدافع صغيرة يعلوها كثير من الصدأ، كانت قد استخرجت من الماء في زمن سابق، و يقال: إنها من العهد البرتغالي، وكان الجنود مسلحين ببنادق ذات تموين أمامي، وفي مقابل ذلك يبدو أن المواطنين المدنيين يملكون عدداً كبيراً من بندقيات مارتيني وونشستر[2]، وعلى مسافة بضع خطوات داخل الساحة قصر قديم آخر مهجور نصف متداع وله قلعة، يملكه الشيخ صالح، وهو شيخ من قبيلة عربية ميالة إلى الحروب تدعى القواسم[3] الذين يقيمون على الساحل العماني المقابل ويمثلون شعباً من القراصنة سبقت له وقائع مشهودة مع الإنجليز، وقد قصف حاكم بو شهر درية باجي - أمير البحر- لنجة سنة ١٨٩٩م؛ ذلك أن أحد شيوخ قبيلة القواسم العربية الحاكمة استولى على الحكم في المدينة وطرد الحاكم الفارسي، الأمر الذي حمل الحكومة على الاعتراف له بحقوق

---

(١) تخضع لنجة منذ سنة ١٨٩٢م إلى حاكم بندر عباس الذي يخضع بدوره إلى حاكم بوشهر مثل جميع الموظفين الآخرين في المدن الساحلية الفارسية.

(٢) تسجل التقارير الإدارية الإنجليزية تزايداً مطرداً لتوريد الأسلحة والذخيرة إلى الخليج الفارسي، واعتماداً على المعلومات المقدمة إلى سلطات الضرائب بلغت هذه الواردات في مسقط وحدها مائة وستين ألف دولار سنة ١٨٩٥م - مستوردة من إنجلترا - ، وبلغت سنة ١٨٩٦م ثمانمائة وخمسين ألف دولار - ثمانمائة ألف مستوردة من إنجلترا وخمسون ألفاً من فرنسا، وبلغت سنة ١٨٩٧م مليون دولار - تسعمائة ألف مستوردة من إنجلترا ومائة من فرنسا، وتذهب نسبة لا تقل عن ٨٥ ٪ من هذه الأسلحة المستوردة عن طريق البحر من مسقط إلى موانئ خليجية أخرى، وقد تم مؤخراً حجز حمولة سفينة إنجليزية كبيرة في مياه مسقط كانت تحمل بندقيات ذات تخزين خلفي، بعدما وقعت بريطانيا وبلاد فارس والهند سنة ١٨٩٨م اتفاقية تقضي بمنع تصدير الأسلحة والذخيرة من مسقط إلى الموانئ الهندية والفارسية.

(٣) يلفظ اسم القواسم في اللهجة البدوية بالطريقة التالية: الجواسم، و يرد هذا الاسم في المصادر الإنجليزية على هيئة جواسمي أو جوهاسمي، وقد ظل القواسم حتى سنة ١٨٨٧ م السادة الحقيقيين في لنجة.

عائلته في ذلك، وكانت حملة درية باجي ترمي إلى إعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه، وقد نجح في ذلك نجاحاً تاماً.

بندر عباس، وكشم، وهرمز

يمتد الساحل الفارسي بداية من لنجة في اتجاه يكاد يكون شمالياً شرقياً حتى بندر عباس، وتمتد أمامه جزيرة كشم المستطيلة التي يسميها العرب بسبب شكلها الجزيرة الطويلة، وفي الواقع لا يتسنى عبور القناة الضيقة بين الجزيرة واليابسة إلا للسفن الصغيرة، لكن بعض البواخر الكبيرة تتجرأ بين الحين والآخر على عبور القناة، ويبدو أن الساحل تغطيه جزئياً نباتات الأراضي المالحة التي تزود المدن بالحطب، وتقع عند الطرف الشمالي الشرقي لجزيرة كشم جزيرتان صغيرتان هما لارك - لارج - وهرمز، اللتان تسيطران على مدخل الخليج، وهذه الجزيرة الأخيرة بالذات التي تحتوي على ميناء محمي نسبياً ومياه شرب رديئة هي جزيرة معروفة منذ العصور الغابرة، فقد سبق أن ذكرها بطليموس تحت اسمها الحالي وظلت على مدى قرون طويلة من الزمن تمثل مفتاح وبوابة الخليج .

منذ أن ظهر البرتغاليون في الخليج في بداية القرن السادس عشر، وكانوا يمثلون الأسطول الأوروبي الأول منذ عهد نيرش القائد البحري للإسكندر الأكبر، جعلوا من هرمز قاعدة لسيطرتهم على السواحل الفارسية والعربية، وبقيت هرمز تحت سيطرتهم مدة تزيد على قرن من الزمن - ١٥٠٧ - ١٦٢٢م - إلى أن دخل الإنجليز إلى بحار الهند، وساعدوا عباس الأكبر شاه الفرس في محاصرته للمدينة بسبب غيرتهم من البرتغاليين، وحيث إن الفرس لا يملكون أسطولاً بحرياً، فقد فكوا الحصار وتخلوا عن مستعمرتهم، وجعلوا من جومبرون - وهي قرية صيد سمك واقعة أمام هرمز - ميناء لإقليم كيرمان أطلقوا عليه اسم بندر عباس - ميناء عباس -[(١)]، وقد آجر شاه الفرس سنة ١٧٩٣م[(٢)] سلطان مسقط بندر عباس والمناطق الساحلية المحيطة بها، والتي تمتد من لنجة حتى يشك، ثم استولى الفرس على المدينة سنة ١٨٥٤م[(٣)]، غير أن السيد سعيداً استطاع سنة ١٨٥٦م تمديد عقد الإيجار مع بلاد فارس لفائدة مسقط لمدة عشرين سنة أخرى، ولكن بشروط أشد قسوة من ذي قبل[(٤)]، وبعد ذلك أصبحت المدينة خاضعة لحكام فرس.

---

(١) قارن مالكوم — تاريخ بلاد فارس، الجزء الأول، ص ٥٤٧

(٢) قارن فيما يلي، ص ٣٦٤

(٣) قارن تقارير شاهد عيان عند بولاك — بلاد فارس، الجزء الثاني، ص ١٢ وما يليها.

(٤) قارن فيما يلي ص ٣٧٧

التجارة والمواصلات في بندر عباس

تأتي بندر عباس مباشرة وراء بو شهر من حيث الأهمية، رغم أنها أصغر منها بكثير، ورغم أن ظروفها كميناء أسوأ من ظروف بوشهر(١)، وما من شك طبعاً في أن الميناء يتمتع باتساع غير عادي، وحماية جيدة من الرياح السائدة في المنطقة، إلا أن مياهه ضحلة إلى درجة تجعل البواخر ترسي على بعد ثلاثة أميال بحريّة من اليابسة، وتقع المدينة مباشرة عند ساحل البحر، وتحيط بها الحدائق من كل جانب، وفيما عدا ذلك فإن الرمال الصفراء تحيط بها على مسافة بعيدة في دائرة واسعة، وترتفع خلف المدينة سلسلة جبلية عالية كأنها جدار، تبرز منها قمم يبلغ ارتفاعها ثلاثة آلاف متر، وتتميز هذه المدينة على غرار لنجة بطابع ريفي، إذ تحتوي هي أيضاً على شوارع أكثر عرضاً ومنازل أقل ارتفاعاً من بوشهر.

---

(١) يعطي الجدول التالي تفاصيل حول صادرات وواردات بندر عباس بالروبية، مبّوبة حسب البلدان، ومأخوذة عن مصادر إنجليزية، قارن تقارير إدارية ١٨٩٤/١٨٩٥م، ص ٣٧ و١٨٩٧/١٨٩٨م، ص ٥٢ و٥٦ .

التصدير

البلد	١٨٩٣	١٨٩٤	١٨٩٥	١٨٩٦	١٨٩٧
بريطانيا العظمى	٣٠٠٠٠	١٢٥٠٠٠	٧٥٠٠٠	٤٠٣٠٠	٢٣٩٠٠
الهند	–	–	٤١٨٥١٧٠	٢٠٨٦٩٢٣	١٩٠٦٦٨٠
الهند البريطانية والمستعمرات	٢٧٣٨٨٢٠	٣٣٦٩١٢٠	–	–	–
فرنسا	–	–	–	–	–
بقية أوروبا	–	–	–	–	–
تركيا	٢٦٣٦٥٠	٢٧١٨٠٠	٢٩٠٣٣٠	١٣٠٢٥٤	١٤٦٥١٩
مصر	٦٠٨٠٠	٧٠٠٠٠	٦٢٨٢٠	٤١٥٠٠	٣١٦٠٠
عمان – مسقط	٨٦٦٥٠	١٠٦٤٢٠	–	–	–
مسقط	–	–	١١٦٤٢٠	٩٨١٢٥	١١٨٠٥١
البحرين والساحل العربي	١٠٤٩٠٠	١١٣٦٢٠	–	–	–
البحرين	–	–	–	–	٢٠٧٤٦٠
الساحل العربي	–	–	١١٢٥٢٠	١٠٣١٠٠	١٠٥٠٨٥
الموانئ الفارسية	–	–	١٢٩٧٠٠	٨٤٠٠٠	١١٩٥٧٧
زنجبار	٣٠٠٠	٣٠٠٠	٣٠٠٠	٤٣٠٠	٥٠٠٠
الصين	٥٩٤٤٠٠	٧٠٠٠٠٠	٨٧٣٦٠٠	٤٧٤٠٠٠	١٠٢٨٨٠٠
المجموع	٣٨٨٢٢٢٠	٤٧٥٨٩٦٠	٥٨٤٨٥٦٠	٣٠٦٢٥٠٢	=٣٦٩٢٦٧٢

بندر عباس: الانطباع العام، المناخ، يشك

لا تزال توجد آثار للوكالات التجارية الهولندية والإنجليزية التي تأسست هنا بعد طرد البرتغاليين من المنطقة، كما يوجد أيضا سدّ على الميناء يقال: إنه يعود إلى عهد البرتغاليين. وعلى جدار الرصيف مدفع كبير يرتفع وراءه مبنى الجمرك الذي يعودهو الآخر إلى عهد البرتغاليين، وتفصله عن الماء بعض بنايات الأسواق المنخفضة، ووراء مبنى الجمرك تقوم السرايا، وهي مبنى حديث ذو نوافذ كثيرة من طابق واحد، وقد استقبلنا الوالي محمد حسن خان في مجلس يمتد فوق البوابة، ويتجاوز الواجهة على شكل ناتئ مدت الفرش والسجاد في القسم الأمامي منه، الواقع بجانب النوافذ، وقد جرت العادة أن يقام احتفال عاشوراء المشهور - الذي يدعى أيضاً احتفال الحسن والحسين - على الميدان الواقع وراء جدران السرايا والذي تحيط به الأفنية والمآذن المفتوحة إلى جميع الجهات في اليوم العاشر من شهر محرم. وكانت التجارة الأوروبية في فترة زيارتي ممثلة عن طريق شركة هوتز التي كانت آنذاك لا تزال هولندية، كما كان يمثلها أيضاً رجل إنجليزي يدعى مارشال. ومدينة بندر عباس هي محطة للبريد، غير أنه لا يوجد فيها خط للتلغراف.

مناخ بندر عباس سيّئ جداً، وتشكل الحرارة الرهيبة، والرطوبة الشديدة، وماء الشرب الرديء خطراً على السكان الأوروبيين بصفة خاصة، ويبرز من الرمال التي تمتد وراء المدينة

....

=

	الاستيراد				
البلد	١٨٩٣	١٨٩٤	١٨٩٥	١٨٩٦	١٨٩٧
بريطانيا العظمى	٩٨٨٠٠	٦١٥٠٠	٢٨٣٩٢٠	٦٤٧٩٦٣	١٠٣٢٢٧٥
الهند	—	—	٧٥٥١٩٥٠	٥١٥٣٣٣٩	٤٥٤٠٦٨٠
الهند البريطانية والمستعمرات	٥٩٠٢٣٣٠	٩٣٩٨٤٨٠	—	—	—
فرنسا	—	—	—	٢٠٤٠٠	٢٢٥٠٠٠
بقية أوروبا	—	٩٤٥٠٠	٣٢٨٩٢٠	—	—
تركيا	٧١٨٥٠	٦١٠٥٠	١٩١٩٠٠	١٢٠٦٧٠	٧٣٥٠١
مصر	—	—	—	—	—
عمان – مسقط	٩٤٦٠٠	٨٤٤٤٠	—	—	—
مسقط	—	—	٩٤٥٨٠	٧٥٣٤٠	٧٢٥٠٠
البحرين والساحل العربي	٥٨١٥٠	٥٤٠٠٠	١٢٦٥٠٠	—	—
البحرين	—	—	—	—	١٥٠٠٠
الساحل العربي	—	—	—	٥٥٠٠٠	٦٦٦٠٠
الموانئ الفارسية	—	—	٢٨٨٠٠	١٠٧٩٨٦	٧٦٩٠٠
زنجبار	٢٠٠٠	٣٠٠٠	٢٠٠٠	٣٥٠٠	٢٨٠٠
الصين	—	—	—	—	—
المجموع	٦٢٢٧٧٣٠	٩٧٥٦٩٧٠	٨٦٠٨٥٧٠	٦١٨٤١٩٨	٦١٠٥٢٥٦

عدد كبير من نصب الأضرحة التي يسميها السكان الأصليون قبور الإنجليز، ويعاني السكان الأصليون أيضاً من هذه الظروف المناخية السيئة؛ فيغادر كثير منهم المدينة في فصل الصيف يقصدون المناطق الجبلية، ويشكل العرب الأغلبية من عدد السكان، ويسبّبون هم وبعض القبائل العربية التي تقيم في أعماق البلاد متاعب جمّة للحكومة، وقد كانت الاضطرابات سائدة أيضاً في سنة زيارتي، وقد استوجب ذلك إرسال بعض القوات عسكرية إلى المدينة .

توجّهنا من بندر عباس إلى الجنوب فبدأت المسافة بين السواحل العربية والفارسية تقترب، ومرت باخرتنا برأس مسندم الواقع على الجانب العربي، ومن ثم دخلت إلى خليج عمان، وعندما تجاوزنا خط العرض ٢٦ انعطف الساحل الفارسي من جديد في اتجاه الشرق، وعلى مسافة قريبة خلف هذه الزاوية الأخيرة يقع الميناء الفارسي الأخير " يشك " شمال خليج صغير تزينه أشجار النخيل، ويختبئ وراء هضبة منخفضة، وقد سيطر الإنجليز على الطرف الجنوبي ليجعلوا فيه محطة للتلغراف. أما خط التلغراف الهندي الذي يصل إلى هنا عن طريق البر فإنه يتفرع عند " يشك " ويغوص في البحر، فيمتد خط منه طوال الخليج الفارسي، ويتوجه الخط الآخر مباشرة إلى عدن، ويحيط بمنطقة الحماية الإنجليزية سياج من الأسلاك المعدنية يمكن اجتيازه بواسطة الدرج الذي شيد فوقه، وتقع داخل هذه المنطقة أيضا الثكنة التي كان فيها مائة جندي هندي في بداية عهد الإنجليز في هذه المنطقة، إلا أنها كانت فارغة عند مجيئي إلى هذه الربوع، ويقوم إلى جانب الثكنة مدفع كبير يستخدم لإعطاء الإشارات، وعمود لتثبيت الراية.

وقد شيد الإنجليز في هذا الموضع شارعاً مستقيماً جميلاً يقوم إلى جانبه صف من المباني ذات الطابق الواحد تقيم فيها خمس عشرة عائلة تقريباً مع ما تبعها من الخدم والحاشية، ويحصل الرجل الأعزب على غرفة مزدوجة، في حين يحصل المتزوج على غرفتين مزدوجتين مؤثثتين بجميع وسائل الراحة، كما يوجد هنا أيضا مركز للبريد، ومكتب لشركة الهند البريطانية، وقد شيد الفرس بالقرب من هذا الموضع قلعة رباعية الشكل ذات برجين يسكن فيها الوالي مع عشرين جندياً كردياً، ولم يتمكن الوالي من استقبالنا لأنه كان غائباً عن الوعي تحت تأثير الأفيون، و قد كان معظم سكان المنازل القليلة الموجودة في هذه المدينة من البلوش الذين يمارس عدد منهم مهنة صيد الأسماك بنجاح ملحوظ .

مسقط، ميناء مسقط

توجهت الباخرة من يشك إلى الجنوب تقريباً لعبور البحر إلى الساحل العربي في اتجاه مسقط(١)، وظهرت لنا من مسافة بعيدة الصخور العالية العارية التي تسقط سقوطاً حاداً إلى البحر عند الساحل العماني، وليس العثور على مدخل خليج مسقط أمراً سهلا ؛ ذلك أنه يشمل مجموعة كبيرة من الموانئ الصغيرة المستقلة التي نتجت عن تداخل سلسلة الجبال في مياه البحر وتقدمها إلى أن تنفذ فيه، ويصب في كل من هذه الخلجان الفرعية جدول صغير يشكل عند مصبه أرضاً منبسطة نسبياً، وقد نشأت على هذه السهول الصغيرة قرى تفصلها عن بعضها جبال مسنّنة لا يتسنى بلوغها إلا للمشاة أو للحيوانات التي لا تحمل أثقالاً، ولذلك فإن التنقل بين هذه القرى يتم عبر الطريق المائية، وتحمل هذه القرى الأسماء التالية بداية من الغرب: شطيف، أربك، مطرح، مطيرح، ريام، قلبوه ومسقط، وهنا الميناء الآمن الوحيد على كامل الساحل العربي وفي الخليج الفارسي بصفة عامة، ففي مسقط يمكن الحصول على الفحم في أي وقت، وفي مسقط تستطيع حتى الأساطيل الكبيرة أن تجد مستقراً آمناً من جميع الأعاصير. ويطلق الإنجليز ببساطة اسم الخليج على الخليج الواقع أمام المدينة الرئيسية مسقط، ويتكون الجدار الشرقي لهذا الخليج من جزر صخرية تقع على مسافات قريبة من بعضها بعضاً، ويتناقص عمق المياه تدريجياً بعد تجاوز الطرف الجنوبي، فترسي البواخر على بعد بضع مئات من الأمتار من المدينة، ومدخل المدينة ضيق تحفّ به من جانبيه صخور داكنة تقوم عليها أبراج حراسة وقلاع، ولذلك يفاجأ المرء بمشهد المساحة الكبيرة للميناء النشيط، ووراءه المباني الضخمة للمدينة التي ينتصب وراءها جبل عار أسود تكلله مجموعة الأبراج الأخرى .

كان اليخت البخاري التابع للسلطان راسياً في الميناء وكذلك بارجة السفينكس البيضاء الجميلة التابعة لسلاح البحرية الهندية.

لقد زوّد البرتغاليون في القرن السادس عشر الجبال الصخرية التي تحيط بمدينة مسقط- ولا تترك لها إلا مجالاً ضيقاً نسبياً- بعدد من القلاع، وقد خلّد الناس أسماء جل السفن التي دخلت هذا الميناء بكتابات بيضاء على الجوانب العارية السوداء لتلك الجبال الصخرية، وتقوم قلعتان منيعتان عند واجهة المدينة من الجانبين الشرقي والغربي، تشبهان بأبراجهما وجدرانهما قلاع القرون الوسطى في بلادنا في إقليم الراين، وقد تم تزويد القلعة الغربية الأكثر أهمية، والتي تدعى الميراني بنظام دفاع يتركب من مجموعة من المدافع الحديدية والبرونزية القديمة الإسبانية

(١) يلفظ الاسم في كثير من الأحيان " مسكد".

والبرتغالية، وعلى البوابة لوحة كبيرة مكتوبة باللغة البرتغالية تفيد أن القلعة شيدت أو أنهي بناؤها سنة ١٥٨٨م(١)، أما القلعة الشرقية التي تدعى الجلالي فقد انتهى بناؤها سنة ١٥٨٧م، وقد كانت غير مأهولة عند زيارتي لهذا المكان، وكان قد أصابها الدمار أكثر مما أصاب القلعة الغربية.



ميناء مسقط

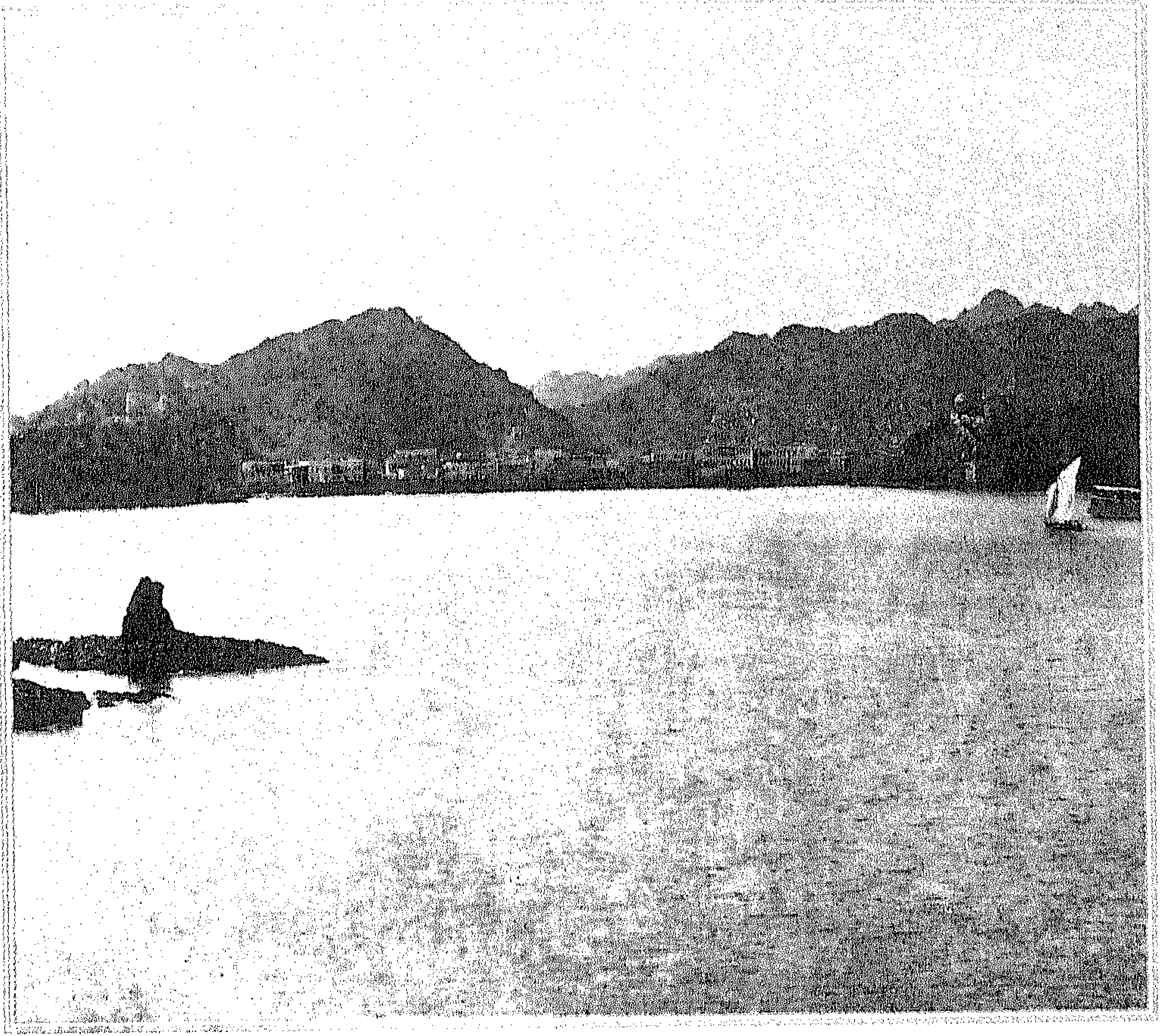
وتنتصب قلعة الجلالي فوق كتلة صخرية حادة ترتبط مع المدينة بلسان ضيق من الرمال، وتقوم على هذا اللسان بنايات الوكالة السياسية الإنجليزية التي تنفتح بذلك على بحرين اثنين، وتشكل وحدة مغلقة مستقلة واقعة خارج المدينة، ويقوم على حراستها جنود هنود - سيبويز - وفيها أيضاً مركز البريد البريطاني.

قصر السلطان، ومبنى الجمارك

ويحتل قصر السلطان ومبنى مكتب الضرائب الجزء الأوسط من واجهة المدينة الملتفتة إلى الميناء، والجمرك هو مبنى يبدو عليه أنه من بقايا العصور الوسطى، في حين يتجلّى طابع الحداثة واللطف على قصر السلطان بنوافذه الخضراء الموجهة إلى البحر، غير أن كلا المبنيين يعود إلى عهد البرتغاليين(٢)، وبالقرب من القصر داخل المدينة باتجاه الغرب ميدان، ينطلق منه شارع عريض باتجاه بوابة المدينة الجنوبية الغربية وهو الباب الكبير، ويقيم أقارب السلطان على جانبي هذا الشارع في مبان قديمة على هيئة القصور، وتربط بين بعض هذه القصور جدران، وعلى واجهاتها تلك النوافذ الصغيرة التي قد يبلغ عددها أو يتجاوز العشرة، والتي تحيط بثقب الإنارة

(١) توجد صورة لهذه اللوحة عند ستيفه في كتاب: المراكز التجارية القديمة في الخليج الفارسي: مسقط، في المجلة الجغرافية للجمعية الملكية، لندن ١٨٩٧م، ص ٦١٢.

(٢) على مبنى الضرائب لوحة مثبتة على الباب الخشبي كتب عليها: سنة ١٦٢٤.



ميناء مسقط

فيها أطر اصطناعية من الجبس تحمل مختلف أنواع رسوم الزخرف العربية، وقد تم تزيين السطوح المنبسطة بأسوار مسنّنة. وبالقرب من الباب الكبير قصر آخر للسلطان يعود تاريخه إلى عصور خوالي .

استقبال لدى السلطان السيد فيصل بن تركي

استقبلني السيد فيصل بن تركي حاكم مسقط الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر، ويقع مدخل القصر في شارع غيرعريض يمتد موازياً للبحر، ومبنى الاستقبال منفصل عن مبنى الحريم الواقع بالقرب منه، وكان عدد من الجنود وبعض البدو وسكان المدينة قد نصبوا خيامهم في الشارع أمام البوابة التي لا تحمل زخرفاً، ويقود سلّم إلى غرف الاستقبال التي تقع بجانب البحر وراء فناء واسع، وعند وصولنا إلى الطابق العلوي استقبلنا السلطان، ورافقنا إلى قاعة الجلوس، وهي قاعة طويلة قليلة العرض بسيطة تحتوي على كثير من النوافذ وعند جدرانها صفوف طويلة من الأرائك الخيزرانية المصنوعة في فيينا، وكان السلطان ذا قامة أطول من المتوسطة، وملامح وجهه وسيمة جذابة عربية، وأنفه نحيف شديد الانحناء، أما الشفاه فكانت مكتنزة على غرار شفاه الزنوج، والعيون والأسنان جميلة، ولون البشرة أسمر، واللحية حادة، وكان الأصل الزنجي يتجلّى في وجهه عندما يضحك، ولا غرابة في ذلك حيث إن أم هذا السلطان الذي كان في العقد الثالث من عمره كانت أَمَة من زنجبار، و لم يكن السلطان يملك من النساء إلا عدداً بين ثماني عشرة وعشرين، وقد تعرضت المحادثة التي دارت باللغة العربية إلى شؤون الدولة والأسفار، وأقارب السلطان، والزواج من امرأة واحدة، وتناولت موضوع عدم وجود قنصل ألماني في هذه البلاد، إلى غير ذلك من المواضيع، بينما كنا نتناول الشاي والأشربة المصنوعة من رحيق ورق الورد، وبعد ذلك طاف علينا خدم لرشّنا بماء الورد، وأثناء الوداع رافقنا السيد فيصل عبر الدرج حتى بلغنا البوابة، وأعطانا رسالة إلى صهره وابن عمه سلطان زنجبار .

قمنا بعد ذلك بزيارة لإسطبلات الملك التي تقع قريباً من القصر على الميدان المذكور آنفاً وتحتوي على نحو مائتين من الخيول، يرجع أصلها إلى نجد، وتتم تربيتها في مسقط، غير أنها ليست على القدر نفسه من الجمال الذي نجده عند خيول البدو الأصيلة ، وقد يعود السبب في ذلك إلى المناخ الرطب الذي لا تتحمله هذه الحيوانات، التي تعودت مناخ الصحراء الجاف، كما أنه قد يعود أيضاً إلى قلة تناولها للعلف الطازج .

ولا تتيح الظروف في مسقط إلا فرصاً قليلة لركوب الخيل؛ ذلك أن الجبال التي تفصل المدينة عن البر تتركب من صخور حادة صلبة، ولذلك يقال إن سنابك الخيل تلفّ في خرق من النسيج عند تنقلها في الجبال.

المندوب السياسي الإنجليزي العقيد جاياكار

في فترة زيارتي كانت مهام القنصل الإنجليزي والمندوب السياسي في يد الضابط جاياكار، وهو هندي من البراهمة اعتنق المسيحية، وظل منذ عشرات السنين الساعد الأيمن للمندوبية في مسقط، وكان يتولى النيابة عن المندوب السياسي بصفة تكاد تكون منتظمة في أشهر الصيف، التي يصعب تحمّل شدة حرارتها على الأوروبيين، وكانت طبائع هذا الرجل الإنجليزية الخالصة، وزيّه الأوروبي تتضارب تضارباً تاماً مع وجهه الأسمر. سلّمته رسالة من القنصل العام في بغداد السيد موكلر الذي سبق له هو ذاته أن تولى مدة طويلة منصب القنصل في مسقط، وزرت كذلك القنصل الأمريكي- الفرنسي السيد ماكيردي الذي كان في ذلك العهد الأوروبي الوحيد في مسقط(١).

مساكن مسقط وأسواقها وسكانها

تشيد المنازل في مسقط من الحجر والآجر الصلب، وتتركب عادة من طابقين أو أكثر، وتضم في داخلها فناء صغيراً، أما الطرقات فهي ضيقة جداً خاصة منها طرقات الأسواق، وتتميز الحركة بنشاط ملحوظ داخل الأسواق، وتوجد أسلحة بديعة الصنع منها سيوف طويلة غير مزوّدة بقطعة عارضة لحماية اليد، ولها مقبض طويل طولاً ملفتاً للنظر، ومنها خناجر معقوفة تثبت في الحزام، وتحمل زخرفاً رائعاً من الفضة وتجلب أنصالها في الغالب من أوروبا وبلاد فارس، أما البندقيات فهي ذات زناد حجري وصنع بدائي، غير أن أحزمة البارود فيها غاية في الجمال، فهي تلك الأحزمة العريضة التي يثبت فيها صف من الأسطوانات الفضية أو النحاسية أو الخشبية، التي تحتوي على قدر كاف من البارود والسدادات الورقية اللازمة لكل طلقة نارية مفردة، ويتم الاحتفاظ بالرصاصات منفصلة عن ذلك، إضافة إلى ذلك تعوّد الناس حمل قرن صغير مجوف يوضع فيه البارود لاستعماله لحجر القدح، وكذلك يستعمل الفتيل في كثير من الأحيان عوضاً عن الزناد الحجري.

---

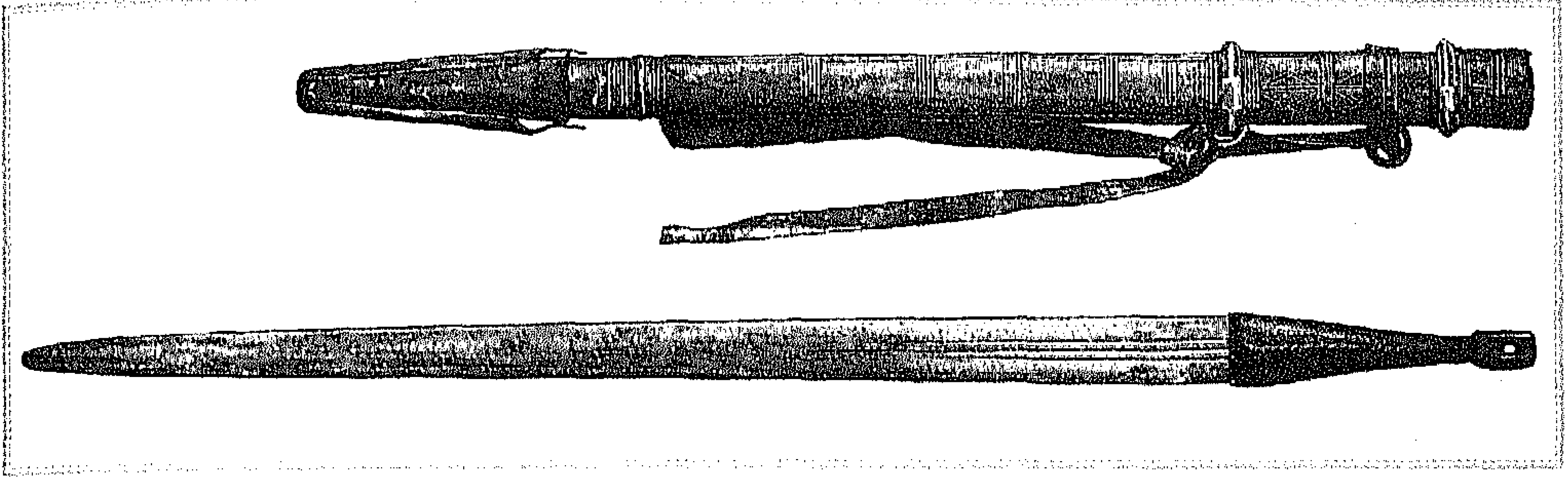
(١) تم افتتاح مكتب نيابة قنصلية فرنسية في مسقط في وقت لاحق – سنة ١٨٩٤م – قارن فيما يلي، ص ٣٩٠ وما يليها.



خناجر من مسقط

ويحمل جميع الرجال السلاح، في حين تحمل النساء القناع الأسود الذي سبق أن عرض لنا في الحديث عن لنجة والذي يطرز باللون الأحمر واللون الأزرق والذهب والفضة، ويفضل اللون الأزرق واللون الأحمر في الرداء الذي يوضع على الظهر على شكل المعطف.

يثير سكان مسقط اهتماماً متميزاً، فالجنس السائد هو الجنس العربي الذي ينتمي إليه السلطان أيضاً ومعظم السكان، وينتمي الجزء الأعظم من السكان العرب سواء في مسقط أو في ما وراءها من الأراضي إلى القبائل العربية الجنوبية، كما يرجع عدد من الشعوب المهاجرة في بداية العهد المسيحي، والتي بلغتنا عنها بعض المعلومات التاريخية هي الأخرى إلى أصل يمني، ولذلك فهي أيضاً من أصل عربي جنوبي، إلا أنه ينبغي القول: إنه لا يوجد إلا عدد قليل من الذين ينتمون إلى أصل عربي خالص، على الأقل في منطقة مدينة مسقط، ولا شك أن أعمال جلب الزنوج الأفارقة - والحبشيين ولو بعدد أقل - نشيطة منذ آلاف السنين، وقد أثر الاختلاط بهؤلاء الزنوج تأثيراً شديداً في ملامح أغلبية السكان، حتى إن الدم الزنجي يجري حتى في عروق العائلة الحاكمة كما سبق أن ذكرنا، ويقضي التشريع الإسلامي بأن يكون أبناء الرجل الحر من الأمَة أحراراً، ويستطيع ابن الزنجية أن يرث أباه في الملك، ويصعد إلى العرش حتى لو كان والده ينتمي إلى آل البيت، ويشعر ابن العربي دائما أنه عربي هو بدوره، وكذلك يعتبره الناس، بصرف النظر عن كون أمه عربية، أو زنجية، أو حبشية.



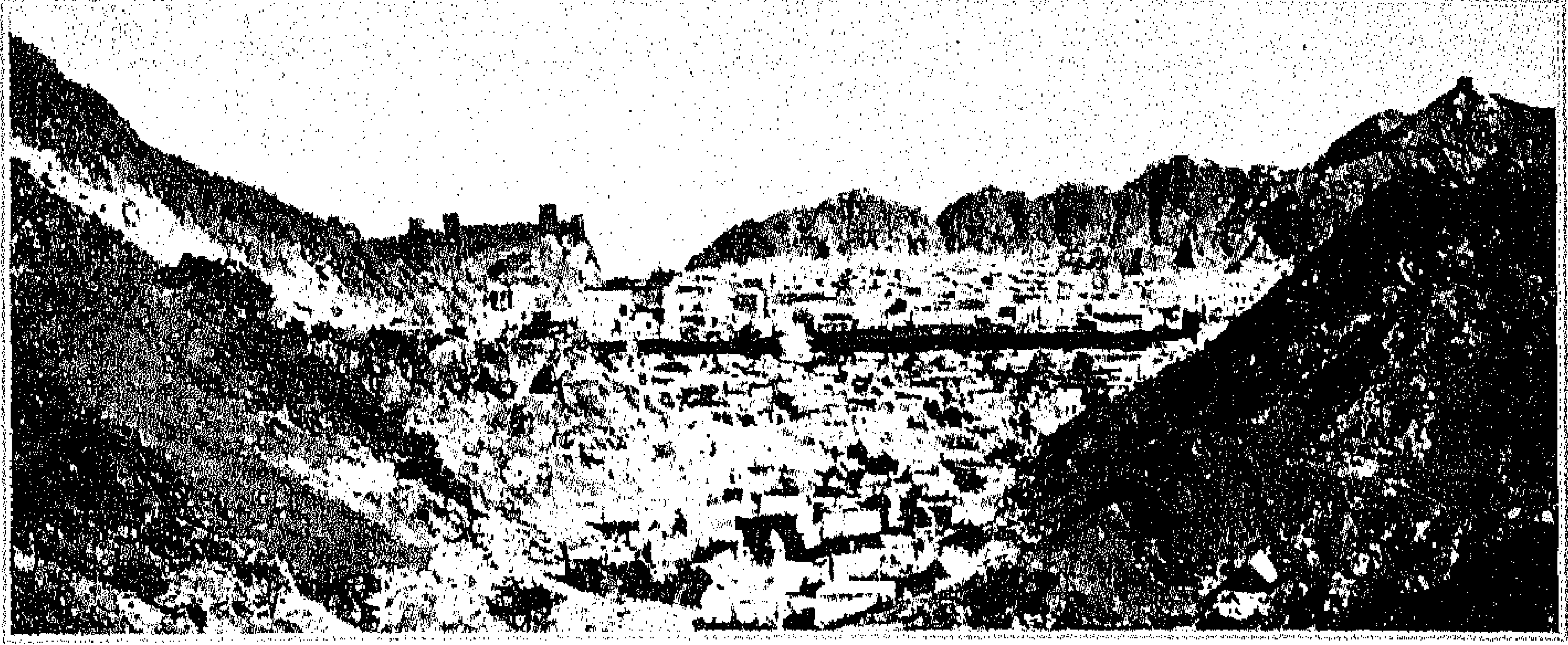
سيف عربي جنوبي من مسقط

ورغم أن اتفاقية سنة ١٨٧٣م مع إنجلترا تمنع تجارة العبيد، ورغم أن البوارج الحربية الإنجليزية تطارد بشدة تجار العبيد، فإن عدد العبيد الزنوج لا يزال مرتفعاً جدا في البلاد، وقد تم تقديره بعشرة آلاف سنة ١٨٨٥م(١)، ولا نملك بطبيعة الحال معلومات إحصائية عن عدد سكان مسقط، غير أن جاياكار(٢) قدم سنة ١٨٧٦م تقديراً تقريبياً يذكر فيه أن عدد سكان مسقط بما فيها مطرح وقلبوه وريام وصدب - وهي ضاحية تقع جنوب مسقط - يبلغ نحو أربعين ألف نسمة، ولا يراعي جاياكار في هذا العدد إلا أولئك الذين يقيمون بصفة دائمة في مسقط، دون احتساب السكان الوافدين على المدينة، والذين هم في معظمهم من العرب الرحل القادمين من الأراضي الداخلية، ومنهم كذلك هنود وغيرهم .

لقد جاء البلوش والفرس إلى هذه الربوع في إطار هجرة من الساحل المقابل من الخليج، فأما الأوائل الذين يبلغ عددهم بعض الآلاف - ومنهم العمال والخدم ومنهم الجنود - فيتميزون بقامتهم الطويلة وبِنْيتهم القوية، وتتميز مساكنهم والمناطق المجاورة لها بقدر قليل جداً من النظافة على عكس الأحياء العربية، وأما الفرس الذين لا يزيد عددهم على المائتين فهم صناع أسلحة، وتجار صغار، أو حرفيون، خاصة منهم صناع أنسجة الحرير التي تصدّر إلى مدن أخرى على الخليج، وإلى جنوب البلاد العربية وزنجبار، وقد استقر عدد كبير من الهنود في مسقط نتيجة للعلاقات العريقة مع الهند، وينتمي جزء من هؤلاء إلى المذهب الهندوسي أو كما يسمونهم في الخليج وشرق إفريقية البانيان، ويعيشون في عزلة تامة عن بقية السكان، ورغم أن المسلمين يعتبرونهم كفاراً، فإنهم يستطيعون الجهر بديانتهم بفضل حماية الحكومة الإنجليزية الهندية، ولا يعمل هؤلاء إلا في ميدان التجارة، ويمكن معرفتهم في العادة بسهولة عن طريق

(١) قارن – تاريخ علم تخطيط المياه، ١٨٨٩ ص ١٩٧ و٢٠٥ وما يليها.
(٢) قارن التقرير الإداري في المرجع المذكور ١٨٧٦/١٨٧٧م، الطوبوغرافية الطبية لمسقط، ص ١٠١ .

بنيتهم الضعيفة النحيفة وملابسهم المتميزة، أما عددهم فهو لا يتجاوز الخمسمائة، ونجد من الهنود المسلمين طبقتين هما الشوجة[1] والجط[2] المستضعفون، وفي حين يبلغ عدد الطائفة الأولى ألف نسمة يعيشون في مسقط ومطرح متراصين في حي تحيط به جدران خاصة به، فإن عدد الطائفة الأخرى لا يزيد بأية حال على مائة وخمسين أو مائتي شخص، إضافة إلى ذلك تعيش في مطرح جالية صغيرة من اليهود، يقال: إنها هاجرت من بغداد في مطلع هذا القرن.



مدينة مسقط

كانت الجدران الخارجية التي تحد المدينة لا تزال في حالة جيدة وكذلك الخنادق المحيطة بها، وكانت عدة أبراج متينة تزيد ارتفاعاً بمقدار الضعف تقريباً فوق الجدران، في حين لا توجد زخارف مميزة على البوابتين، وخارج المدينة بركة لا تحتوي على مياه إلا في فصل الأمطار، وإلى جانب البوابة الجنوبية التي تسمى الباب الصغير، في هذا المكان أيضاً محل كبير لبيع المواد الغذائية خاصة منها الأسماك.

وتتكون القرى الصغيرة الواقعة في جنوب وغرب المدينة في معظمها من أكواخ مصنوعة من سعف النخيل المغطى بالحصائر، وتصنع هذه الأكواخ في بعض الأحيان من الطين أو الحجر، وينفذ المرء عبر البوابة الجنوبية الغربية - الباب الكبير- إلى منخفض رائع الاخضرار فيه آبار كثيرة، وتنضج على أشجاره ثمار الرطب والتين والأعناب، وتنمو فيه الذرة والورود وأنواع

(١) قارن الجزء الأول من هذا الكتاب، ص ١٣٣، يسمّى الشوجه في مسقط لواتية أو لوتيان، قارن بادجر- تاريخ أئمة وسادة عمان لندن ١٨٧١م، ص ١٦٣، ويذكر الكابتن بورتن أن الشوجة هاجروا من بلاد فارس إلى الهند خاصة إلى السند ومنطقة كوتش، وحدث ذلك في الوقت الذي كان فيه هولاكو خان يضطهد الإسماعيليين اضطهاداً كبيراً، قارن - مختارات حكومة بومباي رقم ١٧ ، ص ٦٤٧ وما يليها.

(٢) قارن شبرنجر- الجغرافيا القديمة للبلاد العربية، ص ٣٠ وما يليها، ويقول جاياكار في المرجع المذكور، ص ١٠٤: إن الجط - يكتبها: الجتّ أو الزتوت - يقسمون في مسقط إلى زتوت عرب وزتوت بلوش، ويذكر أن الجط المقيمين في مسقط هاجروا إليها من الهند منذ ألف سنة تقريباً، ويعاملهم بقية السكان من المسلمين بازدراء كبير.

أخرى من الزهور، وعلى مسافة قليلة أمام البوابة تنسج مجموعة من العرب أقمشة مسقط المشهورة التي تصنع منها القمصان والعمائم، ولا يشوب روعة هذا المشهد إلا اللون الفاقع لمنزل أحد الأثرياء الهنود .

وينتهي المنخفض الذي يمتد على مسافة قرابة نصف ساعة في اتجاه الجنوب بقلعة لم تكن موجودة بعد على الخريطة البحرية الإنجليزية(١) لسنة ١٨٦٠م، ولذلك فلا بد أن هذه القلعة شيدت في وقت لاحق.

مطرح، التجارة والملاحة في مسقط

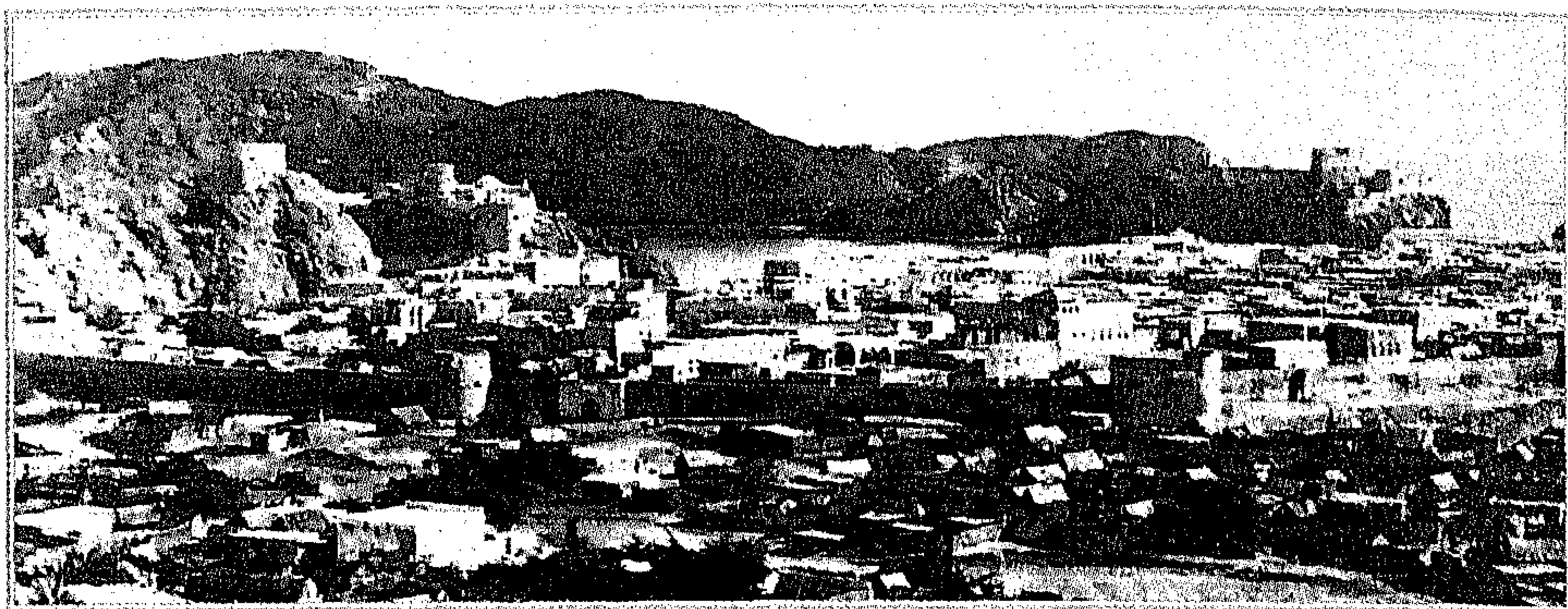
من هنا يؤدي ممر إلى القرية التي سبق أن ذكرناها عدة مرات وهي مطرح، التي يمكن أيضاً بلوغها انطلاقاً من بوابة الباب الكبير في اتجاه الشمال الشرقي عبر قرية قلبوه خلف جبال مسقط الصخرية الغربية، ثم بعد ذلك عبر قرية ريام على طريق رديئة المسلك.

ويستقر في مطرح الجزء العامل في ميدان التجارة من سكان البلاد، وبداية من هذه المدينة وبعد اجتياز منخفض جدول صغير، تمتد الطريق الوحيدة التي يمكن أن تستعملها الحيوانات المحملة بالأثقال أيضاً لعبور الجبال في اتجاه أعماق بلاد عمان، وتجلب القوافل إلى سوق مطرح جميع أنواع البضائع التي تنتجها المناطق الواقعة في أعماق البلاد، كما تتسوّق فيها أيضاً القبائل القادمة من الأقاليم الداخلية؛ ولذلك تتسم الحركة التجارية في مطرح بنشاط متميز، ويسيطر الهنود على الجزء الأكبر من هذه التجارة، ويمارسون في كثير من الأحيان معاملات ربويّة فاحشة يكون ضمانها عن طريق إيداع الأسلحة لديهم، وللمدينة أسوار حماية خاصة بها، وكما سبق أن ذكرنا فإن الحي الذي يسكنه الشوجة محاط بجدران خاصة. أما خليج مطرح فهو أكبر من خليج مسقط، وأكثر منه انفتاحاً، وأقل منه حماية .

تتمتع التجارة الإجمالية لمدينة مسقط - التي تحظى بموقع جغرافي متميز جداً - (٢) بأهمية كبيرة، وتحتل أرقامها المرتبة الثانية في الخليج الفارسي بعد أرقام بوشهر(٣) .

---

(١) مسقط والمطرح، قيس سنة ١٨٦٠م، نشرته قيادة سلاح البحرية الإنجليزية في ٢٩ مايو ١٨٦٢م.
(٢) قارن - تاريخ علم تخطيط المياه ١٨٨٩م، ص ٢٠٤، ثم راينهارد في المجلة الألمانية للمستعمرات عام ١٨٩٣م، ص ٥٦٩ وما يليها.
(٣) تسجل جداول التقارير الإدارية ١٨٩٤/١٨٩٥م، ص٥١ و٥٣ وعام ١٨٩٧/١٨٩٨م، ص ٩٣/٩٤ لتجارة مسقط في السنوات ١٨٩٣/١٨٩٧م الأرقام التالية بالدولار، وسعر الدولار في مسقط يبلغ بين ١,٦٠ و ٢ روبية =



مدينة مسقط

....

التصدير

البلد	١٨٩٣	١٨٩٤	١٩٨٥	١٨٩٦	١٨٩٧
الهند			٩٠٧٧٠٠	١٢٢٥٨٠٠	١٣١١٢٠٠
بريطانيا العظمى			—	—	—
فرنسا			—	—	—
أمريكا			١٠٥٠٠٠	١١٠٠٠٠	٧٠٠٠٠
تركيا الآسيوية			١١٩٥٠٠	١٣٥٠٠٠	١٥٢٠٠٠
بلاد فارس			٣٠٨٠٠	١١٦٠٠٠	٤٣٠٠٠
الخليج الفارسي البصرة وسواحل مكران			—	—	—
جنوب البلاد العربية وإفريقية			—	—	—
زنجبار وشرق إفريقية			١٥٧٥٠٠	١٦١٥٠٠	١٦١٥٠٠
الولايات المتحدة وموريشيوس وسنغفورة			—	—	—
بلدان أخرى			٩٨٩٥٠	٦١٠٠٠	٩٦٨٠٠
المجموع	١٧٢٠٣٢٠	١٦٢٨٥٨٠	١٤١٩٤٥٠	١٩٠٩٣٠٠	١٨٣٤٥٠٠

ملاحظة : فيما يتعلق بسنتي ١٨٩٣ و ١٨٩٤م لا يوجد في التقارير الإدارية للبلدان التي يتوجه إليها التصدير، وإنما تعطي التقارير أرقاماً لقيمة البضائع المفردة، وأسماء للمناطق الأساسية التي تصدر إليها .

التوريد

البلد	١٨٩٣	١٨٩٤	١٩٨٥	١٨٩٦	١٨٩٧
الهند	١٤٩٨٩٠٥	١٥٣٥٦٠٠	١٦٨١٤٠٠	١٦٤٠٠٠٠	٢٢٢٦٥٠٠
بريطانيا العظمى	—	—	١٦٠٠٠٠	٨٠٠٠٠٠	٩٠٠٠٠٠
فرنسا	—	—	—	٥٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠
أمريكا	—	—	٢٥٠٠٠	٢٩٠٠٠	٢٧٠٠٠
تركيا الآسيوية	—	—	١١٥٠٠٠	٦٧٥٠٠	٦٩٠٠٠
بلاد فارس	—	—	٢١٧٧٠٠	٢٤٣٠٠٠	١٤٥٠٠٠
الخليج الفارسي والبصرة وسواحل مكران	٣١٣١٤١	٣٣٥٠٣٠	—	—	—
جنوب البلاد العربية وإفريقية	٢٢٧١٨٠	١٩١٧٧٠	—	—	—
زنجبار وشرق إفريقية			—	—	—
الولايات المتحدة و موريشيوس وسنغفوره	١٥٧٨٠	١٧٢٠٠	—	—	—
بلدان أخرى	—	—	٨٩٦٦٠	٥٠٠٠٠	٧٠٠٠٠
المجموع	٢٠٥٥٠٠٦	٢٠٧٩٦٠٠	٢٢٨٨٧٦٠	٢٨٧٩٥٠٠	٣٥٣٧٥٠٠

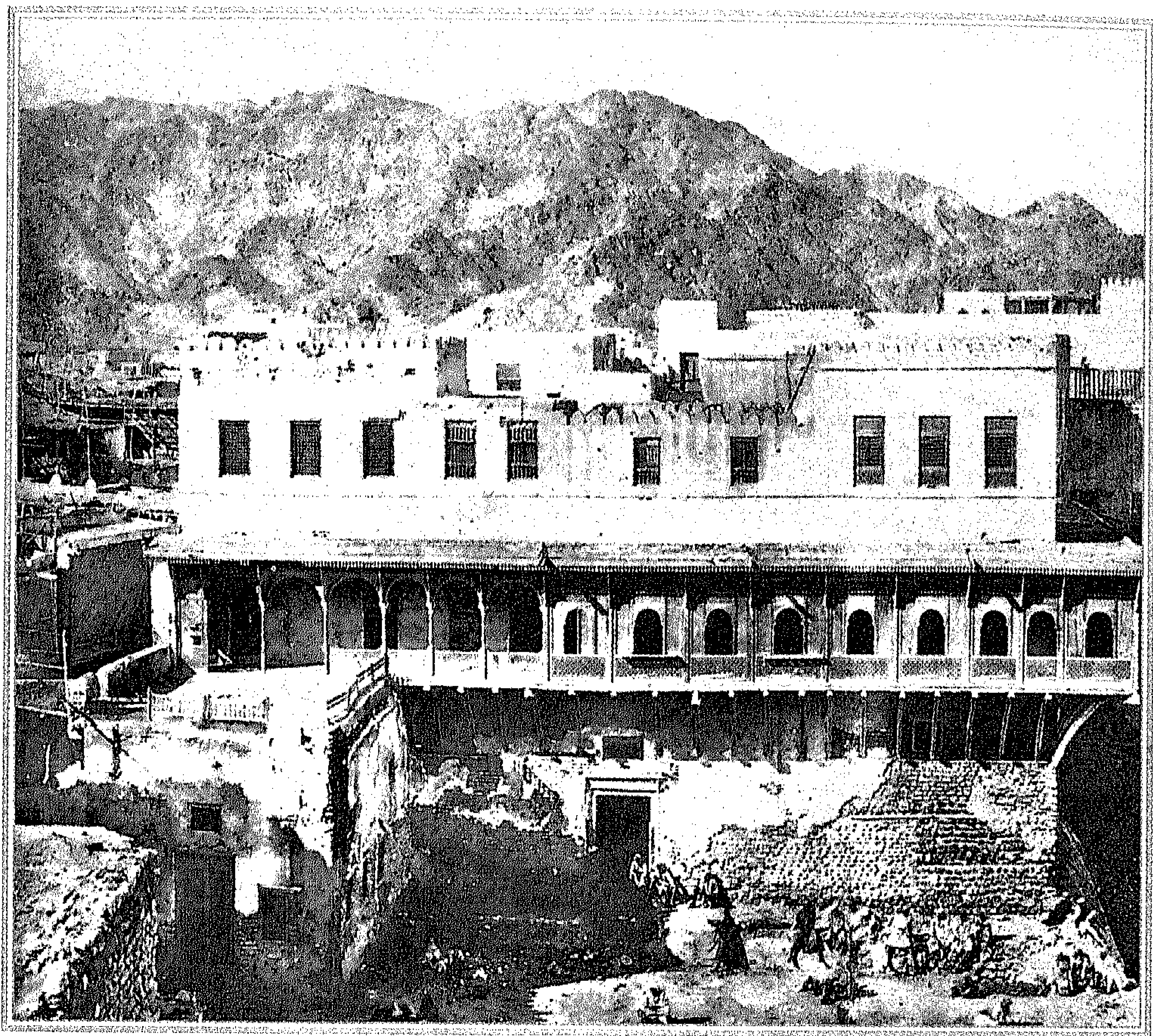
تملك مسقط ذاتها عدداً كبيراً من السفن الشراعية التي وسعت نطاق رحلاتها حتى بلغ الهند، وزنجبار، والبحر الأحمر(١)، وتتمثل أهمية مسقط خاصة في أنها حلقة ربط مع الساحل العربي، وكذلك مع أسواق أصغر على الجانب الفارسي من الخليج، ويتم تأجير إدارة الجمارك سنوياً في العادة إلى مواطنين هنود، وفي حين بلغت قيمة الإيجار مائة وخمس عشرة ألف دولار سنة ١٨٩٢م، فإنها بلغت مائة وأربعين ألف دولار سنة ١٨٩٨/١٨٩٩م، وذلك رغم توقع نزول الدخل بسبب منع استيراد الأسلحة منذ سنة ١٨٩٨م كما سبق أن ذكرنا(٢)، غير أن ظروف عدم الاستقرار التي تمنع التجار من إنشاء مستودعات كبيرة للبضاعة تزيد في صعوبة بلوغ درجة عالية من التطور للتجارة في مسقط، ثم إن المكان غير مناسب لإقامة الأوروبيين فيه، حيث إن الحرارة الشديدة التي يزيد في ارتفاعها الإشعاع الصادرعن الصخور الداكنة المحيطة بالمدينة لا تنخفض حتى في الليل إلا قليلاً، والرطوبة الدائمة تمثل خطراً كبيراً على الأوروبيين عند إقامتهم لمدة طويلة في هذه الربوع .

ضواحي مدينة مسقط

يمتد وراء الصخور المحيطة بمسقط سهل مرتفع يحتوي هو الآخر على بعض المرتفعات، غير أنه مستغل استغلالاً جيداً في الزراعة، ومأهول بعدد كبير من السكان بسبب ثروته المائية الكبيرة، والجبل الأخضر هو أعلى سلسلة جبلية تخترق الأراضي العمانية، ويبلغ ارتفاع أعلى قمة فيه ما يزيد على ألفي متر، ويبدو أنه توجد أراض خصبة وراء هذه السلسلة أيضاً تقوم فيها مدن كثيرة، ويعيش فيها بدو رحل على غرار ما نجده في شرق بلاد عمان، ومن الناحية السياسية ينتمي كامل الساحل الجنوبي الشرقي للبلاد العربية منذ رأس الحدّ حتى رأس مسندم إلى منطقة نفوذ أمراء مسقط، التي تمتد داخل البلاد حتى تبلغ الصحراء العربية الكبرى التي تسمى الربع الخالي، وتخضع المناطق الواقعة على ساحل مكران، والتي تتمثل في جوادار وشابار سياسياً إلى مسقط هي الأخرى.

(١) تسجل التقارير السياسية أن حجم حمولة السفن الشراعية التي تدخل ميناء مسقط في السنوات الأخيرة يبلغ ضعف حجم حمولة السفن التي تدخل بوشهر، كذلك كانت حمولة البواخر في الفترة الأخيرة – وبالذات في السنتين الأخيرتين – تزيد بكثير على حمولة البواخر التي تقصد بو شهر .

(٢) كان مبلغ دخل الجمارك قد تحدد بمائة وسبعين ألف دولار، ولكن تم تخفيض هذا المبلغ بقيمة ثلاثين ألف دولار بسبب حظر بيع الأسلحة.



مسقط

أما المعلومات التي نملكها عن الأراضي الداخلية لعمان فهي قليلة جداً؛ ذلك أنه لم يتسن إلى اليوم إلا لعدد قليل من الأوروبيين النفوذ إلى أعماق البلاد، ونذكر من بين هؤلاء فلشتيت سنة ١٨٣٥/١٨٣٦م(١) وآرشر إيلوي سنة ١٨٣٨ م(٢)، وبالجريف سنة ١٨٦٣م(٣)، وفيما عدا ذلك استطاع عدد من المندوبين السياسيين الإنجليز أو بعض ضباطهم في مسقط زيارة بعض أجزاء البلاد، نذكر منهم: مايلز سنة ١٨٨٥م(٤)، والسيد كول، والعقيد هامرتن والملازم تشاستر، والملازم ستيفه والمقدم ديسبرو(٥)، أما نيبور فلا يذكر في وصفه للبلاد العربية من معلومات عن أعماق البلاد إلا ما اعتمد فيه على الأخبار التي نقلت إليه، إلا أنه أول من وضع خريطة لهذه البلاد، وقد قام إيطالي يدعى فينتشنزو- كان في مطلع هذا القرن في خدمة السلطان سيد سعيد بن سلطان في عمان لمدة أربع عشرة سنة - برحلات في أعماق البلاد، إلا أنه لم ينشر من أعماله إلا جزءاً قليلاً (٦)، ويقدم العقيد الركن مايلز(٧) حصراً مفصلاً لقبائل عمان (٨). أما فيما يتعلق بالخرائط فإننا لا نملك منها إلا الخرائط الإنجليزية التي تلخص نتائج الرحلات السابقة، إضافة إلى الخريطة التي رسمها كيبرت سنة ١٨٦٧م، وآخر المستجدات على هذا الصعيد هي الخريطة الحديثة للمقدم روس، التي رسمت لبلاد عمان في السبعينيات في بومباي، وقد نشر ستيفه سنة ١٨٥٧م خريطة جديدة لمسقط وضواحيها(٩)، ولكن هذه الأعمال تعتبر قليلة، الأمر الذي يفتح مجالاً واسعاً للبحوث الجغرافية خاصة إذا تسنى النفوذ إلى الربع الخالي، والحصول على معلومات وثيقة عن تلك الصحراء الرملية العجيبة التي تمتد غرباً حتى اليمن، وشمالاً حتى مناطق الواحات التي كانت سابقاً تحت نفوذ الوهابيين، وتمثل اليوم

(١) رحلات في البلاد العربية، فلشتيتا.

(٢) قارن ريتر في المرجع المذكور، الجزء ١٢، ص ٥٣٦ وما يليها.

(٣) رحلة، الجزء الثاني، ص ٢٥٤ وما يليها.

(٤) قارن المجلة الجغرافية ١٨٩٦ م، ص ٥٢٢ إلى ٥٣٧ .

(٥) قارن مايلز في– مذكرة حول جغرافية بلاد عمان، في التقارير الإدارية ١٨٧٨/١٨٧٩م، ص ١١٧ وما يليها.

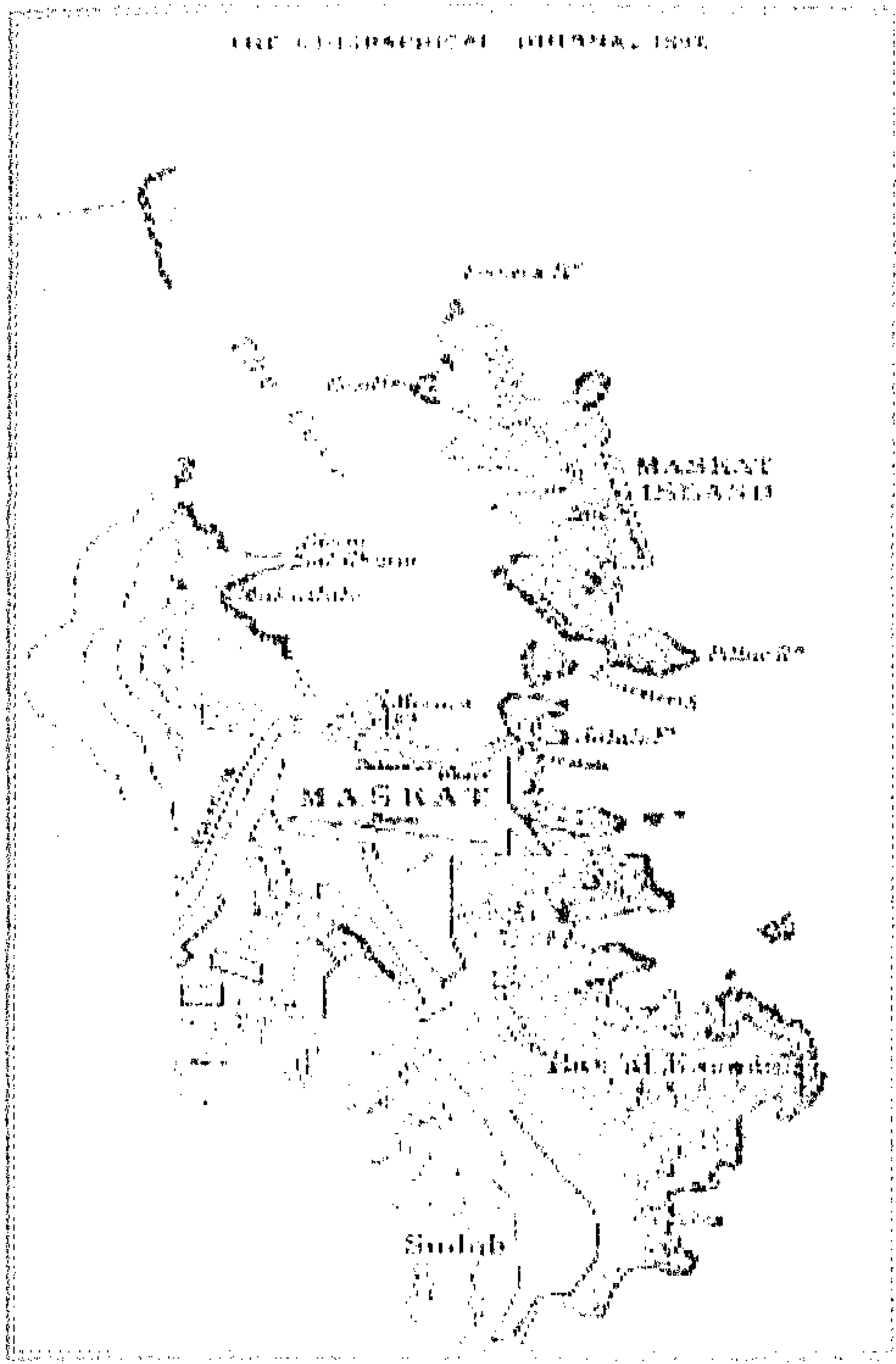
(٦) نشرت في لندن سنة ١٨١٩م، قصة كتبها فينتشنزو عن السيد ابن سعيد وتحتوي على مخطط لمسقط، قارن التقارير الإدارية ١٨٧٨/١٨٧٩م، ص ١١٧.

(٧) قارن التقارير الإدارية ١٨٨٤ / ١٨٨٥م، ص ١٩ و١٨٨٥ / ١٨٨٦م، ص ٢٢ وما يليها.

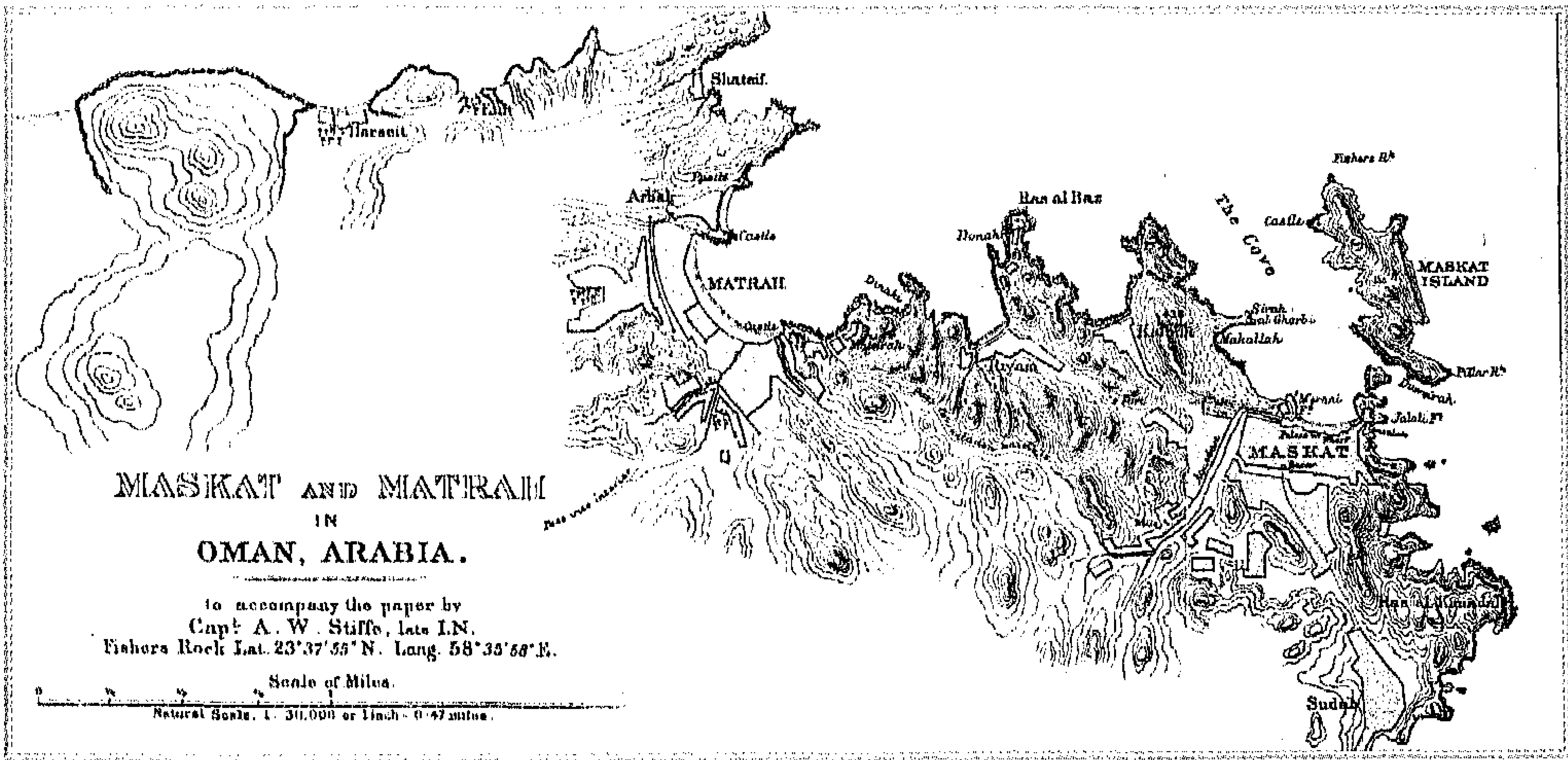
(٨) قارن التقارير الإدارية ١٨٨٠/١٨٨١م، ص ١٩ وما يليها.

(٩) قارن – مجلة الجمعية الجغرافية الملكية ١٨٩٧م، ص ٦٦١، هذه الخريطة ننشرها فيما يلي بإذن المؤلف ودار النشر .

منطقة نفوذ ابن رشيد، ويتداول الناس في البراري الشمالية للبلاد العربية كثيراً من الأساطير حول هذه الصحراء، ويقال: إنه يعيش فيها بعض الناس ولكنهم قلائل، ويتكلمون لغة لا يفهمها العرب، ولا يأتون إلى بلاد نجد إلا نادراً، وقد تكون اللغة التي يتكلمونهاهي المهرة التي لا يوجد إلا القليل من البحوث اللغوية حولها ولا تزال بعض قبائل جنوب البلاد العربية تتكلمها إلى اليوم، والبارون فريده هو الأوروبي الوحيد الذي رأى الطرف الجنوبي لهذه الصحراء، التي يطلق عليها هنا اسم الأحقاف[1] .



خريطة لمسقط وضواحيها



خريطة لمسقط ومطرح

(١) قارن فريده – رحلة إلى حضرموت، نشرها هاينريش فون مالتسان، وبراوشفايج سنة ١٨٧٣م.

التاريخ القديم لمسقط

لقد اختفى التاريخ القديم لمدينة مسقط في غياهب ظلام حالك وذهب طيّ النسيان(١)، وربما تكون مسقط هي الخليج الصخري الذي يطلق عليه بيريبلوس اسم موسكا، ومن المشكوك فيه جداً أن تكون مسقط معروفة منذ العصور القديمة(٢)، ويذكرها الجغرافيون العرب كمحطة للمسافرين المتوجهين إلى الهند والصين، الذين يتزودون فيها لآخر مرة بالماء قبل بداية مرحلة العبور إلى الهند(٣)، وقد يكون أول من ذكر اسم مدينة مسقط(٤) هو الإدريسي سنة ١١٥٣م، الذي يذكر في وصفه لهذه البلاد أن مسقط مدينة كثيرة السكان، غير أننا نجد مدناً عمانية أخرى أقدم منها بكثير مثل: الرستاق، وقلهات، وجعلان، وبهلة، وصحار، كما أنها كانت أكثر منها أهمية في ذلك العهد، أما ماركو بولو وأبو الفداء اللذان كتبا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر فإنهما لا يعرفان مسقط بين المدن العمانية، وكذلك الحال بالنسبة لابن بطوطة الذي وصل سنة ١٣٢٤م عن طريق البحر إلى قلهات في بلاد عمان.

اليعاربة

وليس لدينا أي معلومات عن السكان القدامى لبلاد عمان، غير أنه من المرجّح جدا أن يكونوا ينتسبون إلى بعض قبائل الشعوب العربية الجنوبية التي تتكلم لغة المهرة.

حدثت الهجرة الأولى إلى بلاد عمان منذ قرون عديدة قبل الميلاد، تلك الهجرة التي نجد أخبارها في القصص التراثية والأحاديث(٥)، إذ يبدو أن اليعاربة بسطوا نفوذهم منذ القرن

---

(١) قارن بادجر – تاريخ الأئمة والسادة في عمان، وكذلك ستيفه في مجلة الجمعية الجغرافية الملكية عام ١٨٩٧م، ص ٦١٤ وما يليها، وأعطي بادجر ترجمة لتاريخ عمان عن سليل بن رزيق تشمل الفترة من ١٦٦١م إلى ١٨٥٦م، ويقدم بادجر لهذه الترجمة في تمهيد بعنوان مقدمة وتحليل بمقتطفات عن مؤلفه يستعمل فيها مصادر ومراجع متعددة أخرى، وقد كان بادجر عضواً في لجنة التحكيم البريطانية التي قضت سنة ١٨٦٢م بفصل زنجبار عن عمان. ويعالج مايلز بصفة منفصلة عهد الاحتلال البرتغالي لبلاد عمان – التقارير الإدارية ١٨٨٤/١٨٨٥م، ص ٢٤ وما يليها– ويرجع الفضل إلى العقيد روس في ترجمة كتاب "كشف الغمّة" الذي يجمع أخبار وتاريخ عمان حتى سنة ١٧٢٨ م – الجمعية الملكية الآسيوية للبنغال. كلكتا ١٨٧٤م، وكذلك تكملة لهذه الأخبار من سنة ١٧٢٨ إلى سنة ١٨٨٣م – التقارير الادارية ١٨٨٢/١٨٨٣م، ص ٢٢ وما يليها، وقد كتب مايلز سيرة شاملة للسيد سلطان بن أحمد والسيد سعيد بن سلطان اللذين ينتميان إلى العائلة الحاكمة الحالية، الأولى في التقارير الإدارية ١٨٨٧/١٨٨٨م، ص ٢٢ وما يليها، والأخرى في التقارير الإدارية ١٨٨٣/١٨٨٤م، ص ٢٠ وما يليها ، أما بالنسبة لتاريخ عمان الحديث، وخاصة أحداث المناطق الداخلية من البلاد والصراعات بين القبائل فيها، فإن التقارير الإدارية التابعة للسنين المتتالية تحتوي على معلومات غاية في الأهمية.

(٢) قارن شبرنجر – جغرافية البلاد العربية، ص ١٠٦

(٣) قارن شبرنجر – طرقات البريد والسفر، ص ٨٦ وما يليها.

(٤) جغرافيا ٢، المناخ، القسم ٦.

(٥) قارن بادجر في المصدر المذكور، المقدمة، ص ٦.

الثامن قبل الميلاد ليس على اليمن فحسب وإنما أيضاً على بلاد عمان، واليعاربة هم أمراء اليمن الذين ينتمون إلى قبيلة من أبناء قحطان، والذين لعبوا حتى القرن الماضي الدور المهيمن في عمان، بعد ذلك يبدو أن الفرس وسعوا نطاق نفوذهم وبسطوه على البلاد .

الأزد، الغافري، سلالة الجلندى، الإسلام

يبدو أن طائفة من قبيلة الأزد هاجرت إلى بلاد عمان، وأخرجت منها الفرس في الزمن الذي تداعى فيه سد مأرب(١)، وبالذات نحو سنة ١٢٠م، وقد كان الأزد عرباً جنوبيين من أقارب اليعاربة، وبعد ذلك بسبعين عاماً يبدو أن موجة جديدة من هجرة الأزد أخذت طريقها إلى بلاد عمان بقيادة مالك بن فهم(٢)، وكان مالك بن فهم من التنوخيين تربطه صلة قرابة مع الأمراء الذين أسسوا مدينة الحيرة عند أسفل الفرات، ومن أقارب أولئك الصابئة الذين هاجروا إلى حوران، وشيدوا فيها أول حضارة، وتذكر الأخبار أن عمان كانت تابعة للمناطق التي تدفع الجزية لأمراء الحيرة، ومهما يكن من أمر فإن العلاقات ظلت قائمة بين جنوب العراق العربي وبلاد عمان فيما تبع ذلك من العهود. وحدثت كذلك هجرة ثالثة من جنوب البلاد العربية، توجهت خلالها مجموعة من قبيلة طيّئ في القرن الرابع الميلادي إلى عمان عندما أخرج سابور الثاني ملك الفرس عرب الساحل الشرقي من شبه الجزيرة، ودفعهم إلى النزوح في اتجاه الجنوب، وقد شاركت في هذه الهجرة الحديثة خاصة عائلة الهنائي أو الهناوي الذين يشكلون إلى اليوم مع الذين انضموا إليهم من العرب الجنوبيين إحدى أكثر قبائل عمان نفوذاً. وما لبث قادة هذه الهجرات العربية الجنوبية ومن خَلَفهم في السيادة أن أصبحوا سادة مستقلين في البلاد، وقد تمكن الفرس في القرن السادس الميلادي من بسط نفوذهم على هذه المنطقة في عهد الشاه كسرى .

ويبدو أن العرب قاموا في هذه الفترة بهجرة رابعة مهمة إلى بلاد عمان، غير أنها كانت في هذه المرة تشمل عرباً شماليين من قبيلة الغافري التي لا تزال تعيش في عمان إلى اليوم، كما أنها لا تزال إلى اليوم خصماً لقبيلة الهنائي في هذه الربوع، ويرتبط نسب قبيلة الغافري بقبيلة القواسم التي ذكرناها عندما تعرضنا للحديث عن لنجة.

---

(١) قارن الجزء الأول من هذا الكتاب، الفصل ٣ ، ص ٩٥ .

(٢) يشير مصدر عربي غير مذكور من مصادر العقيد تايلر –السجلات الحكومية لبومباي، رقم ٢٤ المجموعة الجديدة عام ١٨٥٦م– إلى أن هجرة مالك بن فهم كانت الأولى التي ثبتت بالأدلة والبراهين، ويبدو أن هؤلاء المهاجرين استقروا في مدينة جعلان ومدينة بهلة اللتين كانتا قائمتين من قبل، وحصّنوا كذلك مدينة الرستاق القديمة، قارن ستيفه في المرجع المذكور ص ٦١٤.

في عهد الرسول ﷺ كان أبناء الجلندى(١) وهم من الأزد سادة على عمان، ولما وجّه الرسول إليهم دعوة مباشرة - تذكر المصادر تواريخ مختلفة: ٦٢١ م و ٦٣٠م- استجابوا إليه ودخلوا في دين الإسلام ودخل معهم جميع سكان البلاد، أما ما حدث لسكان عمان الأصليين فلا نعلم منه شيئاً، فالبلاذري يقول فيما يتعلق بالفترة التي لم تسبق ظهور الإسلام بكثير: إن الأزد كانوا في ذلك العهد السكان الأساسيين لبلاد عمان، وإنه كان يوجد إلى جانبهم عدد كبير من السكان الآخرين في البلاد(٢).

عمان تخضع للخلافة الإباضيّة

نشبت صراعات عنيفة في نهاية القرن السابع، في عهد الخليفة الأموي عبد الملك - ٦٨٥ م إلى ٧٠٥ م - كان طرفها الأول يتمثل في الحجّاج والضابط التابع له الذي يدعى مجاعة* والذي أرسله الخليفة لبسط نفوذه بطريقة ملموسة على عمان، وكان الطرف الثاني يتمثل في الأخوين سليمان وسعيد اللذين ينحدران من نسل الجلندى، وقد انهزم هذان الأخيران في هذه الصراعات، واضطرّا لذلك هما ومجموعة من أتباعهما إلى الهجرة إلى بلاد الزنج "زنجبار" التي استقروا فيها، ويبدو أن هذه كانت أول هجرة لعرب عمان في اتجاه شرق إفريقية، وقد تبعتها موجات أخرى من الهجرة في القرون التالية (٣).

وهكذا أصبحت عمان تابعة للخلافة الإسلامية الشاملة، ومن المحتمل أن الخليفة ظل فترة من الزمن يرسل الولاة من العراق إلى عمان. ولكن من سنة ٧٥١ م استغل سكان عمان فرصة تعيين رجل من أنفسهم والياً عليهم ليتولوا من ذلك الوقت تعيين أمرائهم و قادتهم من بين رجالهم. وقد انتشر الانشقاق الديني - الذي ما لبث أن هز العالم الإسلامي بعد وفاة النبي ﷺ - حتى بلغ أرض عمان، حيث استطاعت طائفة متميزة هي طائفة الإباضية أن تنتشر في وقت يسير في كامل البلاد. وظل هذا المذهب سائداً في بلاد عمان إلى اليوم. وتعود تسمية الإباضية إلى مؤسس المذهب عبدالله بن إباض(٤)، الذي عاش في عهد الخليفة الأموي الأخير

(١) يقال: إن الجلندى ضم جزيرة هرمز إلى منطقة نفوذه .

(٢) قارن البلدوري في نشرة دي جويه، لايدن ١٨٦٦م، ص ٧٦ . ربما يكون هؤلاء هم عرب الجنوب الذين تم دفعهم في البداية إلى الجنوب في اتجاه حضرموت، والذين لا يزالون إلى اليوم يتكلمون لغة المهرة .

* [المترجم : المجاعة بضم الميم]

(٣) قارن بادجر في المرجع المذكور: المقدمة ص ١٣ والنص ص٥ .

(٤) في كثير من الأحيان ترتكب مراجع دينية عامة خطأ واضحا حين تذكر أن مذهب اليزيديين هو فرع من المذهب الإباضي مثلما ورد عند الشهرستاني. قارن أيضا نوفل بن نعمة الله في سوسنة سليمان في العقائد والأديان، بيروت ١٨٧١ ص ٢٠٨ .

مروان الثاني (٧٤٤ – ٧٥٠ م) وكان من المتشيعين النشيطين في المذهب العلوي. أما اليوم فإن السُنَّة والشيعة على حد سواء يتهمون الإباضية بالزندقة والمروق عن الدين ويطلقون عليهم تسمية الخوارج*. أما من الناحية السياسية فإن الفكرة الأساسية لمذهبهم فيما يتعلق بالخلافة تقول: إنه لا يجوز أن ينبني الحق في تولي الخلافة على علاقات الوراثة والنسب أبداً. وهم يعتقدون أن أمير المؤمنين الذي يتولى قيادتهم في الشؤون السياسية والعسكرية كما يتولى إمامتهم في الصلاة ينبغي أن يختاره الشعب بنفسه دون أن يكون في ذلك مرتبطاً بأفراد عائلات معينة . ثم إنهم لا يرون ضرورة لاختيار القائد الذي يدعونه إماماً. لكن في الواقع و بطبيعة الحال أصبح الأئمة يختارون بصفة عامة من بين أفراد عائلة معينة، تبسط سيطرتها ونفوذها على البلاد إلى أن تأتي عائلة قوية أخرى فتبعدها عن السلطة.

أئمة الإباضية في عمان، البرتغاليون في مسقط

وقد كان الجلندى بن مسعود الإمام الأول الذي عينه الشعب في عمان حوالي سنة ٧٥١م، غير أن نفوذه ما لبث أن انتهى بمجيء الخليفة العباسي الأول أبي العباس السفاح. إلا أنه تمّ انتخاب أئمة جدد بعد فترة وجيزة، ولكن العباسيين ظلوا يمارسون حقوقهم في عمان بين الحين والآخر حتى عهد الخليفة القادر (٩٩١ - ١٠٣١). ويبدو أن قرامطة البحرين لم يستطيعوا بسط نفوذهم على عمان. وبعد الخليفة القادر ظل الأئمة الذين يعينون وفقاً لأحكام النظام الإباضي مستقلين استقلالاً تاماً على مدى قرن من الزمن. ثم تلت ذلك فترة طويلة امتدت من ١١٥٤م إلى ١٤٠٦ م لا نملك عنها إلا معلومات قليلة، ويبدو أنه لم يتم خلالها تعيين أي إمام، أو ربما كان عدد الذين عُيّنوا قليلاً جداً. وقد تولى شيوخ من قبيلة بني نبهان الحكم في هذه الفترة بصفتهم ملوكاً(١). بعد ذلك تولى مرة أخرى أئمة من عائلات أزدية من جنوب البلاد العربية السلطة في بلاد عمان. غير أن نفوذ بني نبهان لم ينته إلا في سنة ١٦٢٤م عندما اعتلى الإمام ناصر بن مرشد العرش وأسس دولة اليعاربة. في عهد بني نبهان في القرن الثالث عشر تعرضت عمان إلى عدة حملات من الغزو، كانت إحداها قادمة من شيراز في سنة ١٢٦٥م والأخرى من جزيرة هرمز بعد ذلك بقليل. واستولى أمراء جزيرة هرمز منذ ذلك العهد وحتى

* [المترجم: هذا الكلام غير صحيح، والدليل: أنّ الإباضية تصلّي خلف الإمام السنّي، ولا يرى السُنّة بأساً من الزواج منهم والخلاف المذهبي يسير بين أهل المذاهب الأربعة ومذهب الإباضية].

(١) كلمة "ملك" لا تعني الملك المتعارف عليه، وإنما " الشخص الذي يتولى الحكم " .

بداية القرن السادس عشر على الحكم، وبسطوا نفوذهم على ساحل عمان. وكان مقر الوالي المبعوث من هرمز في قلهات. وقد ورثهم في الحكم غزاة مسيحيون هم البرتغاليون الذين جعلوا من مسقط مدينتهم الرئيسة، وبسطوا نفوذهم على معظم المدن العمانية الساحلية(١).
كان يحكم عمان في ذلك العهد الإمام محمد بن إسماعيل، ومقر إقامته في المناطق الداخلية من البلاد في الرستاق. وفي ٦ مارس ١٥٠٦ م غادر لشبونة أسطول ضخم كان هدفه احتلال سوقطرة في البداية، وجعلها قاعدة في الطريق إلى الهند. من هنا انفصل ألبوكرك في فرقة من الجنود ليحتل عدن، ويقصف مدينة جدة بالقنابل، الأمر الذي كان يرمي إلى القضاء على حلقة الربط المصرية لتجارة البحر الأحمر.

عوضاً عن ذلك أبحر ألبوكرك في اتجاه الخليج الفارسي؛ لأنه رأى أن أمراء هذه المنطقة أشد خطراً على السيادة البرتغالية على الهند وكان في ذلك على حق. استسلمت قلهات، أما قريات ومسقط فقد كان لا بد من مهاجمتهما والاستيلاء عليهما بالقوة (أغسطس ١٥٠٧م). وقد عاث البرتغاليون فساداً في البلاد، ودمروا المدن تدميراً كاملاً وقتلوا السكان بما في ذلك النساء والأطفال. وبعدما استقدم ألبوكرك قوات جديدة من سوقطره، استطاع في السنة التالية إخضاع هرمز التي أصبحت من هناك فصاعداً مركزاً للسيادة البرتغالية في الخليج الفارسي. أما المدن الساحلية العمانية المهمة الأخرى، صور، وصحار، وخورفكان ودبا وغيرها، فقد تم احتلالها واستقرت فيها حاميات صغيرة لتأمين حمايتها. فيما عدا ذلك انحصرت السيادة البرتغالية في فرض الجزية، وفي مقابل ذلك تم إسناد الإدارة الذاتية التامة لأهل البلاد. وقد أنشئت مكاتب تجارية برتغالية في قلهات، ومسقط، وصحار بالإضافة إلى هرمز، وشيدت في مسقط كنيستان أيضاً، تحولت إحداهما في القرن الثامن عشر إلى قصر للسلطان(٢).

هجمات الأتراك، المعركة البحرية قرب مسقط

منذ ١٥٤٦ بدأت من البصرة ومصر وعدن هجمات الأتراك الذين أصبحت لهم قوة مهيمنة في آسيا الدنيا، وكانت هذه الهجمات تهدف إلى القضاء على السيادة البرتغالية في الخليج الفارسي. وفي سنة ١٥٥٠م (أو ١٥٥٢م) استطاعت قوة تركية أرسلها حاكم مصر

(١) قارن مايلز، البرتغاليون في شرق البلاد العربية – التقارير الإدارية عام ١٨٨٤/١٨٨٥م، ص ٢٤، وكذلك المصادر الكثيرة التي يذكرها ستيفه في المجلة الجغرافية عام ١٨٩٧م.
(٢) قارن نيبور في المرجع المذكور، الجزء الثاني، ص ٦٩.

-يقال: إنها كانت تضم ١٦٠٠٠ رجل يقودهم بير (أو بيري) بك - الاستيلاء على مسقط. ولكنها اضطرت إلى التخلي عنها من جديد بسبب فشلها في الاستيلاء على هرمز. وقد كان جزاء القائد بير عند عودته قطع رأسه بسبب الهزيمة(١). ولم تنته محاولات الأتراك إلا في سنة ١٥٥٤ عندما انهزموا هزيمة نكراء في واقعة بالقرب من مسقط. ويبدو أن هذه المعركة البحرية كانت من أهم المعارك في العصور الوسطى(٢). وظل البرتغاليون منذ ذلك العهد يتمتعون بسيادة دون منازع في الخليج الفارسي على مدى عقود كثيرة من الزمن. غير أن مسقط تعرضت في سنة ١٥٨٠ مرة أخرى إلى هجوم سفن تركية يقودها قرصان جاء من عدن، فنهب وسلب في تلك المناسبة، الأمر الذي تسبب في بناء قلعتين عند مدخل الميناء هما القلعتان اللتان لا تزالان قائمتين إلى اليوم وتسميان الجلالي وميراني كما سبق أن ذكرنا .

الهولنديون والإنجليز في الخليج، ناصر بن مرشد، سلطان بن سيف

وفي القرن السابع عشر جاء الهولنديون والإنجليز إلى الهند، فاندلع بذلك الصراع على النفوذ بين هذين البلدين وبين البرتغاليين، هذا الصراع الذي انهزم فيه البرتغاليون بعد مدة وجيزة رغم دفاعهم عن أنفسهم دفاعاً شجاعاً مستميتاً.

في سنة ١٦٢٠ حدث أول اصطدام انهزم فيه البرتغاليون، وما إن انقضت سنتان حتى خسروا هرمز التي كانت تحظى بأهمية كبيرة، والتي حرض الإنجليز شاه الفرس عباساً الأكبر على احتلالها. وبعد محاولة فاشلة لاستعادة المدينة ركز البرتغاليون نفوذهم سنة ١٦٢٤م في مسقط.

في السنة نفسها قامت في عمان دولة اليعاربة التي أسسها ناصر بن مرشد الذي سبق ذكره. ووراء ساحل مسقط، في الأراضي الداخلية التي ترك لها البرتغاليون الحرية الكاملة في تصرفاتها، حصل عدد كبير من الشيوخ أو الملوك الصغار على قدر متفاوت من الاستقلال حتى جاء ناصر بن مرشد فقضى على هذه الظاهرة قضاء مبرماً، وضم إليه عنوة جميع من لم يلتحق به عن طواعية لمحاربة الكفار الذين اغتصبوا البلاد واستعمروها. وما لبث الإمام أن بلغ درجة من القوة تسمح له بمهاجمة البرتغاليين الذين بادروا بقبول التخلي عن جميع المدن الساحلية ما عدا مسقط ودفع الجزية علاوة على ذلك. وقد أدى عدم التزام البرتغاليين بهذا الوعد إلى معارك

(١) قارن ستيفه في المرجع المذكور، ص ٦١٧، ومايلز في: البرتغاليون في شرق البلاد العربية، التقارير الإدارية ١٨٨٤/١٨٨٥م، ص ٣٤.
(٢) قارن مايلز في المرجع المذكور، ص ٣٥ .

عديدة أخرى لم يحالف الحظ فيها الغرباء ، فكان من نتيجة ذلك تسليم القلعتين مطرح ومسقط إلى الإمام ثم طرد المسيحيين من صور وقريّات (عام ١٦٣٤م). وفي سنة ١٦٤٩م خلف سلطان بن سيف ابن عمه ناصر بن مرشد إماماً على البلاد. و لم يكن قد بقي تحت سيطرة البرتغاليين في عهده غير صحار ومطرح ومسقط. وقد كان هذا الإمام حازماً على غرار ناصر بن مرشد. فما إن تم انتخابه إماماً حتى خرج من عاصمته الرستاق عازماً على طرد البرتغاليين نهائياً من البلاد. ليس هناك معلومات مؤكدة حول تاريخ الاستيلاء على مسقط والظروف والملابسات التي أحاطت بذلك، غير أن ذلك ينبغي أن يكون قد حدث بين سنة ١٦٥٠م وسنة ١٦٥٢م. وفي النهاية لم يبق للبرتغاليين غير الخليج الصخري " قلبوه "، وهي ضاحية من ضواحي مسقط، وانتهى بهم الأمر إلى التخلي عنه طواعية. ولما تمادت السفن البرتغالية في تهديد الساحل العماني نادى الإمام إلى الجهاد ضد المسيحيين، وراح العرب الذين حنكتهم الخبرة يصنعون سفناً يزداد حجمها شيئاً فشيئاً، حتى إنهم استطاعوا استعمالها في إرسال حملات ناجحة إلى السواحل الهندية في مدن دين، ودامان، وبومباي، وبنجالور وغيرها. ومنذ ذلك الحين انقضى عهد البرتغاليين في الخليج الفارسي. وقد استطاع سلطان أن يركز دعائم النفوذ في داخل البلاد، وأن يوسع نطاق التجارة على مدى اثنتي عشرة سنة من السلم والاستقرار. وقد توفي سنة ١٦٦٨م في نزوى التي كان سلفه يقيم فيها أيضاً(١). وخلفه في الحكم ابنه أبو العرب الذي لم تكن له ميول حربية . وفي سنة ١٦٩٨م جاء بعده أخوه سيف الذي وجد بين يديه أسطولاً كبيراً، واعتبر أن مهمته الأولى تتمثل في طرد البرتغاليين من مومباسا، وكلوه، ومناطق أخرى من شرق إفريقية، وكذلك من جزيرة بمبا(٢). وقد توفي سيف سنة ١٧١١م، فخلفه ابنه سلطان بن سيف الذي تميز خاصة بحروب حالفه فيها الحظ ضد الفرس في الخليج فانتزع منهم جزيرة البحرين أيضاً. وفي سنة ١٧١٨م، تولى بعده ابنه القاصر سيف(٣)، ولكن مهنى، عم هذا الحاكم الصغير، ما لبث أن أخذ بيده مقاليد الحكم .

....

(١) قارن بادجر في المصدر المذكور، المقدمة، ص ٢٧

(٢) على غرار ما رأيناه آنفاً، توجهت منذ القرن السابع الميلادي حملة أولى من عمان إلى ساحل شرق أفريقية، وأصبحت هذه المناطق الساحلية والجزر المقابلة لها منذ ذلك الحين تحت النفوذ التام للمهاجرين العرب الجنوبيين، الذين أصبحوا بدورهم في بداية القرن السادس عشر تابعين للبرتغاليين الذين استقروا في هذه المناطق.

(٣) لم يصبح " إماماً " (بكسر الهمزة) وإنما أماماً (بفتح الهمزة) فقط، وهذه الكلمة تعني تقريباً " مشرفاً ". قارن بادجر في المرجع المذكور، المقدمة، ص ٣٠. ذلك أن انتخابه إماماً كان أمراً مستحيلاً حيث إنه لا يستطيع وهو طفل أن يؤم المسلمين أو يخطب فيهم، كما أنه لا يستطيع قيادتهم في الحرب . وقد تم الاستغناء عن انتخاب إمام آخر بناء على المبدأ الذي أصبح معمولاً به منذ حكم سلالة اليعاربة، والذي يقضي بأن الابن يخلف أباه في الحكم.

الحروب الأهلية في عمان، محمد بن ناصر الغافري

تميزت الفترة اللاحقة بنشوب حرب أهلية تلو الأخرى، وكانت القبيلتان العربيتان الجنوبيتان المهيمنتان، وهما اليعاربة والهنائي تتداولان في كل مرة النصر والهزيمة. في هذا الوقت نجد أن شيخ القبيلة العربية الشمالية المسيطرة في شمال عمان وهي بنو غافر الذين سبق ذكرهم، ويدعى محمد بن ناصر، قد بلغ فجأة قدراً كبيراً من القوة والنفوذ، في حين أن العرب الشماليين في عمان كانوا إلى ذلك الحين خاضعين لِحكومة الأئمة العرب الجنوبيين .

و لم يكتسب التمييز بين القيسي واليماني في عمان حدته البالغة إلا في القرن الثامن عشر(١). وقد استطاع محمد بن ناصر السيطرة على شخصية سيف بن سلطان القاصر، وأن يفرض نفسه حاكماً على البلاد رغم المنافسين الذين قاموا إليه، حتى تم انتخابه إماماً على البلاد في سنة ١٧٢٤م. إلا أن الحروب الأهلية لم تنته عند ذلك الحد. ففي سنة ١٧٢٨م، سقط محمد بن ناصر في الوقت نفسه مع منافس له يدعى خلف، فنودي بسيف بن سلطان من جديد إماماً على البلاد(٢). غير أن ذلك لم يوفر الاستقرار للبلاد. فلمحاربة الإمام المنافس بالعرب بن حمير، استقدم سيف البلوش من ساحل مكران، ومنذ ذلك الحين إلى اليوم ظل البلوش جنوداً مرتزقة عند حكام بلاد عمان، التي وجدوا منها أيضاً الطريق إلى زنجبار. ولما فشل هؤلاء في الانتصار على المنافس، توجه سيف في نهاية المطاف إلى الفرس، عدوه اللدود، الذين أرسلوا إليه جيوشهم في سنة ١٧٣٣م(٣).

الفرس والبلوش في عمان

وقد عاث هؤلاء في عمان فساداً، ونتيجة لذلك ساهموا في زيادة كراهية الشعب لسيف ابن سلطان في البلاد. وقد حصل الفرس عدة مرات على تعزيزات عسكرية، عند ذلك قررت مجموعة من الشيوخ والقضاة خلع سيف بن سلطان وتعيين سلطان بن مرشد إماماً عوضاً

(١) قارن الجزء الأول من هذا الكتاب، الفصل ٤، ص١٤٧ وما يليها. رغم أنه لا علاقة لذلك أبداً بالتطور التاريخي للأمور في عمان، فإنه من الغريب أن الصراع الدموي الحاسم بين القيسي واليماني في منطقة الدروز في لبنان، تلك المنطقة العربية القديمة القابعة وسط سلاسل الجبال الآهلة بالمسيحيين الآراميين، والتي كان فيها عرب الجنوب في البداية الفئة المهيمنة، من الغريب أن هذا الصراع الفاصل حدث أيضا في وقت متأخر يكاد يكون متزامنا مع الصراع في عمان (عام ١٧١١ م). غير أن الصراع في لبنان أسفر عن الهزيمة النهائية للعرب الجنوبيين.

(٢) أو للمرة الثالثة ؟ قارن بادجر في المرجع المذكور، المقدمة، ص ٣٦.

(٣) قارن: الخطوط العريضة لتاريخ عمان من ١٧٢٨ إلى ١٨٨٣م في التقارير الإدارية ١٨٨٢/١٨٨٣م، ص ٢٢.

عنه (عام ١٧٣٨م). غير أن الإمام الجديد لم يستطع تخليص البلاد من براثن الفرس. ويبدو أن الإمام المخلوع توجه بعد انتخاب سلطان بن مرشد من جديد إلى الفرس (سنة١٧٤١ أو ١٧٤٢م)(١)، لطلب المساعدة. وكان نادر شاه ينوي منذ أمد بعيد الاستيلاء على البحرين وعمان وفرض سيادته بصفة عامة على كامل الخليج الفارسي، ولذلك فإنه رحب بالفرصة، وانتهزها للتدخل في شؤون عمان وتثبيت أقدامه فيها. وكان قد سبق له أن اشترى من الهولنديين لهذا الغرض عدداً من السفن، أو طلب منهم صنعها لحسابه. وتمكن أسطوله بقيادة ميرزا تقي خان من الاستيلاء على مسقط دون عناء، وراحت جيوشه على مدى عدد من السنين تحرق الأراضي الداخلية في البلاد دون أن تسلم المناطق التي استولت عليها إلى الإمام سيف.

أحمد بن سعيد يصبح إماماً على مسقط

في هذه الفترة بلغ رجل قدراً كبيراً من النفوذ رغم أن أسلافه كانوا مغمورين، ولكنه استطاع بحزمه وحسن تدبيره أن يصبح مؤسس سلالة جديدة هي سلالة السادة الذين ظلوا يحكمون بلاد عمان إلى اليوم، هذا الرجل هو أحمد بن سعيد. ومن المرجح أنه كان في السابق تاجراً تنقل بسبب أعماله التجارية في جميع المناطق، وكان قد استرعى انتباه الإمام سيف بن سلطان فعينه والياً على صحار. في هذا المنصب كسب أحمد بن سعيد بفضل نشاطه ومثابرته وبفضل حكمه الحازم والعادل في الوقت نفسه عدداً كبيراً من الأصدقاء والأنصار، الأمر الذي أثار غيرة سيف بن سلطان فأعد العدة للهجوم عليه، ولكن سيفاً أراد أيضاً التخلص من الفرس الذين جلبهم بهم بنفسه إلى البلاد؛ ولذلك فإنه بدأ بعقد الصلح مع أحمد بن سعيد، غير أن هذا الأخير سلك منذ ذلك الوقت سبيله بصفة مستقلة .

كان الفرس قد علوا في البلاد وأصبحوا سادة على جلّ الأراضي العمانية. و لم تصمد أمامهم غير منطقة صحار التي كان أحمد بن سعيد يشن منها الهجوم الموفّق تلو الآخر.

حشد الفرس الآن قواتهم ضد صحار، ولكن سلطان بن مرشد سعى إلى تحرير المدينة، غير أن القوات التي سبق له أن جمعها - والتي كانت في الأساس من رجال قبيلة الغافري التي تعيش في شمال بلاد عمان - ما لبثت أن تخلت عنه وغادرته، فانهزم سلطان بن مرشد هزيمة نكراء أمام الفرس، إلا أنه استطاع رغم جراحه البالغة أن يبلغ المدينة، حيث توفّي بعد أيام قليلة متأثراً

(١) قارن مايلز: السيد سلطان بن أحمد حاكم مسقط، في التقارير الإدارية ١٨٨٧/١٨٨٨م، ص ٢٢.

بجراحه، وقد توفي سيف بن سلطان أيضاً مباشرة بعد ذلك في الرستاق، وبذلك أصبحت عمان نهائياً بدون حاكم أو قائد.

وقد عرف أحمد بن سعيد بحذق وحسن تدبير كيف يستفيد من هذا الوضع، حيث عقد اتفاقية مع الفرس يحتفظ هؤلاء بموجبها بمسقط، وفي مقابل ذلك تغادر جيوشهم كامل الأراضي العمانية، ثم إن أحمد بن سعيد استطاع عن طريق الحيلة والخيانة والعنف أن يسيطر على مسقط أيضاً وعلى آخر القوات الفارسية التي بقيت في عمان، ومنذ ذلك العهد لم تتعرض عمان من جديد إلى الغزو من قِبَل الفرس .

كانت النتيجة الطبيعية لانتصارات أحمد بن سعيد أن بايعته البلاد إماماً عليها؛ لأنها كانت في حاجة ملحّة إلى من يتولى الحكم والقيادة، وكان ذلك يعني أيضاً نهاية دولة اليعاربة، فبانتخاب أحمد بن سعيد – الذي كان من عائلة عادية ومغموراً إلى زمن غير بعيد – عاد الشعب إلى المبدأ الإباضي القديم الذي يقضي بتعيين الإمام عن طريق انتخابات حرة، دون اعتبار للانتماءات العائلية أو تمييز بسبب الحسب والنسب.

فرض أحمد بن سعيد النظام على البلاد بكل حزم وانضباط، وكان يقيم في الرستاق ويملك جيشاً نظامياً دائماً من الجنود الأفارقة العبيد ومن البلوش، ثم إنه أضفى طابعاً من الفخامة وشيئاً من البذخ على بلاطه، وهي ظاهرة لم تكن معروفة في عمان من قبل، كذلك أعطى أحمد بن سعيد أبناءه بعض المدن التي كانوا يقيمون فيها، ويعيشون على خراجها، وبذلك حصل هؤلاء فوراً على امتيازات ما كان يحظى بها حتى أبناء العائلات الوجيهة في البلاد، فأطلق عليهم لقب السادة، وبقيت هذه التسمية لدى أمراء العائلة الحاكمة في مسقط وزنجبار إلى اليوم، والواقع هو أننا لا نعرف الكثير عن نسب أحمد بن سعيد، إلا أننا نعلم أنه ينتسب إلى البو سعيد، وهي عائلة أزدية؛ أي عربية جنوبية يمنية تقيم في عمان منذ أمد بعيد؛ ولذلك فإنه كان لا يطلق على نفسه إلا اسم السعيدي الأزدي العماني؛ وبعد أن هزم أحمد بن سعيد وقتل بالعرب بن حمير – الذي بايعه بعض العمانيين إماماً خلال السنوات الأخيرة من الحروب الأهلية ولكنه تخلى عن الحكم لابن عمه سيف بن سلطان، وقضى بذلك نهائياً على مقاومة اليعاربة- تزوج إحدى بنات هذه العائلة الملكية التي أطاح بها عن الحكم .

حروب أحمد بن سعيد ونهايته

يجدر ذكر اثنتين من حروبه الخارجية، فقد شنّ سنة ١٧٥٦م حملة على الفرس لتحرير البصرة عندما توجّه السكان إليه لطلب المساعدة، فأبحر إلى شمال شط العرب في عشر سفن حربية كبيرة، وعدد من السفن الصغيرة الأخرى، وعشرة آلاف رجل، وكسر بسفنه سلسلة حديدية ضخمة وضعها الفرس عبر النهر وهزمهم هزيمة نكراء.

وقد حصل أحمد بن سعيد بأمر من السلطان عثمان الثالث على جزية سنوية من والي البصرة ظلت تدفع أيضاً إلى ابنه وحفيده، أما الحرب الثانية فتتمثل في هجوم موفّق على القراصنة الذين كانوا يضايقون بانجلور التي تجلب منها مسقط حاجتها من الأرز، ويقال: إن إمبراطور دلهي عقد مع أحمد بن سعيد إثر ذلك معاهدة حماية وولاء، وقد شُيد لمبعوث هذا الإمبراطور في مسقط منزل ظل إلى عهد قريب يدعى منزل النواب(١).

خاض أحمد بن سعيد خلال السنوات الأخيرة من حكمه صراعاً مع قبيلة الغافري، وكذلك مع اثنين من أبنائه، هما سيف وسلطان اللذان كانا يريدان القضاء على ابنه الآخر سعيد بن أحمد الذي عينه والده - وهو لا يزال على قيد الحياة - خلفاً له في الإمامة(٢)، وقد كان سعيد والياً على مسقط التي عانت معاناة شديدة أثناء هذه الاضطرابات.

توفي أحمد بن سعيد سنة ١٧٧٥م(٣)، وخلفه في الحكم ابنه سعيد الذي بايعه الشعب وفقاً لرغبة والده(٤)، ولمّا كانت المبايعة تقتضي إعلان الولاء من طرف العناصر المؤثرة في شؤون البلاد فإن الأخوين أدركا أنه من الأفضل لهما أن يغادرا عمان، فتوجّه سيف إلى شرق إفريقية ولم يعد منه قط، أما سلطان فإنه ذهب إلى ساحل مكران القريب على الأراضي الفارسية، وهناك نجح في ربط علاقة صداقة مع نادر شاه الذي وعده بمناصرته ضد أخيه - غير أنه يبدو أن هذا الوعد لم يسفر عن أي نتيجة - وأهداه قرية جوادر، وتنازل له عن نصف دخل المنطقة لتغطية نفقاته، وسد حاجات معيشته .

(١) قارن بادجر في المرجع المذكور، المقدمة، ص ٤٧، وص ١٧١ .

(٢) كان هلال الابن الأكبر كفيفاً تقريباً، وقد توفي مباشرة بعد وفاة والده في الهند التي كان يسعى فيها إلى علاج بصره.

(٣) قارن بادجر في المرجع المذكور، المقدمة، ص ٤٩، حسب مايلز في المرجع المذكور، ص ٢٢ كانت سنة الوفاة ١٧٨٣م.

(٤) ألغى الأئمة الذين خلفوا سعيد بن أحمد في الحكم عملية انتخاب الإمام إلغاء تاماً، ولمّا لم يبق لسعيد بن أحمد حتى خلال حياته غير الجانب الديني من الإمامة - في حين كان رجال آخرون يمارسون النفوذ السياسي والإداري - فإن هذا التخلي عن المبايعة بعد وفاته تواصل وكان من باب أولى وأحرى، والأمير الوحيد من عائلة البوسعيد الذي حمل لقب الإمام بعد سعيد بن أحمد (١٨٦٨ - ١٨٧١م) هو عزان بن قيس الذي كان يؤمن بأن عليه الاعتماد على شيوخ الدين في البلاد، قارن فيما يلي ص ٣٦٠، واكتفى بقية الأمراء العمانيين بلقب السيد الذي لا يحمله إلا أفراد عائلاتهم .

سعيد، وقيس، وسلطان، وحمد، حملات ناجحة على الفرس

ظهرت اضطرابات جديدة في عمان في عهد سعيد الذي كان يتصف بالضعف وقلة الحزم، وقد أعلن عدد من الشيوخ والقضاة خلعه، وتولى الحكم عوضا عنه أخوه قيس، إلا أن حمد صاحب الحزم من أبناء سعيد خلعه وتولى مقاليد الحكم حتى توفي سنة ١٧٩٢م، وكان حمد قد نجح في المصالحة بين سلطان وسعيد. وبعد وفاة حمد استولى سلطان - الذي كان قد عاد من جوادر إلى عمان في تلك الفترة - على مدينة مسقط التي كانت مقراً إقامة حمد حتى ذلك العهد، غير أن قيساً وسعيداً - الذي كان مستعداً لقبول حكم ابنه لا حكم أخيه - وحّدا جهودهما إثر ذلك وحاصرا مسقط على مدى عدة شهور، وقد انتهت حرب الإخوان هذه - التي امتدت إلى أعماق البلاد أيضاً سنة ١٧٩٣م - باتفاقية تقضي بأن يبقى سعيد مقيماً في الرستاق كما سبق ويحتفظ بلقب الإمام، في حين يحتفظ سلطان بمسقط، وبركة، وقلاع أخرى على الساحل، ويدير الشؤون السياسية في البلاد، ويحصل قيس على منطقة صحار.

استقر السيد سلطان في مسقط التي أصبحت منذ ذلك العهد العاصمة العمانية بلا منازع، وكانت أول مهمة له الاستيلاء عسكرياً على جوادر وتحصينها، ثم الاستيلاء على شاربار الواقعة غرب جوادر، وقد شجعته هذه الانتصارات على مهاجمة بني معيم في جزيرتي كشم وهرمز، فاستولى على هاتين الجزيرتين ووافق شاه الفرس على تولّيه الحكم على بندر عباس، وجميع المناطق التابعة لها من لنجة إلى يشك - التي كانت إلى ذلك العهد تحت نفوذ شيخ معيم - مقابل جزية سنوية يدفعها للشاه، وفي الوقت نفسه تم عقد اتفاقية سلم بين عمان وبلاد فارس، وظلت منطقة بندر عباس منذ ذلك العهد تحت نفوذ سادة مسقط لمدة خمسة وسبعين عاماً، رغم المحاولة الفاشلة التي قام بها بهاء خان سنة ١٧٩٧م بشن هجوم على هذه المدينة.

وكانت مخالفة الحظ له أقل من ذلك في حملاته على البحرين، فقد استقرت في هذه الربوع قبيلة العتوبية - بنوعتوب - (١) التي كانت تحصل على إمدادات عسكرية متواصلة من اليابسة، ورغم أن سلطاناً طلب مساعدة الفرس وحصل عليها فإن جهوده للاستيلاء على الجزر الغنية بسبب صيد اللؤلؤ راحت هباء منثوراً، والأكثر من ذلك أن السفن التي تعبر مضيق هرمز أصبحت منذ انتهاء سيادة البرتغاليين تدفع الضرائب للحراس المتمركزين في رأس مسندم التابعين لسادة عمان، وقد رفضت سفن جزر البحرين تسديد هذه الرسوم الجمركية، وعندما

(١) [المترجم: هكذا وردت الكتابة بالحروف اللاتينية في المرجع الألماني].

فشلت محاولات سلطان فرض هذه الضرائب عليهم، بدا وكأن جميع السفن التي تعبر المضيق تخلّت هي الأخرى عن دفع هذه الرسوم[١]، إضافة إلى ذلك فشل مخطط سلطان في بسط نفوذه على مدينة الكويت وضمها إلى مملكته سنة ١٨٠١م، لكنه استطاع في سنة ١٨٠٣م على الأقل تحطيم الأسطول القوي للقراصنة العتوبية، وفسح بذلك المجال لسفن مسقط في مزاولة نشاطها التجاري بحرّية.

تأثير الحركة الوهابية ونتائجها في بلاد عمان

أما في داخل بلاد عمان فقد كان السيد سلطان - الذي اتّصف بالحزم وقوة العزيمة - يمسك بزمام الأمور بقبضة من حديد، وقد كان في سنة ١٨٠٣م يعتقد أنه قد بلغ من رسوخ نفوذه درجة يستطيع معها مغادرة البلاد للحج إلى مكة، وفي أثناء غيابه حاول أحد أبناء إخوانه - ويدعى بدراً - السيطرة على مسقط، ولكنه فشل في ذلك، ولاذ بالفرار ملتجئا إلى عبد العزيز ابن سعود أمير الوهّابيين في الدرعية[٢]، ولم يمض من الوقت إلا قليل حتى اتضحت نتائج وانعكاسات هذه الحادثة ، فبعد أن اتخذت الحركة الوهابية في وسط البلاد العربية طابعاً مدنياً وورث عبد العزيز أباه سعوداً في الحكم، سارع بالاستيلاء على كامل الساحل العربي للخليج الفارسي حتى بلغ عمان، واستولى كذلك على جزر البحرين، وبلغت حملاته حتى الجانب الفارسي من الخليج، وما من شك في أنه تسنى في ذلك العهد - نحو سنة ١٨٠٠م - صدُّ الحملة الوهابية الأولى الموجهة إلى عمان نفسها، غير أن القبائل الشمالية في البلاد والتي يعود نسبها إلى عرب الشمال أيضا اعتنقت المبادئ الوهابية هي الأخرى، وأصبحت البريمي الواقعة في الشمال الغربي من بلاد عمان مدينة وهابية، ورداً على استفزاز السيد بدر أرسل عبد العزيز فوراً جيشاً كبيراً إلى عمان نجح في القضاء المبرم على قوة أرسلها سلطان لمواجهته، ووصل حتى سويق، ويبدو أن الموضوع الذي أثارغضب الوهابيين كان يتمثل خاصة في أن سلطاناً جاء إلى الحجاز في قوة، وإن كانت صغيرة، شاركت في المعارك ضد الأمير[٣]. غير أن العرب الجنوبيين الإباضيين رفضوا الخضوع للوهابيين والسيادة الأجنبية، ولذلك فإنهم استجابوا للنداء العام الذي وجهه السيد سلطان، وانضموا إليه بأعداد حملت الوهابيين على مغادرة الأراضي

(١) قارن مايلز في المرجع المذكور، التقارير الإدارية ١٨٨٧/١٨٨٨م، ص ٢٥.
(٢) قارن فيما سبق ص ١٣٧ الهامش ٢.
(٣) قارن مايلز في المرجع المذكور، ص ٢٧ .

العمانية الحقيقية والعودة إلى نجد، والاحتفاظ فقط بحامية صغيرة في البريمي[١]، ورغم ذلك فإن عمان لم تبق في مأمن من اضطرابات أخرى بسبب هذه الطائفة.

العلاقات السياسية بين عمان وإنجلترا

ما لبث السيد سلطاناً بعد ذلك أن قام بزيارة إلى البصرة لاستلام الخراج التركي، غير أن قراصنة تعرضوا إليه بالقرب من لنجة وهو في طريق العودة إلى بلاده، فلقي حتفه على أيديهم في نهاية ١٨٠٤ م.[٢]

ويبدو أن السيد سلطاناً هو أول حاكم عماني ربط علاقات سياسية مع إنجلترا[٣]، وكانت مدة حكمه في بداية عصر الصراعات بين فرنسا وإنجلترا للسيطرة على المحيط الهندي، وكانت لأحمد وسعيد اللذين سبقاه على العرش علاقات صداقة مع فرنسا تتأكد أواصرها بين الحين والآخر عن طريق هدايا يبعث بها حاكم موريشيوس، التي كانت حركة التجارة بينها وبين مسقط على قدر كبير من النشاط، وعندما شن نابوليون حملته على سوريا بعد استيلائه على مصر، أرسل إلى عدد من الحكام المسلمين من بينهم السيد سلطان بغية كسبهم لدعم مخططاته الرامية إلى غزو الهند، إلا أن إنجلترا نجحت في كسب مساندة السيد سلطان. وفي سنة ١٧٩٨م ثم في سنة ١٨٠٠م وقعت الحكومة الهندية اتفاقيات مع سلطان تتضمن الأخيرة منها حق إنجلترا في استقرار مندوب سياسي هندي في مسقط، أما المحاولة التي قامت بها فرنسا سنة ١٨٠٣م لتعيين مندوب سياسي في مصر فإنها باءت بالفشل، ولكن رغم أن مسقط وقفت في صف إنجلترا بهذه الطريقة، فإن مراكب القراصنة الفرنسية كانت تستطيع استعمال مسقط قاعدة لنشاطاتها، كما أن السيد سلطاناً أمر بشراء سفن إنجليزية وفرنسية على حد سواء لتوسيع أسطوله، وقد قدّم الطرفان هذه السفن فعلاً، ومن جانب آخر لم تفعل إنجلترا أي شيء لمساعدة سلطان ضد الوهابيين رغم أنه طلب ذلك منها[٤].

---

(١) هكذا ورد في تقارير المؤرخ المواطن ابن رزيق، قارن بادجر في المرجع المذكور، ص ٢٣٧، وقد كان السبب الآخر في انسحاب الوهابيين يتمثل في وصول خبر وفاة الأمير عبد العزيز في وسط البلاد العربية إلى قائد القوات الوهابية الذي يدعى الحارق، قارن مايلز في المرجع المذكور، ص ٢٨.

(٢) ساءت العلاقات من جديد بين سلطان وباشا البصرة، وسبق أن أوشكا على الدخول في حرب سنة ١٧٩٨م؛ ذلك أن الباشا رفض تقديم المساعدة الموعودة ضد الوهابيين.

(٣) قارن مايلز في المرجع المذكور، ص ٢٥.

(٤) قارن بادجر في المرجع المذكور، المقدمة، ص ٧٤- ٧٦ ، وقد يكون هذا أول تدخل لإنجلترا في عمان.

سالم وسعيد ابنا سلطان

حين وفاة السيد سلطان كان الإمام سعيد[1] يعيش معتكفاً في مدينة الرستاق التي أسندت إليه، وتولى ابناه سالم وسعيد - اللذان كانا يبلغان على التوالي خمس عشرة وأربع عشرة سنة من العمر - مقاليد الحكم دون أن يكترثا للإمام في بداية الأمر، ومن جديد عادت الحروب الأهلية الدموية في أبشع صورها إلى تمزيق البلاد، وراح أفراد العائلة الحاكمة يتقاتلون شر قتال، وكانت القبائل المختلفة من الأزد والغافري تقاتل تارة إلى جانب أحد الأمراء وتارة ضده.

خلال هذه الاضطرابات لعبت إحدى الأميرات دوراً بارزاً، واستطاعت أن تجعل ذكاءها ونفوذها في خدمة سعيد ابن أخيها، إذ كان بدر الذي طلبت منه المساعدة قد رجع من نجد إلى عمان، وفتك بأحد أعمام سعيد، فأوعز سعيد بدوره بالفتك ببدر، الأمر الذي تم عن طريق مؤامرة دنيئة، وكان قيس أيضاً قد توفي في هذه المعارك[2] فتولى سعيد إثر ذلك الحكم بنفسه، أما سالم أخوه الأكبر الذي يبدو أنه لم يكن طموحاً فقد اكتفى بإدارة المدينة التابعة له، وبقيت العلاقة الودية بين الأخوين قائمة حتى وفاة سالم، وكانت الجريمة التي وقع ضحيتها بدر قد جعلت شعبية سعيد تعمّ كامل أرجاء البلاد، لأن بدراً - الذي كان يعتمد اعتماداً كاملاً على القبائل الشمالية والوهابيين - كان قد أرغم العمانيين على قبول مندوب لأمير الدرعية في مسقط، ودفع الجزية للوهابيين .

الأمير سعود إماماً على الوهابيين، الحملات الوهابية

في هذه الأثناء كان الأمير سعود قد خَلَف عبد العزيز على رأس الوهابيين، وانتهز فرصة استنجاد عمان به ليرسل سنة ١٨٠٩م قوة كبيرة بقيادة مطلق الذي ينتمي إلى قبيلة مطير إلى عمان، التي كان الوهن قد بلغ منها مبلغاً شديداً، وظل مطلق حتى وفاته سنة ١٨١٣م يمارس باسم أمير الدرعية نوعاً من السيادة العليا من مركزه في البريمي، ولم تتخلل ذلك إلا فترات قصيرة من الانقطاع.

(١) لم تتسبب وفاته التي حدثت بعد ذلك بقليل في أي عواقب أو نتائج، لكن السيد سعيداً الشاب عدل عن تعيين نفسه إماماً فيما بعد لما كبر، وأصبح صاحب النفوذ بدون منازع، قارن -فيما سبق- ص ٣٦٣ الهامش ٤.

(٢) سقط قيس أثناء حملة شنها مع سعيد ضد قبيلة القراصنة القواسم سنة ١٨٠٨م عند رأس الخيمة، قارن مايلز في تاريخ الفترة الأخيرة من حياة سعيد بن سلطان إمام مسقط، التقارير الإدارية ١٨٨٣/١٨٨٤م، ص ٢٣.

كان السكان الذين يمارسون النشاطات البحرية على السواحل العربية وعلى رأسهم القواسم - الذين كان نشاطهم الأساسي يتمثل منذ قرون عديدة في القرصنة - قد اعتنقوا المبادئ الوهابية منذ أمد بعيد، ووسعوا نطاق غاراتهم حتى بلغوا الهند، ولذلك قررت الشركة الهندية التدخل في الموضوع، غير أنها اكتفت بالتعاون مع سعيد على قصف رأس الخيمة، وإشعال النيران فيها، وانتزاع مدينة شيراز الساحلية من قبضة الوهابيين، ولما تحرك مطلق في جيش كبير لتحرير شيراز كان الإنجليز قد سبقوا إلى مغادرة الساحل(١)، وهزم مطلق سعيداً، وأرغم العمانيين على اعتناق المذهب الوهابي بشنِّه غزوات طالت جميع مناطق البلاد .

وقد حاول سعيد - الذي دفع الوهابيين إلى تصرف شديد الصرامة ضد عمان بسبب إدخاله الإنجليز في القضية - طلب مساعدة الإنجليز من بومباي دون جدوى، وفي آخر الأمر أرسل أخاه سالما إلى البلاط الفارسي لطلب العون والمساندة، وقد أسفر ذلك عن عبور ثلاثة آلاف من الفرسان الفرس من بندر عباس إلى عمان(٢)، لكن مطلق هو الآخر حصل على المساعدة التي شملت اثنين من أبناء الأمير سعود نفسه اللذين كانا يشنّان حملة على مناطق الجنوب(٣)، وانهزمت القوات الفارسية، وإثر ذلك قام مطلق بغزوة فذة على كامل بلاد عمان حتى بلغ صور ورأس الحد، ودمر التحصينات المنيعة التي كانت قائمة في جميع الوديان، ونهب جميع القرى والمدن، وأشعل النار في السفن والمدن الساحلية، وفي النهاية لم يبق لسعيد إلا أن يسلم نفسه لمطلق بدون أي قيد أو شرط، وتم نتيجة لذلك إبرام اتفاقية سلم تقضي بدفع السيد سعيد جزية بمبلغ أربعين ألف دولار إلى الوهابيين، ورغم ذلك ما لبثت الصراعات أن اندلعت من جديد بين السيد سعيد والوهابيين .

أخيراً حان لعمان أن تتخلص من السيطرة الوهابية، فقد لقي مطلق حتفه سنة ١٨١٣م في غزوة جديدة انطلقت هذه المرة من البريمي باتجاه الجنوب، وقد كان هذا الرجل أحد أنشط القادة العسكريين لأمير الدرعية، وكان يعرف حق المعرفة بلاد عمان وأوضاع مختلف القبائل فيها، وحيث إن حملات محمد علي باشا بدأت من مصر في السنة نفسها، وزعزعت كيان

(١) رغم المحاولة الفاشلة سنة ١٨٠٣م تمّ في سنة ١٨٠٧م إبرام اتفاقية بين مسقط وفرنسا، وفي سنة ١٨٠٨م تمّ إرسال مندوب فرنسي من موريشيوس إلى مسقط، غير أنه لم يمكث فيها إلا بضع سنين، وقد اضطر الفرنسيون منذ هزائمهم في الهند وفي المحيط الهندي إلى التخلي عن مجال نفوذهم لفائدة الإنجليز .

(٢) بناء على قول مايلز في المرجع المذكور، ص ٢٤ لم يأت سالم سنة ١٨١٢م، إلا بألف وخمسمائة رجل من بلاد فارس كقوات نجدة؛ وذلك بعد أن تبين أنه لا أمل في الحصول على مساعدة من الحكومة البريطانية الهندية.

(٣) قارن بادجر في المرجع المذكور، ص ٣١٨ و٣٤٥ ، والمقدمة ص ٧٤.

الدولة الدينية الشابة في أعماق صلبها، وكسرت شوكتها مبدئياً كسراً تاماً، فإنه كان ينبغي ضم جميع القوات الوهابية المساعدة للدفاع عن وسط البلاد العربية، ولذلك تم سحب القوات من عمان أيضاً و لم تعد إلى الظهور هناك على مدى أكثر من عشرين سنة، وكان السيد سعيد رغم صغر سنه قد أبلى البلاء الحسن في معاركه الثقيلة ضد الوهابيين، وفي تلك الأثناء كان عزان ابن السيد قيس - الذي خلف أباه حاكماً على منطقة صحار - (١) قد توفي في طريق عودته من الحج إلى مكة سنة ١٨١٤م، فاستولى سعيد إثر ذلك على مدينة صحار، وأصبح بذلك السيد المطلق المعترف به من قِبَل جميع قبائل بلاد عمان .

سعيد يبسط سيادته المطلقة على عمان

وقد أخمد سعيد على الفور الثورات القليلة التي اندلعت في السنوات التالية في المناطق الداخلية من بلاد عمان، وبدأ بذلك عهد ازدهار عمان- مسقط، وكان السيد سعيد رجلاً بعيد النظر، فواصل رغم صراعه مع الوهابيين سعيه إلى توسيع أسطوله الذي كان سلطان قد بدأ فيه، بعد أن وجه عنايته بالدرجة الأولى إلى تعزيز النشاط التجاري لمدنه الساحلية عقب رسوخ نفوذه نهائياً داخل البلاد، ثم ركز جهوده على القضاء على القرصنة التي كان الوهابيون يساندونها مساندة وثيقة في الخليج الفارسي، وفي الوقت نفسه كان يرغب في الاستيلاء على جزيرة البحرين، التي كانت منذ أمد بعيد القاعدة الأساسية للقراصنة، في الخليج، غير أنه في حين كان الإنجليز والفرس يباركون سعيه للقضاء على القرصنة ويستحسنون الجهود التي يبذلها في هذا السبيل فإن غيرة هذين الطرفين بالذات جعلت غزوه للبحرين يبدو مستحيلاً، وقد كانت هذه الأفكار تعاوده في كثير من المناسبات حتى وفاته في سنة ١٨٥٤م ، غير أنه لم يكتب لتلك الأفكار أن تؤتي ثمرها أبداً، ومع ذلك فقد نمت قوة وثروة عمان باطراد بفضل تشجيع سعيد للنشاطات التجارية. وفي سنة ١٨١٧م أبرم الحاكم الفرنسي لمقاطعة بوربون باسم فرنسا اتفاقية مع سعيد ما لبثت أن توسعت، وظلت سارية المفعول حتى تم إبرام الاتفاقية التجارية الفرنسية سنة ١٨٤٤م، ورغم ذلك ظلت علاقات سعيد مع إنجلترا جيدة على غرار ما كانت عليه في السابق، أما إنجلترا - التي لم تكن ترغب في التدخل أثناء عهد ازدهار نفوذ الوهابيين

(١) يبدو أن صحار التي أعطيت قيساً قد أصبحت منذ عهد والده أحمد إمارة مستقلة، وكان عزان بن قيس الحليف الوفي لسعيد ولكن دون التخلي عن استقلاله، ثم يبدو أنه أبرم أيضاً اتفاقية خاصة مع مطلق قائد الوهابيين عندما اتفق سعيد على السلم مع هذا الأخير، وقد نال أبناء عزان بطرق مختلفة حقوقهم في صحار في وقت لاحق .

في الخليج الفارسي - فإنها تعاونت مع سعيد بعد انهزام هؤلاء، وأرسلت سنة ١٨١٩م أسطولاً ضد القواسم، وقد نجحت هذه الحملة التي آزرها سعيد، وانتهت بالاستيلاء على رأس الخيمة وتأديب القبيلة، إلا أن الحملة التي قام بها الإنجليز مع سعيد سنة ١٨٢٠م ضد بني بوعلي - وهي قبيلة من جعلان في الجنوب الشرقي من مسقط - فإنها لم تكلل بالقدر نفسه من النجاح.

ومنيت الحملة التي ضمت في معظمها جنوداً إنجليزاً بهزيمة نكراء سقط فيها من الجانب الإنجليزي ستة ضباط ومائتان وأربعون رجلاً آخرين، وأسفرت عن خسارة جميع المدافع، وفي السنة التالية انطلقت من بومباي حملة ثانية ضد بني بوعلي انتهت بالقضاء على معظم أفراد القبيلة، وفي سنة ١٨٢٢م أبرمت إنجلترا مع مسقط اتفاقية منع الاستعباد، إلا أن هذه الاتفاقية لم تكن لها أية قيمة حقيقية أبداً(١)، وقد أدى السيد سعيد فريضة الحج على غرار عدد من أسلافه، وحظي أثناء ذلك بمعاملة ملكية في الحجاز سنة ١٨٢٤م، رغم أن المسلمين يتهمونه بالزندقة والمروق عن الدين بسبب انتمائه إلى المذهب الإباضي.

و لم يتسبب غيابه في أي اضطرابات داخل البلاد العمانية، وفي سنة ١٨٢٦م ضرب الحصار على بوشهر، لأن حاكمها منعه من وصل أميرة فارسية كان مقرراً أن يتزوجها، وقد ظفر بالأميرة، وأخذ حاكم المدينة أسيراً إلى مسقط حيث أطلق سراحه مقابل فدية بلغت ثمانين ألف دولار، وفي السنة نفسها جاء بأسطوله إلى البصرة، وأخذ حاكمهاهو الآخر أسيراً إلى مسقط، واحتجزه حتى توصل إلى الاتفاق مع الأتراك على المساعدات المالية التي لم تسدد إليه، والتي تعود إلى فترة حكم السيد سلطان(٢).

الوهابيون والعمانيون

لا شك أن من الصعب تحديد العلاقة بين الوهابيين والعمانيين في الفترة اللاحقة، فأما القبائل الشمالية في البلاد فيبدو أنها ظلت متمسكة بالتعاليم الدينية الوهابية حتى بعد الانتصارات العسكرية التي سجلها المصريون، وبعد تدهور القوة الوهابية، وعندما استعاد أمراء وسط البلاد العربية أنفاسهم بعد ذهاب إبراهيم باشا، يبدو أنهم واصلوا دفع الجزية إلى الحكام الذين خلفوا ابن سعود، وكذلك فعلت القبائل العربية الموجودة على ما يسمى بساحل القراصنة شمال عمان حتى الكويت، وأثناء معارك سكان وسط البلاد العربية ضد المصريين قاتلت حتى بعض

(١) قارن مايلز في المرجع المذكور، ص ٢٦.
(٢) قارن مايلز في المرجع المذكور، ص ٢٧.

قبائل شمال عمان إلى جانب الأمراء الوهابيين في نجد والحجاز، أما القبائل العربية الجنوبية للبلاد العمانية الحقيقية - التي لم يقبل منها إلا عدد قليل على مضض أحكام للمذهب الوهابي المتشددة - فإنها سارعت إلى نبذ هذه التعاليم والعودة جهراً إلى التعاليم الإباضية، ورغم ذلك فقد ظللنا نسمع بعد ذلك بين الحين والآخر عن مندوب وهابي في مسقط، وعن غزوات أمراء وسط البلاد العربية لعمان، وقد وجد هؤلاء في قبيلة الغافري وفي قبائل أخرى من شمال عمان حليفاً دائماً يساعدهم عن طواعية أثناء غزوهم للمدن والقبائل الجنوبية. وقد هيأت المناطق المحصنة في شمال عمان - مثل البريمي - لسكان وسط البلاد العربية قواعد جيدة لعملياتهم ضد عمان، وكانت هذه الحملات تنتهي دائماً بدفع جزية، إلا أنها كانت في العادة لا تلبث أن تذهب طيّ النسيان.

حملات السيد سعيد في شرق إفريقية وزنجبار

من الآن فصاعداً تبدأ حقبة جديدة من تاريخ عمان، فقد اغتيل شيخ ظفار على الساحل العربي الجنوبي لحضرموت سنة ١٨٢٩م، فأرسل سعيد إثر ذلك أسطولاً قوياً استولى على كامل منطقة نفوذ الشيخ، ومباشرة بعد ذلك أرسل هذا الأسطول إلى شرق إفريقية، ومن هنا ركز سعيد كل عنايته على زنجبار والساحل الشرقي لإفريقية، و لم يمض وقت طويل حتى نقل مقر إقامته إلى هناك، وما لبث السيد سعيد أن استأنس إلى حياة الترف في زنجبار الغنية بالزراعة، وتعوّد اللذات السائغة التي توفرها ثروات الجزيرة والمستعمرات الإفريقية التابعة لها، وأصبح في حاجة لا غنى له عنها، ومع ذلك لم يهمل هذا الحاكم الحازم شؤون وطنه إهمالاً تاماً، فقد سلم مقاليد الحكم هناك إلى أحد أبنائه، وكان يبحر بنفسه إلى مسقط كلما اقتضت الحاجة بسبب اضطرابات داخلية أو عدو خارجي، إلا أنه كان لا يلبث أن يسارع بالعودة إلى زنجبار الحبيبة.

تعود علاقات مسقط مع الساحل الشرقي لإفريقية إلى عهد بعيد، فقد هاجر - كما سبق أن رأينا - فريق كبير من أهل عمان إلى شرق إفريقية منذ القرن الأول الهجري - نحو ٦٨٥م-(١)، وتوالت هجرات أخرى من حضرموت ومن عمان على السواء فيما تبع ذلك من العصور، وعندما تخلص العمانيون من نير الاستعمار البرتغالي، لبى الإمام سلطان بن سيف سنة

(١) قارن فيما سبق ص ٣٥٥ و ٣٦٠.

١٦٥٥م[1] نداء وجّهته إليه بعثة تمثل المواطنين الأفارقة الأصليين في ممباسا لإخراج البرتغاليين منها، وقد اضطر إلى محاصرة ممباسا على مدى خمس سنوات كاملة ، وتم إثر ذلك تعيين حاكم من عمان عليها، إلا أن السيادة البرتغالية في زنجبار والساحل الإفريقي المقابل لها لم يتم القضاء عليها نهائياً إلا سنة ١٦٩٨م في عهد الإمام سيف بن سلطان، ولكن البرتغاليين عادوا سنة ١٧٢٨م إلى النفوذ في تلك المنطقة لمدة قصيرة فحسب، بعد ذلك تم من جديد تعيين حاكم عربي على ممباسا باسم الإمام في مسقط، فجاء بحامية عربية إلى زنجبار، وراح يدفع جزية سنوية إلى عمان. وفي سنة ١٧٣٩ أصبح محمد بن عثمان المازني حاكماً على ممباسا ومؤسساً لسلالة حاكمة مستقلة، وعندما انتقل النفوذ في عمان من اليعاربة إلى آل بوسعيد، امتنع حاكم ممباسا عن دفع الجزية، واستطاع هو ومن خلفه في الحكم أن يحافظوا على استقلالهم تقريباً على مدى قرن من الزمن، على الأقل فيما يتعلق بمنطقة ممباسا ذاتها وضواحيها، وقد اغتيل محمد بن عثمان من قِبَل الوالي الجديد الذي أرسله أحمد بن سعيد، وتعرض الوالي بدوره إلى العزل ثم القتل على يد أخ لمحمد بن عثمان بمساعدة تاجر إنجليزي يدعى كوك، ومع ذلك فقد خضعت كلوة، ومركه، وزنجبار للإمام في نهاية الأمر .

سعيد يستولي على قلعة ممباسا

في سنة ١٧٨٤م أرسل الإمام سعيد ابنه حمد في طلب أخيه سيف الذي فرّ إلى إفريقية، ونجح حمد في إخضاع ممباسا أيضاً إلى سيادة الإمام العليا على الأقل، ويعني ذلك حمل الحاكم الوراثي هناك على دفع الجزية، أما السيد سلطان فإن اهتمامه بشرق إفريقية كان قليلاً وكذلك السيد سعيد؛ لأن الاضطرابات الداخلية والصراع مع الوهابيين لم تترك له مجالاً لإنجازات كبيرة في تلك الربوع النائية عن عمان أثناء السنوات الأولى من حكمه، ومع ذلك فإنه أمر ببناء قلعة في لامو سنة ١٨١٢م، وفي سنة ١٨١٧م بدأ إرسال القوات من عمان إلى شرق إفريقية يتزايد ، غير أن هذه القوات لم تستطع في بداية الأمر أن تفعل شيئاً يذكر ضد سادة ممباسا من سلالة المازني الذين استولوا لأنفسهم على النفوذ على بمبا، وعلى جزء كبير من الساحل الإفريقي على حد سواء، ثم إن سليمان المازني رأى أن يستنجد بالإنجليز في بومباي بعدما تكبد خسائر ثقيلة في الأرواح والعتاد، ولكن الإنجليز رفضوا في البداية، ثم وافقت بارجة حربية

(١) قارن مايلز في المرجع المذكور، ص ٢٧ وما يليها.

إنجليزية سنة ١٨٢٤م على مساعدته، الأمر الذي تسبب في رفع الراية الإنجليزية في ممباسا(١)، وقد تم بعد ذلك بمدة وجيزة سحب الحامية الإنجليزية الصغيرة التي غادرت ممباسا، وتركت سالم المازني الذي خلف سليمان سنة ١٨٢٦م، وشأنه، وقد طالب سعيد هذا الأخير بدفع الجزية وتسليم المواقع المحصّنة في ممباسا، فاستجاب سالم إلى الطلب الأول ولكنه رفض الثاني، فما كان من سعيد إلا أن أبحر بنفسه سنة ١٨٢٩م إلى شرق إفريقية عازماً على الاستقرار فيها بصفة دائمة بداية من ذلك العهد.

وقد فشل الهجوم الأول الذي شنه السيد سعيد على ممباسا، وكانت قد اندلعت اضطرابات في مسقط في هذه الأثناء، وما كادت نار هذه الاضطرابات تخمد سنة ١٨٣٠م حتى عاد سعيد سنة ١٨٣٢م إلى مياه الساحل الشرقي الإفريقي في ألف وأربعمائة رجل من جنوده، واستطاع عن طريق العنف والخيانة أن يبسط يده على قلعة ممباسا، إلا أنه ترك لسالم وخَلَفه حق الولاية على ممباسا، أما هو نفسه فقد أبحر إلى زنجبار حيث شيد قصراً لإقامته الدائمة، واندلعت الاضطرابات في مسقط من جديد، وكان ينبغي على سعيد أن يعود إليها قبل انتهاء سنة ١٨٣٢م(٢)، وفي هذه الفترة عاد الوهابيون أعداء سعيد القدماء إلى الظهور في عمان بقيادة سعيد ابن خصمه القديم مطلق، فرأى السيد سعيد أن يتخلص من هؤلاء مقابل جزية سنوية يقدمها لهم بمبلغ خمسة آلاف دولار(٣).

الاتفاقية التجارية بين عمان والولايات المتحدة وإنجلترا

في السنة نفسها تشفّى سعيد بإبرام اتفاقية تجارة وصداقة مع الولايات المتحدة الأمريكية بناء على اقتراح صدر منها(٤)، وقد كانت تلك أول اتفاقية من هذا النوع يبرمها مع قوة من العالم المتحضر، غير أن الأمل الذي كان يحدو سعيداً في الحصول على مساندة أمريكية في مخططاته ضد ممباسا لم يجد صدى كبيراً في واشنطن، فانتهزت إنجلترا التي كانت منزعجة من هذه

---

(١) قارن مايلز في المرجع المذكور، ص ٢٨

(٢) يبدو أن الحكومة الإنجليزية ساهمت في ذلك العهد في طمأنة خصومها في عمان، قارن مايلز في المرجع المذكور، ص ٣٠.

(٣) بهذه المناسبة أيضا تسجل المصادر الإنجليزية تدخلاً من قِبَل الحكومة البريطانية في الهند، ومما يسترعي الانتباه أن هذه الأخيرة ظلت بعد ذلك تدفع سعيداً بشكل منتظم إلى التسامح مع الوهابيين، ولم تستجب إنجلترا أبداً لطلب سعيد المؤازرة ضد الوهابيين.

(٤) اضطر الأمريكان إلى عقد هذه الاتفاقية بسبب المصاعب التي تسبب فيها في ذلك العهد التجار الهنود في زنجبار لتجارتهم التي كانت قد ازدهرت آنذاك .

الاتفاقية[1] الفرصة للحيلولة دون تحالف الأمريكان مع العمانيين، ووقعت بدورها اتفاقية مع سعيد سنة ١٨٣٤م تستجيب لأحكام التعاقد الذي أبرمه مع أمريكا، وفي هذه الأثناء كان سعيد قد عاد إلى الإبحار من مسقط متجهاً إلى ممباسا في جيش كان قد سحبه من موطنه الأم، ولكنه لم يستطع في هذه المرة أيضاً إرغام سالم على تسليم المدينة، وكان عليه أن يكتفي بالحصول على الجزية منه، ثم قفل عائداً إلى زنجبار عودة المنتصر، وقد تلت ذلك معارك في سوفي وفي أماكن أخرى من الساحل الشرقي لإفريقية كان الطرفان يتداولان فيها النصر والهزيمة.

اضطرابات في عمان، وتدخل الإنجليز

ومرة أخرى عادت الاضطرابات إلى عمان، فقد كان حمود بن عزان قد استولى على الرستاق سنة ١٨٣٤م ونما نفوذه إلى درجة أن سعيداً سارع إلى نجدة ابنه ثويني الذي أصبح الخطر يهدد نفوذه على مسقط، ويبدو أن إنجلترا سبقت إلى إنذار حمود بأنه ينبغي عليه أن يجنح إلى السلم[2]، غير أنها لم تقدم مساعدة حقيقية لسعيد الذي لم يكن يريد العودة إلى زنجبار قبل القضاء التام على قوة حمود المتمرد؛ ولذلك استنجد بسعيد بن مطلق الوهابي الذي تحالف معه، كما تحالف معه القواسم وبنو ياس ضد صحار - المقر الرئيسي لحمود - وبناء على ذلك رأت بريطانيا أنه ينبغي لها أن تتدخل تدخلاً جاداً، فنقلت سفينة تابعة للبحرية الهندية حموداً إلى مسقط حيث تمت المصالحة بينه وبين سعيد.

وفي سنة ١٨٣٥م توفي في ممباسا سالم الخصم العنيد لسعيد، ونتج عن وفاته صراع دموي بين مختلف أفراد عائلة المازني الذين انتصر من بينهم في نهاية الأمر رشيد بن سالم. وفي نهاية سنة ١٨٣٦م استفاد سعيد من هذه الأوضاع العصيبة ليبحر بأسطوله من مسقط إلى ممباسا، ويقوّض بمدافعه وباستعمال الرشوة أيضا هذه المرة، أركان سيد ممباسا الجديد .

تم تجديد الاتفاقية القديمة مع رشيد أيضاً، تلك الاتفاقية التي تقضي بأن يسيطر رجال سعيد على قلعة ممباسا، في حين يحتفظ حكام سلالة المازني بالنفوذ على ممباسا ذاتها، على أن يدفعوا الجزية إلى زنجبار، ولما رفض رشيد استبدال ممباسا ببمبا أثناء تلبيته لدعوة وجهها إليه سعيد لزيارة زنجبار، سمح له سعيد طبعاً بالعودة إلى ممباسا في أمان محملاً بالهدايا الثمينة، غير أنه ما إن انقضى شهران على ذلك - ١٨٣٧م- حتى أرسل ابنه الثاني خالداً إلى ممباسا مبيّتاً نيّة الخيانة، فاستدرج

(١) قارن مايلز في المرجع المذكور، ص ٣٠.
(٢) قارن مايلز في المرجع المذكور، ص ٣١.

رشيداً وأفراد عائلة المازني كافة إلى القلعة وأسرهم، وأرسلهم على متن سفينة إلى بندر عباس، وفي أثناء الطريق وبعد الوصول إلى بندر عباس وقعوا ضحية أبشع أنواع الفتك والتقتيل(١).

في سنة ١٨٣٨م وبمناسبة اعتلاء الملكة فكتوريا العرش أرسل سعيد هدايا ثمينة مع رسول خاص إلى لندن، وتم إثر ذلك توقيع اتفاقية تجارية أخرى بين لندن وسعيد سنة ١٨٣٩م، في حين فشلت محاولات فرنسا في الحصول على اتفاقية مماثلة للأمريكية والإنجليزية، وفشل أيضاً فتح قنصلية في زنجبار، وفي سنة ١٨٣٩م عاد سعيد مرة أخرى إلى عمان، وكان محمد علي باشا قد بلغ أوج قوته في مصر، وكان أحد قادته الذي يدعى خورشيداً قد أرسل في نهاية السنة سعيد بن مطلق إلى البريمي، وأثار ذلك شكوك إنجلترا في أن سعيداً قد اتفق مع محمد علي عن طريق خورشيد، للحصول بمساعدته على جزر البحرين ودفع الجزية إلى مصر، ومهما يكن من أمر فإن اتفاقية السلم التي عقدها محمد علي سنة ١٨٤٠م مع الباب العالي أرغمته على سحب قواته من البلاد العربية، وبذلك أصبحت عمان لا تنتظر خيراً ولا شراً من مصر، وعاد سعيد إلى زنجبار بعد زيارة تفقدية إلى ممتلكاته في الخليج الفارسي، وفي سنة ١٨٤٣م عاد سعيد ابن مطلق من جديد إلى البريمي بإيعاز من الأمير الوهابي فيصل، الذي أصبح له نفوذ واسع من جديد، وطالب بجزية قدرها خمسة وعشرون ألف دولار، ووافق ثويني بن سعيد على دفع مبلغ خمسة آلاف دولار، في حين ترك السيد الذي كان منشغلاً بصراعات أخرى في شرق إفريقية العودة إلى عمان كلما شن الوهابيون هجوماً عليه مثلما كان يفعل في السابق(٢).

سعيد وفرنسا

لم تكن علاقات سعيد مع فرنسا جيدة في فترة الأربعينيات، إذ كان يرتاب في مساعي الفرنسيين إلى تثبيت أقدامهم في شرق إفريقية، وكان هو ذاته يرسم مخططات طموحة في هذا الصدد، إذ كان قد وجه نظره حتى إلى مدغشقر، وعرض على ملكة الهوّا الانضمام إلى حريمه بالزواج منه، غير أنها رفضت هذا العرض، ومع ذلك تم إبرام اتفاقية صداقة وتجارة بين فرنسا وسعيد سنة ١٨٤٤م(٣)، وأفسد سعيد محاولات الفرنسيين تثبيت أقدامهم في لامو وبرافا سنة ١٨٤٧م.

(١) احتلت شركة خطوط التلغراف للبحر الأحمر وكوراشي سنة ١٨٦١م الجزيرة الكبرى والوحيدة من مجموعة كوريا– موريا وتدعى جزيرة هلارويه، وهي جزيرة قليلة السكان، وتقع هذه المجموعة على ساحل حضرموت في الجنوب العربي في اتجاه الشرق غير بعيد عن ظفار، غير أنها ما لبثت أن تخلت عنها سنة ١٨٦٢م، وقد وجد مايلز الذي زار الجزيرة في نهاية سنة ١٨٨٣م أنه تم نقل السماد منها منذ أمد بعيد. قارن مايلز – زيارة مندوب سياسي مسقط إلى رأس فرتك، التقارير الإدارية ١٨٨٤/١٨٨٥م ص ٢٢/٢٣ .

(٢) قارن مايلز في المرجع المذكور، ص ٣٢

(٣) تقول المصادر الإنجليزية: إن المقيم البريطاني احتج في بوشهر لدى فيصل على اعتداء سعيد بن مطلق، بعدما منعت الحكومة البريطانية ثويني وسعيداً من توجيه أسطول من مسقط وزنجبار إلى البحرين، التي كانت قد اندلعت فيها حروب أهلية دامية .

حروب أهلية جديدة في عمان

اندلعت الحروب الأهلية من جديد في عمان، وحملت سعيداً على العودة إلى البلاد بعد غياب دام ما يزيد على عشر سنوات؛ وذلك بعدما اعتكف حمود إلى الحياة الخاصة، وأصبح شيخاً ورعاً، وكان حمود يكره ثويني كرهاً شديداً، فلما رأى أن ابنه سيفاً ربط علاقة صداقة قوية مع ثويني أوعز باغتيال ابنه سيف، واستولى من جديد على صحار، فاغتاله ثويني بدوره إثر ذلك، وقد جعلت هذه الحروب الأهلية سعيداً يعود أخيراً إلى عمان سنة ١٨٥١م بعدما قضى ما يزيد على عشر سنوات خارج البلاد، واستطاع سعيد هذه المرة أيضاً إعادة النظام بفضل شخصيته الفذة، ومرة أخرى خضعت صحار إلى إدارته المباشرة، وفي سنة ١٨٥٢م عاد من جديد إلى زنجبار الحبيبة، إلا أنه لم يكتب للسلام الشامل الذي نعمت به تلك المملكة الواسعة في ذلك العهد أن يستمر زمناً طويلاً، فما إن غادر سعيد عمان حتى توجه عبد الله الذي خلف أباه فيصلاً أميراً على الوهابيين في جيش كبير إلى الجنوب واستولى على البريمي، ولم ينسحب إلى نجد إلا بعد رفع الجزية السنوية إلى مبلغ اثني عشر ألف دولار، كما أنه ترك خلفه حامية قوية في البريمي، ثم إن غارات الفرس على بندر عباس أصبحت على قدر كبير من الخطورة، وفي الوقت نفسه أثارت تحركات الفرنسيين في المياه الإفريقية قلقاً كبيراً في نفس سعيد، ولذلك وافق هذا الأمير العجوز على مضض على السفر إلى البلاد العربية الحارة سنة ١٨٥٤م بعدما أوصى ابنه خالداً وكبار الشيوخ العرب في زنجبار باتباع نصائح الممثل الإنجليزي في زنجبار، وما إن وصل سعيد إلى مسقط حتى طالبه الإنجليز ببيع جزر خوريا-موريا إليهم(١)، التي حاول الفرنسيون قبل ذلك دون جدوى استغلال مستودعات السماد فيها، فما كان من سعيد إلا أن تخلى لإنجلترا عن الجزر الهندية دون مقابل(٢).

---

(١) تقول المصادر الإنجليزية: إن سعيداً أعلم الحكومة الإنجليزية قبل ذلك بالاقتراح الفرنسي.

(٢) قارن مايلز في المرجع المذكور أعلاه ص ٣٦، كان سعيد على غرار من سبقه في الحكم يقدم إلى إنجلترا منذ فترة طويلة هدايا نفيسة تليق بمقام الملوك والسلاطين وتتمثل أحيانا في سفن حربية عظيمة مقارنة بمعطيات ذلك العهد .

صراع مع الفرس، ووفاة سعيد

كان سادة عمان كما سبق أن ذكرنا قد حصلوا من الحكومة الفارسية منذ سنة ١٧٩٣م على بندر عباس مع منطقة ساحلية كبيرة بموجب عقد إيجار، وكان سعيد يهتم بهذه الملكية اهتماماً كبيراً، ونظراً إلى عداوته مع بلاد فارس، فإنه أرسل قوات كبيرة من مسقط إلى بندر عباس، التي كان الحاكم العماني قد أخرج منها، ثم استولى عليها من جديد، ولكن هذه القوات ما لبثت أن أخرجتها قوات أكبر جاءت من شيراز، وقد أدرك سعيد بعد حصار فاشل أنه أصبح عاجزاً عن بلوغ أي نتيجة ضد الفرس عن طريق الصراع المسلح، وفي سنة ١٨٥٦م نجح في الحصول على عقد استئجار لمنطقة بندر عباس لمدة عشرين عاماً - و لكن بشروط أسوأ بكثير من ذي قبل - من الشاه ناصر الدين الذي كان في ذلك العهد يصوغ مخططات توسّعية طموح، وكانت الحرب بين إنجلترا وبلاد فارس تهدد بالاندلاع في ذلك العهد، غير أن سعيداً لم يثنه ذلك عن قراره في العودة إلى زنجبار.

عندما غادر سعيد عمان أدرك أن نهايته قريبة، فأمر بأن يدفن كل من يوافيه الموت أثناء الطريق في تابوت معدني جاء به معه، فوافته المنية وهو في عرض البحر يوم ١٣ أكتوبر ١٨٥٦م، ولقد كان سعيد على كل حال أميراً عظيماً استطاع أن يجعل من موطنه قوة بحرية كبيرة مقارنة بمعطيات ذلك العهد، بعد أن كان في السابق دويلة عربية صغيرة، وقد عرف العرب العمانيون الذين زادت في صلابتهم المعارك المتواصلة تحت قيادته كيف يعززون سيادتهم في الخليج الفارسي وشرق إفريقية، وكيف يوسعون تجارتهم إلى درجة جعلت حتى القوى الأوروبية تسعى إلى عقد اتفاقيات مع هذه الدولة العربية، ولكن سعيداً حوّل مركز ثقل تأثيره من البلاد العربية نفسها إلى الخارج، وبالذات إلى زنجبار جزيرة الليونة والميوعة، وكانت معاركه الإفريقية تتطلب بصفة متواصلة قوات جديدة اضطر إلى سحبها من موطنه الأم، وقد توافد عدد كبير من أشراف العرب بعد ذلك على زنجبار حيث البلاط، وكانوا يستطيعون انطلاقاً منها ممارسة أعمال مربحة في التجارة والزراعة على الجزر المحيطة، وعلى اليابسة في القارة الإفريقية.

ثويني وماجد ابنا سعيد، والاحتكام إلى نائب الملك في الهند

بعد وفاة السيد سعيد تداعت المملكة الكبيرة التي أنشأها، وخلفه الابن الأكبر سناً من ابنيه اللذين ظلا على قيد الحياة وهو ثويني، في حين تولى السيد ماجد أخوه الأصغر الحكم في زنجبار وشرق إفريقية.

وقد تم الاتفاق بين الطرفين على أن يدفع ماجد إلى أخيه الأكبر أربعين ألف دولار كجزية وتعويض؛ لأن الممتلكات في شرق إفريقية تزيد كثيراً عن المستعمرات العربية في الثروة والريع، لكن ماجداً ما لبث أن رفض دفع الجزية سنة ١٨٦٠م، فبدأ ثويني التعبئة العسكرية للاستيلاء على زنجبار، وبسط نفوذه على كامل مملكة والده المتوفى، ولا شك أن الحظ كان سيحالفه في ذلك(١)، وكانت قوة عسكرية كبيرة قد غادرت إلى زنجبار عندما تدخلت إنجلترا في الخلاف بناء على طلب ماجد، واتفق الطرفان أخيراً على تحكيم بريطانيا فيما شجر بينهما، وأعلن نائب الملك في الهند عن الحكم سنة ١٨٦٢م وكان ينص على ما يلي:

١- أن يتم الاعتراف بالسيد ماجد أميراً على زنجبار والمستعمرات الإفريقية التي كانت تابعة للسيد سعيد .

٢- أن يدفع أمير زنجبار لأمير مسقط مساعدة سنوية تقدر بأربعين ألف دولار.

٣- أن يدفع السيد ماجد إلى السيد ثويني المساعدات المتأخرة عن سنتين بقيمة ثمانين ألف دولار.

٤- لا يعني دفع المساعدات السنوية خضوع وتبعية زنجبار لمسقط، ولا يعني معاملة شخصية للأمير الحالي، وإنما تدفع هذه المساعدات لمن يخلفه في الحكم أيضاً، وتعتبر هذه الاتفاقية نهائية لمكافأة أمير مسقط على تخليه عن المطالبة بزنجبار وللموازنة بين الطرفين في الميراث(٢).

وقد أعلنت إنجلترا أنها اعتمدت في حكمها على التشريع الإباضي في عمان- مسقط الذي يقضي بأن يتم اختيار الأمير من طرف الشعب، وأن أغلبية الشخصيات المرموقة في الموطن الأصلي العربي اختارت ثويني لمسقط وماجد لزنجبار.

أما بقية أبناء سعيد العديدين فلم يراعوا عند تقسيم تركة الأب من الأراضي، وقد كان عدد كبير من هؤلاء يعيش في عمان إلى جانب كثير من السادة الذين هم الأمراء المنحدرون من عائلة آل بوسعيد الحاكمة، ولمّا لم يحكم في مسقط غير أفراد هذه العائلة منذ ما يزيد على قرن من الزمن، دون أن يتولّى دائماً وبالضرورة أحد الأبناء أو حتى الابن الأكبر خلفاً لأبيه، فقد كان كل من هؤلاء السادة يشعر بحقه في اعتلاء العرش لو وجد عدداً كافياً من الأنصار يساعدونه على تحقيق مطالبه في السيادة على عمان، أو على الأقل على أي جزء منها بقوة السلاح .

(١) قارن روس – الخطوط العريضة لتاريخ عمان من ١٧٢٨ إلى ١٨٨٣م، في التقارير الإدارية ١٨٨٢/١٨٨٣م، ص ٢٨ .

(٢) قارن بادجر في المرجع المذكور، المقدمة، ص ١٠٠، بداية من هذا العهد أصبح على مسقط أن تدفع وحدها مبلغ عشرين ألف دولار جزية للوهابيين.

وقد ظل هذا المبدأ إلى اليوم مصدر صراعات مستمرة في عمان، وظلت الحروب الأهلية تمزق البلاد منذ وفاة سعيد، وكان السادة هم الذين يشعلون نيرانها وكذلك شيوخ وقادة القبائل القوية الذين لا ينتمون إلى العائلة الحاكمة، وإنما يؤمنون هم الآخرون بأقدم المبادئ الإباضية الذي يقضي بأنه يجوز لكل من يريده ويختاره الشعب أن يتولى الإمامة على مسقط ، وعلاوة على ذلك لم تنته أبدا النزاعات التي يتسبب فيها الثأر وحب الانتقام بين القبائل المختلفة وخاصة بين الغافري والهنائي، ورغم أن هذه الصراعات كانت تهدأ في عهود الأمراء ذوي الحزم والقوة الذين يبسطون نفوذهم على كامل البلاد، فإن إخمادها الكامل لم يتسن لأحد قط .

كان من نتائج الحكم الذي أصدرته إنجلترا، والذي فصل زنجبار عن الوطن الأم أن قضى نهائياً على القوة العمانية، وقوّض دعائم مركز عمان في الخليج الفارسي أيضاً، وكانت المعارك ضد الوهابيين قد نهكت البلاد، وأضعفتها الهجرة إلى المستعمرات الإفريقية، وكان على السيد ثويني أن يدفع جزية بمبلغ عشرين ألف دولار إلى الأمراء الوهابيين، وظل هذا العبء يثقل كاهل عمان بعد ذلك على مدى سنين عديدة، وقد استنفد ذلك جزءاً من المساعدات التي تدفعها زنجبار إلى مسقط، ومبلغها أربعون ألف دولار، وأصبحت إنجلترا في وقت لاحق تقدم المال إلى السادة في كثير من الظروف الصعبة، وتخصمه من المساعدات التي تدفعها زنجبار، أو تخصم منها أي مطالبات مالية أخرى، ويبدو أن إنجلترا هددت في وقت لاحق بالاحتفاظ بكامل المساعدات إذا لم تستجب عمان لبعض مطالبها الأخرى، ولم تنقطع العلاقات بين زنجبار والوطن الأم التي كانت جيدة منذ البداية إلى هذا اليوم ، ولكن يبدو أن زنجبار هي وحدها التي استفادت منها، وقد ظل عرب عمان يهاجرون إلى زنجبار الغنية والمناطق التابعة لها التي يحكمها آل بوسعيد أيضاً، ولا يعود من هؤلاء المهاجرين إلا عدد قليل للاستقرار النهائي في عمان(١).

وبعد فقدان زنجبار انتهى عهد عمان كقوة بحرية، عندئذ جعلت إنجلترا من المبدأ شعاراً، وأعلنت أنها لن ترفض رفضاً باتاً أي أعمال قرصنة(٢) في الخليج الفارسي فحسب، بل ولن تقبل كذلك أي مبادرة حربية بين القبائل والأمراء الذين يعيشون على مختلف السواحل، ولتنفيذ

(١) في مقابل ذلك ظلت عمان تحصل من إفريقية على العبيد، الذين لم يتوقف جلبهم إلى البلاد إلى اليوم رغم مراقبة القوى الأوروبية.

(٢) ينطبق الحكم نفسه على تجارة العبيد.

هذا المبدأ، أبرمت إنجلترا اتفاقيات خاصة مع عدد كبير من شيوخ القبائل تقضي بالحفاظ على هدنة بحرية دائمة على الساحل العربي، وخاصة في جزر البحرين وفيما يسمى بساحل القراصنة[1] في شمال غربي عمان، وكلما تم خرق هذه الاتفاقية أو تعرض أحد التجار الهنود - الذين يعيشون تحت حماية إنجلترا، والذين عززت موقفهم هذه الحماية، فتزايد استقرارهم في مختلف المناطق الساحلية - إلى خسارة بسبب الاضطرابات، تدخلت إنجلترا بقوة السلاح، وقصفت سفنها في عديد من الحالات قرى وسفن القبائل المتورطة في ذلك، وكان لا بد من تشجيع وتعزيز التجارة البريطانية ونشاط الهنود في الخليج الفارسي مهما بلغ الثمن، وفي الوقت نفسه كان الدفاع على هذا المبدأ يتيح الفرصة للتحكم في قضايا القبائل كلما سمحت الظروف بذلك.

إلزام عمان بالهدنة الدائمة في البحر

وقد فرضت إنجلترا على السيد ثويني أيضاً الالتزام بالهدنة البحرية، وهكذا فقد أمراء مسقط نهائياً أي فرصة لبسط نفوذهم على القبائل البعيدة من مقر حكمهم، وهم الذين كانوا منذ أمد بعيد قوة بحرية عظيمة بالنسبة للمقاييس العربية، وكانوا دائماً قادرين على المحافظة على نفوذهم على الساحل العربي رغم تعثر وانقطاع هذا النفوذ في بعض الفترات، كما كانوا قادرين على فرض الجزية على عدد من القبائل العربية. وقد تسببت عودة الأسطول الذي كان الجزء الأكبر منه من نصيب زنجبار بعد وفاة سعيد، في زيادة صعوبة دخول السادة في حروب ضد السادة المتمردين والقبائل الثائرة في عمان.

---

(١) المواضع التي يستقر فيها شيوخ ما يسمى ساحل القراصنة، الذين كانوا سابقا تحت نفوذ مسقط وانفصلوا اليوم عنها كما توحي بذلك هذه التسمية، هي من رأس مسندم باتجاه الغرب كما يلي: ١- رأس الخيمة ، ويحكمها شيخ من القواسم، قارن فيما سبق ص ٣٢٠ ، ٢- أم القيوين و٣- عجمان، ويحكمهما شيوخ آل بوعلي، ٤- الشارقة، ويحكمها شيخ من القواسم، ٥- دبي، ويحكمها شيخ من آل بوفلاسة - فرع من قبيلة ياس- و٦- أبوظبي، التي يقيم فيها الشيخ ذو القوة والنفوذ الكبيرين وهو سعيد بن خليفة ، من قبيلة بني ياس البدوية الذي بلغ اليوم من الكبر عتياً، وهذه المناطق صغيرة، ويعيش سكان ساحل القراصنة حياة بدوية، أو يعملون في صيد اللؤلؤ والملاحة، وتحد منطقة أبو ظبي من الشمال الغربي المنطقة التابعة للولاية العثمانية ويحكمها الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني الذي يقيم في شبه جزيرة قطر، قارن فيما يلي، ص ٣٨٦ الهامش ١. ولمراقبة هؤلاء الشيوخ وحماية الهنود الذين يعيشون في مناطقهم استقر في الشارقة مندوب مواطن خاضع للمقيم الإنجليزي في بوشهر، وكل عام تزور سفينة حربية إنجليزية مستقرة في الخليج هؤلاء الشيوخ لتوزع عليهم الهدايا وتطمئن على الأوضاع، وتتأكد من عدم خرق قادة عمان المهادنين، قارن التقارير الإدارية ١٨٨٧/١٨٨٨م، ص ٦، للسلم والنظام في البحر، وتقضي الاتفاقية التي أبرمتها إنجلترا مع القادة المهادنين بفرض غرامة مالية على هؤلاء الشيوخ عند اللزوم، تقررها محكمة من مندوب الحكومة الإنجليزية والشيوخ الستة أو نوابهم ويزكيها عندئذ المقيم الإنجليزي في بوشهر، قارن مثل هذه الاتفاقيات بخصوص تسليم المجرمين الهاربين ودفع ديونهم في التقارير الإدارية ١٨٧٩/١٨٨٠م، ص ٤ و٩ و١٠.

تصرف إنجلترا في الخليج الفارسي

كانت ملكية مسقط ووجود أسطول عندها تعني في السابق التمتع بنفوذ كبير في هذه المنطقة، أما اليوم فقد أصبح السادة الحكام مضطرين إلى خوض معاركهم على اليابسة، ولذلك فقد أخذ موقفهم يضعف تدريجياً، وفي وقت لاحق أعلن الأمراء والشيوخ المتمردون، وكذلك السادة الحكام في البلاد الحرب في وجه المندوبين الإنجليز في مسقط، وكان من المقرر أن تدور هذه المعارك في المدن الساحلية؛ حتى تتاح الفرصة للرعايا الإنجليز في الوصول بأنفسهم ومتاعهم إلى مكان آمن، وفي عديد من المناسبات دارت المعارك في الشوارع، وتم قصف ونهب المدن على مرأى ومسمع من السفن الحربية الإنجليزية الراسية في الميناء.

وهكذا ورثت إنجلترا شيئاً فشيئاً أمراء عمان في الخليج الفارسي، وكانت سفن القوات البحرية الهندية تجوب البحر دون هوادة على الساحل العربي، وبصفة عامة في الخليج الفارسي منذ عشرات السنين للسهر على الالتزام بالأمن في البحر، لكي لا تتعرض الأنشطة التجارية الهندية إلى أي إزعاج، وكان الخليج الفارسي يعج بالبانيان والشوجة في كل مكان، وحيثما ظهرت اضطرابات على الساحل فإن السفن الحربية الهندية كانت دائماً على استعداد للدفاع عن مصالحهم، وكانت الحكومة البريطانية تقتص بصرامة بالغة لما يحل بالتجار الهنود من الخسائر، أو لما يزعمون أنه أصابهم من الأضرار، ومع فقدان النفوذ في منطقة الخليج فقدت مسقط أيضا تجارتها في الهند البريطانية، وقد استولت التجارة الإنجليزية الهندية - التي ظلت تدفعها في السنوات الأخيرة دون كلال عقلية وحزم رجال أعمال جيدين - على السيادة المطلقة في الخليج الفارسي بفضل التصرف الحازم والتخطيط السديد للممثلين الإنجليز، الذين يتمتعون بالنفوذ اللازم في المنطقة.

صراعات في صحار

وعندما أصدرت إنجلترا حكمها كان السيد تركي يحكم منطقة صحار، التي عين والياً عليها من قِبَل والده السيد سعيد بعد وفاة حمود، وكان جزء كبير من القبائل على ساحل القراصنة شمال منطقة عمان الحقيقي ورأس مسندم لا يزال يعترف به في ذلك العهد كحاكم أعلى عليهم، ولم يقبل السيد تركي بالخضوع إلى ثويني إلا على مضض، غير أنه لم يكن يستطيع الجهر بتمرده عليه.

أما السيد عزان بن قيس[1] فقد استنجد بالوهابيين الذين عادوا إلى عمان سنة ١٨٦٥م، ونهبوا خاصة مدينة صور، وحيث إن هذه الاضطرابات تسببت أيضاً في أضرار لحقت عدداً كبيراً من الهنود من جراء عمليات السطو التي قام بها الوهابيون، فإن الحكومة البريطانية أرغمت ثويني على التدخل الحازم ضد هؤلاء، وحطمت بنفسها بعض سفنهم التي يستعملونها في أعمال القرصنة في خليج القطيف، ولكن دون شن هجوم جاد على هذه المدينة ذاتها.

وقع ثويني أثناء الاستعدادات للحرب سنة ١٨٦٦م ضحية اغتيال قام به ابنه سالم نفسه الذي استلم فوراً مقاليد الحكم، فقام ضده تركي الذي كان في ذلك العهد يجهر بالتمرد، واستولى على مطرح سنة ١٨٦٧م، إلا أن إنجلترا تصدت لنجاحه، واعترفت بسلطة سالم الذي اغتال أباه، وإثر ذلك عاش تركي مدة طويلة في الهند من راتب سنوي كان سالم يدفعه إليه، وتسببت وفاة فيصل أمير الوهابيين - ١٨٦٦م- وإعلان ابنه عبد الله أنه سوف يحافظ على السلم، ويحترم الرعايا الإنجليز، ولن يعود إلى مهاجمة عمان، تسبب ذلك في جعل الحكومة البريطانية توقف إجراءاتها ضد الوهابيين، وتكمن أهمية الثورة التي قامت سنة ١٨٦٧م على يد حمود بن السيد سالم الذي تقاسم السيادة على عمان مع سعيد الأكبر، والتي ما لبثت أن أخمدت - في أنها كانت المناسبة الأولى التي قدمت فيها إنجلترا لحاكم عمان أموالاً على حساب المساعدات التي تدفعها زنجبار، أو تقدمت إليه بحساب في شأنها، وقد تكرر ذلك لاحقاً في العديد من المناسبات .

عاد عزان بن قيس سنة ١٨٦٨م من جديد إلى أعمال الشغب، وتمكن من الاستيلاء على مسقط، ففر سالم إلى بندر عباس، وراح يحاول دون جدوى أن يسترجع إمارته المسلوبة، أما الحاكم الجديد عزان بن قيس فقد مارس حكماً متشدداً وأخضع كامل بلاد عمان، وقد قام في وجه الوهابيين الذين سبق أن جلبهم بنفسه إلى البلاد سنة ١٨٦٥م، والذين أصبحوا في هذه الأثناء حلفاء سالم في قضايا مختلفة، وقد اعتمد عزان على فئات الشعب التي ظلت وفية للتعاليم الإباضية في البلاد، وعلى بعض الشيوخ من أهل التقوى والورع، وبناء على ذلك تم انتخابه إماماً، وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي تجري فيها مثل هذه الانتخابات في عمان في هذا القرن.

---

(١) يقول بادجر في المرجع المذكور، المقدمة، ص ١١١ إن ثويني بنفسه قد استنجد بالوهابيين ضد تركي الذي رفع راية الثورة سنة ١٨٦٤م، قارن أيضاً بالجريف في المرجع المذكور، الجزء الثاني، ص ٢٨٤.

ويبدو أنه لم تكن لعزان بن قيس علاقة طيبة مع الحكومة الإنجليزية الهندية(1)، وقد حاولت هذه الأخيرة أن تثنيه عن مساعيه ضد سالم، ولما تخلت عن سالم وقفت جهراً في صف السيد تركي، وفي سنة ١٨٧٠م حاول عبد الله بن فيصل أمير الوهابيين الاستيلاء من جديد على البريمي، ولكنه عدل عن إرسال حملته لمّا تحالف أخوه سعود نفسه مع عزان.

في هذه الفترة بدأ تركي الذي كان يتلقى من أخيه ماجد من زنجبار مساعدات مالية كبيرة، بدأ يوجّه عملياته ضد عزاناً، وقد انتصر في معركة كبيرة عند ضنك على عزان وأخيه إبراهيم، ولكن عزان ما لبث أن استعاد قواه، وتوجه تركي إلى الجنوب الشرقي، وترك سيف بن سليمان شيخ بني ريام في شمال عمان قائداً على قواته في الصراع ضد عزان، وفي سنة ١٨٧١م هاجم سيف بن سلمان مطرح وسقط عزان وسيف في المعركة، ولكن رجال سيف انتصروا واستولوا على مطرح ومسقط، وهكذا أصبح السيد تركي سنة ١٨٧١م أميراً على بلاد عمان، واستطاع إبراهيم شقيق عزان أن يحافظ على استقلاله مدة من الزمن في صحار، وعندها بدأت محاولات السيد سالم المخلوع من بندر عباس ومحاولات عبد العزيز الأخ الأصغر لتركي ترمي إلى الإطاحة بالسيد الحاكم، وكانت إنجلترا ترفض أن يكون السلم في البحر مهدداً؛ ولذلك فإنها ألقت القبض على الأميرين في الخليج الفارسي ونقلتهما إلى الهند حيث توفي سالم سنة ١٨٧٦م(2).

إثر ذلك تصالح السيد تركي الذي كان قد اشتد به الوهن مع أخيه عبد العزيز، ودعاه إلى مسقط لمشاركته في الحكم، وبسبب خلافات أو ربما بسبب ملله من السلطة غادر تركي سنة ١٨٧٥م البلاد، وسافر إلى جوادر على متن سفينة حربية إنجليزية، غير أنه ما لبث أن عاد منها بعد أشهر قليلة، وكان عبد العزيز قد جلب إلى نفسه الكراهية؛ ولذلك فإنه لم يكن من الصعب على تركي أن يرسله إلى المناطق الداخلية في البلاد، وظل تركي في الحكم منذ ذلك العهد، لكنه بقي في صراع مستمر مع السيد عبد العزيز، والسيد إبراهيم بن قيس، والشيخ القوي صالح بن علي قائد قبائل الشرقية من آل هنائي وغيرهم، أما علاقاته مع إنجلترا فقد كانت جيدة، وبمناسبة حصول ملكة إنجلترا على لقب إمبراطورة سنة ١٨٧٦م تلقى دعوة من نائب الملك في الهند لحضور الاحتفالات في دلهي، لكنه لم يلبّ هذه الدعوة شخصياً وإنما أرسل الوزير السيد سعيد بن محمد ممثلاً عنه في تلك المناسبة(3).

(١) قارن روس – الخطوط العريضة لتاريخ عمان من ١٧٢٨ إلى ١٨٨٣م، التقارير الإدارية ١٨٨٢/١٨٨٣م، ص ٢٨ .
(٢) قارن روس – الخطوط العريضة لتاريخ عمان من ١٧٢٨ إلى ١٨٨٣م، التقارير الإدارية ١٨٨٢/١٨٨٣م، ص ٢٩.
(٣) قارن التقارير الإدارية ١٨٧٦/١٨٧٧م، ص ٧٨ .

أحداث ظفار واضطرابات أخرى في عمان

تذكر المصادر الإنجليزية أن جزءاً كبيراً من ساحل حضرموت عاد سنة ١٨٧٩م في عهد السيد تركي إلى نوع من علاقة التبعية، وأن الحكومة الهندية وسّعت نطاق عمل المندوب السياسي في مسقط بناء على ذلك حتى بلغ ما بعد رأس صايير ، فشمل بذلك إقليم ظفار(١)، وبعدما استولى سعيد سنة ١٨٢٩م على ظفار استجابة لنداء فئة من أهلها إثر اغتيال قائد القراصنة محمد عقيل، أهملت مسقط بعد مدة وجيزة قضايا تلك المنطقة إهمالاً تاماً، وبعد ذلك حاول عبد الرحمن شقيق محمد عقيل - وكان في ذلك العهد يمارس التجارة في الهند على غرار عدد من عرب حضرموت - الاستيلاء على حضرموت، فانتشرت الفوضى في البلاد إلى درجة انفصال شيوخ القبائل الصغيرة والقرى الواقعة على الساحل انفصالاً تاماً عن بعضهم، فنشبت بينهم الحروب، ويسيطر الشوجة على النشاطات التجارية في ظفار، وهم عملاء وممثلو دور التجارة في بومباي والمكلاّ، وفي سنة ١٨٧٠م أرسل مدحت باشا بإيعاز من الباب العالي بعثة من بغداد إلى الساحل الجنوبي للبلاد العربية، فوزّعت الهدايا والأعلام التركية في ظفار وغيرها من المناطق، غير أن تركيا لم تستغلّ نتائج هذه البعثة فيما بعد، في هذه الفترة أصبح رجل يدعى السيد فضل المبلا حاكماً على ظفار، وحيث إن قبائل المنطقة كانت تريد أن تتخلص منه فإنها استنجدت بالسيد تركي حاكم مسقط(٢) الذي استولى على المنطقة دون أن يفارق سيف غمده، وعين والياً على ظفار وترك حامية صغيرة في مرباط قبل أن يغادر المنطقة.

في سنة ١٨٨٠عين التاجر ماجواير في مسقط قنصلاً للولايات المتحدة، وأصبح بذلك مندوباً قنصلياً لفرنسا، في هذه الأثناء تواصلت الخلافات والصراعات بين مختلف القبائل في أعماق بلاد عمان، وفي سنة ١٨٨٢م اضطر السيد تركي إلى دفع مبلغ مائتي جنيه شهرياً إلى السيد عبد العزيز، وظل يحاول بانتظام أن يرتب شؤونه مع خصومه الآخرين عن طريق دفع مبالغ مقطوعة أو سنوية إليهم، وفي سنة ١٨٨٣م حدثت اضطرابات متميزة في شدتها في بلاد عمان، غير أن تركي نجح في صد هجوم شنه السيد عبد العزيز والشيخ صالح بن علي على مسقط، وأثناء محاصرة مطرح من قِبَل المتمردين تلقى السلطان خدمات جيدة من سفينة حربية إنجليزية، وفي النهاية استطاع فيصل بن السيد تركي القضاء على الثورة في المناطق الداخلية من البلاد أيضاً.

(١) قارن التقارير الإدارية ١٨٧٩/١٨٨٠م، ص ١٣٤ و٣

(٢) قارن مايلز- زيارة مندوب سياسي، مسقط، إلى رأس فرتك، التقارير الإدارية ١٨٨٤/١٨٨٥م، ص٢٢ و٢٣ .

في السنة التالية تسلم السيد تركي من أخيه السيد برغش سلطان زنجبار هدية ملكية تتمثل في باخرة تسمى السلطانية[1]، وقد استفاد السيد تركي من هذه الباخرة فيما بعد أيّما استفادة، فقد يسّرت له المحافظة على نفوذه في المدن الساحلية على الأقل، وظلت علاقاته مع الحكومة البريطانية الهندية جيدة مثلما كانت عليه دائماً، وقد حصل سنة ١٨٨٦م على وسام الصليب الأكبر لنجم الهند، وفي الوقت نفسه حصل على الوعد بأن إنجلترا سوف تقف إلى جانبه على مدى حياته ضد أي هجوم على مسقط ما لم يكن هو المتسبب فيه، وفي السنة نفسها استطاع تركي أن يقوم برحلة داخل البلاد كانت الأولى منذ سنوات عديدة، إلا أن هذه الزيارة لم تستغرق إلا أسابيع قليلة، إذ كان خصومه في المناطق الداخلية من البلاد أشد منه قوة وبأساً، وفي السنة التالية عادت إنجلترا مرة أخرى إلى مساندة السيد تركي، إذ كان السيد إبراهيم بن قيس قد استولى على سويق، غير أن سفينة حربية بريطانية اضطرته إلى مغادرتها، وتم إثر ذلك إبرام صلح بين تركي وابن عمه، وفي شهر مارس ١٨٨٨م جاء السيد برغش إلى موطن آبائه لعلاج صحته التي كانت قد تدهورت تدهوراً شديداً ولاستعادة عافيته، إلا أنه عاد إلى زنجبار بعد إقامة دامت عدة أسابيع، وهناك قضى نحبه بعد أيام قليلة.

وفاة السيد تركي، وابنه فيصل يخلفه

بعد مدة وجيزة من ذلك، وبالذات يوم ٤ يونية ١٨٨٨م، توفي السيد تركي هو الآخر وخلّف ثلاثة أبناء هم محمد وفيصل وفهد، وكان الثلاثة من أم إفريقية، ولم يكن الابن الأكبر محمد أهلاً لتولي الحكم، ويبدو أنه تنازل عنه عن طواعية فتولى فيصل السيادة، ومن غريب الأمور أن ذلك حدث دون أي استعمال للعنف، أما فهد الأخ الأصغر فإنه تزوج سنة ١٨٩١م ابنة السيد برغش حاكم زنجبار المتوفّى، غير أنه انتحر بسبب شدة الحزن والأسى إثر الطلاق الذي تم بعد ذلك بفترة وجيزة. كان السيد تركي قبل وفاته ببضعة أشهر قد طرد ولاحق وزيره السيد سعيد بن محمد، فلجأ هذا الأخير إلى جزيرة كشم، وكان السيد تركي يعتقد أن وزيره استعمل معه بعض أعمال السحر، وتسبب بذلك في دائه العضال الذي حاول بسببه أن يبحث عن الشفاء في جوادر التي كانت تابعة لنفوذه، وبعد وفاة تركي عاد سعيد إلى مسقط غير أن فيصل الشاب أساء معاملته، ودفعه بذلك إلى مغادرة مسقط بعد فترة وجيزة، فتوجه إلى بندر

---

(١) في مقابل ذلك أرسل تركي الخيل والإبل إلى زنجبار، قارن التقارير الادارية ١٨٨٦/ ١٨٧٨م، ص٢٠.

عباس، ويبدو أن فيصلاً لم يتخذ لنفسه مساعداً أو وزيراً يتمتع بنفوذ في شؤون الدولة والملك، أو يكون له تأثير في قضايا الحكم.

مخططات الوهابيين ضد عمان

وفي سنة ١٨٨٨م انتشرت في عمان إشاعات تزعم أن الوهابيين سوف يشنون حملة واسعة النطاق على عمان بقيادة عبد الله بن فيصل ومحمد بن رشيد الذي علا في بلاد نجد وبلغ قدراً كبيراً من النفوذ بالاشتراك مع قاسم بن محمد آل ثاني حاكم شبه جزيرة قطر، وأن الحملة تهدف إلى فرض الزكاة على بلاد عمان(١)، وكان الشيخ قاسم قد سبق أن بعث عدة رسائل إلى شيخ الشارقة الذي يعتبر وهابياً، وطلب منه أن ينضم مع قبائل الغافري إلى هذه الحملة ضد عمان.

....

(١) كان الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني – جاسم في لغة البدو– المحرك الأول للحملة المزمع شنُّها ضد بلاد عمان ، فمنذ سنة ١٨٧٩م التي توفي فيها والده الذي كان على علاقة جيدة مع الإنجليز ظل الشيخ قاسم – الذي لا يزال إلى اليوم على قيد الحياة – الحاكم الأعلى لمنطقة شبه جزيرة قطر، ومن الملفت للنظر أن التقرير الإداري لسنة ١٨٧٨/١٨٧٩م يلاحظ أن الشيخ قاسم كان قبل سنوات عديدة الشيخ الحقيقي لمنطقة البدع تحت الوصاية التركية، أما اليوم فإن قطر تشكل قضاء مستقلاً تابعاً لمتصرف "سنجق" الحسا التابع للبصرة – قارن فيما سبق الفصل الثامن، ص ٣١٣ ويطلق عليه خطأ في بعض الأحيان سنجق نجد، غير أنه لا علاقة له بمنطقة الواحات التي تسمى نجداً، وتقع في البلاد العربية وتتبع ابن رشيد، والشيخ قاسم هو قائم مقام قطر، وقد تركت له الحكومة التركية على غرار شيخ الكويت استقلالاً تاماً في قضاياه، واكتفت بإقامة حامية في منطقته من مئة رجل تقريباً (يبدو أنه أصبح للحكومة التركية في المدة الأخيرة حامية صغيرة في مدينة الكويت أيضاً). ويعتبر الشيخ قاسم ورجاله إلى اليوم وهابيين، كما يبدو بصفة عامة أن أجزاء كبيرة من الحسا تتميز بميلها إلى المذهب الوهابي، وكانت علاقات الشيخ قاسم مع محمد بن رشيد حاكم نجد القوي على أحسن ما يرام، ويتميز الشيخ قاسم بميوله إلى الحروب، ويعيش في عداوة دائمة مع قبيلة بني ياس البدوية في أبوظبي، وكان في الوقت نفسه يمارس نشاطات تجارية ذات حجم كبير، فيجلب الرز وبضائع أخرى من الهند إلى نجد، ولكن قبل ذلك كله فإنه يتحكم في جزء كبير من صيد اللؤلو، وهو في ذلك أهم منافس لشيخ البحرين الذي يحظى بحماية الإنجليز والهنود المستقرين في جزر البحرين .

يعود ضم منطقة متصرف الحسا إلى ولاية بغداد وتعيين ولاية تركية في هذه المنطقة إلى سنة ١٨٧٠م عندما كان مدحت باشا والياً على بغداد، وفي سنة ١٨٧٦م أرسل والي بغداد رديف باشا ناصر باشا السعدون كبير شيوخ بدو المنتفك – الذي تذكر التقارير الإدارية لسنة ١٨٧٥/١٨٧٦م، ص ٣ أنه والي البصرة – كان متصرف سنجق البصرة – أرسله إلى الأحساء لإعادة النظام إلى هذه المنطقة التي كانت قد اندلعت فيها اضطرابات عامة، وقد تم تحرير الحامية التركية التي حاصرها المتمردون في مدينة الحسا – الهفوف – وتم تعيين الشيخ بازي العرير حاكماً عليها، وبعد بضعة أشهر اندلعت الاضطرابات من جديد، فتوجه ناصر مرة أخرى إلى الحسا ولقن المواطنين درساً لا ينسى بحيث لم يعودوا أبداً إلى التمرد منذ ذلك العهد، وتم تعيين مسجد بن ناصر باشا حاكماً عوضاً عن بازي، وبعد فصل ولاية البصرة عن ولاية بغداد سنة ١٨٨٤م وتعيين ناصر باشا شيخ المنتفك – الذي تحمل بمفرده تكاليف الحملة على الحسا – أول وال عليها ، شكلت منطقة الحسا سنجقاً تابعاً لهذه الولاية – قارن كويناي في المرجع المذكور، الجزء الثالث، ص ٣١٧ وما يليها– ويتركب هذا السنجق من ثلاثة مراكز أقضية هي قضاء نجد أو الحسا وعاصمته الحسا، وقضاء قطيف، وقضاء قطر، وتسبب تصرف الأتراك بهذه الطريقة في فصل الإمارة العربية الواقعة في وسط البلاد على غرار ما حصل واستمر إلى اليوم بالنسبة لإمارة حائل التابعة لابن رشيد، وفي سنة ١٨٧٨م بدأت مداولات بين الحكومة التركية وأمير الوهابيين عبد الله بن فيصل لإعادة العلاقات الطيبة مع هذا الأمير وتعيينه حاكما على الحسا – التقارير الإدارية ١٨٧٧/١٨٧٨م، ص٥ . غير أن هذه المداولات لم تؤد إلى نتيجة، ومنذ ذلك العهد ظلت الحكومة التركية تعين بانتظام موظفين أتراكاً في منصب المتصرف على الحسا، ويبدو فيما عدا ذلك أن التقسيم الإداري التركي لم ينفّذ في الحسا إلا منذ هذه الفترة – التقارير الإدارية ١٨٧٨/١٨٧٩م، ص٦.

دور الشيخ قاسم

تركت الحكومة التركية الشيخ قاسماً وشأنه منذ ذلك العهد، وأصبحت الزوارق المزودة بالمدافع لا تظهر على سواحل قطر إلا بين الحين والآخر، وفي نهاية سنة ١٨٨٢م بدأت العداوة التي لا تزال إلى اليوم قائمة بين الشيخ قاسم والإنجليز، وحدث ذلك لما أرغمه الإنجليز تحت تهديد زوارقهم المزودة بالمدافع على دفع ثمانية آلاف روبية تعويضاً عن عملية سطو حدثت في البدع وذهب ضحيتها تجار هنود. وفي سنة ١٨٨٨م لقي أحد أبناء الشيخ قاسم حتفه على مقربة من البدع أثناء غزوة ناجحة قام بها الشيخ سعيد بن خليفة من أبوظبي، وقد كان هذا هو السبب الحقيقي للتحالف الذي عقده قاسم مع أمير الوهابيين عبد الله بن فيصل وابن رشيد لإعلان الحرب على عمان، الأمر الذي طالب به الحكومة التركية في الوقت نفسه، ولكن هذا الأمر لم يتحقق له نتيجة للأسباب التي سبق ذكرها. وفي سنة ١٨٨٢م نفسها احتج الباب العالي لدى الحكومة الإنجليزية بسبب الإجراءات المتخذة ضد قاسم إثر إساءة هذا الأخير معاملة الرعايا البريطانيين حسب زعمهم، وتم تعزيز الحامية التركية الصغيرة التي استقرت قبل ذلك بقليل في البدع فأصبحت تبلغ مائتين وخمسين رجلاً من المشاة النظاميين، كما استقرت هناك سفينة حربية تركية أيضاً، وفي سنة ١٨٨٩م حصل قاسم على لقب قائم مقام تركي، غير أن العلاقة بين قاسم وحكومة البصرة ما لبثت أن ساءت، وفي سنة ١٨٩٢م تفقّد والي البصرة سفينتين حربيتين تركيتين وكتيبة من المشاة في سنجق الحسا، وأعلن بهذه المناسبة أن جزر البحرين ومنطقة عمان خاضعة للقضاء التركي، غير أن إنجلترا انتهزت فرصة إثارة الباب العالي لبعض المسائل لتعلن أن البحرين تخضع إلى الحماية البريطانية - قارن التقارير الإدارية ١٨٩٢/١٨٩٣م، ص ٨ و٩، وفي السنة التالية أثيرت من جديد قضية حماية إنجلترا للبحرين، غير أن الباب العالي اكتفى إثر ذلك بإعلانه أنه يريد معاملة مواطني البحرين مثل الرعايا الأتراك بمجرد أن يكونوا على الأراضي التابعة للدولة العثمانية، في حين احتفظت بريطانيا بحق حماية مصالح شيخ البحرين كلما اقتضت الظروف - قارن التقارير الإدارية ١٨٩٣/١٨٩٤م، ص ٧- وفي شهر مارس ١٨٩٣م بدأت المواجهة العلنية بين البدو التابعين للشيخ قاسم والقوات التركية، فسقط نحو أربعمائة من رجال قاسم ومائة من الجنود الأتراك، وتراجعت القوات التركية إلى البدع، غير أن الوالي خلع من منصبه، وتولى نقيب البصرة تسوية القضية، وقد سبق أن حاول المقيم العام البريطاني في الخليج الفارسي دون جدوى الاتصال بالشيخ قاسم، قارن

التقارير الإدارية ١٨٩٣/١٨٩٤م، ص ٨، وبقيت في البدع حامية تركية قوية، غير أنه تم اغتيال الموظف التركي الذي تم تعيينه تحت إمرة الشيخ قاسم، أما السبب الأخير للمشاكل بين الحكومة التركية والشيخ قاسم فقد كان يتمثل في الغزوات التي تقوم بها قبائل قراصنة الهجر والموره، التي لم يتخذ الشيخ قاسم إجراءات كافية لردعها، وفي سنة ١٨٩٥م تورط الشيخ قاسم من جديد في مشاكل معقدة، لكن الحكومة التركية وقفت هذه المرة إلى جانبه، وكان شيخ البحرين قد وقع في خلاف مع قبيلة آل بن علي الخاضعة له بسبب أعمال عنف قام بها أخوه، فعزمت القبيلة على الانتقال إلى اليابسة والاستقرار في زبارة على الساحل الشمالي الغربي لشبه جزيرة قطر، وبمساعدة الشيخ قاسم أعاد آل بن علي بناء قلعة هناك، سبق أن كانت محل خلافات بين البحرين والشيخ قاسم، وكان العلم العثماني مرفوعاً في زبارة وحامية صغيرة مستقرةهناك، وبناء على التقرير الإداري لسنة ١٨٩٥/١٨٩٦م، ص٣ وما يليها، اعتبرت الحامية الجديدة في زبارة تهديداً لاستقرار البحرين، ونقلت السفينة الحربية الإنجليزية سفينكس عدداً من الزوارق الحربية التي كانت موجودة هناك. وتذكر التقارير الإدارية أن المتصرف التركي في الحسا هدّد إثر ذلك بالهجوم على البحرين، الأمر الذي جعل سفينتين حربيتين إنجليزيتين تتوجهان إلى زبارة وتقصفان السفن العربية هناك، فتم إغراق أربعين منها والاستيلاء على مائة وعشرين أخرى، ويبدو أن القصف الإنجليزي قد دمر قلعة زبارة بهذه المناسبة شر تدمير، إثر ذلك طالب المقيم البريطاني في بو شهر الشيخ قاسماً بدفع مبلغ ثلاثين ألف روبية، وهدّده بحرق السفن المحجوزة لديه في حالة الرفض، وقد دفع عدد من الملاكين فدية لاستعادة سفنهم، أما الجزء الآخر فقد دمر تدميراً، قارن التقارير الإدارية ١٨٩٥/١٨٩٦م، ص ٤ .

اضطرابات وهابية أخرى

وكان ابن رشيد أيضاً قد بعث للغرض نفسه برسائل إلى قبائل عربية مختلفة(١)، إلا أنه لم يتحقق من ذلك أي شيء، وكانت الأوضاع في وسط البلاد العربية على ما يبدو قد استحوذت على جميع جهود وطاقات ابن رشيد، الذي كان يتهيأ للقضاء النهائي على نفوذ الأمراء الوهابيين من عائلة ابن سعود، وبسط سيادته على جميع قبائل وسط البلاد العربية، ويبدو أن عمان ظلت إلى اليوم في مأمن من غزو جديد قادم من وسط البلاد العربية، غير أننا لا نعلم متى توقفت عمان عن دفع الجزية إلى الأمراء الوهابيين.

(١) قارن التقارير الإدارية عام ١٨٨٨/١٨٨٩م، ص ١١.

في سنة ١٨٨٣م(١) وصلت أخبار تفيد أن خلافات نشبت بين الحامية الوهابية في المدينة الساحلية بركة وبين السكان الأصليين في المنطقة، ومن هنا يتضح أن حاميات وهابية صغيرة كانت مستقرة ليس في مسقط فحسب، وإنما في عدة مدن عمانية أخرى حتى الثمانينيات من هذا القرن، وكانت هذه الحاميات تسهر على إرسال الجزية بشكل منتظم إلى الرياض في جنوب نجد، حيث أقام الأمراء الوهابيون بعدما حطم المصريون الدرعيّة، وفي الوقت نفسه كانت هذه الحاميات محل ترحيب السادة الحاكمين؛ لتساعدهم على إخماد نيران الاضطرابات.

حكومة فيصل

تضمنت السنة الأولى من حكم فيصل قيام حركة ثورة وحيدة على يد إبراهيم بن قيس، وخرج فيصل لخوض معركة ضده غير أنه انهزم هزيمة نكراء في واقعة قرب الرستاق، وأبرم اتفاقية سلم مع إبراهيم، الذي يبدو أنه لم يتسبب في مشاكل أخرى فيما تبقى من فترة حكمه، وفي السنة نفسها - ١٨٨٨م- تذكر المصادر الإنجليزية رسالة من الشيخ صالح بن علي يقترح فيها على فيصل إرسال عمّه السيد عبد العزيز إلى شرق إفريقية لإخراج الألمان من هناك، غير أن فيصلاً رفض الاقتراح، ولكنه أعلن أنه سيدفع لعبد العزيز مساعدة سنوية بشرط أن يظل مقيماً في الهند(٢)، وفي سنة ١٨٨٩م هاجم عبد العزيز مسقط، غير أن الحاميات الموجودة في القلاع التي تدافع عن المعابر الجبلية المحيطة بالمدينة استطاعت بسهولة صد الهجوم، وحاول عبد العزيز بعد ذلك دون جدوى كسب حلفاء في البلاد، ومن بين شيوخ ما يسمى ساحل القراصنة، وعندما أدرك أنه لا طائل من وراء هذه المساعي، غادر عمان نهائياً في أبريل من سنة ١٨٩٠م، حيث كان على مدى الخمس عشرة سنة السابقة السبب الرئيسي في الضربات الموجهة إلى الحكومة، وقد توجه إلى أبوظبي، إلى صديقه الشيخ سعيد بن خليفة، ثم مرّ ببوشهر، حيث التقى مع المقيم الإنجليزي، ومن هناك توجه إلى بومباي، وفي يوم ١٩ مارس ١٨٩١م تم إبرام اتفاقية تجارية جديدة بين إنجلترا ومسقط(٣).

مرت السنوات التالية دون أحداث مميزة في عمان، ولا شك أن الخلافات الصغيرة تواصلت بين بعض القبائل، وكانت تجري على غرار الغزوات لدى البدو العرب الشماليين. وقد اكتفى

(١) قارن التقارير الإدارية عام ١٨٨٣/١٨٨٤م، ص ١٧.
(٢) قارن التقارير الإدارية عام ١٨٨٨/١٨٨٩م، ص ٢٥/٢٦
(٣) تم تبادل الوثائق في مسقط يوم ٢٠ فبراير عام ١٨٩٢م.

السيد فيصل بالحفاظ على نفوذه في مسقط ذاتها، وفي المدن الساحلية المتفرقة بتركيز حاميات عسكرية فيها، وعمل على تجنب التدخل في الخلافات بين القبائل قدر المستطاع، أما مع إبراهيم فقد أبرم كما ذكرنا اتفاقية سلم حافظ عليها السيد إبراهيم أيضاً، وحظي فيصل أيضاً على مدى فترة طويلة من الزمن بولاء صالح الخصم القديم لوالده، الذي كان تصالح مع تركي في السنوات الأخيرة من حكمه، أما عبد العزيز الذي كان يمثل المصدر الأكبر للاضطرابات، والعنصر الأشد تمرداً في عمان فإنه ظل كما ذكرنا في الهند، ونتيجة لخلود فيصل إلى الراحة لم يرغب أحد في إزعاجه أبداً، أما دخله المادي فقد كان كافياً لسد حاجة البلاط الذي كان بعيداً عن التبذير، لكن نفوذه كان كما ذكرنا عديم القيمة في المناطق الداخلية من البلاد، وكان شيوخ هذه المناطق الداخلية وساحل القراصنة يزورونه بين الحين والآخر للحصول على بعض الهدايا.

هكذا كانت الأوضاع سنة ١٨٩٣م، وكانت الحكومة البريطانية في الظاهر على علاقة جيدة مع فيصل، غير أن التقارير الإنجليزية للمندوبين السياسيين تعبر عن عدم الرضى بسبب خلوده إلى الراحة، وفي نهاية سنة ١٨٩٣م تم إعلامه أن عبد العزيز رفض قبول معاش في مقابل الوعد ببقائه في الهند على الدوام(١)، وكلما حدثت اعتداءات على التجار الهنود الذين يتمتعون بالحماية الإنجليزية، واجهت الحكومة الإنجليزية ذلك بحزم شديد، وكان على فيصل أن يلبي جميع طلبات التعويض التي تتقدم بها الحكومة الإنجليزية لفائدة الهنود.

وكان فيصل يقابل الغرباء الأوروبيين الذين يزورون مسقط بترحيب كبير، وفي نهاية سنة ١٨٩٤م تحققت رغبته القديمة التي أعرب عنها في مناسبات عديدة بأن يرى قوة أخرى غير الإنجليزية ممثلة عن طريق قنصلية في مسقط، ففي نوفمبر ١٨٩٤م بدأ قنصل فرنسي دائم إقامته هناك(٢).

ثورة الشيخ صالح بن علي

بعد مدة وجيزة من ذلك تعرض الهدوء الذي ساد في مسقط إلى ذلك الحين إلى حادث مزعج، وقد حدث ذلك بطريقة هدّدت بعواقب وخيمة لفيصل وحكومته لولا وجود سفينة حربية فرنسية مصادفة في الميناء، ففي بداية سنة ١٨٩٥م انتشرت في مسقط إشاعات تفيد أن الشيخ صالح بن علي ينوي الاستيلاء على مسقط وخلع السلطان، وقبل ذلك بمدة وجيزة جاء

(١) قارن التقارير الإدارية عام ١٨٩٣/١٨٩٤م، ص ٢١.

(٢) بعدما غادر السيد ماجواير الذي كان كما سبق أن ذكرنا قنصلاً اختيارياً أمريكياً وفي الوقت نفسه مندوباً قنصلياً فرنسياً مسقط سنة ١٨٨٦م خلفه التاجر ماكيردي في منصب القنصل الاختياري الأمريكي.

عبد الله بن الشيخ صالح مع بعض أعيان آخرين من عرب عمان على متن آفوكا سفينة سلطان زنجبار من هناك إلى مسقط، وجلب كمية كبيرة من الأسلحة من بينها ثلاثة مدافع ميدان، وكان فيصل يرفض التصديق بأن صالحاً ينوي الخيانة، وقد لبّى طلب استقبال الشيخ عبد الله مع عدد من أتباعه يوم ١١ فبراير ١٨٩٥م في مسقط، وأكرم وفادتهم وأجزل لهم العطاء، وفي ليلة الثاني عشر إلى الثالث عشر تسلل عدد آخر من رجال الشيخ إلى المدينة، وفي فجر اليوم الثالث عشر تمّ شن هجوم مفاجئ على قصر السلطان، وأرغم السلطان بعد فترة قصيرة من القتال على مغادرة القصر، فأما السلطان فلجأ إلى قلعة جلالي، وأما أخوه محمد فلجأ إلى قلعة ميراني، واستمرت المعارك على مدى عدة أسابيع بين حاميات القلعتين والرجال الذين ظلوا على ولاء للسلطان في المدينة من جهة وبين الثوار المسلحين تسليحاً جيداً والذين تواصل انضمام قوات أخرى إليهم من خارج المدينة من جهة أخرى، واكتفى المندوب السياسي الإنجليزي بالحفاظ على مصالح الرعايا الذين يتمتعون بالحماية البريطانية، ولم يتعرض هؤلاء منذ البداية إلى أية مضايقة، كما لم يعترض أحد على الهدنة التي طالب بها المندوب لإجلاء هؤلاء الرعايا وممتلكاتهم عن المدينة، وفي اليوم التاسع من شهر مارس عاد السلام أخيراً إلى البلاد.

وبعدما دفع السلطان مبلغا كبيراً من المال غادر الشيخ صالح مع بقية الثوار المدينة، وبذلك انتهت أعمال التمرد، وتم تحديد الخسائر التي لحقت الرعايا البريطانية بمبلغ سبة وسبعين ألف دولار تحمّل السلطان تعويضها، وسمح له الطرف الإنجليزي[1] بسبب ذلك بأن يفرض ضرائب البضاعة على القبائل التي شاركت بصفة متميزة في الثورة، غير أن المداخيل لم تكن تتدفّق إلى خزائنه إلا ببطء وبحجم ضعيف، الأمر الذي حمل السلطان سنة ١٨٩٦م على فرض الضرائب، ليس فقط على قبيلة الهنائي المتمردة وإنما أيضاً على قبيلة الغافري، واغتنم الشيخ صالح هذه الفرصة لتشكيل تحالف جديد ضد السيد فيصل، و قام هذا الشيخ الطاعن في السن الذي بلغ ٧٥ عاماً مرة أخرى إلى الحرب، غير أنه سقط برصاصة في أول معركة عند سيا، وهكذا تخلص فيصل من ألدّ أعدائه، واستتبّ الأمن في البلاد منذ ذلك العهد باستثناء بعض الخلافات الصغيرة التي لا تنتهي أبداً.

---

(١) قارن التقارير الإدارية عام ١٨٩٥/١٨٩٦م، ص ١.

فيصل يخضع للإنجليز

في هذه الأثناء اندلعت ثورة جديدة في ظفار سنة ١٨٩٥م، واتخذت هذه المرة أبعادا كبيرة، ويعود السبب فيها إلى مكايد السيد فضل المبلا، وفشلت محاولة فيصل في إعادة الاستقرار، كما فشلت محاولة المندوب السياسي الإنجليزي الذي رفع العلم التركي في ظفار[1]، وأعلنت إنجلترا إثر ذلك استعدادها لمساعدة حملة السلطان بنيران بارجة حربية بشرط أن يستشير إنجلترا في المستقبل في جميع القضايا التي تتعلق بظفار، و لم يرغب السيد فيصل في البداية في قبول هذا الشرط إلا أنه خضع في بداية سنة ١٨٩٧م، وأبحرت سفينتان حربيتان إنجليزيتان تحمل إحداهما والياً عمانياً جديداً وقوات من مسقط إلى مربط على ساحل ظفار الذي كانت في قلعته من قِبَل حامية عمانية صغيرة، وهكذا أعيد الاستقرار إلى ظفار دون أن يفارق سيف غمده.

منذ ذلك العهد أصبح نفوذ سلطان مسقط على عمان لا يتجاوز أن يكون اسمياً، وكما أثبت تاريخ السنوات الأخيرة فإنه لم يعد آمناً حتى في مسقط ذاتها من غارات قبائل المناطق الداخلية من البلاد، وقد كانت الأسلحة التي جاء التجار الأوروبيون والتجار الإنجليز بالقسط الأكبر منها إلى عمان وساحل القراصنة، قد مكنت هؤلاء منذ أمد بعيد من الاستخفاف بطاقة السيد فيصل الواهنة، وهكذا نزلت مكانة حاكم مسقط الذي كان في النصف الأول من هذا القرن أقوى أمير في الخليج الفارسي وفي مجال واسع خارجه أيضاً، فأصبح الآن أميراً شكلياً امتصت إنجلترا والتجار الهنود نفوذه وسيطرته شيئاً فشيئاً منذ الحكم الصادر عام ١٨٦٢م، الذي فصل زنجبار عن الوطن الأم .

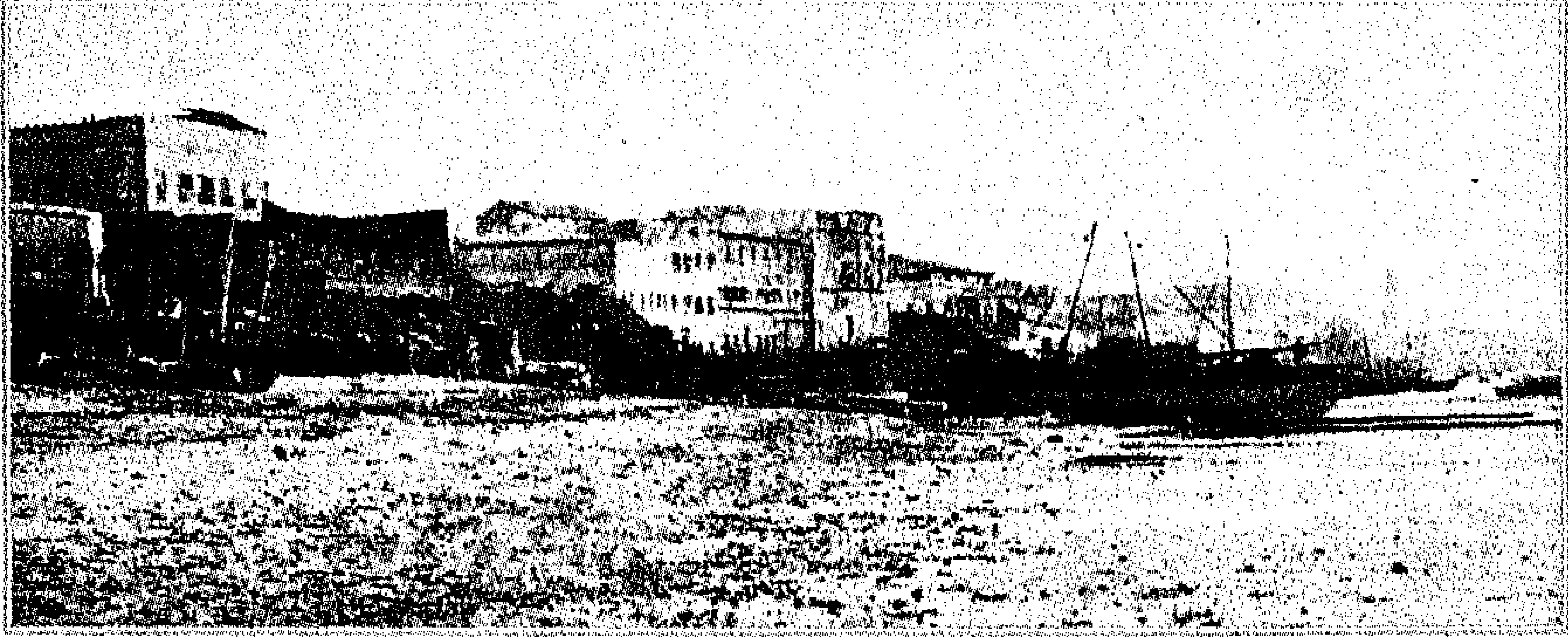
من مسقط إلى جوادر

كانت إقامتي في مسقط قصيرة، وعند طلوع الشمس أبحرت الباخرة بمبا متوجهة إلى جوادر على ساحل مكران في جنوب بلوشستان، وهي المستعمرة الوحيدة التي مازالت تحت نفوذ عمان، وليست جوادر إلا قرية صيد سمك تعيسة لا أهمية لها البتة، و لم يكن لدينا ما يكفي من الوقت للنزول إلى اليابسة، فتواصلت الرحلة في اتجاه الشرق إلى كراتشي، حيث ودعت الباخرة وضباطها الطيبين والعدد العديد من تجار الخيول والصراصير لأطأ الأراضي

(١) قارن التقارير الإدارية عام ١٨٩٥/١٨٩٦م، ص ٢.

الهندية، وقد استضافني وأكرم وفادتي في كراتشي القنصل الألماني السيد توله، وكذلك السيد بوسمان، وهو مواطن ألماني يشغل منصباً مرموقا كمدير لتلغراف الخليج الفارسي، ويشغل في الوقت نفسه منصب المندوب السياسي في جنوب بلوشستان، وكانت رحلتي من البحر المتوسط إلى الخليج الفارسي قد أدركت نهايتها.

إثر ذلك زرت المناطق الإسلامية في شمال الهند، وفي دلهي تحدثت باللغة العربية مع هندي يدرس في مسجد المنطقة، ولم يسبق له قط أن فارق موطنه الأم، وقد تحادثنا حول مدرسته وكثير من القضايا المختلفة الأخرى، وبصفة عامة وجدت في الهند في كثير من الأحيان فرصة استعمال اللغة العربية للتفاهم، واللغة العربية - لغة القرآن - هي اللغة الوحيدة التي يذكر فيها المسلمون في مختلف أنحاء العالم ربهم، وفي كل مكان ينتشر فيه الإسلام تجد بين المثقفين الحقيقيين في البلاد من أصبح قادراً على استعمال اللغة العربية كوسيلة للتواصل عن طريق الحج إلى مكة، أو عن طريق دراسة القرآن، تقريباً على غرار استعمال الدبلوماسيين اللغة الفرنسية في مختلف بلدان العالم، أو استعمال رجال الدين الكاثوليك اللغة اللاتينية[1].



زنجبار سنة ١٨٩٣م

(١) قارن الجزء الأول من هذا الكتاب، ص ١٤ الهامش ١ .

في زنجبار وشرق إفريقيا الألماني

أبحرت من بومباي عبر عدن إلى زنجبار، حيث سلمت للسيد الحاكم هناك رسالة تحيّة كتابية من ابن عمه في مسقط، وتوجهت من زنجبار إلى الأراضي الألمانية في مستعمرتنا الجميلة في شرق إفريقية، وقد تفضل الحاكم في ذلك العهد البارون فون شيله، وهيأ لي بكثير من اللطف فرصة القيام برحلة إلى المناطق الداخلية في البلاد، وقد استطعت التأكد من أن الغابات العذراء الرائعة في أوسامبا تفوق كل ما رأيته إلى اليوم حسناً وجمالاً، وأن خصوبة الأراضي في تلك المنطقة وكثافة النباتات تستطيع أن تنافس الهند وبلاد ما بين النهرين، وفي بداية سنة ١٨٩٤م عدت إلى ألمانيا، حيث أتيحت لي الفرصة السعيدة في كسب بعض الأصدقاء والمعارف لإنشاء مؤسسة تحمل اسم شركة الراين لمزارع هانداي، وقد أنجزت هذه المؤسسة زراعة عدة مئات الآلاف من نباتات القهوة العربية في مرتفعات هانداي الكثيرة الغابات في أوسامبا.

من النباتات الصيفية
في سوريا وبلاد ما بين النهرين

فهرس النباتات التي جمعتها خلال رحلتي سنة ١٨٩٣م مع ذكر الاسم العربي ووجه الاستفادة منها وفقاً لما حدده الأستاذ الدكتور أشرسون.

[المترجم : لقد اعتمدت النظام التالي في ذكر المعلومات :
* اسم النبات باللغة اللاتينية
* اسم النبات كما ورد عند بوسيي في كتابه " زهور الشرق "
* الموضع الذي ورد فيه اسم النبات في كتاب بواسيي "رقم الجزء ورقم الصفحة".]

Papaveraceae
Papaver rhoeas
I / 113

شقيق

قرب سويداء في حوران ، ٣ يوليو ، يستعمل للتلوين بالأحمر

Cruciferae
Lepidium draba
I / 356

قنيبرة

عند سالي في حوران ، ٨ يوليو، يبدو أن موطنه الأصلي في الشرق، والمنطقة الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، انتشر في منطقة واسعة من أوروبا الوسطى ولا يزال ينتشر .

Latifolium
I / 359

يسمى حرفرف في حوران فحسب .

قسط

عند بُصرى " اسكي شام "، ٥ يوليو ، عند سالي ٨ يوليو موطنه الأصلي في منطقة البحر الأبيض المتوسط وغرب آسيا حتى التيبت، استوطن في بعض مناطق أوروبا الوسطى بسبب زراعته في عصور قديمة " نبات الفلفل " .

Capparidaceae
Capparis spinosa
I / 420

قبّار

عند بُصرى " اسكي شام "، ٤ يوليو، ينبت فوق الهضاب والمرتفعات وعلى ضفاف الأنهار، يوجد بكمية أكبر في بلاد ما بين النهرين كلها، وهذا النوع منتشر ومعروف على نطاق واسع في منطقة البحر الأبيض المتوسط، وبراعمه هي حبوب الكبّار المعروفة، وتنتشر أنواعه في شرق البحر الأبيض المتوسط من اليونان حتى بلاد فارس .

Tamariscaceae
Tamarix Pallasii
I / 773

طرفا

عند سوأر، ٥ أغسطس، يوجد عند المياه في بلاد ما بين النهرين جميعها، وفي شرق البحر الأبيض المتوسط، وجنوب روسيا، وسط وشمال آسيا .

Hypericaceae
Hypericum crispum
I / 806

عرن

عند تل حميدة، ٧ أغسطس، وفي جميع سهول بلاد ما بين النهرين، تُغلَى الجذور وتستعمل للتلوين بالأحمر، يوجد في شرق مناطق البحر الأبيض المتوسط بداية من صقلية وتونس، وهنا وهناك في غرب أوروبا الجنوبية، تُعَدُّ في تونس مضرّة بالحيوانات آكلة الأعشاب .

Malvaceae
Alcea rufescens
I / 828
ختمية

في الصفا، ١٤ يوليو، وفي سهول حوران أيضاً، وبلاد ما بين النهرين، يُغلَى ويشرب عصيره ضد أمراض الحنجرة والعيون، ظل إلى اليوم معروفاً في سوريا والصحراء السورية فحسب.

Hibiscus trionum
I / 840
عبرة

عند سوأر، ٥ أغسطس، طول ضفاف النهر في بلاد ما بين النهرين كلها، نصيبين، ١١ أغسطس، توجد في الشرق وفي أوروبا الجنوبية – حتى أسفل النمسا ومنطقة ميرن – وتتناثر هنا وهناك في أوروبا الوسطى .

Zygophyllaceae
Tribulus terrester
I/ 902
بطم وعرمط

عند نصيبين، ١٠ أغسطس، وكذلك في جميع السهول مع وجود المياه أو انعدامه، في منطقة البحر الأبيض المتوسط وجنوب شرق أوروبا – حتى المجر – والشرق وجنوب إفريقيا، ووصل إلى أمريكا، وهو نبات شوكي كثير الأذى يؤذي خاصة الحفاة من أهل البلاد، ومما يوضح سهولة نقل هذا النبات حادثة وقعت في عائلتي قبل عشرات السنين، فقد وجدنا جزءاً من الثمرة في قطعة من الحلوى، ولا ريب في أن هذا الثمر كان عالقاً ببعض حبوب الزبيب فلم يتفطن لوجوده أحد، ويطلق اسم " بطم " في العادة على شجر القسطل.

Peganum harmala
I / 917
حرمل

عند بُصرى "اسكي شام"، ٥ يوليو، ينتشر عند حقول الآثار في حوران كلها، وبلاد ما بين النهرين، وفي نصيبين بين حقول الآثار، وفي أفنية الكنائس وأكوام الصخور، ١٠ أغسطس،

ويوجد في مناطق البحر الأبيض المتوسط وغرب آسيا، وهو نبات طبي اشتهر بفوائده الجمة منذ عهد الرسول ﷺ، وقد تم جلبه إلى المجر في العهد التركي؛ فنجده إلى اليوم على مرتفعات بلوكسبيرج في بودابست .

Terebinthaceae
Pistacia mutica
II / 7
بلوط

في الصفا، ١٤ يوليو، وهو نبات منخفض لا يكاد يبلغ ارتفاع نصف متر، من البلقان إلى أفغانستان، وجنوباً حتى سوريا.

رغم أن النماذج التي عثرنا عليها ليست في منتهى الكمال؛ فإن تحديد هذه الفصيلة لا يشوبه أي شك بسبب أكياس المادة السائلة التي أثبت وجودها فيها مساعدي الدكتور جرينر، ويرجح أن ينتمي هذا النبات إلى النوع المذكور أعلاه الذي عثر عليه بوست في الصحراء السورية، ويطلق الاسم العربي المذكور أعلاه في العادة على البلوط العادي، أما أنواع البلوط البري فيطلق عليها اسم بطم .

Leguminosae - Papilionaceae
Glycyrrhiza glabra
II / 202
سوس

سوأر، ٥ أغسطس، في جميع سهول بلاد ما بين النهرين على ضفاف الأنهار وبعيداً عنها، تستعمل الجذور كسكّر، ويشكل عصيره عندما يمزج بالماء شراباً ممتازاً، موطنه في شرق أوروبا وغرب آسيا، وحتماً في شمال إفريقيا أيضاً، ويزرع هنا وهناك في أوروبا الوسطى .

Alhagi manniferum
Maurorum
II / 558
شوك الجمل أو عقول

عند سوأر على الخابور – بلاد ما بين النهرين – نجده في كل مكان طول ضفاف الأنهار في بلاد ما بين النهرين، وفي جنوب غرب آسيا، وشمال شرق أفريقيا، وهو معروف تماماً في مصر

أيضاً تحت اسم عقول، ويستعمل كعلف جيد للإبل، و لم ألاحظ هناك أبداً السائل السكري الذي يفرزه هذا النبات و"منّاً" .

Leguminosae - Mimosaceae
Prosopis Stephaniana
II / 633
عرج

عند أم رحيل وهي بئر تبعد مسافة ساعتين جنوب جبل سيس، ١٥ يوليو، واسمه العربي هو سوس ، عند سوأر على ضفاف الخابور – بلاد ما بين النهرين – ٥ أغسطس، نجده هناك في كل مكان في السهول وعلى ضفاف الأنهار، وجنوب شرق آسيا ومصر، يمكن أكل لحمة الثمرة على غرار ثمر الخروب، رغم أنها أقلّ منها لذة، ولا يشترك هذا النبات مع السوس في شيء، وقد أورد فيتزشتاين اسمين عربيين آخرين لهذا النبات: إنبوت وخارنبا .

Lythraceae
Lythrum Salicaria
II / 738
فرندل

عند تل حميدة، مسافة خمس ساعات جنوب نصيبين، على طول ضفاف الأنهار، ٨ أغسطس، يستعمل ضد آلام البطن وأوجاع المعدة، ويوجد في بلاد ما بين النهرين.

جوفران

عند اسكي موصل على ضفاف النهر، ١٨ أغسطس، ويوجد في أوروبا وسيبيريا، ومناطق البحر الأبيض المتوسط ومناطق السباسب، وفي جنوب شرق هولندا الجديدة وأمريكا الشمالية ويرجح أنه نُقِل إلى هناك مصادفة .

Onagraceae
Epilobium hirsutum
II / 746
فرفور

عند راس السويدية – بين نصيبين واسكي موصل – ١٧ أغسطس، ينمو على ضفاف

الأنهار، وينتشر في بلاد ما بين النهرين كلها، ويوجد في جميع أنحاء أوروبا تقريباً وآسيا وإفريقيا باستثناء المناطق الاستوائية، وفي الحبشة وفي أمريكا وجد مصادفة .

Epilobium Tournefortii Michalet
II / 748
حميرا

عند سالي في حوران، ويوجد في مناطق البحر الأبيض المتوسط .

Cucurbitaceae
Cucumis melo
II / 759
خيار

عند نصيبين، ١١ أغسطس، وينتشر في كامل بلاد ما بين النهرين أيضاً ، يؤكل طازجاً وعلى شكل سلطة، ويبدو أن هذا النبات ينتمي إلى إحدى فروع الفصيلة التي تستعمل ثمارها الشبيهة بالخيار في الشرق أكثر من استعمالها في أوروبا، وقد يكون النوع الأول هو الذي ورد ذكره في الإنجيل، والذي ترجمه مارتين لوثر خطأ، قارن أشرسون وماجنوس في مجلة علم الأجناس، الجزء التاسع، ص ٣٠٣، ١٨٧٧م.

Ecbalium elaterium
II / 760
خيار الحمار

عند نصيبين، ١٠ أغسطس، ينبت على أكوام التراب والآثار، وهو نوع من الخيار، يوجد في مناطق البحر الأبيض المتوسط، و لم يذكره بواسيي في بلاد ما بين النهرين .

Umbelliferae
II / 892
ديرم

عند تل حميدة، ٩ أغسطس، على ضفاف الجغجغ، ويستعمل في التلوين بالأحمر، في مناطق البحر الأبيض المتوسط وشرقاً إلى بلاد فارس، هاجر إلى جنوب أمريكا ومن هناك وصل مؤخراً إلى ألمانيا، استعماله في التلوين لا يزال إلى اليوم غير معروف، في مقابل ذلك يعرف عنه

أنه يستعمل منذ قرون للتخليل بين الأسنان، وقد عرف عنه حديثاً أنه يستعمل لأغراض طبية أيضاً في مصر السفلى " الشمالية "، ويطلق عليه اسم "خلّه"، وقد صنع الصيدلي المصري إبراهيم باي مصطفى من هذا النبات مستحضر الجلوكوسيد القلوي، قارن بخصوص هذا النبات أسماءه وأوجه استعماله عند أشرسون في تقرير جمعية علم النباتات، الجزء العاشر، ص ١٠٤ وما يليها، ١٨٩٢م.

Rubiaceae
Galium verum
III / 62
قيطوم

عند سالي في حوران، ٩ أغسطس، ويوجد في أوروبا وشمال وغرب آسيا وشمال إفريقيا، ويطلق الاسم العربي في مصر على أنواع أخرى من النباتات .

Compositae
Eupatorium cannabinum
III / 155
خد البنت

عند رأس السويدية بين نصيبين والموصل، ١٧ أغسطس، تطحن بذوره ويصنع منها عجين تضعه الفتيات على وجوههن في فصل الصيف للوقاية من لفح الشمس، يوجد هذا النبات في أوروبا، وغرب آسيا وشمال إفريقيا، وتوجد أنواع منه خاصة في مناطق البحر الأبيض المتوسط.

Pulicaria dysenterica
III / 202
مباركة

عند نصيبين ، ١١ أغسطس ، وهو علف جيد للحيوانات، ينمو على ضفاف الأنهار في بلاد ما بين النهرين، ويوجد هذا النوع في وسط وجنوب أوروبا، وغرب آسيا وشمال إفريقيا، وتوجد أنواع منه في مناطق البحر الأبيض المتوسط .

Achillea fragrantissima
III / 345
علك الغزال

في الصفا، ١٤ أغسطس، نبات صحراوي يشتهر في مصر وشمال غرب البلاد العربية، وسوريا وبلاد ما بين النهرين بسبب رائحته الطيبة .

Pyrethrum balsamita
III / 345
غرديب

عند سالي في حوران، ٩ أغسطس ، يوجد في المناطق الجبلية من آسيا الدنيا من البحر الأسود إلى جنوب بلاد فارس، أما النوع المذكور عند بواسيي، ص ٣٤٦، فهو المعروف في حدائقنا منذ عهد كارل الأكبر، ويسمى عندنا "زهرة الصباح ".

Cichorium divaricatum
III / 716
علت

عند بُصرى الحرير في حوران، ٣٠ يونيه.

خنشار

عند سوأر، ٥ أغسطس، يستعمل علفاً للإبل في بلاد ما بين النهرين وحوران .

جوفل

عند تل الحسكة، على ضفاف الأنهار، في الحدائق وحولها، ٨ أغسطس، ويوجد في مناطق البحر الأبيض المتوسط، وهو على الأرجح النبات الأصلي للهندباء "نوع شبيه بالخس تصنع منه السلطة أيضاً".

Lactuca saligna
III / 810
مرير

عند سالي في حوران، ٨ أغسطس .

زفرة

في الصفا، ١٤ يوليو، يوجد في وسط آسيا ومناطق البحر الأبيض المتوسط، وباتجاه الشمال حتى إنجلترا وأواسط ألمانيا، وأواسط روسيا .

Asclepiadaceae
Vincetoxicum canescens
IV / 52
قصيفة

عند قنوات في حوران بين الصخور، يوجد في كريتا وآسيا الصغرى وسوريا حتى أفغانستان، والنوع الموجود بين أيدينا ليس كثيفَ الغطاء على غرار النوع الذي يذكره بواسيي من اليونان .

Ghomphocarpus fruticosus
IV / 61
قطن

عند بُصرى " اسكي شام " في حوران، ٥ يوليو، يوضع في آنية ويستعمل كنبات للزينة، يوجد في جزر الكناري، ومناطق البحر الأبيض المتوسط، في كثير من الأحيان ينبت برّياً، ولا يطلق الاسم العربي على النوع الذي تحمل فيه البذور شعيرات القطن وحدَه .

Convolvulaceae
Convolvulus pilosellifolius
IV / 103
لفلافة

عند تل حميدة بين دير ونصيبين، ٨ أغسطس، غرب آسيا، والواحة الكبرى في الصحراء الليبية.

Convolvulus arvensis
IV / 108
مديدة

عند سويداء في حوران، ٣ يوليو، منتشر في مناطق واسعة من الكرة الأرضية.

Borraginaceae
Heliotropium supinum
V / 127!
بربير

عند جبل سيس.

زريقا

عند أم رحيا، وهي بئر على مسافة ساعتين جنوب جبل سيس، ١٥ يوليو، مناطق البحر الأبيض المتوسط والمجر وآسيا الدنيا، والنيل ومنطقة السنغال .

Heliotropium europaeum
V / 130!
نعومة

عند نصيبين، ١١ أغسطس، في مناطق البحر الأبيض المتوسط – اتجاه الشمال حتى إقليم الراين في ألمانيا وجنوب روسيا – وفي آسيا الدنيا .

Heliotropium suaveolens
V / 133!
فندل

عند تل رميلان بين نصيبين واسكي موصل، ١٦ أغسطس، ينبت في السهول بين الأشواك، ينتشر من مقدونيا إلى شمال بلاد فارس.

Anchusa strigosa
IV / 155
فرج الله

عند تل رميلان بين نصيبين واسكي موصل، ٦ أغسطس، ينبت فوق الهضاب بين الأعشاب بلاد ما بين النهرين .

جرجير

عند رأس السويدية – بين نصيبين والموصل – ينتشر من سوريا إلى جنوب بلاد فارس .

Echium Italicum
IV / 205
هوى جوّى " هواء الداخل "

عند بُصرى " اسكي شام " ٤ يوليو، يستعمل الجذر في التلوبن بالأحمر، يوجد في مناطق البحر الأبيض المتوسط – شمالاً حتى فرنسا والمجر وأواسط روسيا – وغرب آسيا.

olanaceae
Solanum tuberosum
غربيل

عند سالي في حوران، ٩ يوليو، هذا الاسم العربي الصرف لنبات البطاطا يجلب الانتباه بشكل متميز .

Solanum villosum
IV / 285
عنب الذيب " الذئب "

عند نصيبين والدير، ١١ أغسطس، على ضفاف الأنهار، والحدائق السقوية في بلاد ما بين النهرين بين نباتات البامية بالذات، تؤكل الثمار، وتستعمل للتلوين بالأسود والأحمر .

عنب الدب

١٠ أغسطس، أوروبا الوسطى والجنوبية وغرب آسيا وشمال إفريقيا.

Hyoscyamus aureus
IV / 296
بنج

عند الصفا، ١٤ يوليو ، ينمو على الجدران بين الأحجار في اسكي شام وصلخد، وكذلك في مواقع الآثار، المنطقة الشرقية للبحر الأبيض المتوسط وآسيا الدنيا، يبدو أن المشروب

المعروف عندنا باسم " بانتش " مشتق من الاسم العربي لهذا النبات الذي عرف منذ عهد الحروب الصليبية " فيتزشتاين " .

Nicotiana Catissima
تتن " تبغ السجائر "

عند نصيبين، ١١ أغسطس، وعند جميع المدن والقرى الواقعة على ضفاف الأنهار في بلاد ما بين النهرين .

Scrophulariaceae
Verbascum Antari Post Plantae Postianae
II / 16 ?
ذيل الذيب " الذئب "

عند قنوات في حوران، ٢ يوليو، يوجد في الصحراء السورية .

Verbascum spec.
عرنين

في رأس السويدية، ١٧ أغسطس، تستعمل بذوره ضد أمراض الرأس والجلد، ينمو على الهضاب والمرتفعات.

Verbascum Sinuatum
IV / 322
عناف

على هضاب اسكي موصل ، ١٨ أغسطس وعلى جميع هضاب بلاد ما بين النهرين، تُغلَى البذور وتستعمل لتخفيف نوبات الانفعال الشديد.

داعوق

عند رأس السويدية وتل رميلان، ١٧ أغسطس، تستعمل البذور للوقاية من الاستفراغ "القيء". يوجد في جزر الكناري، ومنطقة البحر الأبيض المتوسط، وآسيا الدنيا وواحات الصحراء الليبية .

نعيمة " الناعمة الصغيرة "

عند أم رحيل ، وهي بئر تبعد مسافة ساعتين جنوب جبل سيس، ١٥ يوليو، يبدو أنه نوع جديد من نبات هيتيروفللا المذكور عند بواسيي، الجزء الرابع، ص ٣٥٩، ويختلف عن نبات جلاندوليفيرا المذكور عند بوست، الجزء الثاني، ص ٢٩، في ساقه التي لا تحمل أغصاناً، والتي لا تحمل شعيرات في جزئها الأدنى، وفي جزئها الأعلى لا تحمل إلا بعض الغدد القليلة التي تكاد تكون منتصبة، أما النموذج الوحيد المتوفر من الثمار فهو غير مكتمل؛ ولذلك لا يمكن تقديم وصف شامل عنه.

Veronica Michauxii
IV / 439
ربما هو نوع من :
Oppenheimii Aschers
ظرباب

عند حاوي زمار على دجلة بين قَرَه شوك وجبل بطم، ينمو على جزر صغيرة في النهر، ١٦ أغسطس. لوحظ وجود هذا النوع في شمال بلاد فارس وأفغانستان، يختلف النبات الموجود لدينا عن النوع المذكور في بنيته الضخمة، وساقه المنتصبة السميكة التي تبلغ ٣٠ سنتيمتراً من الارتفاع، ويختلف خاصة بالغياب التام للشعيرات التي تميز هذا النوع في العادة، وإن الزهور والثمار تتطابق تماماً مع النوع النموذجي المعروف، فإنه يبدو لي حالياً فيما يتعلق بتغير اللباس عند الأنواع المماثلة سكوتيللاتا وأناجاليس ومشتقاتها، ولا يجوز فصل هذا النوع بالذات عن نوع ميشاوكسي الذي ينتمي إلى الفصيلة نفسها.

Verbenaceae
Verbena officinalis
IV / 534
الجيل

عند نصيبين على الجغجغ في بلاد ما بين النهرين، ١٠ أغسطس. ينتشر في منطقة واسعة من الكرة الأرضية، رغم أنه جاء إلى العديد من المناطق مصادفة، ويطلق الاسم العربي في العادة على نوع مختلف من النباتات " سينودون داكتيلون " .

Verbena supina
IV / 534
حلت

عند نصيبين في حدائق سقوية وعلى ضفاف الأنهار "في بلاد ما بين النهرين"، ٣٠ أغسطس.

فرقة

عند عين زالة بين اسكي موصل والموصل، ١٨ أغسطس، يستعمل في السلطة .

حبيقة

عند الموصل، ٢١ أغسطس، وفي جميع سهول بلاد ما بين النهرين، يستعمل في التلوين بالأصفر، يوجد في جزر الكناري، ومناطق البحر الأبيض المتوسط حتى المجر، ومناطق النيل وآسيا الدنيا .

Vitex agnus castus
V / 535!
سيسبان

في الصفا، ١٤ يوليو، ينتشر على ضفاف الأنهار في كامل مناطق حَوران وبلاد ما بين النهرين في مناطق البحر الأبيض المتوسط وآسيا الدنيا حتى بلاد فارس، كان يعتبر نباتاً مقدساً في العصور القديمة "يونو"، وقد ظهرت الأسماء " أجنوس كاستوس " باللاتينية و " كوشلام " بالألمانية بسبب سوء فهم هذا الاسم الإغريقي القديم، وبناء على ذلك أضيفت إلى النبات صفات معينة. يطلق اسم " غار " في سوريا بصفة عامة على هذا النبات " فيتزشتاين "، ويطلق اسم "سيسبان" على نباتات أخرى في العادة، وهو في مصر "نبات سيسبانيا إيجيبتياكا".

Labiatae
Mentha silvestris
IV / 543
نعنع الما " الماء "

عند نصيبين، ١١ أغسطس، على ضفاف الأنهار في بلاد ما بين النهرين، يستعمل ضد الصداع.

نعنع

نصيبين، ١٦ أغسطس، تؤكل أوراقه " لعلاج آلام البطن "، ينتشر في أغلب مناطق أوروبا، وفي مناطق البحر الأبيض المتوسط، وجزر الكناري والكاب والحبشة وشمال الهند، والأنواع الموجودة في بلادنا تتشابه مع هذا النوع البري .

Molucella laevis
IV / 768
ذبيبينة

عند بُصرى الحرير، ١ يوليو، يوجد في السهول بعيداً عن المياه في حَوران، وينتشر في آسيا الصغرى، وسوريا وبلاد ما بين النهرين.

Ballote undulata
IV / 773
حرفراف

في الصفا، ١٤ يوليو.

ريحان الغزال

في الصفا، ١٤ يوليو .

ريحان الأرنب

في حوران، ٦ يوليو، يوجد في السهول بعيداً عن المياه، وينتشر في سوريا وشبه جزيرة سيناء، ويعني اسم "ريحان" في العادة نبات أوسيموم بازيليكوم، ولذلك يسمى في إسبانيا " arrayan ".

Phlomis Nissolii
IV / 781
مغربية

عند صلخد في حوران، ٦ يوليو، ينمو في السهول بعيداً عن المياه، ويوجد هذا النبات في بلاد ما بين النهرين أيضاً في ظروف مشابهة.

غبيرا

في آسيا الصغرى وسوريا ، يعني اسم الغبيرا " المغبرّة الصغيرة " في العادة نباتات مختلفة أخرى رمادية اللون غالباً ما تحمل غطاء كثيفاً من الشعيرات، قارن أشرسون وشفاينفورت في زهور مصر ص ٢١٠ .

Teucrium scordioides
IV / 813
منذار

عند نصيبين، ١٠ أغسطس، طول ضفاف الأنهار في بلاد ما بين النهرين، يستعمل رحيقه لإيقاف نزيف الدم. ينمو في مناطق البحر الأبيض المتوسط، وشرقاً حتى مصب دجلة والفرات، وربما لا يكون إلا نوعاً جنوبياً من نبات هافللانده المنتشر في أوروبا الوسطى، والمعروف لدى الأوساط الشعبية كنبات طبي يسمى " شوريان " .

Teucrium leucocladum
IV / 820
جعدة " مفرد تجاعيد "

في الصفا، ١٤ يوليو .

طرف

في الصفا، ١٤ يوليو. هذا النبات ليس معروفاً في العادة إلا في الصحراء المصرية العربية وصحراء سيناء، والنماذج المتوافرة لدينا بعيدة جداً عن الاكتمال؛ لذلك لا يمكن تحديد فصيلتها بيقين، ويستعمل الاسم العربي الأول الذي أوردناه للدلالة على نباتات من هذه الفصيلة.

Amarantaceae
Amarantus retroflexus
IV / 989
دلاق

عند شدادة، ١٦ أغسطس، وينمو على ضفاف الأنهار في بلاد ما بين النهرين، وينتشر في

مناطق واسعة من الكرة الأرضية، غير أنه لم يجلب إلى أوروبا إلا في القرن الماضي، ربما من أمريكا.

Salsolaceae
Chenopodium murale
IV / 902
جوزار

في الصفا، ١٤ يوليو، يتنشر في نطاق واسع من الكرة الأرضية .

Atriplex Palaestenium
IV / 914
رغلة

في الصفا، ١٤ يوليو، تمت مشاهدته إلى اليوم في المناطق الممتدة من العريش إلى فلسطين، إلا أن تحديد الفصيلة غير ممكن بسبب عدم اكتمال التكوين.

Haloxylon articulatum
IV / 949
جلباب ، نورمان ، كلبان

جميعها في الصفا، ١٤ يوليو، يوجد في إسبانيا، وشمال إفريقيا، وسوريا والبلاد العربية .

Salsola inermis
IV / 955
فضفاض

في الصفا، ١٣ يوليو، يوجد في مصر السفلى وسوريا.

Anabasis articulata
IV / 970
شعران

في الصفا، ١٣ يوليو.

اشنان

عند أبو الحياية – بين دمشق وقريتين – ٢٢ يوليو، ينمو في جميع السهول بين دمشق وتدمر، يستعمل في صنع الصابون، وينمو في شمال إفريقيا، والبلاد العربية وسوريا.

Polygonaceae
Polygonum lapathifolium
IV / 1030
غدار

عند نصيبين، ١١ أغسطس، ينمو على ضفاف الأنهار في بلاد ما بين النهرين كلها.

Prostratum Wimm (danubiale Kern) .
جنذال

عند نصيبين، ١١ أغسطس، في الحدائق السقوية، والأراضي المستنقعية عبر بلاد ما بين النهرين جميعها، وينتشر هذا النوع في نصف الكرة الأرضية الشرقي كله، و لم يعثر على هذا النوع منه إلى اليوم إلا في أوروبا الوسطى .

Polygonum Bellardi
IV / 1034
نجيم " النجم الصغير "

عند سالي في حوران، يوجد في مناطق البحر الأبيض المتوسط، وفي واحات الصحراء الليبية وجنوب شرق أوروبا، وشمال وغرب آسيا .

equisetiforme Silbth.
IV / 1036
عضرط

في الصفا، ١٤ يوليو، ينمو في مناطق البحر الأبيض المتوسط، وغرب آسيا، وواحات الصحراء الليبية.

Euphorbiaceae
Euphorbia lanata
IV / 1092
ام العوافي

عند سوأر، ٥ أغسطس، ينمو في السهول طول ضفاف الأنهار، ويستعمل كمادة مسهلة لخروج الفضلات، ببذوره وأوراقه وكامل نباته – في بلاد ما بين النهرين – ومن سوريا إلى بلاد فارس.

Euphorbia Gaillardotii
IV / 1097
بقلة صفرا

يوجد عند نصيبين، ٩ أغسطس، وفي جميع السهول بين نصيبين والموصل، يستعمل رحيقه سماً، وينمو في سوريا وبلاد ما بين النهرين، يمثل اللون الأصفر الذي يشير إليه الاسم العربي والذي يوجد في الساق عند نضج الثمار، يمثل صفة مميزة فعلاً لهذا النبات .

Euphorbia Aleppica
IV / 1109
بقلة خضرا

عند خريبة على مسافة ثلاث ساعات جنوب شرق نصيبين، ١٢ أغسطس، رحيقه سامّ، ويوجد النبات في مناطق البحر الأبيض المتوسط، بداية من إيطاليا باتجاه الشرق، وفي غرب آسيا وبلاد فارس.

Euphorbia Granulata
IV / 1087
علش الغزال

في الصفا، ١٤ يوليو، ويوجد في منطقة الصحراء الكبرى، والرأس الأخضر، وصحارى غرب آسيا حتى الهند، و لم يكن معروفاً في سوريا إلى اليوم .

Grozophora verbascifolia
IV / 1141
سركار أصفر

عند نصيبين، ١١ أغسطس، على هضاب الآثار في اسكي موصل، وعبر بلاد ما بين النهرين كلها.

سركار

عند سوأر، ٥ أغسطس، يوجد في إسبانيا وشمال إفريقيا، والمناطق الشرقية من البحر الأبيض المتوسط، وغرب آسيا حتى أفغانستان.

Cyperus longus
V / 375
سعد

عند سالي في حَوران، ٩ يوليو، ينمو قرب المياه في حوران وبلاد ما بين النهرين، ونجده في مناطق البحر الأبيض المتوسط، وشمالاً حتى إنجلترا وجنوب ألمانيا، وجنوب روسيا، وشرقاً حتى أفغانستان.

Gramoneae
Panicum crus galli
V / 435
حشيش

عند نصيبين، ١١ أغسطس، نجده في كل مكان بالقرب من المياه في بلاد ما بين النهرين كلها، يستعمل علفاً للخيل والحيوانات الأليفة. ينتشر في معظم مناطق الكرة الأرضية، ويعني الاسم العربي بصفة عامة جميع أنواع العشب؛ إلا أنه من المعروف أنه يعني المادة المخدرة أيضاً المصنوعة من نبات القنّب.

Agrostis verticillata
V / 513
سنبل

عند سالي في حوران، ٨ يوليو ، ينمو على ضفاف الأنهار، أو بالقرب من المياه في حوران كلها وبلاد ما بين النهرين، ويستعمل علفاً للخيل والحيوانات الأليفة الأخرى، ونجده في مناطق البحر الأبيض المتوسط، وغرب آسيا حتى بلوشستان، وجزر شمال الأطلسي وأمريكا الشمالية، ويطلق الاسم العربي فيما عدا ذلك على نباتات أخرى تتميز برائحتها الطيبة .

ملاحظات تتعلق بالخرائط

لقد أخذت الخريطة المرفقة للجزء الأول من هذا الكتاب عن الدليل الجغرافي الذي وضعه كيبرت - الصفحة ٣٢ من طبعة ١٨٩٥م - وكان علي أن أحتفظ في هذه الخريطة بالأسماء الواردة فيها على حالها مهما اختلفت عن الأسماء الموجودة عندي، وقد صمم الدكتور ريشارد كيبرت خريطة منطقة لبنان المستقلة الواردة على الصفحة ٣٢ من الجزء الأول معتمداً على خريطة لم تنشر بعد، وضعها عبد الله طعمه، ووضع الخريطتين الكبيرتين الأخريين "سوريا وبلاد ما بين النهرين، الجانب الغربي والجانب الشرقي" والخرائط الصغيرة الأخرى أيضاً، أما رسم الطريق التي سلكتها فقد تم اعتماداً على مخطط وضعه السيد مويزل تحت إشرافي، والذي سبق أن اعتمد عليه هاسنشتاين في إعداد خريطة لطريقي في تقارير بيترمان سنة ١٨٩٦م .

ولقد كنت دائماً أجد عيباً في أنه لم يتسنّ إلى اليوم وضع خرائط شاملة لسوريا وبلاد ما بين النهرين تتناسب مع المستوى الذي بلغته البحوث والدراسات، وأنه ينبغي على المرء أن يجد لنفسه مخرجاً بمحاولة استعمال الخرائط المتخصصة التي يصعب الوصول إليها في كثير من الأحيان، ومما يزيد الطين بلّة أن هذه الخرائط الخاصة تحتوي في كثير من الأحيان على معلومات متضاربة لا يكاد يتسنّى التوفيق فيما بينها؛ ولذلك فإن العلم والعلماء سوف يذكرون بكل شكر وتقدير الدكتور كيبرت على إعداده خريطة شاملة لهذين البلدين استخدم فيها المعلومات والنتائج الجغرافية التي وردت في المؤلفات والكتب التي تهتم بسوريا وبلاد ما بين النهرين، وكذلك كثيراً من الخرائط المخطوطة الأخرى، ولقد سبق أن جمع والد الدكتور ريشارد كيبرت الأستاذ هاينريش كيبرت الذي توفي مؤخراً، وهو العالم الذي لا يُشقُّ له غبارٌ في مجال إعداد الخرائط، جمع منذ سنوات عديدة عدداً من الخرائط المخطوطة، ومواد جغرافية غزيرة أخرى - يبدو استعمالها هنا لأول مرة - ولقد سجلت في خرائط سوريا وبلاد ما بين النهرين على الطرق المرسومة أسماء الرحالة الذين سلكوها، أما الطرق المرسومة بخطوط متقطّعة فهي لا تمثل إلا نتيجة للمعلومات التي تم الحصول عليها من أهالي البلاد، أما تكملة خط مشروع سكك حديد الأناضول فهي مسجَّلة على الخريطة الشرقية اعتماداً على مشروع قديم كان ينوي تمديد الخط من أنجورا إلى بغداد .

ولقد اخترت خط ديار بكر ليكون الحدود الشمالية للخريطة، أما منطقة بابل شرق الحدود المرسومة للخريطة فقد سبق أن سجلها هاينريش كيبرت في خريطته لحقول آثار بابل.

والعيب الآخَر الذي أجده في الخرائط الموجودة إلى اليوم هو أن طريقة كتابة الأسماء تختلف عن بعضها بعضاً إلى درجة أن الأسماء المسندة إلى مواضع بعينها قد توحي في كثير من الأحيان بأنها تتعلق بمواضع مختلفة عن بعضها تماماً، والسبب في هذا هو اختلاف جنسيات الأشخاص الذين سجلوا هذه الأسماء، أو قلّة معرفتهم باللغة العربية، ولقد تفضل الدكتور موريتز والدكتور هارتمان مشكورين بمطابقة طريقة كتابة الأسماء الكثيرة الموجودة على الخرائط المتوفرة لدينا مع طريقة الكتابة الواردة في كتابي هذا .

شروح وتوضيحات لخريطة
" سوريا وبلاد ما بين النهرين "
التي وضعها الدكتور ريشارد كيبرت

خريطة الجانب الغربي

تتمثل المنطقة الشمالية من خريطتنا بين خط العرض ٣٧ درجة وخط العرض ٣٨ درجة في معظمها في حجم مصغر من خريطة كيبرت المسماة "خريطة الجزء الشمالي من سوريا "مقياس ١/٠٠٠ ٣٠٠ – الواردة في كتاب هومن وبوخشتاين "رحلات في آسيا الصغرى وشمال سوريا" طبعة برلين ١٨٩٠م إلا أنه كان لا بد من تغيير جزء كبير من هذه الخريطة، وهو الجزء الذي يمثل بقية المناطق المحيطة بالسنجرلي، وذلك اعتماداً على خريطة "طرق في الشمال الغربي لسوريا " التي رسمها روبرت كولداواي سنة ١٨٩٠ /١٨٩١م، مقياس ١/٢٠٠٠٠٠، والواردة في كتاب "حفريات في سنجرلي" برلين ١٨٩٣م الذي يعتمد على صور كولداواي بكامل حجمها ويضيف إليها بقية الطرق الأخرى، وفي مقابل ذلك لم نأخذ إلا بعض أسماء المواضع عن خريطة توضيحية لرحلة في وادي أعالي الفرات من سمسات إلى صدغ، التي نسخها فنسنت يورك عن رسم وضعه ف. دبليو. جرين، مقياس ١/٠٠٠ ٥٠٠ (المجلة الجغرافية، اكتوبر ١٨٩٦م).

أما فيما يتعلق بالمسافة بين مرعش وعينتاب فقد توافرت لديّ ثلاثة رسوم هي رسم فون مولتكه الوارد في خريطة كيبرت لآسيا الصغرى سنة ١٨٤٤م، ورسم هاوسكنيشت (رسم طرق الشرق للأستاذ هاوسكنيشت، بقلم هاينريش كيبرت، برلين ١٨٨٢م، الصفحة الأولى، ورسم يدوي وضعه لوجان (قارن بشروح وتوضيحات كيبرت المتعلقة بخريطة الجزء الشمالي لسوريا، في هومن وبوخشتاين، الصفحة ١١)، وقد تم اعتماد معلومات على أكثر هذه الرسوم وهي رسم هاوسكنيشت، بعد تكملتها بمعلومات مأخوذة عن لوجان، وتشهد الطرق التي رسمها هاوسكنيشت والتي لم يسلكها غيره بعده على اجتهاد نادر؛ ذلك أننا نجد عند التحقيق في الاتجاهات التي يتحدث عنها والأسماء التي يذكرها عن طريق مقارنتها بغيرها من المراجع، توكيداً وإثباتاً واسع النطاق لصحتها، وإذا لم تكن التفاصيل المتعلقة بقياس الأراضي –التفاصيل الطوبوغرافية– دائماً دقيقة كل الدقة؛ فإن ذلك لا يعتبر أمراً غريباً إذا ورد عند رحالة متخصص في علم النبات يركز اهتمامه قبل كل شيء على بحوث في هذا الميدان، غير

أن الإنجليز انتقصوا قيمة خريطته انتقاصاً كبيراً، في حين أنني استنتجت عكس ذلك تماماً بعد إجراء مقارنات دقيقة بجميع ما وجدته من مراجع لا أعتقد أنها كانت في متناول غيري بهذا الحجم وبهذا العدد.

هناك بعض التناقضات فيما يتعلق بالأنهار وتحديد المواضع عند النيزيب المعروف منذ عهد مولتكه – قرابة عشرين كيلومتراً غرب موضع عبور الفرات عند بيرجيك – فأما عند هاوسكنيشت في المرجع المذكور أعلاه، و راي "خريطة شمال سوريا" باريس ١٨٨٥م، وبلانكنهورن "مبادئ علم جيولوجيا شمال سوريا"، ص ٨٩ والخريطة، وكذلك في الصور التي أخذها مهندسو بريسل* سنة ١٨٧٢/١٨٧٣م لخط سكك الحديد، فنجد أن نهر كرزين الذي يجري بالقرب من نيزيب هو النهر الرئيس، في حين نجد أنه لا يتعدى أن يكون رافداً فرعياً قصيراً ينبع بالقرب من نيزيب في الجانب الشمالي، بناء على ما ورد عند فون مولتكه "مخطط الموضع عند بيرادشيك ومعركة نيصيب" في مجموعة خرائط آسيا الصغرى، قارن بالخريطة الواردة عند فاجنر ومولتكه ومولباخ، وهكذا يرسمه كيبرت في خريطة رحلات هومن وبوخشتاين، وقد اتبعت منهجه في ذلك، إضافة إلى ذلك نجد إجماعاً على أن موضع ميزار وأورول يقع جنوب غربي نيزيب، أوغرول عند هاوسكنيشت، وفينتر وشيرنيك، وستيريت هي طريق غير مفصلة إلا قليلاً و لم يتم نشرها بعد، رسمها كيبرت سنة ١٨٨٤م تربط بين عينتاب وجيرابيس [1] وبيرجيك وديار بكر، في حين نجد هذا الموضع عند مولتكه في الغرب أو في الغرب والشمال الغربي من نيزيب، ونجد مثل هذا التضارب في الآراء أيضاً في

* إضافة إلى خرائط شيرنيك التي نشرها بيترمان، تملك جمعية برلين للجغرافيا مجموعة من الرسوم الأصلية لآثار مسالك تختلف عن الطرق الحالية وتمتد شرقاً حتى ماردين وتنسب إلى الرحالة نفسه وتحمل العنوان: شوت "خط سكك حديد الأناضول – سوريا" ١٨٧٢/١٨٧٣م – ولقد تعرضت أعمال شيرنيك إلى نقد لاذع حتى من قِبَل الذين دققوا وحققوا على عين المكان، قارن بكيبرت في البحوث التي نشرتها جمعية برلين للجغرافيا سنة ١٨٨٣م ص ٦٥، وكذلك دينر في بحوثه حول قياس ارتفاع سوريا الوسطى عن سطح البحر، التي نشرت في مجلة الجمعية الملكية القيصرية، فيينا سنة ١٨٨٦م، نشرة منفصلة ص ١٥، وعند بلانكنهورن في "مبادئ الجيولوجيا والجغرافيا الفيزيائية لشمال سوريا" ص ١٠٠ – غير أنه يبدو لي أن هذه المعلومات قد اختلط فيها الخطأ بالصواب واجتمع فيها الغثّ والسمين، إلا أنه يصعب على المرء التمييز في ذلك بين الحق والباطل عن طريق المقارنة بطرق أخرى، وفيما يتعلق برسوم شيرنيك لسوريا –عند بيترمان الجزء ٤٤ اللوحة ٢ والجزء ٤٥ اللوحة ١ – التي أملك منها نسخاً من الأصول أعدّ بعضها هاينريش كيبرت – فإنني أستطيع القول بكل تأكيد: إنها تكاد تكون عديمة القيمة، وفي المقابل يبدو لي بعد المقارنة بمواد أخرى من أبحاث زاخاو، وبيترمان، وبلانكنهورن، وتشيسني، وهاوسكنيشت، وموريتز، وسوسين أن نتائج بحوث شوت تتميز بدقة أكبر؛ فقد ترك هذا المهندس – الذي توفي منذ أمد والمعروف برحلاته إلى غرب إفريقية واليابان، الأمر في ذلك العهد إلى جمعية برلين للجغرافيا، وليس معروفاً ما إذا كان هو نفسه قد أعدّ هذه الخرائط، وبالذات المسلك المزدوج من حلب إلى بيراجيك، وكذلك خط أنطاكية – حلب، أي الطرق ذاتها غير الموجودة على الخريطة التي نشرها شيرنيك، والتي استعملناها في رسم خريطتنا.

(١) [المترجم: لعلها جرابلس وهي بلدة على الفرات عند نقطة عبوره الأراضي التركية إلى سوريا]

جنوب شرقي عينتاب، وفيما يتعلق بهذا الموضوع الأخير، أراني أتفق مع كيبرت وأميل إلى ترجيح كفة المصادر الأكثر عدداً والأحدث عهداً، غير أنني أود أن أشير إلى مدى حاجتنا إلى توجّه رحالة المستقبل إلى الفصل في هذا الموضوع عن طريق معاينة دقيقة للمنطقة الواقعة بين عينتاب ونيزيب؛ ذلك أنه من الغريب بلا ريب أن يخطئ مولتكه في مثل هذه الأمور الأساسية عند رسم خريطته الشاملة للمنطقة المحيطة بنيزيب، مع أنه كان يملك متّسعاً من الوقت للقيام بذلك.

استطعنا تكملة خريطتنا في المنطقة الواقعة شرق الفرات مقارنة بخريطة هومن، وبوخشتاين، وذلك بإدراج مجموعة من الإضافات، وكان ذلك في البداية عن طريق رحلة غير منشورة قام بها القنصل العام في بيروت الدكتور شرودر سنة ١٨٩٠م، شملت إسكندرون، وسنجرلي، وعينتاب، وخلفاتي وأورفه، وسروج والخريطة غنية في هذا المكان بمواضع كثيرة أخرى، وبومبج[(١)] ، والباب وحلب – رسم أصلي على يد هاينريش كيبرت – ثم بعد ذلك عن طريق إضافات إلى طريق زاخاو من أورفه إلى الرقة طوال البليخ – قارن خريطة كيبرت في كتاب زاخاو "رحلة في سوريا وبلاد ما بين النهرين" برلين ١٨٨٣م – المأخوذة عن الرسم الأصلي الذي لم ينشر، والذي وضعه كيبرت لرحلة الدكتور موريتز سنة ١٨٨٥م، وقد تم نشر جزء من مخطط هذه الطرق الهامة التي تضم جزءاً لم يسبق لأحد أن سلكه من قبل، والتي تمتد من دمشق في الجنوب حتى سمسات في الشمال، وحتى حرّان والرقة في الشرق، تم نشرها في خريطة سوريا الوسطى التي صمّمها موريتز بطريقة جيدة بناء على الطرق التي سلكها بنفسه سنة ١٨٨٤/١٨٨٥م وسنة ١٨٨٦/١٨٨٧م، مقياس ١/٧٥٠٠٠٠ في وصفه للطوبوغرافيا القديمة لتدمر في نشرة أكاديمية العلوم، برلين ١٨٨٩م، وتعتمد هذه الخريطة على التصميم الشخصي الذي وضعه هذا الرحالة حتى فيما يتعلق بالطرق التي أنشئت لاحقاً عند أواسط الفرات والخابور .

أما الطرق التي تمتد شمال حمص فقد رسمها هاينريش كيبرت بمساعدة الرحالة على إحدى عشرة لوحة، ونشرها جزئياً فيما سماه "خريطة الجزء الشمالي من سوريا سنة ١٨٩٠م" وذيّلها بتوقيعه الشخصي .

---

(١) [المترجم: لعلها مدينة منبج المعروفة بأدبائها وشعرائها، وهي تابعة لمدينة حلب]

وقد أضاف أينزوورث جزءاً من الطريق أيضاً من إينجرلو – شرق أورفه– عبر أراضي ميزار و ويرانشهر، على خريطته التي هي للأسف من الحجم الصغير جداً والواردة في "رحلات وبحوث في آسيا الصغرى" لندن ١٨٤٢م الجزء الأول، وأما طريق باكينجهام الذي مرّ سنة ١٨١٦م تقريباً في ذلك المكان نفسه "رحلات في بلاد ما بين النهرين ١" ص ٢٣٣ وما يليها "وبحيرته أوسلم ددّي" ص ٢٩٢ – فإنه لا يمكن تحديد مواقعها اعتماداً على الخريطة والنص، وأخيراً نجد بين حرّان ورأس العين طريقاً رسمها رجل غير معروف نقلاً عن خريطة آسيا الصغرى التي تم جمعها ورسمها في مكتب المخابرات، القسم الحربي سنة ١٨٨٣ – ١٨٩٠م مقياس ١/٠٠٠ ٣٣٠ تقريباً، غير معروضة للبيع، ونجد شمال غربي رأس العين ملتقى طرق لهاوسكنيشت.

وقد رسم مجرى نهر الفرات من بيراجيك اعتماداً على رسوم تشيسني التي ينبغي مقارنتها بتوضيحاتنا هذه مع الوجه الشرقي بداية، ومن منعرج النهر عند باليس حتى أطراف المنطقة أضيفت إلى ضفتي النهر طرق زاخاو التي رسمها سنة ١٨٧٩م –نقلاً عن التصميم الأصلي الذي وضعه كيبرت، والذي يحتوي على معلومات أكثر من الخريطة المنشورة– كما أضيفت طرق موريتز ١٨٨٥م. ويسجل موريتز بين قلعة جعبر وباليس مجرى لنهر الفرات يختلف نسبياً عن المجرى الذي رسمه تشيسني، ولكنني لم آخذ هذا الرسم بعين الاعتبار لأنه يتعلق بجزء صغير من خط مجرى النهر نحو ٣٥ كيلومتراً.

لقد وضعنا قلعة حلب على خريطتنا كما وردت في قاموس تشيسني، اللوحة ١، الذي اتبعه كيبرت وهارتمان وغيرهما، وذلك عند خط عرض ٣٦ درجة و١١ دقيقة ونصفاً [نيبور المجلد الثالث ص ٦ : ٣٦ درجة و١١ دقيقة و٣٢ ثانية، تشيسني: ٣٦ درجة و١١ دقيقة و٣٨ ثانية ، و٣٧ درجة و٩ دقائق شرق غرينيتش، فإذا أراد السيد بلانكنهورن "مبادئ جيولوجيا شمال سوريا، برلين ١٨٩١م" ص ٨٧ مع خريطة شمال سوريا، مقياس ١/٠٠٠ ٥٠٠ ، التي تستحق استطلاعات السيد بلانكنهورن الخاصة الواردة فيها تقديرنا وعرفاننا أكثر من مواد الخرائط الضحلة المستعملة فيها]، إذا أراد تعديل خط العرض الذي حدّده رجل يتمتع بقوة ملاحظة متميزة مثل نيبور – وذلك بناء على " دراسة دقيقة قدر الإمكان للطريق بين اللاذقية وبيرادجيك "، بمقدار نصف دقيقة – فإنه يخطئ خطأً كبيراً في تقييم درجة الدقة التي يمكن بلوغها في رسم هذه الطرق، ولا تسمح حتى أجود وأدقّ الرسوم التي يتزايد عددها باطراد

والتي يعدّها ضباط وموظفون من المستعمرات الألمانية، وتتضمن بعض الرسوم التي تفوق كثيراً خرائط بلانكنهورن دقة وتفصيلاً لا تسمح أبداً بتحديد خط عرض موضع ما بدقة تبلغ هامش خطأ قدره نصف دقيقة.

تم رسم استطلاعات خط سكك الحديد بين حلب وبيراجيك في البداية التي قام بها السيد بريسل "مواد شوت".بمساريها الاثنين، مسار شمالي عبر نيزيب وجغديغين يكتبها المهندس الذي رافق بريسل: ياخدن!، ومسار جنوبي عبر زنبور، وتكاد طرق زاخاو وبيترمان تتطابق مع المسار الأخير، وتتطابق طريق بلانكنهورن مع المسار الشمالي غير أنها تمر شرق خط سكك الحديد في المنطقة بين شوبان بك وحلب، ويتطابق خط سكك الحديد الجنوبي هذا أيضاً من بيراجيك إلى حاجي والي – جنوب موضع عبور الساجور وغير بعيد عنه – تماماً مع الطريق التي أرسل عليها تشيسني باخرتَيه من البحر المتوسط إلى الفرات، و لم يسلك أحد هذه الطريق بعد ذلك العهد في اتجاه الغرب حتى أسفل عفرين، غير أنه يبدو لي أن جميع خرائط تشيسني لا تمثل مصدراً وثيقاً يعتمد عليه، الخريطة ١: نهر الفرات مع سيليسيان طوروس وشمال سوريا، ذلك أن أحدث الاستطلاعات وأكملها لا تتطابق معها إلا بصعوبة كبيرة، أو لا تتطابق معها بتاتاً، ثم إني لا أفهم كيف يستطيع جول أوبرت في كتاب " بعثة علمية إلى بلاد ما بين النهرين " الجزء ١ ، ص ٣٥ : أن يصف خريطة تشيسني بأنها "ممتازة".

بعد ذلك تم ربط طرق زاخاو المتعددة بين قويق والفرات بالخط الرئيس بيراجيك – حلب وفقاً للرسوم الأصلية التي أعدها كيبرت، ثم أضيفت بعض الطرق الصغيرة والكبيرة الأخرى التي توجد غالباً في المخطوطة: "استكشافات عسكرية لطريق كبيرة بين حلب وطهران" أعدّها ترويليي، وهو مقدّم في سلاح الهندسة الإمبراطوري سنة ١٨٠٨م، أرشيف وزارة الشؤون الخارجية في باريس، نسخها هاينريش كيبرت، "من ميزار إلى ساجور"، ستيريت – انظر ما سبق – ١٨٨٤م، من ميزار إلى جيرابيس، أي آثار أويروبوس وعلى الأرجح أيضاً آثار الموضع المذكور في الإنجيل تحت اسم كاركميش. الدكتور فينتر، ١٨٨٨م، "طريق عينتاب – ميزار – جيرابيس " قارن فيما يتعلق بذلك بكيبرت في هومان وبوخشتاين. "رحلات في آسيا الصغرى وشمال سوريا " ص ٤١٠، بعد ذلك في اتجاه الجنوب نجد طريقاً قديمة ولكنها ظلت مهملة إلى اليوم، وهي الطريق التي سلكها ألكساندر دراموند سنة ١٧٤٧م من بومبوج [لعلها مدينة منبج] إلى جيرابيس [لعلها جرابلس] (انظر الخريطة الطوبوغرافية من حلب إلى الفرات في كتابه

"رحلات عبر مدن مختلفة في ألمانيا وإيطاليا واليونان وعدة مناطق في آسيا" لندن ١٧٥٤م، التي تحتوي على غرار الخريطة الأخرى المسماة " خريطة جزء من سوريا" على بعض الطرق التي لم يعُد أحد إلى وصفها أو رسمها من جديد، رغم أن رسمها قديم كل القِدَم)، وقد سلكها لاحقاً أينزوورث أيضاً، ثم نجد أيضاً طريق شرودر – انظر ما سبق – "عبور الفرات عند جبل الحمام – بومبوج – أريمة – حلب " التي تتطابق معها في معظمها طريق إي جي راي حلب – تاتيف [لعلها تادف بلدة معروفة] بومبوج ، قارن بخريطته المسماة " خريطة شمال سوريا "، باريس ١٨٨٥م، ١/٥٠٠٠٠٠ إضافة إلى ملاحظات تتعلق بخريطة سوريا التي تحتوي على بعض الطرق التي لا يمكن الوصول إليها فيما عدا ذلك، وهي على وجه التحديد الطرق التي سلكها الكاتب نفسه وطرق فون دي طورسي وأمين باشا "البارون شفارتسمبيرج"، وهي طرق لا يتسنى فصلها إلا بصعوبة ودون يقين تام عن بقية الطرق المتداخلة بشكل فوضوي(١). والطريق الجديدة الأخرى هي طريق الدكتور مويريتز التي تربط بين قلعة باليس وحلب – انظر ما سبق – وخلافاً لذلك سبق نشر خريطة هاوسكنيشت، "حلب – بومبوج – قلعة النجم – بيراجيك".

لقد حافظت بطبيعة الحال على موقعي النقطتين الرئيستين: عينتاب وكِلِّس مثلما حددهما كيبرت في خريطته التي رسم فيها الجزء الشمالي من سوريا بتأليف مجموعة كبيرة من الطرق، وإذا كان بلانكنهورن قد وضع عينتاب في مكان غربي ذلك بثلاث دقائق ونصف، وكِلِّس بخمس دقائق دون اعتماد على شيء آخر غير طريقه الشخصية، فإنني لا أستطيع أن أتبعه في ذلك أو أوافقه عليه . وقد تم رسم المسافة من جغديغين إلى عينتاب –على خط سكك الحديد– وفقاً لخريطة الجزء الشمالي من سوريا التي تعتمد هنا على هاوسكنيشت وهارتمان وستيريت، في حين أهملها فون مولتكه وتشيسني وشيرنيك، ومما يجلب الانتباه أن فون مولتكه وتشيسني يضعان قريتي بيبيغان ونوروانة اللتين زاراهما على مسافة بعيدة شمال ساجور، ولكن هاوسكنيشت وشيرنيك وهارتمان وستيريت يتفقون على وضعهما جنوب ذلك، أما بلانكنهورن فلا يمكن الاعتماد عليه أبداً في هذا الصدد؛ لأنه سلك طريقاً تمتد شمال الطرق التي سلكها الآخرون.

(١) يوجد العمل الذي قدمه جرمان وذكره راي في آخر موضع من عنوان خريطته في أرشيف وزارة الخارجية في باريس، غير أنه قيل لي: "إنه عمل عديم الأهمية".

وعلى مسافة أخرى في اتجاه الجنوب تم استعمال خط طريق ألكسندريت – حلب[1] كأساس مخطط الطريق الإمبراطورية من ألكسندريت إلى حلب، مقياس ١ / ١٠٠٠٠٠، الذي أملك منه نسخة، وقد نشره هارتمان مصغراً أربع مرات في مجلة جمعية الجغرافيا في برلين، المجلد ٢٩ اللوحة ٣، الخريطة الفرعية، ثم تم ربط الطرق الأخرى بذلك، مثل طريق موريتز بين عينتاب والمنعرج الشمالي للطريق المعبدة.

وطريق هارتمان من عينتاب إلى كِلِّس – تم نشرها في خريطة كيبرت للجزء الشمالي من سوريا– كِلِّس – عزاز – أخترين – كِلِّس، وكِلِّس – حلب، وقد كان الطريقان الأخيرتان وفقاً لخريطته التي ذكرناها الآن، والتي اجتهد في إعدادها بخصوص لواء حلب في المرجع المذكور، ولا شك أنه سوف يكون وجهاً إيجابياً في استعمالها لو تسنى التمييز عن طريق كتابة مختلفة بين جميع المعلومات المتعلقة بما شاهده الكاتب بنفسه، والمعلومات التي يذكرها اعتماداً على قائمة الأسماء وعلى بحوثه وتحقيقاته هو، أما المعلومات الطوبوغرافية التي يمكن استخلاصها من مثل هذه المادة فلا يجوز إدراجها إلا في الخرائط التي اشتملت على جميع رسوم الطرق المتوافرة؛ ذلك أن هذه الطرق تبقى أفضل من مجرد جمع المعلومات البسيطة حتى لو كانت هذه المعلومات تتمتع بدقة كبيرة، فإذا اهتممنا بالمعلومات البسيطة على حساب تلك الطرق، فإن ذلك يعني أننا نتنازل عن الموثوق به مقابل الحصول على غير الموثوق به، ولذلك كان ينبغي قبل هذا رسم طرق تشيسني وبلانكنهورن وبالذات كولداواي، وبهذه الطريقة كان يمكن إدخال تصحيح كبير على تحديد مجاري الأنهار وطبيعة أديم الأرض ومواضع الأماكن عند رسم وادي قره سو وجبل القصير، والمسافة بين جسر الحديد والحمّام –على طريق ألكسندريت – حلب – وغيرها، وبناء على ذلك فقد عملت بقدر ما يمكن استنتاجه من النص على إدراج ما رآه

(١) لقد سبق أن سلك تشيسني وآينزوورث سنة ١٨٣٦م طريق هاوسكنيشت من عينتاب إلى كِلِّس، ربما مع بعض الاختلاف البسيط، ولكن دون إعداد رسوم كافية عنها، وكذلك فعل تشيسني وحده مع طريق هاوسكنيشت من عينتاب إلى حلب، وعلى الصفحة الأولى من خريطة هاوسكنيشت شمالي كِلِّس طريقان لا تحملان اسم من رسمهما من الرحالة، تؤدي إحداهما إلى تشاكال والأخرى إلى كايرديم، ولقد أهملتهما بسبب عدم ثبوت مصدرهما، وقد يكون مصدرهما خريطة سوريا التي رسمها الضابط الإنجليزي روكفورت سكوت " ثلاث لوحات من مقياس ١ / ٥٠٠٠٠٠، نشرت في الأربعينيات، والطرق التي سلكها روكفورت سكوت نفسه التي رسمها روبه وويلبراهام وسايموندس " والتي يبدو أنها اختفت تماماً من مكاتب وزارة الحربية الإنجليزية باستثناء نسخة واحدة لا يمكن الحصول عليها هي الأخرى، وقد تم إعداد نسخ قليلة منها نقلاً عن راي، و لم أتوفق رغم كثير من المراسلة في الحصول عليها في برلين أو فيينا أو جوطا أو باريس أو لندن أو بيروت، ومن هذه الخريطة أيضاً أخذ راي طريقاً غرب الطريق التي سلكها من حماة إلى حلب " تقارير جغرافية ص ٨ "، غير أنه لا يمكن مع الأسف تحديد هذه الطريق بسبب عدم توافر المعلومات الدقيقة اللازمة المتعلقة بها .

هارتمان في خريطتي، ولكنني أسقطت كل ما كان نتيجة لبحوثه أو استخرجه من قوائم الأسماء، إن لم يكن معززاً بمطابقة طرق رسمها آخرون إليه؛ وذلك لاعتقادي أنني أستطيع تقديم الدليل على أنه وقع في بعض الأخطاء في بعض المواضع .

تم رسم الطرق المختلفة لهاوسكنيشت بين عينتاب وحلب ١، وبلانكنهورن بين كِلِّس والطريق المعبّدة، أما طريق أينزوورث التي لا تحتوي إلا على أسماء قليلة بين إسكندرون وحلب وبيراجيك، في كتابه: "رحلات في آسيا الصغرى"، وفي مجلة الجمعية الجغرافية الملكية صفحة ١٠ لسنة ١٨٤١م الجزء ٣، فهي صغيرة جداً ولا يمكن الاستفادة منها، وبسبب العلاقة بين الطريقين اللتين ذكرناهما آنفاً، واللتين يمكن اعتمادهما إلى حد بعيد، تمت في نهاية المطاف إضافة مقطعين من عفرين الأعلى وفقاً لما نقله كيبرت عن رسم بريسل الذي لا يمكن الاعتماد عليه أبداً – قارن ما يتعلق بذلك هومان و بوخشتاين ص ٤١١ – والذي لا يتطابق أبداً مع رسم شيرنيك العديم القيمة هو الآخر " اللوحة ١ في النشرة الإضافية لبيترمان رقم ٤٥ ".

وتوفر هذه المناطق الواقعة في الجنوب الغربي من عينتاب وبين آثار قيروس وطريق حلب المعبدة لرحالة المستقبل فرصاً ومناسبات عديدة لتحسين الرسوم والخرائط .

وفي منطقة الوادي الأعلى لقره سو تركت خصّة في الموقع الذي وضعها فيه كيبرت – انظر ما سبق – في خريطة الجزء الشمالي من سوريا، ولم أضعها كما فعل هارتمان "مجلة الجمعية الجغرافية ١٨٩٤ ص ١٤٥ " على مسافة سبع دقائق شرق خط ٣٦ درجة و٢٤ دقيقة، ذلك أن الموقع الغربي لا يعززه إلا خط زوال طريق كولداواي من قيريق إلى خاني خصّة ، في حين أن قيريق خاني محددة في خريطة الطريق المعبدة التي سبق ذكرها مراراً، ومما يدعم هذا القول أيضاً أن كيبرت أعاد رسم المسافة نفسها بناء على أقوال هارتمان، ويبدو لي أن هارتمان قصّر كثيراً المسافة بين إكبز "سالمانلي" وكِلِّس، خاصة النصف الغربي منها، ولذلك اضطر إلى وضع خصّة في مكان بعيد باتجاه الشرق، وقد تم ربط طرق هارتمان بين خصّة وآثار كيروس وطرق بلانكنهورن بين عينتاب وإصلاحية، وبين إصلاحية وكِلِّس – قارن فيما يتعلق بذلك بالصفحة ٨٩ من " مبادئه " – وطرق تشيسني من كِلِّس إلى أدابوروني وقيريق خاني، تم ربط هذه الطرق مع طرق كولداواي، وقد عرّف كيبرت أدابوروني الواردة عند تشيسني على أنها خصّة، أما أنا فقد وضعتها على مسافة أكبر باتجاه الجنوب متبعاً في ذلك اتجاه طريق تشيسني.

فيما يتعلق بالخط الساحلي وقمة جبل أمانوس -ولها هي وحدها- استعملت بطبيعة الحال رسم مانسيل الذي يعود إلى سنة ١٨٥٨م "خريطة الأميرالات الإنجليز رقم ٢٦٣٢: خليج إسكندرون إلى مرقب "، ولم يتبين إلا الآن أنه لا يوجد في رسومهم لداخل البلاد شيء من مجاري الأنهار ومواقع وأسماء القرى والطرق والمرتفعات والجبال الجانبية، لم يتبين ذلك إلا الآن عندما أصبح لدينا بعض الطرق المعترضة عبر الجبال رسمناها على خريطتنا حتى وإن لم تكن دائماً خالية من العيوب (١)، وهذه الطرق هي أرزين - يربوز، أوزرلي - خصّة ، صاري سكي "ساراسيكيلي" أوردوكوي، وثلاثتها موجودة على " خريطة آسيا الصغرى "، بالإضافة إلى ذلك نجد الجزء الشرقي من الطريق الثانية على خريطة هارتمان للواء حلب، معبر بايلان -خريطة طريق معبدة - وطرق هارتمان شمال بايلان وفي جبل أرسوز، ولقد رسمت أنهار هذه المنطقة الجبلية اعتماداً على الخريطة البحرية البريطانية، غير أنني رسمتها بخطوط متقطعة للدلالة على أنه يكتنفها كثير من الخيال .

أما الطرق التي تمتد غرب أمانوس في المنطقة الساحلية التي عبرها كثير من الرحالة ولكن دون دراستها والبحث فيها - نحن لم نعرف بعد على سبيل المثال موقع إيسوس المشهور بالمعركة التي جرت فيه - فتعود الطرق إلى هيبردي وفيلهلم، سنة ١٨٩٢م " مخطوطة، مصغرة جداً، مقياس ١ / ٠٠٠ ٩٠٠، نشرها كيبرت في " هيبردي وفيلهلم، رحلات في كيليكيا " نشرة الأكاديمية الملكية للعلوم، فيينا، المجلد ٤٤ سنة ١٨٩٦م"، هذه الطرق أدق من الطرق الأقدم عهداً والتي رسمها تشيسني مع مورفي وأينزوورث، وفافر وماندرو، والكابتن بينيت وغيرهم، وهي تتطابق تماماً مع ما رسمه بوخشتاين " كيبرت، خريطة الجزء الشمالي من سوريا".

بالنسبة إلى منطقة جبل أرسوز بين البحر الأبيض المتوسط ومعبر بايلان وأسفل العاصي - المنطقة التي كانت تسمى بييريا مونس في العصور القديمة- وبالنسبة إلى المسافة التي يكثر استعمالها(٢) بين بايلان وأنطاكية والمناطق الجبلية الداخلية، نملك إضافة إلى خريطة الطريق

(١) لقد سبق أن أصدر راي الحكم نفسه على أجزاء أبعد باتجاه الجنوب من الرسوم نفسها، "نشرة الجمعية الجغرافية، ١٨٦٦، يناير - يونيه، ص ٤٣٥ ".

(٢) لدي فيما يتعلق بذلك أكثر من ست خرائط، منها ما نشر ومنها ما هو مخطوط، غير أنها لا تحتوي غالباً إلا على تفاصيل قليلة جداً، مثل التي أعدها زاخاو وهاوسكنيشت والخريطة البحرية الإنجليزية وخريطة زايف "رحلات في تركيا الآسيوية، ١٨٧٥م "، وبعد ذلك إعادة رسم أصلية قام بها كيبرت، وخريطة إيلي سميث وبيترمان وغيرهم، أو أن هذه الخرائط غير مكتملة، على غرار المواد التي أعدها شوت.

المعبدة رسوماً مفصلة عن طريقين فقط رسمهما هارتمان على خريطة لواء حلب، دون أن يكون لدينا للأسف نص لوصف الطريق الأخيرة منهما التي تعود إلى سنة ١٨٨٤م، يضاف إلى ذلك الخط الساحلي وقمم الجبال المرسومة على الخريطة الإنجليزية، وجميع المواد الأخرى لا تتعلق إلا بأطراف المنطقة، مثل طريق هيبردي وفيلهلم الساحلية إسكندرون – أرسوز –انظر ما سبق– وطريق بلانكنهورن أنطاكية –سلوسيا– بييريا التي تم نشرها للأسف في مقياس صغير جداً –هنا لا تتطابق الخريطة في كثير من الأحيان مع النص فيما يتعلق بالأسماء– وطريق أنطاكية –سويدية – أنطاكية التي هي على شكل العقدة التي رسمها المبشر إيلي سميث سنة ١٨٤٨م، أما يوميات رحلات إيلي سميث التي نشر ريتر منها بعض المقتطفات في المجلد ١٧ من مؤلفه في الجغرافيا، القسم ١ الصفحة ٩١١ وما يليها – فقد اعتمدها هاينريش كيبرت في رسم مخططات على شكل خرائط، دون نشرها مكتملة أبداً.

وإذا كان بعض الرحالة الآخرين – هارتمان وراي وبلانكنهورن وزاخاو – قد سلكوا جزءاً من طريقه في نصف القرن الذي انقضى منذ ذلك العهد، فإن أجزاء كبيرة لم يسلكها أحد حتى اليوم وعلى وجه التحديد في سلسلة جبال النصيرية وفي المنطقة بين حلب وأورونطوس، ولقد استحقت جميع هذه المواد منذ زمن بعيد أن تنشر كمجموعة متكاملة مترابطة بناء على قلة المواد السورية الصالحة للاستعمال، إلا أن جميع المصادر المذكورة إيلي سميث وهارتمان وبلانكنهورن وشوت والبحرية الإنجليزية، يضاف إليهم أيضاً دراموند وتشيسني وماك نيل "مجلة الجغرافيا العامة، ان اف ٤، اللوحة ٤ " وغيرهم – ما زالت غير كافية لإعداد تخطيط مقنع لأسفل وادي أورونطوس بين أنطاكية والبحر.

بالنسبة إلى المنطقة بين أنطاكية وحلب، يتمثل الأساس في رسم خط سكك الحديد الذي أعدّه بريسل للمسافة بين جسر الحديد وحلب، الذي يبدو جيداً – وبالذات المواد التي جمعها شوت، في حين أنها عند شيرنيك، في نشرة بيترمان التكميلية رقم ٤٥، اللوحة ١، لا تتعدى أن تكون إشارة بخطوط بدائية – وقد أضيفت إليها طريق جسر الحديد – حارم – قلعة سمعان التي سلكها إيلي سميث سنة ١٨٤٨م، ومن خريطة هارتمان "مجلة الجمعية الجغرافية، برلين١٨٩٤م، اللوحة ٣ " المسافة بين جسر الحديد – حارم وبعد ذلك باتجاه دركوش وجسر الشغور، وكذلك حلب – جنديرس على الطريق المعبدة وحلب – ألكساندريت (طريق حلب– قلعة سمعان رسمها سنة ١٧٤٧م دراموند وإيلي سميث أيضاً)، جسر الحديد – حارم

- شيخ بركات اعتماداً على موريتز. وأخذنا عن مخطط لم ينشر - كان كيبرت قد أعاد رسمه لطريق الأستاذ سوسين مسافتين قصيرتين ينيشاهير "البرك" - قصر البنات وترمانين- قلعة سمعان، الأخيرة رسمها دراموند أيضاً سنة ١٧٤٧م وسلكها في هذا القرن دو فوجوي الذي تتطابق خريطته التي تحتوي على معلومات قليلة ولكنها تتمتع بجودة غير معتبرة "سوريا الوسطى، منطقة الشمال، مقياس ١/٠٠٠ ٥٠٠" " قارن كتابه "سوريا الوسطى" التركيبة الاجتماعية والدينية، باريس ١٨٦٥- ١٨٧٧م، الجزء ١ الصفحة ٨٠ "، تتطابق مع خريطة موريتز تطابقاً جيداً فيما يتعلق بطريق ترمانين - معرّة مصرين (انظر ما يلي)، وتأتي إلى ذلك بعض الإضافات الصغيرة والكبيرة تعود إلى مؤلفين مختلفين، وهي على وجه التحديد طريق بلانكنهورن من حمّام على طريق حلب المعبدة إلى جسر الحديد، التي تحدد موقع بعض القرى الواقعة في منطقة سبخة العمق، التي لم يرسمها هارتمان إلا بناء على ما بلغه من أخبار، ومن بين ما أخذنا عن خريطة آسيا الصغرى جزء من الطريق الواقعة شرق جبل الشيخ بركات، ثم تأتي بعض الأسماء من طرق زاخاو وهاوسكنيشت.

وعلى عكس ذلك لا فائدة أبداً من بعض المواد الأخرى: ١ - " مشروع خط سكك الحديد من البحر الأبيض المتوسط إلى الفرات، اعتماداً على رسم ماك نيل " " مقياس ١ / ٠٠٠ ٥٠٠، مجلة الجغرافيا العامة، إنْ إفْ ،ى٤ ، اللوحة ٤"، التي يبدو أنها سطحية جداً. ٢ - لا يقدم كتاب زايف "رحلات في تركيا الآسيوية"، لايبتزيج ١٨٧٥م "إلا فائدة محدودة جداً - طريق طولها مسافة ثلاث ساعات وثلث غرب حماة وطريق رحا - تعوم - ذلك لأن معلوماته الطوبوغرافية غثة جداً وغير موثوق بها البتة، وينطبق هذا الحكم بالخصوص على طريقه التي لم يتم تحديدها بعد والتي تربط بين جسر الحديد وقلعة سمعان. ٣ - كتاب جاروفاليو " سوريا الوسطى وبلاد ما بين النهرين - الاستكشاف الاقتصادي ٤ المجموعة ٦ الخريطة رقم ٣ يونيه ١٨٩١م- أما حقيقة مسار طريقه الجديدة حلب - جبل سمعان - ويعني بذلك قلعة سمعان - بقراها التسع، فلن يكشف عنها إلا أحد الرحالة اللاحقين، ٤ - وعلى غرار كثير من الطرق الأخرى لا يمكن الاستفادة فيما يتعلق بعلم رسم الخرائط من الطرق السورية التي رسمها المبشر الأمريكي طومسون ١٨٤٠ - ١٨٤٦م" قارن ريتر في "الجغرافيا مجلد ١٧ ، ١ ، ٢ "، ٥ - لم أستطع الاطلاع على طرق الكابتن مامبي التي ذكرها راي في كتابه "ملاحظات حول خريطة سوريا"، ص ١٨، غير أنه تجاوزها الزمن على أية حال بسبب الطرق الجديدة المتوافرة بكثرة في هذه المنطقة بالذات.

فيما يتعلق بسلسلة جبال النصيرية في اتجاه الجنوب حتى خط العرض ٣٥ درجة، لرسم الشكل المنحرف بين البحر وأورونتس والطريق المعبدة الرابطة بين اللاذقية وجسر الشغر(١)، يمكن الاعتماد بالدرجة الأولى على رسوم بلانكنهورن إلى جانب الخريطة البحرية الإنجليزية، وتأتي بعدها رسوم هارتمان وموريتز وإيلي سميث، وتتعلق هذه الرسوم بطريق اللاذقية – جسر الشغور، التي سلكها ووصفها أول مرة ماوندريل سنة ١٨٩٧م – أكسفورد ١٧٤٠م– وقد رسم راي سنة ١٨٧٣م اعتماداً على فوجي، وسنة ١٨٨٥م اعتماداً على دو كوراب بروزوفسكي، طرق أسفل وادي أورونطس وصعود جبل العقرة والطريق الجبلية أنطاكية – جسر الشغر، وقد رسمت الموضع الأخير المذكور في المكان نفسه الذي ورد عند بلانكنهورن وهارتمان.

بعد ذلك ربطت في البداية طرق هارتمان بجميع هذه الطرق "مجلة الجمعية الجغرافية، برلين، المجلد ٢٩، اللوحة ٣ "، وكذلك صعود جبل العقرة، حيث سلك الرحالتان الطريق نفسها عند الصعود، وعند النزول يبدو أن بلانكنهورن أخذ مسلكاً أكثر ميلاً باتجاه الشرق رغم أنه يذكر في الصفحة ٧٣ أن طريقه تقع غربي طريق هارتمان، إلا أنه بعد ذلك يبلغ العاصي تقريباً عند الموضع نفسه الذي بلغه فيه هارتمان، بعد ذلك تأتي الطرق الواقعة على الضفة الجنوبية للعاصي في اتجاه أعالي النهر حتى أنطاكية، والمسيرة من هناك إلى جبل قصير بعد جسر الشغر، التي يتقاطع فيها عدة مرات مع طريق بلانكنهورن، بالإضافة إلى ذلك نجد في هذه المنطقة طريق موريتز سنة ١٨٨٥م من جسر الشغر إلى جسر الحديد، التي رسمت وحددت لأول مرة مسافة طولها ١٣٠ كيلومتراً من مجرى الأورونطس كانت إلى ذلك العهد مجهولة، وطريق إيلي سميث جسر الشغر – الأوردو – اللاذقية مايو ١٨٤٨م، وطريق من الأوردو إلى أنطاكية، مأخوذة عن خريطة راي لشمال سوريا وملاحظات فافر وماندرو المتعلقة بها، الصفحة ١٧، وأخيراً طرق هارتمان سنة ١٨٨١م في لواء اللاذقية "مجلة النادي الألماني لفلسطين، المجلد ١٤، اللوحة ٦ "، وهي الأولى التي قام بها في سوريا ونشرها سنة ١٨٩١م دون اعتبار للمواد المتوافرة الأخرى، وذلك تصرف ينبغي قبوله دائماً إذا كان الرحالة في الوقت نفسه غير متمكن تماماً من منهجية علم رسم الخرائط، بالإضافة إلى ذلك كان لدي بالنسبة إلى منطقة اللاذقية المجاورة في اتجاه الشمال الخريطة المرسومة باليد "خريطة دائرة ساحل اللاذقية والمنطقة المجاورة التي طلب

(١) [المترجم: لعلها جسر الشغور]

إعدادها الدكتور هارتمان ورسمها جوتليب شوماخر في سبتمبر ١٨٨٢م" و" قارن ما يتعلق بذلك بهارتمان في مجلة النادي الألماني لفلسطين، المجلد ١٤، ١٨٩١م، ص ١٦٠ . وقد تم ربط طرق هارتمان اللاذقية – الأوردو، و الأوردو – قلعة ميرزا – بابنّا – قلعة صهيون إلى طرق إيلي سميث وبلانكنهورن.

بعد ذلك باتجاه الجنوب يقدم راي الأساس لطرقه وطرق إيلي سميث وهارتمان التي تتقاطع وتتطابق في كثير من الأحيان، فقد قام راي هناك "نشرة الجمعية الجغرافية ١٨٦٦م، يناير – يونيه، ص ٤٣٥، وملاحظات حول خريطة سورية، ص ١٣ وما يليها " في سنة ١٨٦٤م مع فيبني الذي أصبح لاحقاً أدميرالاً، قام بقياس شبكة مثلثة الشكل تبنى على ثلاثة أوضاع فلكية: كلايات وصافيتا وقلعة الحصن، وثلاث عشرة محطة، تمتد شرقاً حتى حمص وشمالاً حتى جبل عقرة، والتي يذكر لها أسماء جميع النقاط المقصودة، ولكن لا يذكر للأسف الزوايا التي حددها لها، ما يجعل إعادة الرسم أمراً مستحيلاً، ومما يزيد الطين بلّة أن الفرنسيين والإنجليز يتميزون بعادة سيئة تتمثل في عدم ذكر هامش الخطأ في القياسات الفلكية، ولذلك كان ينبغي أخذ مواضع النقاط المفردة والطرق طوعاً أو كرهاً عن خريطة راي التي تتوافر منها ثلاث نسخ جميعها من مقياس ١ / ٥٠٠٠٠٠ : ١) "استطلاع جبل النصيرية، مجلة الجمعية الجغرافية، يونيه ١٨٦٦م؛ ٢) خريطة جبل النصيرية وباشاليك حلب، في المرجع نفسه، أبريل ١٨٧٣م. ٣) خريطة شمال سورية، أعدها تويليي تحت إشراف راي، باريس ١٨٨٥م، وتختلف هذه المراجع الثلاثة في كثير من الأحيان اختلافاً غير بسيط بعضها عن بعض بخصوص المواضع والأسماء، وينبغي اعتبارها مراجع سيئة لا تتمتع بالفكر النقدي " قارن بالحكم القاسي الذي أصدره هارتمان بهذا الخصوص في مجلة النادي الألمان لفلسطين، المجلد ١٤ ص ١٥٩ ". وبناء على مقارنات أكثر دقة أعتبر أن أكثرها وثوقاً هو المرجع الأول، كما أنه هو الذي يحتوي على المعلومات الأغزر ويتميز بالوضوح الأكثر، في حين أن المرجع الثالث هو الذي يتميز بأكبر عدد من الأخطاء.

ولقد ربطت إلى طرق راي أولاً طرق إيلي سميث، ثم طرق هارتمان التي تحتوي فيما بينها في كثير من الأحيان على اختلافات كبيرة في الاتجاهات والمسافات، وسوف يكون من بين مهام رحالة المستقبل إثبات ما إذا كنت على حق في تفضيل رسوم راي، بالإضافة إلى ذلك سجلت طريق بلانكنهورن الساحلية وطريق أمين باشا – لبارون شفارتسمبيرج – من سنة

١٨٦٣م من جسر الشغور حتى قلعة أبو قبيس على الجانب الشرقي من جبل النصيرية – للمحافظة على هذا الاسم الذي لا يعرفه أحد في سوريا ولكنه معروف ومنتشر في أوروبا – " قارن براي في تقارير جغرافية عن شمال سوريا، مجلة الجمعية الجغرافية، أبريل ١٨٧٣ م".

المنطقة الواقعة شرق الأورونطس بين حلب وحماة، لقد رسمت كامل الطريق حلب – إدلب – جسر الشغور – قلعة المضيق – قلعة سجار – حماة اعتماداً على بلانكنهورن، مع المحافظة في ذلك على تحديد فينيي لموقع قلعة حماة – خط عرض ٣٥ درجة شمالاً، ٣٦ درجة و٤٣ دقيقة و٣٩ ثانية من خط غرينيتش – وتحديد موقع إدلب اعتماداً على طريق بلانكنهورن وموقع معرة النعمان اعتماداً على طريق طورسي – في خريطة راي لشمال سوريا، راجع فيما يلي – من حلب إلى حماة، ثم إن تحول أواسط الأورونطس عند بلانكنهورن من قلعة المضيق حتى جسر الشغر" قارن بكتابه "مبادئ علم الجيولوجيا إلخ، ص ٨٨ " موجود في معظمه من قبل لدى راي، كما تبناه هارتمان هو الآخر، إلا أن بلانكنهورن يحدد قلعة المضيق قرابة أربع دقائق شرق الموضع الذي حدده راي.

لقد قدمت الخريطة التي رسمها كيبرت باليد لطرق إيلي سميث مسار الخط حلب – قنّسرين "آثار شالكيس" إدلب "إلى هنا تتطابق جزئياً مع ما رسمه بلانكنهورن" – أريحا – معرة النعمان – البارة – جسر الشغر، ومما يدل على دقة ملاحظات إيلي سميث أن المسافات والاتجاهات التي حددها تتماشى تماماً مع شبكة طرق بلانكنهورن و دي طورسي.

وقد أخذت عن خريطتّي راي اللتين ذكرتهما آنفاً ما يلي: ١) طريقين لراي بين خان طومان وسرمين. ٢) طريق ثالثة حلب – أوجل– تجل – معرة مصرين – جسر الشغر، و لم يستطع الرسام تويليي أن يفعل الكثير على طولها وفي كامل خريطة شمال سوريا لمعالجة تضاريس الأرض المبالغ فيها والتي لم يتم رسمها بالتأكيد، والتي غطى بها الرسام نفسه انخفاض الرجّ تغطية تامة. ٣) طريق دو طورسي حلب – معرة النعمان – حماة – حمص "قارن ما ورد عند راي في ملاحظات حول خريطة سوريا، ص ١٧ "، و لم آخذ عن طريق ثانية لدو طورسي "جسر الشغر – شيزر وسيجار " – مسيد – الحرمل " التي لا يمكن التعرف عليها على خريطة راي، ولا على غيرها من الخرائط إلا من المرتفعات المذكورة ودون أن يكون ذلك بوضوح، لم آخذ منها إلا بعض الإضافات والمقاطع المفردة في غرب الأورونطس " بين طريقي بوركهارد وموريتز ".

وأخذت عن طرق زاخاو بناء على الرسوم الأصلية التي أعدها كيبرت ما يلي: ١) قلعة شيزر – صقيلبية – قلعة المضيق – البارة. ٢) تاووم – حلب، حيث تمتد طريق زاخاو جنوب طريق بلانكنهورن، كما اعتمدته في إدخال بعض الإضافات على طريق حماة – قلعة شيزر وبارة – معرة النعمان – أريحا – إدلب .

يتضمن كتاب بوركهارد " رحلات في سوريا والأرض المقدسة، لندن ١٨٢٢ م" على الصفحات ١٢١ – ٢١٠ وصفاً لرحلة تمت سنة ١٨١٢م من حلب عبر حماة وقلعة الحصن وطرابلس إلى دمشق، أما الخريطة المجملة المصاحبة فهي أصغر من أن يستفاد بها في مجال رسم الخرائط، وأفضل منها خريطة "وادي الأورونطس قرب آباميا (١) القديمة" عند الصفحة ١٤٦، وحيث إن أجزاء من طريق أريحا حتى الحصن لم يسلكها ولا وصفها أحد خلال السنين الست والثمانين المنقضية، مثل الجزء عند سرمين وأريحا – البارة – العنقية وحماة – المسيد – قلعة الحصن، فقد أعدت رسمها، ورغم ذلك لم أذكر الاتجاهات في كثير من الأحيان أبداً ولا المسافات إلا بالأرباع الكاملة من الساعة، بعد ذلك أدرجت المقاطع أريحا – البارة – العنقية وقلعة المضيق – صقيلبية – قلعة شيزر– خلافاً لما ورد عند بلانكنهورن وزاخاو– كاملة، كما أدخلت بعض الإضافات على العنقية – قلعة المضيق وكذلك قلعة شيزر – حماة.

وإلى زاخاو تعود الطريق معرة النعمان – تاروطين – خان السبيل – أريحا – جسر الشغر التي لم يسلكها غيره، وإلى دو فوجي تعود المسافات التالية: ١) ترمانين – سمرين – منتف. ٢) باشميشلي – قلبلوزة – إدلب – مرتبطة بطريق موريتز حارم – دانة، راجع ما سبق في " المنطقة بين أنطاكية وحلب " و٣) أريحا – البارة "غرب طريق بوركهارد" – معرة النعمان وكذلك ثلاثة مقاطع صغيرة أخرى حول البارة .

وأخيراً أضفت بعض الطرق التي يبدو أنه تم استكشافها بين خطوط حلب – جسر الحديد وحلب – جسر الشغر من خرائط راي وإيلي سميث، وفي مقابل ذلك عاد بوركهارد ودو فوجي لاحقاً إلى سلك طريق أقصر سبق أن سلكها دراموند قبل قرن ونصف في جبل أريحا، وتمر هذه الطريق بالمواضع المسماة أوراميلجيوز (أوريم الجوز)، راميه (الرامه)، مريان

---

(١) [المترجم: لعلها أفاميا]

(مرايان)، أسّين (أحصين)، باره (البارة)، مدجلية (مجلية، مجدلية) وبيادة (البياضة)، وتمر طريق أخرى من أريحا عبر كفر لاتين (على الأرجح تل لاته) وأولسميح (؟) إلى قرى شينان (شنان) وفوركية (فيرقية) التي شاهدها زاخاو "الرحلة ص ٩٥"، والتي كانت آثاراً خاوية على عروشها سنة ١٧٤٨م.

المنطقة جنوب حماة: عند خط العرض ٣٤ درجة و٥٦ دقيقة تبدأ خريطة تهمه " خريطة سوريا الوسطى، مقياس ١ / ١٠٠.٠٠٠ الصفحة ١٨" التي سوف ينشرها رايمر (فوزن) قريباً، التي تبلغ جنوباً خط صيدا – دمشق، وعند ساحل البحر الأبيض المتوسط في الغرب خط طول ٣٧ درجة شرق غرينيتش تقريباً، والتي تم تصغيرها لاستعمالها في خريطتنا باستثناء بعض الأجزاء منها، وهي تحتوي – مقارنة بخريطة لبنان "المستودع الحربي ١٨٦٢م" – على كثير من المستجدات وتصحح كثيراً من المعلومات بناء على أقوال أحد الأشخاص الذين يعرفون البلد معرفة جيدة، إلا أنه لا يزال من الصعب في الوقت الحاضر تبين مدى هذا التصحيح؛ ذلك أنه لا يمكن التعرف على المواضع التي وصل إليها الكاتب نفسه إلا من قياسات الارتفاع التي تم تحديدها وتسجيلها باستعمال بارومتر الزئبق، أما خريطة لبنان التي بلغت مستوى متميزاً من الناحية الفنية الجمالية –وربما ظلت لهذا السبب فترة طويلة من الزمن– فتحظى بقيمة كبيرة جداً لا تستحقها، فقد تزايد عدد نقادها تزايداً مطّرداً، إذ تقول عنها إيزابيل بورتن على سبيل المثال "بورتن ودريك، سوريا التي لم تستكشف، ١٨٧٢م، المجلد الأول ص ٩٥": إنها "بتطلعها إلى الدقة العلمية تستطيع أن تفخر بأنها أسوأ ما يوجد في هذا الصدد"، ويقول القسيس بوست "مؤسسة استكشاف فلسطين ١٨٩٣م، ص ٢١٩": الخريطة الوحيدة الجيدة التي نملكها عن لبنان وسوريا وهرمون هي خريطة لبنان للبعثة الاستكشافية لسوريا، نشرت سنة ١٨٦٠–١٨٦١م، وهذه الخريطة أبعد ما تكون عن الدقة في معلوماتها الطوبوغرافية، ومخطئة في كتابتها للأسماء العربية ، "والجزء الذي تغطيه من لبنان "أنتيليبانوس" موغل في الخطأ إلى درجة أنه عديم الفائدة تماماً"، وقد صرّح لي رحالة آخرون قاموا بأسفار مدروسة منظمة إلى لبنان بآراء تتطابق تماماً مع ما سبق(١).

أما خريطة طعمة فهي تمثل في مجملها تقدماً واضحاً جيداً في هذا المجال حسب تقييمي لذلك، إلا أنه ينبغي الإشارة إلى بعض حالات الاستثناء، فعلى سبيل المثال أهمل طعمة تماماً

(١) لقد أصدر الكابتن ويلسن تقويماً أفضل من ذلك بكثير سنة ١٨٦٥م، "قارن بمؤسسة استكشاف فلسطين، النشرة الأولى، التي يشار إليها بالمجلد الأول، ص ٢٥ ".

وادي النسور في أعلى جزء من لبنان، الذي يمتد مسافة ١٧ كيلومتراً جنوب غربي بحيرة عيون أرغوش المغلقة عبر عيناتة إلى بحيرة اليمّونة، ولقد حسبت أنه ينبغي علي إعادة رسمها وفقاً لجميع الخرائط السابقة "روبنسون – كيبرت، خريطة لبنان، فان دي فلده، شتيلر – بيترمان، كيبرت في بيدكر وغير ذلك" ووفقاً لوصف بورتن في كتاب "سوريا التي لم تستكشف"، كذلك أرفض كامل رسوم طهمه للبنان "أنتيليبانوس" والمناطق الواقعة شرق طريق دمشق – حمص.

وتقدم المواد التالية حلقة الربط مع خريطة طعمة المكتملة :

١) الجزء الشمالي للمسافة من حماة إلى حمص لدينا طريق دو طورسي التي سبق ذكرها من حلب إلى حمص مع إضافات لزاخاو، وخريطة فينيي "الطريق من طرابلس إلى حمص وحماة وتدمر، نشرت سنة ١٨٦٥م، مقياس ١/ ٤٦٠ ٠٠٠" وعند دوك دو لوين، "رحلات استكشاف إلى البحر الميت، الأطلس" فلا تقدم تفاصيل إضافية في هذا الشأن.

٢) المنطقة بين الأورونطس عند حماة وجبال النصيرية يمكن إلى جانب الأجزاء التي سبق ذكرها من طريق دو طورسي جسر الشغور – قلعة شيزر – مصيد – الحرمل وطريق فينيي "من حماة إلى طريق طرابلس المعبدة –حمص" يمكن مراعاة طريق بوركهارد حماة – سيراتة – مصيد – كورتمان – قلعة الحصن وعقدة موريتز حماة – أبوقبيس – مصيد – بارين – ربعو – حماة، ولقد قمت بإعادة رسم الطريقين الأخيرتين، واستطعت إدخالهما بطريقة مرضية تقريباً بين طريق أمين باشا وطريق دو كورسي، وكذلك في خريطة طعمة، مستعيناً في ذلك ببعض التقويمات عن بعد، إلا أن هذا الجزء من سوريا بين الأورونتس والطرق الجبلية التي سلكها راي وإيلي سميث وهارتمان في الغرب – بصرف النظر عن البراري الشرقية – فلا يزال إلى اليوم يعتبر من الأجزاء الأقل معرفة.

٣) المنطقة الواقعة شرق حماة رسوم راي وموريتز وبلانكنهورن، ويضع هذا الأخير السلمية بين ١٠ درجات ونصف وإحدى عشرة درجة ونصف شرق مواضع الآخرين، وهو أمر يؤكد على تبريره في الصفحة ٨٨ من " المبادئ "، ولقد تبعته في هذا الأمر إلى أن يأتي ما يخالف ذلك ، خاصة وأن الموقع الشرقي أو الغربي للمكان ليس له إلا تأثير بسيط جداً على تمثيل ورسم المناطق المجاورة ، أما رسوم موريتز " تل بيسة – أبو حمّامة – سلامية – حماة " فليست مفصلة تفصيلاً كافياً لاستنتاج الطول الجغرافي للمدينة .

في سلامية (١) تنضم طريقان حديثتان تماماً عبر الصحراء التي ظلت معرفتها منقوصة جداً إلى اليوم في الشمال والشمال الشرقي: ١) طريق غير منشورة للدكتور هارتمان من دمشق عبر نبك وسلامية إلى خناصر (التي يسميها زاخاو خناصرة) وعبر أندرين إلى حماة، التي حصلت منها على نسخة يدوية من السيدة هارتمان تحمل العنوان "طريق رحلة مارتين هارتمان من ١٦- ٢٦ مايو ١٨٨٧م، التي تم تقديمها إلى الدكتور هاينريش كيبرت بمناسبة عيد ميلاده الثمانين، سلم ١/ ٧٥٠٠٠٠ "، وبناء عليها تم تسجيل الطريق بين سلامية وحماة والخناصر من ناحية وبين سلامية والفرقلس من ناحية أخرى - انظر ما يلي - ٢) خريطة أوستروب التي تحتوي على طريق تدمر - الرصافة - إسرية - أندرين - سلامية التي ظلت إلى اليوم معروفة عن طريق البحوث فحسب.

بالنسبة للطرق الصحراوية في شمال غربي تدمر التي لم يستكشف إلا جزء منها تم الاعتماد على خريطة كيبرت لرحلات زاخاو، و"أراضي دجلة والفرات" لسنة ١٨٥٤ م، كما أخذنا بعض الإضافات عن موريتز، خريطة بلاد تدمر - انظر ما سبق - وروسو، خريطة جزء من الشام ١٨٢٥م " يوميات رحلات ومذكرات نشرتها جمعية الجغرافيا، المجلد الثاني، باريس ١٨٢٥م ". أما طريق سخنة - إسرية الخناصر فقد سلكها بيشوف سنة ١٨٨٠م وأخذناها عن خرائط رحلات زاخاو، ونجد الطريق المباشرة سلامية - إسرية - التي سلكها صفوت بيك ومصطفى بيك على خريطة موريتز لبلاد تدمر، والطرق التي تم استكشافها بين طرق بيشوف وصفوة بيك وتل السلطان - جنوب غربي حلب - على خريطة جودت باشا التركية التي أعاد راي رسم بعض أجزائها، وقد أشرت إلى الطريق المباشرة تدمر - سلامية اعتماداً على وصف القس بوست "مؤسسة استكشاف فلسطين ١٨٩٢م، ص ٣٢٥ وما يليها" وعلى الخريطة اليدوية التي ذكرناها سابقاً "طريق رحلة مارتين هارتمان من ١٦ إلى ٢٦ مايو ١٨٨٧م".

الأنتيليبانوس: أشهر وأفضل ما نجد فيه الطرق الثلاث الكبرى التي تسير حذو سفحه في الجنوب والغرب والشرق، ولا يتعرض جيرار دو ريال إلى غير هذه الطرق في كتاباته (مجلة الجمعية الجغرافية، سبتمبر ١٨٦٨م، ص ٢٢٥ وما يليها)، التي وضع لها العنوان الخاطئ "الأنتيلبنان"، إلا أنه لا يستعرض شيئاً بخصوص المناطق الداخلية ولا يقدم شيئاً ذا قيمة على مستوى علم رسم الخرائط.

(١) [المترجم: الاسم القديم لمدينة السلمية شرق حماة.]

الحدود الغربية، أي طريق زحلة – بعلبك – حمص مرسومة لدى طعمة بدقة لا بأس بها على غرار رسمها على خريطة لبنان، فعلى سبيل المثال توجد بعلبك على بعد دقيقة واحدة باتجاه الشرق (خط العرض نفسه) وعلى بعد دقيقة وثلاثة أرباع الدقيقة باتجاه الجنوب (خط الطول نفسه)، ولذلك تم الاحتفاظ برسم طعمة، وبخلاف ذلك تم عند هذا الأخير تحويل خط الطريق الكبيرة دمشق – حمص، التي يبدو أنها تعتمد على قياسات دقيقة، تم تحويلها بسبب وقوع دمشق على بعد سبع دقائق باتجاه الشرق من الموضع الذي كان معتمداً إلى اليوم والذي حدده مانسيل وفينيي ودورجنز، في حين تم الاحتفاظ بحمص في الموضع نفسه الذي حدده فينيه (خط عرض ٣٤ درجة و٤٣ دقيقة شمالاً، ٣٦ درجة و٤٢ دقيقة و٢٢ ثانية شرقي خط غرينيتش)، وهذا الانحراف باتجاه الشرق والذي يبلغ ٧ درجات عند ضمير ونبك أيضاً، يتناقص بطبيعة الحال باتجاه الشمال (٦ – ٧ درجات عند قارة و٤ درجات ونصف عند حسيا و٤ درجات عند شمسين). ورغم أن طعمة أصر كل الإصرار على موقفه عند سؤاله عن صحة قياسه للمسافة من دمشق، فإنني لم أستطع أن أحمل نفسي على اتباعه في هذا الرأي بل احتفظت بخط الطول الذي حدده مانسيل سنة ١٨٦٠م باستعمال التلغراف والذي يبلغ ٣٦ درجة و١٨ دقيقة و٢٤ ثانية (فينيه ٣٦ درجة و١٩ ثانية)، وبناء على ذلك كان ينبغي لطريق حماة –دمشق عند طعمه أن تنحرف إلى الغرب عند النقطة الثابتة حماة، ولذلك أصبح امتداد النصف الجنوبي من أنتيليبانوس أقل عرضاً منه عند طعمة.

ولقد تم استكشاف وعبور سلسلة الجبال الحقيقية عديداً من المرات منذ عهد بورتر، إلا أنه لم يتم إعداد أي رسوم جيدة أبداً عنها ، وإذا قال دينر "مقالة حول جغرافية سوريا الوسطى، ١٨٨٦م، ص ٤ " الذي وصفه الجيد لهذه السلسلة مرجعاً ودليلاً قيماً لمن يعمل في مجال رسم الخرائط، إذا قال: إنه " أنهى بحث واستكشاف هذا الجزء المهم من هذه المرتفعات الجبلية التي تكاد تكون غير معروفة" فإن ذلك حتماً لا ينطبق على المعطيات الطوبوغرافية، ذلك أنه من الخطأ على سبيل المثال زعمه (ص ٣٣) أن حليمة قبو وحليمة قارة اسمان للموضع نفسه، وتختلف مع هذا الزعم أقوال بورتن ودريك وموريتز ووست " قياس الارتفاعات، مؤسسة استكشاف فلسطين ١٨٩٢م، ص ٢١٩ وما يليها، رقم ١٣و١٥ " وطعمة وخاصة الوجه الجانبي لجبل أنتيليبانوس لصاحبه القس بوست "مؤسسة استكشاف فلسطين ١٨٩٣م، ص ٢٢٩"، الذي يفصل الجبلين عن بعضهما فصلاً واضحاً في الرقم ٧ والرقم ٩.

الموجود من خرائط الأنتيليبانوس ليس له إلا فائدة قليلة، وقد سبق أن أوردنا أعلاه الأحكام القاسية التي أصدرها بورتن وبوست في هذا الخصوص، ومن المؤسف أن خرائط بورتن ودريك "سوريا التي لم يتم استكشافها، لندن ١٨٧٢ ومجلة الجمعية الجغرافية الملكية، المجلد ٤٢ ص ٤٠٩" لا تستجيب حتى لأدنى شروط الدقة والتطابق مع النص (وهذا ينطبق بالتحديد على المنطقة المحيطة ببلودان ومنطقة حليمات قابو، ونلاحظ أن عدداً من الطرق المذكورة في الكتاب غير موجودة على الخريطة البتة)، وأنه لم ينشر إلى اليوم أي شيء من رسوم وقياسات بوست ووست اللذين كانا ينويان إعداد خريطة دقيقة للبنان وأنتيليبانوس وتدمر يمكن ضمها إلى الرسوم الإنجليزية للضفة الغربية لنهر الأردن " انظر مؤسسة استكشاف فلسطين ١٨٩٣م، ص ٢٢٠".

ولقد وضعت مجموعة حليمات قابو، على غرار ما يشير إليه موريتز الذي عبر سلسلة الجبال ثلاث مرات على كامل عرضها، وديتر في خرائطهما، وضعتها عند منتصف المسافة بين قارة وراس بعلبك وأضفت إليها الطرق المشكوك فيها (١) وتفاصيل لدريك "مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، المجلد ٤٢".

بسبب عدم توفر مادة أفضل، ولقد تم رسم النصف الجنوبي من سلسلة الجبال في معظمها اعتماداً على "خريطة دمشق وحوران وجبال لبنان" في كتاب بورتر الجيد - خمس سنوات في دمشق - (لندن ١٨٥٥م، المجلد ٢)، التي لم يتم تعويضها في هذه المنطقة بمادة أفضل منها خلال الفترة التي انقضت منذ ذلك العهد، والتي تزيد على أربعة عقود من الزمن، كما تمت تكملتها بطرق موريتز، أما ترتيب تسلسل القمم التي ترتفع في هذه المنطقة الجنوبية على الجانب الغربي لسلسلة الجبال فوق خط سكك الحديد بيروت - دمشق فيذكرها ديتر " جغرافية سوريا الوسطى، ص ٣٣" كما يذكرها بوست - مؤسسة استكشاف فلسطين ١٨٨٢م، ص ١٦٦- الذي تسلقها كافة، وتختلف خريطة دريك عن ذلك كثيراً، إلا أنه هي الخريطة الأكثر خطأً، ولا يزال على الرسامين والمصورين الجيدين كثير من العمل بخصوص هذا الموضوع إن لم نقل العمل كله.

منطقة بالميرا: لقد سجلت تدمر ذاتها بناء على القياسات الفلكية التي قام بها فينيه (خط العرض الشمالي ٣٤ درجة و٣٢ دقيقة و ٣٠ ثانية، وخط الطول شرق غرينيتش ٣٨ درجة

(١) يقول بوست "مؤسسة استكشاف فلسطين ١٨٩٣م، ص ٢٢٨" مثلاً إن وادي مار توبية يقع بين حليمات قابو وحليمات قارة، ووادي المال بين حليمات قارة وحليمات قريس، فإذا صح هذا القول فإن المنطقة المعنية خطأ أو معكوسة على خريطة دريك.

و ١٤ دقيقة و ٤٤ ثانية) وذلك موضع كان إلى الآن مهملاً من طرف الجميع ما عدا راي، ولقد سمحت لنفسي بذلك لأن تحديده لمواضع أخرى في سوريا (حماة وحمص وقلعة الحصن) استحسنها وتبناها الجميع، كما تتطابق قياساته لخط طول مدينة دمشق تطابقاً تاماً مع تحديدات مانسيل لخط التلغراف، ويضع موريتز- يتبعه في ذلك بلانكنهورن- تدمر على مسافة ١٠ أو ١١ كيلومتراً باتجاه الشرق وفقاً لخط سيره الذي تشوبه المناقص، عند خط طول ٣٨ درجة و ٨ دقائق شرق غرينيتش، الأمر الذي لا أستطيع حالياً اعتباره صائباً.

وقد رسمت طريق حمص – تدمر وفقاً لما ورد عند فينيه في "الطريق من طرابلس إلى حمص وحماة وبالميرا (سلم ١ / ٤٦٠٠٠٠، عند دوك دو لوين، رحلات استكشافية إلى البحر الميت، باريس) وربطت إليها طريق موريتز الجنوبية المباشرة، ويزعم راي – رائل جغرافية ص ٨، ملاحظات ص ١٨- أنه استعمل لهذه المسافة طريق دو لابورد، غير أنه يبدو واضحاً أن هذا ليس إلا التباساً وخلطاً مزدوجاً بين دو لابورد وفينيه، ذلك أنه لا وجود لمثل هذه الطريق عند دو لابورد في رحلاته عبر الشرق: آسيا الصغرى وسوريا – باريس ١٨٣٧ – ٦٢ – كما أن جميع خرائط راي لا تحتوي في ذلك الموضع إلا على طريق فينيه .

بين نبك (على طريق دمشق – حمص) وتدمر تم وضع القريتين وفقاً للنسبة نفسها التي وردت عند زاخاو – كيبرت وموريتز وديىر الذين يتفقون في ذلك اتفاقاً يكاد يكون تاماً – باستثناء خط العرض عند زاخاو – ويعني ذلك – ٢٩ و٤,٣ الدقيقة شرق نبك، ٥٩ و ١/٤ دقيقة غربي تدمر، ١٠ دقائق شمال نبك، ٢٠ دقيقة جنوب تدمر – كما اعتمدت على موريتز – الوحيد الذي يمكن اعتماده في هذا الشأن – في تحديد مواضع سد الباردة وعين الوعول ووادي مسارة بين القريتين وتدمر، ثم رسمت بين النقاط الثابتة جميع الطرق المتوافرة (طرق أوبنهايم وزاخاو وموريتز وهارتمان وبورتر وبلانت ، قارن بـ " قبائل البدو عند الفرات ، لندن ١٨٧٩ " وبوست وفقاً لوصفه الرديء الوارد في " مؤسسة استكشاف فلسطين ١٨٩١، ص ٣٩ وما يليها، ١٨٩٢م، ص ٢٥٤ وما يليها، ص ٣٢٢ وما يليها و ١٨٩٣ ص ٣٦ وما يليها" ويرجع الفضل إلى أوبنهايم على وجه التحديد في أول عرض للتفصيل الجيد، والسجل الواسع لأسماء المناطق الجبلية بين بير زبيدة والقريتين؛ كذلك لا يعتمد رسم المسيرة من تدمر إلى دير الزور إلا على المعلومات التي قدمها هو وحدَه.

أما الصيغتان اللتان قدمهما شارل هوبر عن بالميرا في مجلة جمعية الجغرافيا، باريس ١٨٨٤م، الثلاثية الثالثة ولاحقاً بعد وفاته في "يوميات رحلة في البلاد العربية" ١٨٩١م، فهما خاطئتان وعديمتا الجدوى ولا تتطابقان حتى فيما بينهما ولقد صرفت عنهما النظر صرفاً تاماً، إذ لا يمكن في سنة متأخرة مثل سنة ١٨٩١م وضع الجبل الأبيض الواقع شمال غربي تدمر في سلسلة واحدة مع جبل الغربي عند نبك ومهين، إلا مع جهل تام لأعمال دينر وموريتز، والارتفاعات! يسند ٧٤٥ متراً إلى جبل جرود سنة ١٨٨٤ و ٩٦٨ متراً سنة ١٨٩١م (طعمة يحدد ٦٨٨ متراً)، ويسند ٧٣٥ متراً للقريتين سنة ١٨٨٤ و ٨٨٥ مترا سنة ١٨٩١م (وجد دينر ٧٨٠ متراً ووجد بوست مرة ٧٢١ متراً ومرة أخرى قرابة ٨٠٠ متر)، ويبقى أن ننتظر ما يكشفه المستقبل بخصوص جبل تدمر وجبل لفري وجبل لهب جنوب تدمر، التي تذكرها خريطة هوبر الثانية (ولا تذكرها الخريطة الأولى المنشورة في المجلة، مع أنه لا بد أن يكون قد مر قريباً جداً من هذه الجبال خلال رحلته الأولى – ومع ذلك لا بد من الإشارة إلى أن خريطة دينر هي الأخرى – الجمعية الجغرافية ، فيينا ١٨٨٦م) تذكر سلسلة جبلية لا اسم لها عند خط عرض جبل لهب تقريباً، تبعد مسافة بين ٦٠ ٦٥ كيلومتراً جنوب بالميرا وتمتد من الشرق إلى الغرب، كما يذكر أوبنهايم في بداية الفصل الثالث" المجلد الأول ص ٩٠ "والفصل العاشر"المجلد الأول ص ٣٢٠" بعض المرتفعات البركانية على ما يبدو جنوب بالميرا.

الجنوب: جنوب خريطة طعمة التي تنتهي عند خط عرض دمشق يمكن اعتماد المصادر المعروفة: بالنسبة للمنطقة التي تصل إلى أسفل الليطاني خريطة لبنان جنوبَ ذلك الرسوم الإنجليزية للضفة الغربية، ثم خريطة الجولان لشوماخر (مجلة المنتدى الألماني لفلسطين، المجلد التاسع، اللوحة الخامسة) "جبل حوران والمناطق البارزة المجاورة، ثم اعتماداً على القياسات والرسوم التي قام بها الدكتور ألفونس شتوبل سنة ١٨٨٢م والتي أعدها ورسمها الدكتور هانز فيشر، سلم ١/ ٤٠٠٠٠٠ " – في المرجع نفسه، المجلد الثاني عشر، اللوحة السادسة – وأخيراً عند شوماخر في " خريطة الضفة الغربية الثانية، شمال عجلون وغرب حوران، سلم ١/ ١٥٢٠٠٠ " (في المرجع نفسه ، الجزء العشرون، اللوحة ١).

لقد سبق لي للأسف أن أتممت رسم حوران وديرة التلول على خريطتي اعتماداً على خريطة شتوبل عندما استطعت الحصول على خريطة شوماخر التي ذكرتها أخيراً، ذلك أنها خريطة تقدم الدليل القاطع على أن قياسات الزوايا التي قام بها فيتزشتاين في حوران أكثر جدارة

بالاعتماد عليها من القياسات الأحدث عهداً والتي قام بها شتوبل، أي أن خريطة كيبرت (١) "مجلة الجغرافيا العامة، سبتمبر ١٨٦٠م" التي تضم جميع الطرق القديمة التي أعدها زيتسن وبوركهارد وباكينجهام وبورتر، هي التي ينبغي اعتمادها في المستقبل لتلك المناطق، مثلما كانت عليه الحال إلى اليوم، عوضاً عن خريطة فيشر وشتوبل، ذلك أن دمشق تقع في كليهما باتفاق مع خريطة مانسيل عند خط العرض ٣٣ درجة و٣٠ دقيقة ونصفاً شمالاً وخط الطول ٣٦ درجة و١٨ دقيقة و٢٤ ثانية شرقاً.

أما بالنسبة للبصرة فإننا نجد القياسات التالية :

كيبرت وخريطة فيتزشتاين سنة ١٨٦٠م: خط عرض ٣٢ درجة و٣٣ دقيقة و٨ ثوان شمالاً وخط طول ٣٦ درجة و٣٣ دقيقة شرقاً.

عند فيشر و شتوبل ١٨٨٩ : خط عرض ٣٢ درجة و٣٠ ثانية ونصفاً شمالاً وخط طول ٣٦ درجة و٢٦ و٢/٣ ثانية شرقاً.

عند شوماخر شمال عجلون سنة ١٨٩٧م: خط عرض ٣٢ درجة و٣٣ ثانية ونصفاً شمالاً وخط طول ٣٦ درجة و٣٢ ثانية شرقاً.

وهكذا يكون كيبرت قد حدد منذ ٣٨ عاماً موضع البصرة بناء على قياسات فيتزشتاين بتطابق يكاد يكون تاماً (أكثر بدقيقة واحدة شرقاً) مع قياسات شوماخر المثلثية التي ربطها بالرسوم الإنجليزية للضفة الغربية –قارن بمجلة المنتدى الألماني لفلسطين ، المجلد ٢٠ ص ٧٤ وما يليها – كذلك تقع سلخاد عند كيبرت تماماً على خط العرض نفسه (٣٢ درجة و٣٣ دقيقة) بمقدار لا يزيد على نصف دقيقة غربي الموضع الذي حدده شوماخر، ومن هنا نستنتج أنه لا بد من وجود خطأ إما في قياسات شتوبل التي لا يمكن الحصول عليها للأسف ١)، أو في النتائج التي تم إعدادها بناء عليها.

كذلك يتضح من مقارنة طرق شتوبل في النقرة مع خريطة شوماخر الجديدة أنه إذا صحت القياسات الأخيرة، وذلك أمر لا يمكن الشك فيه، فإن القياسات الأولى لا يمكن إلا أن تكون قد سجلت بطريقة سطحية فيما يتعلق بالاتجاه والمسافة؛ ولنقارن على الخريطتين تحديداً موضع ١) نامر الهوا، كتيبه، داعل، أوبتاع، شيخ مسكين و٢) من جابرن الفدين، أم الجمال الصغيرة

(١) سجل هاينريش كيبرت بخط اليد قياسات فيتزشتاين على نسخة من خريطة حوران التي يمكن للمهتمين الحصول عليها حتماً من مجموعة خرائط جمعية برلين للجغرافيا.

"الأومتاعية" والبصرة: إننا لن نجد في ذلك أي شبه مهما كان بعيداً. كذلك ينبغي علي أن أذكر أيضاً بعض الاعتراضات بخصوص رسم أرض المنطقة في خريطة شتوبل – مهما قدمت من مستجدات ومهما قل اعتراض فيتزشتاين – الذي يقول عنه بورتن– دريك، المجلد الأول، ص ٢٢٢: إنه عالم لغوي أكثر منه خبيراً في قياس الأراضي – على شتوبل الذي هو رجل ذو خبرة في مجال الرسم الجيولوجي فيما يتعلق بمسح المنطقة.

إذ نجد على سبيل المثال أن موضع الطرف الجنوبي يختلف كثيراً عند شتوبل عن موضعه في خريطة فيتزشتاين التي احتفظت بطبيعة الحال برسومها، غير أن شتوبل لم يزر الموضع أبداً ولذلك فهو لا يستطيع أن يضيف جديداً إلى المسألة ، فإذا كان رسم الأراضي الواقعة في منطقة البصرة وصلخد وتل عبد المار عند فيتزشتاين – كيبرت منقوصاً وغير مُرضٍ بناء على قياسات الارتفاع التي قام بها شتوبل فإن الرسوم الواردة في خريطة شتوبل لا يمكن إلا أن تكون نسيجاً لخيال محضٍ ولا يمكن مبدئياً قبولها أبداً، حيث نجد على خريطة شتوبل خطأ واضحاً مثلاً في الجانب الشرقي كما يتبين ذلك من قياسات الارتفاع في الشمال اعتمدنا قياسات الارتفاع الواردة في خريطة كيبرت " خريطة الجزء الشمالي من سوريا " والتي لم ننتقِ منها إلا عدداً قليلاً بسبب السلم الصغير، وقد تبعت هذه القياسات لاحقاً قياسات بلانكنهورن التي لا تبنى إلا على قراءات أنيرويد إلا أنه تتم مراقبتها عن طريق القراءات التي تجرى في بيروت الواقعة على مسافة غير بعيدة "مبادئ جيولوجيا شمال سوريا، ص ٩١ وما يليها" بحيث لا يتجاوز هامش الخطأ فيها عشرة أمتار زيادة أو نقصاناً، وقد أدرجت هذه القياسات على الخريطة دون أن أن توضع بين قوسين، وإني لأتفق كذلك مع رأي بلانكنهورن الأقل إيجابية والقائل: إن قياسات الارتفاع التي تم تحديدها اعتماداً على علم المثلثات تحت إشراف مانسيل للاستعمال في الخريطة البحرية البريطانية "شواطئ سوريا، اللوحة ١ و ٢، ١٨٥٨–١٨٦٠م" ولا أتفق مع رأي دينر الذي يبالغ في الإيجابية، وأعتقد أنه لا ينبغي إعطاء أهمية كبيرة لقياسات الارتفاع الواردة في هذه الخريطة ولا للتفاصيل الطوبوغرافية للمناطق الداخلية للبلاد، ما عدا فيما يتعلق بمنطقة أمانوس حيث لا توجد أي قياسات أخرى، فقد أخذت عنها ارتفاعات بعض قمم الجبال (بين قوسين).

أما مارتين هارتمان فقد قرأ القياسات مستعملا البارومتر المعدني فحسب فقد دون استعمال مقياس الحرارة، وقد أدرجت قياساته بين قوسين في الأماكن التي لا توجد لها قياسات أخرى،

وكذلك فعلت مع قياسات شيرنيك وبريسل، التي لا ينبغي استعمالها في أفضل الأحوال إلا فيما يتعلق بفوارق الارتفاعات النسبية وليس بصفة أرقام مطلقة.

تتفق قياسات الارتفاع التي قام بها راي (انظر خريطته لشمال سوريا والملاحظات التابعة لها ، باريس ١٨٨٥م)، بناءً على ما يشير إليه بلانكنهورن في المصدر المذكور، ص ١٠٠، تتفق مع قياساته هو وكذلك مع قياسات طهمه (انظر أدناه)، وفيما يتعلق بملاحظاته في جبل الأنصارية (مجلة الجمعية الجغرافية ١٨٦٦م، يناير – يونيه، ص ٤٦٧ وما يليها) وطريقة حساب ارتفاعه لا يصدر الأستاذ الدكتور فون دانكلمان ، الذي تكرم بالاستجابة لطلبي في التحقيق والتدقيق في هذا الموضوع، حكماً إيجابياً، " إننا لا نجد معلومات عن وجود ونوع التصحيح الذي أجري على قياسات البارومتر المعدني وهل التصحيح البسيط الذي أجري على القياسات في بيروت هو تصحيح مناسب، وهل القياسات التي أجريت في الموضعين تتناسب دائماً زمنياً. إذا فرضنا أن أرقام بيروت تمثل ضغط الهواء الحقيقي عند مستوى سطح البحر، دون أي تصحيح، وأن ترمومتر يتعلق بدرجة حرارة الهواء، وتلك كلها معلومات غير معروفة، فإن الأرقام تتطابق مع النتائج التي قدمتها طرق الحساب الحديثة باستثناء بعض الأمتار زيادة أو نقصاناً، وفقاً لما تحققت منه اعتماداً على فحص ست عينات، وتعتمد القيمة الداخلية لقياسات الارتفاع على مدى محافظة البارومتر المعدني على تصحيح ثابت دائما في "المحطات "، وحيث إنه يبدو أن جميع وسائل المراقبة قد باءت بالفشل فإن الأرقام قد تكون خاطئة تماما بطبيعة الحال، رقم صحة وسلامة طريقة الحساب في ذاتها". أما فيما يتعلق بالتفاصيل فإنه يصعب التوفيق بين قياسه لارتفاع سلامية (٣٨٤ متراً، كما ورد في خريطتيه وفي الملاحظات) وقياس بلانكنهورن (٤٦٠ متراً)، وقد سجل في مجلة ١٨٦٦ ، يناير – يونيه، ص ٤٦٨ ارتفاع ٤٨٤.٢٩ متراً للسلمية، إلا أنه ذكر الرقم نفسه لمدينة حماة التي تسبق ذلك مباشرة، والتي لا بد أن تكون يكون هذا الرقم خاطئا لها، إذن يمكن القول إن الفوضى والالتباس تخيم على هذا الموضوع، كذلك تختلف قياسات التي قام بها خلال رحلته إلى الشمال، إلى بمبج – هيرابوليس، اختلافاً كبيراً عن قياسات طورسي ورينو التي يعطيها هو نفسه الأولوية في خريطة شمال سوريا والملاحظات، أما فيما يتعلق بطريق اللاذقية – جسر الشغر فقد فضلت قياسات الارتفاع التي سجلها بلانكنهورن على قياسات راي.

أما ما يبدو جيداً فهو القياسات الارتفاع القليلة التي نجدها في خريطة فينيي " الطريق من طرابلس إلى حمص وحماة وتدمر، سلم ١/٤٠٠٠٠٠" (عند دوق لوين، رحلات استكشاف

إلى البحر الميت إلخ) وفي ملاحظات راي. ويبدو ارتفاع ٤٧٨ متراً لقلعة الحصن خطأ كتابة في الخريطة، ذلك أن الملاحظات تذكر ارتفاع ٦٨٥ متراً (فينيي)، وهو الرقم نفسه الذي سجله بلانكنهورن، وقد تم تسجيل الارتفاعات التي قاسها فينيي دون وضعها داخل أقواس.

نجد كثيراً من قياسات الارتفاع – ليست موضوعة بين قوسين على خريطتنا – مسجلة بخط اليد عند طعمة في خريطة سوريا الوسطى اللوحة ١٨، وقد تم تحديد هذه الارتفاعات باستعمال بارومتر الزئبق، وهي في الغالب تتطابق مع أفضل القياسات المتوافرة الأخرى، وليس معروفاً بطبيعة الحال ما إذا كانت في بعض الأحيان مأخوذة عن تلك القياسات الجيدة، وهي تتعلق إجمالاً بالمنطقة الواقعة بين خط العرض ٣٥ في الشمال حتى السفح الشمالي لهرمون في الجنوب، ومن الساحل حتى خط دمشق –بعلبك– حمص، أي حتى لبنان والبقاع، وفي منطقة أنتيليبانوس وشرقها، حيث لم يسجل طعمة إلا قليلاً من القياسات أو لا شيء أبداً، تضاف إلى ذلك قياسات قام بها ملاحظون آخرون –دينر ووست وبوست وغيرهم– وما يستحق الذكر عند طعمة في هذه المنطقة هي الطريق المباشرة من دمشق إلى حمص مع ارتفاعاتها.

لا يقدم الدكتور كارل دينر للأسف " دراسات حول قياسات الارتفاع في سوريا الوسطى، طبعة منفصلة من مقالات الجمعية الملكية القيصرية للجغرافيا، فيينا سنة ١٨٨٦م" أي شيء عن القياسات الأصلية التي أجراها بالباروميتر المعدني؛ فلا يستطيع المرء أن يكون لنفسه فكرة عن تغيراتها خلال الرحلة، كذلك لا نجد ذكراً للقياسات التي أجراها باستعمال ترمومتر كازيللا وهل تم فحصها وتدقيقها، لكن أجهزة البارومتر المعدنية التي استعملها هارتل قد تم فحصها وتدقيقها وقام أحد تلاميذ هان بعمليات الحساب مع مراعاة القياسات التي تمت في بيروت؛ فإنه من المؤكد أن هذه المواد قد تم استعمالها أفضل استعمال ممكن، ويتمثل الأمر الذي يجلب الانتباه في أن قياسات الارتفاع التي قام بها دينر، والتي تسمح بإجراء مقارنات، تكاد تكون دائماً أكبر من القياسات التي أجراها غيره، وربما كان ذلك بسبب خلل في ترموتر الغليان الذي استعمله، وقد وضعنا الارتفاعات التي سجلها دينر بين قوسين.

لقد نشر روبرت وست عدداً كبيراً من القياسات التي أجراها في لبنان وأنتيليبانوس وهرمون في نشرة "مؤسسة استكشاف فلسطين، تقرير الثلاثية ١٨٩١م، ص ١٤٧ وما يليها؛ ١٨٩٢م، ص ٢١٩ وما يليها و١٨٩٦ م، ص ١٦٥ وما يليها" – وكانت الأخيرة دون مراعاة درجة

حرارة الهواء – ولذلك فقد أهملتها وهي للأسف تفقد مثل هذه القوائم "العارية" لقياسات الارتفاعات كثيراً من قيمتها إذا لم تكن مصحوبة بخرائط، ذلك أن كثيراً من المواضع التي تم قياسها لا يمكن تحديد مواقعها على الخرائط المتوافرة، والمثال على ذلك أنه لا يكاد يتسنى تحديد أي موضع في منطقة "هرمون وضواحيها". وللسبب نفسه لا يمكن تحديد أعلى قمم لبنان عنده " تقارير الثلاثيات ١٨٩١م، ص ١٤٧، رقم ٩ – ١٢، ١٨٩٢ ص ٢١٩، الرقم ٥ و٦ و٢٢ وما يليها" كذلك لا نستفيد شيئاً من خريطة لبنان والخريطة السيئة عند بورتن ودرايك " سوريا التي لم تستكشف " فكان علي أن أعتمد اعتماداً تاماً على طعمه فيما يتعلق بقياسات الارتفاعات على غرار ما فعلته بالنسبة لرسم المواضع، وتعم الفوضى عند أهل البلاد فيما يتعلق بأسماء أعلى هذه القمم العليا شمال وشمال شرقي ما يسمى معبر شجر الأرز، أو لم يطلق بورتن على جبل بعينه الأسماء المختلفة قرن سوداء وجبل عكّار (ا) وجبل تيماران، وقد وضعت بين قوسين قياسات الارتفاع التي أجراها وست.

وقد قاس جورج بوست الارتفاعات أثناء زيارتين إلى تدمر سنة ١٨٩٠م وزيارة إلى لبنان وأنتيليبانوس "مؤسسة استكشاف فلسطين، تقارير الثلاثية ١٨٩١ ص ٣٩، ١٨٩٣م ص ١٦٣ وما يليها و ص ٢٢٨ – ٢٣٢ في عدة مواضع من المرجع" ولكن هذه القياسات لا تبدو ذات أهمية، ربما باستثناء القياسات التي أجراها وست خلال الرحلة الثانية إلى تدمر " تقارير الثلاثية ١٨٩٣م، ص ١٦٣ وما يليها" وقد سجلتُ بعض هذه القياسات بين قوسين على خريطتي بسبب عدم وجود ما هو أفضل منها.

أما القراءات التي أجراها بورتن وتايرويت درايك باستعمال البارومتر المعدني "سوريا التي لم تكتشف الجزء الأول، ص ٢٥٧ وما يليها" و القياسات التي حسبها درايك بالذات دون مراعاة لدرجة الحرارة وللملاحظات المتعلقة بها فهي قياسات لا قيمة لها، حتى وإن كانت بعض قياسات الارتفاع مثل ارتفاع حماة وطلعت موسى تتطابق تطابقاً جيداً مع قياسات رجال آخرين –قارن بدينر في المصدر المذكور ص ٩ وما يليها– ولقد أخذت بعض هذه القياسات في غياب أي قياسات أخرى ووضعتها بين قوسين، وكذلك فعلت مع بعض القياسات التي أخذتها عن "خريطة لبنان" التي يصدر دينر في شأنها حكماً كثير الإيجابية –في المصدر المذكور، ص ٨– رغم أن الارتفاعات الواردة على هذه الخريطة قد لا تكون أفضل من غيرها فيما يتعلق بالتفاصيل الطوبوغرافية .

في حوران سجلت القياسات التي أجراها دورجن باستعمال بارومتر الزئبق دون أن أضعها بين أقواس -قارن بالأخبار التي أوردها بيترمان سنة ١٨٦٦ ص ٩٧ وما يليها- ووضعت بين قوسين القياسات الأقل اعتماداً والتي أجراها شتوبل باستعمال البارومتر المعدني "مجلة المجلة الألمانية لفلسطين العدد ١٢، الخريطة ٦"، وقد تم تعويض جزء من قياسات الارتفاع التي أجراها دورجن في شرق الأردن خلال ثلث القرن الذي انقضى منذ ذلك العهد، تم تعويضها بالقياسات التي أجراها شوماخر باستعمال طريقة قياس الزوايا، ويتضح التطابق الجيد بين هاتين المجموعتين من القياسات، أما الاختلافات الواردة بينها والتي تبلغ في معدلها سبعة عشر متراً فقد يكون السبب فيها هو اختلاف مواضع المراقبة والقياس.

وأخيراً فإن أفضل القياسات هي التي تتعلق بجنوب الخريطة ، ذلك أنه تم تحديدها باستعمال طريقة قياس الزوايا: في بلاد فلسطين ذاتها غرب نهر الأردن تعود القياسات إلى عملية مسح الأراضي التي أجراها صندوق استكشاف فلسطين على يد الضباط المهندسين كوزدر وكيتشنر، وشرق نهر الأردن على يد الدكتور شوماخر، قارن فيما يتعلق بهذا الأخير بـ " خريطة الجولان " في مجلة الجمعية الألمانية لفلسطين، العدد ٩، اللوحة ٥، و "خريطة غرب حوران وشرق الجولان" في كتاب "عبر الجولان"، لندن ١٨٨٦م، و" رحلة عبر الحوران وعجلون والبلقاء " في مجلة الجمعية الألمانية لفلسطين، العدد ١٦ اللوحة ١ -وقد تم حساب هذه باستعمال قياسات البارومتر- و "شمال عجلون وغرب حوران"، في المرجع نفسه العدد ٢٠، اللوحة ١ التي قام بها شتوبل نفسه: فقد ورد فيها أن غدير الزعرورة على ارتفاع ٨٥٣ متراً، وعلى الارتفاع نفسه يقع رجم مشبك ووادي الشام، غير أن الخريطة تسجل بين الموضعين منحدراً حاداً مسافته خمسة كيلومترات كاملة، في حين تسجل خريطة كيبرت في ذلك الموضع أرضاً منبسطة وذلك عين الصواب؛ إذن يمكن القول: إن الأرض المتموجة عند شتوبل تمتد أكثر مما ينبغي في اتجاه الشرق، وذلك خطأ من المرجح أنه يزداد في اتجاه الجنوب، ويبدو أن الوضع لا يختلف عن ذلك في المنحدر الغربي: فلنقارن على سبيل المثال المنحدر عند سويداء في اللوحة رقم ٢ المرسومة بارتفاع مضاعف خمس مرات على خريطة شتوبل، والمنحدر عند أسفل البصرة في اللوحة المرسومة بطول مضاعف عشر مرات لحوران على خريطة شوماخر مع تضاريس الأرض في خريطة شتوبل .

وقد أضفتُ إلى رسوم المواضع الواردة عند شتوبل ما ورد على طريق أوبنهايم شيخ مسكين - البصرة - تلول الصفا - جبل سيس - ضمير واعتمدت عليه في تسجيل مجموعة من

الإضافات والتعديلات، كذلك فيما يتعلق بطريق سايريل جراهام سنة ١٨٥٧م، الذي يُعَدُّ إلى اليوم الرجل الذي بلغ أبعد حد داخل منطقة حرّا هناك "المجلة الجمعية الجغرافية الملكية، لندن، المجلد ٢٨، ص ٢٢٦ وما يليها" ومن المؤسف أن رسوم هذا الأخير ليس لها إلا القليل من قيمة، ولا تتطابق خريطة أرّوسميث المرافقة لها مع النص لا في الأسماء ولا في تضاريس خط السير، ولم نستعمل طرق هوبر في جبل حوران وجنوب ذلك " يوميات رحلة في البلاد العربية، باريس ١٨٩١م، ص ٢ و ٣ من الخرائط" ذلك أنها ليست خرائط حقيقية وإنما مجرد مواد خام في أبسط أشكالها البدائية دون أي قيمة، والمعلومات التي تحتوي عليها لا تتطابق أو تتجانس البتة، فضلاً عن عدم تطابقها مع القياسات التي قام بها فتزشتاين والتي أعاد كيبرت جمعها وبناءها بعناء شديد. وإذا استطاع المرء أن يعمم تقويم هذه الخرائط على بقية الخرائط جميعها فإنها حتماً لا تستحق الجمع ولا النشر، ويبدو أن المعنيين بالأمر قد اقتنعوا بذلك فيما يتعلق بملاحظات هوبر حول خطوط العرض؛ ذلك أنه لم يتم حساب وقياس هذه الخطوط أصلاً.

على عكس ذلك تم رسم خط رحلة العودة التي قام بها هوبر من بغداد إلى دمشق – انظر الخريطة في مجلة جمعية الجغرافيا، باريس، الثلاثة أشهر الثالثة ١٨٨٤م– بداية من قصر الصيقل، لأنه لا توجد مراجع أخرى أفضل من ذلك هناك في الصحراء. ويقع قصر الصيقل– كما يبدو من المعلومات التي يقدمها أوبنهايم طبعاً – أبعد بكثير في اتجاه الشمال مما يحدده هوبر، إضافة إلى ذلك تم هنا رسم التقدم الكبير الذي أنجزه بلانت سنة ١٨٧٨م في اتجاه الجنوب عبر جبل شعلان، ورحلة العودة التي قام بها تشيسني سنة ١٨٣٧م من البصرة إلى تدمر – قارن بلايت، خريطة البلاد العربية وسوريا عند تشيسني في كتابه بعثة إلى الفرات ودجلة، لندن ١٨٥٠م، المجلد الأول، والخريطة رقم ١–.

خريطة الجانب الشرقي

تمثل الرسوم الإنجليزية الأسس التي ينبني عليها رسم هذا الجانب، خاصة رسم أواسط الفرات باتجاه المصبّ حتى خط بغداد التي أعدتها بعثة تشيسني "تشيسني، بعثة مسح ضفاف دجلة والفرات، ١٨٣٥ – ١٨٣٧م، لندن ١٨٥٠ الجزء الثاني ومجموعة تتكون من ثلاث عشرة خريطة)"، وقد اعتمدت البعثة على قياسات طول وعرض ١٨ نقطة تم تحديدها باستعمال علم الفلك، ولا تزال إلى اليوم بعد مضي أكثر من ستين سنة تمثل الأساس الثابت لأي خريطة لبلاد ما بين النهرين. أما كون النهر قد غيّر مجراه عديداً من المرات منذ ذلك العهد، فإننا

نعلم ذلك من تقارير مختلف الرحالة مثل الدكتور موريتز، وكون رسوم تشيسني- أو بعبارة أدق التحديد الاستطلاعي للمواقع- تحتوي دون شك على بعض الأخطاء؛ فإن ذلك يتضح بمجرد مقارنتها بالرسوم التي أعدها زلبي وبيوشر وكولينجوود اعتماداً على علم المثلثات والتي نتعرض إلى مناقشتها لاحقاً " قارن كيبرت في آثار المناطق المحيطة ببابل، مجلة الجغرافيا ، برلين، الجزء ١٨، اللوحة ١، الورق المقوى تحت، الجانب الأيمن"، غير أنه ليس لدينا إلى اليوم أي شيء نستطيع أن نستعمله عوضاً عنها، وآخر ما يصلح لذلك هو ما يسمى "رسم" مهندسي تشيرنيك الذي يعود إلى سنة ١٨٧٢م "تقارير بيترمان، في نشرته التكميلية ٤٤ اللوحة ٢ و ٣".

تم رسم بلاد ما بين النهرين بداية من خط بغداد اعتماداً على كتاب كيبرت "حقول آثار المناطق المحيطة ببابل "(قياس ١/ ٥٠٠٠٠٠، مجلة الجمعية الجغرافية، برلين، الجزء ١٨، اللوحة ١) وفيما يتعلق بالمواد المستعملة هناك والتي قمت بمقارنتها – قارن بالنص المرافق في المرجع نفسه – فهي على وجه الخصوص مسح هندسي يعتمد على علم المثلثات لجزء من بلاد ما بين النهرين: ١ – من الحلة حتى آثار نيفر مع ضفاف دجلة والفرات، أجراه العقيد كولينجوود في بلاد ما بين النهرين في خريف سنة ١٨٦١م وربيع سنة ١٨٦٢م. ٢ – من شريعة البيضاء حتى تل إبراهيم مع ضفاف دجلة والفرات، أجراها القائد زلبي والعقيد بيوشر تتابعا في بلاد ما بين النهرين ١٨٦٢ – ١٨٦٥ –قارن خريطة بيوشر أيضاً والدراسة الصادرة في مجلة الجمعية الجغرافية، الجزء ٣٧، ١٨٦٧م، ص ١٦٠ وما يليها- وعلى عكس ذلك تم رسم المنطقة الواقعة غرب الفرات من حلّة حتى حدود الصحراء، التي لم يتمكن كيبرت من رسمها في ذلك العهد إلا اعتماداً على المواد التي قدمها الأستاذ هوفمان، واعتماداً على أخبار بيترمان، ١٨٦٢م، اللوحة ١٦ – وهي نسخة من الأصل الإنجليزي تم الاستيلاء عليها من العقيد يوليوس إضافة إلى أنها تحتوي على نواقص عديدة- تم رسم المنطقة المذكورة آنفاً اعتماداً على الخريطة الإجمالية الرسمية لهذه الرسوم (مسح بابل القديمة والآثار المحيطة بها...، جمعها تريلاوني ساوندرز، لندن ١٨٨٥م، سلم ١/ ١٤٤٠٠٠، اللوحة ٦) في الموضع الذي تنتهي فيه بابل في الشمال عند كيبرت بطرق دجونز تنضم بداية من تكريت في اتجاه الشمال إلى "نهر دجلة من نينوى إلى قلعة شرقات ومن قلعة شرقات إلى سامراء، مسحها المتأخر جيمس كلاوديوس ريتش" في الصفحة السادسة من مجموعة خرائطه، نشرها تشيسني وصحح الأسماء الواردة فيها وأكملها ماكس فون أوبنهايم، ورغم أن ريتش كان على درجة عالية من دقة الملاحظة فإن الرسم الدقيق لنهر أثناء القيام برحلة عليه –تمت الرحلة في الفترة من ٣ إلى ١٢

مارس ١٨٢١م– يعتبر مهمة تتجاوز قدرة رجل مفرد، ولذلك ينبغي القول: إن رسم هذا الجزء من النهر على درجة أدنى من الجودة؛ لذلك فقد تم تفضيل خريطة كيبرت "حقول آثار البلاد الآشورية" بداية من مصب نهر الزاب الكبير حتى الموصل بعد تقليصها وفقاً للرسوم التي تعتمد على علم المثلثات، والتي أعدها الضابط فيليكس دجونز والطبيب هايسلوب في ربيع سنة ١٨٥٢م بتكليف من الحكومة الهندية، قياس ١/٠٠٠ ٢٠٠ "مجلة الجمعية الجغرافية، برلين ١٨٥٦م، الجزء الأول، اللوحة ٥"، وتختلف هذه الخريطة اختلافاً كبيراً عما ورد عند ريتش الذي يحتاج رسمه لنهر دجلة في المنطقة بين خط عرض ٣٤ و ٣٦ درجة حاجة ملحة للمراجعة، أما ما تحتويه خريطة جول أوبرت للمناطق المحيطة بنينوى من "الملاحظات الشخصية " الواردة في مجموعة الخرائط التابعة لكتاب "بعثة علمية في بلاد ما بين النهرين"، فإني لم أتمكن من الاطلاع عليها، وهي تعتمد كلياً على دجونز . وهكذا تنتهي سلسلة هذه الإنجازات الإنجليزية الرائعة التي تمت في الفترة من ١٨٢١ إلى ١٨٦٥م.

تمثل رسوم السكك حديدة التي أعدها شيرنيك عملاً واسعاً ومترابطاً آخر – سبق أن تحدثنا فيه آنفاً– وهي تتعلق بالمسافة الواقعة بين أورفة وديار بكر –خط مزدوج وثلاثي في بعض المواقع– وماردين وفيشخابور والموصل وبغداد، وبالإضافة إلى خرائط شيرنيط التي تم نشرها في النشرات التكميلية رقم ٤٤ و ٤٥ المتعلقة بأخبار بيترمان توجد لدي رسوم بعض الأجزاء المفردة من مشروع سكك الحديد هذا، والتي أخذها هاينريش كيبرت مباشرة عن خرائط مصغرة لبريسل، بالإضافة إلى ذلك لدي نسخ مصغرة عن المواد التي أعدها شوت، والتي ذكرناها سابقاً. وأخيراً لدي رسوم حديثة نسبياً أوعزت بإعدادها إدارة خط سكك حديد الأناضول –صغرها هاينريش كيبرت– وتتعلق تماماً بمسافات شيرنيك نفسها وتتطابق معه في كثير من المواقع كما تتطابق معه في الأسماء في كثير من الأحيان أيضاً، وتختلف معه في الارتفاعات والمواضع .

لا أدري أي علاقة تربط بين هذه الرسوم وبين شيرنيك، إلا أنه من الثابت أن هناك علاقة وهي علاقة متينة على وجه التحديد، إلا أن هذه المواد الأربع المختلفة التي تعود على الأرجح إلى الرسم نفسه، فإنها لا تتطابق مع بعضها في كثير من الأحيان إلا قليلاً، وقد سبق لبلانكنهورن أن نبه –في المرجع المذكور، ص١٠٠– إلى أنه يوجد تضارب مستمر في الأرقام نفسها الواردة في خرائط شيرنيك ونص شفايجر – ليرشنفلد المرفق بها. ورغم ذلك فقد

سجلت على خريطتي كامل الخط الذي تم استكشافه من ديار بكر حتى بغداد اعتماداً على مواد إدارة خط سكك حديد الأناضول، لكن مع الاحتفاظ بمواضع النقاط الأساسية التي ظلت معتمدة إلى اليوم كما وردت في تطابق واسع النطاق في خرائط والدي "أراضي دجلة والفرات ١٨٥٤م، الخريطة المتعلقة برحلة زاخاو سنة ١٨٨٣م، الأقاليم الآسيوية ١٨٨٤م" والتي لا ينصح بانتقادها حتى تتوفر قياسات فلكية دقيقة يتم إعدادها بعناية كبيرة –وأعتقد أن ذلك سوف يستغرق فترة طويلة من الزمن– هذه النقاط هي ديار بكر وماردين ونصيبين والجزيرة وفيشخابور وزاخو ودولاب والموصل وأربيل وآلتين كوبري وكركوك وطوز خورماتلي والمنصورية وبغداد، والتحديد المعتمد هنا هو تحديد دجونز: خط عرض ٤٤ درجة و٢٥ دقيقة شمال، و٣٣ درجة و٢٠ دقيقة شرق غرينيتش.

ودون الدخول في التفاصيل أريد أن أشير إلى الأسس في تحديد المواضع الواردة أعلاه هي الآتية : خطوط العرض التي حددها كارستن نيبور "يوميات رحلة إلى البلاد العربية وبلدان مجاورة أخرى، الجزء الثاني، في مواضع مختلفة بداية من الصفحة ٢٤٢، وكذلك على الجدول ٤٠ و٤١ و ٤٥" بعض خطوط عرض ريتش "يوميات إقامة في كردستان، الجزء الأول، ص ١٠ والجزء الثاني ص ٢٦٧ و٣٤٨– ولكن خاصة عند فيليكس دجونز، اللوحة ١ ن، الجدول الذي يحتوي على نتائج عمليات الحساب الفلكي على الطريق العام بين بغداد والموصل "مجلة الجمعية الملكية الآسيوية، الجزء ١٥، ١٨٥٥ن، ص ٣٧٥ وما يليها" وإذا لم يسجل المرء النقاط المذكورة أعلاه وإنما يرسم خط سكك حديد الأناضول بطريقة آلية في جزء بين ديار بكر أو ماردين والموصل، و بين الموصل وبغداد فإنه يجد أن دولاب تقع في موضع أبعد بمقدار ١٢ – ١٣ ثانية وأربيل بمقدار ١٦ ثانية باتجاه الشمال، ولذلك فإن هذه المواد الصادرة عن خط سكك الحديد صالحة في الأساس للاستعمال فيما يتعلق بالتفاصيل، ولا يمكن استعمالها لرسم وتحديد النقاط الأساسية على الخرائط.

بعد ذلك تم إدراج الطرقات الأخرى ضمن الإطار الذي تم الحصول عليه بهذه الطريقة (١)، ومثال ذلك الزاوية العليا على الشمال مع ديار بكر اعتماداً على خريطة هاينريش كيبرت " طرق الدكتور بوخشتاين مع سستر بين دجلة والفرات ١٨٨٢م، قياس ١/٠٠٠ ٣٠٠ " (الخريطة

---

(١) فيما يلي استعرض بداية من الشمال الغربي المسطحات المفردة من الغرب إلى الشرق ومن الشمال إلى الجنوب الواحد تلو الآخر، إلى الحد الذي يسمح به تداخل الطرق.

الثالثة عند هومان وبوخشتاين، رحلات في آسيا الصغرى وشمال سوريا ، برلين ١٨٩٠م)، ثم يأتي خط سكك الحديد المباشر من أورفة إلى ماردين اعتماداً على مواد شوت –انظر ما سبق– وطرق هاوسكنيشت من الطرف الغربي باتجاه الشرق حتى الموصل (طرق الأستاذ هاوسكنيشت في الشرق ١٨٦٥م إلى ١٨٦٩م، حررها هاينريش كيبرت، برلين ١٨٨٢م، الصفحة الثانية) التي تمثل إلى اليوم المصدر الوحيد لبعض المناطق مثل أعالي الخابور والمسافة بين أعالي الخابور وسلسلة جبال سنجار. وتكمل في مواضع أخرى بشكل مثالي الطرق الأخرى بفضل عدد كبير من الأسماء وتفوق بعضها في الدقة (انظر ما يلي أيضاً) .

أعتبر طرقات تايلور ١٨٦٦ – ٦٧ غرب خط ديار بكر – ماردين، ومن ماردين إلى رأس العين ذات قيمة قليلة "مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، الجزء ٣٨، ص ٢٨١ وما يليها مع خريطة"، غير أنه يمكن إكمال الخريطة السيئة جداً اعتماداً على النص ، ولا يجوز استعمالها إلا اضطراراً لملء الفراغ بما يتيسر .

لقد عبّر عدد كبير من الرحالة – أذكر منهم سبعة عشر على الأقل – المنطقة الجبلية الواقعة بين دجلة وخط ديار بكر – ماردين وسهول بلاد ما بين النهرين، طور عابدين، إلا أن رسومهم لا تكفي للقول: إنه تم استكشاف المنطقة كاملة وخاصة النصف الجنوبي منها، وأنها أصبحت معروفة تماماً، فقد تم رسم مجرى دجلة من ديار بكر إلى دسنة اعتماداً على فون مولتكه (في خريطة هاينريش كيبرت لآسيا الصغرى ١٨٤٤م)، ومن هناك إلى تيل عند مصب بهتان سو اعتماداً على " خريطة آسيا الصغرى " كثيرة الأوراق (المكتب الحربي ١٨٨٣م – ٩٠، قياس ١/٣٣٠٠٠٠)، التي تذكر في ذلك الموضع طريقاً على طول الضفة ، ولكن من تيل حتى فيشخابور وبعد ذلك حتى الموصل اعتماداً في معظم الأحيان، أعني بذلك كلما تسنى له السير حذوه، على رسوم الكابتن ماونسيل "المخطوط، ويوجد تصغير منه في المجلة الجغرافية، فبراير ١٨٩٤م".

الحدود الغربية والجنوبية للمنطقة نجدها في طريق إدارة خط سكك حديد الأناضول ، التي تتطابق هنا مع خريطة شيرنيك الأقدم عهداً تطابقاً تاماً ما عدا بعض الأسماء القليلة "أخبار بيترمان النشرة التكميلية ٤٥ اللوحة الثانية"، ويبدو أن أفضل مواد متوفرة لتغطية المنطقة الموصوفة بهذه الطريقة توجد في "خريطة آسيا الصغرى" التي سبق ذكرها في شكل بعض

الطرق المحددة عن طريق المسح المرفق، وعن طريق الارتفاعات المذكورة والتي سلكها رحالة غير معروفين، وتوجد كذلك في خريطة مخطوطة لا تحمل للأسف إلا قليلاً من إشارات المسح لطور عابدين رسمها المبشر أندروس المقيم في ماردين، والتي توجد نسخة مصغرة مختصرة منها وأحياناً وموسعة أحياناً أخرى تحتوي على أسماء تتغير كتابتها في كثير من الأحيان تم نشرها في كتاب أوزوالد باري "ستة أشهر في دسر سوري، لندن ١٨٩٥م"، وكان ذلك تحت عنوان: " جبل طور في الركن الشمالي الشرقي من بلاد ما بين النهرين، قياسات أجراها الراهب أندروس التابع للبعثة الأمريكية في ماردين"، جميع التقارير والخرائط الأخرى قليلة أو منعدمة القيمة تماماً، وفيما يلي أذكرها حسب الترتيب الزمني :

١ – الكابتن ترويلي، استطلاعات عسكرية لخط ربط كبير بين حلب وطهران ١٨٠٨م، مخطوط في أرشيف وزارة الخارجية في باريس، ومنها طريق كرخ – أكتيب – شولي – عوينة – ماردين .

٢ – تقدم خريطة أروسميث السيئة أسماء أربعة مواضع فحسب لكنّير "رحلة عبر آسيا الصغرى وأرمينيا وكردستان، لندن ١٨١٨م" الذي جاء سنة ١٨١٤م قادماً من أرزروم وسيرت وعبر دجلة عند مصب باتمان سو، وتوجه إلى ماردين ، قارن في هذا السياق هاينريش كيبرت بـ "الرقم ٣، مذكرات حول رسم خريطة آسيا الصغرى، ص ١١١".

٣ – لا قيمة لخريطة باكينجهام "رحلات في بلاد ما بين النهرين، جزءان ، لندن ١٨٢٧م" ولكن يمكن أخذ بعض الأسماء من وصفه للرحلة من ماردين إلى ديار بكر والعودة منها سنة ١٨١٦م والاستفادة منها للخريطة (الجزء الأول، ص ٣٤٦ – ٤١٤).

٤ – لا فائدة البتة من طريق العقيد شيل "مجلة الجمعية الجغرافية الملكية العدد ٨ سنة ١٨٣٨م، ص ٧٩ إلى ٨٦"، ولا تقدم الخريطة المتعلقة بها أدنى تصور عن الموضع النسبي للمكان، ثم إن الأسماء مشوهة إلى درجة أن الشك ظل يخيم طويلاً وجودنا حيال موضع ميدو أو موضع مديات الذي يبعد عنه مسافة ٣٣ كيلومتراً، قارن فيما يتعلق بذلك برأي هاينريش كيبرت الوارد في مجلة الجمعية الألمانية الشرقية، الجزء ٣٥ ص ٢٤٠.

٥ – ظلت الطريق التي سلكها بوفور سنة ١٨٤٠م مهملة وهي التي لم تنشر إلا في خريطة لابي لتركيا وآسيا الصغرى وبلاد فارس، باريس ١٨٤٢م، وأصبحت منذ ذلك العهد معروفة بشكل أفضل، وقد حصلت بعض الإضافات على يد:

٦ – بادجر "النسطوريون وشعائرهم، لندن ١٨٥٢م، الجزء الأول، ص ٥٢ وما يليها"، نص وخريطة، ولا تزيد الخريطة في الواقع على أن تكون مخططاً، إذ لم تؤخذ الدقة الطوبوغرافية بعين الاعتبار أبداً .

٧ – "الرحلة من الموصل .. لزاندرزكي، شتوتغارت ١٨٥٧م، الجزء الثالث، ص ٣٤٥ إلى ٣٦٧".

٨ – ليس لدي من بيترمان "رحلة في الشرق، الجزء الثاني، مع خريطة لهاينريش كيبرت، لاتيبتزيغ ١٨٦٠ و ١٨٦١م" إلا رسم يدوي لطريقه بين بيراجيك وجلاغا لهاينريش كيبرت، ولم أستطع أن آخذ عنها شيئاً نظراً لصغر قياس خريطتنا.

٩ – تُعدُّ الخريطة التابعة لتقرير رحلة تايلور سنة ١٨٦١ – ١٨٦٣م "مجلة الجمعية الجغرافية الملكية ١٨٦٥م، ص ٢١ إلى ٥٨" كثيرة النواقص قليلة الدقة غير أنها لم تعوَّض إلى اليوم، ولا تزال ضرورية للمنطقة الواقعة جنوب طور عابدين .

١٠ – تم إهمال السير جولدسميد، ١٨٦٤م "التلغراف والرحلات، لندن ١٨٧٤م" أيضاً بسبب تجاوز الزمن له، ويوجد بين يدي رسم يدوي أعده هاينريش كيبرت، قارن بـ "مجلة الجمعية الألمانية الشرقية، الجزء ٣٥، ص ٢٤٣ ".

١١ – لقد تجاوز الزمن اليوم خريطة هاينريش كيبرت المتعلقة بمقال الأستاذ سوسين ١٨٧٠م في مجلة الجمعية الألمانية الشرقية، الجزء ٣٥، تجاوزاً تاماً من الناحية الطوبوغرافية، إذ لا تزال تنقصها الدعامات الأساسية، كما أن المصادر المتوفرة في ذلك العهد كانت قليلة القيمة، ومع ذلك فقد أُخِذ عنها جزء من طريق سوسين وبعض المواد الأخرى حيث لا توجد مواد بديلة عنها .

١٢ – نستمد بعض الفائدة من طريق زاخاو إلى مديات الواردة في خريطة هاينريش كيبرت الثانية المتعلقة بكتابه "رحلته في سوريا وبلاد ما بين النهرين – برلين ١٨٨٢م"، في حين تتطابق طريقه على السفح الجنوبي للجبل تطابقاً كاملاً مع رسوم خط سكك الحديد.

١٣ – لا نستفيد شيئاً لخريطتنا من كتاب جاروفاليو الذي يحتوي على صور جميلة ويحمل العنوان "رحلة في سوريا الوسطى وبلاد ما بين النهرين –ميلان ١٨٩٦م– ولا شك أننا نجد في الخريطة رقم ٢ في "الاستكشافات الاقتصادية رقم ١٠، الجزء الرابع" بعض الأسماء الجديدة أيضاً، لكنها دون أراضٍ، ودون الدقة اللازمة لإدراجها في خريطة ذات مقياس كبير، وإجمالا يمكن الملاحظة أن خريطة ذات مقياس كبير لطور عابدين قد تشمل عدداً أكبر

من أسماء المواضع غير أنها لن تحتوي على عدد أكبر من الموجود في خرائطنا من التفاصيل الطوبوغرافية، أو البيانات المتعلقة بالأرض أو الأنهار أو غير ذلك.

جاء تسجيل خط رحلة ماكس فون أوبنهايم بعد ذلك في المنطقة بين الدير على نهر الفرات وسوأر –عند أسفل الخابور– وبين نصيبين، وهي الطريق التي يتخذ فيها التقاء الخابور مع الجغجغ وتل كوكب موقعاً أبعد باتجاه الشمال مما ظل عليه إلى اليوم في خرائط هاينريش كيبرت "أراضي دجلة والفرات ١٨٥٤م، هاوسكنيشت، زاخاو"، وأعتقد أن هذا الموقع الجنوبي الذي ظل معروفاً إلى اليوم يعود إلى الخريطة السيئة لطريق فوربس بعد سلسلة جبال سنجار "مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، العدد ٩، ص ٤٠٩ وما يليها" ورحلة لايارد التي تبعتها إلى أواسط الخابور "قارن هاينريش كيبرت في أراضي دجلة والفرات، الصفحة الأولى"، إلا أن الخرائط المعنية الواردة في كتابي لايارد " نينوى وبقاياها –لندن ١٨٤٩م" و "اكتشافات في آثار نينوى وبابل" – لندن ١٨٥٣م والتي لا تمثل في ذاتها إنجازاً كبيراً، لا تبلغ في اتجاه الغرب إلا مدينة سنجار، والمعلومات الطوبوغرافية الواردة في النص أهزل من أن تكون مصدراً لصورة جيدة يمكن الاعتماد عليها، في مقابل ذلك أثبتت صيغة جديدة لرحلة فوربس التي سبق ذكرها من الموصل عبر سلسلة جبال سنجار إلى نصيبين أنها قابلة للتنفيذ، وأوضح إدراجها بين نقطتي الأطراف أنه يمكن جداً تطابق وضع تل كباب في مكان أبعد باتجاه الشمال مع قول لايارد: إن المسافة من الخابور – عند تل تنينير– حتى بحيرة خاتونية تبلغ ست ساعات على ظهور الخيل "اكتشافات ص ٣٢٤" وهكذا فقد تم تحديد خط ثابت نسبياً أمكن الربط بينه وبين طريق هاوسكنيشت بين سنجار ورأس العين(١) وطريق زاخاو بين مصب الخابور وسنجار وربطه كذلك في المنطقة بين سنجار والموصل بمعلومات زاخاو وهاوسكنيشت وبالمعلومات الواردة في رحلتَي لايارد.

أما الطريق المستقيمة التي استعملها الكثيرون بين نصيبين وأزناور وبين الموصل فإنه يجدر الرجوع إلى المعلومات الواردة عند نيبور خاصة "وصف رحلة إلى البلاد العربية، الجزء الثاني، كوبنهاجن ١٧٧٨م، ص ٣٧٦ وما يليها"، وآينزوورث "مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، العدد ١٠، ص ٥٢٦ وما يليها" وفون مولتكه "خريطة هاينريش فون كيبرت لآسيا الصغرى ١٨٨٤م"

(١) لابد أن هاوسمان وقع في شيء من الالتباس بخصوص أسماء الأنهار بين جبل سنجار ونصيبين، ذلك أن نيبور وخريطة دجلة والفرات وفون أوبنهايم يذكرون التسلسل التالي لهذه الأسماء من الشرق إلى الغرب: قطراني، جرّاحي، صبلاخ، زوبلاك، في حين نجد عند هاوسكنيشت التسلسل التالي: جرّاحي، قطراني، صبلاخ.

و " خريطة آسيا الصغرى " التي سبق ذكرها مراراً، وقد سلك ماكس فون أوبنهايم طريقاً جديدة تماماً على هذه المسافة، حيث توجه في البداية جنوباً إلى مخيم الشيخ فارس، ثم سلك طريقاً أقرب إلى نهر دجلة من الرحالة الذين سبقوه، وهكذا تسنى له إثراء الخريطة بعدد من الإضافات والأسماء الجديدة ، وقد رسم نهر دجلة من فيشخابور إلى الموصل، كما سبق أن ذكرنا، اعتماداً على الخريطة التي أعدها ماونسيل يدوياً سنة ١٨٩٢م، وقد رسم هذا الضابط الإنجليزي هذه المسافة على غرار القائد فون مولتكه من قبله، وهو مسافر على النهر في العبّارة المصنوعة من القرب المنفوخة "كلك"، الأمر الذي لا يمكن أن يأتي بنتيجة يعتمد عليها، وإذا منت قد أدرجت الرسوم الإنجليزية الجديدة في خريطتي فإن ذلك لم يكن إلا لأنها تستند إلى بعض التحديدات لخطوط العرض، وتحتوي على عدد كثير من أسماء القرى الجديدة التي لم يتسنّ تسجيلها عند إعداد رسوم مولتكه، ولقد احتفظت بخط العرض الذي يسنده ماونسل لكفر زمار ٣٦ درجة و ٥١ دقيقة، حاوي زمار عند فون أوبنهايم؛ لأنها تبدو لي مناسبة تماماً بعد مقارنتها بخرائط أقدم عهداً، وعلى خلاف ذلك أعتقد أن خط عرض جسار "يسار" الذي يؤثر بدوره على موقع اسكي موصل، أعتقد أنه يقع على مسافة أبعد باتجاه الجنوب بمقدار ٧ دقائق و ١١ ثانية؛ ولذلك فإني لم أعتمدها، بل وضعت اسكي موصل تقريباً على خط عرض ٣٦ درجة و٣٦ دقيقة اعتماداً على الرحلات البرية التي قام بها نيبور وغيره، وهكذا يصبح مجرى دجلة عند ماونسيل مشابهاً لما ورد عند فون مولتكه في هذا الموضع، أما إذا صح خط عرض جسر عند ماونسيل وابتعاده عن اسكي موصل مسافة بين ٦ و ٧ ثوان في اتجاه الجنوب؛ فإن رسم مجرى دجلة عند فون مولتكه بين فيشخابور والموصل يصبح خطأً تماماً.

وعلى بعض المسافة باتجاه الجنوب تقع الحضر "حترا القديمة" التي تمت زيارتها مراراً وتكراراً والتي تمثل نقطة مهمة زارها الدكتور روس مرتين سنة ١٨٣٦- ١٨٣٧م "مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، العدد التاسع، ص ٤٤٣ إلى ٤٧٠" إلا أنه لم يتسن إلا رسم رحلة الذهاب الأولى؛ وبذلك تم اكتساب فكرة تقريبية عن موضعها، أما الطرق الثلاثة المختلفة الأخرى فإن المعلومات هزيلة وكثيرة النواقص، ولهذا السبب نفسه لا يمكن القيام إلا بتسجيل تقريبي على الخريطة لرحلة آينزوورث التي قام بها سنة ١٨٤٠م إلى الحضر "مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، العدد ١١، ص ١ إلى ٢٠، قارن أيضاً بكتابه: رحلات وبحوث في آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين وكلديا وأرمينيا، الجزء الثاني، ص ١٤٧ إلى ١٧٨".

بعد ذلك تسنّى رسم طريق السيدة أن بلانت بين الحضر ودير على نهر الفرات التي سلكتها سنة ٧٧ / ١٨٧٨م اعتماداً على الخريطة الخام الواردة في كتابها " قبائل بدوية عند نهر الفرات "لندن ١٨٧٩م، الجزء الثاني وعلى النص، وتتمثل المعلومة المهمة (الجزء ١ ص ٣٤٠) لتحديدها للموضع في أنها عبرت الخابور عند تل الفدغمي- تل فدغام عندنا- أما رحلتها الثانية سنة ١٨٧٩ "الجغرافيا الملكية، ١٨٨٠م"، ثم إن كتاب " الحج إلى نجد ، لندن ١٨٨١م لا يفيد خريطتنا في شيء .

شرق دجلة تم الاعتماد في رسم مجرى الزاب الصغير بداية من ألتينكوبري على خريطة الكابتن ماونسل "كردستان ١٨٩٢ المجلة الجغرافية ١٨٩٤م، فبراير"، الذي سافر على النهر، وأخذت الطرق بين دجلة والفرات، أي طرقات فيتسجيمس وطريق عودة بعثة تشيسني عن اللوحات ٥ و٧ من مجموعة خرائط تشيسني، أما طريق كارستن نيبور سنة ١٧٦٥م شمال بغداد عبر غرفة لا بد أن هاوسكنيشت وقع في شيء من الالتباس بخصوص أسماء الأنهار بين جبل سنجار ونصيبين، ذلك أن نيبور وخريطة أراضي دجلة والفرات، وفون أوبنهايم يذكرون التسلسل التالي لهذه الأسماء من الشرق إلى الغرب: قطراني، جرّاحي، صبلاخ، زوبلاك، في حين نجد عند هاوسكنيشت التسلسل التالي: جرّاحي، قطراني، صبلاخ – انظر كتابه رحلة في البلاد العربية، الجزء الثاني، اللوحة ٤١ و٤٥- فلم يسلكها من جديد إلا الأستاذ بيترمان سنة ١٨٥٥م ورسمها شيرنيك سنة ١٨٧٢م.

أما الطرق الصحراوية جنوب وجنوب غربي الفرات فإنها تمثل الجزء الأخير من العمل، وقد اعتمدت فيها على طريق هوبر من بغداد إلى دمشق –انظر الخريطة في مجلة الجمعية الجغرافية، باريس، الثلاثية الثالثة ١٨٨٤م- التي رسمها بين هيت وقصر السيجل(١)؛ كذلك اعتمدت عليه في رسم جزء من الطريق جنوب كربلاء، إلى ذلك ضممت: ١- رحلة عودة تشيسني سنة ١٨٣٧م من البصرة إلى تدمر اعتماداً على "خريطة البلاد العربية وسوريا عند بلايت" – في بعثة تشيسني إلى دجلة والفرات، لندن ١٨٥٠م الجزء الأول والخريطة رقم ١، وكذلك في كتابه " يوميات بعثة إلى الفرات، لندن ١٨٦٨م". ٢ – طريق السيد فون تيلمان من كربلاء إلى تدمر في ديسمبر ١٨٧٢م "مجلة المعية الجغرافية، برلين، العدد ١٧، اللوحة ٨" على الأقل فيما يتعلق بالمسافة بين كربلاء ووادي حوران، بعد ذلك يبدو أن هذه الطريق تتطابق تقريباً مع طريق هوبر وتشيسني، بالإضافة إلى ذلك كان الاعتماد في رسم بعض الطرق الصحراوية على خريطة

(١) [المترجم: لعله قصر الصقيل الذي تقدم ذكره في الصفحة ٤٤٠، والبدو يلفظون القاف جيماً ومصرية فكتبت الكلمة بالجيم].

أراضي دجلة والفرات لهاينريش كيبرت وطريق أوليفيي التي ليس لها أي قيمة على الطرف الغربي من رسم "خريطة سوريا وبلاد ما بين النهرين وجزء من بلاد فارس، التي أعاد تصميمها أوليفيي اعتماداً على ملاحظاته الشخصية وعلى ملاحظات نيبور، فايمار ١٨٠٥م".

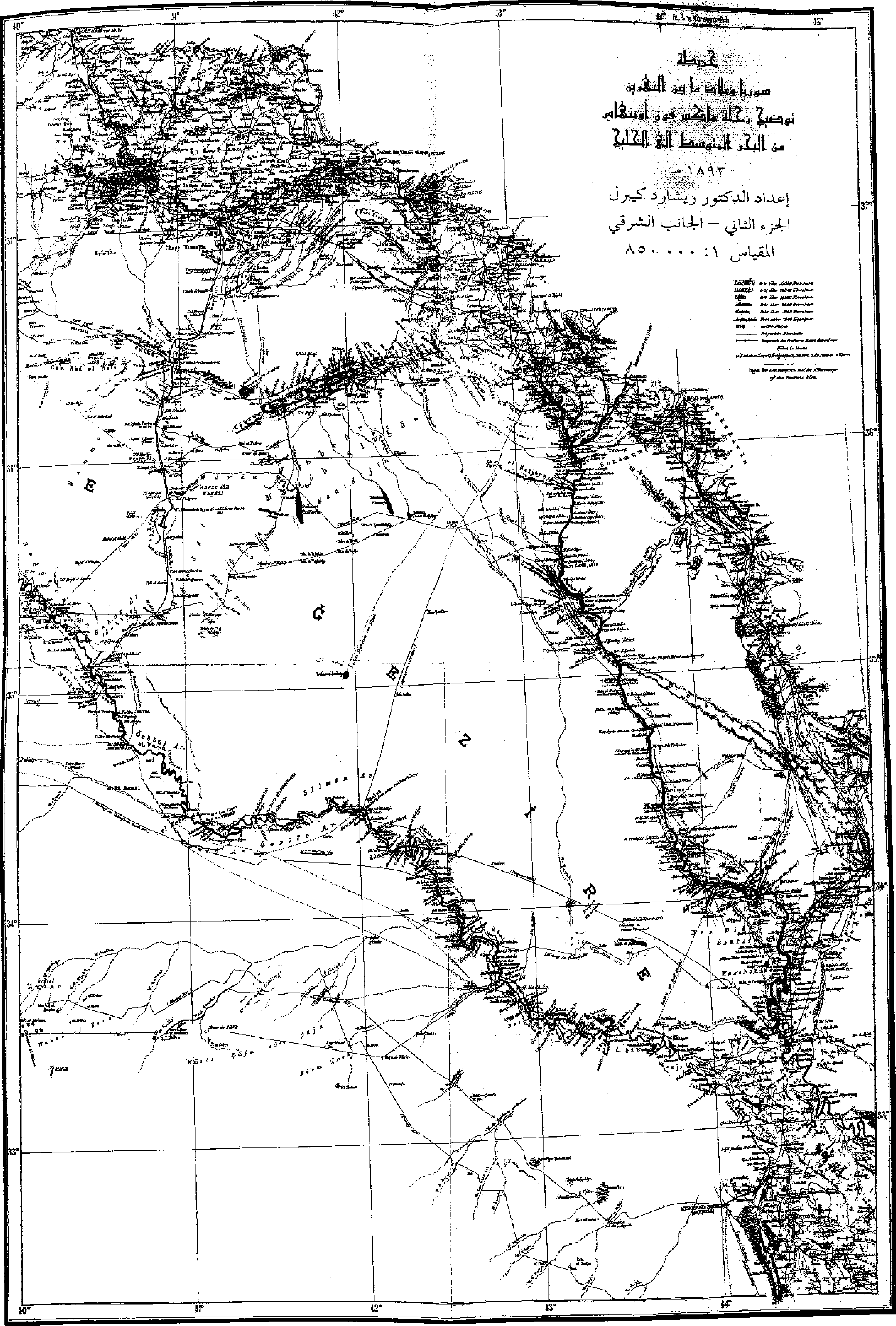
قياسات الارتفاعات:

إذا كانت خريطة المنطقة الواسعة المسجلة على رسومنا تتكون من أجزاء مختلفة تمام الاختلاف من رسوم دقيقة وقياسات قليلة القيمة للأنهار، وخطوط سكك الحديد، ورسوم استكشاف واستطلاع، وخطوط بيانية تعود إلى تقارير واستطلاعات مبهمة غير واضحة المعالم فإننا نجد في مقابل ذلك تجانساً وتطابقاً أكبر فيما يتعلق بالارتفاعات، إذ يبدو أنها جميعها عديمة القيمة؛ ولذلك فقد وضعناها كافة بين أقواس إشارة إلى أنها ليست محل ثقة كبيرة، وإذا ظل ذوو الجهالة يعلنون على الدوام أنه تم استكشاف سطح الكرة الأرضية كاملاً أو يكاد؛ فإنني أشير هنا إلى منطقة تكاد مساحتها تبلغ ٣٠٠٠٠٠ كيلومتراً مربعاً لا يزال استكشافها في أطواره البدائية الأولى، وليس الوضع أفضل من ذلك فيما يتعلق بأجزاء عديدة أخرى من الكرة الأرضية أكبر من ذلك بكثير، ولا توجد قياسات للارتفاعات غير التي أعدها الدكتور بوخشتاين في "خريطة آسيا الصغرى"، ورسوم خط سكك الحديد التي لم تنشر في معظمها، وبعض مواد موانسيل، ولا نعرف إلا عن بوخشتاين أنه استعمل جهاز بارومتر من نوع خاص "هولوستيريك" –انظر هومان وبوخشتاين، رحلات في آسيا الصغرى وشمال سوريا، ص ١٠٣ و١٠٥، ملاحظات– ولا نعلم شيئاً عن الطريقة والكيفية التي تم بها إجراء القياسات الأخرى، إلا أننا لن نقع في خطأ إذا اعتبرنا أنها تعود هي الأخرى إلى قراءات جهاز بارومتر ضغط الهواء، أما كون هذه القياسات لا فائدة منها إذا لم تصاحبها في الوقت نفسه تحديدات متكررة لنقطة الغليان، فذلك أمر لا يداخله أي شك على الإطلاق، فأجهزة بارومتر ضغط الهواء تغير بسبب الارتجاج والصدمات التي لا يمكن تجنبها عند التنقل، تغيّر تصحيحها للقراءة بطريقة لا يمكن التحكم فيها؛ لذلك نجد أن الارتفاعات التي قاسها شيرنيك – والتي تختلف زيادة على ذلك الخريطة والنص التي نشرت منها عن بعضها بعضاً– لا تتطابق مع ما هو مسجل في خرائط إدارة خط سكك حديد الأناضول؛ كما لا تتطابق هذه الأخيرة بدورها مع الواردة في "خريطة آسيا الصغرى"، فإذا صحّت القياسات الأخيرة فإن القياسات الأولى تكون متدنية والعكس بالعكس.

ونود ضرب بعض الأمثلة لتوضيح هذه الاختلافات الكبيرة : ديار بكر، شيرنيك لا٦٢٦ متراً، رسوم بريسل وهاينريش كيبرت، شمال سوريا، ٦٦٠ متراً، سكك حديد الأناضول ٧٣٠ متراً ، ماردين، المدينة: سكك حديد الأناضول ٨٣٠ متراً –أولى أن يكون ذلك ٩٣٠ متراً– مواد شوت ٩٣٠ متراً، شيرنيك ١٠٥٧ متراً، خريطة آسيا الصغرى ١٠٧٣ متراً، نصيبين: خريطة آسيا الصغرى ٣٦٦ متراً، شيرنيك ٤١٠ متراً، سكك حديد الأناضول ٥٠٢ متراً، فيشخابور: شيرنيك ٢٧٥ متراً، ماونسيل ٣٣٥ متراً، سكك حديد الأناضول ٣٦٠ متراً، الموصل: شيرنيك قرابة ٢٤٠ متراً، سكك حديد الأناضول ٢٥٠ متراً – وكذلك في كتاب : أقاليم آسيوية– ماونسيل ٢٧٤ متراً ، بغداد: سكك حديد الأناضول قرابة ٤٨ متراً، شيرنيك ٥٠ متراً، ونرى مثلاً أن شيرنيك يسند القيم الدنيا لديار بكر ونصيبين وفيشخابور والموصل، والقيمة العليا لماردين، وتسند خريطة سكك حديد الأناضول القيم العليا لديار بكر ونصيبين وفيشخابور، والقيمة الدنيا لماردين، وتسند خريطة آسيا الصغرى القيمة العليا لماردين والدنيا لنصيبين، وباختصار نستطيع أن نقول: إنه لا يوجد أي تجانس في أي نقطة من النقاط المذكورة، فيا حبذا لو اهتدى أي شخص في المستقبل إلى أخذ جهاز ترموتر غليان إلى تلك المناطق !

ولا يفوتني في الختام أن أتوجه بأسمى عبارات الشكر والتقدير إلى الأستاذ الدكتور مارتين هارتمان على الجهود المضنية التي بذلها على مدى الفترة الطويلة من العمل المشترك معي لتصحيح المئات بل الآلاف من الأسماء العربية والتركية والكردية الواردة في الخريطتين اللتين أعددناهما، وعلى التصميمات الكبيرة اللازمة لذلك.

كذلك قام الأستاذ الدكتور موريتز مشكوراً بتصحيح عدد كبير من الأسماء الواردة في الخرائط، غير أنه علي أن أتوجه بشكر أكبر إلى والدي الذي استطاع خلال حياته الطويلة أن يجمع كثيراً من المواد المخطوطة الصالحة لإعداد الخرائط – مثلما سبق أن ذكرت – والذي وضعها تحت تصرفي لما منعته الظروف من استعمالها بنفسه، ولا ريب أن خريطة سوريا وبلاد ما بين النهرين كانت تحتوي على ثغرات أكبر بكثير لولا هذه المواد التي حصلت عليها منه.


خريطة
سوريا وبلاد ما بين النهرين
توضح رحلة ماكس فون أوبنهايم
من البحر المتوسط إلى الخليج
١٨٩٣م
إعداد الدكتور ريشارد كيبرل
الجزء الثاني – الجانب الشرقي
المقياس ١: ٨٥٠٠٠٠

ماكس فون أوبنهايم

ولد ماكس فون أوبنهايم يوم ١٥ يوليو من سنة ١٨٦٠م في مدينة كولونيا في عائلة من رجال الأعمال المصرفية، وبعد دراسة الحقوق في شتراسبورغ وبرلين، وأداء الخدمة العسكرية أنهى كتابة رسالة الدكتوراة سنة ١٨٨٣م قبل اجتياز الامتحان الختامي في الحقوق الذي يخوّل له دخول العمل الوظيفي في مملكة بروسيا، وعندما زار تونس والجزائر والمغرب سنة ١٨٨٦م تعرّف لأول مرة على نمط الحياة وأساليب العيش في البلاد العربية، وتملكه شغف شديد بالإسلام، فأصبحت هذه الرحلة جزءا من تمهيداته لبعثة كان يرجو وينوي القيام بها عبر الصحراء الكبرى إلى الكاميرون؛ لذلك التمس الإجازة من وظيفته في الخدمة المدنية البروسية.

واستقر سنة ١٨٩٢م في قلب الجزء القديم من مدينة القاهرة، وعاش مدة سبعة أشهر مثل أي واحد من جيرانه تماما، وتدرّب على استعمال وإتقان اللغة العربية التي ابتدأ في دراستها منذ كان في جامعة برلين، وفقد والده الأمل في جعله خليفة له في مجال الأعمال المصرفية، ووافق لاحقا على تمويل بعثات ابنه إلى بلاد المشرق.

خرج ماكس فون أوبنهايم سنة ١٨٩٣م في رحلته الشخصية الأولى التي بدأها من بيروت؛ فزار دمشق وتدمر، ودير الزور ونصيبين، والموصل قبل أن يبلغ بغداد، وقد سجّل في هذا الجزء من كتابه وصفا لبقية الرحلة التي أخذته من بغداد عبر الخليج العربي مرورا بالبصرة وبوشهر ولنجة وبندر عباس ومسقط وعدن، حتى بلغ الساحل الشرقي للقارة الإفريقية.

وقد تم نشر هذا الكتاب سنة ١٨٩٩/ ١٩٠٠م بعدما أضاف ماكس فون أوبنهايم إلى يومياته المتناهية في الدقة ثمار بحوث الأكاديمية حول الأماكن التي زارها خلال رحلته، وقد أصبح ماكس فون أوبنهايم بهذا الكتاب مرجعا وسلطة في البلاد الألمانية فيما يتعلق بالشرق الأوسط المعاصر، وتولى ماكس فون أوبنهايم في فترة لاحقة وظيفة في السلك الدبلوماسي، غير أن علم الآثار شغفه حبا فقضى فصول الشتاء على مدى سنوات عديدة في ربوع الجزيرة من سورية لإجراء الحفريات فيها حتى وافته المنية في إقليم بافاريا سنة ١٩٤٦م.



ديوان رئيس الدولة

مركز الوثائق والبحوث